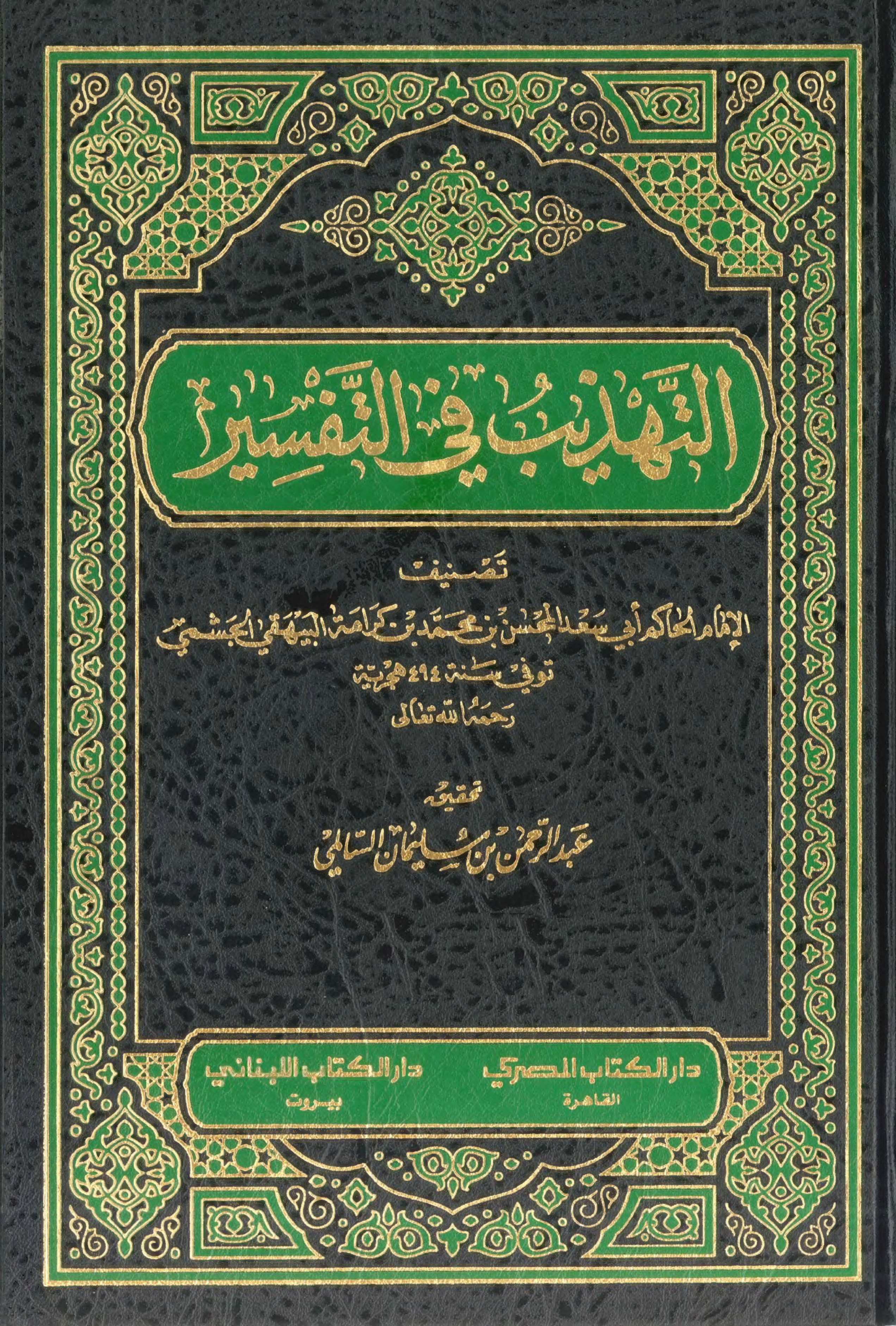

التهذيب في التفسير
تصنيف
الإمام الحاكم أبي سعد المحسن بن محمد بن كرامة البيهقي الجشمي
توفي سنة ٤٩٤ هجرية
رحمه الله تعالى
تحقيق
عبد الرحمن بن سليمان السالمي
دار الكتاب المصري
القاهرة
دار الكتاب اللبناني
بيروت


التهذيب في التفسير

التهذيب في التفسير

تصنيف

الإمام الحاكم أبي سعد المحسن بن محمد بن كرامة البيهقي الجشمي

توفي سنة ٤٩٤ هجرية

رحمه الله تعالى

تحقيق

عبد الرحمن بن سليمان السالمي

الجزء الخامس

سورة التوبة - سورة إبراهيم

دار الكتاب المصري
القاهرة

دار الكتاب اللبناني
بيروت

تابع سورة التوبة

قوله تعالى:

﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾ كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾﴾

اللغة

القبض: خلاف البسط، وهو مصدر قبضت قبضًا، ومَقْبِضُ السيف: حيث يقبض عليه بكسر الباء وفتحها، وقُبِضَ: مات، والقبص بالصاد غير معجمة: تناول بأطراف الأصابع، وبالضاد معجمةً: تناول الكف، ويقال للبخل: قبض[1] اليد، وجعد الكف؛ لأن المعطي يبسط يده، فقيل لمن بخل: قبض توسعًا.

(١) قبض: قض ، ض.

والنسيان: خلاف الذكر، والنِّسْيُ: ما سقط من منازل المرتحلين من رذال أمتعتهم، كأنهم نسوها، والنسيان: الترك، والجمع أنساء، والإنسان نسيان.

والحسب: الكفاية[1]، وشيء حِسَابٌ أي: كَافٍ، وأحسبته: أعطيته ما يرضيه، كأنه يكفيه ذلك.

اللعن: الإبعاد من الخير، ورجل ملعون.

۞ الإعراب

(من) حرف يستعمل في أشياء: تكون لابتداء الغاية، كقولهم: جئت من البصرة إلى الكوفة، ويكون للتبعيض، كقولهم: باب من حديد.

والكاف في قوله: «**كالذين**» كاف التشبيه للمنافقين[2] في عدولهم عن[3] أمره[4]، واستمتاعهم بلذات الدنيا، ومآل أمرهم بالعقاب بمن[5] كان من قبلهم، والألف في قوله: «**ألم يأتهم**» ألف استفهام، والمراد التقرير والتنبيه، وإنما يحسن في ألف الاستفهام أن يخرج إلى معنى التقرير؛ لأن الاحتجاج بما تقرر به أبلغ «**كالذين من قبلهم**» قيل: فيه إضمار وحذف؛ أي: كالخوض الذي خاضوا «**قوم نوح**» خفض لأنه بدل من (الذين)، وفعله خفض لأنه مضاف إليه.

۞ المعنى

ثم ذكر أحوال المنافقين فقال سبحانه: «**الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ**» في الاجتماع على النفاق، وترك نصرة الرسول كما يقال: أنت مني وأنا منك، وقيل: بعضهم من بعض في لحوق[6] مقت الله بهم جميعًا، عن أبي مسلم. وقيل: في

---

(١) الكفاية: الكتابة، أ.
(٢) للمنافقين: المنافقين، أ.
(٣) عن: من، أ.
(٤) أمره: أمر، أ.
(٥) بمن: لمن، ض.
(٦) لحوق: الخوف؛ أ، د، ض. وما أثبتناه من: تفسير مجمع البيان، للطبرسي: ٥/ ٧٢.

التظافر والتعاون «**يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ**» قيل: يأمرون بالكفر والمعاصي، وسمي منكرًا؛ لأن العقل والشرع ينكره، وقيل: بترك الجهاد وطاعة الرسول «**وَيَنْهَوْنَ**» يمنعون «**عَنِ الْمَعْرُوفِ**» وقيل: عن الإسلام، عن الأصم. وقيل: عن الطاعات؛ لأن العقل يعترف [به] ويحسنه «**وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ**» قيل: يمسكونها، وقيل: عن الإنفاق في سبيل الله، عن الحسن، ومجاهد، والأصم، وأبي مسلم. وهو الزكوات والصدقات، وقيل: عن كل خير، عن قتادة. وقيل: عن الجهاد مع النبي ﷺ، عن أبي علي. «**نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ**» قيل: تركوا طاعته فتركهم في النار، وترك رحمتهم وإثابتهم، عن الأصم. وقيل: جعلوا الله[1] كالمنسي حيث لم يتفكروا أن لهم صانعًا يثيبهم ويعاقبهم ليمنعهم ذلك عن الكفر والأفعال القبيحة فجعلهم في حكم المنسي من الثواب، وقيل: نسوا الله فجازاهم على نسيانهم بالعقاب «**إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ**» الخارجون عن طاعة الله وإخلاص الدين، وقيل: إنهم مع نفاقهم متمردون على الفسق لا يبَالون[2] بما صنعوا «**وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ**» وإنما فصل النفاق عن[3] الكفر وإن كان النفاق كفرًا ليبين الوعيد لكل[4] واحد من الصنفين «**خَالِدِينَ فِيهَا**» دائمين فيها «**هِيَ حَسْبُهُمْ**» كافيتهم[5] عقوبة وجزاء على كفرهم، وقيل: هي جزاؤهم على أعمالهم، عن الأصم. «**وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ**» أي: أبعدهم[6] الله من رحمته «**وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ**» أي: دائم «**كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ**» قيل: معناه: فعلهم كفعل الذين من قبلهم، وقيل: لعنهم [من] الله وعذابهم كلعن أولئك وعذابهم، وقيل: وعدهم بالعقاب كوعد الذين من قبلهم كفار الأمم الخالية «**كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً**» قيل: بطشًا ومنعة[7] «**وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلادًا فَاسْتَمْتَعُوا**» انتفعوا «**بِخَلاقِهِمْ**» بنصيبهم من الدنيا ورضوا به من الآخرة واستمتاعهم بها[8] صرفهم إياها في شهواتهم المحرمة، عن أبي علي. وقيل:

---

(١) الله: إليه، ض.
(٢) لا يبالون: لا ينالون، أ، د، ض.
(٣) عن: من، ض.
(٤) لكل: على كل، أ.
(٥) كافيتهم: كافيهم، أ.
(٦) أبعدهم: يعدهم، ض.
(٧) ومنعة: معنا، ض؛ منعا، أ.
(٨) بها: بما؛ أ، د، ض.

«بخلاقهم»: بنصيبهم من الدين، قال ابن عباس: بدينهم، يعني: استوفوا أجرحسناتهم، وقيل: حظهم[1] من قِبَلِهِمْ[2]، عن الحسن فسلكتم أيها المنافقون سبيلهم «فَاسْتَمْتَعْتُمْ» انتفعتم «بِخَلاقِكُمْ» بنصيبكم من الدنيا ونعيم الآخرة بها «كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا» دخلتم في الكفر والباطل والكذب على الله وتكذيب رسله والاستهزاء بدينه كما خاض أولئك، وقيل: خضتم في عمران الدنيا الشاغلة أهلها عن[3] أمر دينهم، عن أبي مسلم. «أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ» أي: بطول ثواب أعمالهم، وقيل: بطلت أعمالهم «فِي الدُّنْيَا»، «وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ» قيل: خسروا أنفسهم بأن أوردوها النار، وقيل: خسروا الجنة، عن الأصم.

ثم بَيَّنَ تعالى تفصيل حال من قبلهم، فقال سبحانه: «أَلَمْ يَأْتِهِمْ» يعني المنافقين والكافرين «نَبَأُ الَّذِينَ» أي: خبر الذين «مِنْ قَبْلِهِمْ» من الأمم حين عصوا الله ورسوله وخالفوا أمره حتى أهلكهم الله تعالى وهم «قَوْمِ نُوحٍ» أهلكوا بالطوفان «وَعَادٍ» قوم هود أهلكوا بالريح الصرصر «وَثَمُودَ» أهلكوا بالرجفة «وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ» بسلب النعمة وهلاك نمرود «وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ» قوم شعيب أهلكوا بعذاب يوم الظلة، ومدين اسم البلدة التي فيها قوم شعيب، وقيل: مدين بن إبراهيم، اسم له فنسبت البلدة إليه «وَالْمُؤْتَفِكَاتِ» المتقلبات، وهم قوم لوط، عن الحسن، وقتادة وغيرهم، وقال تعالى:[4] ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾﴾ [النجم:٥٣] وههنا: «والمؤتفكات» قيل: جمعت؛ لأنها كقربات وحرمات، فجمعت تارة، وجاءت على طريق الجنس تارة «أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ» بالحجج، وفي الكلام حذف وهو: فكذبوهم وعصوا الله كما فعلتم، فأهلكهم الله، فاحذروا مثل حالهم «فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ» ابتداء العقوبة، ولكن عاقبهم باستحقاق «وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ» حيث عصوا الله، فاستحقوا العقاب.

---

(١) حظهم: يحظهم، د.
(٢) من قبلهم: عن فيهم، ض.
(٣) عن: من، ض.
(٤) وقال تعالى: وقولهم، ض.

۞ الأحكام

تدل الآية على أن الاشتراك في الكفر والنفاق لا يقتضي الموالاة، فلذلك فصل بين وصفهم وبين وصف المؤمنين بأن بعضهم أولياء بعض؛ وذلك لأن الاشتراك في الكفر لا ينعقد به ذلك بالإسلام.

وتدل على أن وعيد الكفار والمنافقين دائم.

وتدل على أن الانتفاع بالدنيا والنعيم بلذاتها لا ينفع إذا كان عاقبتها العقاب الدائم.

وتدل على أن المنافق بمنزلة الكافر، فلذلك عطف بعضهم على بعض، وإن كان المنافق كافرًا لكنه مختص بأحكام، فلذلك فصل.

وتدل على أنه منزه عن الظلم، وإنما أهلك الأمم باستحقاقهم لكفرهم.

وتدل على أن ما فعلوا فِعْلُهُمْ، لا خلق الله فيهم؛ إذ لو خلق ذلك فيهم ثم عاقبهم لكان ظلمًا.

ومتى قيل: كيف ذَكَّرَهُمْ بالقرون وهلاكهم مع إنكارهم إياه؟

قلنا: كان ذلك مشهورًا فيما بينهم، عن أبي مسلم.

وقيل: شاهدوا البعض وسمعوا البعض.

﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾﴾

۞ اللغة

الموالاة: التناصر[1]، وأصله من الوَلْيِ، وهو القرب، كأنه يليه بالنصرة، والمؤمن ولي الله؛ لنصرته إياه.

والوعد: الخبر بوقوع الخير، وقلَّ [أن] يستعمل في الشر.

والوعيد: الخبر بوقوع العذاب، يقال: وعده بالشر وعيدًا، ووعده بالخير وعدًا.

والمسكن: الموضع الذي يسكن فيه، أخذ من السكون ضد الحركة، كأنه يسكن فيه.

العَدْنُ: الإقامة، عَدَنَ بالمكان أقام به، يعدن عدونًا.

والرضوان: مصدر الرضا، رَضِيَ يرضى رضًا ورضوانًا.

والجهاد: مراس الأمر الشاق، وأصله من الجهد، والمجاهدة «مفاعلة» منه.

والغلظة: هي نقيض الرقة، وهو قوة القلب إلى إحلال الألم بصاحبه.

والمأوى: ما يأوي إليه، أي: يرجع إليه.

۞ الإعراب

«**رضوان**» رفع بالابتداء، وخبره «**أكبر**»، وتقديره: ورضا الله عنهم أكبر من ذلك كله.

۞ المعنى

لما تقدم ذكر المنافقين وخصالهم عقبه بذكر المؤمنين وخصالهم وما أعد لهم، فاتصل بما قبله اتصال النقيض بالنقيض، فقال سبحانه: «**وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ**» في النصرة والموالاة في الدين، قيل: بعضهم أولياء بعض في الدين، وهو الإسلام الذي يجمعهم، وقيل: بعضهم يوالي بعضًا بمعنى المحبة والمودة

---

(١) التناصر: التناظر، ض.

«يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ» قيل: الإيمان والطاعات «وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ» عن الكفر والمعاصي؛ لأن العقل والشرع ينكره، وقيل: المعروف الإيمان، والمنكر الشرك، عن أبي العالية، والأصم، بخلاف ما يفعله المنافقون «وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ» أي: يؤدون الصلاة المفروضة التي لا يأتيها المنافقون إلا رياء «وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ» أي يعطونها إذا بخل بها المنافق «وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ» فيما يأمر وينهى، بخلاف المنافق «أُولَئِكَ» يعني: من[1] تقدم وصفهم «سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ» يوم القيامة بأن يدخلهم الجنة، ويثيبهم فيها إذا عذب المنافق في النار «إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ» قادر على الرحمة والعذاب «حَكِيمٌ» يضع كل واحد موضعه.

ثم فسر الرحمة فقال سبحانه: «وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ» بساتين «تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا» أي: من تحت أشجارها وأبنيتها «الْأَنْهَارُ» يعني الماء في الأنهار «خَالِدِينَ فِيهَا» دائمين فيها «وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً» تجمع أنواع الزينة والمشتهيات، وقيل: قصر في الجنة من لؤلؤ فيه سبعون دارًا من ياقوتة حمراء، في كل دار سبعون فراشًا من كل لون، على كل فراش زوجة من الحور العين، في كل بيت مائدة، على كل مائدة سبعون لونًا من الطعام، في كل بيت وصيفة، عن الحسن، وأبي هريرة، وعمران بنحصين، ورووه مرفوعًا. «فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ» في بساتين خلد وإقامة، قيل: دار الله التي لم ترها عين ولم تخطر على قلب بشر، لا يسكنها غير ثلاثة: النبيون، والشهداء، والصديقون. وروي مرفوعًا. وقيل: وسط الجنة، عن ابن مسعود. وقيل: قصر من ذهب، عن الحسن. وقيل: مدينة الجنة في[2] الجنة[3]، عن[4] عطاء الخراساني، وقيل: نهر في الجنة، عن عطاء بن السائب. وقيل: أعلى درجة في الجنة، والجنان حولها، عن الكلبي. «وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ» يعني رضا أعظم وأكبر من جميع ذلك، وقد كثر مما وصفت من نعيم الجنة، وقيل: «أَكْبَرُ» مما آتاهم الله في الدنيا من النعيم والنصرة، وقيل: أكبر من أعمالهم وما يستحقون عليها، وروى أبو سعيد الخدري عن

(١) من: ما، أ، د، ض.
(٢) في: عن، أ.
(٣) الجنة: أ، د، ض.
(٤) عن: وعن، أ.

رسول الله ﷺ: «أن الله تعالى يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك وسعديك، فيقول: هل رضيتم، فيقولون: وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدًا من خلقك، فيقول: أنا أعطيكم أفضل من ذلك، رضواني، فلا أسخط عليكم أبدًا»(١)، «ذَلِكَ» أي: ما تقدم ذكره «هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ» الظفر بالنعمة، وإدراك كل منية، ولا نعمة أعظم منه.

ويقال: لم(٢) كرر ذكر(٣) الجنات؟

قلنا: قيل: تأكيدًا، وقيل: جنة للتنزه، وجنة للمسكن.

ثم أمر تعالى بجهادهم فقال سبحانه: «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ» قيل: خطاب للرسول، والمراد به الأمة، وهو من الخاص الذي أريد به العام «جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ» قيل: جهادهم بيده، فمن لم يستطع فبلسانه وقلبه، فإن لم يستطع فليكفهر في وجهه، عن ابن مسعود. وقيل: جهاد الكفار بالسيف، وجهاد المنافقين باللسان وترك الرفق، عن ابن عباس. وقيل: جهاد الكفار بالسيف، وجهاد المنافقين بإقامة الحدود، عن الحسن، وقتادة. وكانوا أكثر من يصيب الحدود، وقيل: جاهدوا المنافقين بتغليظ الكلام، عن الضحاك، وابن جريج.

ومتى قيل: كيف نعلم المنافق؟

فجوابنا: قيل: بخبر الله تعالى، وقيل: بالأمارات، وإذا تيقن وظنهم(٤) منافقين، فيجب جهادهم بالقول والدعاء.

«وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ» قيل: الغلظة سوء عشرتهم وتمييزهم من المخلصين، وقيل: إظهار سرائرهم، وقيل: زيادة وعظ باللسان وتهديد «عَلَيْهِمْ» قيل: على المنافقين، وقيل: على جميع الكفار، والغلظة ترك الرفق والجهاد بما أمكن، وفي ذلك لطف لهم ليرتدعوا، ولطف للمؤمنين «وَبِئْسَ الْمَصِيرُ» أي: المرجع، وهو عذاب النار.

---

(١) البخاري رقم ٦١٨٣، ومسلم رقم ٢٨٢٩.

(٢) لم: + ، د.

(٣) ذكر: ذلك، أ.

(٤) وظنهم: أو ظنهم، أ، د، ض.

۞ الأحكام

تدل الآية على وجوب الموالاة بسبب الإيمان؛ لأنه جعل الإيمان كالعلة في ذلك، فيدل على أن ما توجبه المشاركة في الدين من الحرمة أعظم مما يوجب النسب والقرابة.

وتدل على وجوب نصرة المؤمنين بعضهم لبعض.

وتدل على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ووجوب الصلاة والزكاة، فلذلك علق الرحمة بجميع ذلك.

وتدل على أن الرحمة تنال بمجموع ذلك، خلاف قول المرجئة.

وتدل على أن[١] جميع ذلك فعلهم لذلك استحقوا المدح فيصحح ذلك قولنا في المخلوق.

وتدل على أنه تعالى مع ما أعطاهم من النعم يظهر رضاه لهم تعظيمًا لهم وزيادة في إكرامهم.

ويدل[٢] قوله: «جَاهِدِ» على وجوب الجهاد بالسيف واللسان، لأن المنافق ما لم يتيقن نفاقه يجاهد باللسان[٣]، فتدل من هذا الوجه أن[٤] الجهاد في الدين بالبيان والوعظ، وإيراد الحجج، وحل الشبه كالجهاد بالسيف وربما يكون أعظم، وذلك بحسب الحال والحاجة.

وتدل على وجوب الغلظة على الكفار أجمعين[٥]، ويمنع من استعمال الرفق واللين بهم، ويظهر في هذه الآيات، ونظيره قوله تعالى: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

---

(١) أن: + ، د.
(٢) وتدل على أن: ويدل على، ض.
(٣) لأن المنافق لم يتيقن نفاقة يجاهد باللسان: +، و.
(٤) أن: أن هذا، ض.
(٥) أجمعين: أجمع، أ.

﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٧٤)﴾

اللغة

الهم: ما هممت به من الأمور، وهو مقاربة الفعل، وهَمَّ به همًا، ومنه: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ﴾ [يوسف: ٢٤].

والنَّيْلُ: ما لَحِقَهُ من معروف إنسان[١]، يقال: نال ما اشتهى وتمنى؛ أي: أدركه.

والنقمة: العقاب، ونقم الأمر، ونقم ـ بكسر القاف وفتحها ـ: أنكر. والنصير[٢] والناصر: المعين.

الإعراب

«إلا أن أغناهم الله» ليس باستثناء حقيقي، واختلفوا في تقدير الكلام، قيل: إنهم عملوا بضد الواجب، فجعلوه موضع شكر النعمة أن يعموه، قال الشاعر:

مَا نَقِمُوا مِنْ[٣] بَنِي أَمَيَّةَ إلاَّ ... أَنَّهُمْ يَحْلُمُونَ[٤] إن غَضِبُوا[٥]

وقيل: إنهم بطروا بالنعمة، فنقموا: بطروا وأشروا، وقيل: «إلا»[٦] [بمعنى] «لكن»[٧].

---

(١) ما لحقه من معروف إنسان لحقوق الأمر بإحساسه، أ.
(٢) أنكر. والنصير: أنكروا النصير، ض.
(٣) من: في، ض.
(٤) يحلمون: يحملون، أ.
(٥) اللسان (نقم)، وتهذيب اللغة (نقم).
(٦) إلا: + ، من ض.
(٧) لكن: كن، ض.

۞ النزول

قيل: كان رسول الله ﷺ قاعدًا في ظل شجرة فقال: «سيأتيكم إنسان فينظر إليكم - يعني شيطان - فإذا جاء فلا تكلموه» فطلع رجل أزرق، فدعاه رسول الله ﷺ فقال: «علام تسبني أنت وأصحابك»، فانطلق فجاء بأصحابه، فحلفوا بالله ما قالوه، فأنزل الله تعالى هذه الآية، عن ابن عباس.

وقيل: [لما] خرج رسول الله ﷺ إلى غزوة تبوك كان المنافقون يجتمعون ويسبون النبي ﷺ، فدعاهم، وقال: «ما هذا الذي بلغنى عنكم؟» فحلفوا ما قالوا شيئًا، فنزلت الآية تكذيبًا[1] لهم، عن الضحاك.

وقيل: نزلت في الجلاس بن سويد، وذلك أن رسول الله ﷺ خطب بتبوك، وذكر المنافقين وعابهم وسماهم رجسًا، فقال الجلاس: إن كان محمد صادقًا فيما يقول لنحن شر من الحمير، فسمعه عامر بنقيس، فأخبر به النبي ﷺ عند منصرفه إلى المدينة، فدعاه وذكر له ذلك، فحلف ما قال، وحلف عامر أنه قال، ثم دعا عامر عند المنبر قال: اللهم بيّن الصادق منا، وأمّن المؤمنون، فنزل جبريل بالآية قبل أن يتفرقوا، فلما بلغ قوله: «**فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ**» قال الجلاس: يا رسول الله، صدق عامر، وأنا أستغفر الله وأتوب إليه، وتاب وحسنت توبته، عن عروة، ومجاهد، ومحمد بن إسحاق الكلبي.

وقيل: نزلت في عبد الله بن أبي سلول حين قال: لئن رجعن إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، فأخبر زيد بن أرقم بذلك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فحلف ما قال ذلك، فنزلت الآية، عن قتادة.

وقيل: نزلت فيه حين اقتتل جهني وغفاري، وكانت جهينة[2] حلفاء الأنصار، فظهر الغفاري على الجهني، فنادى عبد الله بنأبي: يا بني الأوس، انظروا أخاكم، فوالله ما مثلنا ومثل محمد إلا كما قيل: سَمِّنْ كَلْبَ كَيْ أَكَلُكَ. فأخبرب ذلك رسول الله ﷺ، فحلف ما قال، فنزلت الآية، عن قتادة أيضًا.

---

(١) تكذيبا: إكذابا، أ.

(٢) جهينة: جهنة، أ.

وقيل: بل نزلت في جماعة من المنافقين قالوا: لئن رجعنا إلى المدينة، ثم حلفوا ما قالوا، عن الحسن.

وقيل: نزلت في غزوة تبوك لما اجتمع المنافقون على قتله ﷺ و[معه] عمار وحذيفة وأمر الناس أن يأخذوا بطن الوادي، فتخلف جماعة من المنافقين وهموا بقتله، فعلم بذلك رسول الله ﷺ، وأمر حذيفة بضرب رواحلهم حتى انصرفوا، فلما أصبح أمر حذيفة أن يدعوهم، فقال: إني لا أعرفهم، فقال: «أنا أعرفهم، أطلعني الله عليهم، ثم قال: ادع فلانًا وفلانًا» حتى سماهم بآبائهم ودعاهم، فأعلمهم بما قالوا، فحلفوا ما قالوا، فنزلت الآية، عن الكلبي.

وقيل: كانوا خمسة عشر رجلا، تاب ثلاثة، ومات اثنا عشر.

وقيل: بل كانوا اثني عشر رجلاً.

وقيل: كان رأسُهم أبا[1] عامر الذي بنى مسجدًا ضرارًا.

وقيل: عبد الله بن أبيّ، وعبدالله بن سعيد بن أبي السرح[2] القرشي، وطعيمة بن أبيرق، والحلاس بن سويد، ومجمع بن جارية، وأبو عامر بن النعمان، ويسمى الراهب[3]، وأبو الأحوص وغيرهم.

وقيل في قوله: «وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا»: هم قريش هموا بقتل النبي ﷺ، فمنعه الله تعالى، وعصمه.

وقيل: هو رجل منهم يقال له الأسود، عن ابن عباس.

۞ المعنى

ثم بَيَّنَ من سرائر القوم مضافًا إلى ما يحكى عنهم، فقال سبحانه: «يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا» يعني: حلفوا كذبًا[4] ما قالوا ما حكي عنهم، ثم حقق عليهم[5] ذلك، فقال سبحانه:

---

(١) أبا: أبو، ض.
(٢) السرح: سرح، د.
(٣) الراهب: الذاهب، ض.
(٤) كذبا: كاذبا، أ.
(٥) عليهم: عنهم، ض.

«يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا» يعني: حلفوا «وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ» يعني: الطعن في الدين والنبي وتكذيبه، قيل: هو الحلاس، عن مجاهد. وقيل: عبد الله بن أبي، عن قتادة. وقيل: جماعة من المنافقين، عن الحسن. «وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ» أي: من بعد إظهارهم الإسلام، وقيل: ظهر كفرهم بعد أن كان باطنًا «وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا» لم يدركوا ذلك، قيل: هو هَمُّ المنافقين بقتل النبي ﷺ ليلة العقبة، عن الكلبي. وقيل: هو المنافق الذي هم بقتله، وقال: إن كان ما يقوله محمد صدقًا فنحن شر من الحمير كيلا يفشيه عليه، عن مجاهد. وقيل: هموا بإخراج الرسول من المدينة، عن قتادة، والسدي. وقيل: هم قريش بقتله، عن ابن عباس. وقيل: هموا بإبطال دينه. وقيل: هموا بالفساد والتضريب عن أصحابه منعًا من نصرته ولم ينالوه، عن أبي علي. «وَمَا نَقَمُوا» أي: ما أنكروا ولا رأوا سوءًا «إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ» ليس معهم معنى ينقمونه على رسوله ﷺ وينكرونه عليه «إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ» قيل: النبي ﷺ جعلهم[1] كالمسلمين في الغنائم والأموال فاستغنوا، وكان ذلك بأمر الله، وقيل: كان لعبد الله بنأبي ديةاستخرجهارسولالله ﷺ، وقيل: أغناهم بالرسول فكان يجب أن يشكروه، فنقموه، وقيل: كثرت أموالهم بسبب رسول الله ﷺ بعدما كانوا في ضنك وعسرة، عن الكلبي، وأبي علي. وقيل: قتل مولى الحلاس بن سويد فأمر رسول الله ﷺ بديته له فاستغنى «مِنْ فَضْلِهِ» أي: من رحمته، ولم يقل[2]: من فضلهما؟ قيل: لأنه لا يجمع بين اسم الله واسم غيره في الكناية تعظيمًا له، وقيل: لأن فضل الله منه، وفضل رسول الله من فضل الله ومن أمره.

ثم استعطفهم فقال سبحانه: «فَإِنْ يَتُوبُوا» يعني إن تركوا النفاق وأخلصوا «يَكُ» توبتهم «خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا» يعرضوا عن النبي، وقيل: عن الإخلاص، وقيل: عن الإيمان «يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا» وجيعًا «فِي الدُّنْيَا» قيل: بالقتل والأسر والخزي، وقيل: عند الناس، وقيل: في القبر «وَالآخِرَةِ» أي: يعذبهم في الآخرة بالنار «وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ» يلي أمرهم ويدفع عنهم ما نزل بهم «وَلا نَصِيرٍ» ينصرهم لينجوا مما [هم] فيه.

---

(١) جعلهم: جعلتم، أ.

(٢) يقل: قيل، ض.

۞ الأحكام

تدل الآية أن القوم طعنوا في الدين حال غيبتهم، وأن الطعن فيه كفر.

وتدل أن القوم لم يجدوا مغمزًا ولا مطعنًا إلا أن أغناهم الله من فضله.

وتدل على أن التوبة من الكفر مقبولة، ففيما دونه أولى، فكذلك[1] القتل.

وتدل على أن كل من تولى عن التوبة وطاعة الله ليس له إلا العذاب، وذلك ترغيب في الطاعة، وزجر عن المعصية.

وتدل على أن[2] أهل النار ليس لهم ناصر ولا شفيع.

وتدل على أن ذلك القول والحلف بعده[3] كذبًا وكفرهم كل ذلك فِعْلُهُمْ، وليس بخلق الله تعالى، فيبطل قول مخالفينا في المخلوق.

﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾﴾

۞ اللغة

العهد: الميثاق، وهو العقد الموكل باليمين، والعهد أيضًا الوصية، والعهد الضمان.

والبخل: منع النائل، وقد صار في الشرع اسمًا لمنع الواجب؛ لأن البخل صفة نقص.

---

(١) فكذلك: فلذلك، ض.

(٢) أن: + ، د.

(٣) بعده: يعده، أ.

العاقب والعَقُوبُ: الذي يخلف فيه من كان قبله في الجنس، وأصل الباب أن يجيء الشيء بعقب الشيء، والنبي ﷺ العاقب لأنه آخر الأنبياء، قال أبو عبيدة: يقال: عَقَب يَعْقِبُ عقوبًا وعَقْبًا: إذا جاء شيء بعد شيء، ومنه يقال للولد: عَقِبٌ، والتعقيب: أن يعمل عملاً، ثم يعود فيه، والمُعْقِبُ: نَجْمٌ يعقب نجمًا، أي يطلع بعده، وأعقبه الله خيرًا بما فعل، أي: صيّره إلى حال مخصوص في العاقبة، وأعقبه كذا إعقابًا، وعاقبت الرجل: من العقوبة؛ لأنه يكون بعد الجناية، وعاقبه، وأعقبه بمعنى، قال النابغة:

ومَنْ أطاع[1] فأَعْقِبْهُ بِطَاعَتِهِ ... كَمَا أطاعك وادْلُلْه على الرَّشَدِ

وفرس ذو عقب: إذا كان له جري بعد جري.

وأعقبه وأورثه إياه وأداه إليه من النظائر.

أخلفوا: الإخلاف[2]: أصله الخلاف، وهو الفعل[3]، بخلاف ما يقوم به العقد.

والسر: إخفاء المعنى في النفس، ونقيضه العلانية والجهر، أسره إسرارًا.

والنجوى: الكلام الخفي والسر بين اثنين، يقال: ناجيته وتناجوا وانتجوا، وفلان نَجِيُّ فلان، والجمع: أَنْجِيَةٌ، قال الشاعر:

إنِّي إذَا مَا الْقَوْمُ صَارُوا أَنْجِيَةْ[4]

وقيل: أصله النجوة، وهو البعد، كأن المتناجِيَيْنِ قد تباعدا من غيرهما، ومنه: ﴿خَلَصُواْ نَجِيًّا﴾ [يوسف: ٨٠] عن أبي مسلم. وقيل: النجوة: المكان المرتفع الذي لا يصل إليه السيل، ومنه: ﴿نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ [يونس: ٩٢] كأنهما[5] رفعا حديثهما حتى لا يصل إليه غيرهما.

وعلّام فيه مبالغة، ومعناه: عالم بالأشياء كلها.

---

(١) ومن أطاع: فمن أطاعك، أ: انظر: اللسان (عقب)، وتهذيب اللغة (عقب)، وتاج العروس (عقب).

(٢) أخلفوا الإخلاف: بخلاف ولا خلاف، أ.

(٣) الفعل: العقل، ض.

(٤) تمام البيت: واضطربت أَعْنَاقُهُمْ كالأَرْشِيَة. انظر: أساس البلاغة (نجو).

(٥) كأنهما: فكأنهما، ض.

والغيوب: جمع غيب، وهو ما غَيَّبَهُ صاحِبُهُ عن الناس، ويجوز أن يكون الغيب جمع غائب.

۞ الإعراب

اللام في قوله: «لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ» لام القسم، وكذلك في قوله: «لَنَصَّدَّقَنَّ» لأن الأُولى وقعت موقعه، ووقعت الثانية موقع الجواب، تقديره: علينا عهد الله لنصدقن إن آتانا الله من فضله، و«لنصدقن» أصله لنتصدقن، فأدغمت التاء في الصاد.

۞ النزول

قيل: نزلت الآية في ثعلبة بن حاطب، وكان من الأنصار، فقال للنبي ﷺ: ادع الله لي أن يرزقني مالاً، فقال: «يا ثعلبة، قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه، أمالك فِيَّ أسوة حسنة؟»، فأتى وعاوده مرارًا، وقال: إن رزقني الله مالاً لأعطين كل ذي حق حقه، فقال ﷺ: «اللهم ارزق ثعلبة مالاً» فاتخذ غنمًا فنتجت كالدود، فاشتغل بذلك عن الجماعة والجمعة، وبعث رسول الله ﷺ إليه المصدق ليأخذ الصدقة فأبى وبخل، قال رسول الله ﷺ: «يا ويحَ ثعلبة» فأنزل الله تعالى هذه الآية، وبلغ ذلك ثعلبة، فجاء بالصدقات إلى رسول الله ﷺ فلم يقبل منه، وتوفي رسول الله ﷺ، فجاء بالصدقات أبي بكر، فلم يقبل، وجاء إلى عمر فلم يقبل، وجاء إلى عثمان فلم يقبل، ومات في خلافة عثمان، عن أبي أمامة[1] الباهلي.

ومتى قيل: كيف لم يقبل صدقته مع أنه مكلف بالتصدق؟

قلنا: يحتمل أنه تعالى أمره بذلك كيلا يجترئ الناس [على] نقض العهد، وخلاف أمر الله، وردِّ ساعي رسول الله، ويكون لطفًا له في ترك البخل والنفاق، كما روي أنه لم يصلّ على رجل مات وعليه دين؛ حثًّا على قضاء الدين.

وقيل: إنه حمل الصدقة نفاقًا لا تقربًا، ولم يحملها للإخلاص، ولأن من شرط

(١) أمامة: خلافة، ض.

الصدقة أن تكون طهرةً، ولم يرد ثعلبة ذلك، فكان منافقًا، وإنما لم يقبل الخلفاء اقتداء برسول الله ﷺ، والأصل فيه أن الزكاة أمر شرعي، وأمور الشرع يجوز أن تختلف لاختلاف المصالح.

وقيل: إن ثعلبة أتى[1] مجلسًا فأشهدهم لئن آتاه الله من فضله آتيت منه كل ذي حق[2] حقه وتصدقت، فمات ابن عمله فورثه مالاً، فلم يف بما قال، فأنزل الله تعالى في هذه الآية، عن ابن عباس، وسعيد بن جبير، وقتادة.

وقيل: إن ثعلبة لما قال ذلك قتل مولًى لعمر رجلاً من المنافقين خطأ، وكان قريبًا لثعلبة، فدفع إليه ديته، فمنع حق الله، فنزلت الآية، عن مقاتل.

وقيل: نزلت في ثعلبة بن حاطب ومعتب بن قشير، عَهِدَ الئن آتانا الله من فضله لنصدقن، فلما رزقهما الله مالاً بخلا به، عن الحسن، ومجاهد.

وقيل: نزلت في رجال من المنافقين قالوا ذلك، منهم ثعلبة بن حاطب، وجد بن قيس وغيرهما، عن الضحاك.

وقيل: نزلت في حاطب بنأبي ثعلبة، كان له مال بالشام حلف بالله لئن آتانا الله من فضله ـ يعني: المال الذي بالشام ـ لأصدقن، فآتاه الله المال، فلم يفعل، فأنزل الله تعالى فيه هذه الآية، عن الكلبي.

المعنى

ثم بَيَّنَ تعالى تَرَدّي[3] هؤلاء المنافقين في المخازي، وأنهم كانوا نافقوا الرسول ونافقوا مع الله[4] جهلاً منهم، فقال سبحانه: «**وَمِنْهُمْ**» يعني من المنافقين «**مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ**» من نذر له وعاقده وحلف «**لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ**» أي: أعطانا من رحمته ورزقه «**لَنَصَّدَّقَنَّ**» أي: لنتصدقن على الفقراء ولنؤدي حق الله «**وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ**» أي:

(١) أتى: إن، ض.
(٢) حق: + ، د.
(٣) تردّي: تردد، أ، د، ض.
(٤) الله: + ، د.

نعمل عمل أهل الصلاح بأموالهم من أعمال البر وصلة الرحم، وقيل: لنكونن من المؤمنين في طلب الأجر، عن أبي علي. «**فَلَمَّا آتَاهُمْ**» أعطاهم «**مِنْ فَضْلِهِ**» قيل: التجارة، وقيل: الغنم نتجت أغنامه كالدود حتى ضاقت الأودية، وقيل: هو عام في المنافقين وما آتاهم من الغنائم ونحوها، عن أبي علي وقيل: هوما رزقهم[1] من الأموال والتوسعة، عن أبي مسلم. «**بَخِلُوا بِهِ**» قيل: منعوا حق الله ولم ينفقوه في شيء من البر، وقيل: لم يفوا بما نذروا «**وَتَوَلَّوْا**» أعرضوا عن الرسول والدين، وقيل: عن الوفاء بالعهد، عن الأصم. «**وَهُمْ مُعْرِضُونَ**» تأكيد لما تقدم «**فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا**» فيه قولان:

الأول: بخلهم بأداء الواجبات، وإعراضهم عن أمر الله أعقب نفاقًا في قلوبهم، عن الحسن، يعني: أدى إليها، كأنهم خلصوا عن النفاق بشيئين: البخل، والإعراض، كالأب يقول لابنه: أعقبك صحبة فلان ترك[2] التعليم، وهذا قول الأصم، وأبي علي، وأبي مسلم، قال أبو مسلم: يعني أعقبهم هذا الفعل حيث ثبتوا عليه، فصار إلفًا لهم وعادة، فشق مفارقته.

وقيل: لما تهاونوا بالوفاء بما عاهدوه، وبأمر الله أَدَّاهم ذلك إلى الشك في الدين، فصاروا منافقين، وأداهم إلى الثبات على النفاق، وهو معنى قوله: «**إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ**»، عن أبي علي.

وقيل: دعاهم البخل إلى أن كذبوا الرسول، وجحدوا؛ ليأمنوا مما كانوا يخافون من نكث العهد، ولم يكونوا منافقين فصاروا منافقين، عن الأصم.

الثاني: أعقب الله ذلك، ثم اختلفوا، فقيل: بحرمان التوبة كما حرم إبليس، عن مجاهد. ووجه هذا نصب الدليل على أنه لا يتوب أبدًا ذمًّا له وتهجينًا.

وقيل: جازاهم وعاقبهم على نفاقهم، وجزاء الشيء قد يسمى باسمه، كقوله: ﴿**سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ**﴾ [**الشورى: ٤٠**].

ومتى قيل: فما ذلك الجزاء؟

---

(١) رزقهم: رزقتم، أ.

(٢) ترك: برد، أ.

قلنا: ضيق الصدر، وترادف الأحزان، وإظهار الذم والاستخفاف، وظهور الفضائح، وما يرون من عز الإسلام وأهله، وذل[1] الكفر وخزيه.

«**إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ**» الضمير، قيل: يرجع إلى البخل والنفاق، يعني إلى يوم يلقون بخلهم ونفاقهم، وقيل: جزاء بخلهم، وقيل: عقوبة نفاقهم، وقيل: يلقون ما أعد لهم، عن أبي علي. وقيل: الضمير يرجع إلى اسم الله، يعني: يلقون الله، أي: يلقون جزاءه والقيامة وأهوالها، واليوم الذي فيه الحكم له تعالى دون غيره، ولا يحمل على الرؤية بالإجماع؛ لأنهم اتفقوا أن المنافق لا يرى الله فلا[2] تعلق للمشبهة بالآية «**بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ**».

«**أَلَمْ يَعْلَمُوا**» هذا استفهام، والمراد التقرير؛ أي: قد علموا، وقيل: معناه اعلموا «**أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ**» يعني ما يسار بعضهم بعضًا، وقيل: ما يخفي أحدهم «**وَنَجْوَاهُمْ**» قيل: ما يتناجون به من الطعن في الإسلام، وقيل: السر: ما يتفرد به، والنجوى: ما يكون بين اثنين «**وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ**» قيل: ما غاب عن الخلق، فلا يستتر[3] منه شيء، وقيل: يعلم سرائركم، فيجازيكم، و(علّام) مبالغة من العلم[4].

۞ الأحكام

تدل الآية على وجوب الوفاء بالنذر، وذم من لا يفي به.

ومتى قيل: كيف يصحعهدهم وهم كفار؟

قلنا: قيل: كانوا عالمين بالله تعالى، عن أبي علي، فلذلك قال: «**أَلَمْ يَعْلَمُوا**» قال الأصم: ولذلك قالوا: «**لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ**». وقيل: يهديهم، وإن لم يكونوا عارفين بالله، عن علي بن عيسى.

وتدل على قبح البخل، ومنع الواجب.

---

(١) وذل: وذلك، ض.

(٢) فلا: ولا؛ ض.

(٣) يستتر: تستتروا، ض.

(٤) العلم: العالم، أ، د، ض.

وتدل على أن ذلك أداهم إلى النفاق؛ لأن بعض المعاصي تدعو إلى بعض، فهم لما تهاونوا بأداء هذا الحق والعدول عن طريقة الصلاح دعاهم ذلك إلى النفاق، وكذلك[١] بعض الطاعات الواجبة وقد[٢] يكون داعيًا إلى بعض، وذلك على ترتيب الشرائع.

وتدل على أنهم لم يكونوا منافقين، ثم صاروا كذلك، وهو قول الأصم، فأما أبو علي، فيقول: أداهم ذلك إلى الثبات على النفاق إلى الممات.

وتدل على أن المنافق لا يبالي بما يأتي[٣] من الكذب والخيانة[٤].

وروي أن المنافق يعرف بثلاث: «إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان»، عن عبد الله بن عمر وغيره. وقيل: إن النبي ﷺ قال ذلك في قوم من المنافقين، ثم فسر لهم، عن عطاء بن أبي رباح.

وعن مقاتل قال: سألت عن[٥] الخبر[٦] شهر بن حوشب وسعيد بن جبير والحسن البصري، ففسرها الحسن، وذكر أنها في المنافقين.

﴿ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ أَوۡ لَا تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ إِن تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ سَبۡعِينَ مَرَّةٗ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾﴾

---

(١) وكذلك: لذلك، أ.
(٢) وقد: قد، د.
(٣) يأتي: يأثم، أ.
(٤) والخيانة: والجاه، ض.
(٥) عن: عنها، ض، د.
(٦) الخبر: الحبر، أ، د، ض.

۞ القراءة

قرأ يعقوب «يلمُزون» بضم الميم، والباقون من القراء بكسرها، وهما لغتان، وقد بَيَّنَّاهُمَا.

والقراءة الظاهرة «جُهدهم» بضم الجيم، وعن عطاء والأعرج بفتحها، وهما لغتان بمعنى جهد يجهد جَهدًا وجُهدًا، بالضم والفتح، وأصله الحمل على النفس بما يشق، ونظيره: الوَجد والوُجد، والضَّعف والضُّعف، وقيل: الضم لغة أهل الحجاز، والفتح لغة أهل نجد، وقيل: بينهما فرق، والجهد بالفتح في العمل، وبالضم في القوة، عن الشعبي، وقيل: الجهد بالضم الطاقة، وبالفتح المشقة، عن القتيبي، وقال ابن عرفة: الجهد بالضم الوسع والطاقة، وبالفتح المبالغة، ومنه: ﴿جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ [المائدة:٥٣] أي: بالغوا فيه.

۞ اللغة

اللمز: النسبة إلى النقص والعيب على جهة المساترة، يقال: لَمَزَةٌ وهَمَزَةٌ، وقدمنا ما قيل فيه.

والتطوع: التبرع بالشيء، والمُطَّوِّعَةُ: الذين يطوعون بالجهاد بتشديد الطاء والواو، والتطوع: كل فعل يستحق المدح بفعله، ولا يستحق الذم بتركه، ونظيره: النافلة والتفضل. والواجب: ما يستحق المدح بفعله والذم على تركه، والمطَّوِّع أصله «المتطوع» على زنة «متفعل»، أدغمت التاء في الطاء؛ لأنها من مخرجها، وهي أفضل منها بالاستعلاء والإطباق، ومنه قوله: ﴿ٱطَّيَّرْنَا﴾ [النمل:٤٧].

۞ الإعراب

يقال: ما موضع «الذين» من الإعراب؟

قلنا: فيه وجهان: قيل: كسر مبني على قوله: «**ومنهم من عاهد الله**» لأنه بدل منه، وقيل: رفع على الابتداء.

۞ النزول

قيل: نزلت في عبد الله بن عوف، وأبي عقيل، وعاصم بن عدي، وذلك أن رسول الله ﷺ حث على الصدقة، فجاء عبد الرحمن بأربعة آلاف[1] دينار، قال: هو نصف مالي، فقال ﷺ: «بارك الله لك فيما أعطيت وفيما أمسكت» فبارك الله في ماله حتى أنه خلف امرأتين وكان نصف الثمن مائة وستين ألف درهم، وجاء عاصم بمائة وسق من تمر، وجاء أبو عقيل بصاع، فقال المنافقون: ما عطاء عبد الرحمن وعاصم إلا رياء، وإن الله لغني عن صاع أبي عقيل، فأنزل الله فيهم هذه الآية.

وقيل: جاء أبو خيثمة بصاع، فسخروا منه.

وقيل: إنها نزلت في رجل يقال له جميل.

وقيل: نزلت في الأخنس بن شريق.

وقيل: إن قوله: «**استغفر لهم**» نزل في عبد الله بن أبيّ لما مات على النفاق، عن الأصم.

وقيل: إذا مات منهم ميت سألوا رسول الله ﷺ أن يستغفر لهم، ولم يكن يعرف نفاقهم، فيفعل، ثم تبين له نفاقهم، ونهي عن ذلك، عن أبي علي.

۞ المعنى

ثم أظهر تعالى من سرائرهم ومخازيهم خصالاً، فقال سبحانه: «**الَّذِينَ يَلْمِزُونَ**» أي: يعيبون وهم المنافقون يعيبون المؤمنين بنسبتهم إلى الرياء «**الْمُطَّوِّعِينَ**» المتبرعين بالصدقة، وقيل: هو الطيب نفسه بالصدقة، عن النضر بن شميل. «**مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ**» يعني يعيبون في صدقاتهم «**وَالَّذِينَ لا يَجِدُونَ**» أي: يعيبون الذين لا يجدون «**إِلاَّ جُهْدَهُمْ**» طاقتهم فيتصدقون بالقليل «**فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ**» قيل: لقلة صدقتهم، عن أبي علي. وقيل: يسخرون كيفي خرجون مالهم في ما لاينفعهم «**سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ**» قيل:

(١) آلاف: الف، أ.

جازاهم على سخريتهم، والجزاء على الشيء يسمى باسم ذلك الشيء، وقيل: لما كان وبال سخريتهم تعود عليهم سماه باسمه، وقيل: أمر الله نبيه أن يقبل معاذيرهم الكاذبة في الظاهر، ووبال[1] فعلهم عليهم كما هي، فكأنه سخر منهم، عن الأصم **«وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ»** وجيع **«اسْتَغْفِرْ لَهُمْ»** هذا أمر بالاستغفار، لكن ذكر أنه إن استغفر أو لم يستغفر لهم فهم سواء؛ لئلا يستغفر، وقيل: كانوا يطلبون منه الاستغفار عند موت واحد، وكذلك ما أتاه منهم وهو لا يعلم نفاقهم، فيفعل، فلما عرف حالهم كف، عن أبي علي. وقيل: كان يستغفر لهم لظاهر أحوالهم، وقيل: كان يدعو لهم بشرائط الحكمة رجاء أن يكون لطفًا لهم حتى آيسه الله تعالى فكف عنه، ومعنى **«استغفر»** اطلب المغفرة في الآية لأناس أن تنالهم المغفرة **«أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ»** أي: إن تركت استغفارهم **«إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً»** ذكر السبعين مبالغة، والعرب تبالغ بالسبع، والسبعين، وقيل: أراد عدد تكبيراته على حمزة (عليه السلام) **«فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ»** بين العلة التي لأجلها لا يغفر لهم وهو كفرهم بالله وبرسوله **«وَاللَّهُ لا يَهْدِي»** قيل: إلى ثوابه وجنته، عن أبي مسلم. وقيل: لم يكونوا مهتدين بالشرك يعني: لا يحكم لهم بالهداية ولا يسميهم بها، عن الأصم[2]. **«الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ»** قيل: الخارجين من الإيمان إلى الكفر، وقيل: الفاسقين مع كفرهم لإقدامهم على المعاصي.

۞ الأحكام

تدل الآية على أن بذل الجهد في الصدقة عظيم المنزلة.

وتدل على ذكر أحوال الفقراء مع قلة صدقتهم ولم يذكر[3] حال الأغنياء مع كثرة صدقتهم رحمة منه وفضلاً.

وتدل على أن وبال السخرية عائد على من سخر.

---

(١) الظاهر ووبال: الظاهرة ووبال، ض؛ الظاهر وينال، أ.

(٢) الأصم: الا، ض.

(٣) يذكر: يذمروا، ض.

وتدل على أن الاستغفار للغير: طلب المغفرة والشفاعة له.

وتدل على أن الكفار لا يغفر لهم البتة إذا ماتوا على الكفر، وكان يجوز عقلاً أن يغفر لهم، وأن يستغفر النبي لهم إلا أن الشرع ورد بأنه لا يغفر لهم[1] ألبتة، وأن عذابهم دائم.

ومتى قيل: ما الوجه فيما روي عن ابن عباس والحسن وقتادة والضحاك أن النبي ﷺ قال: «لأزيدَنَّ على السبعين» حتى نزل ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ أَسۡتَغۡفَرۡتَ لَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ﴾ [المنافقون: ٦].

قلنا: الآية[2] ليست للتخيير[3]، وإنما هو منع الاستغفار لأجل كفرهم، والتعليل يدل عليه؛ لأنه علل بالكفر، وذلك يستوفي السبعين وما زاد عليه، وإنما ذكر السبعين للمبالغة، وأيضًا فإنه لا يجوز أن يحلف ويقول: «والله لأزيدن»، ثم لا يفعل حتى ينزل القرآن؛ لأن فيه إيهام الكذب والتنفير، ولأنه لا يجوز أن يستغفر إلا بإذنه تعالى، ولا يجوز أن يأذن فيما لا يجيب، وفي[4] الإجابة غفران للكافر، وذلك فاسد بالإجماع؛ لأن دعاء الرسول لا يجوز أن يجاب في السبعين، ويجاب فيما زاد عليه، وبهذه الجملة يبطل تعلق الشافعية بالآية في مسألة دليل الخطاب، وإن صح عن النبي ﷺ ذلك فتأويله أن الأصل جواز طلب الغفران، فإذا منع قدرًا[5] فيهم بقيت الزيادة على الأصل.

[و]وجه آخر: أنه دعا بشرائط الحكمة؛ رجاء أن يكون لهم لطفًا يصح وقوعه، فلما أيسه[6] الله تعالى كف عنه.

---

(١) إلاّ أن الشرع ورد بأنه لا يغفر لهم: +، د.
(٢) الآية: إلا أنها، ض.
(٣) للتخيير: لتجيز، ض.
(٤) وفي : يجب في، ض.
(٥) قدرا: قدروا، ض.
(٦) آيسه: أسر، أ، د، ض.

﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ (٨١) فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ (٨٢) فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ (٨٣)﴾

القراءة

قراءة العامة: «خِلَافَ» من المخالفة، وعن ابن ميمون «خَلْفَ» يعني: بعده.

وقراءة العامة: «الخالفين» بالألف، وعن مالك بن دينار: «مع الخلفين» بغير ألف.

اللغة

الفرح: السرور، وهو لذة القلب بنَيْلِ المشتهَى، فقد قال مشايخنا: إن الفرح والغم يرجعان إلى الاعتقاد، فإذا اعتقد نفعًا فهو سرور، وإذا اعتقد ضررا فهو غم[(١)]، وقيل: إنهما معنيان.

والمخلف: المتروك، خلف من مضى، ونظيره: المؤخر، ونقيضه: المقدم، خلَّف تخليفًا، وتَخلَّف تخلفًا، وأصله الخَلْف، خلاف القُدَّام، والخلاف: مصدر خالف يخالف خِلَافًا ومخالفة[(٢)]، وزعم أبو عبيدة أن معناه[(٣)]: بعد، وأنشد:

عَقَبَ الرَّبِيعُ[(٤)] خِلَافَهُمْ فَكَأَنَّمَا ... بِسَطَ الشَّوَاطِبُ بَيْنَهُنَّ حَصِيرَا[(٥)]

(١) ضررًا فهو غم: غمًّا فهو ضرر، أ.

(٢) مخالفة: مخالف، أ.

(٣) معناه: معنا، ض.

(٤) الربيع: الربوع، ض.

(٥) انظر: العين (شطب).

الشواطب: النساء يُقَدِّدْن[1] الأديم بعدما يخلقنه، ويشققن السعف[2] للحصر[3].

وقال الأزهري: «**خلاف رسول الله**» أي: مخالفته، والخالف كل من تأخر عن الشاخص، والخالف والخَلْف[4]والمختلف واحد، وكثير ما يتفق «فاعل[5]ومفتعل» في المعنى [مثل] كاسب ومكتسب، وخَلَفَ خلوفًا فهو خالف: إذا تغير إلى الفساد، وفلان خالفة أهله: إذا كان دونهم في الفضل.

والقعود ضد القيام، وهما هيئتان للإنسان، ومعينان من جنس الأكوان، قعد قعودًا، والقَعْدة المرة، والقِعْدَة بكسر القاف: الحال التي تفعل عليها، ورجل قُعَدة بضم القاف وفتح العين والدال وكسرها: قعود.

والبكاء نقيض الضحك، والضحك: حال تفتح وانبساط مع فرحٍ، والبكاء: حال بغيض من غم[6]، والضحاك: هو الإنسان خاصة، ضحك ضحكًا، وبكى بكاءً، وأبكاه الله وأضحكه، ومنه: ﴿أَضۡحَكَ وَأَبۡكَىٰ﴾ [النجم:٤٣].

۞ الإعراب

اللام في قوله: «**فليضحكوا قليلاً**» صيغة لام الأمر، والمراد به التهديد والإنكار، كقوله: ﴿وَٱسۡتَفۡزِزۡ﴾ [الإسراء:٦٤] وإنما جاز تسكين لام الأمر، ولم يجز تسكين لام الإضافة؛ لأن لام الإضافة أحق بالكسر لأنها تؤذن بفعلها للجر المناسب لها مع أن عوامل الأسماء أقوى من عوامل الأفعال، فهي لهذه العلة ألزم للحركة.

۞ النزول

قيل: نزلت الآية في المتخلفين عن غزوة تبوك، عن جماعة من المفسرين.

وقيل: نزلت في سبعة نفر: أبي لبابة وأصحابه.

---

(١) يقدّدن: يقدرن، ض؛ يعددن، أ.

(٢) بعدما يخلقنه ويشققن السعف: ما يقدر به ويشققن السعف، ض؛ لما يقدره وهن سعف، أ.

(٣) للحصر: الحصير، أ.

(٤) الخلف: المختلف، أ.

(٥) فاعل: فعل، أ.

(٦) بغيض من غم: نقيض عن عمر، ض.

۞ المعنى

ثم بَيَّنَ تعالى زيادة مخازيهم، فقال سبحانه: «فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ» الذين تخلفوا عن رسول الله لما أمرهم بالغزو، عن الأصم، وأبي علي. وقيل: أراد من خلفهم رسولاً لله ﷺ وأمرهم أن يخرجوا في قوله: ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ﴾ [التوبة:٤٦]؛ لأنهم كانوا يخرجون للفساد والتضريب، فخلفهم رسول الله ﷺ، ولو أراد من تخلف لقال: المتخلفين[١]، عن أبي مسلم.

ومتى قيل: كيف ذمهم، وهو أَمَرَهُمْ بالتخلف؟

قلنا: إنما أمرهم لما علم من نفاقهم وخبث سرائرهم، وما أبطنوا عليه من التضريب والفساد وكان ينبغي أن يخلصوا ويخرجوا.

«بِمَقْعَدِهِمْ» أي: بقعودهم «خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ» قيل: تخالفوا لمخالفة[٢] رسول الله[٣]، عن قطرب وغيره. وقيل: قاموا بعده حين سار، عن أبي عبيدة «وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا» يعني المنافقين قال بعضهم لبعض، وقيل: قالوا للمسلمين ذلك ليصدوهم عن الغزو «لا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ» أي: لا تخرجوا إلى الغزو سراعًا في هذا الحر طلبًا للراحة والدعة وعدولاً عن تحمل المشاق في مرضاة الله، وقيل: تصوروا أن القعود يعقبهم راحة، والخروج لا يجدي معه منفعة، ولم يعلموا أن القعود يعقب النار، والخروج يعقب الجنة «قُلْ» يا محمد لهم «نَارُ جَهَنَّمَ» التي تصيرون إليها بالمخالفة «أَشَدُّ حَرًّا» روي عن النبي ﷺ: «إن ناركم هذه جزء من سبعين جزءًا من نار جهنم، وقد ضربت بماء البحر مرتين كي ينتفعوا بها ويدنوا منها»[٤]. «لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ» أي: لو كانوا يعلمون الوعيد لمن أقدم على القبيح، وقيل: لو علموا أنهم بالتخلف صائرون إلى النار، عن أبي علي. وقيل: لو يعلم ونسوء اختيارهم، وقيل: لو علم وانار جهنم وأهوال القيامة «فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً»

---

(١) المتخلفين: المخلفين، أ.

(٢) تخالفوا المخالفة: تخلفوا المخالفة، ض.

(٣) الله: +، د.

(٤) صحيح ابن حبان رقم٧٤٦٣.

تهديدٌ لهم، أي: فليضحكوا ما شاؤوا في الدنيا فإنه قليل، فإنهم يبكون في الآخرة كثيرًا، ولا ينقطع أبدًا، عن ابن عباس. وتقديره: فسيبكون كثيرًا في النار. عن رسول الله ﷺ: «لو علمتم ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيرًا، ولما ساغ لكم الطعام والشراب» «**جَزَاءَ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**» من الأعمال القبيحة «**فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ**» يقال: ردك الله تعالى يا محمد سالمًا «**إِلَى طَائِفَةٍ**» جماعة «**مِنْهُمْ**» ممن تخلف عنك، وإنما قال طائفة؛ لأنه ليس كل من تخلف عن تبوك كان منافقًا، بل كان فيهم منافق وفيهم من تخلف لعذر، عن الأصم. «**فَاسْتَأْذَنُوكَ**» طلبوا إذنك ليخرجوا معك إلى غزاة أخرى «**فَقُلْ**» لهم يا محمد «**لَن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا**» ما بقيت في سفر ولا غزو «**وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا**» عقوبة لهم على تخلفهم، قيل: إنه نهي عن الخروج والقتال، وقيل: بل هو خبر عن حالهم أنهم لا يفعلون ذلك ما بقي هو «**إِنَّكُمْ**» أيها المنافقون «**رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ**» في غزوة تبوك «**فَاقْعُدُوا**» تهديد وليس بأمر، وقيل: إنه أمر لما علم أن في خروجهم مفسدة «**مَعَ الْخَالِفِينَ**» قيل: مع المنافقين الذين تخلفوا من غير عذر، عن ابن عباس، فاقتدوا بهم واهتدوا هداهم، وقيل: مع النساء والصبيان، عن الحسن، وقتادة، والضحاك. وقيل: مع العميان والزَّمْنَى، عن الأصم. وقيل: مع[1] من تخلف لمرض وزمانة ونقص، عن أبي علي. وقيل: مع السفلة وأهل الفساد، وقيل: مع الخالفين.

۞ الأحكام

تدل هذه الآية على أن السرور بالمعصية فعل أهل النفاق ومن يقتدي بهم، وذلك مذموم يؤدي إلى النار، فلا ينبغي للعاقل أن يفرح بذلك.

وتدل على أن الثقة[2] بالوعيد تخفف[3] تحمل المشاق في الطاعة والتحرز من القبيح، وأن من اختار راحة الدنيا على عذاب الآخرة خسر خسرانًا مبينًا.

---

(١) مع: كان، أ.

(٢) الثقة: التفقه، ض.

(٣) تخفف: تخفيف، أ.

وتدل على قلة راحة الدنيا بالإضافة إلى عقاب الآخرة حَثًّا على الطاعة[١] وزجرًا عن المعاصي.

وتدل على [أن] ما فعلوه من التخلف والسرور والاستئذان فعلهم، فيبطل قول المجبرة في المخلوق.

وتدل على أن الصلاح كان في منعهم عن الخروج معه لما فيه من المفسدة وبيّن العلة فيه، وهو قعودهم أولا[٢] على مخالفته.

وتدل على أن[٣] نهيهم عن الخروج معه كان عقوبة ولذلك قال: ﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [التوبة: ٨٣].

ومتى قيل: كيف يكون ذلك عقوبة، وهو لذة لهم؟

قلنا: لما يظهر من نفاقهم وخبث سرائرهم، وما يلحقهم من الغم بنهي رسول الله ﷺ، عن الخروج معه، وتمييزهم عن أصحابه بمنزلة اللعن والطرد.

ومتى قيل: هل يسقط عنهم الجهاد؟

قلنا: لا، ولكن كان يجب بشرط ترك النفاق، وبشرط أن يخلصوا الدين.

قوله تعالى:

﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَـٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾

---

(١) الطاعة: الطاعاة، ض.
(٢) أولا: أولى، أ.
(٣) أن: +، د.

۞ اللغة

الصلاة في الأصل هي[1] الدعاء، نقلت في الشرع إلى هذه الأفعال المخصوصة والأركان المخصوصة إذا أتي بها على شرائطها[2].

والقبر: حفرة يدفن فيها الميت، يقال: قبرته أَقْبُرُه، فأنا قابر، وهو[3] مقبور.

و(قام) خلاف (قعد)، وقام بالأمر: كفاه[4]، وهذا قِوام[5] الأمر، أي: الذي[6] يقوم به.

۞ الإعراب

«مَاتَ» موضعه جر؛ لأنه صفة لـ «أحد» لأنه قيل: على أحد ميت، و«أبدًا» نَصْبٌ مُتَّصِلٌ.

ويقال: لم كسرت (إن)، وفيها معنى العلة؟

قلنا: لتحقيق الإخبار بأنهم على هذه الصفة.

۞ النزول

قيل: صلى رسول الله ﷺ على عبد الله بن أُبيّ، وكفنه في قميصه بمسألة ابنه، فقال عمر بن الخطاب: أتصلي عليه و هو القائل كذا، والفاعل كذا؟ فقال: «إن قميصي لا يغني عنه شيئًا، وإني لأرجو أن يسلم من قومه جماعة»، فلما سمع المنافقون بمسألة[7] ذلك من رسول الله ﷺ أسلم يومئذ ألف نفر، ثم نهي عن الصلاة على المنافقين. عن ابن عباس، وابن عمر، وجابر، وقتادة.

---

(١) هي: هو؛ أ، د، ض.
(٢) شرائطها: شرائط؛ أ، د، ض.
(٣) وهو: فهو، أ.
(٤) كفاه: كفارة، أ.
(٥) قوام: أقوام، ض.
(٦) الذي: +، د.
(٧) بمسألة: بمسألته، ض.

وقيل: أراد أن يصلي على عبد الله بن أُبي، فنزل جبريل (عليه السلام) وأخذ بثوبه، وقال: لا تُصَلِّ على أحد منهم مات أبدا، ولا تقم على قبره، عن أنس والأصم.

قال الأصم: قال: لما مات عبد الله بن أبيٍّ جاء ابنه إلى رسول الله ﷺ وقال: قد مات الكافر، فما تأمرني به؟ فقال: «ادفنه»، فقال: إن لم تصل عليه لم يصل عليه[1] مسلم، فأراد أن يصلي، فنزل جبريل ونزلت الآية، ونُهِيَ عن ذلك.

ومتى قيل: كيف استجاز أن يصلي على كل[2] كافر.

قلنا: هذا أمر شرعي يجوز أن يختلف فيه الأمر، فكان يصلي على كل من يظهر الشهادتين، كما نصلي نحن، ثم نُهِيَ عن ذلك.

المعنى

ثم بَيَّنَ تعالى أحكامهم[3] في الدنيا والآخرة، ونهى عن الصلاة عليهم، فقال سبحانه: «**وَلا تُصَلِّ**» يا محمد «**عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ**» أي: لا تصلِّ أبدًا «**وَلا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ**» للدعاء، فإن رسول الله كان يقف على قبور المؤمنين، ويدعو لهم، وقيل: لا تقم على قبره حتى يدفن إكرامًا «**إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ**» فما صلى رسول الله على منافق حتى قبض.

ومتى قيل: إذا علم تحريم الصلاة على الكافر لأنه تعظيم له، فَلِمَ أراد أن يصلي؟

قلنا: لم يعلم نفاقه، فأراد أن يصلي. وقيل: جَوَّزَ أنه تاب، وقيل: كان متعبدًا بذلك ثم نهي عنه وهو الصحيح.

«**وَلا تُعْجِبْكَ**» قيل: لا يعظمن في عينك هذا المنافق وإن كثر ماله، وقد مضى معنى الآية.

---

(١) لم يصل عليه: +، د.

(٢) على كل: +، د.

(٣) أحكامهم: أحرمانهم، ض.

ومتى قيل: لم كررت؟

قلنا: للتذكير مع بُعْد موضع الآيتين، وقيل: يجوز أن تكون في فريقين من المنافقين، فهو كقولهم: لا يعجبك حال زيد، ولا يعجبك حال عمرو، عن أبي علي. وقيل: أرادب الأولى لا تعظمهم في حال حياتهم لأجل مالهم، وبالثانية لا تعظمهم بعد وفاتهم؛ لأن حكم الكفر والنفاق باق في الحالين.

۞ الأحكام

تدل الآية على أن الصلاة على الميت عبادة، وأن القيام على القبور للدعاء عبادة مشروعة، لولا ذلك لما خص الكافر بالنهي.

وتدل على أن كثرة المال لا يغني شيئا مع العذاب العظيم.

وتدل على أن الكفار لا يصلى عليهم؛ لأنه دعاء، ولا خلاف في ذلك.

۞ أحكام الصلاة على الميت

الكلام فيه يقع في أربعة فصول:

أولها: من يُصَلَّى عليه؟

وثانيها: كيفية الصلاة.

وثالثها: مَنْ يُصَلِّي؟

ورابعها: شرائط الصلاة.

أما الأول: فصلاة الجنازة فرض على الكفاية إذا قام به جماعة سقط عن الباقين، ويصلى على كل مسلم بالاتفاق، واختلفوا، فقال أبو حنيفة: لايصلى على الباغي، وقطاع الطريق، وقال الشافعي: يُصَلَّى عليهم.

فأما الفاسق المُصِرّ على فسقه، قال الهادي (عليه السلام): لا يُصَلَّى عليه، وقال أبو حنيفة والشافعي: يصلى عليه، و قال الهادي: لا يُصَلَّى على[1] المرجئ والقدري

(١) على: عليه، ض.

والحروري ومن نصب حربًا لآل محمد، قال الناصر للحق: يصلى عليهم، ويدعو عليهم، لا لهم، وقال جماعة الفقهاء: يُصَلَّى على الجميع، ويُدْعَى لهم.

واختلفوا، قال أبو حنيفة: يُصَلَّى على الشهيد، وقال الشافعي: لا يُصَلَّى على الشهيد، وقال أبو حنيفة: لا يُصَلَّى على الغائب ولا على القبر، وقال الشافعي: يُصَلَّى، وقال أبو حنيفة: لا يُصَلَّى على ميت مرتين، ولا أكثر، وقال الشافعي: يُصَلَّى، وأجمعت الأمة أنه يُصَلَّى على الأطفال غير الإمامية، فإن عندهم لا يُصَلَّى حتى يبلغ سِتًّا.

وبعض الشخص إذا كان أقل ولم يكن الرأس معه لا يصلى عليه، وقال الشافعي: يُصَلَّى عليه.

فأما الفصل الثاني كيفية الصلاة: فأجمعوا أنها تكبيرات، وليس فيها ركوع وسجود، ولا قعدة، ولا تشهد، وأن فيها تكبيرة الافتتاح، والتسليم، ثم اختلفوا، فقالت الفقهاء: تكبيرات الجنائز أربع، وقال الزيدية والإمامية: خمس، وهو قول ابن[1] أبي ليلى، و الأول قول عمر، وزيد، والحسن بن علي، والبراء بن عازب، وأبي هريرة، وعقبة بن عامر وابن[2] الحنفية. والثاني: قول ابن مسعود، وزيد بن أرقم. وعن ابن عباس وأنس وجابر وزيد: ثلاث، وكل ذلك روي مرفوعًا إلا أن الصحابة نظروا إلى آخر صلاة صلاها رسول الله ﷺ، وكان كبر أربعًا، فأخذوا بذلك، يرفع يده في أول التكبيرات، ثم يعود، وقال الشافعي: يرفعها[3] في كل تكبيرة، وقال أبو حنيفة: ليس فيه قراءة مسنونة، وقال الشافعي: يقرأ فاتحة الكتاب، وقال الهادي: فاتحة الكتاب، وسورة، وأجمع الفقهاء أنه يسلم تسليمتين، وهو قول الهادي، وقال الناصر: تسلمية واحدة تلقاء وجهه، وإن سلم تسليمتين جاز.

فأما الفصل الثالث: فأولى الناس بالصلاة على الميت الإمام أو القاضي، أو من ينوب عن الإمام، قال الشافعي: وَلِيُّ الميتِ أَوْلَى.

---

(١) ابن: +، د.

(٢) وابن: بن، ض.

(٣) يرفعها: يرفها، أ.

ويقف الإمام من الميت بحذاء الصدر عند أبي حنيفة، وللشافعي قولان: أحدهما عند رأسه.

فأما الفصل الرابع: شرائط الصلاة: فهي صلاة عند الأكثر، وقال بعضهم: ليس بصلاة، وإنما هو دعاء.

ودليل كونها صلاة أنه يشترط فيها[1] الطهارة، والقبلة، وتَفْسُدُ بما يُفْسِدُ الصلاة. قال أبو حنيفة: إن خاف فوتها يجوز التيمم، وقال الشافعي: لا يجوز.

وتكره الصلاة على الميت في الأوقات المكروهة الثلاثة عند أبي حنيفة، وقال الشافعي: لا تكره.

قوله تعالى:

﴿وَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٌ أَنۡ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسۡتَـٔۡذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوۡلِ مِنۡهُمۡ وَقَالُواْ ذَرۡنَا نَكُن مَّعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡخَيۡرَٰتُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٨٩﴾﴾

اللغة

السورة: القطعة من القرآن المشتملة على آيات، وأصله من الإحاطة، ومنه: سور المدينة لإحاطته بها، وسؤر[2] الحيوان لإحاطة فمه به، وسورة القرآن؛ لأنها أحاطت بالآيات.

والطَّوْل: المن والفضل، والطَّوْل: القدرة على المال والنفقة.

---

(١) فيها: فيه، أ.

(٢) وسؤر: وسورة، ض.

والخوالف: جمع خالفة، وهي النساء المتخلفات في الحي إذا خرج الرجال، عن أبي مسلم. وقيل: خالف وخوالف كهالك وهوالك، وفارس وفوارس، وكافر وكوافر.

والخيرات: المنافع العظيمة، واحدها: خيرة، قال الشاعر:

وَلَقَدْ طَعَنْتُ مَجَامِعَ الرَّبَلَاتِ رَبَلَاتِ هِنْدٍ خَيْرَةِ الْمَلِكَاتِ

الرَّبْلَةُ: باطن الفخذ، وجمعه: رَبَلَات، وقال المبرد: الخيرات: الجواري الفاضلات، واحدتها: خَيِّرَة، وقيل: يحتمل أنه جمع خَيِّرَة بالتشديد، حذف التشديد بوجهين: هَيْن وهَيِّن، يقال: رجل خيّر، وامرأة خيّرة.

۞ الإعراب

يقال: ما موضع (أن) في قوله: «أن آمنوا» من الإعراب؟

قلنا: نصب بحذف حرف الجر بتقدير: بأن آمنوا، كأنه قيل: بالإيمان، على جهة الأمر.

۞ المعنى

ثم بَيَّنَ تمام أخبار المنافقين، فقال سبحانه: «**وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ**» من القرآن على رسول الله، وفيها الأمر بالإيمان، ومعنى قوله: «**آمِنُوا**» خطاب للجميع، أما المؤمنون بأن يدوموا[1] على الإيمان كأنه قيل: آمنوا في مستقبل الأوقات، فأما المنافق فبإخلاص الإيمان ابتداء «**وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ**» أي: اخرجوا إلى الجهاد معه كأنه قيل: آمنوا أنتم وادعوا غيركم إلى الإيمان «**اسْتَأْذَنَكَ**» أي: طَلَبَ إِذْنَكَ في القعود «**أُولُوا الطَّوْلِ**» قيل: أولو المال والقدرة، وقيل: الطول الغنى، عن ابن عباس، والحسن، وجماعة. وقيل: هم الكبراء، عن الأصم. وخصهم بالذكر والذم؛ لأنهم على الجهاد أقدر، وفي الناس أطوع «**وَقَالُوا ذَرْنَا**» أي: دعنا «**نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ**» قيل: هم

(١) يدوموا: يدموا، ض.

المتخلفون الذين تخلفوا وقعدوا في رحالهم، عن أبي مسلم. وقيل: النساء والصبيان.

ثم عيرهم على ذلك، فقال سبحانه: «**رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ**» قيل: النساء، وقيل: هم المتخلفون «**وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ**» قيل: الطبع نكتة سوداء في قلوبهم جعلت علامة لقلب الكافر يعلم أنه لا يفلح أبدًا، عن أبي علي، وروي مثله عن أمير المؤمنين (عليه السلام)، وقيل: إنه ذم لهم فإنه كالمطبوع، فلا يدخلها خير، ولا ينتفي شر. وقيل: هو استفهام؛ أي: أطبع الله على قلوبهم ولأجله[1] لا يفقهون فحذف ألف الاستفهام، وقيل: لما آثروا[2] الكفر أخلاهم[3] واختيارهم حتى ألفوها[4] ولم ينجع فيهم دعاء ولا شيء، فصار كالطبع على القلوب للمنع من خروج ما فيه، عن أبي مسلم. «**فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ**» أي: لا يعلمون، معناه: لا يتدبرون الأدلة ليعلموا، وقيل: لا يفقهون ما يقال لهم.

ثم عقب ذمهم بمدح الرسول والمؤمنين، واتصل به اتصال النقيض بالنقيض، فقال سبحانه: «**لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ**» يعني بذلوا الجهد بالمال والنفس في سبيل الله أي: طريقته، وهو دينه المأمور به «**وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ**» قيل: الخيرات المنافع في الدنيا والمدح والتعظيم والفلاح، وفي الآخرة الثواب والجنة «**وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**» أي: الظافرون بالأمنية، وقيل: الخيرات: الغنائم والذراري، والفلاح: رضوان الله ورحمته، وقيل: الخيرات: الجواري الفاضلات، وهن الحور العين، عن المبرد.

ثم فسر الخيرات، فقال سبحانه: «**أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ**» أي: خلق وهيأ لهؤلاء المؤمنين «**جَنَّاتٍ**» بساتين «**تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ**» أي: من تحت أبنيتها وأشجارها المياه في الأنهار «**خَالِدِينَ فِيهَا**» أي: دائمين «**ذَلِكَ**» يعني ما تقدم ذكره هو «**الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**» النجاة من الهلكة، والظفر بالبغية.

---

(١) ولأجله: فلأجله، ض.

(٢) آثروا: أبروا، أ؛ بروا، ض.

(٣) أخلاهم: حلالهم، أ؛ أحلاهم، ض.

(٤) ألفوها: القوها، أ.

۞ الأحكام

تدل الآية على أن للغنى مدخلاً في وجوب الجهاد.

وتدل على أن هذه السورة منزلة أنزلها الله تعالى لا كما يقوله من زعم أن تأليفها من جهة الصحابة.

وتدل على أن الجهاد يتبع الإيمان.

وتدل على أن الفوز يُنالِ بجميع ما تقدم.

وتدل على أن الجهاد وتركه فِعْلُ العبد؛ لذلك يتعلق به الحمد والذم، فيبطل قول مخالفينا في المخلوق.

قوله تعالى:

﴿وَجَآءَ ٱلۡمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ لِيُؤۡذَنَ لَهُمۡ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٩٠﴾

۞ القراءة

قرأ ابن عباس وأبو عبد الرحمن السلمي والضحاك ويعقوب وقتيبة ومجاهد «المعْذورون» بسكون العين مخففة يعني المجتهدين والمبالغين في العذر، وقرأ الباقون بالتشديد.

قراءة العامة «كذبوا» بالتخفيف، وعن الحسن بالتشديد.

۞ اللغة

المعذِّر بالتشديد: المقصر يعتذر بغير عذر[1] فيريك أنه معذور، ولا عذر له، عذر في الأمر تعذيرًا، والمُعْذِر بالتخفيف: المبالغ الذي له عذر، والمعتذر[2] يقال

(١) المقصر يعتذر بغير عذر: عذر طلب إقامته العذر، أ.

(٢) المعتذر: المتعذر، أ.

لمن له عذر، ولمن لا عذر له، وعذرت فلانًا فيما صنع أعذره، والاسم المَعِذرة، والمعذُرة[1] والعِذْرَة بكسر العين، وأصل المعذِّر المعتذر[2]، فأدغمت التاء في الذال، ونقلت حركة التاء إلى العين، عن الفراء، ونظيره: ﴿مُذَكِّرٌ﴾ [الغاشية: ٢١]، ويقال: اعتذر: أتى بعذر، ومنه قول لبيد:

وَمَنْ يَبْكِ حَولاً كَامِلاً فَقَدِ اعْتَذَرْ

أي: أتى بعذر.

۞ النزول

قيل: نزلت في رهط عامر بن الطفيل، جاؤوا في غزوة تبوك يستأذنون في التخلف، وقالوا: إن نحن غزونا معك تغير الأعراب على قبائلنا[3]، فقال رسول الله ﷺ: «إن الله أنبأني عن أخباركم، وسيغني الله عنكم» عن الضحاك.

وقيل: نزلت في الذين تخلفوا لعذر[4] بإذن النبي ﷺ، عن ابن عباس.

۞ المعنى

قال أبو مسلم: لما تقدم حديث المخلفين صنف الله تعالى هؤلاء الأعراب المتخلفين المعتذرين صنفين: صنف يلتمس العذر في التخلف ولا عذر له، وصنف مصرح بالنفاق، فقال سبحانه: «**وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الأَعْرَابِ**» قيل: المقصرون[5] يعتذرون، وليس لهم عذر، عن أكثر المفسرين. وقيل: المعتذرون الذين هم أهل العذر، عن ابن عباس. وقيل: يتصورون بصورة أهل العذر ويوهمون[6] أن لهم[7]

---

(١) المعذرة: العذر، أ.
(٢) المعتذر: المتعذر، أ.
(٣) قبائلنا: قائلنا، ض.
(٤) لعذر: العذر، ض.
(٥) المقصرون: المقصورون، ض.
(٦) يوهمون: يوهم، أ.
(٧) لهم: له، أ.

عذرًا، وليس كذلك، عن أبي علي. «لِيُؤْذَنَ لَهُمْ» في التخلف «وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ» يعني كذبوا فيما قالوا أنهم مؤمنون، والمعنيّ به رؤساء المنافقين أصروا على نفاقهم، فكانوا لا يعتذرون «سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» وجيع.

۞ الأحكام

تدل الآية على قبح من اعتذر، ولا عذر له.

وتدل على عظيم كفر المنافق، ومن قعد عن النبي ﷺ ونصرته.

وتدل على وعيد[1] عظيم لجميع الكفار.

وتدل على أن ذلك الكذب والنفاق وترك الجهاد فعلهم؛ لذلك عاقبهم عليها، فيبطل قولهم في المخلوق.

قوله تعالى:

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾

۞ اللغة

الضعف: نقصان القوة، والعجز: ذهاب القدرة. والحرج: الضيق. والنصح: إخلاص العمل من الغش.

والحمل: إعطاء المركوب من فرس أو غيره، يقال: حمله حملاً وحُمْلانًا، وحمل على ظهره حملاً، وحَمَّله الأمر تحميلاً، واحتمل احتمالاً، وأصل الباب: الحمل، وهو بالفتح: اسم لما كان في بطن أو رأس شجرة، وبالكسر لما حُمِلَ [على] ظهر أو رأس.

---

(١) على وعيد: أن وعيد، ض.

الوجدان: إدراك المطلوب، وجَدْتُ المال وُجْدًا[١] وجِدَةً، وجدت الضالة وِجْدَانا.

والفيض: جريان الشيء عن امتلاء، ويقال: فاض الإناء بما فيه.

۞ الإعراب

اللام في قوله: «لتحملهم» لام الغرض والإرادة، يعني أتوك وغرضهم وإرادتهم أن تحملهم.

«حزنا» أي: يحزنون حزنًا فهو نصب على المصدر.

«لا يجدوا» نصب؛ لأن المعنى: ألاَّ يجدوا.

۞ النزول

الآية الأولى قيل: نزلت في عبد الله بن زائدة، وهو ابن أمم كتوم جاء إلى رسول الله ﷺ قال: إني شيخ ضرير، نحيف الجسم، خفيف الحال، فهل لي من رخصة في التخلف عن الجهاد؟ فسكت النبي ﷺ، فأنزل الله تعالى الآية، عن الضحاك.

وقيل: نزلت في عائذ بن عمرو، عن قتادة.

والآية الثانية قيل: نزلت في البكائين وهم سبعة نفر من قبائل، سألوا النبي ﷺ وقالوا: احملنا على الخفاف والنعال، فقال ﷺ: «لا أجد ما أحملكم عليه» عن محمد بن كعب، وابن إسحاق.

وقيل: هو معقل بن بشار وصخر بن خنساء، وعبد الله بن كعب الأنصاري، وأبو علية بن زيد، وسالم بن عمير، وثعلبة بن غنمة، وعبد الله بن معقل.

وقيل: نزلت في بني مقرن بن معقل، وسويد، والنعمان عن مجاهد.

وقيل: نزلت في أبي موسى وأصحابه جاؤوا إلى النبي ﷺ ليحملهم فلم يجد ما يحملهم عليه، ثم وجد بعد ذلك فقال: «أين الأشعريون» فحملهم وخرجوا معه، عن الأصم.

---

(١) وجدا: واجدا، أ.

وقيل: نزلت في جماعة من ضعفاء المسلمين أرادوا الجهاد فلم يتمكنوا منه، فاستعانوا بالنبي ﷺ فلم يجدوا عنده فرجعوا باكين.

وقيل: كانوا جماعة من مزينة[1]، عن مجاهد.

وقيل: نزلت في عرباض بن سارية[2].

وقيل: جماعة من الصحابة فيهم عبد الله بن المغفل المزني، قالوا: يا رسول الله، احملنا، فقال: «والله لا أجد ما أحملكم عليه» وذلك بعد أن حث النبي ﷺ على الجهاد، وأمر به، فتولوا، ولهم بكاء، عزيز عليهم أن يجلسوا عن الجهاد، فلما رأى تعالى حرصهم أنزل عذرهم، عن ابن عباس.

۞ المعنى

ثم ذكر تعالى العذر، وبَيَّنَ أنه تعالى قابل الأعذار، وإنما لم يقبل من المنافقين لكذبهم ونفاقهم، فقال سبحانه: **«لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ»** قيل: المشايخ والزَّمْنَى والعجزة، عن ابن عباس. وقيل: من لا يقدر على الخروج» **وَلا عَلَى الْمَرْضَى»** أصحاب العلل المانعة من الخروج **«وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ»** وهم الفقراء **«حَرَجٌ»** أي: مأثم في التخلف وترك الخروج مع رسول الله ﷺ **«إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ»** قيل: نصحوا أولياء الله وهم المسلمين ورسوله في معيتهم، وقيل: نصحوا دين الله بالنصرة، وقيل: بالدعاء للمؤمنين ومعونة أهليهم بما أمكن، فإذا فعلوا ذلك كانوا كالمشاركين للغزاة، وقيل: بالنصيحة وترك التضريب والإفساد، وقيل: قاموا بالقسط ودعوا إلى الله، عن الأصم. وقيل: بالنصح أن يريد لرسول الله ما يريده لنفسه، عن أبي مسلم. **«مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ»** الذين يعملون الحسنات **«مِنْ سَبِيلٍ»** قيل: من ذم وعقوبة، عن الأصم. **«وَلا عَلَى الَّذِينَ»** أي: ولا سبيل على الذين هم من جملة المتخلفين وحالهم **«إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ»** يعني يطلبون منك مركوبًا تحملهم عليه حرصًا على الجهاد **«قُلْتَ لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا»** أعرضوا عنك، وانصرفوا

---

(١) مزينة: مدينة، ض.

(٢) سارية: سارة، أ، د. ض.

باكين «وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا» أي: من الحزن عن التخلف في فوات صحبة رسول الله «أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ» ليخرجوا معه، فكانت عندهم لحمل المشاق معه راحة لما يؤدي إليه من العاقبة، وأولئك المنافقين قعدوا لحر الشمس، وفرحوا بالقعود، ولم يعلموا ما لهم من النار التي هي أشد حَرًّا.

۞ الأحكام

تدل الآية على أن الجهاد يسقط لهذه الأعذار المذكورة من ضعف البدن مع الصحة، ومن المرض وعدم النفقة وعدم المركوب، وإذا كان الفرض يسقط لهذه المعاني لكونه عذرًا فلأن يسقط لعدم القدرة التي تأثيرها في الفعل آكد وأقوى، وكذلك إذا كان ترك الخروج مخلوقًا كان أشد في العذر، وإذا كان ممنوعًا من الخروج، ويراد منه القعود فالعذر أظهر، وهذا يوجب أن يكون كل عاصٍ معذورًا، وهذا يوجب بطلان مذهب المجبرة في المخلوق والاستطاعة والإرادة، وأجمعوا أنه غير معذور، فيدل على بطلان قولهم.

وتدل على أن الإحسان فِعْلُهم؛ فيبطل أيضًا قولهم في المخلوق.

وتدل على أنهم بكوا لعدم النفقة والمركوب، فكان ينبغي أن يكون بكاؤهم لعدم القدرة والمنع من الخروج أكبر.

وتدل على أن النصح في الدين واجب، وهذا يدخل فيه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويدخل فيه الشهادات، والأحكام، والفتاوى، والدعاوى، والدعاء إلى الدين وبيان الأدلة، فإن كل ذلك نصيحة.

وتدل على أن المحسن لا سبيل عليه، فتدل على أن المستعير لا ضمان عليه؛ لأنه محسن ليس بمسيء.

وتدل على بطلان الجبر من جهات:

أولها: ما بَيَّنَّا أن فقد النفقة و المركوب إذا كان عذرًا فعدم القدرة والمنع من الخروج، وخلق التخليف فيه أولى.

وثانيها: أنه لو كان الفعل مخلوقًا أو كانت الاستطاعة مع الفعل لكان مَنْ لا عذر له كمن له عذر من حيث اشتركوا في أن لا قدرة على الخروج.

وثالثها: أن الضعف لا معنى له عندهم؛ لأن المعتبر وجود[1] القدرة الموجبة لهذه الأفعال وخلق الفعل فيه.

ورابعها: أنهم تولوا باكين لعدم النفقة، ولو وجدوا النفقة ولا قدرة، ولم يخلق فيهم لم ينتفعوا، ولو خلق فيهم، ولا نفقة لخرجوا، فأي فائدة في البكاء على عدم النفقة.

وخامسها: أن العذر لا معنى له عندهم؛ لأن الأمر موقوف على خلق الفعل، والقدرة الموجبة.

قوله تعالى:

﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ۚ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾﴾

اللغة

الإيمان في الأصل هو التصديق، ومنه: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ [يوسف:١٧]، وصار في الشرع اسم مدح لجميع الطاعات، والمؤمن يستحق المدح والتعظيم، والتصديق

(١) المعتبر وجود: المعتبرة توجد، ض.

قد يكون بالقول، وقد يكون بالفعل، صَدَّقَهُ بقوله بأن يقول: صدقت، أو ما يجري مجراه، والتصديق يكون بالفعل كالمعجزة، وتصديق الأنبياء.

والانقلاب: مصير الشيء إلى خلاف ما كان من الحال، وأصله من قولهم: قلبت الثوب[1] قلبًا، وفلان قُلَّبٌ: حُوَّلٌ؛ أي يقلب الأمور، ويحتال فيها، وقلبت الشيء تقليبًا: كببته[2]، والقلب يكون على وجوه، قلبت من صفة إلى صفة، كما يصير الشجر رمادًا، والذهب ترابًا، وقلب بمعنى الرجوع، يقال: انقلبتُ إلى بلدي[3] بمعنى رجعتُ. والثالث: قلب الأعيان، وذلك لا يجوز، نحو أن يكون الجوهر عرضًا، والعرض جوهرًا، والسواد بياضًا، ونحو ذلك؛ لأن الأعيان وجودها بالفاعل وصفاتها الذاتية لا تتغير، وصفات المعاني تتغير بحسب تعاقب المعاني عليه، فيصير المتحرك ساكنًا، والساكن متحركًا.

والجزاء: مقابلة العمل بما يقتضيه من خير أو شر.

۞ الإعراب

«**خوالف**» جمع خالفة، وقد يكون للمذكر على المبالغة كعلّامة ونسّابة، عن الزجاج. ويكون للمؤنث على تقدير: رجل خالف، وامرأة خالفة، ويجمع: خوالف، فأما جمع خالف فغريب، وليس بقياس، وإنما جاء في أحرف كفارس وفوارس، وهالك وهوالك، فأما كوافر قيل: جمع كافرة.

«**ورسوله**» رفع عطفًا على اسم الله.

۞ النزول

قيل: نزلت الآيات في جد بن قيس ومعتب بن قشير وأصحابهما من المنافقين، وكانوا ثمانين رجلاً، فلما قدم النبي ﷺ المدينة قال: «لا تجالسوهم، ولا تؤاكلوهم» عن ابن عباس.

---

(١) الثوب: البواب، ض.

(٢) كببته: كتفته، أ؛ كتبته، ض، د).

(٣) بلدي: بلده، أ، د، ض.

وقيل: نزلت في عبد الله بن أبيّ، حلف[١] للنبي ﷺ لا يتخلف عنه بعدها، وطلب منه أن يرضى عنه، فأنزل الله تعالى هذه الآيات.

وعن كعب بنمالك: لما قدم رسول الله ﷺ من تبوك للناس، فجاء المخلفون يعتذرون، ويحلفون، فقبل[٢] منهم ظاهرًا، ووكل سرائرهم إلى الله، قال كعب: وما أنعم الله عليّ نعمة بعد الإسلام مثل ذلك، أني لم أكذب كما كذبوا، فأهلكَ كما هلكوا.

۞ المعنى

لما بَيَّنَ تعالى فيما تقدم قبول عذر أهل العذر، بين أن العقاب يسقط الأعذار لا الاعتذار بالباطل، وأمره بألاّيقبل منهم، ولا يرضى عنهم، فقال سبحانه: «**إِنَّمَا السَّبِيلُ**» قيل: المأثم والعقاب عن أبي علي. وقيل[٣]: الذم والعقاب، عن الأصم. وقيل: الحجة والسبيل واحد، عن أبي مسلم. «**عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ**» يطلبون إذنك في التخلف عنك «**وَهُمْ أَغْنِيَاءُ**» قادرون بالنفس والمال على الجهاد «**رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ**» قيل: مع النساء، وقيل: مع الضعْفاء والزَّمْنَى «**وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ**» قيل: الطبع سمة جعلها الله تعالى في قلب الكافر علامة لكفره، وقيل: المراد به[٤] التشبيه يعني أنه كالمطبوع عليها، وحَذْفُ أداة التشبيه في لسان العرب معروف شائع، ويُعَدَّ فصاحة، وقيل: هو استفهام؛ أي: أَطَبَع الله؟، وقد تحذف ألف[٥] الاستفهام «**فَهُمْ لا يَعْلَمُونَ**» لا يعلمون ما عليهم في ذلك «**يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ**» في التخلف «**إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ**» إلى المدينة «**قُلْ**» يا محمد «**لا تَعْتَذِرُوا**» بالكذب والباطل «**لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ**» أي: لا نصدقكم في ذلك «**قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ**» أخبرنا «**مِنْ أَخْبَارِكُمْ**» في ذلك التخلف، وفي

(١) حلف: خالف، ض؛ خلف، أ.
(٢) فقبل: قبل، أ.
(٣) وقيل: قيل، ض.
(٤) به: + ، د.
(٥) ألف: الألف، ض.

هذه المعاذير «**وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ**» هذا وعيد لهم، يعني أن الله تعالى يطلع عليهم، فيعلم ما يفعلون، ويطلع رسوله على أسرارهم، فيجازيكم بحسب أعمالكم، وقيل: معناه إن أحسنتم مدحتم، وإن أسأتم افتضحتم، وإنما قال: «**وسيرى**» ؛ لأنه لا يحل في الظهور محل ما يرى، وقيل: يراهم عاملين، وقيل: سيرى في مستقبل أيامكم ما يوجد منكم من موالاة الرسول ومعاداته، وإقامتكم على النفاق، ورجوعكم عنه «**ثُمَّ تُرَدُّونَ**» يعني ثم يقع الجزاء عند الرد يعني الرجوع «**إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ**» وهو مصيرهم إلى القيامة «**فَيُنَبِّئُكُمْ**» يخبركم بأن يجازيكم «**بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**» من الطاعة والمعصية «**سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ**» أي: يحلفون بالله كذبًا «**إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ**» انصرفتم من الغزو «**لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ**» إعراض صفح فلا تؤنبوهم[1] «**فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ**» إعراض استخفاف وإهانة، وقيل: أَعْرِضْ عنهم، فلا تذكر كفرهم وكذبهم، ودَعْهُمْ وما أصابوا «**إِنَّهُمْ رِجْسٌ**» قيل: معناه: لا تشتغل بهم، فإنهم بلغوا في الخزي مبلغًا لا مطمع فيهم، وهم كالرجس إذا أردت معالجته ازداد نتنًا، وقيل: إنهم أَخِسَّةٌ، وقيل: عملهم نجس، عن عطاء. وهذا أيضًا توسع يعني: يجتنب كما تجتنب النجاسة «**وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ**» يعني: مصيرهم في الآخرة جهنم، بَيَّنَ أنهم يموتون على الكفر «**جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**» يعملون المعاصي، وقيل: معناه جزاؤهم جهنم إن لم يتوبوا، والأول أصح «**يَحْلِفُونَ لَكُمْ**» كذبًا «**لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا**» أيها المؤمنون بالظاهر وبمعاذيرهم الكاذبة «**فَإِنَّ اللَّهَ لا يَرْضَى**» عنهم «**عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ**»، لأنه علم باطنهم[2]، وأن ما انطووا[3] عليه هو[4] الكفر، ﴿ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ الخارجين عن الطاعة والدين وهم المنافقون، وقيل: مع كفرهم فساق، والرضا من الله تعالى على وجهين: رضا عن الفاعل، ورضا بالفعل، والأول: إرادة مدحه وتعظيمه، والثاني: إرادة إيجاده.

---

(١) فلا تؤنبوهم: يويهوهم. بدون نقاط، د؛ فلا يوهم، أ.
(٢) باطنهم: باطلهم، د.
(٣) انطووا: أبطنوا، ض.
(٤) هو: من، أ.

۞ الأحكام

تدل الآية على ذم المتخلفين، واعتذارهم بالكذب.

وتدل على عظيم[1] إثم اليمين الكاذبة.

وتدل على معجزة[2] للنبي[3] ﷺ؛ لأن قوله: «**يعتذرون**» يجري مجرى الغيب، وكذلك قوله: «**سيحلفون**».

وتدل على وجوب تجنب الكفار، وأنهم أنجاس.

وتدل على أنه تعالى لا يرضى عنهم، وكذلك الرسول.

وتدل على أن الاعتذار والحلف فعلهم؛ فيبطل قول مخالفينا في المخلوق.

وتدل على أن العقاب جزاء على الأعمال، خلاف قول المجبرة.

وتدل على أنه لا يرضى الفسق؛ لأنه لا يرضى عن الفاسق لأجل فَسَّقَهُ، وقد بَيَّنَّا معنى الرضا.

واختلفوا، هل يكون الرضا عن الفاعل رضا بالفعل أم لا؟

قال أبو علي: نعم،وقال أبو هاشم: لا، وهو الوجه.

ومتى تعلقت المجبرة في الآية في لفظ الكسب، فجوابنا أن معنى قوله: «**يكسبون**» يعملون، فأما على قولهم بالكسب فالكسب لا يعقل، ويفسرون الكسب بالكسب[4]، ولا يحصل[5] من ذلك إلا أن العبد محل ذلك الفعل، فأما غير ذلك مما يرومونه فلا يعقل.

---

(١) عظيم: أبطنوا، ض.

(٢) على معجزة: على أن معجز، ض.

(٣) للنبي: النبي، أ.

(٤) بالكسب: : الكسب، ض.

(٥) ولا يحصل: ولا يتحصل، د.

قوله تعالى:

﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾﴾

القراءة

قرأ ابن كثير وأبو عمرو: «**دائرة السُّوءِ**» بضم السين[1]، وفي سورة (الفتح) مثله، وهو قراءة مجاهد، ومعناه: العذاب والبلاء والمكروه، وقرأ الباقون بفتح السين على أنه نعت الدائرة، وإن كانت مضافة إليه، يقال: رجل سوء، وامرأة سوء، ويقال: سُؤْتُه أَسُوؤُه[2] سوءًا ومساءة ومسائية، وفي قوله: ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ﴾ [مريم:٢٨]، وما في قوله: ﴿وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ [الفتح:١٢] لا يجوز إلا الفتح؛ لأن الضم يعني العذاب والبلاء.

قرأ نافع برواية إسماعيل وورش: «**ألا إنها قربة**» بضم الراء، وقرأ الباقون بسكون الراء، وهما لغتان؛ لأن السكون أظهر.

اللغة

العرب أمة من الأمم، وهم صنفان: عدنانية، وقحطانية، والفضل للعدنانية برسول الله ﷺ، وفيهم قريش، وهم بنو إسماعيل (عليه السلام)، والنسبة إليهم عربي، والأعراب: سكان البادية، وأعرب الرجل: أفصح، وأعرب الفرس: خلصتْ عربيةً، ورجل معرب: صاحب خيلٍ عراب، والأصل: الإفصاح، ومنه: امرأة

(١) حجة القراءات ٣٢٢.

(٢) سؤته أسؤوه: سوءه أسوءه، أ.

عروبة: ضاحكة، طيبة النفس، كأنها تعرب عن نفسها بذلك، والعَرْب بسكون الراء وفتح العين: النشاط.

وأجدر وأحرى وأولى نظائر، وأصله من جدر الحائط وأساسه، وقولهم: ذلك أجدر، أي أحرى أن يستعلى[1] عليها.

والحد أصله: المنع، ومنه: الحدود؛ لأنها تمنع عن المعاصي، ومنه: الحداد: البواب.

والغرم: أصله اللزوم، ومنه: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ [الفرقان: ٦٥]، وغرمته كذا، أي: ألزمته، ويسمى الغريم غريمًا للزومه، وغرمتهُ غرْمًا وغرامة، والمَغْرم بفتح الميم: الغرم، وبضمها: المثقل دينًا، ومنه: ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ﴾ [الواقعة: ٦٦] أي: لزمنا غرم، ولم نحصِّل شيئا[2] مما أملنا من زروعنا.

والتربص: الانتظار، ومنه: التربص بالطعام لزيادة الأسعار، وأصله: التمسك بالشيء لعاقبة.

والدائرة: الحادثة من حوادث الدهر، وهو الحال المتقلبة من النعمة إلى البلية، والدائرة: الدولة، وأصله من دار يدور دورانًا، والدَّوارِيُّ[3]: الدهر يدور بالإنسان أحوالاً، قال العجاج:

والدَّهْرُ بِالْإنْسَانِ دوارِيُّ[4]

والديار: فعال من دار يدور، وأصله: دوائر، ومنه: أخذ الدار.

والقربات: جمع قربة، وفيها ثلاث لغات: ضم الراء، وفتحها، وسكونها، والقربة أصله من القرب: ما يدني من رحمة الله، وهو طلب الثواب بحسن الطاعة، ومنه: القربان، وهو ما يتقرب به إلى الله تعالى، وقرابين الملك: من تقرب منه.

---

(١) يستعلى: يستعفى، ض.

(٢) شيئًا: شيء، أ.

(٣) والدواريّ: والراوي، ض؛ الدوراي، أ.

(٤) تمام البيت: أَفْنَى المُلُوكَ وهو قَعْسَرِيُّ. انظر: الحباب (أرس)، والعين (دور)، واللسان (سجح)، (قنسر).

الإعراب

موضع (أن) في قوله: «**أجدر أن**» نصب على حذف الباء بتقدير: أجْدَر بترك العلم.

وموضع «**ما ينفق**» نصب بوقوع الفعل عليه.

والواو في قوله: «**وصلوات الرسول**» واو العطف، عطف الصلوات على قوله: «**ما ينفق**» وموضعه نصب، وتقديره: ويتخذ النفقة والصلوات، عن أبي مسلم. وقيل: «**صلوات**» معطوف على «**قربات**» يعني يطلبون بالإنفاق قربة الله، وصلوات الرسول، عن أبي علي.

النزول

قيل: قوله: «**الأعراب أشد كفرًا**» الآية نزلت في أعراب البدو.

وقيل: في أعراب أسد وغطفان وتميم وأعراب حاضري المدينة.

وقوله: «**ومن الأعراب**» قيل: نزلت في بني مقرن من بني مزينة، عن مجاهد.

وقيل: نزلت في أسلم وغفار وجهينة، عن الكلبي.

المعنى

لما تقدم ذكر المنافقين بَيَّنَ أن الأعراب أشدهم في ذلك، وأكثرهم جهلاً، فقال سبحانه: «**الأَعْرَابُ**» يعني ساكني البدو «**أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا**» من الكفار أهل الحضر، وإن شملهم الكفر؛ لأنهم أبعد[1] عن مواضع العلم، وسماع البينات والحجج، ومشاهدة الرسول ومعجزاته وبركاته، وما ينزل عليه من الوحي، وكونهم في البراري، فلهذه الوجوه كان كفرهم أكبر، ونفاقهم أشد «**وَأَجْدَرُ**» أولى وأحرى «**أَلاَّ يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ**» قيل: هم أقل علمًا بالسُّنَنِ، عن قتادة. وقيل: حدوده شرائعه وفروضه، عن أبي مسلم. وقيل: حدود ما فعل لعبادهم نحججه، عن الأصم. «**وَاللَّهُ**

(١) أبعد: أبعدوا، د.

عَلِيمٌ» بما أنزل «حَكِيمٌ» في إنزاله على من أنزله، وقيل: عليم بما يأتي العباد من طاعة ومعصية، حكيم فيما أنعم عليهم، واحتج، عن الأصم. وقيل: عليم بما يسرون، ويعلنون، حكيم في مجازاتهم على[1] الجميع «وَمِنَ الأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا» وصف الأولين بالكفر والجهل، وهؤلاء بالكفر والبخل، ومعنى مغرمًا: غرمًا، قيل: لا يرجون عليه ثوابًا، ولا على تركه عقابًا، إنما أنفقوا خوفًا ورياءً، فعدوه مغرمًا «وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ» يعني: ينظر صروف الزمان، وتقلب الأحوال بكم حتى تصيروا إلى الذل بعد العز، فيشمتوا[2] بكم، وقيل: ينظرون موت الرسول، وبطلان دينه، وإظهار دين المشركين، وقيل: ينظرون ظفر الكفار بكم ليستأصلوكم، فلهذا ما بلوهم، فَبَيَّنَ تعالى بشارة لرسوله أن ما ينتظرون بكم لا يرونه[3] أبدًا، بل ينقلب عليهم، فقال سبحانه: «عَلَيْهِمْ» أي: على هؤلاء المنافقين «دَائِرَةُ السَّوْءِ» يصيرون إلى ذل، والمؤمنون إلى عز، وقيل: دائرة السوء الهلاك والعذاب، وقيل ـ بالضم ـ: البلاء والشر، واختلفوا، فقيل: إنه خبر عن عواقب القوم، فلا بد أن يكون مخبره على وفق خبره، وقيل: دعاء عليهم فلا بد أن ينزل بهم «وَاللَّهُ سَمِيعٌ» لأقوالهم، «عَليم» بضمائرهم، وقيل: «سميع» لما يتناجون «عَلِيم» بما يصيرون إليه، عن الأصم.

ثم بَيَّنَ الأعراب المؤمنين الذين يدينون بالحق، ويخلصون الدين، فقال سبحانه: «وَمِنَ الأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ» يعني القيامة؛ لأنها تتأخر عن الدنيا «وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ» يعني: يتقربون إلى الله بإنفاقهم المال في سبيله، ويتخذون «[وَ] صَلَوَاتِ الرَّسُولِ» قيل: دعاؤه بالخير والبركة، عن قتادة. وقيل: استغفاره لهم، عن ابن عباس، والحسن. وقيل: قبوله عنهم، وقيل: أراد: يتخذون الإنفاق للقربة وصلوات الرسول، عن أبي علي. «أَلاَ إِنَّهَا» نفقاتهم في سبيل الله، وقيل: قرباتهم وصلوات الرسول «قُرْبَةٌ لَهُمْ» أي: تقربهم من الله «سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ» أي: جنته «إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ» كثير المغفرة لمن تاب «رَحِيمٌ» يرحمهم ويدخلهم الجنة.

---

(١) على: عن، ض.

(٢) فيشمتوا: فيشمتون، أ.

(٣) يرونه: يرون، أ.

۞ الأحكام

تدل الآية على أن الكفر يتعاظم، ويتفاضل في العظم، وكذلك النفاق.

وتدل على أن المعارف مكتسبة؛ لأنه يظن على أنهم لا يعلمون حدود ما أنزل[1] الله، قال أبو علي: المراد به الخصوص وإنك ان ظاهره العموم؛ لأنه في قوم منهم وهم المنافقون، يدل عليه[2] ما ذكر بعدهم نقوله: «**وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ**».

وتدل على أن دائرة السوء أبدًا على الكفار.

وتدل على أنهم لا يظهرون على الإسلام إلى يوم القيامة.

وتدل على أن[3] ما ذكر عن الفريقين فعلهم؛ لذلك ذم الأولين ومدح الآخرين، فيبطل قول مخالفينا في المخلوق.

وتدل على أن الأعراب تنقسم، منهم مؤمن، ومنهم بخلاف ذلك.

وتدل على أن الإنفاق إنما يكون قربة إذا قصد بها العبادة.

وتدل على أنه يحسن من المكلف أن يتوسل إلى الله تعالى بشفاعة الرسول لتُقْبلَ حسناته، وتغفر سيئاته.

وتدل على أن شفاعته ﷺ تكون لأهل الطاعة، بخلاف قول المرجئة.

قوله تعالى:

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾

---

(١) على أن المعارف. . . أنزل: +، د.
(٢) عليه: على؛ أ، د، ض.
(٣) أن: + ، د.

۞ القراءة

قرأ يعقوب: «والأنصارُ» بالرفع عطفًا على السابقين، ولم يجعلوهم من السابقين، وجعلوا السبق للمهاجرين، وهو قراءة الحسن وقتادة، وقرأ الباقون بكسر الراء عطفًا على «المهاجرين»، وجعلوا السبق للفريقين، وروي عن عمر أنه قرأ: (الأنصار الذين اتبعوهم) فنهاه أبي بن كعب، وذكر أنه سمع رسول الله ﷺ، فاتبعوه في ذلك.

قرأ ابن كثيروحده: (تجري من تحتها) بزيادة (من) وكذلك في مصاحف أهل مكة، وقرأ الباقون بغير (من) وعليه سائر المصاحف والمعنى واحد.

۞ اللغة

السبق: كون الشيء قبل غيره، وفي الخيل السابق ثم المُصَلِّي، وهو الذي يجيء في إثر السابق يتبع صلاه.

والاتباع: طلب الثاني حال الأول، مصدر اتبع يتبع اتباعًا، فهو متبع ونظيره: الاقتداء، واتّبعه بالتشديد: حذا حذوه، وأَتْبَعَهُ بالتخفيف: لحقه، يقال: ما زلت أتبعه حتى اتبعته، أي لحقته، والتابع جمعه[1] تبع، كخادم وخَدَمٍ.

۞ الإعراب

(الذين اتبعوهم) موضعه رفع عطفًا على (السابقين) تقديره: السابقون، والمتبعون لهم.

(جنات) نصب بـ(أعد).

(الأنهار) رفع؛ لأن الفعل مسند إليه، وهو الجري.

۞ النزول

قيل: نزلت الآية فيمن بايع بيعة الرضوان، وهي بيعة الحديبية، عن الشعبي.

(١) جمعه: جمع، أ.

وقيل: هم الذين صلوا القبلتين، عن أبي موسى، وسعيد بن المسيب، والحسن، وابن سيرين، وقتادة.

وقيل: هم الذين شهدوا بدرًا، عن عطاء بن أبي رباح.

وقيل: هم الذين أسلموا قبل الهجرة، عن أبي علي.

۞ المعنى

لما تقدم ذكر المنافقين والكفار، وذكر المؤمنين عقبه بذكر أحوال السابقين، فقال سبحانه: «**وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ**» قيل: السابقون إلى الإيمان، ونصرة الرسول، عن جماعة من المفسرين، واختلفوا فيهم[1] على ما ذكرنا في فصل النزول، وقيل: من سبق أي: تقدم موته في أيام الرسول، عن أبي مسلم. «**مِنَ الْمُهَاجِرِينَ**» وهم[2] الذين هجروا أوطانهم وعشائرهم من أهل مكة وغيرهم «**وَالأَنْصَارِ**» الذين نصروا الرسول، وآوَوْا أصحابه وهم أهل المدينة «**وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ**» يعني اقتدوا بهم على ما كانوا عليه من الإحسان، وسلكوا مناهجهم، قيل: هم من حسن[3] إيمانهم بعد الفتح، وآمنوا إلى يوم القيامة، عن الأصم. وقيل: السابقون من أسلم من بعد الهجرة، وقيل: هم الذين يذكرون المهاجرين والأنصار بالخير، ويترحمون عليهم ويذكرون محاسنهم ويقتدون[4] بهم، عن عطاء.

ثم عم الجميع بالوعد، فقال سبحانه: «**رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ**» بما أتوا من الطاعات، واجتنبوا من المعاصي «**وَرَضُوا عَنْهُ**» بما أعطاهم من الثواب والكرامات «**وَأَعَدَّ لَهُمْ**» هيأ لهم جزاء على إيمانهم «**جَنَّاتٍ**» بساتين «**تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا**» يعني: دائمين في هذه النعم لا تبيد، ولا يبيدون «**ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**» الظفر بالبغية وإدراك المنية.

---

(١) فيهم: منهم؛ أ.
(٢) وهم: وقيل، ض.
(٣) حسن: أحسن، ض.
(٤) ويقتدون: والاقتدى، د، يقتدى، أ.

۞ الأحكام

تدل الآية على أن للسابقين فضلاً ومزية على غيرهم، وذلك يحصل بوجوه:

منها: المشقة التي لحقتهم في نصرة الدين.

ومنها: مفارقة القوم والعشائر.

ومنها: مفارقة الدين المألوف.

ومنها: معونة النبي ﷺ مع قلتهم.

ومنها: اقتداء الناس بهم.

ومنها: الدعاء إلى الدين.

ومنها: السبق إليه.

ومنها: إعزاز الدين بهم مع كثر أعدائهم وقلة عددهم.

وتدل على أن السبق في الفريقين: المهاجرين والأنصار، والأنصار وإن لم يهاجروا فَبِأَنْ آوَوْا ونصروا لحقوا المهاجرين في الفضل، فلذلك جمع بينهما.

وتدل على أن السابق والمقتدى به أعظم فضلاً من المقتدي التابع.

وتدل على فضل أبي بكر وعمر وعثمان وغيرهم؛ لأنهم من السابقين من الأولين، فدل على بطلان مذهب الرافضة.

وتدل على أن السبق[1] فعلهم؛ لذلك مدحهم به، فيصح قولنا في المخلوق.

وتدل على أنه لا فوز أعظم من الجنة.

وتدل على دوامها[2].

وقد اختلفوا في أول من أسلم من المهاجرين، فقيل[3]: أول من آمن خديجة،

---

(١) السبق: سبق، ض.

(٢) على دوامها: على أن دوامها، ض.

(٣) فقيل: فقال، أ.

ثم علي بن أبي طالب، وهو قول ابن عباس، وزيد بن أرقم، ومحمد بن المنكدر، وربيعة الرأي، ومجاهد، وابن إسحاق. قال مجاهد ومحمد بن إسحاق: أسلم وهو ابن عشر سنين،وقال الكلبي: أسلم وله تسع سنين، وكان[1] رسول الله ﷺ أخذه عن[2] عمه أبي طالب لأَزْمَة وجدب أصابهم وضمه[3] إليه ورباه في حجره المباركة، ولم يزل معه حتى بعث نبيًا فدعاه، فآمن به، وذكر ذلك في مناقبه، عن محمد بن إسحاق.

وعن علي: أنا الصديق الأكبر لا يقولها بعدي إلا كذاب، صليت قبل الناس سبع سنين.

وقيل: أول من أسلم بعد خديجة أبو بكر، وروي عن ابن عباس، وهو قول حسان بن ثابت، وإبراهيم النخعي.

وقيل: أسلم بعدهما زيد بن حارثة، عن الزهري، وسليمان بن يسار، وعروة بن الزبير.

وقيل: أول من أسلم من النساء خديجة، ومن الرجال أبو بكر، ومن الصبيان علي، ومن العبيد زيد.

وقيل: أول من أسلم، علي غير أنه لم يظهر إسلامه كظهور إسلام أبي بكر، وأنه لما أسلم دعا إلى اللهو رسوله، وأسلم بدعوته جماعة منهم: عثمان، والزبير، وطلحة، وقيل: عبد الرحمن بن عوف، وسعد[4] بن أبي وقاص.

والسباق إلى الإسلام الخلفاء الأربعة، وبقية العشرة، وغيرهم، ثم تتابع الناس إلى الإسلام.

---

(١) وكان: وقال علي، د.
(٢) عن: +، د.
(٣) وضمه: وضمهم، د.
(٤) وسعد: وسعيد، ض.

واختلفوا في سن علي يوم أسلم، فقيل: سبع، وقيل: عشر، وقيل: اثنا عشر، وقيل: خمسة عشر. والصحيح أنه كان ابن(١) عشر سنين.

فأما سباق الأنصار فأهل البيعتين: بيعة العقبة الأولى، والثانية، وكانوا في البيعة الأولى: اثنيْ عشر نفرًا(٢)، والثانية: سبعين(٣)، منهم سعد بن عبادة.

ومن السباق من أسلم عند قدوم مصعب بن عمير المدينة، منهم سعد بن عبادة.

قوله تعالى:
﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾

اللغة

حَوْلُ الشيء: المحيطُ به، وهو مِنْ حال يحول: إذا دار بالانقلاب، ومنه: الحول، اسم للسنة، وحال يحول حولاً، وحال إلى مكان: تحول، ورجل محتال: ذو حيلة.

والمرود(٤) أصله: الملاسة، ومنه(٥) ﴿صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ﴾ [النمل: 44] أي مُمَلَّس، والأمرد: الذي لا شعر في وجهه، والمرداء: الرملة التي لا تنبت شيئًا، هكذا ذكر ابن عيسى وأبو مسلم. وقيل: بل أصله من الظهور، والمارد: الذي ظهر شره، وشجرة مَرْدَاء: إذا تساقط ورقها، فظهرت عيدانها، ورجل أمرد لظهور مكان الشعر، عن ابن عرفة، ويقال: مرد الرجل يمر دمرودًا: إذا عتا، وخرج من الطاعة، والمارد:

(١) ابن: ابني، ض.
(٢) نفرا: نفر، ض.
(٣) سبعين: سبعون، أ. وهكذا في البداية وتاريخ الطبري وتاريخ ابن خلدون وسيرة ابن هشام.
(٤) والمرود: وقيل، د.
(٥) ومنه: ــ، د.

العاتي، المجاوز لكل أحد، وقيل: للجزاء مارد، ورجل ما رد ومريد ومرّيد بتشديد الراء، ومتمرد، كل ذلك بمعنى.

۞ النزول

قيل: نزلت في جهينة، ومزينة، وأسلم، وأشجع، وغفار، وكانت منازلهم حول المدينة، وكان فيهم منافقون.

۞ المعنى

ثم عاد الكلام إلى ذكر المنافقين، وبَيَّنَ أن فيهم طائفة استأثر الله بالعلم بحالهم، فقال سبحانه: «**وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الأَعْرَابِ**» من سكان البادية «**مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ**»، أي أصروا على النفاق واعتادوه، وقيل: ألحوا عليه وأبَوْا غيره؛ عن ابن إسحاق. وقيل: أقاموا عليه ولم يتوبوا، عن ابن زيد. «**لاَ تَعْلَمُهُمْ**» يا محمد لاستسرارهم ذلك «**نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ**»؛ لأنه يعلم السر وأخفى «**سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ**» قيل: في الدنيا بما ينزل بهم من الغموم والذل بنصرة الرسول، وعند الموت بإخبار الملائكة إياهم بالعذاب وغيره، والمرة الثانية: في القبر، عن الحسن، وقتادة، وأبي علي. وقيل: في الدنيا بالفضيحة؛ لأن النبي ﷺ ذكر رجالاً منهم بأعيانهم فأخرجهم من المسجد، فقال: «قم يا فلان اخرج، فإنك منافق»، والأخرى في القبر، عن ابن عباس. وقيل: بالقتل[1] والسبي والجوع، عن مجاهد. وقيل: المرة الأولى: بالمصائب، والمرة الثانية: في جهنم، عن عطاء، وابن زيد. والمصائب في الكفار تكون[2] عقوبة، وفي المؤمنين امتحانًا ومصلحة يستحق عليها العوض، وقيل: المرة الأولى: إقامة الحدود عليهم، والثانية: في القبر، عن ابن عباس. وقيل: المرة الأولى: أخذ الزكاة عنهم، والثانية: عذاب القبر، عن الحسن. وقيل: هو ما يدخل عليهم من غيظ الإسلام والمسلمين وعذاب القبر، عن ابن إسحاق. وقيل: المرة

(١) بالقتل: +، د.

(٢) الكفار تكون: الكفار نحو أن تكون، أ، د، ض.

الأولى: ضرب الملائكة وجوههم وأدبارهم، والثانية: عذاب القبر، عن بعض المفسرين. وقيل: الأولى: بالسيف يوم بدر، والثانية: عند الموت، عن مقاتل. وقيل: مرة في القبر، ومرة في النار، عن الضحاك. وقيل: مرة[1] بإحراق مسجدهم[2] مسجد الضرار، ومرة بإحراقهم بنار جهنم[3]، وقيل: مرة بطاعتهم لك كرهًا، وإنفاق مالهم، وهم لكم[4] أعداء، ومرة بقتل أوليائهم في طاعتك، عن الأصم. وقيل: مرتين متتابعتين[5] «ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ»، وهو عذاب النار دائمًا.

۞ الأحكام

تدل الآية على أنه كان فيهم منافقون، لا يعلمهم أحد إلا الله.

وتدل على أن الرسول لا يعلم الغيب.

وتدل على أن العذاب يصل إلى أهله ثلاث دفعات: في الدنيا، وفي القبر، وفي يوم القيامة، فمن هذا الوجه تدل على إثبات عذاب القبر على ما نقوله.

وتدل على أن النفاق فعلهم؛ لذلك استحقوا العقاب، فيبطل قول مخالفينا في المخلوق.

قوله تعالى:

﴿وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَأۡخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾

---

(١) وقيل مرة: +، د.
(٢) مسجدهم: مساجدهم، أ.
(٣) بنار جهنم: +، د.
(٤) وهم لكم: وما لكم، ض.
(٥) متتابعتين: متتابعة، أ.

۞ القراءة

قرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم: «**إن صلاتك**» بغير واو[١] وفتح[٢] التاء على واحدة، والمراد به الجنس، وكذلك في سورة (هود) ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ﴾ [هود:٨٧] بغير واو وعلى واحدة. وقرأ الباقون «**صلواتِك**» بالواو وكسر التاء، وكذلك (هود) على الجمع فيها، قال أبو عبيدة: الأول أولى؛ لأن الصلاة أكثر، ألا ترى أنه قال: ﴿أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ فكان على الأبد، والصلوات جمع القليل، تقول: ثلاث صلوات، وخمس صلوات. قال أبو حاتم: وهذا غلط[٣]؛ لأن الجمع بالتاء ليس للقليل، ألا ترى أنه تعالى قال: ﴿مَّا نَفِدَتۡ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِۗ﴾ [لقمان:٢٧] ولم يرد القليل، والعجب من أبي عبيدة في قوله هذا والجمع لم يرد توكيدا[٤]، ألم يكن حاله دون الواحد، وبعد فإن تلك القراءة قراءة الحرمين، وقراءة أكثر القراء.

والقراءة الظاهرة: «**يطهرهم**» بضم الراء حالاً لا جوابًا، وعن ابن محارب: «**يطهرهم ويزكيهم**» بالجزم بالجواب، عن الحسن «**يطهرهم**» بالتخفيف من أطهر يطهر، والقراءة الظاهرة من طَهُر يَطْهُر.

۞ اللغة

الاعتراف: الإقرار بالشيء عن معرفة؛ لأن الإقرار من قرّ الشيء إذا ثبت، والاعتراف من المعرفة، واعترف الرجل القوم: إذا سألهم عن خبر ليعرفه، ومنه قول الشاعر:

أَسَائِلَةٌ[٥] عُمَيْرَةَ عَنْ أَبِيهَا[٦] ... حَلَالُ الرَّكْبِ تَعْتَرِفُ الرِّكَابَا[٧]

(١) واو: +، د.
(٢) وفتح: فتح، د.
(٣) غلط: أغلط، ض.
(٤) توكيدا: تأكيد، ض.
(٥) أسائلة: وسائلة؛ ض.
(٦) أبيها: أبيه، ض.
(٧) الركابا: الربابا، ض.

وأصل الباب: المعرفة، ومنه: عرفة، ومنه: الأعراف.

والأموال: جمع مال، وتمول: اتخذ مالاً، ومال بمال: إذا كثر ماله، وإنما ذكر بالجمع؛ لأن الأموال تدل على اختلاف الأجناس، فالأموال تقتضي الأجناس المختلفة، والمال يقتضي الجنس المتفق.

والتطهير: إزالة النجس، طَهَّر يُطهِّر تطهيرًا، وأطهره يُطْهِرُهُ إطهارًا.

والزكاة: أصلها النماء، ومنه: ﴿ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٢]، وزكا الزرع إذا نما وكثر، وسميت الزكاة زكاة لأنه يرجى بها نماء المال، وقيل: الزكاة الطهارة، وسميت الزكاة بها؛ لأنها طِهرة للمال، ومنه: نفس زكية، وزاكية: طاهرة، ومنه قول محمد بن عبد الله بن الحسن بن[1] الحسن [النفس الزكية][2] لأخبار[3] وردت في ذلك.

والصلاة: أصلها الدعاء، ومنه قوله ﷺ: «إذا دعي أحدكم[4] إلى طعام فليجبه فإن كان مفطرًا فليأكل، وإن كان صائمًا فليصل» أي: فليدع، قال الأعشى:

وقابلتها الريح في دنها[5] وصلي على دنها وارتسم

وقال آخر[6]:

تَقُولُ بِنْتِي وَقَدْ قَرَّبْتُ مُرتَحَلاً يا رَبِّ جَنِّبْ أَبي الأَوْصَابَ وَالْوَجَعَا

عَلَيكِ مِثلُ الَّذِي صَلَّيْتِ فَاغْتَمِضِي يَوْمًا فَإِنَّ لِجَنْبِ المَرْءِ مُضْطَجَعَا

والتوَّاب: صفة مبالغة من التوبة؛ يعني كثير قبول التوبة، إذا استعمل في صفة القديم سبحانه يحتمل وجهين:

[الأول]: يقبل التوبة عن كثير الذنوب.

---

(١) بن: + ، د.
(٢) النفس الزكية: +، د.
(٣) لأخبار: أخبار، ض.
(٤) أحدكم: أخاه، في هامش ض ظ.
(٥) دنها: بيتها، ض.
(٦) هو الأعشى.

والثاني: يقبل توبة بعد توبة.

فإذا استعملت في صفة العباد فمعناه كثرة التوبة.

الإعراب

الواو في قوله: «**وآخرون**» عطف، ويحتمل أربعة أوجه:

الأول: على تقدير: والسابقون والذين اتبعوهم وآخرون.

والثاني: وممن حولكم من الأعراب وآخرون.

والثالث: ومن أهل المدينة وآخرون.

والرابع: قال أبو مسلم: «**وآخرون**» عطف على قوله: منافقون مردوا عن النفاق، وقيل: لا يجوز أن يرجع إلى المنافقين؛ لأنهم خارجون منهم.

والواو في قوله: «**وآخر سيئا**» قيل: وضع موضع الباء كقولهم: خلط الماء واللبن؛ أي: باللبن، واستوى الماء والخشبَة أي: بالخشبة، وقيل: يقتضي الجمع من غير امتزاج بالخلط كقولهم: خلطت الدراهم والدنانير.

ورفع «**تطهرهم وتزكيهم**» قيل: لأنه صفة للصدقة، والثاني أن التاء للخطاب، وهو صفة للصدقة، وقيل: يجوز على الاستئناف، وقيل: هو حال تقديره: خذ صدقة مطهرة مزكية، كقول الشاعر:

مَتَى تَأْتِهِ تَعْشُو إِلَىَ ضَوْءِ نَارِهِ   تَجِدْ خَيْرَ نَارٍ عِنْدَهَا خَيْرُ مَوْقِدِ

أي: عاشيًا إلى ضوء ناره.

والألف في قوله: «**ألم يعلموا**» ألف استفهام، والمراد به التقرير.

النزول

قيل: نزلت الآية في قوم تخلفوا عن رسول الله ﷺ وأصحابه في الجهاد في غزوة تبوك، ثم ندموا وقالوا: نكون في الظلال مع النساء، ورسول الله ﷺ وأصحابه في الجهاد، فربطوا أنفسهم بسواري المسجد، وحلفوا لا يطلقها غير رسول الله، فلما

رجع رسول الله مر بهم، فرآهم على تلك الحال، فسأل عنهم، فَأُخْبَر بذلك، فقال: «لا أطلقهم حتى أومر بإطلاقهم، رغبوا عني وتخلفوا عن الغزو مع المسلمين»، فأنزل الله تعالى هذه الآية: «وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا»، فأطلقهم رسول الله وعذرهم، فقالوا: يا رسول الله، هذه أموالنا التي خَلَّفَتْنا عنك، فتصدق بها، وطهرنا، واستغفر لنا، فقال ﷺ: «ما أمرت أن آخذ من أموالكم شيئًا» فأنزل الله تعالى: «خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً» فلما نزلت توبتهم قال الذين لم يتوبوا: هؤلاء كانوا معنا بالأمس، لا يُكَلَّمون، فما بالهم اليوم؟، فنزل: «ألم يعلموا...» الآية، عن جماعة من المفسرين.

واختلفوا في عدد القوم، فقيل: كانوا عشرة، منهم أبو لبابة،عنابن عباس.

وقيل: كانوا ثمانية، منهم هلال بن أمية وأبو لبابة وغيرهما، عن سعيد بن جبير، وزيد بن أسلم.

وقيل: كانوا سبعة، منهم أبو لبابة وجد بن قيس،عن قتادة، والضحاك.

وقيل: كانوا خمسة، منهم أبو لبابة،عن ابن عباس.

وقيل: نزلت في أبي لبابة خاصة، عن جماعة من المفسرين. ثم اختلفوا، فقال مجاهد: نزلت فيه حين قال لبني قريظة: إن نزلتم على حكمه فهو الذبح، وأشار إلى حلقه، ثم تاب، وربط نفسه في سارية، وحلف لا أحل نفسي، ولا أذوق طعامًا ولا شرابًا حتى أموت، أو يتوبَ الله عليّ، فمكث سبعة أيام حتى[1] خر مغشيًّا عليه، فنزلت الآية، فأخبر بذلك، فأبى أن يحل نفسه حتى يحلها رسول الله ﷺ، فجاء رسول الله، وحله بيده، فقال: يا رسول الله، إن من توبتي أن أهجر دار قومي التي أصبت فيها الذنب، وأن أنخلع من مالي صدقة، فقال: «يجزيك يا أبا لبابة الثلث» قالوا: «وأخذ رسول الله ﷺ ثلث أموالهم وترك الثلثين».

قال أبو علي: وما فعله أبو لبابة من التشديد ليس بشرط في قبول التوبة، فإن كان تعبدًا فهو تشديد محنة وتكلف، حيث علم[2] تعالى أنه أصلح لهم.

(١) حتى: +، د.
(٢) علم: عليهم، ض.

۞ النظم

لما تقدم بيان أحوال المؤمنين المخلصين والسابقين الأولين، وعقَّبه ببيان أحوال المنافقين المصرين ثَلَّثَ بذكر التائبين: تمامًا للبيان، ثم بَيَّنَ كيفية توبتهم، وما قدموه من الكفارة والتصدق بمالهم تشديدا للتكليف عليهم بتخلفهم عن رسول الله ﷺ، وبشرهم بقبول توبتهم وصدقهم، وفي الآية تقديم وتأخير، وحذف.

وتخليصها: وآخرون خلطوا عملاً صالحًا وآخر سيئًا، فاعترفوا بذنوبهم تائبين عسى أن يتوب عليهم، أي راجين قبول توبتهم، وقدموا صدقة من مالهم، فخذ منهم ما قدموه من صدقتهم كفارة لذنوبهم ففيه تطهير لهم، فإن الله هو الآخذ لصدقتهم والقابل لتوبتهم لما علم من إخلاصهم.

۞ المعنى

«وَآخَرُونَ» قيل: هم قوم من المؤمنين تخلفوا عن النبي ﷺ في غزوة تبوك، ثم تابوا، عن ابن عباس، والحسن، ومجاهد، وقتادة، والأصم، وأكثر المفسرين، وقيل: هم قوم من المؤمنين وقع في وهمهم أن يتخلفوا، ثم ندموا فأتوا رسول الله ﷺ فتابوا، حكاه الأصم. وقيل: إن هؤلاء غير أولئك الثلاثة، عن الحسن، وقتادة. وقيل: هم قوم من المنافقين تابوا عن النفاق وأحسنوا العمل، عن أبي مسلم. وقيل: هم أناس فعلوا ذنوبًا كما يفعلها أهلا لصلاة ثم تابوا، واعترفوا، فقبل الله توبتهم، وهو عام، عن أبي علي. «**اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ**» أقروا بذلك على أنفسهم أنهم فعلوه عارفين بذلك نادمين «**خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا**» قيل: السيء تخلفهم على الرسول، وتركهم للجهاد، والصالح التوبة، عن أكثر المفسرين. وقيل: السيء نفاقهم، والصالح توبتهم، عن أبي مسلم. وقيل: السيء الذنوب والصالح التوبة، عن أبي علي. «**عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ**» قيل: معناه اعترفوا راجين أن يقبل توبتهم، عن أبي مسلم. وقيل: (عسى) من الله واجب، عن الحسن، وأبي علي، يعني: تقبل الله توبتهم «**إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**» يعني: غفور لذنوب التائبين، رحيم بهم يدخلهم الجنة «**خُذْ**» يا محمد «**مِنْ أَمْوَالِهِمْ**» يعني:

بعض أموالهم فأدخل (من) للتبعيض؛ لأنه لم يجب أن يتصدق بالجميع «**صَدَقَةً**»، قيل: أمر بأخذ الصدقة عن هؤلاء التائبين، وفرض عليهم مع التوبة الصدقة تغليظًا عليهم وتشديدًا للتكليف وليست[(١)] بالصدقة المفروضة إنما هي كفارة للذنوب التي أصابوها، عن الحسن، والأصم وغيرهما. وقيل: هي صدقة، عن عكرمة، وليس بالوجه، وقيل: أراد قبول الصدقة عنهم عند التوبة تطهيرًا لهم، عن أبي مسلم؛ لأن قبول الصدقة إيجاب الثواب عليه، وذلك إن ما يصحب شرط الإيمان، وقيل: هيا لزكاة المفروضة أمر بأخذها من المؤمنين، عن أبي علي وأكثر أهل التفسير، وهو الظاهر؛ لأن حمله على سبب مخصوص لا يصح، بل هو عام «**تُطَهِّرُهُمْ**» بها أي: تزيل عنهم بها نجاسة الذنوب وهذا توسع «**وَتُزَكِّيهِمْ**» أي: يكونوا بها أزكياء مطهرين، عن أبي علي. وقيل: توجب لهم التزكية والبركة، عن أبي مسلم. قيل: تطهرهم، وقيل: تصلحهم، وقيل: ترفع من ازلهم عن منازل المنافقين إلى منازل المخلصين «**وَصَلِّ عَلَيْهِمْ**» قيل: ادع لهم واستغفر لهم بقبول صدقاتهم، وهو كقول الداعي: آجرك الله فيما أعطيت، وبارك لك فيما أبقيت، وعن النبي ﷺ أنه قال عند أخذ صدقات آل أبي أوفى: «اللهم صل على آل أبي أوفى»، «**إِنَّ صَلاتَكَ**» أي: دعاءك «**سَكَنٌ لَهُمْ**» أي: تسكن نفوسهم إليها، علما بأن[(٢)] توبتهم مقبولة، عن أبي مسلم، والأصم، والكلبي. وقيل: يسكنون إليه، يعني تطيب أنفسهم به ويبشر ونبني له في سارع ونفي أداء الصدقات، عن أبي علي. وقيل: رحمة لهم، عن ابن عباس. وقيل: تزكية لهم منه؛ لأنك تدعو إلى المخلص، وقيل: وقار، عن قتادة. وقيل: تثبيتًا لهم، عن أبي عبد الله. «**وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**» أي: يسمع دعاءك لهم يعلم ما يكون منهم في الصدقات، عن أبي مسلم. وقيل: سميع لجميع المسموعات، عليم بكل شيء، عن أبي علي. «**أَلَمْ يَعْلَمُوا**» قيل: معناه: اعلموا؛ لأن العلم بأحوال الصدقة لطف في المسارعة إليها، وقيل: خافوا ألا[(٣)] تقبل توبتهم فقال: اعلموا أن

(١) وليست: ليست، ض.
(٢) بأن: أي، ض.
(٣) ألاّ: أن، أ؛ لا، د.

توبتكم مقبولة، وقيل: معناه: قد علمتم، والذي يوجب العلم أنه يقبل التوبة ما تبت، إنه[١] كريم، خَلَقَ الخلق تعريضًا للثواب، ولا يجوز أن يبقى المكلف ولا طريق له في التخلص، ولأن بذل الجهد في تلافي ما فرض يوجب قبول عذره عقلاً عند مشايخنا البصريين، ولأنه أصلح عند البغداديين، وفعل الأصلح واجب «**أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ**» فيغفر ذنوبهم، ويوجب لهم رحمته «**وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ**» قيل: جعل أخذ الرسول والمؤمنين للصدقة أخذًا لله تعالى حيث كان بأمره وإيجابه، عن أبي علي. وقيل: لأنه تضمن الجزاء عليهم كالآخذ لها،وقيل: أخذه قبوله؛ لأن ما لا يقبل لا[٢] يؤخذ «**الصدقات**» قيل: الزكوات، وقيل: ما يتصدق به[٣] لكفارة[٤] الذنب، عن الأصم قال: يقال: يستحب لمن أصاب ذنبًا أن يتصدق بصدقة عند التوبة «**وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ**» أي: قابل التوبة، رحيم بالتائبين، يغفر ذنوبهم، ويقبل توبتهم، ويوجب لهم الرحمة. قال ابن عباس: هو التواب إن استقاموا على التوبة.

۞ الأحكام

تدل الآية على أن من أتى بعمل سَيِّءٍ، وعملٍ صالحٍ يلزمه التوبة، وأن المغفرة لا تُنالُ إلا بها، فمن هذا الوجه تدل على بطلان قول المرجئة أنه يغفر بلا توبة.

وتدل على أن التوبة توجب الغفران، وتزيل العقاب.

وتدل على أن الاعتراف من شرائط التوبة، فهو أن يعترف بالجزاء من جهة الله تعالى، ووجوب التوبة مما أقدم عليه والندم.

وتدل الآية الثانية على وجوب الصدقة، وقدرها من قبل فيه.

وتدل على أنها[٥] تطهير، وتزكية للمكلف.

---

(١) إنه: إليه، ض.

(٢) لا: لو، ض.

(٣) به: ـ، د.

(٤) لكفارة: بكفارة، ض.

(٥) أنها: أنه، ض.

وتدل على أنها[1] تقبل التوبة من جميع الذنوب في جميع أحوال المكلف.

وتدل على أن الاعتراف والخلط والذنوب فِعْلُهم؛ فيبطل قول مخالفينا.

قوله تعالى:

﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾

القراءة

قرأ أبو جعفر ونافع وحمزة والكسائي وحفصعن عاصم: «**مرجون**» بغير همز، وقرأ ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو[2] وأبو بكر عن عاصم ويعقوب بالهمز، وهما لغتان، والإرجاء: تأخير الأمر إلى وقت إيجاب الأمر، أرجأ وأرجيته، بالهمز وترك الهمز: إذا أخرته، ومنه المرجئة، وفيه: أرجه وأرجئه[3]، فمن قرأ بالهمز فمِنْ «أرجأت»، ومن ترك الهمز فمن «أرجيت».

اللغة

الرؤية: إدراك المبصرات والمرئيات، وتستعمل بمعنى العلم، قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾ [الفجر:٦]، يقال: رأيت ببصري، ورأيت بقلبي.

الرد: مصدر رددت الشيء ردًّا، ومنه المرتد؛ لأنه يرد نفسه إلى الكفر بعد الإيمان، والمردودة: المطلقة، ومنه حديث الزبير في وصيته: للمردودة من نسائه أن يسكنها، يعني: دارًا وقفها كأنها ردت إلى ما كانت.

---

(١) أنه: أنها، أ.

(٢) وأبو عمرو: أبو عمر، ض.

(٣) أرجئه: أرجيه، أ.

والغيب: ما غاب عن الحواس، وقيل: ما لا يعلم ضرورة، ولا دليل عليه.

والإنباء: الإخبار.

۞ الإعراب

الواو في قوله: «**وآخرون مرجون**» واو عطف على قوله: «**وآخرون اعترفوا**» كأنه ذكر طائفة أخرى.

۞ النزول

قيل: نزلت الآية في الثلاثة الذين خلفوا فلم يربطوا أنفسهم بالسواري، ولم يبالغوا في التوبة كما فعله[1] أبو لبابة، فوقفهم رسول الله ﷺ خمسين ليلة نهى الناس عن مكالمتهم ومخالطتهم، وأمر نساءهم باعتزالهم حتى ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، ونهكهم الحزن، وكانوا من أهل بدر وهم: هلال بن أمية، ومرارة بن ربعي، وكعب بن مالك، وهم من الأوس والخزرج، ثم تاب الله عليهم بعد خمسين ليلة، ونزلت: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟﴾ [التوبة:١١٨] عن مجاهد، وقتادة.

وقال ابن عباس: هؤلاء الثلاثة أخروا أمرهم، ولم يعترفوا بذنوبهم، وليسوا من الذين مردوا على النفاق فهم مرجون: إن تابوا غفر لهم، وإن أصروا عذبوا.

وقيل: هؤلاء تابوا ولكن الله تعالى بَيَّنَ قبول توبتهم، ثم نزل: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟﴾ [التوبة:١١٨] فقبل توبتهم.

۞ المعنى

لما بَيَّنَ تعالى قبول توبتهم حذرهم في مستقبل أوقاتهم، وبَيَّنَ أنه لا يعاقبهم بالمعلوم، ولكن بالمعقول؛ لأن الرؤية لا تتعلق إلا بالموجود، فقال سبحانه: «**وَقُلِ**» يا محمد لهم «**اعْمَلُوا**» وعيد لهم، عن مجاهد. وقيل: معناه اعملوا ما أمركم الله به

---

(١) فعله: يفعله، أ.

من الصدقات وغيره فإن الله سيرى عملكم، عن أبي علي، فهو على هذا أمر، فقيل: اعملوا فيما تستأنفون بعد التوبة، عن الأصم، وأبي مسلم، فعلى هذا أيضًا فهم واهم «فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ» قيل: إنما أدخل سين الاستقبال؛ لأنه ما لم يحدث لا تتعلق به الرؤية كأنه قيل: كل ما تعملون[1] يراه الله تعالى، وقيل: أراد يرى من غير استقبال، عن أبي علي. وقيل: الرؤية بمعنى العلم أي: يعلم الله ذلك، وقيل: المراد يراك معاملين «وَرَسُولُهُ» يعني يرى رسوله أو يعلم وهو يشهد عليكم «وَالْمُؤْمِنُونَ» قيل: إن عدتم إلى ما كنتم فيه يرى المؤمنون، عن الأصم، وقيل: المراد بالمؤمنين الخصوص؛ لأن كلهم لا ترى أعمالهم، وقيل: المراد به الشهداء[2]، وقيل: الملائكة الذين هم الحفظة؛ لأنهم وإن كانوا ملائكة فهم مؤمنون، عن القاضي. «وَسَتُرَدُّونَ» أي: تردون بعد الموت إلى الله يعني إلى يوم القيامة، واليوم الذي لا يملك الحكم فيه إلا الله، وهو عالم الغيب والشهادة «فَيُنَبِّئُكُمْ» يخبركم بأن يجازيكم، وقيل: يخبركم بما نسيتم من أعمالكم «بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ» من الخير والشر.

ثم بَيَّنَ حال طائفة أخرى فقال سبحانه: «وَآخَرُونَ» قيل: هم الثلاثة الذين خلفوا، عن قتادة، ومجاهد. وقيل: هم المنافقون الذين اتخذوا مسجدًا ضرارًا، حكاه الأصم. وقيل: هم قوم من المنافقين حذرهم بهذه الآية إن لم يتوبوا، عن الأصم، غير الذين اعترفوا على ما تقدم، وغير الذين مردوا على النفاق، عن أبي مسلم. وقيل: هم قوم من أهلا لمعاصي، عن أبي علي. قيل: هم قوم أضمروا التوبة ولم يظهروها «مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ» أي: مرجون لحكم الله، يعني: أخر أمرهم[3] إلى أن يقضي الله فيهم «إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ» أي: إن تابوا وأخلصوا في التوبة، فذلك مقبول منهم، فأما أن يقيموا على الكفر والعصيان حتى يموتوا فيعذبهم الله «وَاللَّهُ عَلِيمٌ» بما تؤول حالهم إليه «حَكِيمٌ» فيما يفعله بهم.

---

(١) كل ما تعملون: كلما تعلمون، ض.

(٢) الشهداء: الشهد، ض.

(٣) أخر أمرهم: أخر أمرهم فكم يحكم يشاء، ض.

❁ الأحكام

تدل الآية على المعاد وأن العباد يردون إليه.

وتدل على أنه تعالى يعلم الغيب، كما يعلم الشهادة.

واستدل أبو علي بالآية على أنا لحركات والسكنات تُرى على ما ذهب إليه، وذكر أنا لمراد به الرؤية لا العلم؛ لأنه لو أراد به العلم لتعدى إلى مفعول، فأما أبو هاشم فقال: شيء من الأكوان لا يرى لا الحركات ولا السكنات، وذكر القاضي أن المراد ما حله العمل كقولهم: هذا الباب عمل النجار، وهذا الثوب من عمل النساج، ونحو ذلك أقوى في التعارف، فيحمل عليه، ويدل عليه أنه عام في جميع الأفعال، ثم لا خلاف أن الاعتقاد وسائر أفعال القلوب لا تجوز عليها[1] الرؤية لكن قال: «عَمَلَكُم»[2]، والمراد به جميع الأعمال، ويحتمل أن المراد به العلم، ومعنى سيرى أي: سيعلمه موجودًا؛ لأنه من قبل يعلم أنه سيوجد.

وتدل على أن الرسول يعلم ذلك حتى يشهد عليهم ويحكم فيهم، فكذلك المؤمنون، والفائدة في علم المؤمن إما الشهادة عليهم، وإما إذا علموا[3] منهم طاعة أثنوا عليهم ووالوهم، وإن علموا[4] معصية لعنوهم، فيكون لطفًا في الطاعة وترك المعصية.

وتدل الآية الثانية أنه لا منزلة بين التوبة والعذاب، وكل من تاب قبلت توبته، ومن لم يتب من الكبائر عُذِّبَ، وفيه إبطال قول المرجئة.

وتدل على أن ذلك العمل فعلهم؛ لذلك تعلق به الوعد والوعيد، والأمر والنهي، فيبطل قول المجبرة في المخلوق.

---

(١) عليها: عليه، أ.

(٢) عملكم: بينكم، أ.

(٣) علموا: عملوا، ض.

(٤) علموا: عملوا، ض.

قوله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾

القراءة

قرأ أبو جعفر ونافع[١] وابن عامر: «**الذين اتخذوا**» بغير واو[٢]، وكذلك هو في مصاحف أهل المدينة، وقرأ الباقون بالواو، وكذلك في مصاحف[٣] مكة والعراق.

فالأول على أنه بدل من قوله: «**وآخرون مرجون**» ويحتمل الاستئناف.

والقراءة الثانية تحتمل الوجهين، وتحتمل العطف على «**وآخرون**»[٤].

وقرأ نافع وابن عامر: «**أفمن أُسِّسَ**» بضم الألف وكسر السين «**بُنيانُهُ**» بالرفع على ما لم يسم فاعله، وكذلك قوله: «**أم من**[٥] **أُسِّسَ بنيانه**»، وقرأ الباقون: «**أَسَّسَ**» بفتح الألف والسين «**بُنْيَانَهُ**» بالنصب «**أم من أسس بنيانه**»، وكذلك على تسمية الفاعل، وفي السواد عن بعضهم «**آسس**» بالمد وفتح السين على وزن: آمن[٦]،

(١) ونافع: وعامر، ض.
(٢) حجة القراءات ٣٢٣.
(٣) أهل المدينة، وقرأ الباقون بالواو وكذلك في مصاحف: ـ ، ض.
(٤) حجة القراءات ٣٢٣.
(٥) أم من: + ض.
(٦) آمن: أم من، د.

وكذلك الثانية، ومعناه ومعنى (أسّس) بالتشديد واحد؛ لأن «أَفْعَلَ وَفَعَّلَ» يتقاربان في التعدية.

وقرأ الفراء: «**تقوى**» بغير تنوين، وعن عيسى بن عمر بالتنوين.

وقرأ ابن عامر وحمزة وأبو بكر عن عاصم: «**جرف**» ساكنة الراء، والباقون بضم الراء، وهما لغتان و«**هار**» أماله أبو عمرو والكسائي وأبو بكر عن عاصم[١]، وترك الإمالة نافع وابن كثير وحمزة وحفص عن عاصم.

وقرأ يعقوب: «**ريبة في قلوبهم إلى أن**» بالتخفيف، وهو قراءة الحسن وأبي رجاء وقتادة على الغاية، والفراء على تشديد (إلا) على الاستثناء.

قرأ أبو جعفرو ابن عامر وحفص عن عاصم وحمزة: «**أن تَقَطَّعَ**» بالتاء والطاء مشددة بمعنى: تتقطع، فحذفت إحدى التاءين، وقرأ ابن كثيرو نافع وأبو بكر عن عاصم وأبو عمرو والكسائي ومجاهد بضم التاء وتشديد الطاء على ما لم يسم فاعله، وهو اختيار أبي عبيدة وأبي حاتم، وعن يعقوب ثلاث روايات، روى ورش[٢] عنه مثل قراءة أبي جعفر وابن عامر، وروى زيد عنه مثل قراءة نافع وابن كثير، وروى زيد عنه بضم التاء وسكون القاف خفيفة من القطع، وروي عن ابن[٣] كثير «**تقطع**» بفتح التاء خفيفة «**قُلُوبَهُم**» نصبًا أي: تفعل أنت ذلك بهم، وعن ابن مسعود والأعمش: (ولو قطع تقلوبهم).

❁ اللغة

الضرار: محاولة الضرر[٤] كما أن الشقاق محاولة ما يشق على صاحبه، ضَارَّهُ

(١) حرف ساكن .... عن عاصم: + ، ض.
(٢) ورش: روش، رويش، أ.
(٣) ابن: أبي، ض.
(٤) محاولة الضرر: ـ ، ض.

مضارة وضرارًا، والأصل فيه: الضر ضد النفع، وفي الحديث: «لا ضرر ولا ضرار في الإسلام»[1] بمعنى لا ضرر، أي لا يضر أحد صاحبه، فينقص شيئًا[2] من حقه، ولا ضرار[3] أي: لا يضاره مجازاة، فينقص.

والإرصاد: الارتقاب، رصده يرصده، وأرصد له كذا إرصادًا، قال الكسائي: رصدته أَرْصُدُه وأرصد له وأرصدته: أعددته، والمَرْصَدُ: موضع الرصد، والرصَد ـ بفتح الصاد ـ القوم يرصدون، والرصْد ـ بسكون الصاد ـ الفعل.

والأُسُّ بضم الهمزة: أصل البناء، والجمع: أُسُسٌ[4]، وتقول: كل واحد أساس بقطع[5] الألف.

والبنيان: رفع منزلة فوق منزلة على أساس بنى بناءً وابتنى ابتناء، والبناء: نقيض الهدم.

والشفا: حرف الشيء، وشفيره، وهو نهايته، ومثنى[6] شفا: شفوان بالواو، والجمع: أَشْفَاءٌ ممدودًا، ويقال: أشفى[7] على الشيء: أشرف عليه، وأشفى المريض على الموت، قال القتيبي: ولا يكاد يقال: أشفى[8] إلا في الشر، وأشفى على الشيء، وأشاف عليه: إذا قاربه.

والجُرُف: جرف الوادي، وهو جانبه الذي ينجرف بالماء، أصله شفا واد[9]، والجرف بضم الجيم: المكان يأكله السيل، وجِرف بكسر الجيم أيضًا، والجَرْفُ

(١) الموطأ رقم ١٤٢٩، ومسند أحمد رقم ٢٨٦٧، والدارقطني رقم ٢٨٨، والمعجم الكبير رقم ١٣٨٧، وسنن البيهقي الكبرى رقم ١١١٦٦.
(٢) شيئًا: ـ ، ض.
(٣) ضرار: ضرر، أ.
(٤) أسس: أساس، أ.
(٥) بقطع: بقصر؛ أ، د، ض.
(٦) مثنى: ويثنى، أ.
(٧) أشفى: شفى، ض.
(٨) المريض على الموت. . . . أشفى: ـ ض.
(٩) واد: واديا، أ.

والإجراف: اقتلاع الشيء من أصله، يقال: جرف الدهر ماله: اجتاحه، ومال مجرف، وفي الحديث ذكر الطاعون الجارف[1]، سمي جارفًا؛ لأنه كان ذريعًا، يقال: هار يهور هورًا فهو هائر، وتَهَوَّرَ[2] تهورًا: انهدم وانهار انهيارًا، ويقال أيضا: هار يهار، نحو خاف يخاف، وقيل: الأصل في «هَارٍ» هائر، فترك الهمزة، وعلى هذا يقال: هَارٌ بالضم، وقيل: هَارٍ وأصله هَارِيٌ تقلب الياء من موضع العين إلى موضع اللام وأصله الهمز قبل أن يثقل، وكذلك كقولهم: شاكي السلاح، وشائك السلاح[3]، قال الشاعر:

لاثٍ بـه الأشَـاء[4] والـعُـبْـرِيُّ[5] [6]

أي: لائث.

وقال آخر:

ولـم يـعـقـنـي عـن هـواهـا عـاق[7]

أي: عائق.

ويقال: تهور البناء: أي سقط، وتهور الليل: انكسر ظلامه، وتهور الشتاء: ذهب أشده.

والريب: الشك، والريب: ما رابك من أمر، تقول: رابني هذا الأمر: إذا أدخل عليك شكًّا وخوفًا، والرَّيب ـ بفتح الراء وكسرها ـ: الحاجة، قال:

قَـضَـيْـنَـا مِـنْ تِـهَـامَـة كَـلَّ رَيْـبٍ[8]

أي: كل حاجة.

---

(١) الجارف: الخالف، ض.
(٢) تهور: يهور، أ.
(٣) شائك السلاح: ـ ض.
(٤) الأشاء: الابا، ض؛ اللاتا، أ.
(٥) العبري: والعزا، أ. والبيت في تفسير القرطبي: ٨/ ٢٤٠، وفي تفسير التبيان: ٥/ ٣٠٣: لات به الأشاء والعبري.
(٦) انظر: في العين (عبر)، والمحكم (عبر)، واللسان (عبر)، وتاج العروس(عبر) والبيت للعجاج.
(٧) عاق: عائق، أ.
(٨) البيت لكعب بن مالك الأنصاري، وتمام البيت: «وخَيْبَرَ ثُمَّ أَجَمَعْنَا السُّيوفا».
انظر: لسان العرب (ريب)، والصحاح (ريب).

۞ الإعراب

التقوى الأصل فيه الياء، يقال: اتقيت، ثم أبدلت الياء واوًا، ومثله شروى، وقيل: إنما أبدلت للفرق بين الاسم والصفة.

والألف في قوله: «**أفمن**» ألف استفهام، والمراد به الإنكار، وألف الاستفهام مستعمل للاستعلام[١]، وهو الأصل، ثم يستعمل في التقرير، يقال: ألم أعطك كذا؟ ويستعمل الاستفهام في الإنكار، وتقول: ألم تفعل كذا؟، وإنما استعمل في ذلك؛ لأن المجيب لا يجد وجهًا إلا الإقرار، أو الإنكار.

واللام في قوله: «**لمسجد**» لام القسم. والمُطَّهِّر أصله المتطهر، أدغم التاء في الطاء لقرب مخرجهما.

وموضع «**أن تقطع**» من الإعراب نَصْبٌ بمعنى ألاَّ تقطع[٢] قلوبهم، إلا أن حرف الإضافة يحذف مع (أن)، ولا[٣] يحذف مع المصدر.

«**مسجدًا**» نصب بـ(اتخذوا). و(ضرارًا)، و(كفرًا)، و(تفريقًا) مصادر وضعت موضع الحال أي: يضارون ضررًا، ويفرقون تفريقًا، ويكفرون كفرًا، ويرصدون إرصادا.

۞ النزول

قيل: نزلت الآية في قصة أبي عامر ومسجد الضرار، عن جماعة من المفسرين، قالوا: لما بنى بنو عامر بن عوف مسجد قباء[٤]، وبعثوا إلى رسول الله ﷺ، وسألوه أن يأتيهم، فيصلي فيه، فأتاهم فصلى في مسجدهم، فحسدهم جماعة من المنافقين من بني غنم بن عوف، وقالوا: نبني مسجدًا، ونتوسل إلى محمد فيصلي فيه، ويصلي فيه أبو عامر[٥] الراهب إذا قدم من الشام.

---

(١) للاستعلام: في الاستعلام، ض.
(٢) ألاّ تقطع: الانقطاع، ض.
(٣) يحذف مع أن ولا: ـ ض.
(٤) مسجد قباء: مسجدا قبا، ض.
(٥) عامر: ـ ، ض.

وقيل: إن منافقي الأنصار قالوا: نبني مسجدًا فنصلي فيه[١]، ولا نحضر جماعة محمد، فإن أتانا صلينا معه، وفرقنا بينه وبين جماعته، ونبعث إلى أبي عامر الراهب وأبي طلحة ليظهرا له ما أظهرنا، وكان أبو عامر[٢] ـ وهو أبو[٣] حنظلة غسيل الملائكة تَنَصَّرَ وترهب في الجاهلية، فلما جاء الإسلام وقدم رسول الله ﷺ المدينة جرى بينه وبين أبي عامر الفاسق، فقال: لا أجد قومًا يقاتلونك إلا قاتلتك[٤] معهم، فلم يزل يقاتله إلى يوم حنين، ثم هرب إلى الشام، وأرسل إلى المنافقين أن استعدوا وابنوا مسجدًا فإني أذهب إلى قيصر، وآتي بجنود، وأخرج محمدًا عن المدينة، فبنوا المسجد.

وذكر الأصم أن أبا طلحة قال لرسول الله ﷺ يوم أحد: لا أجد قومًا يقاتلونكم إلا قاتلتك معهم، فلما كان يوم حنين هرب، ودعا عليه رسول الله، فمات بالشام وحيدًا فريدًا، وأرسل المنافقون إلى أبي عامر، فاستشاروه، وبنوا المسجد بإشارته، وهو المحارب لله ورسوله، ومات أبو عامر بالشام وحيدًا فريدًا، وفيه يقول كعب بن مالك:

مَعَاذَ اللهِ مِنْ فِعْلٍ خَبِيثٍ ... كَسَعْيِكَ في العَشِيرَةِ عَبْدَ[٥] عَمْرِو

فإمَّا قُلْتَ: لِي شَرَفٌ وَنَخْلٌ ... فَقَدْ مَا بِعْتَ إيمانًا بِكُفْرِ[٦]

ثم بنوا مسجد الضرار.

وقيل: كان الذي بنوه اثنيْ عشر رجلاً من المنافقين كلهم من الأوس والخزرج: حذام بن خالد، ومن داره[٧] أخرج المسجد، وثعلبة بن حاطب، ومعتب بن قشير، وأبو حبيب بن الأزعر، وعباد بن حنيف أخو شهر بن حنيف، وجارية بن عمرو،

---

(١) فيه: ـ ، ض.
(٢) الراهب وأبي طلحة. . . أبو عامر: ـ ض.
(٣) وهو أبو: ابن أب، ض.
(٤) قاتلتك: قاتلك، ض.
(٥) عبد: عند، أ.
(٦) فإما قلت. . . بكفر: فقلت بأن لي شرفًا وذكرا وقد تابعت ايمانا بكفر، أ.
(٧) ومن داره: ومن دراه، ض؛ ومراده، أ.

وابناه: مجمع وزيد، ونفيل بن الحارث، ومخرج الضبعي، وبجاد بن عثمان، ووديعة بن ثابت، وكان يصلي بهم مجمع، عن الزهري، ويزيد بن رومان وغيرهما، فلما فرغوا من بناء المسجد أتوا رسول الله ﷺ وسألوه أن يصلي فيه، وقالوا: بنينا مسجدًا لذي العلة والحاجة والليلة المطيرة والليلة الشاتية، فصلِّ فيه وادع بالبركة، فقال: «إني على جناح السفر ـ وكان يخرج إلى تبوك ـ فإذا قدمنا أتيناكم وصلينا لكم فيه» فلما انصرف من تبوك أتوه، وسألوه إتيان مسجدهم، فَهَمَّ به، فنزلت الآيات، وأخبره الله تعالى خبر المسجد، وما هموا به، فدعا رسول الله ﷺ جماعة منهم: مالك بن جشعم، ومعن بن عدي، وعامر بن السكن وقال: «انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدموه» فخرجوا سريعًا وهدموه، وأحرقوه، وتفرق أهله، وأمر رسول الله ﷺ أن يتخذ كناسة تلقى فيها الجيف، وسئل عمر أن يأذن لمجمع أن يصلي في مسجد قباء، فقال: «لا، أليس هو إمام مسجد الضرار» فقال مجمع: يا أمير المؤمنين صليت بهم، وأنا لا أعلم ما يضمرون، ولو علمت ما صليت، وكنت غلامًا قارئًا وهم شيوخ لا يقرؤون، فقبل منه عمر، وأمره بالصلاة في مسجد قباء، ولما فتح عمر الأمصار أمر ببناء المسجد، وأمرهم ألا يتخذوا في مدينة مسجدين يضار أحدهما صاحبه.

۞ المعنى

ثم ذكر تعالى صنفًا آخر من المنافقين بنوا المسجد ليفرقوا عن رسول الله، ويحضرهم من يوافقهم، ويطلبوا الغوائل للمسلمين، فأطلع الله تعالى رسوله على أسرارهم، فقال سبحانه: «**وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا**» يعني بنوا مسجدًا، والمسجد: موضع السجود في الأصل، وفي العرف صار اسمًا لبقعة مخصوصة تبنى للصلاة والجماعة، والاسم عرفي في معنى اللغة «**ضِرَارًا**» يعني يريدون باتخاذها ضرار رسول الله ﷺ والمؤمنين، وذلك لينقطع الناس عنه وعن المصير إليه، وليكون موضعًا لمجمع المنافقين ليدبروا على رسول الله ﷺ والمؤمنين التدابير، عن أبي علي. وقيل: ضرارًا لمسجد قباء؛ لينقطع عنه الناس، وقيل: ضرارًا لمسجد رسول الله ﷺ «**وَكُفْرًا**» أي: كان اتخاذهم ذلك كفرًا بالله ونفاقًا ليكفروا فيه بالطعن على رسول

الله ﷺ والإسلام «**وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ**» أي: يقصدون باتخاذه التحزب: حزب يصلى فيه، وحزب يصلى في غيره، فتختلف الكلمة، وتبطل الألفة، ويتفرق الناس عن رسول الله ﷺ» **وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ**» قيل: انتظارًا وتوقعًا لأبي عامر، وهو المحارب لله ورسوله لاجتماعهم على عداوة رسول الله ﷺ حين وعدهم أن يجيئهم(١) من الشام ويأتي المدينة ويُخرجَ محمدًا وأصحابه، فبنوه متوقعًا له، عن ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وأبي علي. وقيل: أراد إقامتهم على الرصد أي: الطريق منتظرًا لمن يحارب الله ورسوله من الكافرين، عن أبي مسلم. «**وَلَيَحْلِفُنَّ**» كاذبًا، وروي أن النبي ﷺ قال لهم: «ما حملكم على بناء المسجد»؟ فحلفوا ما «**أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَى**» قيل: الطاعة، وقيل: الجنة، وقيل: الفعلة الحسنى من التوسعة على أهل الضعف، والعلة من المسلمين «**وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ**» في حلفهم وقولهم؛ لأنهم بنوه لما تقدم ذكره.

ثم خاطب تعالى نبيه فقال سبحانه: «**لا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا**» أي: لا تصلِّ فيه، يقال: فلان يقوم بالليل أي يصلي «**لَمَسْجِدٌ**» يعني واللهِ مسجدٌ «**أُسِّسَ**» أي: بني أصله «**عَلَى التَّقْوَى**» وطاعة الله «**مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ**» أي: من أول يوم بني، وقيل: معناه منذ أول يوم وضع أساسه، عن المبرد. «**أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ**» أي: أولى أن تصلي فيه، واختلفوا في هذا المسجد، قيل: مسجد قباء، عن ابن عباس، والحسن، وعروة بن الزبير، وابن زيد. وقيل: مسجد رسول الله ﷺ، عن ابن عمر، وأبي سعيد الخدري، وزيد بن ثابت، والأصم، وأبي علي. وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «هو مسجدي هذا» رواه أبو سعيد الخدري، وأبي بن كعب. وقيل: كل مسجد بني للإسلام، وأريد به الله تعالى، عن أبي مسلم.

ثم وصف المسجد وأهله، فقال سبحانه: «**فِيهِ**» يعني في المسجد الذي أسس على التقوى «**رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا**» قيل: يتطهرون من الذنوب والمعاصي، عن أبي علي. وقيل: يخلص إيمانهم ويزول دنس الكفر، عن أبي مسلم. وقيل: يتطهرون

---

(١) يجيئهم: يجئهم، أ.

بالصلاة من الأحداث والجنابة وتطهير الثياب، عن أبي علي. وقيل: هو الاستنجاء بالماء، عن عطاء، والكلبي، وروي أن النبي ﷺ قال لأهل قباء: «قد أثنى الله عليكم في الطهور فما هو»؟ قالوا: نستنجي بالماء. «**وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ**» أي: المتطهرين.

ثم قرن[١] عليهم الفرق[٢] بين المسجدين، فقال سبحانه: «**أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ**» أي: المسجد الذي بناه المتقون أسسوه للتقوى والصلاة «**وَرِضْوَانٍ**» الله «**خَيْرٌ**» أي: أفضل وأولى أن تصلي فيه من الذي أسسه أهل النفاق «**عَلَى شَفَا جُرُفٍ**» على شفا جرف وقيل: بئر، وقيل: هوة «**هَارٍ**» أي: ساقط منهدم، وقيل: هذا مثل لإيجادهم مسجدًا على معصية الله يعني أن أهل المسجد يصيرون بعملهم[٣] إلى نار جهنم كما أن من بنى على شفير جهنم ينهار فيه، وهو مَثَلٌ، عن الأصم، وأبي علي، وأبي مسلم. وقيل: يهوي مسجدهم يوم القيامة في نار جهنم، وقيل: هو مَثَلٌ لإيمانهم، وأنه على غير أساس ثابت، وأنه لا بقاء له، وهو كم نبنى على شفاي نهار، عن أبي علي. «**فَانْهَارَ**» أي انهدم، عن الأصم «**فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**» قيل: لا يهديهم إلى الجنة، ولا يرحمهم، وقيل: لا يحكم بهدايتهم، وقيل: لما لم يهتدوا بهدايته، فكأنه لم يهدهم، والظالمون هنا الكافرون «**لا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا**» نفاقًا وكفرًا، ومعنى لا يزالون يعني يصرون عليه، عن أبي علي وأبي مسلم. «**رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ**» قيل: شكًا واضطرابًا، وقيل: تحيرًا وترددًا، يحسبون أنهم كانوا محسنين، عن ابن عباس، وابن زيد. وقيل: شكًا في النبوة؛ لأنهم لما بنوه لذلك وأطلع الله رسوله شكوا في نبوته وما رجعوا عن الكفر بغضًا، وقيل: حسرة وندامة؛ لأنهم ندموا على بنيانه، عن الكلبي. وقيل: لا يزال هدم بنيانهم حرارة وغيظًا وهمًا في قلوبهم، عن السدي، والمبرد. وقيل: أراد بالريب عقوبة الذنب؛ لأنهم بنوا مسجدًا وأنفقوا مالاً وأملوا أمرًا، فخاب أملهم، وبطل عملهم، واشتد أسفهم، وظهر فضائحهم، فبقيت تلك غصة في قلوبهم «**إِلاَّ أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ**» قيل: إلا أن يموتوا

(١) قرن: أقرر، أ.

(٢) عليهم الفرق: على القرآن، ض.

(٣) يعملهم: بعلمهم، د.

فتصير قلوبهم إلى التقطع والبلى، أراد أنهم لا يؤمنون، عن أبي علي، وأبي مسلم. وقيل: هم أهل الطبع الذين لا يؤمنون «**إلا أن تقطع**» استثناء لبعضهم، وهو من اشتد خوفه يعني يتوبون توبة تتقطع منها قلوبهم، حكاه[1] الأصم، وقيل: حتى تنشق قلوبهم غيظًا وغمًا وحسرة «**وَاللَّهُ عَلِيمٌ**» بضمائرهم «**حَكِيمٌ**» فيما يجازيهم به، عن أبي مسلم. وقيل: عليم بكل شيء، حكيم في جميع أفعاله، عن أبي علي.

۞ الأحكام

تدل الآية الأولى أن في أفعال الجوارح ما يكون كفرًا؛ لأنه تعالى نص أن اتخاذهم المسجد ضرارٌ وكُفْرٌ.

وتدل على أن المسجد المتخذ للإضرار وتفريق المؤمنين لا تحل عمارته، ولا القيام والصلاة فيه.

وتدل على أنه لم يَصِرْ مسجدًا؛ إذ لو صار مسجدًا لأمر بإخراجهم، ولم يَنْهَ عن الصلاة فيه، ولا هَدَمَهُ رسول الله ﷺ.

وتدل على أن الفعل يقع على وجوه بالإرادة، فيقع على وجه يكون طاعة، وعلى وجه آخر يكون معصية؛ لأن المسجد إذا بني للضرار كان كفرًا، وإذا بني لله وذِكْرِهِ كان قربة وطاعةً.

وتدل على قبح الكذب والحلف بالكذب، وعلى أن ذلك كبير[2] .

وتدل الآية الثانية على أنه لا ينبغي تكثير سواد أهل البدع.

وتدل على أنه يحب المتطهرين، وحمله أبو علي على التطهير[3] من الذنوب، والتطهير للصلاة، ولا بد منه لأن[4] محبة الله لا تحصل إلا بهما جميعًا.

---

(١) حكاه: وحكاه، د.
(٢) كبير: كبيرًا، ض.
(٣) وحمله أبو علي على التطهير: +، ض.
(٤) لأن: لأنه، د.

وتدل على أن كل شيء اتخذ في معصية الله لا أصل له، كما ضرب به المثل.

وتدل على أنه تعالى لا يهدي الظالم إلى الجنة والثواب، فيبطل قول المرجئة.

وتدل على أن أفعال العباد حادثة من جهتهم من وجوه: منها قوله تعالى: «**واتخذوا**»، ومنها قوله: «**ضرارًا وكفرًا وتفريقًا**»، ومنها قوله: «**وليحلفن**»، ومنها قوله: «**إنهم لكاذبون**»، ومنها قوله: «**لا تقم فيه**»، ومنها قوله: «**يحبون أن يتطهروا**»، ومنها قوله: «**لا يهدي القوم الظالمين**» وجميع ذلك ظاهر؛ فيبطل قول مخالفينا.

قوله تعالى:

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلْعَـٰبِدُونَ ٱلْحَـٰمِدُونَ ٱلسَّـٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّـٰجِدُونَ ٱلْـَٔامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَـٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ ﴾

۞ القراءة

قرأ حمزة والكسائي: «**فَيُقْتَلُونَ**» بفتحها بتقديم المفعول على الفاعل، وهو قراءة النخعي والأعمش على معنى: يقتل بعضهم ويقتل الباقون، وقرأ الآخرون «**فيَقتلون**» بفتح الياء «**ويُقتلون**» بضمها[1]، قدم الفاعل على المفعول على أنهم يقتلون الكفار، ثم يُقتلون، وهذا أوجه.

والقراءة الظاهرة «**بأن لهم الجنة**»، وعن الأعمش (**بالجنة**) وهي قراءة عمر بن الخطاب.

قراءة العامة: «**التائبون**» بالواو إلى آخرها على الاستئناف أي: هم التائبون، وعن ابن مسعود: «**التائبين**» إلى آخرها بدلاً من المؤمنين.

---

(١) حجة القراءات ٣٢٥.

۞ اللغة

الشراء: استبدال الشيء بعوض، وهو أخذه به، والبيع: إعطاء الشيء بالثمن، ومنه: أجرة البغية، ومنه: ﴿يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الفتح:١٨] وقيل: إنه ذكر البيع والشراء توسعًا وتلطفًا في الاستدعاء إلى الطاعة، ومعناه: بذل النفس والمال في مرضات الله ليكون في مقابلته الجنة، ونظيره: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة:٢٤٥]، وقيل: إنه تأكيد للوعد؛ لأن اللزوم إنما يقع بالشراء والبيع، وحقيقة الشراء لا تجوز على الله تعالى؛ لأن الأشياء كلها ملك له، ولا يستبدل ملكه بملكه.

والسيح: مصدر ساح في الأرض يسيح: إذا استمر في الذهاب، ومنه[(١)]: السَّيْح[(٢)] : الماء الجاري، وساح الظل: إذا فاء، ومنه سمي الصائم سائحًا؛ لاستمراره على الطاعة في ترك المشتهى.

۞ الإعراب

«وعدًا» نصب على المصدر أي: وعد وعدًا، وقوله: «اشترى» بدل «وعدًا» ومثله: صُنْعَ الله، وفِطْرَةَ الله.

وفي رفع الحديث قوله، «التائبون» وما بعده يرفع بالابتداء، وخبره في قوله: «بشر» وتقديره: التائبون مبشر بالجنة، وقيل: هو ابتداء وخبره محذوف، أي التائبون لهم الجنة، وقيل: رفع لأنه خبر ابتداء محذوف، تقديره: هم التائبون، وقيل: رفع «التائبون» لأنه بدل من الضمير في قوله: «يقاتلون» يعني: إنما يقاتل في سبيل الله مَنْ هذه صِفَتُهُ، وقيل: لما طال الكلام، وتمت الأولى جاز فيه الرفع، وإن كان معطوفًا على ما تقدم، وقيل: إنه رفع على المدح.

۞ النزول

قيل: لما بايعت الأنصار رسول الله ﷺ ليلة العقبة، وهم سبعون نقيبًا قال عبد

---

(١) ومنه: ومن؛ أ، د، ض.

(٢) السيح: السح، أ.

الله بنرواحة: يا رسول الله، اشترط لربك ولنفسك ما شئت، قال: «أشترط لربي أن تعبدوه، ولا تشركوا به شيئًا، وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم» قالوا: فإذا فعلنا ذلك فماذا لنا؟ قال: «الجنة» قالوا: ربح البيع، لا نُقِيل، ولا نستقيل، فنزلت الآية: «**إن الله اشترى**».

۞ النظم

قيل: «**التائبون**» يتصل بقوله: «**لكن الرسول**» إلى قوله: «**وأولئك هم المفلحون**» ثم ذكر صفتهم، فقال: «**التائبون...**» إلى آخر الآية، عن أبي مسلم.

وقيل: بل يتصل بما قبله وهو قوله: «**وبشر المؤمنين**» كأنه قيل: بشر المؤمنين، فقيل: من هم؟ قيل: التائبون.

ويقال: بل يتصل بقوله[1]: «**إن الله اشترى**».

قلنا: لما تقدم ذكر المؤمنين والمنافقين ووصفهم بَيَّنَ هاهنا حال المؤمنين، وضرب لهم المثل فيما يفعلونه.

۞ المعنى

«**إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى**» ابتاع «**مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ**»، فيجاهدون في سبيل الله بأموالهم ينفقونها في سبيله «**بأنّ**[2] **لَهُمُ الجنَّة**»، أي: بالجنة، فجعل الجنة نار[3] الجهاد، وذلك على وجهين: جهاد بالسيف، وجهاد باللسان، وربما كان جهاد اللسان أعظم؛ لأن[4] سبيل دينه هو التوحيد والعدل والدعاء إليه أولى باللسان، والجهاد بالسيف تبع، ولأن إقامة الدليل على صحة المدلول أولى من القتال بالسيف والاستدعاء به أكثر، وبيان الحق أوضح؛ لأن المبطل قد يظهر بالسيف، ولأن في الاستدعاء إحياء وفي القتال إتلاف، وقد قال النبي ﷺ: «لأن يهدي الله على يديك نسمة خير مما طلعت عليه

---

(١) بقوله: قوله، أ د، ض.

(٢) بأن: فإن، د.

(٣) نار: نارًا، ض.

(٤) لأن: لا، ض؛ لأنه، أ.

الشمس»، وقيل: إنما ذكر شراء النفس والمال؛ لأن العبادات على ضربين: بَدَنِيَّة، ومالية، لا ثالث لهما، والمؤمن يؤدي الحقوق البدنية، والحقوق المالية «**يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا**» أي: على الله حقًا أي: وعدًا صادقًا واجبًا لا خلف فيه، وقيل: وعدًا جعله الله حقًا بأن أعطاه ذلك «**فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ**» يعني أن هذا الوعد منه في الكتب المنزلة «**وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ**» أي: لا أحد أوفى بعهده «**مِنَ اللَّهِ**» فإنه يوفي ما وعد، ويصدق ما أوعد، فلا يجوز عليه الخلف.

ثم هنّأهم، فقال سبحانه: «**فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ**» أي: أبشروا أيها المؤمنون ببيعكم هذا أنفسكم وأموالكم، قال الحسن: إن الله تعالى بايعهم، فأغلاهم، ومن باع سلعة فانية تافهة بأغلى الثمن، فإنه يستبشر به، فهؤلاء باعوا الفاني بالباقي» **وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**» الظفر العظيم بالبغية.

ثم وصف المؤمنين، فقال سبحانه: «**التَّائِبُونَ**» قيل: الراجعون إلى الله النادمون من معاصيه «**الْعَابِدُونَ**» المتذللون له بطاعته في أوامره ونواهيه، قال الحسنوقتادة: همقومأخذوا من أبدانهم في ليلهم ونهارهم، فعبدوا الله في السراء والضراء، «**الْحَامِدُونَ**» الذين يحمدون الله على كل حال، وقيل: يعترفون بنعمه[١] ويشكرونه ويصير ذلك عادة لهم «**السَّائِحُونَ**» قيل: الصائمون، عن عبد الله بن مسعود، وابن عباس، وسعيد بن جبير، والحسن، ومجاهد، وسفيان بن عيينة، وروي مرفوعًا عن النبي ﷺ أنه قال: «سياحة أمتي الصوم»، قال الحسن: الذين صاموا عن الحلال، وأمسكوا عن الحرام، قيل: هم الغزاة والمجاهدون؛ لأنهم يسيحون في الأرض، عن عطاء. وقيل: هم طلبة العلم، عن عكرمة. وقيل: السائر في الأرض لوجه من وجوه البر «**الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ**» يعني: المصلين «**الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ**» قيل: المعروف طاعة الله والأفعال الحسنة التي اعترف العقل والشرع بحسنها، والمنكر القبائح التي ينكرها العقل والشرع، وقيل: المعروف: السنة، والمنكر البدعة «**وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ**» قيل: القائمون بطاعة الله، عن ابن عباس. يعني: يؤدون فرائض هو أوامر هو يجتنبون نواهيه؛ لأن حدوده أوامره[٢] ونواهيه «**وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ**»

---

(١) بنعمه: لنعمه، د.

(٢) اوامره: وأوامره، د.

بالجنة والثواب، وقيل: من اجتمع فيه هذه الأوصاف، فإنه لا يجب عليه شيء إلا ودخل تحت قوله: «**وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ**»، وإنما أدخل الواو في قوله: «**وَالنَّاهُونَ**» «**وَالْحَافِظُونَ**» ؛ لأنها أعز مما تقدم، فعطف عليه.

الأحكام

تدل الآية الأولى على عَظَمَ أمر الجهاد وموقعه في العبادة، وذكر البيع والشراء توسعًا، وهو من فصيح الكلام، ووجهه: أنه جعل بذلهم أنفسهم في الجهاد طلبًا للثواب بيعًا، وجعل ما طلبوه، وهو الجنة ثمنًا، ولما كان هو الآمر به، والمرغب فيه، وقابل ما بذلوه، وباذل ما طلبوه وصف بأنه مُشْتَرٍ.

وتدل على أن الجهاد من تعبد التوراة والإنجيل أيضًا، كما هو متعبد به في القرآن.

وتدل على أنه تعالى لا يخلف وعده ووعيده.

وتدل على أن الجنة لا تنال بالجهاد وحده حتى يَنْضَمَّ إليه ما ذكر في الآية الثانية، فيبطل قول المرجئة.

وتدل الآية على جميع العبادات التي تعبد الله بها في التوبة، وأداء الفرائض، واجتناب الكبائر، ثم جمع جميع ذلك في قوله: «**وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ**».

وتدل على أن الجهاد وجميع ما ذكر من الأوصاف فعلهم؛ لذلك مدحهم به.

قوله تعالى:

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾

القراءة

قراءة العامة: «**إياه**» بالياء، وعن الحسن «**وعدها أباه**» بالباء من الأب.

۞ اللغة

الاستغفار: طلب المغفرة، وهو ستر الخطيئة بترك العقوبة.

والأواه أصله: التأوه، وهو التوجع والتحزن، تأوه تأوهًا، وأَوَّهَ تأويهًا، قال الشاعر:

إذا ما قُمْتُ أَرَحْلُهَا بِلَيْلٍ   تَأَوَّهُ آهَةَ الرَّجُلِ الحَزِينِ[1]

ولو جاء منه فعل مصرفا لكان: آه يؤُوهُ أَوَهًا، مثل: قال يقول قَوْلاً.

وتبرأ «تَفَعَّلَ»[2] من البراءة، يقال: برئ من كذا أبرأه، وبرئ منه، وجَمْعُهُ: بُرَآءُ على وزن «فُعَلاء»، ويجوز «بُرَّاء» على «فُعَّال»، وقد جاء بِرَاء بكسر الباء، نحو: طريف وطِرَاف، وخَفيف، وخِفاف.

۞ الإعراب

(ما): حرف يقع على وجوه كثيرة، فـ(ما) النفي، كقوله: ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآ﴾ [النمل:٦٠]، و(ما) النهي، كقوله: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ [الأحزاب:٥٣]، و(ما) الكافة، كقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات:١٠]، و(ما) الاستفهام، كقوله: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ﴾ [طه:١٧]، و(ما) المصدر، كقوله: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥﴾ [الشمس:٥]، و(ما) الإتيان بمعنى (الذي)، و(ما) الصلة، كقوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [التوبة:١١٤].

(النبي) و(المؤمنون) محله رفع؛ لأنه اسم (كان)، وخبره في قوله: «أن يستغفروا»، وتقديره: ما كان النبي[3] مستغفرًا.



۞ النزول

اختلفوا في سبب نزول الآية على ثلاثة أقوال:

(١) الصحاح (رحل)، والعين(أوه)، والمحكم(أوه)، وتهذيب اللغة (أوه)، ولسان العرب(أوه).

(٢) تفعل: يفعل، أ.

(٣) النبي: للنبي، د.

الأول: قالوا: نزلت في شأن أبي طالب، ثم اختلف هؤلاء، فقيل: إن أبا طالب لما حضره الموت دخل عليه النبي ﷺ، وعنده الملأ من قريش، فقال: «يا عم، إنك أعظم الناس عليّ حرمة، وأحسنهم عندي يدًا، فقل كلمة تجب لك بها شفاعتي يوم القيامة، قل: لا إله إلا الله»، فنهاه أبو جهل وأمثاله عن ذلك، فكان آخر ما تكلم به أن قال: أنا على ملة عبد المطلب، فقال ﷺ: «لأستغفرن لك ما لم أُنْهَ»، فنزلت الآية، عن سعيد بن المسيب.

وقيل: قال النبي ﷺ: «استغفر إبراهيم لأبيه، وأنا أستغفر لعمي ـ لأبي طالب ـ حتى ينهاني ربي»، وقال أصحابه: نحن نستغفر لآبائنا، فنزلت الآية، عن عمرو بن دينار.

وقيل: استغفرله بعدما مات، واستغفر المسلمون لآبائهم، فنهوا عن ذلك، ونزلت الآية، عن محمد بن كعب.

وقيل: هذا لا يصح؛ لأن أبا طالب مات بمكة، وبراءة من آخر ما نزلت بالمدينة، ولأنه (عليه السلام) لا يستغفر إلا بإذن، وإذا أُذِنَ يجاب، ولا يجوز ألا يجاب لما فيه من التنفير، ولأنا بيَّنَّا من قبل ما يدل على أن أبا طالب مات مسلمًا، فلا يصح حمل الآية على ما قالوا.

الثاني: أنها نزلت في بيان أبويه لما أراد أن يستغفر لهما، ثم اختلف هؤلاء، فقيل: لما قدم النبي ﷺ مكة أتى قبر أمه، ووقف رجاء أن يؤذن له، فيستغفر لهما، فنزلت الآية، فقام وبكى وبكى من حوله، وقال: «استأذنت ربي أن أزورهما فأذن، واستأذنته أن أستغفر لهما فلم يأذن لي، فزوروا القبور تذكركم الآخرة»، عن أبي هريرة، وبريدة.

وقيل: أتى قبر أمه ودعا لها، فنزلت الآية، فقال ﷺ لجبريل: «إن إبراهيم استغفر لأبيه» فنزلت: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ﴾ الآية، عن الأصم، وهذا أيضًا فيه نظر؛ لما بيَّنَّا أنه ﷺ لا يستغفر إلا بإذن.

الثالث: أنها نزلت في غيره، ثم اختلفوا، فقيل: كانوا يستغفرون لأمواتهم المشركين، فنزلت الآية عن ابن عباس.

وقيل: قال رجل: يا رسول الله، إن من آبائنا من كان يحسن الجوار، ويصل الأرحام، ويفك العاني، أفلا نستغفر لهم؟ فنزلت الآية، عن قتادة.

وقيل: لما نزل قوله حكاية عن إبراهيم: ﴿لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ [الممتحنة:٤]، استغفر رجل لوالديه، وهما مشركان، فنهي عن ذلك، وقال: أستغفر لهما كما استغفر إبراهيم لأبيه، فذكر ذلك للنبي ﷺ، فنزلت الآية.

۞ النظم

قيل: لما تقدم ذكر الكفار والمنافقين، ومنع من موالاتهم، والصلاة عليهم، ومخالطتهم، والدعاء لهم عند موتهم، نهي عن الدعاء بعد الموت، وذكر قصة إبراهيم وبراءته من أبيه لكفره.

وقيل: لما نهى النبي عن الاستغفار للمشركين بَيَّنَ قصة إبراهيم، وعذره في استغفاره لأبيه.

ومتى قيل: كيف يتصل قوله: «**أواه حليم**» بما قبله من البراءة؟

قلنا: تقديره: أن من صفته الرأفة والرحمة، فهو في خلاص أقربائه أحرص، وعلى هذا لما تبين أنه عدو لله تبرأ منه.

۞ المعنى

«**مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ**» قيل: إنه نفي، يعني أن أحدًا من الأنبياء لم يستغفر لمشرك، ولا جعل الله ذلك في دينه، ولا أباح ذلك له، وقيل: بل هو نهي أن ليس للنبي والمؤمنين أن يفعلوا ذلك. وقيل: إنما ذكر النبي ﷺ لأنه مع جلالته إذا لم يؤذن له في ذلك فغيره أولى «**أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ**» أي: يطلب المغفرة لهم. وقيل: المراد بالاستغفار الصلاة عليه، عن عطاء. وقيل: إن الاستغفار للمشرك يحسن عقلاً إلا أن الشرع منع منه، فيجوز أن يكون النبي والمؤمنون يستغفرون على قضية العقل حتى ورد الشرع بالنهي. وقيل: إن النبي ﷺ لا يقدم عليه إلا بإذن وإن جاز عقلاً؛ لأنه لا يأمن ألا يجاب، فيكون فيه تنفير. وقيل: إنه يصح عقلاً إلا أنهم كانوا يستغفرون

بشرط الإيمان كما فعله إبراهيم، وهذا غير ممنوع منه، فإذًا الصحيح أنه لم يفعل ذلك، ونهي عن ذلك، وإن لم يتقدم منه فعل «وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى» أي: أولي قرابة، وإنما خص الأقرباء؛ لأن القلب لهم أرق، والشفقة عليهم أكثر، وأمورهم لهم «مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ» يعني [بعد] ما ظهر كفرهم؛ لأنه يجوز أن يستغفر لهم على ظاهر إيمانهم، فإذا تبين نفاقهم وكفرهم لا يجوز أن يستغفر لهم، وأصحاب الجحيم الملازم[1] للنار دائمًا.

ثم بَيَّنَ قصة إبراهيم وعذره، فقال سبحانه: «وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ» آزر، قيل: آزر أبوه، وقيل: عمه، وليس بشيء؛ لأن قول الله أصدق «إِلاَّ عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ» قيل: وعد إبراهيم بالاستغفار ما دام يطمع في إيمانه على ما يجوز في الشرع، والهاء في قوله: «إِيَّاهُ» ترجع إلى آزر، وقيل: وعده أبوه أنه يؤمن إن استغفر له، والهاء في «إِيَّاه» على هذا راجعة إلى إبراهيم، وهذا يوافق قراءة الحسن، وكيف دعا، فقيل: كان يقول: «اللهم اغفر له إن وفى بما وعد». وقيل: كان يدعو مطلقًا، وكان ذلك جائزًا في شريعته إذا وعد أنه يؤمن، أو يرجو إيمانه، ويكون لطفًا له. وقيل: كان ينافق إبراهيم، فيظهر الإيمان ويبطن الكفر، فلما تبين نفاقه تبرأ منه «فَلَمَّا تَبَيَّنَ» أي ظهر لإبراهيم «أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ» قيل: بموته على الكفر، عن ابن عباس، ومجاهد، وقتادة. وقيل: باليأس منه بأمارات ظهرت وَوَعْدٍ لم يف به، عن أبي علي. وقيل: بإخبار الله بنفاقه «تَبَرَّأَ مِنْهُ» أي: أظهر البراءة وقطع العصمة والموالاة وترك الدعاء والاستغفار «إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ» قيل: الخاشع المتضرع، عن النبي ﷺ فيما رواه عبد الله بن شداد بن الهاد. وقيل: التواب، عن ابن عباس. وقيل: الدَّعَّاءُ، عن ابن مسعود، وعبيد بن عمير، والضحاك، ورواه الأصم عن النبي ﷺ. وقيل: الرحيم بعباد الله، عن الحسن، وقتادة، ونحوه عن ابن مسعود. وقيل: المؤمن عن مجاهد، والضحاك. وقيل: من إذا ذكر الله أوَّه، عن كعب. وقيل: المتواضع المتضرع إلى ربه خوفًا وإشفاقًا، عن أبي عبيدة. وقيل: الكثير الذكر لله سبحانه، عن عقبة بن عامر. وقيل: الأواه: الفقيه، عن النخعي. وقيل: الذي يتأوه من الذنوب

(١) الملازم: للازم، أ؛ اللازم، د.

والعقاب، عن الفراء، وأبي علي. وقيل: معلم الخير، عن سعيد بن جبير. وقيل: هو الراجع عن كل ما يكره الله، عن عطاء. «حَلِيمٌ» قيل: من لا يعجل إلى شهوة وفساد، وقيل: الذي يصفح عن الذنب، فإن أباه قال له: لأهجرنك، فقال: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَ﴾ [مريم:٤٧]، وقيل: الحليم السيد، عن ابن عباس. وقيل: الذي لا يعجل بعقاب المعصية.

وروي أنه من حلم إبراهيم أن رجلاً من قومه آذاه وشتمه، فقال له: هداك الله.

۞ الأحكام

تدل الآية على أنه تعالى لا يغفر لمشرك، كذلك منع عن الاستغفار لهم.

وتدل على تحريم الاستغفار لهم بعدما ظهر شركهم، فتدل على أنه يجوز أن يستغفر على الظاهر إذا لم يعلم ما في باطنه.

وتدل على أن هذه الأفعال فَعْلُهم؛ لذلك صحت الإضافة وتعليق الثواب والعقاب بها، ولا خلاف أن الاستغفار للمشرك لا يجوز شرعًا، واختلفوا هل يجوز عقلاً أم لا؟ فقال أبو هاشم: يجوز، وقال أبو علي: لا يجوز.

قوله تعالى:

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾﴾

۞ اللغة

أحياه يحييه إحياءً: إذا جعله حيًّا، وأماته يميته إماتة: إذا جعله ميتًا، والموت والحياة عرضان، لا يقدر عليهما غير الله تعالى.

وقال أبو هاشم: الحياة معنى، وصحيح القول في الموت.

وذكر القاضي أن السمع دل على أنه معنى قوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾

[الملك: ٢]، والحياة كلها جنس واحد ليس منها مختلف ولا متضاد، والله تعالى حي لم يزل، ولا يزال، لا بحياة.

والنصير والناصر والمعين بمعنى، إلا أن النصير مبالغة[1].

الإعراب

«ما يتقون» موضعه نصب، تقديره: حتى تتبين لهم التقوى.

«له ملك» موضعه رفع؛ لأنه خبر (إن) تقديره: إن الله مالك.

النزول

قيل: الآية نزلت في استغفارهم للمشركين بَيَّنَ أنه لا يؤاخذهم بذلك ما لم يبين لهم التحريم، عن مجاهد. وهذا يدل على أنه لا يقبح عقلاً؛ إذ لو قبح لأخذوا به.

وقيل: لما أنزل الله تعالى الفرائض، وعمل به الناس، ثم حولت القبلة، وحرمت الخمر، ونسخ بعض الأحكام سألوا رسول الله، وقالوا: كيف بإخواننا الذين انقرضوا وغابوا؟ فنزلت الآية، عن مقاتل، والكلبي، والفراء.

وقيل: إن قومًا ماتوا قبل أن تنزل الفرائض، قالوا: يا رسول الله، ما حال إخواننا ماتوا قبل أن تنزل الفرائض؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية، ذكره الأصم.

النظم

يقال: كيف تتصل الآية بما قبلها؟

قلنا: لما حرّم الله تعالى الاستغفار للمشركين عَقَّبَهُ بأنه لا يؤاخذهم بما تقدم، ما لم يبين التحريم، عن مجاهد، والأصم، وأبي مسلم.

ويقال: كيف يتصل: «**إن الله له ملك السموات**» بما قبله؟

---

(١) النصير مبالغة: النصرة بالغة، د.

قلنا: لما أمر بقطع عصمة الكفار والبراءة منهم بيّن أن له ملك السموات، وإذا كان هو ناصرهم فهم[1] لا يقدرون على إضراركم.

وقيل: لما أمر بالموالاة مع المؤمنين وقطع الموالاة مع الكفار بَيَّنَ أن له ملك السموات والأرض، ينهى عما يشاء ويأمر بما يشاء.

وقيل: لما أمر ونهى بيّن أن له ملك السموات والأرض، فتلزم طاعته في جميع ذلك.

۞ المعنى

«وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ» قيل: لا يضلهم عن الثواب وطريق الجنة بعد إذ هداهم ودلهم عليه حتى يبين لهم ما يتقون به المعاصي، ويلزمهم من الطاعات، فيخالفوا ذلك، عن أبي علي. وقيل: ما كان الله ليحكم بضلال قوم وقد وحدوه وآمنوا به، وإذا لم يعلموا ما عليه من الاستغفار لآبائهم حتى يبين لهم ما يتقون[2]، عن الأصم، قال الكميت:

وطَـائِـفَـةٌ قَـدْ أَكْـفَـرُونِـي بِـحُـبِّـكُـمُ وطَـائِـفَـةٌ قَـالُـوا مُـسِـيءٌ ومُـذْنِـبُ[3]

أي: حكموا بالكفر.

وقيل: ما كان الله ليعذب قومًا بعد إذ دعاهم إلى الهدى والإيمان المؤدي إلى الجنة حتى يبين لهم ما يستحق به الثواب من التقوى، عن أبي مسلم، والضحاك.

واختلفوا في المراد بالآية، وأي بيان هو؟ فقيل: هو عام في جميع الطاعات والمعاصي، عن مقاتل، والكلبي، والضحاك، وأبي علي.

وقيل: هو في الاستغفار للمشركين، عن الأصم، وأبي مسلم. وتقديره على هذا: ما كان الله ليحكم بضلالكم، وإن استغفرتم للمشركين قبل أن يتقدم بالأمر والنهي.

---

(١) فهم: +، ض.

(٢) ما لا يتقون: ما لا يتقون، د.

(٣) لسان العرب (خبث)، وتاج العروس(خبث).

«**إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**» فيعلم ضمائركم ويجازيكم بحسبه.

«**إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ**» خلقًا وملكًا «**يُحْيِي وَيُمِيتُ**» بأن يخلق الحياة والموت «**وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ**» قيل: ليس أحد يتولى أمركم ويدفع عنكم، ولا ناصر ينصركم على الله، وقيل: الولي والناصر بمعنى، وهما المعنى، عن أبي مسلم.

۞ الأحكام

تدل الآية على أنه لا يعذب إلا بعد البيان، وإزاحة العلة، وإذا ثبت ذلك، فكيف يعذب بخلق الكفر فيهم؟!

وتدل على أن أفعالهم فِعْلُهُمْ؛ إذ لو لم تكن لما احتاجوا إلى البيان.

وتدل على أنهم قادرون على الأفعال، وأن القدرة قبل الفعل؛ إذ لو كانت مع الفعل موجبة لكان وجود البيان وعدمه بمنزلة.

وتدل على أنه بكل شيء عليم، فحذر عن معاصيه سرًّا وجهرًا، وفي «عليم» مبالغة، والله تعالى عالم بكل شيء، لم يزل، ولا يزال؛ لأنه عالم بنفسه.

قوله تعالى:

﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾

۞ القراءة

قرأ حمزة وحفص عن عاصم «يزيغ» بالياء لتقدم الفعل[1] وهو قراءة الأعمش، قال الأعمش: لو قرأتها بالتاء لقلت كادت، وقرأ الباقون بالتاء لتأنيث قلوب، ويدل عليه ما روي عن ابن مسعود: **(من بعد ما زاغت قلوب فريق)**.

(١) حجة القراءات ٣٢٥.

۞ اللغة

العسر: ضد اليسر، وهو: صعوبة الأمر، وعسر الأمر: إذا صار عسيرًا، وأعسر: إذا ضاق، وعسرت المرأة: إذا عسر وِلاَدُها، وعسرك[1] الرجل: إذا طالبك بشيء في غير حال يسرك.

والزيغ: ميل القلب عن الحق، وأصله: الميل، والتزايغ: التمايل، وقوم زاغة عن الشيء وزائغون، وزاغت الشمس: مالت، وزاغ عن الطريق: جاز وعدل.

۞ الإعراب

«الذين اتبعوه» محله خفض؛ لأنه[2] بدل من المهاجرين والأنصار.

۞ النزول

قيل: نزلت في غزوة تبوك وما لحق المسلمين فيها من العسر حتى هَمّ قوم بالرجوع، ثم تداركهم لطف الله، فمضوا، وقبل الله منهم، ففي ذلك نزلت الآية.

۞ النظم

اختلفوا بماذا تتصل هذه الآية:

فقيل: إنها تتصل بقوله: «التائبون. . .» الآية، كأنه قيل: لما أتوا بجميع هذه الأعمال من التوبة وأصناف الطاعات، وكان ذلك ثناء من الله تعالى عليهم بَيَّنَ في هذه الآية قبول توبتهم ورضاه عنهم باتباعهم النبي في ساعة العسرة، عن أبي مسلم.

وقيل: لما ذكر أن له ملك السموات والأرض ولا ناصر لأحد دونه بيّن رحمته للمؤمنين ورأفته بهم، وقبول توبتهم.

۞ المعنى

«لَقَدْ تَابَ» قيل: قَبِلَ توبتهم وطاعاتهم، وما تحملوا في مرضاته من المشقة

---

(١) عسرك: عسرني، أ.

(٢) لأنه: لا، د.

فصاروا في كلمة تائبين، عن أبي علي وجماعة[١]. وقيل: لطف لهم حتى تابوا «**عَلَى النَّبِيِّ**» قيل: ذكر اسمه مقتادًا للكلام وتحسينًا له، ولأنه سبب توبتهم كقوله: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ﴾ [الأنفال: ٤١] وإلا لم يكن منه ما يوجب التوبة، وقيل: تاب عليه بإذنه للمنافقين في التخلف عنه، عن جماعة من المفسرين. «**وَالْمُهَاجِرِينَ**» الذين هجروا ديارهم وعشائرهم «**وَالأَنْصَارِ**» الذين تَبَوَّؤُوا الدار والإيمان[٢] ونصروا الرسول «**الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ**» أي: أطاعوه عند دعائه إياهم إلى الجهاد «**فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ**» أي: وقت العسرة وصعوبة الأمر، قال جابر: عسرة الزاد، وعسرة الظهر، وعسرة الماء. وقيل: كان ذلك في غزوة تبوك، عن مجاهد، وجابر، وقتادة، وأكثر المفسرين؛ لأنهم خرجوا مع[٣] حر شديد، وضيق شديد. وقيل: يحتمل تلك الغزوة وغيره، نحو يوم الأحزاب ويوم الحديبية، عن أبي مسلم. وإنما وصف بالعسرة لشدة الأمر، قيل: لحقهم فيها مشقة عظيمة من قلّة الماء والزاد والظهر، عن مجاهد، وقتادة. قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه ـ: أصابنا عطش شديد، فدعا النبي ﷺ فأمطر الماء بدعائه فعشنا به. وقيل: كانت العَشَرَةُ على بعير يعتقبونه، وكانوا يصومون فإذا بلغ بأحدهم[٤] الجوع مبلغًا أخذ تمرة يمصها، ثم يعطيها صاحبه، ثم يشرب الماء، فلا يزالون يمصها النفر حتى لا تبقى إلا النواة، عن الحسن. وقيل: كانوا يشربون عصارة الفرث إذا نحروا الجزور من شدة الحال، ولهذا سمي عثمان مجهز الجيش؛ لأنه وقومه أنفقوا مالاً في تلك الغزوة غير أن أحدًا لم يبلغ ما بلغ عثمان، فسمي: مجهز جيش العسرة.

«**مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ**» هموا بالانصراف من غزاتهم، قبل أمر الله تعالى، عن الأصم. وقيل: كادوا يميلون من حسن النية في الجهاد، ثم تابوا، عن أبي علي. وقيل: من شدة الأمر طمع الشيطان في قلوبهم، ولم تزغ ولم يذكره الله عنهم، عن الأصم. وليس هذا بزيغ عن الإيمان. «**ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ**» يعني: الذين كادت قلوبهم تزيغ.

---

(١) من المشقة... عن أبي علي وجماعة: ـ، ض.

(٢) والإيمان: +، ض.

(٣) مع: من، أ.

(٤) بأحدهم: بهم، أ.

ومتى قيل: إذا لم تكن منهم معصية فما معنى قبول توبتهم؟

قيل: هو قبول طاعاتهم وما قاسوه من الشدة في غزواتهم.

وقيل: توبتهم عن سائر المعاصي لما ظهر منهم في هذا الغزو من البصيرة، وإن كانت التوبة متقدمة.

وقيل: كانوا يجددون التوبة، ويكثرون الاستغفار.

وقيل: هموا بالانصراف عن الغزو من غير أمر، ثم تابوا، ولم ينصرفوا، وهذا هو الوجه.

«إِنَّهُ» يعني الله تعالى «بِهِمْ» أي: بالمؤمنين «رَؤُوفٌ رَحِيمٌ» أي: عظيم الرأفة والرحمة، والرأفة أعظم الرحمة، وقيل: الرأفة تتضمن رحمة سابقة، والرحيم يتضمن رحمة مستقبلة.

۞ الأحكام

تدل الآية على فضل المهاجرين والأنصار لتحملهم تلك المشاق في الدين في تلك الغزوة، وعلى فضائل عثمان خصوصًا.

وتدل على فضلهم حيث جمع بين ذكر النبي ﷺ وذكرهم.

وتدل من وجه آخر أنه وصفهم باتباع النبي، فيوجب أنهم اتبعوه ظاهرًا وباطنًا، فيوجب القطع على صفاء سرائرهم، ووجوب موالاتهم.

وتدل على أن بعضهم هَمّ بشيء، ولم يفعل.

وتدل على أن جميعهم لم يفعلوا لذلك قال: «يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ».

وتدل على أنهم لم يزيغوا؛ لأن (كاد) للمقاربة دون الفعل.

قوله تعالى:

﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١١٨﴾

۞ القراءة

قراءة العامة «خُلِّفُوا» بضم الخاء وكسر اللام وتشديدها، على ما لم يسم فاعله، يعني خلفهم غيرهم، وعن عكرمة: «خَلفوا» بفتح الخاء واللام والتخفيف من الخلف، أي: قعدوا بعد رسول الله، وأفسدوا،[و] عن جعفر بن محمد الصادق (عليه السلام): «خالفوا»، وعن الأعمش: المخلفين.

۞ اللغة

الخلف: نقيض القدام، وهو الأصل في الباب، والخَلْفُ والخَلَفُ: من جاء من بعد، والخَلْفُ: الرديء من القول، وخلف فوه وأخلف: تغير رائحته، ومنه: خلوف فم الصائم؛ لأنه يكون خلف الخَوَى(١)، والخليفة: من يخلفه بعده، وخلفه: جعله خلفه، فهو مخلف.

والرحب: السعة، ورحبت: اتسعت، يقال: رحب يرحب رحبًا، ومنه: مرحبًا وأهلاً، أي: اتسعت بلادك، وأهلت، وقيل: معناه: أوتيت سعة، ومكان رحيب واسع، ومن زجر الخيل: أرْحَبِي، أي: توسعي، والرُّحْبَى: أعرض الأضلاع في الصدر، سمي بذلك لسعته.

والملجأ: الموضع الذي يعتصم به، لجأ إليه وألجأه إلى كذا إلجاءً: إذا صيره إليه بالمنع من خلافه، والتجأ إليه التجاءً: إذا اعتصم به.

۞ الإعراب

الواو في قوله: «وعلى الثلاثة» واو عطف، تقديره: لقد تاب الله على النبي والمهاجرين، وعلى الثلاثة.

والألف واللام في قوله: «الثلاثة» للعهد دون الجنس؛ لأنهم ثلاثة معلومة للنبي ﷺ.

---

(١) المقصود به الجوع.

«**لا ملجأ**» نصب؛ لأنك نفيته، كقوله: لا رفثَ، ويجوز «**لا مَلْجأٌ**»[(١)] بالتنوين على تقدير: ليس ملجأ.

۞ النزول

أجمع المفسرون بأن هذه الآية نزلت في شأن كعب بنمالك، ومرارة بن الربيع، وهلال بن أمية، وذلك أنهم تخلفوا عن رسول الله ـ وكانوا مؤمنين ـ فيمن تخلف من المنافقين، ورووا الأعذار والعلل، وهم بضعةٌ[(٢)] وثمانون رجلاً، قال الأصم: وهؤلاء الثلاثة كانوا مسلمين، لا تخلف فيهم، قال: وذكروا أن أحدهم كان له أرض، فتخلف لعمارتها، والآخر كان قريب عهد بعرس، فخلفه قربها، ولم يكن للثالث أهل ولا مال، وكان فيه توان.

وعن كعب: ما تخلفت عن رسول الله ﷺ في غزوة غير بدر، ولم يكن يعاقب أحدًا تخلف عنها، ولقد شهدت ليلة العقبة، وهو نظير بدر، ثم تخلفت في غزوة تبوك، وكان في وقت شديد الحر، وقد طابت الثمار، فخرج رسول الله ﷺ، وطفقت أعدو كل يوم أتجهز وأرجع، ولم أصنع شيئًا، وخرج الناس إلا رجلا من أهل النفاق، أو صاحب[(٣)] عذر، ولم يذكرني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك، فقال وهو جالس في القوم: «ما فعل كعب بنمالك» فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة، ودخل المسجد، وصلى ركعتين، وقعد الناس، وجاء المخلفون، فطفقوا يعتذرون، ويحلفون، فقبل منهم واستغفر لهم، وَوَكَلَ سرائرَهم إلى الله تعالى، وجئت وسلمت، وجلست بين يديه، فقال لي: «ما خلّفك»؟ فقلت: لو جلست بين يدي غيرك لكان لي مخرج، فقد أعطيت جدلا، والله لا أكذب بين يديك، والله ما كان لي عذر، فقال ﷺ: «أما هذا فقد صدق، قم حتى يقضي الله فيك» فقمت وثار رجال من بني سلمة، وقالوا: هلا اعتذرت بما اعتذر به غيرك، فقلت: هل فعل مثل ما

---

(١) لعلها نصب «لا ملجًا»؛ لأن اسم ليس مستتر، حيث يجوز أن يكون مفردًا مبنيًا على الفتح أو منونًا.

(٢) بضعة: بضع؛ أ، د، ض.

(٣) صاحب: وصاحب د.

فعلت أحد؟ قالوا: نعم، مرارة بن الربيع، وهلال بن أمية، فذكروا رجلين صالحين قد شهدا بدرا، فمضيت، ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا الثلاثة، فقعدنا في بيوتنا نبكي، وكنت من بينهم أشهد الصلاة، وأطوف، ولا يكلمني أحد، وآتي رسول الله ﷺ فأكلمه، وأسلم عليه، وأنظر: هل رد عليّ أم لا، فلما مضت أربعون ليلة أتى آتٍ، وقال: إن رسول الله يأمرك أن تعتزل امرأتك، فقلت: أطلقها، فقال: «لا، ولكن اعتزلها» وكذلك أمر صَاحِبَّي، وربطنا أنفسنا بسواري المسجد حتى مضت خمسون ليلة من حين نهى عن كلامنا، وضاقت علينا الأرض، فكنت أصلي على ظهر بيتي صلاة الصبح، فسمعت نداء: أَبْشِرْ يا كعب، فخررت ساجدًا، وخرجت حتى دخلت المسجد، والنبي ﷺ جالس، والمسلمون حوله، فقام إليّ طلحة يهرول، وصافحني، وقال: لِتَهْنِكَ تَوْبَةُ الله عليك، وما قام من المهاجرين أحد غيره، وكان كعب لا ينساها لطلحة، فلما سلمت قال ﷺ: «أَبْشِرْ يا كَعْبُ» فقلت: يا نبي الله، أمن عند الله، أو من عندك؟ فتلا: «**لقد تاب الله**»، «**وعلى الثلاثة. . .**» الآيات.

وعن الحسن: بلغني أنه كان لأحدهم حائط خير من مائة ألف درهم، فقال: يا حائطاه، ما خلفني إلا ظلك، اذهب، فأنت في سبيل الله، ثم لحق برسول الله.

والآخر كان له أهل فقال: يا أهلاه[1]، ما أبطأني[2] عن رسول الله ﷺ إلا ألصق بك، لا جرم لأكابدن المفاوز، وألحقن برسول الله ﷺ.

وأما الثالث: فلم يكن له أهل ولا مال، فقال: يا نفس، ما خلفني عن رسول الله ﷺ إلا حب الحياة، لا جرم، لأكابدن الشدائد، حتى ألحق برسول الله ﷺ.

۞ المعنى

ثم بَيَّنَ تعالى حال هؤلاء الثلاثة الذين تخلفوا لا لعذر، ولا نفاق، فقال سبحانه: «**وَعَلَى الثَّلَاثَةِ**» أي: وتاب على الثلاثة، الألف واللام للعهد لا للجنس، وكانوا

(١) أهلاه: هلاه، د.

(٢) أبطأني: بطأني، د.

معلومين للنبي ﷺ والمؤمنين، وهؤلاء هم: كعب بن مالك، ومرارة بن الربيع، وهلال بن أمية، وكلهم من الأنصار، عن ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وجابر. فأما هلال ومرارة فمن البدريين، وأما كعب فلم يشهد بدرًا. وقيل: هم المرجون لأمر الله، وقيل: هم غير الذين خلفوا، وقيل: خلفوا عن غزاة تبوك، عن قتادة، والأصم. وخرج المسلمون، وتخلفوا، فصاروا مخلفين، وإن لم يخلفهم غيرهم كقولهم: فلان معجب بنفسه، وقيل: خلفهم المسلمون حين خرجوا، وقيل: خلفوا عن عرى التوبة، عن مجاهد. كأنهم أخروا في قبول توبتهم عن توبة غيرهم، فصاروا مؤخرين، وقيل: خلفوا عن إنزال قبول توبتهم، وقيل: خلفهم اشتغالهم بالدنيا عن صحبة النبي ﷺ «**حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ**» أي: اتسعت، يعني ضاقت عليهم الأرض بسعتها، وهذا مثل لمن ضاق قلبه، قيل: خوفًا من الله وغمًّا بذنوبهم لعلمهم بالوعد والوعيد، وأنه تعالى قادر عليهم، ولا ملجأ من الله إلا إليه، وقيل: لإعراض النبي عنهم وهجران المسلمين إياهم، فروى كعب قال: لما طال الأمر، ولا يكلمني أحد دخلت على أبي قتادة في حائطه، وهو ابن عمي، وأحب الناس إليّ، فسلمت عليه فما رد، فقلت: يا أبا قتادة، أنشدك الله، هل تعلم أني أحب الله ورسوله؟فسكت حتى أعدت ثلاثًا، فقال: الله ورسول أعلم، ففاضت عيناي، وتوليت، «**وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ**» أي: ضاقت صدورهم غمًّا وحزنًا «**وَظَنُّوا**» أيقنوا «**أَنْ لا مَلْجَأَ**» مَنْجَى وموضع يلتجأ إليه «**مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ**» يعني ليس من يلتجأ إليه في قبول توبته غيره تعالى، وقيل: علموا أنهم مبعوثون، عن الأصم. ولا شبهة أن الله تعالى قبل توبتهم لما علم صدقهم وإخلاصهم، ولكنه تأخر إنزال توبتهم لمصلحة، ولأن بيان قبول التوبة[1] غير واجب، وإنما الواجب القبول.

«**ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا**» فيه أقول:

الأول: قيل: لطف لهم في التوبة ليأتوا بها كما يقال في الدعاء: تاب الله عليه، وتب علينا.

---

(١) التوبة: +، ض.

الثاني: قبل توبتهم ليتمسكوا بها في مستقبل أوقاتهم.

الثالث: قبل توبتهم ليرجعوا إلى حكم حد الرضا عنهم كما كانوا بين المؤمنين قبل مهاجرتهم.

الرابع: ثم أنزل قبول توبتهم ليتوب المؤمنون من ذنوبهم جميعًا، عن أبي علي.

ومتى قيل: هل كانت هجرتهم وترك مكالمتهم عقوبة لهم؟

قلنا: لا، لظهور توبتهم، لكن تشديدًا للمحنة، وليبادر غيرهم فلا يتخلفوا عن رسول الله، فيكون لطفًا، وهذا كما يكون[١] في إقامة الحد على التائب.

«**إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ**» كثير قبول التوبة «**الرَّحِيمُ**» بعباده.

۞ الأحكام

تدل الآية على اجتهادهم في التوبة، وإخلاصهم فيها، وشدة تحققهم بالدين.

وتدل على أنه تعالى قَبِلَ توبتهم.

وتدل على أن ذلك التخلف كان فعلهم، وكانوا قادرين على الخروج، لولا ذلك ما اشتد غمهم وحسرتهم، ولا عاقبهم الله تعالى؛ فيبطل قول المجبرة في المخلوق والاستطاعة.

قوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ مَا كَانَ لِأَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ وَمَنۡ حَوۡلَهُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرۡغَبُواْ بِأَنفُسِهِمۡ عَن نَّفۡسِهِۦۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ لَا يُصِيبُهُمۡ ظَمَأٞ وَلَا نَصَبٞ وَلَا مَخۡمَصَةٞ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوۡطِئٗا يَغِيظُ ٱلۡكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنۡ عَدُوّٖ نَّيۡلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٞ صَٰلِحٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةٗ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةٗ وَلَا يَقۡطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمۡ لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحۡسَنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٢١﴾﴾

---

(١) يكون: يقول، أ.

۞ القراءة

قراءة العامة: «ظمأ» مهموز بغير مد، وعن عبيد بن عمير: «ظما» بالمد، وهما لغتان، مثل: خطأ وخطا.

۞ اللغة

الصدق: خلاف الكذب، وهو خبر مخبره على ما يتناوله، رجل صادق وصدوق، والصِّدِّيق كثير الصدق، والصدّيق: الذي يصدق غيره.

والرغبة: نقيض الرهبة، ورغب فيه: طلبه، ورغب عنه: تركه، ولم يُرِدْهُ، رغب يرغب رغبًا بفتح الراء والغين وضم الراء وسكون الغين، ورَغْبَةً ورَغْبَى مثل شكوى.

والظمأ بفتح الظاء والميم مهموز: شدة العطش، ظمئ يظمأ ظمًا، وهو ظَمِئٌ وظمآن، وأَظمَأَهُ الله إظماءً، والظَّمَى بغير همز: قلة دم اللثة[1].

والنَّصَب بفتح النون والصاد: التعب والإعياء، وبسكون الصاد: نصبك الشيء من رمح أو غيره، ومنه: الأنصاب جمع نصب، وذلك حجر كانوا ينصبونها فيعبدونها، والنُّصُب بضم النون والصاد: حجر نصب عليه دم الذبائح، يقال: نصب ينصب نصبًا، ومثله الوصب، قال الشاعر:

كِلِينِي لِهَمٍّ يَا أُمَيْمَةُ نَاصِبٍ ... وَلَيْلٍ أُقَاسِيهِ بَطِيءِ الْكَوَاكِبِ[2]

والمخمصة: المجاعة، وأصله: ضمور البطن للمجاعة، رجل خميص البطن، وامرأة خمصانة: ضامرة البطن، والخامص الضامر، يقال: خمُص بضم الميم خمصًا بضم الخاء وكسرها.

والنَّيْلُ: لحوق الشيء، ناله نيلاً، وهو مَنِيلٌ، وليس من التناول؛ لأن هذا من الواو نلته بخير أنوله نولاً ونوالاً، وأنالني خيرًا أناله.

ويقال: وطئت الشيء برجلي أَطَؤُهُ وتوطأته.

---

(١) اللثة: الله، د.

(٢) الصحاح (أسس)، والعين(قطع)، واللسان (أسس).

والموطن: موضع الوطن، والغيظ: ما يغتاظ الإنسان منه، وهو امتعاض الطبع بما يرى مما يسوؤه، يقول: غاظني يغيظني، وقد غِظْتَنِي.

۞ الإعراب

«**أن يتخلفوا**» موضعه نصب؛ لأنه خبر كان، بتقدير: ما كان لهم التخلف.

ويقال: هل فرق بين (كونوا مع الصادقين)، و(من الصادقين)؟

قلنا: معناهما متقاربة في هذا الموضع؛ لأن (مع) للمقاربة[1] و(من) للتبعيض، و(في) للظرف[2]، فإذا كان في جملتهم فهو معهم، وبعضهم، وفيهم.

۞ النظم

قيل: الخطاب بقوله: «**يا أيها الذين آمنوا**» لمن تاب من المنافقين ممن تقدم ذكره في قوله: «**اعترفوا بذنوبهم**» ولمن كان له عذر، أمرهم بالكون مع الصادقين، وحثهم على الجهاد، عن أبي مسلم.

وقيل: لما بين حال المتخلفين حثهم على كونهم معه، ومنعهم من التخلف.

۞ المعنى

«**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ**» معاصيه «**وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ**» قيل: هو خطاب للمؤمنين ومعناه: لازِم الصدَق، لا تعدلْ عنه؛ إذ ليس في الكذب رخصة، عن ابن مسعود. وقيل: مع الصادقين أي: مع النبيين والصديقين في الجنة بالعمل الصالح في الدنيا، عن الضحاك. وقيل: مع محمد وأصحابه، عن نافع. وقيل: مع أبي بكر وعمر، عن سعيد بن جبير. وقيل: مع المهاجرين والأنصار، عن ابن جريج. وقيل: مع علي بن أبي طالب وأصحابه، عن ابن عباس. وقيل: مع آل محمد، عن أبي جعفر. وقيل: مع الأنبياء والمؤمنين وسائر أهل الحق والصدق، عن أبي علي. وقيل: أمر بك

(١) للمقاربة: المقاربة، د.

(٢) للظرف: الظرف، د.

ونهم مع من صدقتني تهوم جانبة الكاذبين والمنافقين، عن أبي مسلم. وقيل: مع الذين صدق تنياتهم واستقامت قلوبهم وأعمالهم وخرجوا مع رسول الله ولم يتخلفوا عنه، عن ابن عباس. وقيل: (مع) بمعنى (من) أي: كمن جملتهم. وقيل: المراد بكونهم معهم ومتابعتهم عقلاً وقولاً وفعلاً، ونصرتهم، والذب عنهم، وموالاتهم. وقيل: هو خطاب للمنافقين الذين اعتذروا بالباطل قيل: اتقوا الله، ولا تكذبوا، ولا تحلفوا كذبًا، وكونوا مع الثلاثة الذين صدقوا فيمن اعتذروا، حكاه الأصم.

«مَا كَانَ لأَهْلِ الْمَدِينَةِ» مدينة الرسول، وظاهره خبر ومعناه نهي، كقوله: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾ [الأحزاب:٥٣]، **«وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الأَعْرَابِ»** من سكان البوادي وهم: مزينة، وجهينة، وأشجع، وغفار، وأسلم **«أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ»** يعني في غزوته وجهاده **«وَلا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ»** عن مصاحبته ومعاونته والجهاد معه والدفع عنه، بل عليهم نصرته والذب عنه والجهاد دونه، وقيل: لا يرغبون بأنفسهم أن تصيبهم من الشدائد مثل ما أصابه، عن الحسن. **«ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ»** في سفرهم معه **«ظَمَأٌ»** عطش **«وَلاَ نَصَبٌ»** تعب **«وَلا مَخْمَصَةٌ»** مجاعة **«فِي سَبِيلِ اللَّهِ»** أي: في الجهاد، وقيل: أراد الصبر على الجوع والعطش، وإلا فالجوع والعطش فعل الله، فقال: لا يستحق العبد عليهما الثواب، وقيل: المراد بها الأعواض التي تجب لهم على ذلك. وقيل: أراد التعريض لأنفسهم للجوع والعطش بسبب خروجهم مع الرسول إلى الجهاد **«وَلاَ يَطَأُونَ مَوْطِئًا»** موضعًا **«يُغِيظُ الْكُفَّارَ»** وطؤهم إياها، وقيل: أراد بقوله: **«وَلا يَطَأُونَ مَوْطِئًا»**: الرَّجَّالة، وبقوله: **«وَلا يَقْطَعُونَ وَادِيًا»**: الفرسان، **«وَلاَ يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيلاً»** أي: لا يصيبون منهم إصابة مِنْ قَتْلٍ أو أسر أو غنيمة أو هزيمة **«إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ»** يعني تكتبه الحفظة، قال ابن عباس: بكل روعة تنالهم في سبيل الله ألف حسنة، وقيل: أراد بالكتابة الحفظ يعني كان محفوظًا عند الله وكتابته وحفظه لإيجاب الثواب عليه، وليعلم أنه وفى حقوقهم، وفيه لطف للمكلفين **«إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ»** الذين يحسنون العمل بأداء الطاعات، واجتناب المعاصي **«وَلاَ يُنْفِقُونَ»** أي: لا يعطون نفقة

لإعزاز الدين وإعانة المسلمين أو التقرب إلى الله «نَفَقَةً» عطية «صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً» أي: قلّ أم كثر «وَلا يَقْطَعُونَ وَادِيًا» في مسيرهم، قيل: مقبلاً في طلب الكفار والتوجه إلى دارهم، وقيل: مقبلاً ومدبرًا إلى دار الإسلام «إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ» ذلك وحفظ، يعني: آثارهم وخطاهم، وعن قتادة: ما أراد قوم من أهليهم بعدًا في سبيل الله إلا ازدادوا من الله قربًا «لِيَجْزِيَهُمُ» على الأحسن، وهو الله ليكافئهم «اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» قيل: الأحسن من صفة فعلهم، وفيها الواجب والندب، والله تعالى يجزيهم على الأحسن، وهو الواجب والندب دون المباح، وقيل: هو صفة الجزاء أي: يجزيهم أحسن من الأعمال وأجل وأفضل، وهو الثواب في الجنة، قال ابن عباس: يرضيهم بالثواب، ويدخلهم الجنة بغير حساب أعمالهم.

❁ الأحكام

تدل الآية الأولى على فساد التقليد؛ لأنه تعالى أمر بالكون مع الصادقين، فلا بد مِنْ تَقَدُّمِ العلم بكونه صادقًا ليصح أن يكون معهم، وذلك لا يعلم بقوله، فلا بد من الاعتماد على الحجة والدليل.

وتدل على أن الصدق كله حسن.

وتدل الآية الثانية على وجوب الجهاد مع رسول الله ﷺ وحظر التخلف عنه، وقد اختلفوا، وقيل: إنه خطاب لجميع من دعاه النبي ﷺ إلى الجهاد وهو الصحيح، وقيل: بل هو خطاب لأهل المدينة ومن حولهم.

واختلفوا في أن الآية خاص في قول النبي ﷺ أو عام في الأوقات، فقيل: هو خاص فيه، ليس لأحد أن يتخلف عنه إلا لعذر، فأما غيره من الأئمة فيجوز التخلف إلا عند الضرورة، عن قتادة. وقيل: هذا كان في ابتداء الإسلام، وفي أهله قلة، فأما الآن فقد كثروا، وذلك منسوخ، والتخلف مباح لمن يشاء، فقال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً﴾، عن ابن زيد.

وقيل: هي لأول هذه الأمة ولآخرها، عن الأوزاعي، وابن المبارك. وظاهر الآية

يوجب التخصيص، على ما قاله قتادة، ولأن أمر الرسول[1] حتم يكْفُرُ راده بخلاف غيره، فأما إجابة الأئمة بعده فيجب لا بظاهر الآية.

وتدل على أن الثواب يعظم بتحمل المشاق.

وتدل على أن الثواب أَجَلُّ وأعظم من طاعة المكلف.

وتدل على أن هذه الأفعال حادثة من جهتهم لذلك صح الأمر والنهي، والمدح والذم، والكتابة والجزاء؛ ولذلك قال: «**أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**»، فيبطل قول مخالفينا في المخلوق.

قوله تعالى:

﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (١٢٢) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (١٢٣) وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (١٢٤) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ (١٢٥)﴾

القراءة

قرأ العامة: «**أيُّكم**» بضم الياء، وعن عبيد بن عمير بفتحها، وكلاهما جائزان في العربية، غير أن القراءة لا تجوز إلا بما نقل مستفيضًا.

اللغة

النفور عن الشيء: الذهاب عنه لتكرّه النفسِ له، والنفور إليه: ذهاب إليه لتكرّه

(١) الرسول: السول، د.

النفسِ لغيره، والنفور: التباعد، يقال: نفر يَنْفِرُ، مثل: ضرب يضرب، نفورًا، وقوم نُفُور، والواحد نافر، كشاهد وشُهُود، ونفر فُوهُ: ورم من نفار الشيء، وهو تجافيه عنه، والنافر على أربعة أوجه: الذي ينفر من الشيء؛ أي: يهرب منه، وينفر حجه يدفع، والوارم، ومنه: لطم عينه، فنفرت، أي: ورمت، والغالب يقال: نافرته، ونفّرته بالتشديد والتخفيف: غلبته.

والفقه: العلم بالشيء، فقهت الحديث، وكل علم بشيء فقه، وفي حديث سلمان: «قال لامرأة فقهت»، أي: علمت وفهمت[1] فأما فقُهت بضم القاف صارت فقيهة، وقيل: فقهت، فأما فَقُهْتُ بضم القاف: صارت فقيهة، وقد اختص بهذا الاسم علم الشرع والأحكام، وقيل لكل عالم بها: فقيه، وقيل: فهم المعاني المستنبطة، ولا يقال لله تعالى فقيه.

والحَذَر: تجنب الشيء لما فيه من الضرر، حذر حذرًا وحَذَّرَهُ تحذيرًا.

والولي: القريب[2]، يقال: تباعدنا بعد وَلْيٍ، وجلست مما يليه، أي: مما يقاربه.

والغلظة: خلاف الرقة، وهي الشدة في إخلال النعمة.

والاستبشار استفعال من البشارة، ومعناه: استدعاء البشارة، وليتذكر ما فيه النعمة.

۞ الإعراب

«لولا» يدخل على الفعل للتخصيص، وفي الاسم بمعنى امتناع الثاني لأجل الأول، كقولك: لولا زيد لجئتك.

و(ما) في قوله: «وإذا ما أنزلت» قيل: صلة مؤكدة، ومعناه: إذا أنزلت سورة.

---

(١) أي علمت وفهمت: قيل صارت فقيهة وقيل فقهت؛ أ، د، ض. البيان، للطبرسي: ٥/ ١٢٥).

(٢) في القريب: القرب، ض.

و«سورة» رفع؛ لأنه[1] اسم ما لم يسم فاعله[2].

۞ النزول

قيل: كان رسول الله ﷺ إذا خرج في غزوة لم يتخلف عنه إلا المنافقون والمعذورون، فلما بيّن تعالى نفاقهم في غزوة تبوك قال المؤمنون: لا نتخلف عن غزوة ولا سرية، فلما بعث السرايا خرج الناس وتركوا رسول الله ﷺ وحده بالمدينة، فأنزل الله تعالى هذه الآية: «**وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً**»، عن ابن عباس.

وقيل: إن أحياء في أسد بن خزيمة أصابتهم سنة، فأقبلوا بالذراري حتى نزلوا المدينة، فأفسدوا طرقها بالعذرات، وأغلوا أسعارها، فأنزل الله تعالى هذه الآية، عن الكلبي.

وقيل: نزلت في ناس من الصحابة خرجوا في البوادي ودعوا الناس إلى التوحيد والهدى، فقيل لهم: قد تركتم صاحبكم وجئتمونا، فرجعوا كلهم إلى المدينة، فنزلت الآية، عن مجاهد.

وقيل: لما أنزل قوله: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ﴾ ، قال المنافقون: هلك أهل البدو، والذين تخلفوا عن محمد، وكان ناس من الصحابة خرجوا إلى البدو إلى قومهم يفقهونهم، فنزلت الآية لأولئك، عن عكرمة.

وقيل: أمر الله تعالى أنه متى خرج النبي ﷺ غازيًا ألاَّ يتخلف عنه أحد إلا بإذنه، وإذا بعث السرايا لم يجز لهم أن ينطلقوا إلا بإذنه، بل يقيموا، فيتفقهوا في الدين، ويخبروا السرايا عند الرجوع، ففي ذلك نزلت الآية.

۞ المعنى

لما تقدم الترغيب في الجهاد مع النبي ﷺ وذَمُّ من تأخر عنه، وكان القول عامًا بَيَّنَ بما في هذه الآية موضع الرخصة في تأخر من يتأخر، فقال تعالى: «**وَمَا كَانَ**

(١) لأنه: لا، د.

(٢) فاعله: فاعل، أ.

﴿الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا﴾ بأجمعهم في نواحي الأرض إلى رسول الله ﷺ ليتعلموا الدين، ويخلوا ديارهم، عن أبي علي. وقيل: ما كان لهم أن يخرجوا كلهم إلى الغزو مع رسول الله ﷺ ويخلوا ديارهم، عن الأصم. **﴿فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ﴾** أي: هلا خرج، و(لولا) كلمة إغراء **﴿مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾** أي: جماعة **﴿لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾** أي ليتعلموا أمر الدين وأحكام الشريعة **﴿وَلِيُنْذِرُوا﴾** يخوفوا **﴿قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ﴾** اختلفوا في معنى الآية على وجوه: قيل: التفقه والإنذار راجعة إلى النافرة، يعني النافرة الفرقة المتفقهة في الدين[1]، بمعنى: ينتصرون[2] بما يريهم الله من الظهور على المشركين ونصرة الدين، ثم ينذرون قومهم من الكفار إذا رجعوا إليهم من الجهاد، فيخبرونهم بنصر الله لرسوله، وأنه لا طاقة لهم بقتال النبي ﷺ والمؤمنين ليحذروا قتالهم، فينزل بهم ما نزل بأصحابهم من الكفار، عن الحسن، وأبي مسلم، قال أبو مسلم: اجتمع للنافرة ثواب الجهاد، والتفقه في الدين، وإنذار قومهم بأن يخوفوهم على القيام على الكفر والقعود مع النبي ﷺ مع الاستطاعة.

وقيل: إن التَّفقه[3] راجع إلى الباقية لا إلى النافرة، وتقديره: ما كان لهم أن يخرج كلهم في السرايا، ولكن تنفر طائفة، وتبقى طائفة تحضر النبي ﷺ يتفقهون في الدين، فإذا رجعت النافرة أنذرتهم الباقية، ويعلمونهم ما نزل من الأحكام في غيبتهم، عن قتادة.

وقيل: النافرة والمتفقهة المنذرة واحد، وتقديره: ما كان لجميع المؤمنين أن ينفروا إلى النبي ﷺ ويخلوا ديارهم، ولكن تنفر طائفة من كل ناحية إليه لتسمع كلامه، وتتعلم الدين ثم يرجعوا إلى قومهم، فيبينوا لهم ذلك، وينذروهم ليحذروا، عن أبي علي. وهوالوجه؛ لأن المراد بالنفر الخروج لطلب العلم، وسماه نفرًا لما فيه من مجاهدة أعداء الدين؛ لأن الصحابة كانت لا تخرج إلا بإذنه إلى السرايا، وكانوا لا يتركونه وحده، ولأنه لا يتناول الجهاد بالسيف؛ لأن هناك لم يقبل عذرًا ليمكن عن

---

(١) يعني النافرة الفرقة المتفقهة في الدين: يعني المتفقه الفرقة النافرة في الدين، ض.

(٢) ينتصرون: ينتصروا، أ.

(٣) التفقه: النفقة، أ.

الخروج، وهاهنا أوجب على بعض التفقه[1]، لا على جميعهم، وروي نحو ذلك عن ابن عباس والأصم.

«لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ» قيل: يحذرون بأس الله ونقمته مثل ما نزل بالكفار، عن الأصم. وقيل: يحذرون العصيان وما نهاهم عنه، عن أبي علي.

ثم بَيَّنَ تعالى ما يجب تقديمه من قتال الأقرب فالأقرب في الدار والنسب، فقال سبحانه: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ» قال الحسن والأصم: نزلت الآية قبل أن يؤمر بقتال المشركين كافة، وهذا لا وجه له؛ لأن تلك الآية بيان لوجوب القتال، وهذه الآية بيان كيفية القتال، ولا تنافي بينهما، فلا نسخ فيه. وقيل: كان النبي ﷺ يجعل عدوه وراء ظهره ويجاوزهم إلى غيرهم[2] يريهم أنه لا يخافهم، فنزلت هذه الآية تعليمًا لكيفية القتال، وهذا لا وجه له؛ لأنه كان يخرج بأمر الله ويجاوز قومًا بأمره. وقيل: فيه تعليم كيفية القتال، وأن الواجب الأقرب فالأقرب، وهو الأولى في ترتيب الجهاد، وهو قول ابن عباس وأكثر المفسرين، وأبي علي، وهو الأوجه والأولى لوجوه: منها: أن ترك الأقرب والاشتغالب الأبعد في النهي عن المنكر تعريض للتهمة، ولأنفيه الضرر بديار المسلمين وذراريهم وأموالهم وتعريضهم للسبي؛ لأنقرب المسافة مما تدعو إلى الجهاد، ولأنك لبلد من بلاد المسلمين إذا قاتل أهله مَنْ يليهم قلّ الخوف على ديار المسلمين، ومعنى قوله: «يَلُونَكُمْ» يقرب منكم، قيل: الأقرب فالأقرب في الدار والنسب، وقيل: مثل قريظة والنضير وخيبر وفدك ونحوها، عن ابن عباس. وقيل: أراد الروم وكانوا سكان الشام أقرب إلى المدينة من العراق، وكان الحسن إذ اسئل عن قتال الروم والترك والديلم تلا هذه الآية.

«وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً» قيل: ليحسوا منكم الغلظة، وقيل: أغلظوا عليهم، والغلظة: الشدة، قيل: في القتل تَشَدُّدًا، عن الأصم، وأبي مسلم. وقيل: في الكلام والمناظرة؛ لأنه أهيب، عن أبي علي. وقيل: غلظة عنفًا، عن الضحاك. وقيل: صبرًا على الجهاد، عن الحسن. «وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ» بالنصرة والمعونة والحفظ،

(١) التفقه: التمكن، أ.

(٢) إلى غيرهم: إلى غيره، ض.

وقوله: «وَاعْلَمُوا» بشارة بأنه ينصرهم[1] في مستقبل أيامهم، وبظفرهم على أعدائهم، وقوله: «وَاعْلَمُوا» يحتمل أن يكون أمرًا بأن يعلموا ذلك، ويحتمل أن يكون تقديره[2]: قاتلوا عالمين بأنه ينصركم.

ثم عاد الكلام إلى ذكر المنافقين، فقال سبحانه: «وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ» من القرآن، قيل: في بيان الأحكام، وقيل: في مخازي المنافقين «فَمِنْهُمْ» يعني من المنافقين «مَنْ يَقُولُ» بعضهم لبعض، عن الحسن، والأصم. وقيل: يقول المنافقون لضعفة المسلمين على طريق الهزء، عن أبي علي. «أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا» فَبيَّنَ الله تعالى حال الفريقين، فقال سبحانه: «فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا» قيل: إخلاصًا ويقينًا، عن الأصم. وقيل: تصديقًا بالفرائض مع إيمانهم بالله، عن ابن عباس. وقيل: ضموا الإيمان بالله بهذه السورة إلى الإيمان بسائر السور زيادة «وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ» قيل: يسرون بما أنزل الله من الفرائض، ويسر بعضهم بعضًا، وقيل: بما وعدوا من النصر والثواب، عن الأصم، وأبي مسلم. وقيل: يفرحون بالسورة المنزلة، حكاه الأصم. «وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ» شك ونفاق، عن جماعة من المفسرين. وقيل: غمٌّ وحزن برفعة النبي ﷺ ونصر الله إياه، عن أبي بكرعلي. «فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ» قيل: كفرًا إلى كفرهم، وذلك أنهم كفروا بالسور ثم كفروا بهذه السورة. وقيل: إثمًا إلى إثمهم، عن مقاتل. وقيل: شكًّا إلى شكهم ونفاقًا إلى نفاقهم، وإنما أضاف ذلك إلى السورة؛ لأنهم كفروا عند نزولها[3]، كقوله تعالى: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [إبراهيم:٣٦]، وكقولهم: ما زادتك موعظتي إلا شرًّا، «وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ» يعني: أن ذلك المرض والكفر أدى إلى أن ماتوا على سوء حال، وهو الكفر المؤدي إلى النار.

۞ الأحكام

تدل الآية على وجوب التفقه في الدين؛ لأنه تعالى خفف عن جميعهم ما يلزم بعضهم، فلو لم يلزمهم لكان البعض كالكل.

---

(١) ينصرهم: لنصرتهم، أ، د، ض.

(٢) من هنا إلى الآية ٥٦ من سورة يونس لا يوجد في النسخة ض.

(٣) نزولها: نزوله، أ، د.

وتدل على أنه فرض على الكفاية؛ لأنه أزال الوجوب مِن[1] الكل إلى البعض.

وتدل على وجوب العمل بخبر الواحد؛ لأنه لو لم يلزم العمل بتعريفهم لم يكن للأمر به معنى.

وتدل على أنه يجوز أخذ الدين والعلم ممن ليس بمعصوم، فيبطل قول الإمامية.

وتدل على وجوب الجهاد وكيفيته، وأن الواجب البداية بالأقرب فالأقرب، وهذا عند تساوي الحال، فأما إذا خيف الأبعد وأُمِنَ الأقرب فيجوز أن يجاهد الأبعد، فإن أمكن الجمع بينهما كان أولى.

وتدل على أن الإيمان يزيد وينقص؛ لأنه تعالى نص على زيادة الإيمان وذلك يوجب أن يكون العمل من الإيمان والقول بأن الإيمان يزيد وينقص قول عمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، والحسن، ومجاهد، وابن المبارك، وغيرهم من الصحابة.

قوله تعالى:

﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾

القراءة

قرأ حمزة ويعقوب: «**أولا ترون**»[2] بالتاء على الخطاب للمؤمنين، وهو قراءة أبي بن كعب، وقرأ الباقون بالياء خبرًا عن المنافقين الذين تقدم ذكرهم، وقرأ الأعمش «**أولم يروا**»، وقرأ طلحة: «**أولا يرى**»، وهي قراءة عبد الله.

---

(١) من: على؛ أ، د.

(٢) حجة القراءات ٣٢٦.

قراءة العامة: «أنفُسكم» بضم الفاء من النفس أي: من نسبكم، وقرأ ابن عباس والزهري وابن علية: «من أَنْفَسِكُمْ» بفتح الفاء؛ أي: من أشرفكم وأفضلكم، من قولهم: هذا شيء نفيس بَيِّنُ النفاسة: إذا كان مرغوبًا فيه.

وقراءة العامة: «العظيم» بكسر الميم على أنه نعت «للعرش»، وعن ابن محيصن بالرفع على أنه نعت «لاسم الرب»، قال الأصم: والرفع أعجب إليّ، بتقدير: وهو العظيم، وليس بشيء؛ لأنه خلاف القراء والنقل.

۞ اللغة

الفتنة: الاختبار والامتحان، يقال: فَتَنْتَ الذهب بالنار، ثم تستعمل في أشياء.

والعَنَتُ: المشقة، وهو الأذى الذي يضيق به الصدر، ومنه: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٠] أي: ضيق عليكم، يقال: عَنِتَتْ الدابة تَعْنَتُ عنتًا: إذا حدثَ في قوائمها[١] كسرٌ بعد جبر، لا يمكنها[٢] معه الجري، كأنه يشق عليه الجزاء، وأَكَمَةٌ عَنُوتٌ: شاقة المصعد، وقال ابن الأنباري: أصله التشديد، ومنه: فلان يعنت فلانًا ويتعنته: يشدد عليه، ثم تقلب إلى معنى الهلاك.

والحرص: شدة الطلب للشيء مع الاجتهاد فيه.

والتولي والإعراض: الذهاب عن الشيء، ونقيضه التوجه إليه.

وحسبي: من الكفاية مثل قول: حسبه كذا، أي: كافيه، وقيل: أصله من الحساب، كأنه يعطيه بحسب الكفاية التي تغني.

۞ الإعراب

فتحت الواو في «أوَلا يرون»؛ لأنها واو العطف دخلت عليها ألف الاستفهام، فهو متصل بذكر المنافقين، منفصل بفن آخر من ذكرهم.

و«يذَّكَر» أصله يتذكر، أدغمت التاء في الذال لقرب مخرجهما.

---

(١) إذا حدث في قوائمها: أحدث في قوائمه، ض.

(٢) لا يمكنها: لا يمنكنه، ض.

ويقال: ما موضع الجملة في قوله: «**لا إله إلا هو**»[1]؟

قلنا: الحال، بتقدير: مستحقًا لإخلاص العبادة، والإقرار بالوحدانية.

النزول

قيل: إن آخر القرآن عهدًا بالسماء هاتان الآيتان خاتمة (براءة) «**لقد جاءكم...**» إلى آخرها، عن قتادة.

وقيل: آخر سورة نزلت سورة براءة، قال الأصم: قال بعضهم: آخر ما[2] نزل من القرآن: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمًا تُرۡجَعُونَ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢٨١].

النظم

الآية تتصل بما تقدم من ذكر المنافقين، وقوله: «**أولا يرون**» ذم مبني على قوله: «**وماتوا وهم كافرون**» لأنه قيل: يموتون كفارًا بسوء اختيارهم لا من قِبَلِهِ تعالى؛ لأنه أزاح العلة بالتمكين واللطف حالاً بعد حال؛ ألا ترى كيف امتحنهم ليتوبوا، ويذكروا فلم يفعلوا.

ويقال: كيف يتصل قوله: « **نَظَرَ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ**» بما قبله من إنزال السورة؟

قلنا: فيها وجوه:

قيل: نظر بعضهم إلى بعض منكرًا مكذبًا للسورة، ويقول: هل يراكم من أحد.

وقيل: إذا خرجوا من عند النبي ﷺ نظر بعضهم إلى بعض معجبًا، وقالوا: أيكم زادته هذه إيمانًا، عن الأصم.

وقيل: ينظر بعضهم إلى بعض، ويقولون: هل يراكم من أحد، ثم يتولى عن سماع القرآن، عن أبي مسلم.

وقيل: ينظر بعضهم إلى بعض خوفًا من أن ينزل القرآن بفضائحهم.

---

(١) لا إله إلاّ هو: لا إله إلا الله، أ، د، ض.

(٢) ما: من؛ أ، د، ض.

ثم اتصل بذكر الرسول بإنزال القرآن، ثم ختم عقيب الاحتجاج والبيان بأنهم إن تولوا فقل: حسبي الله.

۞ المعنى

«**أَوَلا يَرَوْنَ**» قيل: أَوَلاَ يعلم[1] هؤلاء المنافقون، والرؤية بمعنى العلم، وقيل: الرؤية بمعنى الإدراك بالبصر «**أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ**» أي: يمتحنون «**فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ**» دفعتين أو دفعة، كأنه قيل: أولا يرون أنهم يختبرون في كل عام بما هو زاجر، ثم لا ينزجرون، واختلفوا في هذا الامتحان، فقيل: بالجهاد مع رسول الله، وما يرون من نصرة الله لرسوله، وما ينال أعداءه من القتل والسبي حتى يستعلي على كل من ناوأه، عن ابن عباس، والحسن، وقتادة، والأصم. وقيل: بالقحط والجوع، عن مجاهد. وقيل: بهتك أستارهم وما يظهرون من هتك أستارهم، وسوء نياتهم وخبث سرائرهم، عن مقاتل، وأبي مسلم. وقيل: بالأمراض والمصائب التي تنزل بهم، عن عطية، وأبي علي. وقيل: يكذبون كذبة أو كذبتين يضلون منه، ثم لا يتوبون، عن حذيفة. وقيل: ينافقون ثم يتوبون ثم ينافقون، عن عكرمة. وقيل: ينقضون عهدهم مرة أو مرتين، وقيل: بالبلاء والغلاء ومنع القطر وذهاب الثمار، عن الضحاك. «**ثُمَّ لا يَتُوبُونَ**» أي: لا يرجعون عن نفاقهم «**وَلا هُمْ يَذَّكَّرُونَ**» لا يتدبرون فيها «**وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ**» من القرآن، قيل: فيها فضائح المنافقين، وهتك أستارهم، وقيل: فيها الأحكام، وقيل: سورة في أي باب نزلت، وهو الوجه لعموم اللفظ «**نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ**» قيل: نظر مرتاب منكر كراهية الاستماع، وقيل: نظر تعنت وطعن، وقيل: نظر معجب مكذب، وإنما أعجبوا، قيل: لأنه يخالف ما ألفوه من الكفر، وقيل: كرهوا كراهة ما أمروا به ونهوا عنه، وقيل: أمر التعصب والعناد، وقيل: لاشتمالها على مخازيهم. «**هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ**» من المسلمين «**ثُمَّ انْصَرَفُوا**» قيل: أعرضوا عن استماع القرآن إن لم يرهم أحد، وإن رآهم ثبتوا وأقاموا، عن أبي مسلم. وقيل: يخرجون من المسجد هاربين، وقيل: ينصرفون عن الإيمان به مصرين على الكفر والتكذيب، عن

(١) يعلم: يعلموا، أ.

الأصم. وقيل: ينصرفون عن العمل بما فيه «**صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ**» قيل: عاقبهم على الانصراف والكفر، ويسمى الجزاء على الشيء باسم الشيء، وقيل: صرف قلوبهم عن رحمته وثوابه، لَمَّا انصرفوا عن القرآن، وقيل: صرف الله قلوبهم عن السرور بالفائدة التي تحصل في السورة، فيحرمون ما للمؤمنين من الاستبشار بتلك الحال، وقيل: صرف الله قلوبهم بما أورثهم من الغم والكمد بعلو كلمة الإسلام وزهوق كلمة الكفر، وقيل: هذا دعاء عليهم أي: خذلهم الله باستحقاقهم ذلك، ودُعَاءُ الله على عباده وعيد لهم وإخبار بلحاق العذاب بهم، عن أبي مسلم. وقيل: صرف قلوبهم عن الشرح والتطهير الذي يجعله في قلوب المؤمنين ثوابًا لهم، عن أبي علي. «**بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ**» قيل: لا يفقهون عن الله ما يعظهم به ويدعوهم إليه من الفوز، عن أبي مسلم. وقيل: لا يعلمون دينا الله وما يجب عليهم، عن أبي علي. «**لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ**» قيل: الخطاب للجميع ومعناه أنه بشر مثلكم، وقيل: خطاب للعرب، يعني: أنه منكم نسبًا، وعُنِي بالرسول مَحَمَّدٌ ﷺ. «**مِنْ أَنْفُسِكُمْ**» قيل: من البشر، ثم من العرب، ثم من بني إسماعيل، عن السدي. قال ابن عباس: ليس في العرب قبيلة إلا ولدت النبي ﷺ مضريها وربيعتها ويمانيها[1]، قال الصادق: ليس في العرب قبيلة لم يصبه شيء من ولادة الجاهلية، وعن ابن عباس عن النبي ﷺ: «ولدت من نكاح، لا[2] من سفاح»[3]، وإنما منّ عليهم بكونه منهم؛ لأنهم شاهدوه صغيرًا وكبيرًا وكهلاً وناشئًا، وعرفوا حاله في صدقه، وأمانته، وسيره، وديانته، فلم يعثروا على شيء يوجب نقصًا فيه أو طعنًا عليه ﷺ «**عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ**» أي: شديد عليه دخول المشقة والمضرة عليكم، عن أبي مسلم. وقيل: يشق عليه إن لحقكم عذاب الآخرة، وقيل: يشق عليه أذى الكفار للمؤمنين، وقيل: شديد عليه ما ضللتم، عن ابن عباس. وقيل: إثمهم، عن الضحاك. وقيل: ما أهلكتم عليه،عن [ابن] الأنباري. «**حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ**»

---

(١) روح المعاني: ١١/ ٥٢، فتح القدير: ٢/ ٦٠٧.

(٢) ويمانيها: ولا، د. والصواب ما أثبتناه: من تفسير ابن كثير: ١/ ٦١٧، روح المعاني: ٤/ ٢٤٦، مختصر ابن كثير: ١/ ٢٧٧، مختصر. رواء الغليل: ١/ ٣٧٩ برقم (١٩١٤)، تلخيص الحبير: ٣/ ١٧٦ وغيرها من المصادر.

(٣) المعجم الأوسط رقم ٤٧٢٨، والسنن الكبرى رقم ١٣٨٥٥، ومصنف ابن أبي شيبة رقم ٣١٦٤١.

أي: على إيمانكم وهدايتكم لتجتمعوا على الهدى، وقيل: حريص أن تنالوا الثواب والرحمة.

ثم استأنف، فقال سبحانه في صفة رسوله: «**بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ**» قيل: هما واحد، وهو الرحمة وذكرهما للتأكيد، وقيل: الرأفة أعظم من الرحمة، وقيل: رؤوف بالمطيعين، رحيم بالمذنبين يمهلهم ويقبل توبتهم وعذرهم ويدعوهم إلى التوبة، وقيل: رؤوف لمن رآه، رحيم بمن لم يره، وقيل: لم يسم الله أحدًا من أنبيائه باسمين من أسمائه غير محمد ﷺ فإنه سماه باسمين من أسمائه وهو: رؤوف رحيم، «**فَإِنْ تَوَلَّوْا**» أعرضوا، قيل: عن طاعة الله، عن الحسن. وقيل: عنك. وقيل: عن القرآن، وقيل: أعرضوا عن تصديقك والإقرار بنبوتك، عن أبي علي. «**فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ**» أي: توكُّلي عليه، وكِلْ أمرهم إليه، وقيل: حسبي الله أي: كافينا الله، وهو القادر على كل شيء، مالك الملوك، «**لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ**» لا شبيه له، ولا نِدَّ، وقيل: فيما يدعوهم إليه من الجهاد، عن أبي مسلم. وقيل: في جميع الأحوال «**عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ**» أي: فوضت أمري إليه «**وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ**» أي: خالق العرش، وهو الذي في السماء، ووصفه بالعظم في جسمه ورفعته، وخصه بالذكر تفخيمًا لشأنه، وقيل: ليدل أنه مالك الملوك؛ لأنه رب السرير الأعظم، والعرش: السرير، ومنه: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل:٢٣]، وقيل: أراد بالعرش الملك والسلطان، أي: هو رب الملك «**الْعَظِيمِ**» في السموات والأرض، عن أبي مسلم.

الأحكام

تدل الآية الأولى على أنه تعالى يلطف للعبد في الإيمان، وأولى التأويلات بالآية الأمراض والمصائب والقحط ونحوها يصح إضافته إليه تعالى، فينبئهم الله تعالى بها لعلهم يرجعون عن كفرهم.

وتدل على أن صرف قلوب الكفار عقوبة لهم على كفرهم، ولا يجوز حمله على صرف قلوبهم عن الإيمان؛ لأنه أمر تعالى بالإيمان، فلا يصرفه، ولأنه لا يكون عقوبة وجزاء، ولأنه علقه بكفرهم واختيارهم له في الابتداء وعندهم ذلك من جهته تعالى

أيضًا، وقوله: ذلك «بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ» دلالة على كون ذلك عقوبة، ولأنه أضاف الصرف أولاً إليهم، فكيف يقال: إنه يضاف إليه تعالى.

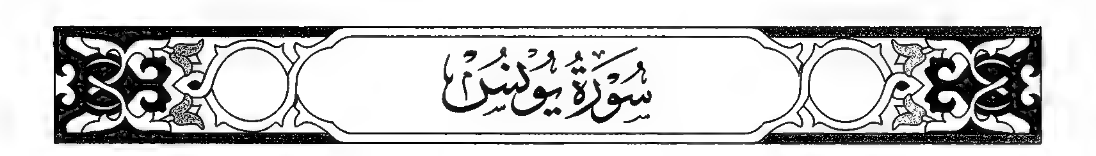
وتدل على أن الخيانة في ذلك كله من جهتهم، لا من جهته تعالى، بخلاف ما تقوله المجبرة.

وتدل على نعمه تعالى على عباده ببعثه رسولاً صفته الرأفة والرحمة.

وتدل على أن كون الرسول منهم أصلح لهم.

وتدل على وجوب الانقطاع إليه تعالى، والتوكل عليه.

ويدل قوله: «لا يفقهون» أن المعارف مكتسبة؛ فيبطل قول أصحاب المعارف.



مكية بإجماع، وهي مائة وتسع آيات، وعن أبي بن كعب، عن النبيﷺ: «من قرأ سورة يونس، أعطي من الأجر عشر حسنات، بعدد من صدق بيونس، وكذب به»[1]، ولما ختم سورة براءة بذكر الرسول وما أنزل عليه من القرآن افتتح هذه السورة بذكر الرسول والقرآن.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى:

﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝١ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ۝٢﴾

۞ القراءة

قرأ أبو جعفر، ونافع، وابن كثير، وعاصم، ويعقوب ﴿الٓر﴾ بفتح الراء على التفخيم[2] وقرأ أبو عمرو، وحمزة، والكسائي، ويحيى عن أبي بكر بكسر الراء على الإمالة، وروي عن نافع، وابن عامر، وحماد عن الأصم بين الفتح والكسر، وكلها لغات صحيحة، وإنما جاز إمالة حرف الهجاء؛ لأن ألفه في تقدير الانقلاب عن ياء.

---

(١) تفسير أبي السعود ٤/ ١٨١، دار إحياء علوم التراث العربي، بيروت.

(٢) حجة القراءات ٣٢٧.

وقرأ ابن كثير، وعاصم، وحمزة، والكسائي «إن هذا لساحر مبين» يعنون محمدًا ﷺ، وقرأ أبو جعفر، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، ويعقوب «لَسِحْرٌ» بغير ألف[1]، وبكسر السين يعنون القرآن، والقراء كلهم يقرؤون «عَجَبًا» بالفتح، وفي جزء عبد الله (عجب) بالرفع على أنه اسم (كان)، وأنه في محل النصب على أنه خبر (كان).

ويقال: لم عد طه، والم، ولم يعد الر؟

قلنا: لأن آخره لا يشاكل رؤوس الآي التي بعده بالمردف.

اللغة

الحكم: أصله المنع، ومنه: حَكَمَةُ الدابة وحكمة السفينة، وأحكمته على يده، قال الشاعر:

أَبَنِي حَنِيفَةَ أَحْكِمُوا سُفَهَاءَكُمْ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمُ أَنْ أَغْضَبَا[2]

ومنه: الحِكْمَةُ لأنها تمنع من الجهل، والحكيم: المحكم، يقال: أحكمته فهو محكم، وحَكِيمٌ «فَعِيلٌ» بمعنى مفعول، كقولك: أكرمته فهو مُكْرَمٌ، وكريم، وأعلمته فهو معلم وعليم، وأطردت الرجل فهو مُطْرَدٌ وطريد، عن أبي عبيدة وأبي مسلم، قال الشاعر:

وَغَرِيبَةٍ تَأْتِي المُلُوكَ حَكِيمَةٍ قَدْ قُلْتُهَا لِيُقَالَ مَنْ ذَا قَالَهَا[3]

وأنشد أبو عبيدة لأبي ذؤيب:

وَلَمْ تَشْعُرْ إِذَنْ أَنِّي خَلِيفُ[4]

---

(١) حجة القراءات ٣٢٧، لعبد الرحمن بن زنجلة أبي زرعة، مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ ط٢ ـ ١٤٠٢هـ ١٩٨٢م، ت: سعيد الأفغاني.

(٢) البيت لجرير. انظره في: العين (حكم)، واللسان (حكم).

(٣) البيت للأعشى. انظره في: العين (حكم)، واللسان (حكم).

(٤) البيت لأبي ذؤيب. صدر البيت:

تَوَاعَدْنَا الرُّبَيْقَ لَتَنْزِلَنْهُ وَلَمْ تَشْعُرْ إِذَنْ أَنِّي خَلِيفُ

انظره في اللسان (خلف)، وتاج العروس (خلف).

أي: مخلف من أخلفته الوعد[1]، وقيل: حكيم بمعنى حاكم، «فعيل» بمعنى «فاعل»، وقيل: حكيم بمعنى محكوم «فعيل» بمعنى «مفعول»، والقَدَمُ: قدم الإنسان، والقِدَم: خلاف الحدوث، قال الأزهري: والقَدَمُ: الشيء تقدمه قدامك ليكون عدة لك، حتى تقدم عليه، وقال غيره: يقال: قَدَمَ يَقْدُمُ: إذا تقدم، وقدم يقدم، وقدمته أقدمه قدمًا، قال الأعرابي: القَدَمُ: التقدم في الشرف، وقال العجاج:

زَلَّ بَـنُـو الـعَـوَّامِ عَـنْ آلِ الـحَـكَـمْ　　　وتَـرَكُـوا الـمُـلْـكَ لِـمِـلْـكٍ ذِي قَـدَمْ[2]

وقال أبو عبيدة والكسائي: كل سابق في خير أو شر فهو عند العرب قدم، يقال: له قدم في الإسلام، وقال حسان:

لَـنَـا الـقَـدَمُ الأُولَـى إِلَـيـكَ وَخَـلْـفُـنَـا　　　لِأَوَّلِـنَـا فِـي طَـاعَـةِ الـلـه تَـابِـعُ[3]

وقال ذو الرمة:

لَـكُـمْ قَـدَمٌ لاَ يُـنْـكِـرُ الـنَّـاسُ أَنَّـهَـا　　　مَعَ الْحَسَبِ العادِي طَمَتْ عَلَى البَحْرِ[4]

الإعراب

﴿الٓر﴾ حروف الهجاء مجزومة ما لم تعطف، فيقال: ألفْ ولامْ وميمْ «**تِلْكَ**» رفع قيل: لأنه اسم مبتدأ وخبره «**آيَاتُ**»، وقيل: «**الر**» كله رفع بالابتداء، و«**تلك**» خبره، و(تلك) و(ذلك) إشارة إلى غائب، و(هذا) و(هذه) إشارة إلى حاضر، وإنما قال «**تِلْكَ**» لتقدم الذكر في «**الر**»، كقولك: هند هي الكريمة، وقيل: معناه هذه، عن أبي عبيدة، وقيل: الآيات التي تقدم ذكرها، عن أبي علي والزجاج[5]، «**الْكِتَابِ**» مكسور؛ لأنه مضاف إليه، وإنما أضيف إليه الآيات؛ لأنها أبعاض الكتاب، وأضيف

---

(١) الوعد: الوعيد، أ، د.

(٢) البيت للعجاج. انظره في: اللسان (شنا)، وتهذيب اللغة (شنئ).

(٣) انظره في: اللسان (خلف)، وتاج العروس(خلف).

(٤) انظره في تفسير الطبري ١٥/١٦.

(٥) معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٣/٥، عالم الكتب - بيروت- ط١، ١٣٠٨هـ، ١٩٨٨م، ت: عبد الجليل شلبي.

«قدم» إلى «صدق»، وهو نعته، كما يقال: مسجد الجامع، وكقوله تعالى: ﴿وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ﴾ [ق: ٩]، و«عجبا» نصب؛ لأنه خبر (كان)، واسمه (أن أوحينا)، على تقدير: أكان للناس إيحاؤنا عجبًا، «وأن أنذر» جزم على تقدير: وقلنا: أنذر، و«أن لهم» نصب بحذف الخافض، تقديره: بأن لهم قدم صدق.

۞ النزول

قال ابن عباس: لما بعث الله محمدًا ﷺ أنكر الكفار، وقالوا: الله أعظم من أن يكون رسوله بشرًا مثل محمد، فأنزل الله تعالى: «أكان للناس عجبا».

وقيل: قالوا: العجب أن الله تعالى لم يجد رسولاً يرسله إلا يتيم أبي طالب، فنزلت الآية.

۞ المعنى[1]

«الر» قيل: اسم للسورة، عن أبي علي، وقيل: اسم للقرآن، عن الحسن وقتادة، وقيل: لما قال المشركون: لا تسمعوا لهذا القرآن ذكر تعالى في أوائل السور هذه الحروف، ولا عهد لهم بمثله، ليستمعوا فيأتي الكلام من بعد، عن قطرب، وقيل: إشارة إلى أن القرآن مركب[2] من هذه الحروف، وهي محدثة، فلا يكون القرآن قديمًا، عن أبي بكر الزبيري، وقيل: إشارة إلى أنه من هذه الحروف، وقد تحداكم به، وأنتم أهل هذا اللسان، وإذا عجزتم عن الإتيان بمثله فاعلموا أنه معجز، وليس من كلام البشر، عن أبي مسلم، وقيل: لهذه الحروف تأويل ومعنى، ثم اختلفوا، فقيل: الراء أنا الله أرى، عن ابن عباس والضحاك، وقيل: أنا الرب لا ربَّ غيري، وقيل: (الر) و(حم)، و(نون) اسم الرحمن، عن عكرمة، وسعيد بن جبير، والشعبي، وقيل: هو قسم كأنه قيل: والله تلك آيات[3] الكتاب، وما يروى عن بعضهم أنه سِرٌّ،

---

(١) من هنا بداية نسخة الهاشمي (ش).

(٢) مركب: المركب، د.

(٣) آيات: +، ش.

وأنه لا يُعْلَمْ معناه ليس بصحيح؛ لأن الغرض من الكلام إفهام المخاطب، ولأن الصحابة والتابعين والعلماء إلى يومنا هذا تكلموا في معناه.

«**تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ**» فيه ثلاثة[1] أقوال:

الأول: أن المراد به القرآن، ثم اختلفوا فقيل: هذه السورة نسخت من اللوح المحفوظ، فهي من آياته، وهو اختيار القاضي، وقيل: هذه علامات لهذا الكتاب دالة على أنه عربي، عن أبي مسلم، وقيل: تلك إشارة إلى ما كان وعد الله له[2] أن يعطيه كتابًا لا يمحوه الماء، فكأنه قيل: هذه السورة من تلك الآيات الموعودة.

والثاني: المراد بتلك آيات الكتاب التوراة والإنجيل، والكتب المتقدمة، عن مجاهد وقتادة، والأول أصح؛ لأنه لم يَجْرِ للكتب ذِكْرٌ.

«**الْحَكِيمِ**» قيل: وصف الكتاب بالحكمة؛ لأنه دليل يعلم به الحق من الباطل فهو كالناطق بالحكمة والحجج المؤدية إلى المعرفة، وقيل: معناه محكم، أي: أحكم نظمه فصار[3] معجزة، ومعناه: فصار بيانًا، فلا يدخله فساد ونقص، وقيل: أُحْكِمَ بجمع العلوم[4] فيه، وفُصِّل بالحلال والحرام، وقيل: المحكم من الباطل، لا كذب فيه، ولا إخلاف[5]، عن مقاتل. وقيل: أحكم بالأمر والنهي والثواب والعقاب، عن الحسن. «**أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ**» الألف ألف استفهام، والمراد به الإنكار، معناه: لأي شيء يتعجبون من إرسالي بشرًا، ومعنى «**أوحينا**» أي: هذا القرآن والدين «**إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ**»، قيل: من البشر، وهو محمد ﷺ، وقيل: من العرب «**أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ**» أي: أخبرهم بالعذاب وخوفهم به «**وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا**» أي: أخبرهم بما يسرهم، وهو أن لهم الجنة بـ «**أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ**» قيل: أجرًا حسنًا، ومنزلة رفيعة بما قدموا من أعمالهم، عن ابن عباس وأبي علي، وهو أحسن ما قيل فيه، وقيل: ثواب

---

(١) ثلاثة: +، ش.

(٢) له: ـ، ش.

(٣) فصار: ـ، ش.

(٤) ينظر: العلوم.

(٥) ولا إخلاف: ولا اختلاف، ش.

صدق، عن الضحاك، وقيل: الأعمال الصالحة، عن مجاهد والأصم وأبي مسلم، وقيل: شفيع صدق وهو محمد ﷺ، عن زيد بن أسلم، وقيل: عمل صالح أسلفوه يقدمون عليه، عن الحسن، وقيل: منزلة رفيعة، وهي الجنة لا تفنى ولا تبيد، عن عطاء وأبي حاتم والزجاج[1]، وقيل: قبول أعمالهم وما يستحق عليها من الجزاء، وقيل: سبقت لهم السعادة في اللوح المحفوظ «**قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسحرٌ**» أي: القرآن سحر «**مُبِينٌ**» أي: ظاهر، وقرئ: ساحر، يعني: محمدًا صلى الله عليه وآله[2].

۞ الأحكام

تدل الآية على حَدَثِ الكتاب والآيات؛ لأنها أحكمت، وذلك يستحيل في القديم.

وتدل على أنهم أنكروا كون الرسول بشرًا، وذلك غير مُنكَرٍ عقلاً وشرعًا؛ لأن الرسول وبعثته تتبع المصلحة، وقد يكون البشر أصلح، ولأن عادة الله جارية في إرسال البشر، فلا موضع للتعجب في أمره.

وتدل على أن الإنذار عام؛ لأنه لا بد في كل مكلف من ذلك، وأن البشارة خاصة؛ لأنها تَسُرُّ من أطاعه.

وتدل على أن للمؤمنين الرفعة عند الله، فتدل على أن الثواب جزاء على[3] الأعمال، بخلاف قول المجبرة.

وتدل على أن المؤمن يختص بهذه المنزلة الرفيعة، خلاف قول المرجئة.

وتدل على عجزهم عن معارضة القرآن وإبطال نبوته، فعدلوا إلى وصفه بالسحر.

وتدل على عظم محل القرآن.

وتدل على أن التكذيب فعل الكفار، لذلك أوعد عليه، فيبطل قول المجبرة في المخلوق.

---

(١) معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٣/ ٦.

(٢) وآله: ـ، ش.

(٣) على: +، ش.

ومتى قيل: أليس قال في موضع: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ۝٢١٤﴾ [الشعراء: ٢١٤]؟

قلنا: إنذار العشيرة وسائر الناس واجب إلا أنه صلى الله عليه وآله[1] رتَّبَ، فأنذر عشيرته أولاً، ثم سائر الناس.

قوله تعالى:

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٣ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ۝٤﴾

۞ القراءة

قرأ أبو جعفر يزيد بن القعقاع المدني خاصة: «**أنه يبدأ الخلق**» بفتح الألف من[2] (أنه)، والباقون من القراء بكسرها، فالأول على تقدير بأنه، أو لأنه، فلما حذف الخافض نصب (أن)، والثاني: على الاستئناف.

قراءة العامة: «**وَعْدَ الله حَقًّا**» بالفتح، وقرأ ابن أبي عليّة[3] بالرفع على الاستئناف.

۞ اللغة

التدبير: أن يدبر الإنسان أمره، كأنه ينظر إلى ما يصير إليه عاقبته، فينزلها في مراتبها على إحكام عواقبها، دَبَّرَ يُدَبِّرُ تدبيرًا.

والبَدْءُ: مصدر بدأت بالأمر، وَأَبْدَأْتُ أي: ابتدأت، والله المبدئ والبادئ، وأصله من: بدا يبدو إذا ظهر، كأنه ظهر فعله أولاً.

والإعادة: النشأة الثانية، كما أن الابتداء النشأة الأولى.

---

(١) وآله: ـ، ش.
(٢) من: +، ش.
(٣) ابن أبي عليّة: ابن أبي عيلة، ش.

والقِسْطُ بكسر القاف: العدل، ومنه: القسط النصيب، والقَسْطُ بفتح القاف: الجور، ومنه: القَسَطُ بفتح القاف والسين: اعوجاج في الرجلين، يقال: قَسَطَ يَقْسِطُ قَسْطًا: إذا جار، وأَقْسَطَ يُقْسِطُ: إذا عدل.

والحميم: المسخن بالنار الإسخان.

۞ الإعراب

«جميعًا» قيل: نصب على الحال «حقًا» نصب على المصدر يدل عليه الفعل المذكور، وتقديره: وعد الله وعدًا حقًا، إلا أنه لما لم يُذكر الفعل أضيف المصدر إلى الفاعل، قال كعب بن زهير:

يَسْعَى الوُشَاةُ جَنَابَيْهَا وَقَوْلُهُمُ إِنَّكَ يَا بْنَ أَبِي سُلْمَى لَمَقْتُولُ[1]

يريد: ويقولون قيلهم[2]، وقيل: نصب على القطع.

۞ النظم

يقال: كيف تتصل الآية بما قبلها؟

قلنا: قيل: يتصل بقوله: «أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ» ثم قال: وربهم الذي خلق السموات والأرض[3]، عن أبي مسلم قال: ويحتمل أنه مبتدأ عام للخلق جميعًا احتج بها على عباده بما بَيَّنَ من عجائب صنعه في السموات والأرض، وفي أنفسهم، وهو قول الأصم.

۞ المعنى

«إِنَّ رَبَّكُمُ» خالقكم ومنشئكم هو «اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ».

---

(١) انظره في: أساس البلاغة (جنب).

(٢) قيلهم: قبلهم، ش.

(٣) والأرض: +، ش.

ومتى قيل: لم خلقها في ستة أيام، وهو قادر على خلقها في لحظة؟

قيل: فيه وجهان:

قيل: في إظهاره على تلك الصفة وإنشائه حالاً بعد حال عبرة للملائكة.

وقيل: في الإخبار به لطف ومصلحة.

«**ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ**» قيل: استولى على العرش بإنشاء التدبير من جهته، ثم[1] دخل على التدبير كأنه قبله أقبل على تدبير الأمور على ما علم من مصالح العباد، وقيل: العرش بناء السموات والأرض، واستوى: قصد، و(على) بمعنى (إلى) أي: قصد إلى خلق السموات والأرض، عن أبي مسلم، وقيل: العرش الملك أي: هو مُسْتَوْلٍ على ملكه يفعل ما يشاء خلاف قول المجوس، وقيل: ثم بمعنى الواو، ثم دخل على التدبير تقديره: يدبر الأمر، وهو مستول على العرش، عن أبي علي، وقيل: ثم[2] دخل على خلق العرش؛ لأنه تعالى خلق العرش آخر ما خلق، وقيل: تقديره: ثم إن ربكم الله الذي خلق فدخل (ثم) على (إن) ربكم، عن الأصم، وقيل: ثم دخل على خلق البناء، عن أبي مسلم. «**يُدَبِّرُ الأَمْرَ**» قيل: يقضيه وحده، عن مجاهد، وقيل: يقدره على ما علم من عواقبه. لأنه العالم بجميع ذلك، وقيل: تدبيره إجراء الأفلاك الدائرات والنجوم السائرات، وإنبات النبات، وإخراج الحيوانات، وتدبير ما في الأرض والسموات «**مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ**» قيل: كان الله تعالى وخلق الخلق ودبر الأمر، ولم يكن غَيْرُهُ ممن يحتاج إلى معونته، والشفيع مأخوذ من الشَّفْعِ، وهو الزوج خلاف الوتر، ثم خلق الأحياء، وقيل: ما من مدبر إلا من بعد إذنه، أي: من بعد أمره، يعني: ما كان أحد حين[3] كونه وأوجده، عن أبي مسلم، وقيل: دبر الثواب والعقاب، على ما أوجبته الحكمة، فلا[4] يحسن من أحد أن يشفع لأحد إلا بإذن الله له في ذلك؛ لأن الشفاعة دعاء للغير لنفع، أو دفع ضرر، وإنما

---

(١) ثم: ولم، د.

(٢) ثم: لم، ش.

(٣) حين: حتى، ش.

(٤) فلا: ولا، ش.

يحسن إذا كان فيه مصلحة، وهو تعالى يعلم المصالح، وقيل: الشفيع ذو المنزلة، أي: ليس لأحد منزلة إلا بعد أن يتعبده فيستحق المنزلة بطاعته، وكان المشركون يدعون لآلهتهم ذلك، فبين أنها أحجار لا تستحق ذلك، عن الأصم، وقيل: معناه يدبر أمر القيامة وحده، فيثيب ويعاقب لا يملك أحد لأحد شيئًا إلا بإذن الله في ذلك إكرامًا له، وللمشفوع، وقيل: يدبر الأمر بحسب المصلحة لا لشفاعة شفيع، ولا لتدبير مدبر «**ذَٰلِكُمُ**» يعني الذي فعل ما تقدم ذكره هو «**اللَّهُ رَبُّكُمْ**» لا رب لكم غيره، وقيل: الذي دبر الأمور هو المالك لتدبيركم «**فَاعْبُدُوهُ**» لأنه المستحق للعبادة «**أَفَلَا تَذَكَّرُونَ**» استفهام، والمراد به التقرير، أي: تذكروا هذا، يعني: تفكروا وتدبروا؛ لتعلموا أنه لا تحق العبادة إلا له.

ولما أَمَرَ تعالى بالعبادة بَيَّنَ الجزاء حَثًّا عليها، فقال سبحانه: «**إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ**» يعني: بعد الموت للجزاء في يوم القيامة رجوعكم إلى الموضع الذي لا حكم لأحد سواه، وقيل: إليه موضع رجوعكم.

ومتى قيل: كيف الرجوع إليه؟

قلنا: هو على وجهين:

أحدهما: أن يكون المراد الرجوع إلى موضع له الحكم فيه، لا يمكن لأحد سواه من شيء، بخلاف الدنيا.

وثانيها: إلى موضع الجزاء من ثواب وعقاب.

«**وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا**» يعني: وعد الله بذلك عباده وعدًا صدقًا «**إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ**» أي: يخلقه ابتداء في الدنيا، ولم يكونوا شيئًا فخلقهم وكلفهم، ثم يميتهم و[1]يفنيهم، ثم يعيدهم بعد الفناء يوم القيامة للجزاء، وقيل: يبدأهم أحياء ثم يميتهم، ثم يحييهم ويعيدهم أحياء، ثم بين فائدة الإعادة فقال: «**لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ**» أي: بالعدل لا ينقص من أجورهم شيئًا، وإن قَلَّ، قيل: القسط:

(١) و: ثم، ش.

الوزن، يعني[١] بمثل ما عملوا من الخير بالوزن، يعني بالتقدير «**وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ**» حار قد انتهى حره في النار، وهو بمعنى محموم «فَعِيلٌ» بمعنى مفعول «**وَعَذَابٌ أَلِيمٌ**» وَجِيعٌ «**بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ**» يعني ذلك جزاء على كفرهم.

۞ الأحكام

تدل الآية على أن طريق معرفته تعالى أفعاله، فلذلك نبه على ذلك بذكر أفعاله، وهكذا ذكر عن موسى لما سأله فرعون ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣] نبه بذكر الأفعال، وكذلك إبراهيم لما حاج نمروذ، وذلك أن ما لا يدرك بالحواس، فالطريق إلى معرفته فِعْلُهُ أو حكمه، والحكم معلول العلل، وهو تعالى ليس بعلة، فلم يبق إلا أن يكون الطريق إلى معرفته فعله، فتدل[٢] على أنه خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام، وقد بينا ما قيل في فائدة ذلك، وإلا فهو تعالى قادر على خلق ذلك في لحظة واحدة، وكونه مصلحة للملائكة أو الخبر به مصلحة لنا.

ومتى قيل: أليس السموات والأرض خلقا أولاً؟

قلنا: لا، بل لا بد من حيوان ينتفع به، وإلا كان عبثًا فيجوز أن يتقدم عليهما، ويجوز أن يخلق معهما.

ومتى قيل: فكيف[٣] يستقر ذلك الحي؟

قلنا: إن خلقه أولاً فالله تعالى يمسكه كما يمسك السموات والأرض، وتدل على إثبات المعاد، وأنه يعيد الخلق.

ومتى قيل: ما الذي يصح فيه الإعادة؟ وما الذي يعيد[٤]؟ ومن الذي يعيده[٥]؟ ومن الذي يقدره[٦].

---

(١) يعني: +، ش.
(٢) فتدل: وتدل، ش.
(٣) فكيف: كيف، ش.
(٤) يعيد: يعيده، ش.
(٥) يعيده: يعيد، ش.
(٦) ومن الذي يقدره: +، ش.

قلنا: كل ما يبقى وهو من فعل القادر للذات ولم يكن متولدًا فإنه يصح عليه الإعادة هذا هو الصحيح، وإن كان لشيخينا أبي علي وأبي هاشم في ذلك كلام ليس هذا موضعه، فأما الذي يعيده فالاعتبار بما به يصير الحي حيًّا، ولا اعتبار بالأطراف، وعن أبي القاسم أنه لا بد من إعادة الجميع، وعن بعضهم الاعتبار بالروح(١)، وليس بشيء؛ لأن المكلف هو الشخص دون الروح، فأما من يعيده فالمستحق للثواب أو لعوض لما يوفر عليه في الدنيا يجب إعادته، ويجوز ألا يعاد من يستحق العقاب إلا أن السَّمْعَ ورد بإعادة جميع الأحياء.

وتدل على إثبات الجزاء على الأفعال، خلاف قول المجبرة.

وتدل على أن العمل الصالح والكفر فعل العبد، فيبطل قولهم في المخلوق.

وتدل على أن الجزاء يكون بالعدل، فلا يُعَذَّبُ أحد بذنب غيره، أو أحد لا ذنب له، أو بما لم يفعل، فيبطل مذاهب المجبرة في المخلوق وأطفال المشركين.

وتدل على أنه يجزي المؤمنين بالثواب، ويجزي الكافرين بالعقاب، خلاف قول من جوز خلاف ذلك.

ومتى قيل: أثبت فريقين، وذلك يبطل قولكم في المنزلة بين المنزلتين؟

قلنا: أثبت اثنين، ولم ينف غيره، وإثبات الشيء لا يدل على نفي ما عداه، وأيضًا فإنه وصف في الآية من آمن وعمل صالحًا، وحالِ الكافر والفاسق خارج منهما بالاتفاق.

وتدل على أنه تعالى يفعل لغرض؛ لأنه بين أنه تعبد للجزاء.

قوله تعالى:

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٥ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ۝٦﴾

---

(١) بالروح: بالرفع، د.

۞ القراءة

قرأ ابن كثير وأبو[1] عمرو وحفص عن[2] عاصم: «**يُفَصِّلُ**» بالياء، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم لقوله تعالى: «**ما خلق الله ذلك إلا بالحق**» فيرجع بالكناية إلى اسم الله، وقرأ الباقون: «**نفصل**» بالنون على التفخيم[3]، وعن ابن السميقع[4] بضم التاء وفتح الصاد ورفع التاء من الآيات على ما لم يسم فاعله.

والقراء كلهم على «**ضياء**» بالياء، وروي عن ابن كثير «ضئاء» بهمز الياء، وليس بصحيح؛ لأن أصله الواو، وهو من الضوء، وهو عين الفعل، فقلبت ياء كما فُعِلَ في «الصيام والقيام».

۞ اللغة

الضوء: بفتح الضاد وضمها معروف، وهو[5] الضياء، يقال: أضاءت النار.

والقدر بفتح الدال وسكونها: مبلغ الشيء يقال: قدرت الشيء قدره وأَقْدُرُهُ بكسر الدال وضمها. والقدر: القضاء الذي يقدره الله تعالى.

والمنازل: جمع منزل، وهو موضع النزول.

والاختلاف: ذهاب كل واحد من الشيئين في غير وجهة[6] الآخر، من الخلاف، واختلاف الليل والنهار ذهاب أحدهما في جهة الضياء، والآخر في جهة الظلام، والأشياء على ضربين؛ إما مختلف، وإما متماثل، ولا واسطة بينهما، فالمثلان[7] ما يسد أحدهما مسد الآخر فيما يرجع إلى ذاته، والمختلف ما لا يسد مسده، والاعتبار بصفة الذات ومقتضى تلك الصفة.

والليل: جمع ليلة، كتمرة وتَمْرٍ.

---

(١) وأبو: أبي، ش.
(٢) عن: غير، ش
(٣) حجة القراءات ٣٢٨.
(٤) ابن السميقع: ابن عياش السميقع، د.
(٥) وهو: ومنه، ش.
(٦) وجهة: جهة، ش.
(٧) فالمثلان: فالمثلين، د.

۞ الإعراب

يقال: لما وَحَّدَ «وقَدَّرَهُ»، وقد جرى ذِكْرُ الشمس والقمر؟

قلنا: فيه وجهان:

أحدهما: أن بالقمر أحصى شهور الأهلة التي يعمل الناس عليها في المعاملات، ووضع عليها الأمور الشرعية.

الثاني: أنه في معنى البينة إلا أنه وحد للإيجاز، اكتفاء بالمعلوم كقوله: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ [التوبة: ٦٢] قال الشاعر:

رَمَانِي بِأَمْرٍ كُنْتُ مِنْهُ وَوَالِدِي ... بَرِيئًا وَمِنْ جُولِ الطَّوِيِّ رَمَانِي[1]

أراد: بريئان.

«ذلكم» اسم (إن)، و(الله) خبره.

۞ النزول

قال ابن عباس: قال أهل مكة: يا محمد، ائتنا بآية حتى نؤمن لك، فأنزل الله تعالى: «إن في اختلاف الليل والنهار» الآية.

۞ المعنى

ثم أراد تعالى في الاحتجاج في التوحيد[2]، وعلى أنه القادر للنشأة الثانية، فقال سبحانه: «هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً» بالنهار يعني خلق الشمس وخلق فيها الضياء فَجِرْمُهُ جِسْمٌ، والضياء فيه عَرَضٌ «وَالْقَمَرَ نُورًا» أي: وخلق القمر نورًا للخلق وفيهما من الأدلة وجوه كثيرة: فمنها: خَلْقُهما وخلق النور والضياء فيهما، ودوراتهما ورفعهما وإمساكهما وقربهما وبعدهما ومنازلهما، ومشارقهما، ومغاربهما، وزيادة القمر ونقصانه، وكسوفهما، قال الكلبي: يضيء وجهها لأهل السموات السبع،

---

(١) لعروة الباهلي. انظره في: اللسان (جول)، وتاج العروس(جول).

(٢) التوحيد: للتوحيد، ش.

وظهرها لأهل الأرضين السبع «**وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ**» أي: قدر للشمس والقمر منازل ينزلها في كل وقت على ما دبر تعالى لا يجاوزها ولا يقصر عنها، والقمر يطلع المنازل في شهر، والشمس في سنة «**لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ**» دخولها وانقضاءها، وكمينها، فكل سنة اثنا عشر شهرًا، كل سنة دوران للشمس، وكل شهر دوران للقمر، واليوم من وقت طلوع الشمس إلى وقت غروبها، والليل من وقت غيبوبة الشمس إلى وقت طلوعها، وإنما يتم الحساب لكلها[1] بجميع ذلك، فيجري على هذا التقدير السنون، والآجال، والحساب، والزروع، والشتاء، والصيف «**مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ**» أي الخلق الذي خلق ولم يُرِدْ الأعيان، فلذلك ذُكِّرَ ولم يؤنَّثْ "**إلاَّ بِالْحَقِّ**» أي خلقه بالحكمة منفعة لعباده في دينهم ودنياهم كأوقات الصلاة والصوم والحج والآجال، وغير ذلك من منافع الدين ومنافع الدنيا، ومع ذلك يدل على وحدانيته وقدرته وكونه عالمًا لم يزل ولا يزال «**يُفَصِّلُ الآياتِ**» يشرحها ويبينها فصلاً فصلا «**لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ**» لمن نظر وتدبر حتى علم، وخصهم لأنهم المنتفعون، وإلا فهو بيان عام لجميع الخلق، عن أبي مسلم، «**إِنَّ فِي اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ**» قيل: إتيان أحدهما خلف الآخر، وقيل: اختلافهما ضياء أحدهما وظلمة الآخر «**وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ**» من الكواكب والأفلاك ورفعها بغير عمد ودوران النجوم، وفي الأرض من أنواع الحيوانات وأنواع الأرزاق والنعم والمأكول والملبوس والمشموم، «**لآياتٍ**» حجج وعلامات «**لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ**» معاصي الله، وخصهم بالذكر؛ لأنهم المنتفعون به.

۞ الأحكام

تدل الآيات على كمال قدرته من وجوه كثيرة، أشرنا إلى بعضها.

وتدل على نعمه بجميع ذلك على عباده.

وتدل على أنه خلق جميع ما خلق بالحق، ولم يخلق الباطل والكفر على ما تزعمه المجبرة.

---

(١) لكلها: كلها؛ د، ش.

قوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾﴾(١)

القراءة

قراءة العامة: «أَنِ الْحَمْدُ» بتخفيف (أن) ورفع (الحمد)، وقرأ بلال بن أبي بردة وابن محيصن بتشديد (أَنَّ)، «الحَمْدَ» نصب على أنه اسم (أن)، وخبرها في قوله: «لله رب العالمين».

اللغة

اللقاء: مصدر لقيته لُقِيًّا، واللقاء أن تراه أيضًا، ثم جعل ملاقاة ما لا يقدر عليه إلا الله تعالى لقاء له تفخيمًا لشأنه، كما جعل إتيان جلائل آياته إتيانًا له في قوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾ [البقرة: ٢١٠] والغفلة والسهو من النظائر، ونقيضه: اليقظة، وهو ذهاب المعنى عن النفس. والتحية، التكرمة بالحال الجلية، ويسمون المُلْكَ تَحِيَّةً، لأن المَلِكَ يحيا بالتحية قال الشاعر:

ولَكُلُّ مَا نَالَ الفَتَى ... قَدْ نِلْتَهُ إلاَّ التَّحِيَّة(٢)

وأصله من قوله: أحياك الله حياة طيبة. الدعوى من الدعاء، كالشكوى من الشكاء، والدعاء: السؤال، تقول: دعوته ليفعل كذا، أي: سألته.

---

(١) (يعني خلق الشمس وخلق فيها. . .) ان الحمد لله رب العالمين: ـ ش.

(٢) قاله زهير بن جناب الكلبي. انظره: في اللسان (حيا)، والصحاح (حيا)، وتهذيب اللغة (حيي).

۞ الإعراب

الكاف في قوله: «**أولئك**» حرف الخطاب، وليس باسم، و(أولئك) لما بَعُدَ، و(هؤلاء) لمن حضر، ومثله: (هذا) و(ذاك)، و(أولاء) مبني على الكسر؛ لأنها الأصل في حركة التقاء الساكنين، والميم في (اللهم) معناه معنى (يا)، كأنه يقول: يا الله، وهو ياء النداء «**دعواهم**» يدعون. «**تحيتهم**» اسم مبتدأ، و«**سلام**» خبر الابتداء، ولم يرفع «**سبحانك**» كما رفعت «**سلام**»؛ لأن «**سبحانك**» تقديره: سبحت سبحانًا، و«**الحمد**» رفع؛ لأن ما يخبر بعد (أن) المخففة يكون رفعًا.

۞ المعنى

لما تقدم ذكر المعاد والجزاء أتبع ذلك بذكر المكذبين بالمعاد، وما أعد لهم، وتلاه بالوعد للمؤمنين، وما أعد لهم من النعيم، فقال سبحانه: «**إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا**» قيل: لا يخافون عقابنا، وقيل: لا يطمعون في ثوابنا، والرجاء يكون بمعنى الخوف والطمع، والمراد باللقاء لقاء الجزاء والقيامة، وقيل: لا يظنون الرجوع إلى دار يكون الحكم له، عن أبي مسلم «**وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا**» يعني رضوا بالدنيا فعملوا بها، واختاروها، ولم يعملوا للآخرة لجهلهم بأحوالها «**وَاطْمَأَنُّوا بِهَا**» أي: يسكنون إليها، قيل: فصاحبها لها يفرح، ولها يغتم، ولها يرضى، ولها يغضب، عن قتادة، وقيل: اعتقدوا أن لا دار سوى الدنيا، فسكنوا إليها، وقيل: ألهاهم شغلها عن الفكر في الآخرة، وقيل: لم يصدقوا بالآخرة فاطمأنوا إلى الدنيا، عن الحسن «**وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ**» أدلتنا وحججنا، قيل: عن محمد والقرآن، عن ابن عباس، وقيل: هو عام في سائر الأدلة، «**غَافِلُونَ**» معرضون تاركون مكذبون «**أُولَئِكَ**» يعني من تقدم ذكره «**مَأْوَاهُمُ**» مصيرهم الذي يأوون إليه «**النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**» أي: جزاء بما عملوا من المعاصي في الدنيا «**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا**» صَدَّقُوا بالله ورسوله وبالمعاد والجزاء «**يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ**» قيل: يرشدهم إلى الثواب وطريق الجنة جزاء على إيمانهم، عن أبي علي. وقيل: وصفهم بالهداية على جهة المدح جزاء على إيمانهم[1]. وقيل: يلطف لهم ليدوموا على الإيمان، وقيل: فيه حذف؛ أي: يهديهم إلى مكان تجري،

---

(١) عن أبي علي وقيل وصفهم... على إيمانهم: + ، ش.

وقيل: يهديهم بالنور على الصراط يجعل له نورًا يمشي به، عن مجاهد، ومقاتل، وقيل: يرشدهم في الدنيا إلى الطاعة ويدلهم عليها ليزدادوا هدى، ثم يدخلهم الجنة، عن الأصم، «**تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ**» قيل: تجري بين أيديهم، وهم يرونها من علو، كقوله: ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ [مريم: ٢٤] وكقوله: ﴿وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ﴾ [الزخرف: ٥١] وقيل: تجري من تحت بساتينهم وأَسِرَّتهم وقصورهم، عن أبي علي «**دَعْوَاهُمْ**» قيل: نداؤهم، وقيل: سؤالهم، وقيل: طريقهم وعاداتهم أنهم يقولون «**فِيهَا**» يعني في الجنة «**سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ**» أي: تنزيهًا لك عن كل سوء، روي ذلك مرفوعًا، وقيل: أنهم يتلذذون بقول التسبيح، لا أنه تكليف «**وَتَحِيَّتُهُمْ**» قيل: تحية بعضهم لبعض، وقيل: تحية الملائكة إياهم، وقيل: تحية الله لأهل الجنة «**فِيهَا**» في الجنة «**سَلامٌ**» قيل: يقال لهم: السلام عليكم، وقيل: يقال: سلمتم وأمنتم من كل خوف، ومما ابتلي به أهل النار «**وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**» لم يُرِدْ آخرًا منقطعًا[١] ؛ لأن ذلك مؤبد، وذِكْرُهُمْ لله مؤبد، ثم اختلفوا في معنى الآية، قيل: إذا اشتهوا شيئًا قالوا: سبحانك اللهم فيؤتون به، فإذا نالوا منه قالوا: الحمد لله، عن ابن[٢] جريج، وقيل: يفتتحون كل كلامهم بالتوحيد والتسبيح، ويختمون بالتحميد والذكر[٣]، لا أنه ينقطع، عن الحسن والأصم وأبي علي، وقيل: آخر كلامهم في كل مجلس، وقيل: آخر كلامهم في كل ذكر لله تعالى في كل وقت.

۞ الأحكام

تدل الآية على وعيد الكفار، وأنهم استحقوا العقاب بفعلهم جزاء، وأن ذلك الكفر فعلهم، فيبطل قول المجبرة في المخلوق والجزاء.

وتدل على وَعْدِ المؤمنين[٤] بالجنة والثواب، وأنهم استحقوها بإيمانهم، وذلك أيضًا يبطل قولهم.

وتدل على أن الهداية قد تكون إلى الثواب.

---

(١) منقطعا: منقطع، ش.

(٢) ابن: ـ ، ش.

(٣) والذكر: الشكر، ش.

(٤) المؤمنين: للمؤمنين؛ ش.

وتدل على حال أهل الجنة وطُرُقِهِمْ[1] وتحيتهم في التسبيح والتحميد.

قوله تعالى:

﴿ ۞ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾

۞ القراءة

قرأ ابن عامر ويعقوب: «لقضَى» بفتح القاف والضاد «أَجَلَهُمْ» بالنصب، يعني أن الله تعالى يقضي أجلهم، وقرأ الباقون بضم القاف، وكسر الضاد «أَجَلُهُمْ» بالرفع على ما لم يسم فاعله[2]، وروي عن الأعمش أنه قرأ: (لقضينا) وروي أنه كذلك في مصحف عبد الله بن مسعود.

۞ اللغة

التعجيل: تقديم الشيء قبل وقته.

والشر: ظهور الضرر، وأصله من الإظهار، تقول: شررت: إذا أظهرته للشمس، ومنه: شرر النار لظهوره بانتشاره.

والقضاء: الفصل والقطع، وأصله: الفراغ من الشيء على تمام، قال الشاعر:

وَعَلَيْهِمَا مَسْرُودَتَانِ قَضَاهُمَا ... دَاوُدُ أو صَنَعُ السَّوابِغِ تُبَّعُ[3]

والطغيان: الغلو في الظلم، والطاغي والباغي من النظائر.

والعَمَهُ: شدة الحيرة. والتزيين: التحبيب إليه، وقيل: التحسين للفعل.

والإسراف: الإكثار من الخروج عن العدل.

(١) وطرقهم: وطريقهم، ش.

(٢) حجة القراءات ٣٢٨.

(٣) لأبي ذؤيب. انظره في: الصحاح (صنع)، واللسان (صنع).

الإعراب

«كأن لم» قال الأخفش: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ﴾ [الأعراف: ٩٢]، ﴿كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ﴾ [يونس: ٤٥]، وأمثالها «كأن» الثقيلة تقديره: كأنه لم يدعنا.

ونصب «استعجالهم» لوقوع التعجيل عليها، تقديره: يعجل لهم استعجالهم، كقولك: قمت اليوم قيامك بمعنى: قمت كقيامك.

«أو قاعدًا أو قائمًا» نصب على الحال، والمعنى: دعانا قائمًا أي: في هذه الحال.

النزول

قيل: نزلت الآية في النضر بن الحارث حين قال: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء، أو ائتنا بعذاب أليم.

وقيل: إن المشركين قالوا: ائتنا يا محمد بعذاب إن كنت صادقًا، فنزلت الآية.

المعنى

عاد الكلام إلى ذكر المائلين إلى الدنيا المطمئنين إليها الغافلين عن الآخرة، فقال سبحانه: «وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ» أي: لو عَجَّلَ لهم إجابة دعائهم في الشر كاستعجالهم له بالإجابة في الخير إذا دعوا، وقيل: إنهم يطلبون الخير قبل حينه[١]: وسبيله في أنه لا ينبغي كسبيل الشر من الإهلاك بالعقاب، قبل حينه[٢]. لما فيه من الاقتطاع عن التوبة، عن أبي علي، وقيل: هو كقول الرجل لولده وماله في حال غضبه: اللهم العنه ولا تبارك فيه، عن قتادة ومجاهد، وقال الحسن: هو كقوله: ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ﴾ [الإسراء: ١١] وقيل: أراد بالشر عقوبات أعمالهم، وتقديره: لعجل لهم عقوبة أعمالهم، وهو الشر كما يريدون العاجل من دنياهم الذي هو الخير لأماتهم عاجلاً، ونقلهم إلى ذلك العذاب، عن أبي مسلم، يعني: هم[٣]

(١) قبل حينه: قيل جنته، د، ش). والصواب ما أثبتناه من: التبيان في تفسير القرآن، للطوسي،٦/ ٣٤٠.
(٢) قبل حينه: قيل: حثه، د. ش. والصواب ما أثبتناه من: التبيان في تفسير القرآن، للطوسي، ٥/ ٣٤٠.
(٣) هم: +، ش.

يستعجلون بما ليس بمستحق، والله تعالى يمهل، ولا يعجل المستحق، وقيل: أراد عذاب الاستئصال أي: هؤلاء يستعجلون العذاب جهلاً بموقعه، وتكذيبًا له، ونحن لا نعاقبهم ونتركهم يترددون فيما هم فيه حِلْمًا[1] وكرمًا، ولو استجاب لهم لقطع أجلهم، عن الأصم، وقيل: الخير منافع الدنيا، وقيل: الخير الثواب، والشر العقاب، عن أبي علي، «**لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ**» قيل: لآمنوا وقطع أجلهم وفرغ منه، والأجل مدة الحياة، «**فَنَذَرُ**» أي: ندع «**الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا**» قيل: لا يطمعون في ثوابنا، ولا يخافون عقابنا، فجعل لقاء الجزاء لقاء له تفخيمًا، وقيل: لا يعلمون لقاء الله إياهم على أعمالهم أي: لا يؤمنون بذلك «**فِي طُغْيَانِهِمْ**» أي: عصيانهم، وعدولهم عن الحق إلى الباطل وتمردهم في الظلم «**يَعْمَهُونَ**»: يتحيرون.

ومتى قيل: كيف قابل التعجيل بالاستعجال؟

قلنا: إن تعجيلهم بالشر تضمن طلب الشر، والاستعجال يتضمن الإجابة، فتقدير الكلام: لو استعجلوا الشر كاستعجالهم الخير لعجل[2] الله تعالى[3] لهم الشر، كما عجل الخير «**لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ**».

«**وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ**» أي: أصابه بلاء وشدة، وأراد بالإنسان الجنس، أي: من عادة الإنسان إذا أصابه ضر وشدة ومشقة «**دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا**» قيل: أراد في جميع حالاته؛ لأنه أحوال دعائه، وقيل: أحوال مرضه وصحته، وقيل: هذا بناء على ما تقدم، أي: يستعجل من الشر، فإذا امتحن به أفرط في الدعاء والتضرع، فإذا أزيل بشيء من النعمة فلا هو صابر في المحنة، ولا شاكر في النعمة «**فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ**» أي: رفعنا[4] عنه، وفرَّجْنَا «**مَرَّ**» أي: استمر على طريقته وعادته «**كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ**» أي: كأنه لم يَدْعُنَا قَطُّ «**كَذَلِكَ زُيِّنَ**» قيل: زينه الشيطان والغواة، عن الحسن، وقيل: هم زينوا لأنفسهم[5]، وليس هاهنا مزين غيرهم، وإن لم يُضَفْ

---

(١) حلما: حكمًا، د.

(٢) لعجل: يعجل، د.

(٣) تعالى: ـ، ش.

(٤) رفعنا: دفعنا، ش.

(٥) لأنفسهم: أنفسهم، د، ش.

التزيين إليهم كقولهم: فلان معجب بنفسه، عن أبي مسلم، وقيل: زين الله بالشهوة لتحبيب المشتهي؛ لأنه تعالى رَكَّبَ الشهوة ليصح التكليف، ثم زين صوارفه بالوعيد، لا أنه زين، ولا يقال: زينه الله؛ لأنه عَارٌ، وذم، فيستحيل أن يذم فعله «لِلْمُسْرِفِينَ» المجاوزين للحد في الكفر والعصيان «مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» قيل: عبادتهم لغير الله، وقيل: نفقتهم في معصية الله والإسراف يكون في النفس والمال، وقيل: جميع أعمالهم في المعاصي.

۞ الأحكام

تدل الآية على أنه تعالى يؤخر العقاب، وأنه لو قدم ذلك لبطل التكليف.

وتدل على أن الدعاء يجب أن يكون للمصلحة والاستعداد للآخرة؛ لأنه ذمهم على دعائهم له لزوال الشدائد فقط.

وتدل على وجوب الصبر عند الشدة، والشكر عند النعمة؛ لأنه تعالى إذا امْتَحَنَ فذلك مصلحة يجب الصبر عليه.

وتدل على أن من عادة السوء للإنسان أن ينسى ما أُسْدِيَ إليه من النعم.

قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾

۞ اللغة

القرن: أهل العصر لمقارنة بعضهم لبعض، وجمعه: قرون، ومنه: قرن الشاة لمقارنته آخر بإزائه، والقِرن بكسر القاف: لمقاومته قرينه في الشدة، وقرون الشعر: الذوائب لمقارنتها، ومنه قول أبي سفيان: ولا الرُّوَم ذَاتَ القُرُونِ، ومنه: مقرون الحاجبين، ومنه: القران في الحج؛ لاقتران العمرة بالحج.

والخلائف: جمع خليفة، وهو أن يخلف صاحبه، ومنه: و﴿جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ﴾ [يونس: ١٤] أي: يأتي أحدهم بعد الآخر، كلما أمضت طائفة خلفتها طائفة، وقيل لأمة محمد ﷺ: خلائف؛ لأنهم خلفوا سائر الأمم، وأصله من الخلف نقيض القدام[١].

۞ الإعراب

«**خلائف**» لا تنصرف؛ لأنه جماعة ثالث حروفها ألف، وبعد الألف أكثر من حرف، «**لينظر**» [أي][٢]: لكي ينظر.

۞ المعنى

ثم حذر تعالى كفار هذه الأمة ما أنزل[٣] بالأمم الماضية من الَمُثلاَت، فقال سبحانه: «**وَلَقَدْ**» تأكيد للكلام «**أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ**» أي: الأمم الماضية، قال ابن عباس: بين كل قرنين ثمانٍ وعشرون سنة «**لَمَّا ظَلَمُوا**» قيل: أشركوا وعصوا «**وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ**» بالحجج «**وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا**» ليصدقوا رسلهم فيما أتتهم[٤] به «**كَذَلِكَ**» أي: كما أهلكناهم بكفرهم «**نَجْزِي**» نعاقب جزاء «**الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ**» الكافرين بتكذيبهم الرسول «**ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ**» يا محمد «**خَلائِفَ فِي الأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ**» أي: بعد القرون التي أهلكناهم، ومعناه: خلقناكم بعدهم أحياء، وأسكناكم في الأرض وملكناكم، قيل: جعلناكم خلفهم في التعبد، عن الأصم «**لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ**» أي: لنرى عملكم أين يقع من عمل أولئك أتقتدون بهم فتستحقوا[٥] من العقاب ما استحقوا؟ أم تؤمنون فتستحقوا[٦] الثواب؟ وقيل: لنرى كيف تعملون فيما تعبدناكم به.

ومتى قيل: هل[٧] يجوز النظر عليه؟

(١) يقصد «جمع» لأنها على صيغة منتهى الجموع على وزن «فعائل».
(٢) أي: +، ش.
(٣) أنزل: نزل، ش.
(٤) أتتهم: أتاهم، ش.
(٥) فتستحقوا: فتستحقون؛ د، ش.
(٦) فتستحقوا: فتستحقون، ش.
(٧) هل: هو، ش.

قلنا: لا؛ لأن النظر يكون بالقلب، وهو التفكر، والعين: هو تقليب الحدقة نحو المرئي التماسًا لرؤيته مع سلامة الحاسة، وكل شيء من ذلك لا يجوز على الله سبحانه، وإنما يستعمل في صفاته مجازًا وتوسعًا، والنظر إنما هو طلب العلم، فمعناه: يعاملهم معاملة من يطلب العلم بما يكون منهم ليجازيهم[1] بحسبه، عن أبي علي، وقيل: معناه ليعلم الفعل واقعًا، كما علمه قبل وقوعه، كأنه ينظر إليه، عن أبي مسلم.

۞ الأحكام

تدل الآية على أن هلاك الأمم كان بظلمهم، فدل أن الظلم حادث من جهتهم حتى استحقوا الهلاك، خلاف قول المجبرة أنه من جهته تعالى.

وتدل على أن المقصد ببعثة الأنبياء البيان ليؤمنوا، وقوله: «**لننظر**» تحذير من المعاصي، وترغيب في الطاعات، وزجر عن عمل[2] المعاصي.

وتدل على أن أعمالهم حادثة من جهتهم؛ ليصح قوله: «**لِنَنظُرَ كَيفَ تَعمَلُونَ**» وروي عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها، فناظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء»[3].

ويدل قوله: «**وما كانوا ليؤمنوا**» على أنه لو[4] أَخَّرَ هلاكهم[5] لَمَا آمنوا، وإنما أهلكهم للإياس من إيمانهم، ولو علم أنهم يؤمنون لأخرهم وبَقَّاهُمْ.

واختلفوا في تبقية من يعلم أنه يؤمن هل تجب أم لا؟ فقال أبو علي: تجب، وقال أبو هاشم: يجوز أن يميتهم على الكفر، ولو علم أنه لو بقاهم لآمنوا؛ لأن التكليف تَفَضُّلٌ، وليس بواجب، وأبو القاسم يذهب إلى قول أبي علي، وكذلك الأصم وأبو مسلم، وإن كانت علتهم تختلف.

---

(١) ليجازيهم، ليجازي، ش.
(٢) عمل: ـ، ش.
(٣) مسلم رقم ٢٧٤٢، والترمذي رقم ٢١٩١، وابن حبان رقم ٤٢١٢.
(٤) لو: ـ، ش.
(٥) هلاكهم: إهلاكهم، ش.

قوله تعالى:

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾﴾

القراءة

قراءة العامة: «**ولا أدراكم**» بالألف، وعن ابن كثير في بعض الروايات: «**ولأدراكم**»[1] بغير ألف من دريت أي: علمت، وعن ابن عباس: وما أنذرتكم به من الإنذار، والأول: من أدراني، أي: عَلَّمَنِي، وقرأ الحسن: «**ولا أدرأتكم به**» قال علي بن عيسى: وهذا لا يجوز؛ لأنه من درأت[2] وأدريت غيري، كقولك: رميت، وأرميت عن غيري، فكان يجب أن يقول: ولا أدريتكم، وقيل: إنه لغة بني عقيل، يحولون الياء ألفًا، فتقول: أعطأت بمعنى أعطيت، ولَبَّأْتُ بمعنى لبيت، وجَارَاةٌ للجارية، ونَاصَاةٌ للناصية.

اللغة

التلاوة: القراءة، تلا يتلو، وأصله من المتابعة.

والتبديل: رفع الشيء ووضع آخر مكانه، ومنه: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ﴾ [إبراهيم:٤٨]، وَبَدَّلْتُ، وَغَيَّرْتُ بمعنى.

وتلقاء نفسي وجهة نفسي وناحية نفسي بمعنى، والتلقاء: جهة مقابلة الشيء، إلا أنه يجعل ظرفًا، فيقال: هو تلقاه، كما يقال: هو حذاه وإزاءه، وقباله وتجاهه.

(١) ولأدراكم: ولا أدراكم، د.

(٢) درأت: دريت، ش.

والدراية: العلم، ومنه يقال: الله تعالى الداري، أي: العالم.

والعَمْر بفتح العين وسكون الميم، والعُمر بضمها: البقاء، وجمعه: عُمُرٌ، وإذا استعمل في القسم فالفتح لا غير، ومنه: لَعَمْرُكَ أي: أسأل تعميرك، ورفع «**العمرك**» إما لأنه خبر ابتداء محذوف، أو ابتداء خبر محذوف، على تقدير: لعمرك مما أقسم به، وقيل: في قوله «**لعمرك**» أي: بحياتك يا محمد، وقيل: بدينك يا محمد، الذي يعمر من العمارة، واستعمركم: أطال أعماركم.

۞ الإعراب

(مَنْ) في قوله: «**ومن أظلم**» استفهام، والمراد الإنكار، أي: لا أحد أظلم؛ إذ لا يجوز الاستفهام في صفة الله تعالى؛ لأنه عالم لما يزل، ولا يزال بجميع المعلومات.

۞ النزول

قيل: نزلت في مشركي قريش، عن قتادة.

وقيل: في خمسة عشر نفرا منهم: عبد الله بن أمية المخزومي، والوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل السهمي، وغيرهم، قالوا للنبي صلى الله عليه وآله: ائت بقرآن ليس فيه ترك عبادة اللات والعزى ومناة وهبل، أو بدله بكلام من تلقاء نفسك، فنزلت الآية، عن مقاتل.

وقيل: نزلت في المستهزئين قالو: يا محمد ائت بقرآن غير هذا فيه ما نسألكه[1]، أو بدله أنت فاجعل مكان آية عذاب آية رحمة، فنزلت الآية، عن الكلبي.

وقيل: هم المستهزئون، وهم خمسة[2] : الوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل السهمي، والأسود بن المطلب، والأسود بن عبد يغوث[3]، والحارث بن عيطلة.

---

(١) نسألكه: ما نسلكه، ش.

(٢) خمسة: خمسة عشر، ش.

(٣) يغوث: الغوث، ش.

۞ المعنى

عاد الكلام إلى مشركي قريش، وما حكموا به على رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ كفرًا وعنادًا[1]، فقال سبحانه: **«وَإِذَا تُتْلَى»** تقرأ **«عَلَيْهِمْ»** على الكفار **«آيَاتُنَا»** حججنا، وهي القرآن **«بَيِّنَاتٍ»** واضحات ظاهرات **«قَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا»** لا يؤمنون بالبعث والجزاء، ولا يطمعون في ثواب، ولا يخافون من عقاب، فجعل لقاء الجزاء لقاء له تفخيمًا وتعظيمًا **«ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ»** قيل: ائت بقرآن يكون مع هذا على ما نسألك، أو بَدِّلْ هذا بأن ترفعه، وتأتي بغيره من جهتك، وقيل: ائت بكتاب غير هذا، (**أو بدله**)[2] يعني: بَدِّلْ أحكامه وفروضه، وأوامره وزواجره؛ حتى يكون مُطْلِقًا لهم عبادة ما يعبدون، عن أبي مسلم، وقيل: ائت بكتاب غير هذا، ليس فيه عيب لنا ولا لآلهتنا، وتصديق الآخرة، أو غَيِّرْ ما في هذا الكتاب من الأحكام، وهو ما يخالفنا، عن الأصم، وقيل: سألوه ذلك تعنتًا وتكذيبًا واستهزاءً، عن أبي علي، وقيل: سألوه ذلك لما فيه من عيب آلهتهم، ومن ذكر البعث والنشور، عن الزجاج[3]، وقيل: سألوه الشبهة فإنهم ظنوا أنه من جهته، وقيل: سألوه استدراجًا إلى تكذيبه ليقول: إني أبدله، فيحتجون عليه بأنه من عنده **«قُلْ»** يا محمد **«مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي»** قيل: من عند نفسي، وقيل: نفسي؛ لأنه معجز لا يقدر عليه إلا الله **«إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ[4]»** فيما آتيكم وآمركم وأنهاكم **«إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي»** أي: خالفته فيما أوحي إلي **«عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ»** وهو يوم القيامة **«قُلْ»** يا محمد **«لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ»** أي: ما قرأته عليكم، بألا ينزل عليَّ ولا يأمرني بقراءته عليكم **«وَلاَ أَدْرَاكُمْ بِهِ»** أي: ولا أَعْلَمَكُمْ الله به، عن ابن عباس، وقيل: لا أعرفكم، عن أبي علي، يعني لو سألوا الله أن يمنعهم فائدته ما أعلمهم، ولا أمر رسوله بتلاوته عليهم، وقيل: لولا أن أوحي إلي لأتلوه[5] عليكم، وإلا لما تلوته **«فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ**

(١) كفرا وعنادا: كفر وعناد، د.
(٢) أو بدله: وبدله، د.
(٣) معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٣/ ١١.
(٤) إليّ: +، ش.
(٥) لأتلوه: لاتلوته، د.

«عُمُرًا» حينًا[1]، قيل: لبث في قومه أربعين سنة إلى أن أتاه الوحي، عن قتادة، وقيل: معناه: كنتم في المدينة التي كنت فيها[2] كما أتاني في هذا الوقت **«مِنْ قَبْلِهِ»** أي: من قبل نزول القرآن، ولم آتكم بشيء، ولم يكن كلامي من جنس هذا الكلام **«أَفَلا تَعْقِلُونَ»** يعني أَوَ لا تعلمون أنه معجز، وأنه ليس من كلامي، وقيل: معناه: اعلموا ذلك، فقد لزمكم الحجة **«فَمَنْ أَظْلَمُ»** أي: لا أحد أظلم **«مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا»** قيل: معناه أنكم نسبتم الرسول إلى أنه مفترٍ على الله[3] الكذب، ولا ظُلْمَ أعظم من ظلم المفتري، وقيل: لا ظلم أعظم من ظلمهم؛ حيث عبدوا معه غيره، وادعوا له شريكًا، وقيل: لا ظلم أعظم من ظلمهم؛ حيث كذبوا الرسول، فكذبوا على الله، **«أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ»** بحججه، وقيل: المفتري: أن يقول عليه ما لم يقله، والمكذب: أن ينفي عنه ما قاله **«إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ»** أي: لا يظفر من كفر بمطلوب من ثوابه ونعمه، وقيل: لا يأمن، ولا ينجو من عقاب.

۞ النظم

قيل: جميع الآية متصلة بقوله: ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ كأنه قيل: ومن أظلم، وقيل: بل هو كلام مبتدأ غير متعلق به، بل وعيد لهم.

۞ الأحكام

تدل الآية على أنهم كَذَّبوا أن القرآن من عند الله، وأنهم سألوه تغييره وتبديله، فتدل على أنهم كفروا بذلك.

وتدل على أن القرآن كلامه تعالى حيث بَيَّنَ أن ذلك ليس إليه، وأنه المتلوُّ، فتدل على حدث القرآن.

وتدل على أنه لا يبتدئ شيئًا من الأحكام من قِبَلِ نفسه، وإنما يتبع الوحي، فيبطل قول من يقول: إنه يحرم ويحلل.

---

(١) حينا: حين، د.

(٢) فيها: فيكم، أ، د.

(٣) كذبا قيل معناه أنكم. . . على الله: +، ش.

وتدل على كون النبي ـ صلى الله عليه وآله[1] ـ فيهم قبل الوحي على ما هو عليه، ولا يمكنه أن يأتي بكلام مثل القرآن، فتدل على أنه ليس بكلامه، وأنه معجز، وقيل: إنه لبث قبل الوحي بمكة أربعين سنة، وبعد الوحي ثلاث عشرة سنة، ثم هاجر، ولبث في المدينة عشر سنين، وتوفي وهو ابن ثلاث وستين سنة.

وتدل على جواز الحجاج في الدين؛ لذلك قال: قل لهم.

وتدل على أن الكفر ظلم، وإن لم يكن إساءة إلى الغير.

وتدل على أن المعارف مكتسبة، وإلا لما صح التكذيب، ونصب الآيات.

وتدل على أن الافتراء والظلم فعلهم، وليس بخلق لله[2] ؛ لذلك ذمهم، وأوعدهم عليه.

قوله تعالى:

﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلۡ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿١٨﴾ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَٱخۡتَلَفُواْۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡ فِيمَا فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴿١٩﴾﴾

القراءة

قرأ حمزة والكسائي: «**سبحانه وتعالى عما تشركون**» بالتاء[3]، ومثله في أول (النحل) موضعان، وفي (الروم) كلها بالتاء على الخطاب؛ لأن ما قبله خطاب، وهو قوله: «**أتنبئون**» وهو قراءة الأعمش ويحيى بن وثاب، وقرأ الباقون كل ذلك بالياء، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم على الكناية لقوله: «**يعبدون**».

---

(١) وآله: ـ، ش.

(٢) لله: الله، ش.

(٣) حجة القراءات ٣٢٩.

قراءة العامة: «أَتُنَبِّئُون» بالتشديد، وقرأ أبو السماك العدوي: «أَتُنْبِئُونَ» بالتخفيف، وهما لغتان نَبَّأَ يُنَبِّئُ تَنْبِيَةً، وأنبأ ينبئ إنباء، بمعنى واحد، يجمعه قوله تعالى: ﴿قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [التحريم: ٣].

قراءة العامة: «لَقُضِيَ» على ما لم يسم فاعله، وعن عيسى بن عمر: «لَقَضَى بينهم» بالفتح لقوله: «سبقت من ربك».

اللغة

أصل العبادة: الخضوع، وعَبَّدْتُ فلانًا: اتخذته عبدًا، والبعير المعبد: الجرب المبهق[1] بالقطران المذلل.

والأُمَّةُ: الجماعة التي على معنى واحد، وأصله: القصد، أَمَّ يَؤُمُّ أَمًّا، فكأنهم لما قصدوا طريقة واحدة سميت أمة.

الإعراب

«هؤلاء» مبتدأ، و«شفعاؤنا» خبره. و«الناس» اسم (كان)، و«أمة» خبره.

النظم

ويقال: كيف تتصل الآية بما قبلها؟

قلنا: لما بين حال الكفار والمفترين على الله وما أوعدهم بَيَّنَ افتراءهم على الله في عبادة الأصنام، عن أبي علي والأصم، وقيل: إنه يتصل بقوله: ﴿لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ [يونس: ٧] كأنه قيل: لا يرجون لقاءنا، ويعبدون غير من يستحق العبادة، عن أبي مسلم.

المعنى

«وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ» يعني يعبدون حجرًا جماداً لا ينفع، ولا يملك نفعًا ولا ضرًا.

---

(١) المبهق: المهفو، ش.

ومتى قيل: فمن ينفع ويضر هل يجوز عبادته؟

قلنا: لا؛ لأن المستحق للعبادة هو الله تعالى لقدرته على أصول النعم وفروعها، الفاعل لها، الخالق للبرية، الرازق للأحياء، فأما من دونه فلا يجوز أن يعبد إلا أنه تعالى بَيَّنَ أن هذه الأصنام على صفة ظاهرة تمنع من عبادتها، حيث لا تملك نفعًا ولا ضرًا إزالةً للشبهة، ثم من ينفع ويضر ليس فيه جواز عبادته، بل يمنع عنها لوجه[(١)] آخر، فالذي يجمع الجميع في المنع كونها مخلوقة مُدَبَّرة لا تقدرعلى أصول النعم.

ومتى قيل: لِمَ قال: «**يعبدون من دون الله**» مع أنهم أشركوا في العبادة؟

قلنا: لأن عابد الوثن قد أشرك في العبادة، فلم يعبد الله حق عبادته، فلا يعتد به.

«**وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ**» قيل: شفعاؤنا في الدنيا لإصلاح المعاش، وكانوا لا يقرون بالبعث، عن الحسن، وقيل: شفعاؤنا في الآخرة يشفعون لنا، فيُشَفِّعهم الله فينا، وهو اختيار القاضي؛ لأن القصد بالعبادة ما يرجع إلى الثواب دون أعراض الدنيا.

ومتى قيل: كيف اعتقدوا في جماد، لا ينفع ولا يضر أنها شفعاء؟

قلنا: قيل: تقليدا وجهلاً واعتقادًا فاسدًا، ولا حد لاعتقاد العوام، وقيل: اعتقدوا أن عبادتها[(٢)] أشد في تعظيم الله من قصد الله تعالى[(٣)] العبادة إياه، فقد حلت من هذه الجهة محل الشافع، وقيل: اعتقدوا أن الله تعالى أمرهم بعبادتها، فلذلك عبدوها، ويحتمل أنهم اعتقدوا أنها تصير حَيًّا تشفع.

«**قُلْ**» يا محمد «**أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ**» أتخبرونه «**بِمَا لا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ**» قيل: صحته وحقيقته يعني: لا يعلم الله تعالى لنفسه شريكًا، ولا هؤلاء شفعاء، وما لا يعلم الله تعالى نفي ليس لموجود، ولا معدوم، وقيل: لا يعلم لهؤلاء الأوثان هذه المنزلة الرفيعة التي وصفها هؤلاء، عن الأصم. و«**سُبْحَانَهُ**»: تنزيهه[(٤)] عما يقولون من

---

(١) لوجه: وجه، د.

(٢) اعتقدوا أن عبادتها: توهموا أن عبادته، ش.

(٣) الله تعالى: +، ش.

(٤) تنزيهه: تنزيهًا له، ش.

الشريك له[1]، وعن كل سوء لا يليق به «**وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ**» أي: هو أجل من أن يكون له شريك «**وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا**» فيه أقوال:

الأول: قيل: كانوا جميعًا على الحق، وعلى دين واحد وهو الإسلام، ثم اختلفوا، وقيل: على عهد آدم وولده، عن ابن عباس، ومجاهد، والسدي، وأبي علي، وأبي مسلم، ومتى اختلفوا قيل: عند قَتْلِ أَحَدِ ابْنَيْهِ أَخَاهُ، وقال أبو علي: اختلفوا بعده، وقيل: كانوا على دين واحد، وشريعة واحدة من لدن آدم إلى زمن نوح كانوا عشرة قرون، واختلفوا على عهد نوح، وبعث الله إليهم نوحًا، عن ابن عباس، وقيل: هم أهل سفينة نوح، وقيل: زمن نوح بعد الغرق، كانوا على ملة الإسلام، عن أبي روق، وقيل: من لدن إبراهيم إلى أن غَيَّرَهُ عمرو بن لحي، وهو أول من غير دين إبراهيم، وعبد الصنم في العرب.

الثاني: كانوا أمة واحدة مجتمعة على الشرك والكفر، عن ابن عباس والحسن والأصم والكلبي وجماعة، وأنكر أبو علي هذا التأويل لقوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾ [النساء: ٤١].

وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله تعالى نظر إلى أهل الأرض فمقتهم إلا بقايا من أهل الكتاب» ولأنه ذم الاختلاف، ولا يبعد هذا المعنى خصوصًا إذا روي عن جماعة من السلف، وما يدعيه أبو علي من أن كل عصر لا يخلو من جماعة لا يقول به أبو هاشم، ومردّ القول فيه قاضي القضاة، أو يحمل على أن المراد بالعموم الخصوص، وإن كان بالمؤمنين فله إجراء الحكم على الغالب، ثم اختلف من قال بهذا التأويل: متى كانوا كذلك؟ فقيل: على عهد إبراهيم، عن ابن عباس، وقيل: بين هلاك آدم إلى زمن نوح، عن الحسن، وقيل: قبل المبعث، عن الأصم، والمراد مشركو العرب، قبل أن يبعث محمدًا[2] صلى الله عليه وآله، فلما بعث محمد ﷺ[3] آمن بعضهم وكفر بعضهم.

---

(١) له: ـ، ش.

(٢) أن يبعث محمداً: بعث محمد، ش.

(٣) محمد صلى الله عليه: +، ش.

الثالث: كانوا أمة واحدة في أنهم خلقوا لفطرة الإسلام، ثم اختلفوا في الأديان، حكاه الأصم، قال الأصم: ويحتمل أنهم كانوا على فطرة واحدة في الفقر والحاجة إلى صانع، وأنهم لم يحدثوا من جهة أنفسهم، ثم اختلفوا بعد الفطرة الصحيحة في الأديان.

«وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ» يعني لولا وعد الله بأنه يقضي بين عباده يوم القيامة، ولا يعجل العصاة بالعقوبة لقضى بينهم، فأدخل المؤمنين الجنة، والكافرين النار، في معنى قول الحسن وأبي مسلم، وقيل: لولا إخبار الله تعالى بأنه يبقى التكليف على الكفار استصلاحًا واستدعاء إلى التوبة لعجل لهم الحساب والعقاب وما يستحقونه، عن أبي علي، وقيل: لولا كلمة سبقت من ربك بأن يجعل للدنيا مدةً، ولكل أمة أجلاً «لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ» لأقام عليهم الساعة، ولعجل القضاء بينهم، عن أبي روق، وقيل: لولا وعد الله لهذه الأمة أنه لا يعذبهم بالاستئصال «لقضي بينهم» لفرغ من هلاكهم، عن الكلبي، وقيل: لولا وعد الله أنه[1] لا يأخذ إلا بعد إقامة الحجة لقضي بينهم لأهلكوا عاجلاً، وقيل: لقضي بينهم بأن يضطرهم إلى العلم بالْمُحِقِّ والمبطل.

۞ الأحكام

تدل الآية على قبح عبادة من لا ينفع ولا يضر.

وتدل على بطلان ما يزعمه الكفار أن الأصنام شفعاء عند الله.

وجملة ذلك أن جمهور العقلاء يقرون بصانع، سوى جماعة قليلة من فلاسفة اليونانيين، وقد انقرضوا، وبقي منهم بقية قليلة تَسَتَّرُوا بالأديان، فأما من يقر بالصانع فهم على ضربين: مُوَحِّد يعتقد أن الصانع واحد، لا يستحق العبادة غيره، وهو الذي بعث الله تعالى[2] به الأنبياء. ومشرك، وهم على ضربين: منهم من جعل لله شريكًا

(١) أنه: بأنه، ش.
(٢) تعالى: +، ش.

في ملكه يضاده ويناوئه، كما تذهب إليه الثنوية والمجوس، ثم اختلفوا، فمنهم من يثبت شريكًا قديمًا كالمانوية، ومنهم من يثبت شريكًا محدثًا كالمجوس[1]. والثاني: من لا يجعل له شريكًا في حكمه وملكه، ولكن يجعل له شريكًا في العبادة يكون متوسطًا بينه وبين الصانع، وهم أصحاب المتوسطات، ثم اختلفوا، فمنهم من جعل المتوسط من الأجسام العلوية كالنجوم والشمس والقمر[2]، ومنهم من جعل المتوسط من الأجسام السفلية كالأصنام ونحوها.

وتدل على أنه تعالى لم يأمر بعبادة غيره؛ لذلك قال: **«أتنبئون الله»**.

وتدل على أن عبادة غير الله شرك وكفر[3]؛ لذلك قال الله[4]: **«تعالى عما يشركون»**.

وتدل على جواز اجتماع الناس على الكفر، وهو الصحيح، وأما أبو علي فقد أنكر ذلك، وقد بيَّنَّا.

وتدل على تسلية النبي صلى الله عليه وآله[5] بأنه لا يؤمن به الناس كلهم، كما لم يؤمنوا بالأنبياء.

وتدل على أن ما لا يعلمه الله تعالى منفي؛ لأن الأشياء إما أن تكون موجودة وإما[6] معدومة، وكلاهما يتعلق بهما[7] العلم، فأما الشريك فليس بموجود، ولا معدوم، ولهذا قال أبو هاشم: إنه علم، لا معلوم له.

وتدل على أن الكفر والشرك والاختلاف فعلهم؛ لذلك ذمهم عليه[8]؛ فيبطل قول المجبرة في المخلوق.

---

(١) من يثبت شريكاً قديماً... محدثاً كالمجوس: من يثبت شريكًا محدثًا كالمجوس، ومنهم من يثبت شريكًا قديمًا كالمانوية، ش.
(٢) فمنهم من جعل المتوسط... والشمس والقمر: +، ش.
(٣) شرك وكفر: كفر وشرك، ش.
(٤) الله: ـ، ش.
(٥) وآله: ـ، ش.
(٦) وإما: أو؛ د، ش.
(٧) بهما: بها، د.
(٨) عليه: عليها، ش.

قوله تعالى:

﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾﴾

القراءة

قراءة العامة: «تمكرون» بالتاء على الخطاب، أي: قل لهم يا محمد: إن رسل الله يكتبون ما تمكرون أيها المشركون، وقرأ[1] الحسن ومجاهد وقتادة ويعقوب الحضرمي[2] بالياء، وهي مروية عن ابن عمر[3]، وروي عنه أنه كان يقرأ مرة[4] بالتاء، ومرة بالياء لقوله: ﴿إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا﴾ [يونس: ٢١].

اللغة

أصل الغيب: ما غاب عن الحواس، وقيل: هو خفاء الشيء عن علم العباد، غاب يغيب غَيْبَةً.

والمكر: التدبير الخفي، والمكر: الاحتيال والخداع.

الإعراب

(لولا) معناه: «هَلَّا»، وقيل: أصله امتناع الثاني لمكان الأول، تقول: لولا زيد لجئتك. (ضراء): لا ينصرف؛ لأنها فعلاء، نحو: حمراء وصفراء.

النزول

قيل: نزلت في أهل مكة اقترحوا عليه الآيات، وقيل: قالوا: لولا أنزل على محمد آية من ربه، خلاف القرآن.

(١) وقرأ: وقراءة، ش.
(٢) الحضرمي: +، ش.
(٣) ابن عمر: ابن عمرو، ش.
(٤) يقرأ مرة: مرة يقرأ، ش.

المعنى

ثم بَيَّنَ تعالى قبيح فعالهم ومقالهم، فقال سبحانه: «وَيَقُولُونَ» يعني كفار مكة «لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ» أي: هلا أنزل عليه أي: على محمد صلى الله عليه وآله «آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ» أي: حجة، قيل: التمسوا الآيات تعنتًا وتكذيبًا، ولم يعلموا أنه تعالى إنما ينزلها بحسب المصلحة، وهو أعلم بالمصالح، وقيل: سألوه أن يضطرهم إلى المعرفة، وقيل: سألوا إنزال العذاب كقوله: ﴿فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنفال: ٣٢]، وقيل: طلبوا آية غير القرآن وسائر معجزاته، عن أبي علي، وهو الوجه «فَقُلْ» يا محمد لهم[(١)] «إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ» يعني هو عالم الغيب فالواجب تفويض الأمر إليه والتسليم لقضائه، فإنه لا يفعل إلا ما هو المصلحة، وقيل: هو يعلم المصالح فينزل الآيات بحسبها[(٢)]، وما يكون أصلح لهم دون ما يقترحون، وقيل: هو العالم بوقت نزول الآيات «فَانْتَظِرُوا» قيل: انتظروا نزول الآية فـ «إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ» لذلك، فتنزل[(٣)] إذا كان في إنزالها مصلحة، وقيل: انتظروا قضاء الله بيننا، فيظهر المُحِقُّ من المبطل، فإني منتظر لذلك، وقيل: انتظروا نصر الله للمؤمنين وتأييدهم[(٤)] وإنزال العذاب بكم، أو ما يجري مجراه من القتل والسبي والذل والخزي على ما وعدتكم فإني منتظر لذلك، وقد فعل ذلك يوم بدر، عن أبي علي. وقيل: انتظروا مواعيد الشيطان فإنه يعدهم ويمنيهم، فإني منتظر وعد الله أن ينجزه، وينصر عبده، عن الحسن، وقيل: انتظروا عزّ[(٥)] النبي ﷺ وحزبه وظهور دينه، وذلّ أهل الكفر فإني منتظر لذلك، عن القاضي. «وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ» يعني: الكفار فهو عموم يريد به الخصوص «رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ» أي: راحة ورخاء بعد شدة وبلاء، وقيل: أراد السعة بعد القحط «إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا» أي: جعلوا مكان الشكر[(٦)] في كل نعمة كفرًا، وقيل: مكروا الدين وأهله، ودبروا في إبطال الإيمان، وقيل: احتالوا في أمر

(١) يا محمد لهم: لهم يا محمد، ش
(٢) بحسبها: بحسبه، د.
(٣) فتنزل: فتنزل، د.
(٤) وتأييدهم: وتأييده، ش.
(٥) عزّ: عن، ش، د.
(٦) الشكر: الشر، ش.

النبي ﷺ، عن أبي علي، وقيل: إذا لهم استهزاء وتكذيب، عن مجاهد، وقيل: لا يقولون هذا رزق الله، وإنما يقولون: سُقِينَا بنوء كذا، عن مقاتل[1]. «قُلِ» يا محمد: «اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا» أي: جزاء على مكرهم فيصل إليهم أسرع مما يصل من مكرهم إلى المسلمين، فسمي جزاء المكر مكرًا، وقيل: مكره إنزال العقوبة بهم من حيث لا يشعرون، وقيل: أسرع صنعًا، عن مقاتل «إِنَّ رُسُلَنَا» يعني الملائكة الحفظة «يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ» يتدبرون من سوء تدابيرهم وإسرارهم[2]، وفي الآية تحذير لهم من وجهين:

أحدهما: أنه تعالى يحفظ مكرهم وهو أسرع في جزائهم، وأقدر، فلا يأمنون إنزال العذاب عليهم.

والثاني: حفظ الملائكة وكتبة أعمالهم ليجازيهم يوم القيامة.

۞ الأحكام

تدل الآية على أن علم الغيب مما يختص به تعالى، خلاف ما تقوله الإمامية: إن الإمام يعلم الغيب.

وتدل على أنه ينزل الآيات بحسب المصلحة، لا بحسب الاقتراح.

وتدل على أن ههنا حفظة يكتبون أعمال العباد.

وتدل على أن ذلك المكر فعلهم؛ حتى يصح أن يكتب عليهم، ويجازيهم، فيبطل قول مخالفينا في المخلوق.

قوله تعالى:

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾

---

(١) مقاتل: مجاهد، ش.

(٢) وإسرارهم: +، ش.

القراءة

قرأ أبو جعفر وابن عامر: «يَنْشُرُكُم» بالنون والشين من النشر خلاف الطي، وهو البسط[1]، وقرأ الباقون: «نسيركم» من التسيير، وأصله السير[2].

وقرأ الحسن ومجاهد وحفص عن عاصم: «متاع الحياة الدنيا» بنصب العين[3]، والباقون بالرفع، أما النصب ففيه وجهان: قيل: على المصدر أي: يمتعكم متاعًا، عن علي بن عيسى، وقيل: نصب على الحال، وقيل: على القطع، وأما الرفع ففيه وجهان: قيل: إنه خبر ابتداء محذوف، أي: ذلك متاع، أو هذا متاع، كقوله: ﴿لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ بَلَٰغٌ﴾ [الأحقاف: ٣٥] أي: ذلك بلاغ، أو هذا بلاغ، وقيل: إنه كلام متصل بما قبله. و(البغي) ابتداء، و(متاع) خبره.

قراءة العامة: «الفلك» بسكون اللام، وعن عيسى بن عمر بضمها، فأما بسكون[4] اللام يكون واحدًا وجمعًا، وقيل: واحده: فَلَكٌ، كأُسْدٍ وأَسَدٍ[5]، فأما بضم اللام، فهو الجمع.

اللغة

البَرّ: خلاف البحر، وهو الأرض الواسعة، وأصله من السعة، ومنه: البر لاتساع الخير به.

والبحر: مستقر الماء، وأصله من السعة[6] سمي بذلك لسعته. والبحر: الشق الواسع، ومنه: فرس بحر واسع الجري، ورجل بَحْرٌ: واسع العطاء، وجمعه: أبحر.

---

(١) حجة القراءات ٣٢٩.
(٢) وأصله السير: +، ش.
(٣) حجة القراءات ٣٣٠.
(٤) بسكون: سكون، ش.
(٥) وأسد: +، ش.
(٦) ومنه البر لاتساع الخير... من السعة: ـ، ش.

والفُلْكُ: السفينة، وأصله الدور، ومنه: فلكة المغزل، والفَلَك: الذي تدور عليه الكواكب، وتَفَلَّكَ ثدي المرأة: إذا استدار.

والعاصف: الريح الشديدة، عصفت الريح فهي عاصف وعاصفة وأعصفت إعصافًا، قال الشاعر:

حَتَّى إِذَ اعْتَصَفَتْ رِيُح مُزَعْزِعَةٌ فِيهَا قِطَارٌ وَرَعْدٌ صَوْتُهُ زَجَلُ

والعصف: خطام البيت المتكسر، وأعصفت الريح إذا هبت فحملت العصف.

والبغي: طلب الزيادة، وأصله من الطلب، بَغَاهُ يبغيه: إذا طلبه، والبغية: الطَّلِبَةُ.

والحق: وضع الشيء موضعه، على ما تقتضيه الحكمة.

الإعراب

يقال: لِمَ قال: «**يسيركم**» على وجه الخطاب، ثم قال: «**وجرين بهم**»؟

قلنا: للتصرف في الكلام مع أنه خطاب لمن كان في تلك الحال، وإخبار لغيرهم من الناس، قال لبيد:

باتَتْ[1] تَشَكَّي إِلَيَّ النَّفْسُ مُجْهِشَةً وَقَدْ حَمَلْتُكَ سَبْعًا بَعْدَ سَبْعِينَا[2]

وقيل: لأن خطابه ليس كخطاب الناس؛ لأن بعضهم يشاهد بعضًا، وهو تعالى غير مُشاهَدٍ، فجاز منه أن يجرى مرة على غائب، ومرة على الخطاب، عن أبي علي.

و(**لمَّا**) إيجاب لوقوع الثاني بالأول، وتعليق الثاني بالأول من غير قطع به.

و(**بغيكم**) رفع على الابتداء، واختلفوا في خبره قيل: في قوله: «**متاع**» وقيل: في قوله: «**على أنفسكم**».

«**مخلصين**» أي: في حال الإخلاص، ونصب (الدين)؛ لأنه مفعول به، أي: أخلصوا الدين.

---

(١) باتت: +، ش.

(٢) قاله لبيد، انظره في: الصحاح (جمس)، والعين (جهس)، واللسان(جهس).

وقوله: «**ريح عاصف**» ولم يقل عاصفة؛ لأن الريح يذكر ويؤنث، وقيل: كل تأنيث ليس بحقيقي فإنه يجوز فيه التذكير والتأنيث، وقيل: لاختصاص الريح بالهبوب[1]، وذلك كقولهم: امرأة حائض وطالق، عن أبي علي.

«**دعوا الله**» جواب لقوله: «**وجاءهم الموج**».

النظم

يقال: بماذا تتصل الآية؟ وكيف نظمه؟

قلنا: قيل: يتصل بما قبله، وهو تفسير لبعض ما أجمل في الآية المتقدمة، وهو قوله: ﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ مِّنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُمۡ﴾، عن أبي مسلم، وقيل: إنه يتصل بما تقدم في السورة من دلائل الوحدانية وبراهين الربوبية نحو قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا﴾ [يونس: ٥] كأنه قيل: إلهكم الذي خلق السماء والأرض، وإلهكم الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورًا[2]، و«**هو الذي يسيركم**»، ذكره شيخنا أبو حامد.

المعنى

«**هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ**» يحملكم على السير، وقيل: يسبب تسييركم في البر على الظهور، وفي البحر في السفن.

ومتى قيل: لم أضاف السير إليه؟

قلنا: قيل: لأنه بأمره ومعونته، وقيل: بتسخيره الأنعام في البر والسفن في البحر، عن الأصم، وقيل: بتسخير الجَمَل في البر، والرياح في البحر، عن أبي علي، فأما السير فإنه فعلهم، وليس فعل[3] الله تعالى كما يقول الرجل: سيرت الدابة، وسيرت قومي.

---

(١) بالهبوب، بالمؤنث، د.

(٢) كأنه قيل: إلهكم... والقمر نورا: + ش.

(٣) فعل: بفعل، ش.

«حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ» أي[1] : في السفن في البحر «وَجَرَيْنَ بِهِمْ» يعني: جرت السفن بالناس كما ركبوها «بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ» لينة، عن أبي علي «وَفَرِحُوا بِهَا» أي: سروا بتلك الريح؛ لأنه يبلغهم مقصودهم، عن أبي مسلم، وقيل: أمنوا معه من الغرق، عن الأصم، وقيل: فرحوا بالسفينة حيث حملتهم وأمتعتهم «جَاءَتْهَا رِيحٌ[2]» أي: جاءت السفينة ريح «عَاصِفٌ» شديد الهبوب «وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ» اضطراب البحر «مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ» قيل: أيقنوا أن الهلاك أحاط بهم، وقيل: غلب على ظنهم أنهم سيهلكون «دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ» قيل: دعوا الله دون أوثانهم، وقيل: أخلصوا الاعتقاد «لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ» قيل: يعني ويقولون: لئن أخلصتنا من هذه، قيل: من الريح العاصف، وقيل: من الشدائد «لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ» أي: نشكر الله على الإخلاص، وقيل: بالإيمان والطاعة «فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ» أي: خلصهم الله[3] تعالى «إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ» قيل: البغي ههنا الكفر، عن أبي مسلم، وقيل: ظلم بعضهم بعضًا، وقيل: يتجاوزون إلى غير أمر الله، وقيل: يبغون على أولياء الله، وقيل: البغي: سفك الدماء المحرمة وغصب الأموال، وانتهاك الحرمات[4] «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ» أي: عاقبة بغيكم وظلمكم يعود عليكم، ثم يعاقبكم عليه يوم القيامة، وهو وعيد وزجر «مَتَاعَ» يعني: إن [ما] ملكتم[5] في الدنيا بالبغي متاع تنتفعون بها مدة حياتكم، وقيل: هذا متاع في الدنيا، ثم إلينا مرجعكم قيل: ظلمكم إنما هو متاع في الحياة الدنيا، عن أبي علي، «ثُمَّ إِلَيْنَا» أي: إلى حكمنا «مَرْجِعُكُمْ» مصيركم، وهو يوم القيامة «فَنُنَبِّئُكُمْ» نخبركم «بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ»، قيل: يجازيكم، وقيل: يخبركم بأن يَعُدَّ[6] عليكم، وهي كلمة تهديد ووعيد.

(١) أي: +، ش.
(٢) ريح: ـ ، ش.
(٣) الله: + ش.
(٤) الحرمات: المحرمات، د.
(٥) ملكتم: مللتم؛ د، ش.
(٦) يعُدَّ: يعيد، ش.

۞ الأحكام

الآية تدل على نعمه تعالى بالتسيير في البحر والبر، بما سخر من الحمول والسفن.

وتدل على توبيخ من سأل الله تعالى في حال الشدة، وترك شكره في حال الرخاء، وزوال الشدة.

وتدل على وجوب شكر الله تعالى على نعمه.

وتدل على أن[1] الدعاء إنما ينفع مع الإخلاص.

وتدل على أن البغي فعلهم؛ لذلك أضافه إليهم، وذمهم عليه، وأوعد بالعقاب، فبطل[2] قول مخالفينا في المخلوق.

وتدل على تحقير حال الدنيا وتصغيرها؛ لأنها دار زوال، لا تدوم، والترغيب في الآخرة؛ لأنها دار مقام، ودوام.

وتدل على أن الجزاء يكون على الأعمال؛ لذلك قال: «فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ».

قوله تعالى:

﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾

۞ القراءة

قراءة العامة: «وازّينت» بالياء وتشديد الزاي بغير ألف، وعن الضحاك وأبي عثمان النهدي: «وَازْيَانَّتْ»، على وزن: واحمارّت، وعن أبي العالية والحسن والشعبي والأعرج: «وازْينت» على وزن «افعلت» مقطوعة الألف ساكنة الزاي.

---

(١) أن: +، ش.

(٢) فبطل: فيبطل، ش.

قراءة العامة: «كأن لما تغن» بالتاء لتأنيث الأرض، وعن قتادة بالياء، ذهب إلى الزخرف.

۞ اللغة

المَثَلُ: قول سائر يشبه به حال الثاني بحال الأول، وجمعه: أمثال، والمثل: الصفة، والمِثْلُ بكسر الميم: النظير. والمَثُلَات: العقوبات؛ لأنه شبه ما عوقب عليه، والمثال: مثال الشيء، وجمعه: أمثلة، وأَمَاثِلُ القوم: خيارهم، وفلان أمثل بني فلان، أي: أدناهم إلى الخير، ومنه: قوله ﷺ: «ثم الأمثل فالأمثل»[1].

والاختلاط: «افتعال» من الخلط، وهو تداخل الأشياء بعضها في بعض.

والزخرف: كمال حسن الشيء، ومنه قيل: للذهب زخرف، كما يقال: زخرفته، أي: حسنته، ومنه: زخرفت الجنة لأهلها؛ لأنها زينت بحسن الألوان، «وازينت» بناؤها تَفَعَّلَتْ من الزينة، أدغمت التاء في الزاي، والتزيين: التحسين، وغني بالمكان: أقام به، والمغاني: المنازل؛ لأنه يقام بها، قال النابغة:

غَـنَـيْـتُ بِـذَلِـكَ إِذْ هُـمُ لَـكَ جِـيَـرَةٌ   مِـنْـهَـا بِـعَـطْـفِ رِسَـالَـةٍ وَتَـوَدُّدِ[2]

وقال أبو الطيب:

مَغَانِي الشَّعْبِ طِيبًا فِي الـمَغَانِي   بِـمَـنْـزِلَـةِ الـرَّبِـيـعِ مِـنَ الـزَّمَـانِ[3]

والدعاء: طلب الفعل، والداعي إلى الفعل خلاف الصارف عنه.

(١) الترمذي رقم ٢٣٩٨، والدارمي رقم ٢٧٨٣، وابن حبان رقم ٢٩٠٠.

(٢) البيت للنابغة الذبياني، ديوان النابغة الذبياني، تحقيق عمر فاروق الطباع، بيروت، ١٩٩٤.

(٣) البيت لابن المتنبي. انظره في: المثل السائر ١/ ٣٩، المكتبة العصرية ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٩٥م، ت: محمد محيي الدين. وصبح الأعشى ٢/٣٠٧، للقلقشندي، دارالفكر ـ دمشق ـ ط١ ـ ١٩٨٧م، ت: يوسف طويل، ديوان المتنبي.

الإعراب

(مثل) رفع بالابتداء، وخبره في قوله: «كما أنزلناه» والكاف كاف التشبيه، وفي[1] المشبه والمشبه به أقوال:

الأول: شبه الحياة الدنيا بالنبات على تلك الأوصاف في الاغترار[2]، والمصير إلى الزوال، عن الأصم وأبي علي وأبي مسلم.

والثاني: شبه الحياة الدنيا بالماء مما يكون به[3] من الانتفاع، ثم الانقطاع.

الثالث: شبه الحياة الدنيا بحياة مقدرة على هذه الأوصاف؛ لما يقتضيه ظن أهلها أنهم قادرون عليها.

الرابع: أراد أن[4] الدنيا لا تخلص من كد وعناء، ثم عاقبتها إلى زوال كحال الزارع وعنايته، وطروء[5] الآفات عليه.

«ازينت» أصله «تَزَيَّنَتْ» أدغمت التاء في الزاي، أحدثوا هذه الألف؛ لئلا يبتدئوا بساكن.

المعنى

لما تقدم ما يوجب الترغيب في الآخرة والتزهيد في الدنيا، عقبه بذكر صفة الدنيا، وضرب المثل لها، فقال سبحانه: «إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا» قيل: صفة الحياة الدنيا، وقيل: شبه الحياة الدنيا في سرعة فنائها وزوالها[6] «كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ» أي: المطر «فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ» قيل: أنبت فيها واختلط النبت، وقيل: اختلط ما يأكل الناس بما تأكل الأنعام، وقيل: اختلط ما يقتات بما يُتَفَكَّهُ[7] به، ثم فصل ذلك،

---

(١) وفي: في، د.
(٢) الاغترار: الاغرار، ش.
(٣) به: +، ش.
(٤) أن: +، ش.
(٥) وطروء: وطرق، د.
(٦) فنائها وزوالها: زوالها وفنائها، ش.
(٧) يتفكه: يتفكر، د.

فقال سبحانه: «**مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ**» كالحبوب والبقول والثمار «**وَالأَنْعَامُ**» أي: وتأكل الأنعام، وهي[١] الإبل والبقر والغنم، فيأكلون الحشيش، وسائر أنواع المراعي «**حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا**» أي: حسنها وبهجتها بأنواع الألوان، وأجناس الأوراد «**وَازَّيَّنَتْ**» أي: تزينت في عين رائيها، يعني: حسنت[٢]، وقيل: أتت بالزينة، عن قطرب، «**وَظَنَّ أَهْلُهَا**» أي: مُلاَّكُها «**أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا**» قيل: على الانتفاع بها، وقيل: قادرون على استصحاب تلك الحال «**أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا**[٣]» أي: أتى قضاؤنا بإهلاك تلك الزينة ليلاً أو نهارًا «**فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا**» أي: مقطوعة مقلوعة، والمراد محصودة صرفت إلى فَعِيلٍ «**كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ**» يعني كأن لم تكن على تلك الصفة بالأمس، وقيل: كأن لم يكن نعيمهم، عن الأصم «**كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ**» أي: نبين الحجج والعبر «**لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**» فيه فيؤديهم إلى العلم، وخصهم بالذكر؛ لأنهم المنتفعون به، وإلا فالأدلةً نصبت للجميع[٤] .

ثم رغب في الآخرة فقال سبحانه: «**وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ**[٥]» أراد: لا تشتغلوا بالدنيا، فإنها فانية واطلبوا دار السلام التي دعاكم إليها ربكم، «**إِلَى دَارِ**» يعني إلى ما يوصلكم إليها، وهي الإيمان والطاعة، ودعاؤه قيل: على لسان أنبيائه، وقيل: بالعقل والشرع، وبما وعد وأمر وزجر، ثم وصف الدار بأنها دار السلام، والمراد به الجنة، واختلفوا لم سميت دار السلام؟ قيل: لأن السلام اسم الله تعالى، وداره الجنة، عن الحسن وقتادة، وقيل: دار السلامة من كل آفة، عن أبي علي والزجاج، والسلام والسلامة بمعنى، كالرضاع والرضاعة، قال الشاعر:

فَـحَـيَّـا بِـالـسَّـلَامَـةِ أُمَّ بَـكْـرٍ وَهَـلْ لَـكِ بَـعْـدِ قَـوْمِـكِ مِـنْ سَـلَامِ[٦]

---

(١) وهي: وهو، د، ش.

(٢) حسنت: تحسنت، ش.

(٣) ليلاً أو نهارًا: +، ش.

(٤) للجميع: الجميع، د.

(٥) إلى دار السلام: + ش.

(٦) البيت لشداد بن الأسود. انظره في: اللسان (سلم)، وتهذيب اللغة (سلم).

وقيل: لأن أهل الجنة يسلم بعضهم على بعض، والملائكة تسلم عليهم، ثم يسلم ربهم عليهم، فلا يسمعون إلا سلامًا، ولا يرون إلا سلامة، قال الحسن: إن السلام لا ينقطع عن أهل الجنة، وهو تحيتهم «وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ» قيل: بالألطاف التي تدعوهم إلى طريق الجنة، وقيل: يأخذ[1] بهم في الآخرة إلى طريق الجنة، وقيل: بنصب الأدلة لجميع المكلفين دون الأطفال والمجانين، عن أبي علي، وقيل: يهدي من يشاء أي: من أجاب الداعي بالاهتداء «إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» طريق واضح قيم.

۞ الأحكام

تدل الآية على تصغير أمر الدنيا، وأنها في سرعة فنائها وقلة بقائها مشبهة بالمطر والنبات التي يقل لبثها تزهيدًا فيها.

وتدل على أن الآخرة دار السلام، وأن سعي الإنسان يجب أن يكون لها، وروي أن كل يوم ينادي ملكان عند طلوع الشمس: هلموا إلى ربكم؛ فإن ما قَلَّ وكفى خير مما كثر وألهى.

وتدل على وجوب النظر والتفكر.

وتدل على أن ذلك فعلهم.

وتدل على أن الجنة تنال بالطاعات، وأنه تعالى دعا إليها.

قوله تعالى:

﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾﴾

---

(١) يأخذ: لا يأخذ، د.

۞ القراءة

قرأ ابن كثير والكسائي ويعقوب: «قِطْعًا» بسكون الطاء[1]، وقرأ الباقون بفتح الطاء، فالقطع بسكون الطاء: القطعة، وهي البعض، ومنه: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ [هود: ٨١] أي: قطعة، وقطع بفتح الطاء جمع: قطعة.

قراءة العامة: «قَتَرٌ» بفتح التاء، وعن الحسن بسكونها، وهما لغتان قتر وقَتْر، كقَدَرٍ وقَدْرٍ.

۞ اللغة

«الحسنى» تأنيث الأحسن، ويقال: الاسم الحسن، والأسماء الحسنى، ونظيره: الأكبر والكبرى، والأصغر والصغرى، والأسوأ والسوآى، وذلك يكثر، وقيل: هو اسم جامع للمحاسن.

والرَّهَقُ: لحاق الأمر، ومنه: راهق الغلام: إذا لحق حال الرجال، ورهقه في الحرب: أدركه، قال الأزهري: الرهق اسم من «رَهِقَ»، وهو أن يُحْمَلَ الإنسان على ما لا[2] يطيقه، ومنه: ﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا﴾ [المدثر: ١٧].

والقَتَرُ: الغبرة التي معها سواد، وهي الغبرة أيضًا، والقتار: الدخان، ومنه الحديث: «وقد خلفتهم قَتَرَةُ رسول الله صلى الله عليه وآله[3] » أي: غبرة الخيل، وقيل: القتر الغبار، والقترة: ما يغشى الوجه من كرب.

والمِثْلُ: ما يسد مسد الشيء فيما يرجع إلى ذاته، هذا هو حقيقة المثل، فالأشياء على ثلاثة أوجه: متماثل كالسواد والسواد والجوهر والجوهر، ومختلف غير متضاد كالسواد والحمرة، ومختلف متضاد كالسواد والبياض، ثم يستعمل المثل في غير ذلك.

---

(١) حجة القراءات ٣٣٠.

(٢) لا: + ، ش.

(٣) وآله: ـ ، ش.

والعاصم: المانع، والعصمة من الله: دفع الشر عن[1] عبده، واعتصم به إذا امتنع به من الشر، وكل متمسك بالشيء معتصم.

يقال: غشيت الشيء أغشيه إذا غطيته، والغشاء: الغطاء، وأُغْشِيَتْ: غُطِّيَتْ، ومنه: الغاشية يوم القيامة؛ لأنها تغشى كل شيء بإفزاعها.

۞ الإعراب

في رفع (جزاء) وجهان:

أحدهما: فلهم جزاء سيئة، لتشاكل قوله: «**لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ**»، فهو خبر ابتداء محذوف.

والثاني: أن تكون ابتداء وخبره بمثلها، والباء زائدة، وتقديره: جزاء مثلها.

(الحسنى) رفع لأنه خبر الابتداء؛ ولذلك عطفت عليها مرفوعًا، وهو قوله: «**وَزِيَادَةٌ**».

وفي توحيد (مظلم) وتذكيره قولان:

الأول: أن يكون حالاً من الليل، أي: قطع من الليل المظلم، فلما حذف الألف واللام نصب.

الثاني: على توسط الكلام كقول الشاعر:

لَـوْ أَنَّ مِـدْحَـةَ حَـيٍّ مُـنْـشِـرًا أَحَـدًا   أَحْـيَـا أَبَـاكُـنَّ يَـا لَـيْـلَـى الأَمَـادِيـحُ[2]

وعلى القراءة الأخرى «**مظلما**» من نعت «**قطعًا**».

۞ المعنى

لما ذكر تعالى دار السلام بَيَّنَ مَنْ هو أهله، وعقبه بذكر من ليس من أهلها، وبين أن استحقاق كل واحدة من الدارين وجزائها بالعمل فقال سبحانه: «**لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا**»

---

(١) عن: من، د.

(٢) البيت لأبي ذؤيب. انظره في: الصحاح (مدح)، واللسان (مدح)، وتاج العروس (مدح). وفي رواية:

لـو أن مـدحـة أنـشـرت أحـدا   احـيـا أبـوتـك الـشـم الأمـاديـح

قيل: أحسنوا في عبادة الله تعالى، واتبعوا أمره ونهيه، وقيل: أحسنوا العمل في الدنيا، وقيل: أسلموا وقالو: لا إله إلا الله، عن ابن عباس «**الْحُسْنَى**» قيل[١] : الجنة، عن الحسن وقتادة وأبي علي وأكثر المفسرين، وقيل: المنزلة الحسنى، وقيل: الحالة الحسنى، عن أبي مسلم والحسنى اسم جامع لأنواع السرور كلها «**وَزِيَادَةٌ**» قيل: الحسنى الثواب المستحق، والزيادة هو ما في قوله: ﴿فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠]، عن ابن عباس، والحسن، وقتادة، ومجاهد، وعلقمة بن قيس، والأصم، وأبي علي، وأبي مسلم، قال مجاهد: الحسنى الجنة، والزيادة مغفرة من الله ورضوان، وقيل[٢] : الزيادة غرفة من لؤلؤة واحدة، لها أربعة أبواب، عن علي(عليه السلام)، وقيل: الزيادة ألاَّ يحاسبهم على ما أعطاهم في الدنيا من النعيم[٣]، عن ابن زيد، وقيل: الزيادة: سحابة تأتيهم فتقول: ما تريدون أن أمطركم، فلا يريدون شيئًا إلا أمطرتهم[٤]، وقيل: الزيادة ما يأتيهم في كل وقت من فضل الله مجددًا[٥] مختلفًا، فأما الثواب فلا يختلف، ولا يتجدد.

ومتى قيل: أليس روي عن بعضهم أنه النظر إلى وجه الله؟

قلنا: هذا لا يجوز لوجوه: منها ما دل الدليل العقلي والسمعي أنه لا يُرَى، ولأن ظاهره يوجب أن يكون لله وجه، وذلك يوجب كونه جسمًا، وأن له كُلاً وبعضًا[٦]، ولأنه يجب كونه في جهة، وأن بينه وبين العباد حجابًا يرفع، ولأن الزيادة على الشيء تكون من جنس المزيد عليه، لا أنه يوفى عليه بدرجات كثيرة، ولأن الرؤية عندهم أعظم الثواب، فيكف يقال: إنه زيادة؟.

«**وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ**» أي: لا يلحق[٧] وجوه أهل الجنة «**قَتَرٌ**» أي: غبار وغبرة،

---

(١) قيل: قال، د.
(٢) وقيل: قيل، د.
(٣) من النعيم: ـ، ش.
(٤) أمطرتهم: أمطرهم، ش.
(٥) مجددًا: متجددوا، ش.
(٦) كلاً وبعضًا: كل وبعض د.
(٧) لا يلحق: لا يرهق، ش.

وقيل: سواد الوجوه، عن ابن عباس وقتادة والأصم وأبي مسلم «وَلاَ ذِلَّةٌ» قيل: هوان، وقيل: كآبة وكسوف، عن قتادة، «أُولَئِكَ» يعني مَنْ تقدم ذكرهم من أهل الجنة «أَصْحَابُ الْجَنَّةِ» أي: المقيمون فيها الملازمون لها ولنعيمها «هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ» دائمون لا يبيدون ولا يبيد نعيمهم «وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ» قيل: الكفر، وقيل: عملوا الكبائر، وهو الوجه لعموم اللفظ «جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا» أي: جزاء معاصيهم العقاب فسمي جزاء سيئة «سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا» أي: مثل السيئة لا يزيد على المستحق؛ لأنه يكون ظلمًا بخلاف الزيادة في الثواب؛ لأنه تفضل ورحمة، «وَتَرْهَقُهُمْ» تلحقهم «ذِلَّةٌ»[1] هوان «مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ» أي: ما لهم من عذابه من مانع يمنع العذاب بنصرة أو شفاعة «كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا» قيل: ألبست وجوههم قطعًا من الليل مظلمًا لشدة سواده، وهو أقبح السواد وأشده «أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ» أهلها[2] الملازمون لها[3] ولعذابها[4] «هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ» دائمون.

الأحكام

تدل الآية على أنه تعالى يعطي المحسن ما استحق، ويزيده من فضله، ولا ينقصه، وأنه يعاقب المسيء بقدر معاصيه، ولا يزيده، وهذا هو العدل والفضل، ونفي الظلم عنه سبحانه.

وتدل على أن من عمل المعاصي يكون في النار، فيبطل قول المرجئة، ولا شبهة أن التائب وأصحاب الصغائر مستثنون منه، وإن كان مطلقًا؛ لِمَا ثبت بالدليل.

وتدل على أن الطاعة والمعصية فعل العبد على ما نقوله، فيبطل قول المجبرة في المخلوق.

وتدل على أن أهل النار لا عاصم لهم.

---

(١) ذلة: وذلة، د، ش

(٢) أهلها: أهله، د.

(٣) لها: له، ش.

(٤) ولعذابها: ولعذابه؛ د، ش.

وتدل على أنه لا شفاعة لهم، خلاف قول من يثبت الشفاعة لهم.

ومتى قيل: إنها وردت في الكفار؟

قلنا: اللفظ عام.

وتدل على أنه لا يجوز أن يعذب أحدًا بغير ذنب؛ لأنه إذا بَيَّنَ أنه لا يزيد على المستحق، فبألا يعذب أولى.

وتدل على بطلان قولهم في أطفال المشركين؛ لأنه لا ذنب لهم، فلا يعذبون.

وتدل على أن أهل النار تَسْوَدُّ وجوههم يوم القيامة، وذلك جزاء لهم وغم، والإخبار[1] به لطف للمكلفين.

ومتى قيل: هل تدل على إثبات الرؤية؟

قلنا: ظاهر الكلام يدل على إثبات الزيادة دون الرؤية، وإذا عدل عن الظاهر فلا تعلق لهم بالآية، وما يروون من الأخبار كلها أخبار آحاد، وبعضها متأول.

قوله تعالى:

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾﴾

القراءة

قرأ حمزة والكسائي وخلف بن هشام: «تَتْلو» بتائين[2] من التلاوة وهي قراءة ابن مسعود ويحيى بن وثاب والأعمش وعيسى بن عمر، وقرأ الباقون: «تبلوا» بالتاء والباء من البلاء وهو الامتحان، ومنه: ﴿وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا﴾ [الأنفال: ١٧].

---

(١) والإخبار: فالأخبار، ش.

(٢) حجة القراءات ٣٣١.

۞ اللغة

الحشر: جمع الناس من شتى [الأرض]، ومنه: «وحشرناهم» أي: جمعناهم.

زيلنا[(١)] : من التزييل، وهو تفريق يزول به كل واحد عن مكانه، وأصله المزايلة[(٢)] : المفاعلة من الزوال، يقال: زيلته أزيله: إذا فرقت[(٣)] بينه وبينه.

والإسلاف: تقديم أمر لما بعده، يقال: سَلَفَ يَسْلُفُ: إذا تقدم، والسَّلَفُ: الآباء المتقدمون، والسلف: كل عمل صالح، ومن أسلف الطاعة جوزي بالثواب، ومن أسلف المعصية جوزي بالعقاب.

والرد: الذهاب إلى الشيء بعد الذهاب عنه.

۞ الإعراب

في نصب «شهيدا» قولان:

الأول: أنه نصب على التمييز.

والثاني: أنه نصب على الحال. كلاهما عن الزجاج[(٤)]، فالتمييز بمعنى كفى بالله شهيدًا[(٥)] من الشهداء، والحال: كفى بالله في حال الشهادة.

«مكانكم» تقديره: كونوا مكانكم فهو خبر (كان).

«ما كنتم إيانا تعبدون» تقديره: ما كنتم تعبدون إيانا، فإيانا[(٦)] معبود، كقولك: ما كنتم زيدًا[(٧)] تدعون.

---

(١) زيلنا: وتزيلنا، ش.
(٢) المزايلة: التزايل، د.
(٣) فرقت: فرق، د.
(٤) معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٣/ ١٦.
(٥) شهيدًا: ـ، ش.
(٦) فإيانا: وإيانا، د.
(٧) زيدا: تريدا، ش.

۞ المعنى

لما تقدم ذكر الجزاء بَيَّنَ تعالى وقت الجزاء، فقال سبحانه: «**وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ**» أي: نجمعهم يعني الخلق «**جَمِيعًا**» إلى القيامة من أماكن مختلفة «**ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا**» يحتمل أن يقول هو، ويحتمل أن يقول مَلَكٌ بأمره «**مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ**» يعني: اثبتوا والزموا مكانكم أنتم وجميع شركائكم[1] يعني الأوثان، فإنكم لزمتموها في الدنيا، قيل: قوله: «**مَكَانَكُمْ**» وعيد وتخويف، يقال للرجل: مَكَانَكَ، عند تخويفه عما يريد إنزاله به، عن الأصم وأبي علي، وقيل: قفوا لتسألوا، كقوله: ﴿**ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ**﴾ [الصافات: ٢٢] ثم قال: ﴿**وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ**﴾ [الصافات: ٢٤] «**فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ**» يعني: فرقنا وميزنا بينهم[2] وبين الأوثان فيتبرأ منهم الشركاء، فيزدادون غَمًّا وحسرة، وقيل: يفرق بينهم وبينها ليعلموا أنهم اعتصموا بعروة[3] واهية، وقيل: فرقنا بينهم فلم يتناصروا، وقيل: ألحقنا كل كافر بدركته، «**وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ**» قيل: إنه تعالى يحيي الأوثان وينطقهم، فتقول: ماكنا نشعر بأنكم كنتم إيانا تعبدون، عن مجاهد. وقيل: نخلق فيهم الكلام حتى يُسْمَعَ منها، والأول الوجه؛ لأن الكلام يكون كلامًا لهم إذا تكلموا به، وقيل: لا يجوز على أهل الآخرة الكذب، فلا بد مِنْ حَمْلِهِ على ما ذكرنا، وقيل: أراد بالشركاء الملائكة، فيتبرؤون منهم، ويقولون لهم ذلك، وقيل: شركاؤهم: من كانوا يعبدونهم من الشياطين.

ومتى قيل: كيف قالو: ما كنتم إيانا تعبدون؟

قلنا: فيه وجهان:

قيل: ما كنا نشعر بذلك، وقيل: ما عُبِدْنا بأمرنا، وهذا قول مشايخنا، وقيل: إنه حال دهش، فهو ككذب الصبي، عن الإخشيدية، وقيل: هذه مجاحدة منهم كأنه لا يعتد بعبادتهم للإهانة بهم، وقد بَيَّنَّا أن ذلك لا يجوز.

---

(١) يعني أثبتوا والزموا مكانكم أنتم وجميع شركائكم: +، ش.
(٢) يعني فرقنا وميزنا بينهم: + ، ش.
(٣) بعروة: العروة، د.

«فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا» فيه إضمار كأنهم يقولون: بلى كنا نعبدكم فيقول الشركاء: كفى بالله حسيبًا شهيدًا بيننا وبينكم، وإنما قال: «بَيْنَنَا» ولم يقل علينا؛ لأن بيننا بمعنى لنا وعلينا، فهو أعز وأحسن «إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ» أي: ما كنا عن عبادتكم إلا غافلين، كنا لا نسمع، ولا نبصر، ولا نعقل، وهذا يصحح ما حملنا الآية عليه في قوله: «مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُون[١]» أنه بمعنى ما كنا نشعر، أو ما كان بأمرنا وإرادتنا، وقيل: معناه يعلم الله براءتنا مما كنتم فيه «هُنَالِكَ» في ذلك المكان، وفي تلك الحال إشارة إلى موضع المخافة والوعيد «تَبْلُو» بالباء قيل: تختبر[٢]، عن ابن عباس وأبي مسلم والأصم، وقيل: تعلم وتيأس، وقيل: تقرأ[٣] «كُلُّ نَفْسٍ» صحيفتها، عن أبي مسلم والفراء، وقيل: تتبع ما[٤] قدمت من خير أو شر، عن الأصم، وقيل: تعاين، عن ابن زيد «مَا أَسْلَفَتْ» ما قدمت «وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ» أي: إلى موضع حكمه فلا يحكم فيه غيره، وقيل: إلى جزائه فيجازي كل أحد بما يستحقه، وقيل: ردوا إليه بعد أن كانوا آبقين إلى الشياطين كالعبد الآبق يرد على[٥] مولاه «مَوْلاهُمُ» مالكهم وسيدهم وخالقهم، وقيل: ألجئوا إلى الإقرار بالإلهية، فأقروا له دون غيره «الْحَقِّ» قيل: القديم الدائم الذي لا يفنى، وما سواه يبطل، وقيل: الذي طاعته حق، وهو الذي تحق له العبادة، وقيل: الذي كل حق مِنْ قِبَلِهِ «وَضَلَّ عَنْهُمْ» هلك عنهم «مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ» أي: يعبدون من الحجر وغيره، ويعتقدونه إلهًا، وافتراؤهم قولهم: الأصنام تَقْدِرُ على النفع والضر، وأنها تستحق أن تعبد، وقيل: الفرية قولهم: هؤلاء شفعاؤنا.

۞ الأحكام

تدل الآية على أنه تعالى يحشر جميع الخلق عن قبورهم إلى الموقف.

وتدل على إثبات المعاد.

---

(١) تعبدون: +، ش.

(٢) تختبر: تخبر، د.

(٣) تقرأ: تقر؛ د، ش. وما أثبتناه من تفسير البغوي: ٤/ ١٣١.

(٤) ما: بما، ش.

(٥) على: إلى، ش.

وتدل على أنه يحشر كل أحد: استحق الثواب، أو لم يستحق.

وتدل على أنه يجمع بين من عبد غيره وبين معبوده، ثم يفرق بينهم، فيجعل العابد في موضع، والمعبود في موضع، وأن بعضهم يتبرأ من بعض.

وتدل على أنه يحيي الأوثان.

وتدل على أن كل أحد ينال جزاء ما قدم من خير أو شر، وفيه ترغيب وتحذير.

وتدل على أن كل معبود يُصْنَعُ لا[1] ينفع ولا يضر، ولا يقدر على دفع عقوبة عمن عَبَدَهُ، ولا شفاعة له غير الله تعالى، فإن من عبده يجازيه بنعيم دائم في الجنة.

وتدل على أن العبادة والافتراء فعلهم؛ لذلك عاقبهم ووبخهم به[2]، فيبطل قول مَنْ خالفنا في المخلوق.

قوله تعالى:

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾﴾

القراءة

قرأ أبو جعفر ونافع وابن عامر: «**كذلك حقت كَلِمَاتُ ربك**»[3] على الجمع وبعده: «**إن الذين حقت عليهم كلمات**» وفي (حم المؤمن): ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ [غافر: ٦] كله بالألف على الجمع، وقرأ الباقون «**كلمة ربك**» في جميع ذلك على واحده.

---

(١) لا: ولا، ش.

(٢) به: +، ش.

(٣) حجة القراءات ٣٣١.

اللغة

الرزق في اللغة: هو العطاء الجاري، ومنه: رِزْقُ السلطان، وحد الرزق: ما له أن ينتفع به، وليس لغيره مَنْعُهُ، ولذلك لا يجوز الرزق على الله تعالى[1] ؛ لأنه لا يجوز عليه الانتفاع، واسم «رازق» لا يطلق إلا على الله تعالى؛ لأنه خالق الرزق، وإن كان غيره يرزق، كما لا يطلق اسم «الرب» على غيره، وإن كان يقال: رب الدابة، ورب الدار.

وحقت: وجبت يقال: حققت عليك القضاء حقًا، وأحققته: أوجبته.

الإعراب

(ما) في قوله: «**فماذا بعد الحق**» استفهام، والمراد التقرير، وكذلك (مَنْ) في قوله «**من يرزقكم**»، والكاف في قوله: «**كذلك حقت**» كاف التشبيه، وفي المشبه به قولان:

الأول: ليس بعد الحق إلا الضلال، شبه به كلمة الحق، أنهم لا يؤمنون في الصحة.

الثاني: ما تقدم من العصيان شبه به الجزاء بكلمة العذاب في الوقوع على المقدار.

المعنى

ثم قرر تعالى عليهم أدلة التوحيد والبعث، وبطلان ما هم فيه، فقال سبحانه: «**قُلْ**» يا محمد لهؤلاء المشركين «**مَنْ يَرْزُقُكُمْ**» من يخلق لكم الأرزاق والعطاء «**مِنَ السَّمَاءِ**» المطر، ومن الأرض النبات والحبوب والفواكه، وقيل: من يأتيكم بالسحاب، وينزل القطر، وسخر الشمس والقمر والنجوم، ومن يخرج نبات الأرض، عن الأصم «**أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ**» أي: من يملك خلق هذه الحواس، ومَنْ هَيَّأَ كل واحد

(١) تعالى: ـ، ش.

لمنفعة[١]، وقيل: من يملك السمع فيسمعها المواعظ، والأبصار فيريها العظات، وقيل: من يملكها بأن يعطيكم إذا أراد، ويسلبها إذا أراد، عن أبي مسلم، «**وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ**» قيل: النطفة من الإنسان والإنسان من النطفة، وقيل[٢] : من يحييكم إذا كنتم أحياء ومن[٣] يميتكم إذا متم؟ «**وَمَنْ يُدَبِّرُ الأَمْرَ**» في السماء والأرض من الليل والنهار والإحياء والإماتة، واختلاف أحوال السَّنَةِ، واختلاف أحوال الناس «**فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ**» يعني: هو الله تعالى يفعل هذه الأشياء، «**فَقُلْ**» لهم «**أَفَلا**[٤] **تَتَّقُونَ**» عقابه في شرككم، وقيل: إذا علمتم ذلك فاتقوا عبادة غيره «**فَذَلِكُمُ اللَّهُ**» يعني فاعل هذه الأشياء «**رَبُّكُمُ**» خالقكم «**الْحَقُّ**» أي: يحق له العبادة وحده، وقيل: كل حق من جهته «**فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلالُ**» أي: ليس بينهما رتبة ثالثة، فإذا ثبت أن توحيده وعبادته هو الحق ثبت أن ما سواه باطل وضلال «**فَأَنَّى تُصْرَفُونَ**» قيل: أين يذهب بكم عن الحق، قال أبو مسلم: معناه أين تَذْهَبُون وتضلون، وإن لم يكن هناك غيرهم يصرفهم، كقولهم: فلان مُعْجَبٌ بنفسه كذلك، أي: كما وجب على الأمم السوالف العقاب لعصيانهم «**كَذَلِكَ حَقَّتْ**» وجبت «**كَلِمَتُ رَبِّكَ**» أي: كلمة العذاب، وقيل: كلمة الوعيد، وقيل: حكمه «**عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا**"كفروا وخرجوا عن الإيمان «**أَنَّهُمْ لا يُؤْمِنُونَ**»، وقيل: أراد لأنهم لا يؤمنون، عن أبي مسلم، وقيل: هو إخبار عنهم أنهم لا يؤمنون أبدًا، وهو حق وصدق لأهل الطبع، عن الأصم، وقيل: هو إخبار أنهم لا يؤمنون[٥] وهو حق وصدق، عن أبي علي وحده[٦] .

۞ الأحكام

تدل الآية على دلائل وحدانيته، وإسباغ نعمه على عباده في خلق أرزاقهم وحواسهم، وتدابير أمورهم ومصالحهم.

---

(١) لمنفعة: لنفعه، د.
(٢) قيل: ـ ، ش.
(٣) من: ـ ، ش.
(٤) أفلا: إلاّ، ش.
(٥) أبدا وهو حق. . . أنهم يؤمنون: +، ش.
(٦) وحده: رحمه الله، ش.

وتدل على صحة الحجاج في الدين؛ لأنه تعالى حَاجَّ به المشركين.

وتدل على أن العبادة تستحق بالقدرة على أصول النعم[1] وفعلها؛ لذلك احتج عليهم بذلك.

وتدل على أنهم كانوا يقرون بالخالق وكانوا مشركين، وقد بَيَّنَّا أنهم أصحاب المتوسطات.

ويدل قوله: «**فأنى تصرفون**» على بطلان الجبر في أنه تعالى يصرفهم عن الحق؛ إذ لو كان كما زعموا لما كان لهذا الكلام وجه.

ويدل قوله: «**كذلك حقت**» على وعيد الفساق، فيبطل قول المرجئة.

وتدل على أن الفسق كالمنافي للإيمان، فيصحح قولنا في المنزلة بين المنزلتين، والآية وإن كانت في ذكر من تقدم من المشركين فالظاهر يتناول الكل، والاعتبار لعموم اللفظ، وإلا فليس لأحد أن يقول: إنها مقصورة على الكفار إلا بدليل.

قوله تعالى:

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾

القراءة

في قوله: «**أمن لا يَهِدِّي**» ست قراءات[2]:

الأولى: قرأ ابن كثير وابن عامر وورش عن نافع ويعقوب غير ورش: «**يَهَدِّي**»

(١) وهناك نسخة اخرى من مكتبة الديملي إلى نهاية السورة. ومن هنا فصاعدًا تصير نسخة ش فيه أصلاً.

(٢) حجة القراءات ٣٣١.

بفتح الياء وتشديد الدال، وهو اختيار أبي عبيد وأبي حاتم؛ لأن أصله «يهتدي»، أدغمت التاء في الدال، وتقلب فتحة التاء المدغمة إلى الهاء.

الثانية: قرأ أبو جعفر ونافع ساكنة الهاء مشددة، أدغمت التاء في الدال، وتركت الهاء على حالها، فجمع في قراءته بين ساكنين، كما جعلوا في ﴿يَخِصِّمُونَ﴾ [يس:٤٩]، قال علي بن عيسى: وهو غلط عن نافع.

الثالثة: قرأ أبو عمرو بإشارة إلى فتحة الهاء من غير إشباع، فهو بين الفتح والجزم مختلسة على أصل مذهبه اختيارًا للتخفيف، وذكر علي بن عيسى أنه الصحيح من قراءة نافع.

الرابعة: قرأ عاصم وورش عن يعقوب بفتح الياء وكسر الهاء، وتشديد الدال فرارًا من التقاء الساكنين، والجزم يحرك إلى الكسر.

الخامسة: قرأ حماد ويحيى بن آدم عن أبي بكر عن عاصم بكسر الياء والهاء، أتبع الكسرة الكسرة، وقيل: هي لغة من يقرأ «نِسْتَعِين ونِعْبُد».

السادسة: قرأ حمزة والكسائي وخلف بن هشام: «نَهْدِي» ساكنة الهاء وتخفيف الدال، على معنى نَهْتَدِي، والعرب [تستعمل] تهدي بمعنى تهتدي، يقال: هديته فَهَدَى، أي: اهتدى.

المعنى

احتج تعالى عليهم في إثبات التوحيد باحتجاج آخر، فقال سبحانه: «قُلْ» يا محمد لهؤلاء المشركين «هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ» قيل: التي جعلتموها شركاء في العبادة، وقيل: جعلتموهم شركاء في أموالكم من أوثانكم، كما قالوا: ﴿هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا﴾ [الأنعام: ١٣٦] «مَنْ يَبْدأُ الْخَلْقَ» أي: يخلقهم ابتداء على غير مثال، وهي النشأة الأولى «ثُمَّ يُعِيدُهُ» هو إيجادهم ثانية في النشأة الثانية، وهو ما يختص بالقدرة عليها، وإذا ثبت بالدليل أن الشركاء لا يقدرون عليها، وأنه تعالى هو القادر عليها، فـ"قُلِ» يا محمد «اللَّهُ يَبْدأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ» يوم القيامة «فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ» أي: تصرفون،

يعني كيف تصرفون عن الحق، والمراد كيف تنصرفون وإن لم يكن لكم صارف غيرهم، عن أبي مسلم. وقيل: أي شيء يصرفكم عن الحق؟.

ثم استأنف الحجاج، فقال سبحانه: **«قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ»** يعني الأوثان **«مَنْ يَهْدِي»** يرشد **«إِلَى الْحَقِّ»**، يعني: ما يحق ويجب لله على عباده، وقيل: دين سلام، عن الأصم. فإذا لم يمكنهم أن يقولوا: إنّ شركاءهم يهدون إلى الحق، وثبت بالدليل أن الله يهدي، فقل يا محمد احتجاجًا عليهم: **«قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ»** أَمْرُهُ ونهيه **«أَمَّنْ لا يَهِدِّي»** أي: لا يهتدي بنفسه **«إِلاَّ أَنْ يُهْدَى»** قيل: المراد به الملائكة والجن؛ لأنهم يهتدون إذا هداهم غيرهم، وقيل: **«أحق»** أي: الذي تليق به العبادة يجب أن يكون ممن يدعو إلى عبادته، وقيل: المراد به الرؤساء المضلون الذين يدعون إلى الكفر فهم لا يَرْشُدُون إلا أن يُرْشَدُوا، والمراد بمن يهدي النبي صلى الله عليه وآله، عن الأصم. وقيل: هم الأصنام، ومعنى لا يمشي إلا أن يحمل، ولا ينتقل إلا أن يُنْقَلَ كقول الشاعر:

حَــيْــثُ يَــهْــدِي سَــاَقَــهُ قَــدَمُــهْ[1]

أي: يحمل، وقيل: لا يهتدون ما لم يُحْيِهم الله وَيْهدِهم[2] **فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ»** تعجيب من حالهم أي: كيف تقضون لله بالشرك وعبادة حجر لا ينفع ولا يضر، ولا ترجعون إلى الدلائل الواضحة في إثبات التوحيد، فبدأ تعالى أولاً بذكر الخلق؛ لأنه أصل النعم، ثم بالنشأة الثانية؛ لأن فيها الجزاء، ثم بالهداية؛ لأنها الفرض وأصل النعم، وبه تنال الجنة؛ ليعلم أن جميع النعم منه تعالى، فهو الذي يحق له العبادة **«وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ»** قيل: كلهم، وقيل: بعضهم، وهم العوام الذين لبس عليهم الرؤساء، عن أبي مسلم. وأما الرؤساء فهم معاندون **«إِلاَّ ظَنًّا»** يعني يتبعون الظنون الكاذبة، في أن هذه الأوثان آلهة، وأنها تشفع لهم في الآخرة، وقيل: يتبعون

---

(١) البيت لابن عبد ربه الأندلسي. وصدر البيت:
لِــلْــفَــتَــى عَــقْــلٌ يَــعِــيــشُ بِــهِ
انظره في: الصحاح (هدى)، واللسان (سوق).

(٢) يُحيهم الله ويهْدِهم: يحييهم الله ويهديهم؛ د، ش.

الظن في تقليد رؤسائهم في عبادة الأوثان بحسن الظن بهم، عن أبي مسلم، وأبي علي. وقيل: إنهم شاكون في دينهم الذي جاءهم الله بحججه، عن الأصم. «**إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا**» يعني الظن لا يقوم مقام العلم، ولا يغني عنهم مع وجوده وإمكانه، وقيل: الظن لا يكفي في توحيد الله سبحانه؛ لأن طريق ذلك العلم، وقيل: لا يغني في استحقاق الثواب والنجاة من العقاب، فإذا لم يقدر الظان فالمقلد أولى «**إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ**»، فيجازيهم بأعمالهم.

۞ الأحكام

تدل الآيات على صحة الحجاج في الدين.

وتدل على أن استحقاق العبادة بالنعم؛ لذلك عد أصول النعم.

ويدل قوله: «**أنى يؤفكون**» على بطلان قول المجبرة؛ لأنه تعالى لو صَرَفَهُم لما صح أن يقول: فمن صرفهم.

وتدل على أن الظن في أصول الدين باطل، وإنما يصح اعتبار الظن في مسائل الاجتهاد.

وتدل على أن المعارف مكتسبة؛ إذ لو كانت ضرورية لما كانوا ظالمين.

ويدل قوله: «**يفعلون**» أن الفعل لهم، وليس بخلق لله.

وتدل على أنه تعالى المختص بالقدرة على الإعادة.

قوله تعالى:

﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾﴾

۞ القراءة

قراءة العامة: «بسورةٍ» منونة، وعن ابن السميقع: «بسُورَةِ مِثْلِهِ» مضافة.

۞ اللغة

الافتراء: الخلق والتقدير، وهو «افتعال» من: فريت الأديم: إذا قطعته وقدرته للقطع، ثم يستعمل في الكذب فيقال: افترى الحديث، كما استعمل اختلق وخلق: إذا قال ما لم يسمعه، وفريت الشيء أفريه: إذا قطعته لإصلاحه.

وقال ابن السكيت: فرى «خلق»، وأَفْرَيْتُهُ: أفسدته، وفلان يَفْرِي الفَرِيّ: إذا أتى بالعجب، وفرى كذبًا: خَلَقَهُ.

والإحاطة: الإدارة حول الشيء، كالحائط، فعلم الإحاطة: علم بالشيء من جميع جهاته.

۞ الإعراب

(أن) في قوله: «**أن يفترى**» في محل النصب بالخبر، و«**يفترى**» صلة له، وتقديره: ما كان هذا القرآن مفترى عن الكسائي، وقيل: (أن) بمعنى اللام أي: ما كان هذا القرآن ليفترى، كقوله: ﴿مَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٩]، عن أبي مسلم.

و(أم) في قوله: «**أم تقولون**» قيل: معناه تقرير حجة بعد مضي حجة أخرى، على تقدير: أتقولون افتراه؟! وقيل: (أم) بمعنى الواو، أي: وتقولون، عن أبي عبيدة. وقيل: هو عطف على ما تقدم من الاحتجاج، أي: أتقولون ذلك أم تقولون افتراه، فإن قالوا فقل: فأتوا، عن أبي مسلم.

«**ولكن تصديق**» تقديره: ولكن القرآن تصديق، «**وتفصيل الكتاب**» أي: فكان القرآن تفصيلاً، فنصبته؛ لأنه خبر (كان).

۞ النظم

يقال: كيف اتصال الآية بما قبلها؟

قلنا: قيل: إنه متصل بقوله: «قَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ» وجواب عن قولهم، عن الأصم.

وقيل: يتصل بما قبله، فإنه لما حاجهم في التوحيد عقبه بالاحتجاج في النبوات.

۞ المعنى

«وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ» قيل: ما ينبغي لهذا القرآن، عن الفراء، يعني لا يقدر أحد أن يأتي به، وقيل: ليس هذا القرآن مفترى من دون الله بل أخذ من الله تعالى، وهو وحيه وتنزيله، عن أبي علي. «وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ» من سائر الكتب، وتصديقه على وجهين:

أحدهما: أنه يشهد له بالصدق.

وثانيها: يصدق ما في الكتب من البشارة، فجاء كما بشر به.

وقيل: مصدق لما بين يديه من البعث والنشور والجزاء والحساب «وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ» بين المعاني ببيان الحلال والحرام، والحق والباطل، وقيل: بيان الأدلة، وما تحتاجون إليه من أمور دينكم «لا رَيْبَ فِيهِ» لا شك فيه أنه من عند الله، وأنه معجز لا يقدر أحد على مثله، وهذا غاية التحدي، ولو قدرت العرب على الإتيان بمثله لأتوا به، مع حرصهم على إبطال أمره، وأنفتهم من اتباعه، وخوفهم على النفس والمال والذراري، وتحملهم المشاق في بابه «مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ» أي: هو كلامه أنزله على نبيه محمد صلى الله عليه وعلى آله «أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ» أي: يقول الكفار إن محمدًا اختلق هذا القرآن من قبل نفسه، فإن قالوا ذلك فقل لهم: إن كان هذا كما زعمتم «فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ» قيل: فقولوا سورة مثل سُوَرِهِ، وقيل: مثله في البلاغة والفصاحة، وهذا أوجه الأقاويل، وهذا تَحَدٍّ وليس بِأَمْرٍ، وقيل: فأتوا بسورة، أي: كمحمد، فـ(مثله) كناية عنه «وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ» إلى معاونتكم على المعارضة، وقيل: من

تعبدون من دون الله وتدعونه إلهًا، عن أبي مسلم. وقيل: من تستطيعون من الأمم المخالفة له ليعينوكم، عن الأصم. وقيل: شهداءكم يعني ناسًا يشهدون لكم، عن مجاهد. «**إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**» أن محمدًا افتراه، وهذا أيضًا غاية في التحدي والتعجيز «**بَلْ كَذَّبُوا**» يعني لَمَّا لم يقدروا على الإتيان بمثله عدلوا إلى التكذيب، كأنه قيل: لما لم يأتوا بمثله، وعجزوا عنه، ولم يكن لهم حجة «**كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ**» أي: لم يحفظوه، ولم يعرفوه، بل نسبوه إلى الكذب، عن الأصم. وقيل: لم يعلموا المتشابه، عن أبي علي. وقيل: كذبوا القرآن من غير علم ببطلانه، وقيل: كَذَّبُوا ما وُعِدُوا به من أمر المعاد، عن أبي مسلم. وقيل: كذبوا ما نزل من الوعيد على كفرهم، وقيل: كذبوا من غير علم بعاقبة مَنْ كَذَّبَ.

ومتى قيل: ما معنى الإحاطة هاهنا؟

قلنا: هو أن العلم بكون القرآن معجز يحصل من وجوه كثيرة، فمتى لم يحصل لهم لم يكن محيطًا[1] بها، فبين بهذا إهمالهم أنفسهم.

«**وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ**» قيل: تفسيره، وما يؤول إليه، وقيل: عاقبة ما وعدوا به من الوعد والتأويل ما يؤول إليه الأمر «**كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ**» أي: كما يكذب هؤلاء كذب الأمم السالفة رسلهم، وفيه تسلية للنبي صلى الله عليه وعلى آله «**فَانْظُرْ**» يا محمد «**كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ**» بالهلاك «**وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لا يُؤْمِنُ بِهِ**» قيل: منهم من سيؤمن بالقرآن، ويصدق أنه من عند الله، ومنهم من يموت على كفره، فأخبر عن معلومه فيهم، وأنه إنما لا يهلكهم لما في التبقية من الصلاح، وقيل: منهم من يؤمن به ظاهرًا وباطنًا، ومنهم من لا يؤمن كذلك، وقيل: ومنهم من يؤمن بالمعاد، ومنهم من لا يؤمن به «**وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ**» أي: يعلم من يدوم على الفساد، ويعلم من يتوب، فيبقى من الصلاح في تبقيته، عن أبي مسلم.

---

(١) محيطًا: محيط؛ د، ش

۞ الأحكام

تدل الآيات على أن القرآن من عند الله، وأنه كلامه، وتدل على حدثه؛ لأن التحدي لا يصح إلا بالحدث.

وتدل أنه ﷺ تحداهم به، وأنهم عجزوا عن مثله مع شدة حرصهم على إبطال أمره، فيوجب كونه معجزًا.

وتدل على أنه لم يعاجلهم بعذاب الاستئصال لما علم أن فيهم من يؤمن.

واختلفوا في تبقية مَنْ المعلوم أنه يؤمن هل هو واجب أم لا؟

فقال أبو علي وأبو القاسم: يجب تبقيته من أصلين مختلفين.

وقال أبو هاشم ومن تبعه: ليس بواجب؛ لأنه ابتداء تكليف، فيكون تفضلاً، ولأنه لا خلاف بينهم أن تبقية من يعلم أنه يَكْفُرُ يجوز، وبذلك تبطل جميع عللهم، والآية وصف لحالهم، وليس فيه وجوب التبقية.

قوله تعالى:

﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَـٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾

۞ اللغة

البراءة: قطع العلقة التي توجبه مع المطالبة، كالبراءة من الدين، والبراءة من العيب.

والاستماع: طلب السمع، وهو افتعال من السمع، وهو إدراك المسموع.

والنظر: تقليب الحدقة السليمة نحو المرئي التماسًا لرؤيته، ويستعمل بمعنى الفكر.

۞ الإعراب

(لَكِنَّ) تنصب الاسم وترفع الخبر بمنزلة (إنَّ)، وإنما أعملوا (لكن) الثقيلة، ولم يعملوا الخفيفة؛ لأن الثقيلة تدخل على الجملة كما تدخل (إنَّ)، والمخففة تدخل على المفرد، كما تدخل حروف العطف.

و(مَنْ) اسم مبهم يدخل على الواحد والجمع؛ لذلك قال: «**يستمعون**» و«**ينظر**».

۞ النظم

يقال: كيف تتصل الآية الأولى بما قبلها؟

قلنا: لما بَيَّنَ بالدلائل إلى التوحيد والنبؤات، وفصل بين الحق والباطل فعاندوا، أمر بقطع العصمة والوعيد لهم.

ويقال: كيف يتصل قوله: «**إن الله لا يظلم**» بما قبله؟

قلنا: فيه وجوه:

قيل: إنه يتصل بقوله: «**كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ**» يقول: أهلكناهم وما ظلمناهم، بل استحقوا ذلك العذاب، عن الأصم.

وقيل: اتصل بما قبله، وهو قوله: «**ومنهم من يستمعون**[1] » و«**ينظر**» فكأنه قيل: إن الله لا يمنعهم الانتفاع بما كلفهم، وهو قوله، وقد بين ومكن وهدى وأزاح العلة، ولكن ظلموا أنفسهم بترك الانتفاع به، عن أبي علي، وأبي مسلم.

وقيل: لما تقدم الوعد والوعيد بين أنه لا يظلمهم، فلا ينقص من حسناتهم شيئا، ولا يزيد في سيئاتهم.

۞ المعنى

«**وَإِنْ كَذَّبُوكَ**» يا محمد بعد الأدلة الواضحة التي تدلهم على الحق «**فَقُلْ لِي عَمَلِي**» الطاعة والإيمان «**وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ**» الشرك، وقيل: [لي] جزاء عملي ولكم جزاء

(١) يستمعون: يستمع، د، ش.

عملكم، عن أبي علي. **«أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ»** قيل: معنى الآية الزجر والتنبيه والاستمالة لقلوبهم ليأتوا بالجميل، وقيل: هو أمر للنبي ومن تبعه، يعني إن لم يصدقوك فابرأ منهم ومن أعمالهم، واعمل عملك الذي هم بريئون منه، واعلم أنك مجازى بعملك، وهم مجازون بعملهم **«وَمِنْهُمْ»** من الكفار **«مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ»** يعني إلى كلامك ودعائك، وإلى القرآن إذا تلوته عليهم استماعَ مَنْ لا يعي ولا يفهم، فهم في ذلك كالأصم في عدم الانتفاع، وقيل: طلبوا السمع للرد، لا للفهم، عن أبي علي. **«أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ»** استفهام والمراد النفي، أي: لا يمكنك أن تسمع الصم حقائق الأمور، وتقره في قلبه، كذلك هؤلاء، إذا لم يستمعوا استماع تفكر لا يمكنك تقرير حقائق الأمور في قلوبهم **«وَلَوْ كَانُوا لا يَعْقِلُونَ»** لا يعلمون الحق من الباطل **«وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ»** ويعرفون صدقك وأمانتك، ولكن للعداوة كذبوك، وقيل: ينظرون إلى إعلامك، ثم لا يتفكرون فيه، ولا يستدلون بها، فهم لعدم الانتفاع بما يبصرون كالعمي الذين لا يبصرون شيئا **«أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ»** أي: لا تقدر على ذلك، وقيل: أفأنت تسمع الصم أو تهدي العمي: إنكار؛ لأنه يقع الخير عليهم في ذلك، وقيل: فيه إشارة إلى وجوب النظر أي: لا ينفع سماعهم ونظرهم إذا لم يتدبروا فيعلموا، وإنما عليك إظهار الحجة، فأما التفهم فإليهم، فإذا لم يتدبروا كان الذنب عليهم، وفيه بشارة للنبي صلى الله عليه وعلى آله **«إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا»** يعني أنهم في ترك الإيمان، وعدم التَّفَهُّم أتوا من قِبَلِ أنفسهم، والله لم يمنعهم منه، فإنه تعالى لا يظلم الناس بأن يأمرهم بشيء ثم يمنعهم عنه، ويعاقبهم عليه **«وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ»** بالكفر والمعصية، وقيل: لا يظلم الناس بالعقوبة، ولكن ظلموا أنفسهم بأن فعلوا ما به استحقوا العقاب، وقيل: لا ينقص من حسناتهم، ولا يزيد في سيئاتهم، حكاه الأصم.

۞ الأحكام

تدل الآية على وجوب البراءة من الكفار.

وتدل على أن أحدًا لا يؤخذ إلا بذنبه، فيبطل قول المجبرة في أطفال المشركين.

وتدل على أن الأفعال حادثة من جهتهم ليست بخلق لله تعالى.

وتدل على أن استماع الأدلة[1] إذا قصد به الرد والتكذيب يقبح؛ لذلك ذمهم على الاستماع.

وتدل على أنه منزه عن الظلم، فيبطل قول المجبرة في إضافة كل ظلم إلى خلقه وإرادته.

واختلفوا في قوله: «**فَقُلْ**[2] **لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ**» فقيل: إنه منسوخ بآية الجهاد، عن مقاتل، والكلبي. وقيل: نزلت قَبْلَ الأمر بالجهاد، عن أبي مسلم، وليس بصحيح؛ لأنه لا تنافي بين هذه الآية وبين وجوب الجهاد؛ لأنه براءة ووعيد، وهذا لا ينافي الجهاد.

قوله تعالى:

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْۚ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌۖ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾﴾

۞ اللغة

اللبث والمكث من النظائر، وهو الكون في المكان وقتين فصاعدًا.

والساعة: مقدار من الزمان يُقَسَّمُ به اليوم والليلة.

والتعارف: اعتراف كل واحد لصاحبه، ونقيضه: التناكر، وأصله: من المعرفة.

۞ الإعراب

«**وإما نرينك**» قيل: (ما) صلة، وتقديره: وإن نرينك، وجوابه «**فإلينا مرجعهم**».

---

(١) الأدلة: للأدلة، د، ش.

(٢) فقل: قل، ش.

۞ المعنى

ثم بَيَّنَ تعالى حالهم يوم الجمع، فقال سبحانه: **«وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ»** يجمعهم من كل مكان إلى الموقف جميعًا، أي: لا يغادر أحدًا منهم **«كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ»** قيل: لم يلبثوا في الدنيا، عن الضحاك وجماعة. وقيل: في قبورهم، عن ابن عباس. واختلفوا في استقلالهم للدنيا، فقيل: إذا حشروا للحساب فكأنهم لَمْ يلبثوا في الدنيا إلا ساعة، ولا ينفعهم طول المدة كقوله: ﴿وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ﴾ [البقرة: ٩٦]،عن أبي مسلم. وقيل: قلَّ[١] ذلك عندهم لما شاهدوا من أمر الآخرة وأهوالها، عن الأصم. وقيل: قَلَّ ذلك عندهم لأنهم رجوها باللذات واتبعوا الشهوات، ثم ذهبت لذاتها، وبقيت تبعاتها فاستقلوها، وعظمت الآخرة لما يرون من أهوالها بخلاف المؤمنين، فإنهم بالشدة والمشقة، وقيل: قَلَّ ذلك بالإضافة إلى طول لبثهم في الحشر، وقيل: قَلَّ ذلك في أعينهم؛ لأنهم لم ينتفعوا به، وقيل: لأنهم لم يعلموا ما بعد الموت من لبثهم في القبر إلى وقت الحشر، نحو قوله: ﴿يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ [الروم: ٥٥] **«يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ»** أي: يعرف بعضهم بعضًا ما كانوا عليه من الخطأ والكفر، عن الأصم، ثم[٢] تنقطع المعرفة إذا عاينوا العذاب، ويبرأ بعضهم من بعض **«قَدْ خَسِرَ»** أي: أهلك نفسه بأن خسر ثواب الله، واستحق عقابه **«الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ»** أي: على الهدى والحق **«وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ»** يا محمد في حياتهم **«بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ»** أي: بعد هؤلاء الكفار من العذاب **«أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ»** أو نميتك قبل أن ينزل بهم، وينزل ذلك بعد موتك، قيل: ذلك البعض: ظَفَرُهُ عليهم، وقيل: ما فعله بهم يوم بدر من القتل والسبي **«فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ»** مصيرهم إلى حكمنا في الآخرة، لا يفوتون، وفيه وعيد لهم وتسلية للنبي ـ صلى الله عليه وعلى آله ـ **«ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ»** قيل: عليم بأفعالهم، فيجازيهم بها، وقيل: والله شهيد، وأنت شهيد؛ لأن الرسل شهداء على الأمم **«وَلِكُلِّ أُمَّةٍ»** أي: لكل جماعة وقرن **«رَسُولٌ»** أي: نبي يبلغهم رسالة ربهم، وينذرهم **«فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ»** في الكلام إضمار أي: إذا جاء رسولهم

(١) قلّ: قال، د، ش.
(٢) ثم: لم؛ د، ش.

وبلغ، وكَذَّبَهُ قوم وصدقه آخرون قضي بينهم، أي: حكم وفَصَلَ «بِالْقِسْطِ» بالعدل فيهلك المكذبين، وينجي المؤمنين، وقيل: إذا جاء رسولهم يوم القيامة يشهد عليهم قضي بينه وبينهم بالقسط، عن مجاهد، وقيل: في الدنيا بما أذن الله من الدعاء عليهم، عن الحسن، وقيل: إذا جاء رسولهم بالحجج والبينات قضي بينهم، عن الأصم، والمراد بالآية أهل كل دين إذ قد ثبت أيام الفترة في الكتاب والسنة والإجماع «وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ» أي: لا يبخس حق المحسن، ولا يزيد في عقاب المسيء، وقيل: لا يظلم أحدًا بمنع حقه بل تستوفى الحقوق يوم القيامة.

۞ الأحكام

تدل الآية على تحقير الدنيا وتصغيرها، وأنها قليلة في جنب الآخرة.

وتدل على أن الأنبياء يشهدون على أممهم يوم القيامة، ثم يقضى بينهم، وهو اختيار أبي علي.

وتدل على أن التكذيب والأفعال حادثة من جهتهم ليست بخلق لله.

وتدل على أنه منزه عن الظلم، ولو كان كل ظلم من جهته وخلقه وإرادته لما صح التنزيه.

قوله تعالى:

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾﴾

۞ اللغة

(متى) سؤال عن زمان، و(أين) سؤال عن مكان، و(كيف) سؤال عن حال.

والوعد: خبر بما يعطى من الخير، والوعيد: خبر بما يفعل من الشر.

والأجل: الوقت المضمر لوقوع أمر، كأجل الدَّيْنِ وأجل البيع.

والبَيَاتُ: إتيان الشيء ليلاً، بَيَّتَهُ تبييتًا وبياتًا، وبات بيتوتة.

والاستعجال: طلب الشيء قبل وقته.

الإعراب

يقال: أين جواب (إن) في قوله: «**إن أتاكم عذابه بياتا أو نهارا**»؟ [وجواب (إن) محذوف وتقدير الكلام: أرأيتم ماذا يستعجل من العذاب إن أتاكم بياتًا أو نهارًا][1]. ووقع «**إن أتاكم**» في وسط الكلام موقع الإعراض.

ويقال: ما معنى قوله: «**ماذا يستعجل**»؟

قلنا: معناه الإنكار، وليس في العذاب شيء يستعجل به، وجاء على صيغة الاستفهام؛ لأنه لا جواب لصاحبه يصح له.

ويقال: ما معنى: «**أَثُمَّ**»؟

قلنا: الألف استفهام دخلت على (ثم) التي هي للعطف؛ لتدل أن نفي الجملة الثانية بعد الأولى مع أن الألف صدر الكلام، وزعم بعضهم أن (ثم) في هذا الموضع بمعنى «هنالك».

ويقال: ما عامل الإعراب في قوله: «**إذا ما وقع**»؟

قلنا: فيه وجهان:

الأول: آمنتم به على أن تكون (ما) صلة.

الثاني: على أن تكون (ما) مسلطة على الجزاء.

ويقال: (علام) ينعطف بـ (ثم) في قوله: «**ثم قيل**»؟

قلنا: على الإتيان به الذي وقع في حال الإلجاء إليه، وقيل لهم بعد ذلك هذا القول على وجه التوبيخ والتقريع؛ لأنها ليست بحال استدراك لما فات.

---

(١) هنا بياض في الأصول المخطوطة ولعله: وهو جواب (إن): «وجواب (إن) محذوف، وتقدير الكلام: أرأيتم ماذا يستعجل المجرمون من العذاب إن أتاكم عذابه بياتًا أو نهارًا ووقع..». انظر: تفسيرالبيان: ٥/ ٣٩١.

۞ النظم

يقال: بماذا يتصل قوله: «ويقولون»؟

قلنا: فيه وجهان:

الأول: قيل: يتصل بما قبله من وعيد المكذبين، فبين أنهم استعجلوا ذلك تكذيبًا لهم وردًّا، عن أبي علي.

الثاني: أنه يتصل بقوله: «وإما نرينك الذي نعدهم» فقالو: متى يكون ذلك؟

۞ المعنى

«**وَيَقُولُونَ**» هؤلاء المشركون «**مَتَى هَذَا الْوَعْدُ**» الذي تعدنا به من البعث وقيام الساعة، وقيل: من العذاب «**إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**» في ذلك «**قُلْ**» يا محمد جوابًا لهم «**لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلا نَفْعًا**» أي: لا أقدر لنفسي على نفع ولا ضر «**إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ**» أن يُمَلِّكَنِي من نفع وضر، وقيل: إلا ما شاء أن يوصل إلي من ذلك، وقيل: لا أملك لنفسي تقديم موت أو حياة، فكيف أملك لكم، وكيف أملك القيامة وأعرف وقتها؟ «**لِكُلِّ أُمَّةٍ**» قوم «**أَجَلٌ**» مدة وقت حياة يبقيهم إليها «**إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ**» قيل: انقضى أجلهم المضروب لهم بفناء أعمارهم «**فَلا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ**» يهلكهم الله في ذلك الوقت من غير تقديم ولا تأخير «**قُلْ**» يا محمد لهؤلاء المكذبين «**أَرَأَيْتُمْ**» أعلمتم، استفهام، والمراد به التقرير، أي: اعلموا «**إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا**» ليلاً" «**أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ**» يعني أي شيء يستعجل منه المجرم، وما الذي يحصل له فيه، وقيل: ما الذي ينفعكم استعجالكم إذا وقع أن ينزل بهم ما استعجلوه، وليس لهم منعة ولا ملجأ، وقيل: لو وقع شيء من ذلك ما استعجلوه، وإنما فعلوا هذا لجهلهم، عن أبي مسلم. «**أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ**» يعني إذا وقع العذاب ونزل آمنتم، ولا ينفعكم «**بِهِ**» قيل: بالله في وقت اليأس، وقيل: بالقرآن وصِدْقِ وعده، وقيل: بالعذاب الذي كانوا ينكرونه «**آلآنَ**» فيه إضمار، تقديره: وقيل لكم: آلآن تُصَدِّقُون، «**وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ**» به مكذبين «**ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا**» قيل: أشركوا، وقيل: ظلموا أنفسهم حيث عصوا الله واستحقوا العذاب «**ذُوقُوا**» بدخول العذاب أجوافكم،

و«عَذَابَ الْخُلْدِ» هو عذاب النار؛ لأنه دائم «هَلْ تُجْزَوْنَ» يعني ما تجزون إلا بعملكم في الدنيا، وكسبكم المعاصي، وقيل: هل فعلت بك إلا ما استوجبت.

الأحكام

تدل الآية على أن الأجل إذا انقضى لا يتقدم ولا يتأخر الموت، فيدل على أن المقتول مات بأجله.

وجملة ذلك: أنه إذا علم الله تعالى أنه يبقى حَيًّا إلى وقت، ثم يموت أو يقتل، فإن معلومه يكون كما علم، وإن كان هو قادرا على التقديم والتأخير، لكن لا يفعل، فجعل ذلك أجلاً له.

ومتى قيل: أكان يعيش لو لم يقتل؟

قلنا: فيه ثلاثة أقوال:

قيل: كان يموت لا محالة، عن أبي الهذيل.

وقيل: كان يعيش لا محالة، عن البغداديين.

فأما مشايخنا فقالوا: كان يجوز كلا الأمرين، من حيث إنه تعالى قادر على ذلك؟ فأما إذا قتل علمنا أن ذلك كان مَعْلُومَهُ، فلا يكون خلاف ذلك.

ومتى قيل: أيجوز أن يكون له أجلان؟

قلنا: لا؛ لأنه لا يموت ولا يقتل إلا في وقت واحد، وذلك أجله.

وتدل على أن الإيمان في وقت اليأس لا ينفع؛ لأنه ملجأ إليه، فإذا كان مخلوقًا فيه، فأولى ألاَّ ينتفع، فيبطل قول المجبرة.

وتدل على أنهم يعرفون أن عذابهم دائم لقوله: «عَذَابَ الْخُلْدِ» فيبطل قول الجهمية في فناء النار.

وتدل على أن ذلك العمل حادث من جهتهم.

وتدل على أن العذاب يستحق على أعمالهم، خلاف قول المجبرة، ولذلك قال: «هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ».

ومتى قيل: نحن نقول: إنه كسبه، وان كان خلقًا لله؟

قلنا: قد بين مشايخنا أن قولهم في الكسب لا يعقل، فلا يصح أن يحال عليه، وسواء أنه إن عقل فالعبد ملجأ إليه، فكان يجب ألاّ يستحق العذاب، وإذا كان الفعل بجميع وجوهه وجد بالقديم سبحانه، فأي شيء بقي للعبد؟، إلا أن يقول: إنه محل للفعل، فيؤول قوله إلى قول جهم.

قوله تعالى:

﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (٥٣) وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٥٤) أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٥٥) هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٥٦)﴾

اللغة

الاستنباء: طلب النبأ، وهو استفعال منه، والنبأ: الخبر، كما أن الاستخبار طلب الخبر، والنبأ: خبر عن أمر عظيم، ومنه: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ (١) عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ﴾ [النبأ: ١، ٢] وقال: ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ [ص: ٦٧].

والإسرار: إخفاء الشيء، ونقيضه: الإعلان.

والندامة: الحسرة على ما كان يتمنى أنه لم يكن.

الإعراب

«ألا إن» الألف استفهام، دخلت على (لا) ومعناه: التنبيه والتقرير.

ويقال: لم[1] كسرت (إِنَّ) بعد (ألا)، وفتحت بعد (لو) في قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ [الزمر: ٤٧]؟

---

(١) لم: قل، ش.

قلنا: لأن (ألا) يستأنف ما بعدها؛ لينبه بها على معنى يبتدئه؛ ولذلك يقع بعده الأمر والدعاء، كقول امرئ القيس:

أَلاَ عِـمْ صَبَاحًـا أَيُّـهـا الطَّـلَـلُ الْـبَالِي[1]

۞ النظم

«يستنبئونك» عطف على «ويستعجلونك» متى تكون القيامة، ويستخبرونك أحق ما تقول من كونه.

ويقال: كيف يتصل قوله: «إن لله» بما قبله؟

قلنا: اتصال الإثبات بالنفي؛ لأن الذي قبله بمنزلة ليس للظالم ما يفتدي به، بل جميع الملك له.

وقيل: هو على تقدير إيقاع الموعود به؛ لأن له ما في السموات والأرض، ومن كان بهذه الصفة فهو قادر على ما يشاء.

۞ المعنى

«وَيَسْتَنبِئُونَكَ» أي: يستخبرونك يطلبون منك الخبر يا محمد «أَحَقٌّ هُوَ» قيل: ما جئت به من القرآن، والنبوة والشرائع، وقيل: ما تعدنا من البعث والقيامة والعذاب، عن أبي علي. ويحتمل أن يكون هذا سؤالاً منهم واستخبارًا على الحقيقة لوقوع شبهة لهم، ويحتمل أنهم قالوا ذلك استهزاء وتكذيبًا «قُلْ» يا محمد «إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ» أي: كائن لا شك فيه «وَمَا أَنْتُم بِمُعْجِزِينَ» يعني إذا أراد الله إنزاله بهم لم يعجزه شيء، لا هُمْ بالهرب، ولا غيرهم بالنصرة، وقيل: ما أنتم بفائتين[2]، وقيل: بغالبين، حكاه الأصم. «وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ» يعني لكل نفس ممن استعجل العذاب إنكارا وتكذيبًا «ظَلَمَتْ» قيل: كفرت وأشركت، وقيل: ظلمت نفسًا بالعصيان

(١) تمام البيت: وهَلْ يَعِمَنْ مَنْ كان في العُصُرِ الخَالي. انظره في: الصحاح (عصر).

(٢) بفائتين: فائتين؛ د، ش.

«**مَا فِي الأَرْضِ**» ملكًا ومكنوا منها «**لافْتَدَتْ بِهِ**» أي: لأعطى جميع ذلك بدلاً من نفسه ليدفع العذاب عنه يوم القيامة، ولكن لا يقبل الفداء وإن كثر، وقيل: طلبوا الحيلة في دار لا حيلة فيها بعدما تركوها في دار الحيلة «**وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ**» قيل: أخفوا الندامة على ما سلف منهم من الكفر، وقيل: رؤساء الضلالة أخفوها من الأتباع، وقيل: أسروا الندامة: أخلصوا فيها، وقيل: أسروا: أظهروا الندامة، عن أبي علي؛ لأنهم أسروا في الدنيا حفظًا لرياستهم، وقد بطل ذلك في الآخرة، ولأن ما ظهر عليهم من الخزي فوق ما يسرون، فلا فائدة في إسرارهم «**لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ**» أي: عاينوا ذلك «**وَقُضِيَ**» حكم وفصل الأمر «**بَيْنَهُمْ**» قيل: بين المؤمنين والكافرين، وقيل: بين الرؤساء والأتباع، وقيل: بين الكفار بإنزال العقوبة بهم، وقيل: قضي بين المؤمن بأن ينتقم له من الكافر، عن الأصم، وأبي علي. «**أَلا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ**» خلقًا وملكًا «**أَلا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ**».

ومتى قيل: كيف يدل خلق السموات والأرض على صدق الوعد والوعيد؟

قلنا: إذا كان خلق السموات والأرض لا للعب لكن لمنافع الخلق، ووعد وأوعد لا يجوز عليه الخلف.

وقيل: من صفة الخالق أنه عالم لذاته غني لا تجوز عليه الحاجة، والخلف كذب، وهو قبيح، ولا بد في الفعل من داعٍ، وداعي القبيح إما الجهل بقبحه وإما الحاجة إليه، وهو تعالى عالم بقبح القبيح، وبأنه غني عنه أبدًا فلا يجوز عليه الخلف.

«**وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ**» أي: لو تفكروا لعلموا، ولكن عدل أكثرهم عن طريق العلم، فلم يعلموا «**هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**» تصيرون إلى حكمه يوم القيامة.

الأحكام

تدل الآية على عظم أحوال القيامة، وأنه لا يقبل فيه الفداء.

وتدل على عظيم ما نزل بهم من العذاب الذي لا منجى منه، ولا مهرب.

وتدل على أنه لا يقدر على الحياة والموت غير الله تعالى، والحياة عرض يحيا

به الإنسان يحل في كل جزء يصير[1] جملته كالشيء الواحد، ويحتاج إلى بنية مخصوصة، ومقتضاه صحة الإدراك، فأما الموت فهو عرض يضاد الحياة عند أبي علي وأبي القاسم والقاضي، وعند أبي هاشم هو بطلان الحياة، وقوله ﴿خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ [الملك: ٢] يدل على صحة قول أبي علي.

وتدل على أن الظلم فعلهم ليس بخلق لله تعالى.

قوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾

القراءة

قرأ يعقوب برواية رويس: «**فلتفرحوا**» و«**تجمعون**» بالتاء فيهما، وري ذلك عن النبي صلى الله عليه وآله، وأبي بن كعب، والحسن، وابن سيرين، وروي عن أبي جعفر الفارسي المدني، وهو على الخطاب فيهما للمؤمنين.

وقرأ يعقوب برواية زيد: «**فلتفرحوا**»[2] بالتاء على الخطاب «**يجمعون**» بالياء خبرًا عن الكفار، روي ذلك عن ابن عباس، والجحدري، وقتادة.

والذي عليه القراء السبعة بالياء فيهما على الخبر، وكان الكسائي يعيب التاء؛ لأن اللام[3] في الأمر للغائب، وأجازه الفراء[4]، ويحتج بقول النبي ـ صلى الله عليه وعلى آله ـ في بعض مغازيه: «**لتأخذوا مناسككم**»[5].

---

(١) من هنا بداية نسخة الضوء المرموز لها بـض.

(٢) حجة القراءات ٣٣٣.

(٣) اللام: الأمر، ض.

(٤) معاني القرآن للفراء ٢/ ١٤٠.

(٥) مسلم رقم ١٢٩٧، وأبو داود رقم ١٩٧٠.

۞ اللغة

الوعظ: التخويف، والعظة اسم منه، قال الخليل: هو التذكير بالخير فيما يرق له قلبه، والموعظة: ما دعا إلى الخشوع والنسك، وصرف عن الفسوق والإثم.

والرحمة: النعمة على المحتاج. والفضل: زيادة النعمة، وهو من فَضَلَ يَفْضُلُ: إذا زاد.

۞ الإعراب

اللام في قوله: «فليفرحوا» لام الأمر، وإنما احتيج إليها ليؤمر الغائب بها، وقد يجوز أن يقع الخطاب للتصرف في الكلام، كما قرأ به الحسن وأبو جعفر.

قال الأخفش: الغائب لا يؤمر إلا باللام، فأما القراءة بالتاء فليس بالقوي في العربية؛ لأنهم استغنوا بقوله: «افرحوا» عن «لتفرحوا»، ولام الأمر لا بد أن تكون مجزومة.

۞ المعنى

لما تقدم ذكر القرآن، وما فيه من الوعد والوعيد عقبه بذكر أحوال القرآن، وجلالة محله في باب الأدلة، وتفخيم شأنه، وعظيم موقعه في الدين، فقال سبحانه: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ**» خطاب لجميع الخلق وبينة لهم «**قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ**» يعني القرآن ووصفه بأربع صفات: بالموعظة، والشفاء لما في الصدور، والهدى، والرحمة، ولكل واحد معنى، فهو موعظة، قيل: لأنه يدل على كل خير ويمنع من كل سوء ومعصية، وقيل: لأنه يذكر المعاد، ويخوف العقوبة، ويحذر سوء العواقب. وهو شفاء لأنه تعالى أنزله، وقلوبهم مختلفة في الأديان، وأهلها شيع، فهداهم إلى الحق، فكان بمنزلة الشفاء لذلك الداء، وداء الجهل أضر من داء البدن، وعلاجه أعسر، وأطباؤه أقل، والشفاء منه أجل، وقيل: هو شفاء لزوال الشك والشبهة والخواطر الفاسدة، ويوجب شرح الصدر، وقيل: شفاء لمن استشفى به فأضافه إلى الصدر؛ لأن الاعتقادات الفاسدة تكون في القلب، ومحله الصدر. وهو هدى ودلالة على التوحيد

والعدل والنبوءات، وأحكام الشريعة، وبيان للحلال والحرام، وفصل بين الحق والباطل. وهو رحمة ونعمة لمن تمسك به، وعمل بما فيه، واتعظ بمواعظه «لِلْمُؤْمِنِينَ» المصدقين به، وخصهم بالذكر وإن كان عظة ورحمة لجميع الخلق؛ لأنهم المنتفعون به والمتمسكون به، وقيل: لأنهم أهله حيث صدقوه، دون من كذب به، عن الأصم. «قُلْ» يا أيها الرسول لهؤلاء المؤمنين: «بِفَضْلِ اللَّهِ» قيل: بأفضاله، وقيل: بنعمته التي يتفضل عليكم بها، وهو الإسلام «وَبِرَحْمَتِهِ» بنعمته قيل: فضل الله: الإسلام، ورحمته: القرآن، عن ابن عباس، والحسن، وقتادة، ومجاهد. «فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ» مما يجمع هؤلاء الكفار من الدنيا، وقيل: فضل الله: الدين، ورحمته: أن جعلكم من أهله، عن أبي سعيد الخدري. وقيل: فضل الله: القرآن، ورحمته: السنن، وما أتاه النبي ـ صلى الله عليه وعلى آله ـ، عن أبي علي؛ لأن أصل الشرع القرآن والسنن، وقيل: فضل الله: الإيمان، ورحمته: القرآن، فليفرح المؤمنون بالتصديق به فهو خير في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فيورث الحكمة والدين، وفي الآخرة الجنة والثواب، عن الأصم، وأبي مسلم. وما يجمعون من الدنيا فإنه إلى فناء وزوال.

۞ الأحكام

تدل الآية على عظم حال القرآن، وما فيه من البيان والوعظ، وأنه جامع لخير الدارين.

وتدل على أن المؤمن ينبغي أن يكون فرحه بالقرآن والدين دون جمع الأموال والذخائر في الدنيا.

وتدل على الحث على تدبر القرآن والاستغناء به، والعمل بأحكامه.

وتدل على أن الجَمْعَ فعلهم، وكذلك الفرح، والفرح اعتقاد نَفْعٍ يعود إليه في الحال، أو الاستقبال.

قوله تعالى:

﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾ وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾

القراءة

قرأ الكسائي: «يَعْزِبُ» بكسر الزاي، وكذلك في سورة (سبأ)[1]، وهو قراءة الأعمش، ويحيى بن وثاب، وقرأ الباقون بالضم فيهما، وهما لغتان صحيحتان.

وقرأ حمزة ويعقوب وخلف: «ولا أصْغَرُ» «ولا أكْبَرُ» بالرفع[2]، مثل قراءة الحسن «ذرة» على موضع «مثقال» قبل دخول (من)، وقرأ الباقون بنصبهما عطفًا على الذرة، أي: ولا مثقال أصغر وأكبر، «فأصغر وأكبر» في موضع جر إلا أنه لا ينصرف؛ لأنه «أفعل» فنصب.

اللغة

الشأن: اسم يقع على الأمر والحال، وما شأنك وما حالك وما بالك من النظائر، وجمعه: شؤون، قال الأخفش: ما شَأَنْتُ شَأْنَهُ، أي: ما علمت علمه.

والإفاضة: الدخول في الشيء، يقال: أفاض القوم في الحديث. واختلفوا فقيل: هو مأخوذ من الفيض الذي هو السيل والجري، عن أبي مسلم. وقيل: أخذ من فيض الإناء: إذا انصب ما فيه من جوانبه، عن علي بن عيسى، يقال: أفضينا في الحديث: أجريناه واستفاض، كما يقال: جرى الحديث وأجريته.

---

(١) حجة القراءات ٣٣٤.

(٢) حجة القراءات ٣٣٤.

والعزوب: الغيبة، والعازب الغائب، وإذا تباعدت الأنعام في مراعيها عن البيوت، قيل: عزبت، قال الشاعر:

وَصَدْرٍ أَزَاحَ اللَّيْلُ عَازِبَ هَمِّهِ تَضَاعَفَ[1] فِيهِ الهَمُّ مِنْ كُلِّ جانِبِ[2]

وفلان يعزب: انفرد عن أهله، والعازب: الكلأ البعيد، وقوم معزوبون: عزبت إبلهم، وعزب عن فلان حلمه: ذهب.

۞ الإعراب

«من رزق» محله نصب، وتقديره: إنزال الرزق. و«**شهودا**» نصب لأنه خبر (كان)، واسمه في «كنا». و(ذو) رفع لأنه خبر (إن)، واسمه (الله).

ويقال: ما معنى (ما) في قوله «**أرأيتم ما**»؟

قلنا: فيه وجهان:

أحدهما: بمعنى الذي، فينصب بـ(أرأيتم).

والثاني: أن يكون بمعنى (أي) في الاستفهام، فينتصب بـ(أنزل).

۞ النزول

قيل: نزلت في مشركي العرب، وما كانوا يدينون به من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام والحرث، عن الأصم، وأبي علي.

قال الضحاك: هو قوله: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا﴾ [الأنعام: ١٣٦].

۞ النظم

قيل: هذه الآية تتصل بقوله: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾ فإذا أقروا أنه الرازق، فكيف جعل بعضه حلالاً، وبعضه حرامًا، عن أبي مسلم.

---

(١) تضاعف: فضاعف، ض.

(٢) للنابغة. انظره في أساس البلاغة (عزب).

وقيل: لما وصف القرآن بأنه هدى ورحمة، وأمرهم بالتمسك بما فيه عقبه بذكر ما حرموه وحللوه بخلاف ما جاء في القرآن.

❁ المعنى

«**قُلْ**» يا أيها الرسول لهؤلاء الكفار «**أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ**» قيل: خلق لكم من أنواع الأرزاق، وَمَنَّ بالإنزال على الخلق، وقيل: أنزل من السماء الماء، فأخرج به الأرزاق من زرع وضرع، وقيل: أنزل إباحته في القرآن، فالذبائح لا تحل إلا بالشرع «**فَجَعَلْتُمْ**» أنتم من ذلك الرزق «**مِنْهُ حَرَامًا وَحَلالاً**» فالحرام هو ما حرموه من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام، وما جعلوه لآلهتهم من الحرث، عن الحسن، ومجاهد، والأصم، وأبي علي. والحلال ما استحلوه، وقيل: حرامًا على النساء حلالاً للرجال كقوله تعالى: ﴿مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا﴾ [الأنعام: ١٣٩]، وقيل: هو ما يجعلونه لأصنامهم، ويحرمونه على أنفسهم، عن أبي مسلم. «**وحلالاً**» قيل: حللتم ما سواها من غير حجة، وقيل: حللتم ما ذبح على النصب «**قُلْ**» لهم «**آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ**» أمركم بهذا التحليل والتحريم؟ والألف ألف استفهام، والمراد الإنكار «**أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ**» تكذبون، وهو قولهم: الله أمرنا بهذا، وقيل: كيف تَدَّعُونَ أن الله حرم وأحل، وأنتم تجحدون الشريعة والكسب «**وَمَا ظَنُّ**» أي: ما يحسب «**الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ**» أي: يختلقون عليه الكذب، وهو إضافة التحريم إليه يوم القيامة، يعني أي شيء يظنون أن يفعل بهم «**يَوْمَ الْقِيَامَةِ**» وقيل: أيحسبون أنه لا يؤاخذهم ولا يعاقبهم عليه «**إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ**» بما خلق لهم من الرزق، وسوى فيه المؤمن والكافر استدعاء واستصلاحًا «**وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ**» نعمه، وقيل: لفضله لا يعجلهم بالعقوبة، ولكن يمهلهم لكي يتوبوا استصلاحًا لهم «**وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ**» قيل: الخطاب للنبي ﷺ، وقيل: المراد المكلفين، وقيل: تقديره: وما تكون في شأن أيها السامع، أو أيها الإنسان، وقيل: خطاب للنبي ـ صلى الله عليه وآله ـ أمره بذلك إجلالاً له وتفخيمًا لشأنه، «**فِي شَأْنٍ**» أي: عمل من الأعمال، قيل: في شأن من الدنيا والدين، وقيل: في حوائج الدنيا، وقيل: في عباده، وقيل: في أداء رسالة وتبليغ شريعة مما أمرناك بتبليغها إليهم، ومن

يقبل منك، ومن يرد عليك «**وَمَا تَتْلُو**» تقرأ «**مِنْهُ**» قيل: «**مِن قُرْآنٍ**[1] »، فذكر القرآن بالإضمار ثم الإظهار تفخيمًا لشأنه، كقوله: ﴿إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [النمل: ٩]، وقيل: من الشأن في القرآن، «**وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ**» قيل: خطاب للمكلفين، فتدل أن الأول خطاب لهم، وقيل: خاطبه أولاً، ثم خاطبه وأمته جميعًا «**إِلاَّ كُنَّا**» نحن «**عَلَيْكُمْ شُهُودًا**» قيل: حافظًا وشاهدًا عليكم حتى نشهد يوم القيامة، ثم نجازيكم به، وقيل: شاهدًا في حال عملهم، وعلى هذا الوجه لا يكون شاهدًا ما لم يوجد المشهود؛ لأن وجوده شرط في مشاهدته وإن كان عالمًا به من قبل، وفيه تحذير؛ لأن من تصور في نفسه أن الله تعالى يشاهده لا يفيض في المعاصي «**إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ**» أي: تدخلون فيه، والهاء عائدة على العمل، وقيل: تعود على القرآن، عن الضحاك. يعني تقولون في القرآن من الكذب، وقيل: تفيضون: تقولون، عن ابن عباس. وقيل: تعملون، عن الحسن، وقيل: تخوضون، عن ابن زيد «**وَمَا يَعْزُبُ**» قيل: لا يغيب، عن ابن عباس. وقيل: لا يذهب، عن الأصم. «**عَنْ رَبِّكَ**» أي: عن علم ربك، فهو عالم بالسر والعلانية وبجميع المعلومات؛ لأنه عالم لذاته «**مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ**» أي: وزن ذرة، وهي النملة الحمراء الصغيرة، تقول العرب: خذ هذا، فإنه أخفها مثقالاً، أي: وزنًا «**فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ**» من وزن ذرة «**وَلا أَكْبَرَ**» من ذلك «**إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ**» قيل: في اللوح المحفوظ، وقيل: في كتاب الحفظة، عن الأصم، وأبي مسلم. وفيه ترغيب وترهيب؛ لأنه لا يخفى عليه شيء ويجازيكم بجميع أعمالكم، فاعملوا ما يُرْضِي فهو شاهد عليكم.

۞ الأحكام

تدل الآية على أن الأرزاق من جهته تعالى؛ لأنها أجسام وأعراض، لا يقدر عليها غيره.

وتدل على أنه يكون حلالاً، وأن الحرام لا يكون رزقًا؛ إذ لو كان كذلك لم يكن لذمهم على أن جعلوه حرامًا معنى.

---

(١) من قرآن: من القرآن؛ د، ش، ض.

وتدل على عظم ذنب من يفتري على الله بأن يضيف إليه ما لا يجوز عليه، وأي افتراء أعظم من قول من يقول: كل فرية فهي خَلْقُهُ، وكل كفر وضلال فمن خلقه وإرادته.

ويدل قوله: «**لذو فضل على الناس**» أنه منعم على الجميع، فيبطل قول المجبرة أن منهم من خلقهم للنار، فلا يكون منعمًا عليهم.

وتدل على أن أهل الحق أقل، وأن أهل الباطل والكفران أكثر.

وتدل على أن الافتراء والتحليل والتحريم والأعمال حادثة من جهتهم.

قوله تعالى:

﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾﴾

اللغة

الأولياء: جمع ولي، والولي أصله القرب، وكل من ولي أمر أحد فهو وليه، وولي الله: المستحق منه أن يوليه ثوابه وكرامته.

والبِشْرُ والبشارة: الخبر بما يظهر سروره في بَشَرَةِ الوجه.

والتبديل والتغيير من النظائر، والتبديل: وضع الشيء مكان غيره، بدله تبديلاً.

والعزة: المنعة وأصله شدة الغلبة، عزه يعزه عزًا: إذا غلبه، ومنه: إذا عز أخوك فَهُنْ، أي: إذا غلبك ولم تقازمه فَلِنْ له. والعَزَازُ: الأرض الصلبة الشديدة، وعز الشئ يَعَزُّ بفتح العين: اشتد، وكسرها: إذا صارعزيزًا لا يوجد، فكأنه اشتد وجودها.

۞ الإعراب

موضع (الذين) من الإعراب في قوله: «**الذين آمنوا**» يحتمل ثلاثة أوجه:

الأول: النصب على صفة الأولياء.

الثاني: الرفع على المدح.

الثالث: الرفع على الابتداء، وخبره «**لهم البشرى**».

و(اتقى) «افتعل» من «وقيت»، قلبت الواو تاء كما قلبت في «تجاه وتراث»، وليس موضع إدغام لثقل الواو.

و(إن) مكسورة للاستئناف بالتذكير، ولو فتحت قيل: جاز بمعنى لأن. وذكر الشيخ أبو حامد في تفسيره: لو فتح (إن) لعظم ولقرب من الكفر؛ لأنه[1] يجعل قولهم: العزة لله علة في حسرته، وهذا كفر، وهذا وإن كان هو الظاهر، فإنه يحتمل ما ذكرنا لأن بمعنى يستقيم[2] الكلام. والقراءة المجمع عليها الكسر.

۞ النظم

لما تقدم ذكر المؤمنين والكافرين بَيَّنَ أن أولياء الله لا خوف عليهم، ولا هم يحزنون، وهم المؤمنون.

وقيل: لما ذكر أنه يحصي أعمال عباده، بَشَّرَ من أطاعه وتولاه، وذكر ما أعد لهم.

ويقال: بماذا يتصل قوله: «**ولا يحزنك قولهم**»؟

قلنا: قيل: يتصل بقوله: «وإن كذبوك» ـ ولا يحزنك قولهم ـ[3] «**فقل لي عملي ولكم علمكم**»، عن الأصم.

---

(١) لأنه: لأن، ض.

(٢) لان بمعنى يستقيم: بمعني لأن يقيم. ش؛ يستقم، ض.

(٣) قلنا قيل يتصل... قولهم: ـ ض.

وقيل: يتصل بما قبله، كأنه قيل: إذا كنت ولي الله وبشرك الله بكل خير، فلا[1] ينبغي أن تحزن بطعن طاعن.

ويقال: كيف يتصل «هو السميع العليم» بما قبله؟

قلنا: يعني: يسمع قولهم ويجازيهم، فلا يحزنك ذلك.

المعنى

«أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ» قيل: قوم ذكرهم الله بما هم عليه من سيماء الخير والإخبات، عن ابن عباس، وسعيد بن جبير. وقيل: هم المتحابون في الله، في خبر مرفوع. وقيل: هم الذين آمنوا وكانوا يتقون، عن ابن زيد، وقيل: هم الذين عملوا بطاعته، عن أبي مسلم، وقيل: الذين تولاهم الله بأن هداهم بالحجج التي آتاهم، وتولوا القيام بحقه والدعاء إليه، عن الأصم. وقيل: من تولاه الله بحفظه وحِيَاطَتِهِ، ورضي عنهم، عن أبي علي. «لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ» قيل: لا يخافون أهوال الآخرة، ولا يحزنون على فوت الدنيا، وقيل: لا يخافون دخول النار، ولا يحزنون بأن يخرجوا من الجنة، ثم وصفهم، فقال سبحانه: «الَّذِينَ آمَنُوا» بالله ورسله وعملوا بطاعته «وَكَانُوا يَتَّقُونَ» معاصيه.

ثم بَيَّنَ ما أعد لهم، فقال سبحانه: «لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا» فيه أقوال:

الأول: بشارة الملائكة للمؤمن عند قبض روحه بما له عند الله من الفوز، عن قتادة، والزهري، وعطاء، والضحاك، وأبي علي.

الثاني: هي[2] الرؤيا الصالحة يراها المؤمن، أو تُرَى له في خبر مرفوع، وروي ذلك عن ابن عباس.

الثالث: هو ما بَشَّرَ الله به في كتابه، وعلى ألسنة رسله من جنته وكريم ثوابه، عن الحسن، والأصم. وقيل: هو السرور بما وعدهم الله في الدنيا والآخرة بما يصيرون إليه، عن أبي مسلم.

---

(١) فلا: ولا، ض.

(٢) هي: ـ، ض.

«**وَفِي الآخِرَةِ**» قيل: في قبورهم بالجنة، عن الأصم[١]. وقيل: عند خروجهم من قبورهم يوم القيامة، عن أبي علي. وقيل: ما يصيرون إليه من الثواب، عن أبي مسلم. «**لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ**» أي: لا خلف ولا تغيير في كلامه ووعده ووعيده و«**ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**» أي: الظفر والنجاة العظيمة «**وَلاَ يَحْزُنْكَ**» يا محمد، هذا صيغة النهي والمراد التسلية، كأنه قيل: لا تعبأ بقولهم؛ فليس مما يعتد به ويحزن لأجله «**قَوْلُهُمْ**» أي: قول المشركين في تكذيبهم، فقد ظهر صدقك، وقيل: فيما تَوَعَّدُونك من القتل والأذى، فإن الله يعصمك «**إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ**» أي: القهر والغلبة، فينتقم منهم، وقيل: لا يحزنك قولهم فيما ادعوا من الشركاء والآلهة فإن العزة: القدرة، لله دونهم، عن أبي مسلم. وقيل: العزة لله يعز من يشاء، عن سعيد بن المسيب، قيل: إنهم يطلبون العزة في تكذيبك، والعزة لله، فينبغي أن تطلب من جهته، وقيل: يعازونك بالمال والأتباع، والله قادر، فيسلبهم ذلك، ويجعل العزة كلها لك، وقيل: لا يحزنك كثرتهم، فالعزة للإسلام «**هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ**» يعني السميع لأقوالهم، العليم بضمائرهم، فيجازيهم بما يقتضيه حالهم، ويدفع عنك شرهم.

۞ الأحكام

تدل الآية على أن المؤمنين لا يلحقهم في الآخرة خوف ولا حزن، على ما يذهب إليه شيخانا أبو علي وأبو هاشم خلاف ما يقوله قوم: إنه يلحقهم أهوال وشدائد.

وتدل على أن اختصاص أولياء الله بأنه لا خوف عليهم، فيبطل قول المجبرة أن كثيرًا من الأعداء هذا حالهم.

وتدل على أن تلك الحالة تُنَالُ بفعل الواجبات واتقاء المعاصي، فيبطل قول المرجئة.

وتدل على أنه لا يجوز خلف الوعيد؛ لأنه تبديل لكلامه، خلاف ما تقوله جماعة من المرجئة[٢].

---

(١) بالجنة عن الأصم: + ، ض.

(٢) وتدل على أنه . . . من المرجئة: + ض.

وتدل على بشارة النبي ﷺ بأن الظفر له ولأتباعه، وأن أقوال الكفار تبطل، وتضمحل.

وتدل على أن الإيمان والتقوى فعلهم، فيبطل قول مخالفينا في المخلوق.

قوله تعالى:

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾﴾

القراءة

قراءة العامة: «**وما يتبع الذين يدعون**» بالياء على الخبر، وعن السلمي: «**تَدْعُونَ**» بالتاء على الخطاب.

اللغة

الاتباع: طلب اللحوق بالأول. والمُبْصِرُ: أصله الذي يبصر، ثم جعل النهار مبصرًا؛ لأنه يُبْصَرُ فيه توسعًا ومبالغة، كما يقال: ليل نائم، وشر كاتم، وماء دافق، وعيشة راضية، قال رؤبة:

فَنَامَ لَيْلِي وَتَجَلَّى هَمِّي[1]

وقال جرير:

لَقَدْ لُمْتِنَا يَا أُمَّ غَيْلَانَ فِي السُّرَى ... وَنِمْتِ وَمَا لَيْلُ المَطِيِّ بِنَائِمِ[2]

وقال قطرب: أظلم الليل، وأضاء النهار، أي: صار ذا ظلمة وضياء.

والخَرْصُ والحَزْرُ والتقدير نظائر.

---

(١) تمام البيت: وَقَدْ تَجَلَّى كُرَبُ المُخْتَم. انظره في: الإيضاح ٣٢، للخطيب القزويني، دار إحياء العلوم ـ بيروت ـ ط٤ ـ ١٩٩٨م، ودلائل الإعجاز ٢٢٧، لعبد القاهر الجرجاني، دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٩٥م، ت: د محمد التنجي.

(٢) انظره في: اللسان (ربح).

الإعراب

(ما) في قوله: «**وما يتبع**» يحتمل وجهين:

الأول: أن يكون (ما) الاستفهام بمعنى (أي) كأنه قيل: أي شيء يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء؟ تقبيحا لفعلهم.

الثاني: بمعنى النفي كأنه قيل: ما يتبعون شركاء في الحقيقة.

واللام في قوله: «**لتسكنوا**» معناه الغرض الذي وقع الفعل لأجله، فخلق الليل لتسكنوا، وليزول التعب والكلال، وخلق النهار ليهتدوا في حوائجهم.

و(مَنْ) يتناول مَنْ يعقل، و(ما) يتناول ما لا يعقل، ثم يستعمل أحدهما في موضع الآخر، و(من) تَعُمُّ في الاستفهام والجزاء.

المعنى

لما تقدم أن العزة لله، وأنه القادر على إنجاز وعده ووعيده، حقق ذلك ودل عليه ملك السموات والأرض، فقال سبحانه: «**أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ**» كلهم ملكه وخلقه وعبيده، يجري حكمه فيهم، وينفذ قهره على جميعهم «**وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ**» أراد: أنهم[1] ليسوا في عبادتهم للأوثان وزعمهم أنهم شركاء على شيء، وقيل: ما الذي يدعوهم إلى ذلك، عن الأصم. وقيل: ما يتبعون في ذلك علمًا ومعرفة، عن أبي علي. «**إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ**» يعني يتبعون الظن فيما يدينون به دون الحقيقة والعلم، وهو قولهم للأوثان: آلهة، فاتبعوا هذا الظن، الكاذب، وقيل: ظنهم أنها تشفع لهم يوم القيامة، ثم بين أنه لا حكم لهذا الظن فقال تعالى: «**وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ**» أي: يكذبون «**هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا**» يعني خلق الليل لسكونكم وراحتكم، وليزول عنكم التعب، فكأنه يلبسكم بظلمته دعة وراحة «**وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا**» فيبصرون فيه، ويهتدون لحوائجهم بالأبصار «**إِنَّ**

(١) أراد أنهم: إرادتهم، ض.

«فِي ذَٰلِكَ» فيما تقدم «لَآيَاتٍ» لحجج[1] على توحيد الله من حيث لا يقدر أحد على ذلك «لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ» الحجج سماع تدبر وتفهم.

۞ الأحكام

تدل الآية على أن جميع ما في الأرض والسماء ملكه وخلقه، وأن القدرة والعزة له.

وتدل على أن اتباع الظن في أصول الدين مذموم، وأنه طريقة عَبَدَةِ الأوثان.

وتدل على فساد التقليد؛ لأنه ظن.

وتدل على وجوب النظر.

وتدل على أن المعارف ليست ضرورية؛ لأنه نسبهم إلى الظن، وإلى التخرص.

قوله تعالى:

﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَٰذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦٨) قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ (٦٩) مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٧٠)﴾

۞ اللغة

السلطان: الحجة القاهرة، وأصله: التسليط، وهو القهر.

والمتاع: ما ينتفع به من أثاث وغيره.

المرجع: المصير إلى الشيء بعد الذهاب عنه.

۞ الإعراب

«قل» أصله من القول أُقْوُل، نقلت الضمة من الواو إلى القاف، وسقطت ألف الوصل لتحرك ما بعدها، وذهبت الواو لالتقاء الساكنين، وإنما نقلت الضمة إلى القاف

---

(١) لحجج: +، ض.

من الواو لثقل الضمة على الواو؛ لأنه بمنزلة التضعيف. و(إنَّ) إذا جاء بعد «القول» يكون بالكسر؛ لأنه يستأنف الإخبار به.

ويقال: ما العامل في قوله: «**متاع في الدنيا**»؟

قلنا: الابتداء الذي حذف منه الاسم، وبقي الخبر بتقدير: ذاك متاع، أو هو متاع، ويجوز: لهم متاع.

۞ النزول

نزلت الآية في فريقين: أحدهما: الذين قالوا: الملائكة بنات الله من مشركي العرب، والآخر: الذين قالوا: المسيح ابن الله من النصارى، وقيل: إنهم لم يقولوا: إنها بنات الله على سبيل الولادة.

قال الأصم: مشركو العرب قالوا: الملائكة بنات الله، يعني جعلهم بمنزلة البنات على سبيل الولادة، وكذلك قالوا في أوثانهم.

فأما النصارى فهم ثلاث فرق بينهم اختلاف كبير: اليعقوبية، والنسطورية، وأهل دين الملك، وكلهم اتفقوا أنه ثالث ثلاثة، وأنه جوهر واحد ثلاثة أقانيم، وأن[1] أقنوم الابن اتحد بعيسى، والابن ليس على جهة الولادة، ولكن كضوء الشمس من الشمس.

۞ المعنى

ثم حكى عن صنف من المشركين قولهم باتخاذ الولد، ونزه نفسه عن ذلك، فقال سبحانه: «**قَالُوا**» يعني المشركين من قريش والنصارى «**اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا**» قول النصارى: إنه جوهر واحد، ثلاثة أقانيم، أقنوم الأب، وأقنوم الابن، وروح القدس. ثم اتحد الابن المسيح. ومنهم من قال: اتخذ ابنًا على جهة التبني، وهو قول القرامطة، وكلا القولين باطل؛ لأنه لما استحال فيه حقيقة الولد استحال التبنِّي «**سُبْحَانَهُ**» أي: هو منزه مبرأ عن ذلك «**هُوَ الْغَنِيُّ**» يعني أن الولد إنما يتخذه من تجوز

---

(١) وأن: فإن، ض.

عليه الحاجة، والله يتعالى عن الحاجة؛ لأنه[1] الغني «**لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ**» ملكًا وخلقًا «**إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا**» أي: حجة على صحة قولهم، وهذا استفهام، والمراد الإنكار أي: لا حجة لكم على ما قلتم، وقيل: (من) صلة، تقديره: هل عندكم سلطان، وقيل: (مِنْ) للتبعيض أي: هل حجة من بعض الحجج التي تصح بها المسائل «**أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ**» يعني قالوا ذلك بغير علم.

ثم بَيَّنَ ما أوعدهم به، فقال سبحانه: «**قُلْ**» يا محمد «**إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ**» يكذبون[2] «**عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ**» يعني لا يظفرون ببغية، ولا ينجون من هلكة، وقيل: معناه لا يؤمنون «**مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا**» يعني إنما دعاهم إلى الافتراء على الله طلب الرئاسة، وتقليد الرؤساء، وطلب الدنيا، وقيل: بقاؤهم في نعم الدنيا متاع قليل، عن أبي علي. يعني أن جميع ما هم فيه من أسباب الدنيا شيء يتمتعون به في الدنيا إلى وقت انقضاء أجلهم «**ثُمَّ**» بعد ذلك «**إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ**» أي: مصيرهم إلى حكمنا «**ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ**» وهو عذاب النار «**بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ**» في الدنيا.

ومتى قيل: لِمَ جاز أن يمتعوا في الدنيا دون الآخرة؟

قلنا: لأن الدنيا دار تكليف وعمل، وإمتاعهم استصلاح وتمكين، والآخرة دار جزاء ولا يعطى إلا المستحق.

۞ الأحكام

تدل الآية أن قومًا قالوا هذه المقالة، وأنها باطلة.

وتدل على صحة الحجاج في الدين وطلب المُبْطِلِ تنزهًا وتنبيهًا له على بطلان ما هو عليه.

وتدل على أن القوم جهلوا الحق، فيبطل قول أصحاب المعارف.

---

(١) لأنه: أنه، ض.

(٢) يكذبون: + ، ض.

وتدل على قبح القول في الديانات بالظن، فتدل على وجوب النظر ليستدرك العلم.

وتدل على أن الافتراء فعلهم، ليس بخلق لله تعالى.

قوله تعالى:

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾﴾

القراءة

قرأ القراء: «فَأَجْمِعُوا» بقطع الألف وكسر الميم، من أجمع يجمع، وقرأ الأعرج والجحدري ونافع فيما يروي عنه الأصمعي موصولة مفتوحة الميم من الجمع اعتبارًا بقوله: ﴿فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ﴾ [طه: ٦٠].

وقرأ يعقوب: «شركاؤكم» رفعًا، وهي قراءة الحسن وابن أبي إسحاق وسلام القاري، على معنى: فأجمعوا أمركم أنتم وشركاؤكم، أي: ليجمع معكم شركاؤكم، وقرأ القراء السبعة بنصب الشركاء، وهو اختيار أبي عبيد وأبي حاتم على معنى: فأجمعوا شركاءكم لموافقة المصحف؛ لأنه ليس في المصحف واو.

وقراءة العامة: «ثم اقضو» بالقاف، وحكى الفراء عن بعضهم أنه قرأ بالفاء **(ثم افضوا)** بمعنى: توجهوا حيث تصلوا إِلَيَّ، من قوله: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا۟﴾ [البقرة: ١٩٩][(١)].

اللغة

الكِبَرُ: نقيض الصغر، والكِبَر: تعظيم الشيء، والكبر: الهرم، والكِبْر بسكون الباء وكسر الكاف: العظمة والكبرياء، وأكبرت الشيء: استعظمته، ومنه: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ

(١) معاني القرآن للفراء ٢/ ١٤٤.

أَكۡبَرۡنَهُۥ﴾ [يوسف: ٣١] ومنه: ﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ﴾ [النور: ١١] أي: معظمه، والكبر أيضًا الإثم.

ويقال: أجمعت على الأمر وأجمعت الأمر إذا عزمت، قال الشاعر:

يَا لَيْتَ شِعْرِي والـمُنَى لاَ تَنْفَعُ ... هَلْ أَغْدُونَ يَوْمًا وأَمْرِي مُجْمَعُ

قال المؤرج: أجمعت الأمر أفصح من أجمعت عليه، وجمعت الشيء أَجْمَعُهُ، وقيل: جمعت وأجمعت بمعنى واحد، قال أبو القاسم[1]: أجمع أمره إذا جعله جميعًا بعدما كان متفرقًا.

والغمة: ضيق الأمر الذي يوجب الحزن، وهو الكربة، ونقيضه: الفرحة، وقيل: غمه مغطى يغطيه خبره من غم الهلال: إذا حال دونه غيم[2]، قال رؤبة:

بَلْ لَوْ شَهِدْتَ النَّاسَ[3] إِذْ تُكُمُّوا ... بِغُمَّةٍ لَوْ لَمْ تُفَرَّجْ غُمُّوا[4]

وسمي الغمام؛ لأنه يغم السماء أي: يسترها، والغَمُّ لاشتماله على القلب، يقال: غممت الشيء: إذا سترته.

والقضاء: أصله إحكام الشيء وإمضاؤه، والفراغ منه على التمام، ومنه سمي القاضي؛ لأنه إذا حكم فقد فرغ بين الخصمين، والقضاء بمعنى الخلق من ذلك قوله سبحانه: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِى يَوۡمَيۡنِ﴾ [فصلت: ١٢]، وقضى: حَكَمَ وأوجب كقوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣] وقضى أعلم كقوله: ﴿وَقَضَيۡنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ [الإسراء: ٤] أي: أعلمناهم.

الإعراب

«شركاءكم» نصب والعامل فيه، قيل: محذوف، وتقديره: ادعوا شركاءكم، عن الفراء[5]. قال الشاعر:

---

(١) أبو القاسم: أبو الهيثم، ض.
(٢) غيم: + ض.
(٣) الناس: للناس، ض.
(٤) انظره في الصحاح (كمم)، واللسان (كمم)، ونسب فيهما للعجاج.
(٥) معاني القرآن للفراء ٢/ ١٤٤.

يَــالَــيْــتَ زَوْجَــكِ قَــدْ غَــدَا مُــتَــقَــلِّــدًا سَــيْــفًــا وَرُمْــحَــا[1]

أي حاملاً رمحًا.

وقيل: نصب لأنه مفعول معه، كقولك: مع شركائكم، عن الزجاج[2]، كأنه حذف (مع) ووضع الواو موضعه، فتعدى إليه الفعل فنصبه.

«لا يكن» جزم لأنه عطف أمر معطوف على قوله: «فأجمعوا»، وهو أمر.

۞ النظم

قيل: قوله: «واتل» عطف بالواو على ما أمر الله تعالى نبيه ﷺ من محاجة الكفار، كقوله: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم﴾ [يونس: ٣١] ﴿قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ﴾ [يونس: ٣٨] وسائر ما تقدم، ثم قال: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ﴾ أيضًا[3]، عن أبي مسلم.

وقيل: يتصل بما قبله[4] بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [يونس: ٦٩] كما لم يفلح قوم نوح، واتل عليهم نبأهم.

۞ المعنى

«وَاتْلُ» أي: اقرأ يا محمد «عَلَيهِمْ» على مشركي قريش، وأهل مكة «نَبَأَ نُوحٍ» أي: خبره «إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ» الذين بُعِثَ إليهم «يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ» أي: شق وعظم عليكم «مَقَامِي» بينكم بهذا الدين والرد عليكم عبادة الأصنام «وَتَذْكِيرِي» وعظي وتنبيهي إياكم «بِآيَاتِ اللَّهِ» أي: حججه وبيناته على صحة التوحيد والعدل، وبطلان ما تدينون به، قيل: في الكلام محذوف وهو: وعزمتم على قتلي أو طردي من بين أظهركم «فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ» في ذلك، وبه أثق أن يكفي أمركم «فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ» أي: اعزموا عليه وأعدوا له، وهذا تهديد وليس بأمر، وقيل: اتفقوا في أمركم، ولا تتوانوا فيه «وَشُرَكَاءَكُمْ» قيل: وادعوا

---

(١) لعبد الدين الزبعري. انظره في اللسان (مسح)، وتاج العروس (مسح).

(٢) معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٣/ ٣٨.

(٣) أيضًا: ـ ، ض.

(٤) بما قبله: + ، ض.

شركاءكم، وكذلك في مصحف أُبَي: (ادعوا شركاءكم)، وهو محمول على أنه فسر به، فبين ﷺ أنه لا يرتدع عن دعائهم، وعيب آلهتهم، ويستعين بالله عليهم، فافعلوا ما شئتم، وادعوا شركاءكم، فإن الله تعالى يعصمني منكم، والشركاء قيل: الأوثان التي عبدوها من دون الله، عن الأصم، وأبي علي. وقيل: من شاركهم في دينهم، عن أبي مسلم. «**ثُمَّ لاَ يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً**» قيل: خفيًّا ملتبسًا مبهمًا، وقيل: لا يكن أمركم عليكم غمًّا وحزنًا في صدوركم بأن تترددوا فيه، فيكون ذلك غمًّا في صدوركم، عن أبي مسلم. وقيل: لا يكن أمركم من غير مشورة، وقيل: لا يكن اجتماعكم سرًّا بل أعلنوه وأظهروه، عن الأصم. «**ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ**» قيل: [في أنفسكم، وقيل: أعلموني بأمر ما عندكم من قوله: ﴿وَقَضَيْنَآ﴾ وقيل: توجهوا إليّ «**وَلا تُنْظِرُونِ**» ولا تمهلون، وهذا ليس بأمر، وإنما هو تعجيز، كأنه يقول افعلوا جميع ذلك، فلن تصلوا إليّ، وقيل: هو تهديد ووعيد، وقيل: لا تؤخروني في الإخبار، إما بإقبال أو إعراض، عن أبي مسلم. «**فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ**» أعرضتم عني وأبيتم القبول مني «**فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ**» أي: ليس إعراضكم لغرم ألزمكم بل لسوء اختياركم، وقيل: إعراضكم يضركم، ولا يضرني؛ لأني لا أسألكم شيئًا، فيفوتني، وقيل: ما سألتكم أجرًا على أداء الرسالة «**إِنْ أَجْرِيَ**» أي: ثوابي «**إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ**» في خاصتي «**أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ**» المنقادين لأمره «**فَكَذَّبُوهُ**» يعني كذبوا نوحًا في جميع ما دعاهم إليه «**فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ**» أي: السفينة، وقيل: كانوا ثمانين نفسًا، وهلك أهل الأرض جميعًا سواهم «**وَجَعَلْنَاهُمْ خَلائِفَ**» أي: سكان الأرض خلفًا عن الهالكين «**وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا**» يعني قوم نوح كذابوا بالحجج «**فَانْظُرْ**» يا محمد، وقيل: فانظر أيها السامع، وقيل: فتفكر «**كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ**[1]» يعني: الكفار، أنذروا بالعقاب.

الأحكام

تدل الآية على محاجة نوح قومه.

وتدل على أن الأنبياء لا يجوز عليهم التقية، وإن أفضى بهم إلى مكروه.

(١) المنذرين: المفسدين، ش.

وتدل على أن المؤمن ينبغي ألاّ يخضع لعدوه، بل يتوكل على ربه في أمره، وفيه تسلية للنبي ﷺ من تكذيب قومه، والأمر بالصبر، فإن العاقبة له كما كانت لنوح.

وتدل على حال قوم نوح في الغرق ليعتبر به، فلا نسلك طريقتهم.

وتدل على وجوب النصيحة، وإن لم تُقْبَلْ، وتلقي الأذى.

وتدل على معجزة لنوح؛ لأنه أخبرهم أنهم لا يصلون إليه، وإن احتالوا واجتمعوا، فكان كما أخبر.

وتدل على أن التكذيب حادث من جهتهم، فتدل على بطلان قول من خالفنا في خلق الأفعال.

قوله تعالى:

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾

القراءة

قرأ أبو بكر عن عاصم: «**ويكون لكما الكبرياء**» بالياء على أن المراد الكبر، والباقون بالتاء للفظ.

اللغة

الطبع: الخَتْمُ، وهو جعل الشيء على صفة غيره لمعنى فيه، والطابع: الخاتم، يختم به، والطَّبَعُ بفتح الباء: الدنس، وطبع الرجل: إذا لم يكن له في الأمر نفاذ،

وأصل الطبع في اللغة: من الوسخ والدنس[1] من الآثام والأوزار، كأنه يحصل في قلبه من ذلك شبه وسخ.

والجرم: الذنب، والمجرم: المذنب، وأصله: القطع، يقال: جَرَمَ التَّمْرَ يجرمه جرمًا، وهو جارم، وفلان جريمة أهله، أي: كاسبهم، ولا جرم، أي: لا بد قطعًا، قال الشاعر:

وَلَقَدْ طَعَنْتُ أَبَا عُيَيْنَةَ طَعْنَةً ... جَرَمَتْ فَزَارَةُ بَعْدَهَا أَنْ يَغْضَبُوا[2]

أي: حملتهم على الغضب لقطعها إياهم إليه.

والجِرْمُ بالكسر: الجسم المتقطع عن غيره، والجَرْمُ بالفتح: الصوت المنقطع لجهارته عن غيره، والجرم بالضم: الذنب الذي يوجب قطع صاحبه عن الخيرات.

واللفت: اللي، وهو الصرف عن أمر، لَفَتَهُ يلفته لفتًا، ولفت عنقه أي: لواه، ولفت فلانًا عن رأيه صرفته عنه، وامرأة لَفُوتٌ: لها زوج ولها ولد من غيره، فهي تلتفت إلى ولدها.

۞ الإعراب

(ثم) للعطف يعطف قصة على قصة، وتقديره: اتل عليهم نبأ نوح، فإنا بعثناه فقال لقومه، ثم بعثنا من بعده، عن أبي مسلم.

«موسى» وزنه «مُفْعَل»؛ لأنه محمول على قياس العربية، وزيادة الميم أولاً أكثر من زيادة الألف أخيرًا، وكذلك زيادة الهمزة. فأبقى أفعل لهذه العلة.

ويقال: ما الفرق بين «لَمَّا وإذا؟»

قلنا: (لما) تدل على ما مضى، و(إذا) لما يستقبل، كحرف الجزاء.

والألف في قوله: «**أتقولون**»، «**أسحر**» ألف استفهام، والمراد به التقريع على

---

(١) وطبع الرجل إذا. . . والدنس: ـ ، ض.

(٢) انظره في تهذيب اللغة (جرم)، وجمهرة اللغة (جرم).

الحذف، تقديره: أتقولون للحق لما جاءكم: هذا سحر، أسحر هذا، فحذف السحر الأول لدلالة الكلام عليه، عن أبي مسلم وغيره.

الثاني: على التكرير كقولك: أتقول: أعندك مال.

الثالث: أن يكون حكاية قولهم، تقديره: أتقولون: أسحر هذا؟ لأن القوم لما رأوا الآيات قالوا: أسحر هذا؟ فحكى الله تعالى قولهم.

والألف في قوله: «**أجئتنا**» ألف استفهام، والمراد الإنكار على طريق الحجاج.

۞ المعنى

ثم بَيَّنَ تعالى قصة مَنْ بعثه بعد نوح، فقال سبحانه: «**ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ**» أي: من بعد نوح «**رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ**» أي: كل رسول إلى قومه «**فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ**» بالحجج والمعجزات، وقيل: بالأمر والنهي، وبيان الشرائع «**فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ**» أي: لم يكونوا يصدقون بما كذبت به أوائلهم، وقيل: لم يكن منهم من يؤمن به بعد هذه الآيات، بما كذبوا به من قبلها، بل كانت الحالتان سواء عندهم قبل البينات وبعدها، عن أبي مسلم، وقيل: ما كان أمم هؤلاء الرسل كلهم ليؤمنوا بما كذب به قوم نوح، عن أبي علي، وقيل: فما كانوا ليؤمنو أبدًا بما كذبوا في ابتداء حال الرسل خبرًا، وكان هذا خبرًا[1] عن حال المعذبين؛ لأن من الأمم من آمن، عن الأصم «**كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ**» يعني نختم، وهو سمة أهل الكفر والضلال، وهي العلامة التي نعلمها في قلوب الكافرين، عن أبي علي، وقيل: نخلي بينهم وبين اختيارهم، فصار ذلك الكفر والرد على الرسل طبعًا، وعادة لهم شق عليهم أن يفارقوه، عن أبي مسلم، وقيل: نطبع بالإهلاك حتى لم يسمعوا، ولم يفهموا، كما فعل بأولئك «**الْمُعْتَدِينَ**» قيل: المجاوزين للحد في العصيان، وقيل: المجاوزين من الحلال إلى الحرام، «**ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ**» من بعد الرسل، ويحتمل بعد الأمم «**مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَإِهِ**» قيل: أشراف قومه، وقيل: جماعة أنصاره وأتباعه «**بِآيَاتِنَا**» بحججنا

---

(١) خبرا: لخبرًا، ض.

«**فَاسْتَكْبَرُوا**» أي: طلبوا الكبر فتكبروا عن قبول الحق «**وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ**» عاصين لربهم «**فَلَمَّا جَاءَهُمُ**» يعني قوم فرعون «**الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا**» يعني ما أتى به موسى من الآيات «**قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ**» أمر مموه لا أصل له «**مُبِينٌ**» ظاهر «**قَالَ مُوسَى**» لهم «**أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا**» يعني كيف تقولون للمعجزات إنها سحر؟ والسحر باطل، والمعجز حق، وهما متضادان؛ لأن قلب الجماد حيوانًا[1] لا يدخل في حد السحر، ولا مقدور البشر، فلا يكون سحرًا، بل يكون معجزة على صدق من أتى به «**وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ**» قيل: لا يظفرون بحجة، ولا يأتون على ما يدعونه ببينة، وإنما هو تمويه على الضعفة «**قَالُوا**» يعني فرعون وقومه لموسى «**أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا**» لتصرفنا «**عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا**» من الدين «**وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ**» أي: لموسى وهارون ـ عليهما السلام ـ «**الكبرياء**» قيل: المُلْكُ، عن مجاهد، وقيل: العظمة، وقيل: السلطان «**فِي الْأَرْضِ**» قيل: أرض مصر، وقيل: أراد الجنس «**وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ**» أي: مصدقين بأنكما صادقان.

۞ الأحكام

تدل الآية على أن هارون مبعوث إليهم كموسى.

ومتى قيل: إذا أتى بالمعجز موسى، فما برهان هارون؟

قلنا: يحتمل وجهين:

أحدهما: أن المعجز ظهر عليهما.

والثاني: بالمعجزة تصح نبوة موسى، ثم هو يخبر بأن هارون رسول معه، والأول أوجه.

وتدل على وجوب النظر؛ لذلك ذمهم بترك النظر في المعجزات، ونسبة المعجز إلى السحر، كما قاله قريش، والعرب في القرآن.

ويدل قوله: «**أجئتنا**» على بطلان التقليد، وأن تعللهم بالآباء واتباعهم شبهة فاسدة.

---

(١) قلب الجماد حيوانًا: قلب الحيوان جمادًا، ش.

وتدل على أن التكذيب، والاستكبار، والإجرام، والأقوال الفاسدة فِعْلُهُمْ، لتفيد البعثة، فيصح قولنا في المخلوق.

ويقال: كم شرطا في المعجز؟

قلنا: أربعة: أن يكون فعل الله غير مقدور للبشر، وأن يكون عقيب الدعوى، وأن يكون ناقضًا للعادة، وأن يكون مع بقاء التكليف.

ويقال: ما الفرق بين المعجز والشعبذة؟

قلنا: فيه وجوه كثيرة: منها أن الشعبذة يعلم أصلها، ولا تخفى على ذي اللب، ويقدر غيره على مثلها، بخلاف المعجز.

قوله تعالى:

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾﴾

القراءة

قرأ أبو جعفر وأبو عمرو «**ما جئتم به آلسحر**» بقطع الألف ومدها على الاستفهام، وهو قراءة مجاهد، وقرأ الباقون «**السحر**» موصولة على الخبر[1]، ودليله قراءة ابن مسعود «**ما جئتم به سحر**» من غير ألف ولام.

اللغة

الإلقاء: إخراج الشيء من اليد إلى الارض، ونظيره: الطرح، هذا أصله، ثم يستعمل في غيره توسعًا، فيقال: ألقيت عليه مسألة، وألقى إليه خبره.

وإحقاق الحق: إظهاره، وتمكنه بالدلائل؛ حتى لا يبقى مطعن لطاعن فيه.

---

(١) حجة القراءات ٣٣٥.

❁ الإعراب

«فرعون» لا ينصرف؛ لأنه أعجمي معرفة، وهو منقول من حال تعريفه، ولو نقل في حالة تنكيره انصرف «كياقوت»، ووزنه «فِعْلَوْل»، الواو زائدة؛ لأنها لحقت بعد سلامة الثلاثة، ومثله: قَرْقُوس.

و(ما) في قوله: «**ما جئتم به السحر**» على مذهب من قرأ «**السحر**» بالمد على الاستفهام، فهو (ما) للاستفهام، كأنه قيل: أي شيء جئتم به؟ أسحرا جئتم، وعلى قراءة من قرأ على الخبر هو بمعنى (الذي)، كأنه قيل: الذي جئتم به السحر، وأدخل الألف واللام في السحر؛ لأن الكلام خرج على معهود، وقد عرفه المخاطب، قيل: ولا يجوز حذفه؛ لأنه يكون خبرًا عن شيء غير معروف، وتقديره: السحر الذي كنتم تقولون ما جئتم به لا ما جئت به، فعرف بالألف واللام، وكل حرف نكرة ذكره متكلم، فردت على النكرة لفظها في جواب المتكلم ردت به الألف[1] واللام كقولك لرجل: وجدت درهمًا، فيقول: أرني الدرهم، وأي الدرهم، وقيل: يجوز حذف الألف واللام، وهو قراءة ابن مسعود، كأنه قيل: ما جئتم به سحر من الأسحار.

❁ المعنى

ثم بَيَّنَ ما جرى بين موسى (عليه السلام)، وبين فرعون من الجدال، فقال سبحانه: «**وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ**» في سحره، وإنما طلبهم للتعاون على دفع ما أتى به موسى، وطلب[2] كلهم كي لا يفوته سحر ما، وإنما فعل ذلك للجهل؛ لأن ما أتى به موسى من عند الله فليس بسحر، وبعد ذلك علم أنه ليس بسحر فعاند، كما قال تعالى: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَـٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢] وقيل: علم أنه ليس بسحر، ولكن ظن أن السحر يقارنه مقارنة بسببه، وقيل: بل لبس على قومه، «**فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ**» في الكلام حذف يدل عليه الظاهر، تقديره: فلما أتوه بالسحرة وبالحبال والعصي «**قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ**» قيل: اطرحوا ما جئتم

---

(١) الألف: للألف، ض.

(٢) وطلب: فطلب، ض.

به، وقيل: قولوا ما أنتم قائلون، وافعلوا ما أنتم فاعلون، عن أبي مسلم، وهذا ليس بأمر بالسحر وإلقائه، ولكن تَحَدٍّ وإلزام، كأنه قيل: من كان عنده ما يقاوم ما جئت به، فليلقه، وقيل: معناه ألقوا إن كان حقًا فهو في الحقيقة نهي عن الإلقاء، وقيل: هو أمر بالإلقاء ليظهر بطلانه، فهو حسن «**مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ**» يعني ألقوا جميع ما أنتم ملقون في المستقبل، فأكده بقوله: «**مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ**»، ولو اقتصرعلى (ألقوا) ما أفاد هذا المعنى، «**فَلَمَّا أَلْقَوْا**» ما عملوا من السحر والحبال والعصي «**قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ**» على قراءة أبي عمرو، وأي شيء جئتم السحر جئتم، وعلى القراءة الأخرى الذي جئتم به هو سحر، وقيل: معناه ما جئتم به السحر، لا ماجئت به «**إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ**» يعني يظهر للناس بطلانه، وقيل: يهلكه «**إِنَّ اللَّهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ**» لا يصلح بالفساد أهله، ولا يصلح به أمرهم، عن الأصم، وقيل: لا يصلح عمل الفساد، فلا يصلح أعمال السحرة؛ لأنهم مفسدون، عن أبي علي «**وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ**» أي: يظهر الله الحق ويحققه، وقيل: بما ظهر على يد موسى وظفره، وقيل: بغرق فرعون، و«**الحق**» قيل: هو الدين والإسلام والقرآن، عن الأصم، وقيل: المعجزة فَحَقَّقَهُ بأن أَظْهَرَ المعجزة وأبطل السحر، وقيل: حقق نبوة موسى «**بِكَلِمَاتِهِ**» وقيل: بوعده لموسى، وكان وعده النصر فأنجز وعده، عن الحسن، وقيل: هو القرآن فعلى هذا كأنه اعتراض من كلام الله تعالى يقول كما فعل بأولئك يحقق نبوة محمد والقرآن، وقيل: بكلامه الذي يبين به معاني الآيات التي آتاها نبيه ﷺ، عن أبي علي، وقيل: لما سبق من حكمه في اللوح المحفوظ، بأن ذلك يكون «**وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ**» يعني لو كره الكافرون ظهور الحق، وإبطال الباطل.

۞ الأحكام

تدل الآيات على أن فرعون لما دهمه ذلك الأمر تحير، فعاب موسى ونسبه إلى السحر، وأنه استعان بالسحرة ليعارضه، وكان يدعي أنه إلههم، ثم التجأ إليهم، وكل ذلك يدل على أن الباطل أبدًا يتناقض.

وتدل على أنه تعالى يحقق الحق وينصره ويؤيده، وذلك بوجهين: أحدهما:

بالحجة فيسمى النصرة، والثاني: بالغلبة والقهر فيختلف بالمصلحة، وإن كانت العاقبة للمتقين.

وتدل على أنه لا يخلق الفساد؛ لأنه إذا كان لا يصلح عمل المفسدين، فكيف يقال: كل[1] فساد في العالم منه، ومن خلقه وقضائه.

وتدل على أن ما فعلوه فِعْلُهُم، فيبطل قولهم في المخلوق.

وتدل على إثبات كلمات الله، وفي ذلك دلالة الحدث.

وتدل على أن كلماته حجة، فتدل على وجوب النظر والتدبر، وفساد التقليد.

قوله تعالى:

﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾

اللغة

الذرية: الجماعة من نسل القبيلة يدخل فيه الصغار والكبار، وقيل: الذرية الصغار، سمي بذلك تشبيهًا بالذر، وقيل: هو من «ذرأ الله الخلق»، وقيل: من الذر، وقيل: من الذرور، ومنه: ﴿تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ﴾ [الكهف: ٤٥]، والجمع ذراري، فإن قلنا: إنه من الذر، فوزنه «فُعْلِيَّة»، كقولهم: «مُرْنِيَّة».

والفتنة: أصلها الامتحان، وهو معاملة تظهر الأمور الباطنة، ثم سمي الكفر فتنة؛ لأنه المحنة التي تصرف عن الدين، وقد يكون ذلك بالهوى وبالإكراه، وبالشبه الداعية إلى الضلال.

---

(١) كل: فكل، ض.

والعلو: عظم الشأن.

والإسراف: مجاوزة الحد.

والنجاة: الخلاص مما فيه المخالفة، ونظيره: السلامة، ونقيضه: الهلاك.

الإعراب

«**يا قوم**» حذفت ياء الإضافة اجتزاء بكسرة الميم، وهو في النداء أحسن من إثباتها لقوة النداء على التعيين.

والفاء في قوله: «**فقالوا**» فاء عطف، وجواب الأمر على طريقة: قال السائل: كذا، فقال المجيب: كذا.

والضمير في قوله: «**ملائهم**» قيل: يعود على قوم فرعون، وقيل: على ذريته.

«**لَعَالٍ**» رفع لأنه خبر (إن)، إلا أنه من بنات الياء، فلا يظهر فيه الرفع كقولهم: إن زيدًا لقاضٍ.

المعنى

ثم بَيَّنَ تعالى من آمن منهم، فقال سبحانه: «**فَمَا آمَنَ لِمُوسَى**» أي: لم يُصَدِّقْ موسى فيما ادعى من النبوة مع ما أتى به من المعجزات الظاهرة «**إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ**» أولاد «**مِنْ قَوْمِهِ**» قيل: من قوم فرعون، فالهاء من (قومه) يعود إليه، وقيل: بل يعود على موسى يعني ذرية من قوم موسى، ومن قال بالأول اختلفوا، فقيل: هم قوم كان أمهاتهم من بني إسرائيل، وآباؤهم من القبط، اتبعوا أمهاتهم وأخوالهم، عن ابن عباس، والفراء[1]، وقيل: هم ناس سَبْيٌ من قوم فرعون آمنوا، منهم امرأة فرعون، ومؤمن آل فرعون، وجارية، وامرأة وهي مشاطتها، عن عطية، عن ابن عباس، وقيل: لأن موسى مكث أيامًا يدعو القبط، فلم يؤمنوا، ثم آمن بعض أولادهم. ومن قال بالثاني اختلفوا، فقيل: أولاد الذين أرسل إليهم مؤمنون، فلم يستجب[2] الآباء وآمن الأبناء، وطال الزمان، فهلك الآباء، وبقي الأبناء، عن مجاهد، وقيل: هم من بني إسرائيل

(١) معاني القرآن للفراء ٢/ ١٤٧.

(٢) يستجب: يستجيب، ض.

أخذهم فرعون لتعلم السحر، وجعلهم من أصحابه، فآمنوا بموسى، عن أبي علي، وقيل: أراد موسى بني إسرائيل، عن ابن عباس، والأصم، وأبي مسلم، قال ابن عباس: كانوا ستمائة ألف، وكان يعقوب عليه السلام رحل[1] باثنين وسبعين إنسانًا، فتوالدوا حتى بلغوا ستمائة ألف، وإنما سماهم ذرية على وجه التصغير، قيل: لقلتهم، وقيل: لضعفهم «عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ» يعني: آمنوا، وهم خائفون من معرة فرعون «وَمَلَإِهِمْ» من رؤسائهم وأشرافهم، يعني: أن خوفهم لم يكن من فرعون وحده، واختلفوا في ملائهم فقيل: ملأ الذرية، فالذرية من بني إسرائيل، والملأ منهم، إلا أنهم كانوا موافقين لفرعون، عن أبي مسلم، وقيل: ملأ فرعون؛ لأنه ملك يذكر بأتباعه، عن الفراء[2]، وقيل: الضمير يعود إلى آل فرعون لأنه معلوم كقوله: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢] «أَنْ يَفْتِنَهُمْ» قيل: يصرفهم عن الدين، فبين أن خوفهم كان لأجل الدين، وقيل: يعذبهم، عن الأصم، وقيل: كان جنود فرعون يعذبون بني إسرائيل فكان خوفهم منه ومنهم، وقيل: يقتلهم «وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ» متكبر عظيم الشأن «وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ» المجاوزين للحد في العصيان؛ لأنه ادعى الربوبية، وهو عبد مخلوق مربوب، وقيل: أسرف في القتل والظلم «وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ» يعني من آمن به «إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ» قيل: صدقتم فيما جاءكم من عنده، وقيل: إن كنتم صدقتم أنه الإله دون فرعون والأوثان، عن الأصم «فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا» اتقوا بحسن تدبيره، وفوضوا الأمر إليه عند نزول البلاء، فهو الكافي لفرعون ولغيره «إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ» منقادين لأمره، وإنما أعاد ذكر الإسلام مع تقديم الإيمان لبيان اجتماع الصفتين: التصديق والانقياد، وقيل: معناه إن كنتم آمنتم به، فاستسلموا لأمره، «فَقَالُوا» عند ذلك رجوعًا إلى ما أمرهم به موسى عليه السلام «عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ» قيل: لا تجعلنا مفتونين بهم، يعني اعصمنا منهم، والمصدر يذكر ويراد به المفعول كالخلق والمخلوق، عن أبي مسلم، وقيل: لا تظهرهم علينا، فيروا أنهم خير منا، عن أبي علي، وأبي الصخر، يعني لا تُخْلِ بيننا وبينهم، فيظهروا علينا، فيظن غير

---

(١) رحل: دخل، ض.

(٢) معاني القرآن للفراء ٢/١٤٨.

المستبصر أن ذلك لمنزلتهم الرفيعة عند الله، وقيل: لا تُخْلِ بيننا فيقتلوننا، ويفتنوا بسببنا بما يصيرون إليه من الكفر، عن أبي علي، وقيل: لا تمكنهم من ظلمنا بما تحملنا على إظهار الانصراف عن ديننا، عن مجاهد، وقيل: لا تجعلنا فتنة أي: عذابًا عليهم يوم القيامة بأن يُعاقَبوا بسببنا، والظالمون قيل: هم الكافرون، وقيل: هم الظلمة «**وَنَجِّنَا**» خلصنا «**بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ**» يعني من استعباد قوم فرعون إياهم واستعمالهم في الأعمال، وقيل: نجنا منهم؛ لأنهم أعداؤنا في الدين.

۞ الأحكام

تدل الآية على عظم حال من أظهر الإيمان والحق عند شدة الخوف.

وتدل على وجوب التوكل على الله، فيما يهم الإنسان، وأن يثق بفضله، وينقطع إليه.

وتدل على أنه يحسن السؤال بالنجاة من الظلمة.

وتدل على أن أفعال العباد حادثة من جهتهم، خلاف قول المجبرة، ولو كان ذلك كذلك[1] لما صح أن يُسْأَلَ النجاة منهم؛ لأنه الخالق والفاعل، والمحدث لجميع ذلك، فلولا خلقه لما كان شيء منه، فعلى ما يزعمون ينبغي أن يسأل النجاة منه لا منهم، تعالى الله عن قولهم علوًّا كبيرا.

قوله تعالى:

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾﴾

۞ اللغة

الوحي: إلقاء المعنى إلى النفس في خفية، قال أبومسلم: فأصله[2] من السرعة، يقال: هذا أمر وحي، أي: سريع، وسمي الوحي لسرعته، ومنه قول أمير

(١) كذلك: ـ، ض.

(٢) فأصله: وأصله، ض.

المؤمنين: (الوَحَاءَ الوَحاءَ) والإيحاء والإيماء والإشارة من النظائر، ومنه: ﴿فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ أَن سَبِّحُواْ﴾ [مريم: ١١] قيل: أشار إليهم، ثم يستعمل الوحي بمعنى الإلهام، وبمعنى الرؤيا، فإذا أطلق لا يوصف به إلا الأنبياء، فإذا استعمل في غيرهم كقوله: ﴿وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ﴾ [النحل: ٦٨] أي: ألهم.

وتبوأ: أصله تفعل من البواء وهو المكان. وأصله: الرجوع، يقال: باء، أي: رجع، وتبوأ: اتخذ منزًلا يرجع إليه، وبوأته منزلاً أي: اتخذته له.

والقبلة: الجهة، ومنه: ﴿مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ﴾ [البقرة: ١٤٢] أي: جهتهم، وسميت قبلة؛ لأن المصلي يقابلها وتقابله، يقال: أين قِبْلَتُك؟ أي: جهتك، وفعل ذلك قُبُلاً أي: مواجهة.

۞ الإعراب

(مصر) لا ينصرف؛ لأنه مؤنث، معرفة، كقولك: هند، إلا أن تَرْكَ الصرف أقيس.

۞ المعنى

لما تقدم ذكر الخوف من فرعون وقومه في إظهار شعار دينهم أمر تعالى بالتحرز عنهم، وبين كيفية الصلاة، فقال سبحانه: «**وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ**» أي: أمرناهما «**أَنْ تَبَوَّءا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا**» أي: اتخذا لمن آمن بكم «**بمصر**» هي مصر المعروفة بيوتا يسكنونها ويأوون[1] إليها «**وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً**» قيل: مصلى، عن أبي علي، وقيل: كانوا خائفين، فأمروا أن يصلوا في بيوتهم، عن ابن عباس، ومجاهد، وإبراهيم، والسدي، والضحاك، وابن زيد، وأبي علي، وقيل: كانوا يصلون في كنائسهم ظاهرة، فلما أُرْسِلَ موسى أمر فرعون بتخريب مساجدهم، ومنعهم من الصلاة، فأمر الله تعالى أن يتخذوا بيوتهم مسجدًا، وقيل: مسجدًا، ولم يكن لهم بمصر مسجد يجتمعون فيه، عن الأصم، وقيل: قبلة نحو الكعبة، وكان قبلتهم إلى

(١) ويأوون: وتبؤون، ض.

الكعبة، عن الحسن، وقيل: اجعلوا بيوتكم يقابل بعضها بعضًا، عن سعيد بن جبير، واختلفوا متى أمروا بهذا؟، فأكثر المفسرين على أنهم أمروا به زمن فرعون، خوفًا منه ليأمنوا شره، وقال بعضهم: بل أمروا به بعد هلاكه، وقال بعضهم: لما سلط عليهم الجراد والقمل والضفادع ذلوا لموسى، فلما كشف عنهم ذلك تركوهم يصلون، عن الأصم، واختلفوا في القبلة، فقيل: أراد بالقبلة الكعبة ليتوجهوا إليها، عن الحسن، ومجاهد، وقيل: أراد بيت المقدس، وقيل: اجعلوا بيوتكم ببيت المقدس والشام قبلة، وتقديره: وأقيموا الصلاة متوجهين بها نحو بيوتكم التي كنتم بها، وهي أرض الشام، وكان بها يعقوب وأولاده، عن أبي مسلم «**وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ**» أديموها كما فرض عليكم «**وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ**» بالله ورسله، أن لهم الجنة، قيل: هو خطاب لموسى، عن أبي مسلم، وقيل: خطاب لمحمد - صلى الله عليه وعلى آله - .

۞ الأحكام

تدل الآية على أنه تعالى أوحى إلى موسى وهارون، وأنهما كانا نبيين، خلاف ما قاله [بعضهم] بأن هارون تبع لموسى.

وتدل على أنهم أمروا بالصلاة في البيوت، والأوجه أنهم أمروا بذلك خوفًا من فرعون.

وتدل على أن من شرعهم الصلاة إلى قبلة مخصوصة.

وتدل على أن الصلاة فعلهم، فيصح قولنا في المخلوق.

قوله تعالى:

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾

۞ القراءة

قرأ ابن عامر: «تَتَّبِعَانِ» خفيفة النون؛ لأن نون التأكيد تثقل وتخفف[1]، وقرأ الباقون مشددة النون، ومحله جزم بالنهي، وتقول في الواحد: «لا تَتَّبِعَنَّ» فتفتح النون لالتقاء الساكنين على الأصل، وإنما فتحت في الواحد فرقًا بين هذه النون ونون الإضافة.

قراءة العامة: «أجيبت» على ما لم يسم فاعله، «دعوتكما» على واحد، وعن السلمي «دعواتكما» بالجمع عن ابن السميقع «أجيبت» خبر عن الله تعالى.

۞ اللغة

الزينة: ما يتزين به من الحلي والثياب، ويجوز أن يكون حُسْنَ الصورة.

الطمس: محو الأثر[2]، طمست عينه أَطْمِسُها طمسا، وأطمسها طموسًا، وطمست الريح آثار الديار، ومنه: ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا﴾ [النساء: ٤٧]، والطمس: تَغَيُّرٌ إلى الدثور والدروس، قال كعب: طامس الأعلام مجهول، وطمس بفتح الميم وكسرها لغتان، المجيء.

والشد والربط من النظائر، تقول: شددته، أي: أوثقته.

۞ الإعراب

«فلا يؤمنوا» موضعه من الإعراب يحتمل وجهين: النصب والجزم.

أما النصب ففيه وجهان:

الأول: على جواب صيغة الأمر بالفاء.

الثاني: على العطف على (ليضلوا)، وهو اختيار أبي علي، ولهذا حذف النون،

---

(١) الأثر: للأثر، ض.

(٢) حجة القراءات ٣٣٦.

تقديره: ليضلوا ولا يؤمنوا، وهو مقدم على قوله: «**ربنا اطمس**»، وإن كان بعده في التلاوة، قال الأعشى.

فَلاَ يَنْبَسِطْ مِنْ بَيْنِ عَيْنَيكْ مَاَ انْزَوَى   وَلاَ تَـلْـقَـنِـي إلاّ وَأَنْـفُـكَ رَاغِـمُ

وأما الجزم فبالدعاء عليهم، عن الفراء، على تقدير: فلا آمنوا، والوجه الأول:

فأما قوله: «**ليضلوا**» قيل: موضعه نصب، تقديره: كي يضلوا، وقيل: موضعه جزم، وهو دعاء عليهم، كقولهم: ليهلك زيد. قال بعضهم: لا يجوز على الأنبياء أن يدعوا بالضلال، وإذا حمل الضلال على طريق الجنة، والهلاك جاز، ومن قال بالأول استدل بقوله[(١)] : «**ربنا اطمس**» وما بعده، وأنَ جميع ذلك دعاء.

المعنى

ثم ذكر تعالى دعاء موسى على قومه عند الإياس من إيمانهم، فقال سبحانه: «**وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ**» أي: أعطيت «**فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ**» قيل: أشرافهم وكبراءهم، وقيل: جماعتهم الذين اتبعوه «**زِينَةً**» من متاع الدنيا وأثاثها، وقيل: الزينة الجمال وصحة البدن، عن أبي علي، والقاضي. وقيل: اللباس والدواب، عن الأصم «**وَأَمْوَالاً**» وصنوف الأموال «**فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**» يعني: بسطت لهم ذلك في الزينة، وإنما جاز الإنعام مع إنكارهم في الدنيا[(٢)] ؛لأنه استصلاح، ولا يجوز في الآخرة؛لأنه ثواب وجزاء «**رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ**» ذكر شيخنا أبو علي فيه ثلاثة أوجه:

أولها: أن اللام لام العاقبة، وهو ما يؤول إليه الأمر، كقوله: ﴿فَالْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًاۗ﴾ [القصص: ٨] وكقول الشاعر:

لِـدُو لِـلْـمَـوْتِ وابْـنُـو لِـلْـخَـرَابِ[(٣)]

(١) بقوله: لقوله، ش.

(٢) يعني بسطت لهم... في الدنيا: +، ض.

(٣) لأبي العتاهية، وتمامه: فَكُلُّكُمْ يَصِيرُ إِلى ذَهَاب، انظره في الأغاني ٤/ ٧٤.

وقال آخر:

أَأُمَّ سِمَاكٍ فَلَا تَجْزَعِي فَلِلْمَوْتِ مَا تَلِدُ الْوَالِدَةْ[1]

فلما كان المعلوم من حالهم أنهم يضلون، وإن كان تعالى أتاهم الزينة لكي يطيعوا صار كأنه أتاهم ذلك ليضلوا، وتقدير الكلام: ربنا إنك آتيتهم الأموال والزينة، فكان عاقبة ذلك أنهم ضلوا، وهو قول الأخفش، وقطرب.

الثاني: لئلا يضلوا عن سبيلك، فحذفت (ألا)، نحو قوله: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ﴾ [النساء: ١٧٦] أي: لئلا تضلوا، وكقوله: ﴿بَلَىٰ شَهِدۡنَآۚ أَن تَقُولُواْ﴾ [الأعراف: ١٧٢] أي: لئلا تقولوا.

الثالث: قال ذلك على وجه الاستفهام، والمراد الإنكار، أن يكون أتاهم الأموال ليكفروا، وأنشد:

كَذَبَتْكَ عَيْنُكَ أَمْ رَأَيْتَ بِوَاسِطٍ غَلَسَ الظَّلَامِ مِنَ الرَّبَابِ خَيَالَا[2]

يعني: أكذبتك.

وقال آخر:

بِسَبْعٍ رَمَيْنَ الجَمْرَ أَمْ بِثَمَانِ[3]

وكذلك أراد موسى آتيتهم الزينة ليضلوا، وأراد تحقيق الإنكار، أي: لم تؤتهم لذلك، ولكن جعلوها آلة للضلال والإضلال.

وذكر أبو مسلم وجها رابعًا، فقال: معناه أنك آتيتهم ذلك في الدنيا لما علمت منهم الكفر، فإنهم لا يؤمنون لتعذبهم بها في الحياة الدنيا، وتخذلهم بكفرهم، فلا يؤمنوا، فإذا ماتوا أدخلتهم النار، وأضللتهم عن سبيلك التي هي سبيل الجنة،

---

(١) البيت قاله سماك بن عمرو الباهلي. انظره في: مجمع الأمثال ١/ ١٢٧، دار المعرفه ـ بيروت ـ ت: محمد محيي الدين.

(٢) البيت للأخطل. انظره في الصحاح (أم)، واللسان (أمم).

(٣) البيت لعمرو بن أبي ربيعة، وتمام البيت: فَوَالله ما أَدْرِي وإنِّي لحاسِبٌ بِسَبْعٍ . . . انظره في: الجمل في النحو ٢٥٣، للخليل الفراهيدي ـ ط٥ ـ ١٩٩٥م ـ ت: محمد فخر الدين قباوة.

وتقديره: ربنا آتيتهم ذلك لأجل كفرهم عقوبة لهم، كقوله: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا﴾ [التوبة: ٥٥].

«رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ» قيل: أهلكها، عن مجاهد، وأبي علي، وقيل: امسخها وغيرها عن هيئتها، عن جماعة المفسرين، وقيل: معناه آتيتهم الأموال عقوبة، فزدهم عقوبة بطمسها، عن أبي مسلم، وقيل: صارت أموالهم حجارة، عن ابن عباس، وقتادة، والربيع، والضحاك، وابن زيد، والسدي، وأبي صالح. «وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ» قيل: امنعها من التصرف عقوبة لهم، وقيل: تميتهم بعد سلب أموالهم، عن أبي مسلم، وقيل: أهلكهم، عن الأصم، وقيل: اربط على قلوبهم، وصبرهم حتى يقيموا في بلادهم التي قد طمس فيها على أموالهم، ولا يتفرقوا البلاد الخصيبة فيعيشوا فيها، عن أبي علي، كأنه أراد أن تجمع عليهم حسرة ما فاتهم من النعم، وشدة العيش، وقيل: الشد على القلب عبارة عن الخذلان واللعنة «فَلَا يُؤْمِنُوا» أي: لا يؤمنون إيمان اختيار، وقيل: جرى مجرى الجواب ومعناه الإخبار كما تقول: انظر إلى الشمس تغرب، كأنه أخبر أنهم لا يؤمنوا أبد، وقيل: هو عطف على «ليضلوا» تقديره: ليضلوا فلا يؤمنوا، عن أبي علي «حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ» الموجع، قيل: الغرق، وقيل: عذابك الذي يكذبون به، عن الأصم. «قَالَ» الله تعالى لهما: «قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا» يعني موسى وهارون عليهما السلام، قيل: لأن موسى دعا وأمّن هارون، عن عكرمة، والربيع، ومحمد بن كعب، وأبي العالية، وابن زيد، وأكثر المفسرين، ولذلك نسب الدعاء إليهما، وقيل: يجوز أن يخاطب الواحد بخطاب الاثنين، وقيل: شاركه في الدعاء، عن الأصم، فلذلك ذكرهما عند الإجابة «فَاسْتَقِيمَا» قيل: على الطاعة وأداء[1] الرسالة، والدعاء إلى الدين، وقيل: اثبتا على الدعاء على فرعون إلى أن تأتي الإجابة، وقيل: مكث فرعون بعد هذه الآية أربعين سنة، ثم هلك، عن ابن جريج، وقيل: بل أخذ في الحال، يدل عليه قوله: «الآنَ»، عن الأصم. «وَلاَ تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ» أي: لا تسلكا طريقة الجهال، وقيل: طريقة من لا يعلم وعدي ووعيدي، فإنه لا خلف فيه.

---

(١) وأداء: وأرادو، ض.

۞ الأحكام

تدل الآية على أنه يحسن من الأنبياء الدعاء على أعدائهم من الكفرة.

ويدل بقوله[1] : «فلا يؤمنوا» أن الإيمان فعلهم؛ إذ لو كان خلقًا له تعالى لما صح الكلام؛ لأنه وإن أتاهم العذاب لا يؤمنوا ما لم يخلق فيهم، وإن خلق فيهم آمنوا، وإن لم يأتهم العذاب.

ومتى قيل: إن موسى دعا بإذن ربه أم من جهة نفسه؟

قلنا: بل عن وحي؛ لأنه لو دعا عن غير وحي لم يؤمن فيه التنفير.

وتدل على عظم موقع المعصية عند كثرة النعم، لذلك جعل تقدمة دعائه عليهم من نعمه تعالى عليهم.

ومتى قيل: هلا قلتم: إن لام «ليضلوا» لام كي، على ما تزعمه المجبرة؟

قلنا: لأن العقل دل أنه تعالى لا يريد الضلال، ولا يضل عن الدين، ولو جاز ذلك لجاز أن يبعث رسولاً يدعو إلى الضلال، ويأمر بالإضلال، ولجاز أن يبعث من ليس بنبي، ويظهر المعجز عليه ليضل عن الدين.

قوله تعالى:

﴿۞ وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾﴾

۞ القراءة

قرأ حمزة والكسائي وخلف: «آمَنْتُ إِنَّهُ» بكسر ألف[2] (إنه) على البدل من

---

(١) بقوله: قوله، ض.

(٢) ألف: الألف، ض.

«آمنت»، أو بتقدير: «وقلت إنه»، وهي قراءة ابن مسعود، وقرأ الباقون: (أنه) بالفتح على إعمال «آمنت» فيه، وهو اختيار أبي عبيد وأبي حاتم[1].

قراءة العامة: «**جاوزنا**» بالألف، وعن الحسن: «**جوزنا**» بالواو، وهما لغتان.

وقراءة العامة: «**عَدْوًا**» بفتح العين خفيفة من عدا يعدوا نحو: غزا يغزو غزوًا[2]، وعن الحسن بضم العين وتشديد الواو، مثل علا يعلو عُلُوًّا.

وقرأ يعقوب وقتيبة: «**نُنْجِيكَ ببدنك**» خفيفة من أنجى ينجي إنجاء. وقرأ الباقون بالتشديد من «نَجَّى يُنَجِّي».

وقراءة العامة: «**لمن خلفك**» بالفاء، يعني: لمن بعدك، وقرأ علي عليه السلام: «**لمن خلقك**» بالقاف، يعني: الله تعالى.

۞ اللغة

البغي: طلب الاستعلاء بغير حق، وأصله الطلب، بغى يبغي إذا طلب. أَتْبَعَهُ وتَبِعَهُ: إذا أدركه ولحقه، واتَّبَعَهُ بالتشديد: إذا صار خلفه، واقتدى به. والنجوة: الأرض يعلوها السيل، سميت بذلك لارتفاعها، يقال: بيني وبينه نَجَاوَةٌ من الأرض، أي: سعة، وأصله من الارتفاع، ومنه: النجو: السحاب، ومنه: المناجاة بين اثنين.

۞ الإعراب

العامل في قوله: «**الآن**» محذوف، وتقديره: الآن آمنت؛ لأنه هو الذي ظهر منه في تلك الحال مما كان يمتنع عليه قبل، و(آلآن) مبني؛ لأنه إشارة إلى حاضر، فبني كما بني واو ألف. واللام في (**الآن**) للتعريف.

«**بغيًا وعدوًا**» نصب على الحال، أي: في حال البغي والعدوان.

۞ المعنى

ثم بَيَّنَ تعالى ما آل إليه حال فرعون وقومه، فقال سبحانه: «**وَجَاوَزْنَا بِبَنِي**

---

(١) حجة القراءات ٣٣٦.

(٢) بفتح العين... يغزو غزوا: +، ض.

إِسْرائيلَ الْبَحْرَ»، وذلك أن الله تعالى لما أجاب دعاء موسى أمره بإخراج بني إسرائيل من مصر ليلاً، فخرج وتبعهم فرعون وجنوده مشرقين حتى انتهوا إلى البحر، وأمر الله تعالى موسى، فضرب البحر بعصاه، فانفلق، فصار فيه اثنا عشر طريقًا يابسة، وارتفع الماء بين كل طريقين كالجبل، وصارت في الماء شبه الخروق، وكان ينظر بعضهم إلى بعض حتى جاوز موسى وهارون وبني إسرائيل، وانتهى فرعون إلى البحر، فرآه بتلك الهيئة ساكنا، فهاب دخوله، وكان على حصانٍ أدهم، فتقدمه جبريل على رَمَكَةً، وخاض البحر، وميكائيل يسوقهم، فاقتحم، واقتحمت الخيول حتى دخل آخرهم، ولم يخرج أوائلهم، فانطبق الماء عليهم وغرقوا، وقال بعضهم: لم يغرق هو، فقذفه البحر ميتًا حتى رآه بنو إسرائيل، ومعنى (جاوزنا): قطعنا البحر حتى جاوزوه[1]، ولم يصبهم مكروه «**فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ**» أي: أدركهم ولحقهم، وقيل: سار خلفهم بجنوده «**بَغْيًا**» أي: طلبًا لهم ليضلهم «**وَعَدْوًا**» أي: اعتداء ومجاوزة للحد «**حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ**» وأَيِسَ من الحياة، وصار إلى حال الإلجاء «**قَالَ آمَنْتُ**» صدقت «**أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرائيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ**» المنقادين له الخاضعين له، وقيل: من الموحدين المخلصين «**ءآلآنَ**» فيه إضمار، أي: قيل له: الآن آمنت حين لا يقبل الإيمان؛ لأنه حال الإلجاء، وكنت من قبلُ كافرًا مفسدًا، واختلفوا في قائل هذا والمخاطب به على أقوال: قيل: قاله ملك بأمر الله تعالى، عن أبي علي، وأبي مسلم، وقيل: جبريل، وقيل: قاله الله؛ توبيخًا له، ويكون معجزة لموسى، وقيل: يحتمل أن يكون قاله موسى ﷺ، عن أبي مسلم «**وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ**» في الأرض بالكفر والقتل والظلم في وقت المهلة «**فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ**» قيل: نبعدك من جميع ملكك، ونخلصك، عن أبي مسلم، وقيل: نلقيك على نجوة من الأرض أي: مكان مرتفع يراك كُلُّ مَنْ مر بك، وقيل: من قرأ بالتخيف فمعناه نلقيك بنجوة من الأرض، ومن قرأ بالتشديد فمن النجاة، عن الأخفش «**بِبَدَنِكَ**»، قيل: جيفة لا روح فيها ولا حياة لتكون عبرة لمن يراك، ويعلم كونك عبدًا ذليلاً لا يستطيع دفع مكروه،

---

(١) جاوزوه: جاوزه؛ ش، ض.

وقيل: نلقيك وحدك من بين قومك لظلمك في ادعاء الربوبية، وروي أن البحر لفظه بعد ثلاثة أيام، وقيل: ننجيك وحدك دون قومك؛ لأنه تعالى خسف بهم الأرض، ورماهم بالحجارة، فكانوا يهوون في الأرض في عذاب بعد الغرق، فقال: ننجيك من عذاب قومك، ونخرجك إلى الخلق عاريًا مسلوبًا رياشك لتكون آية، عن الأصم، وقيل: من ذلك الوقت لا يقبل الماء ميتًا أبدًا «**لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً**» أي: لمن بعدك حجة وعبرة، وقيل: لمن يأتي بعدك ممن يراك على تلك الصفة، وقد كنت تدعي الربوبية، وقيل: ليراه بنو إسرائيل لما شَكُّوا[1] في موته، عن ابن عباس، وقتادة، وقيل: لمن كان بعده ممن كذب بغرقه، فلفظه البحر لتزول الشبهة، عن الأصم. «**وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ**» قيل: أهل مكة، عن مقاتل، والأصم، وقيل: سائر الخلق، عن الحسن «**عَنْ آيَاتِنَا**» حُجَجِنَا «**لَغَافِلُونَ**» لا يتدبرون فيه.

۞ الأحكام

تدل الآيات على معجزات لموسى عليه السلام منها: انفلاق البحر بضربة، ومنها: منع الماء من الاتصال حتى ظهر طريقًا يابسًا، وفيه مع كونه معجزة نعمة عظيمة على بني إسرائيل حيث عبروها، ورأى بعضهم بعضًا، ومنها: ركوب الماء بعضه بعضًا حتى صار كالطود العظيم.

وتدل على أن إيمان الملجأ لا يصح؛ لأن التكليف زائل، وما روته الحشوية أن جبريل قال: كنت أدس الطين في فيه لئلا تدركه الرحمة لا يصح؛ لأنه إن كان في حال بقاء التكليف فالمنع من الإيمان لا يجوز، ويعظم ذلك من جبريل، وإن كان مع زوال التكليف فهو غير مقبول.

وتدل على أن خروج موسى وقومه من مصر كان بأمر الله تعالى، وما روي من كثرتهم يبعد؛ لأنه تعالى حكى عن فرعون ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرۡذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ [الشعراء: ٥٤]، ولم ينكر عليه، وقيل: هي بالإضافة إلى قوم فرعون قليلة، وكل ذلك مما[2] حكاه اليهود فلا يصح.

---

(١) شكّوا: أشكوا، ض.

(٢) ممّا: إنما، ض.

وتدل أنه صار آية للناس مَنْ شَاهَدَهُ ومَنْ سَمِعَ خَبَرَهُ؛ لأن مَنْ شاهده ذليلاً[١] مهينًا بعد ما كان ملكًا مهيبًا يدعي الربوبية، فكان آية له في[٢] التوحيد.

ويدل قوله: «لغافلون» على وجوب التدبر[٣] في الآيات.

وتدل على أن الكفر والإيمان فعل العبد ليس بخلق لله تعالى؛ إذ لو كان خلقه لكان إذا قيل: الآن، قال: الآن خَلَقْتَ، ولو خلقت قبله لكنت مؤمنًا أطوع الناس، ولكن خلقت فِيَّ الكفر وادعاء الربوبية، والقدرة الموجبة لذلك، وأردت ذلك مني، فما ذنبي في ذلك، تعالى الله عن قولهم علوًّا كبيرًا.

قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٖ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُواْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾﴾

اللغة

التَّبَوُّؤُ: توطئة المنزل لصاحبه الذي يأوي إليه، وأصله من الرجوع، باء[٤] أي: رجع، يقال: بوأته تبوئة، وباء بالأمر بواء: رجع.

والصدق ضد الكذب، وإنما وصف المنزل بالصدق، قيل: هو كالصدق في الفضل، كما يقال: أخو صدق، ويقال: رجل صدق أي: خير، وقيل: إنه يصدق كما[٥] يدل عليه من جلالة النعمة.

والطيب: الحلال، والطيب نقيض الخبيث، وهو أصل في الباب.

---

(١) ذليلا: ذليلاً ذليلاً، ض.

(٢) في: + ، ض.

(٣) التدبر: التدبير، ض.

(٤) باء: ـ ، ض.

(٥) كما: مما، ض.

۞ المعنى

ثم بَيَّنَ تعالى حال بني إسرائيل بعد هلاك فرعون، فقال سبحانه: «**وَلَقَدْ بَوَّأْنَا**» قيل: مَكَّنَّا، عن أبي مسلم، وقيل: هيأنا لهم منازل يرجعون إليها «**مُبَوَّأَ صِدْقٍ**» قيل: بيوت صدق، وقيل: منزل صدق، يعني: مبوأً صادقًا[1] محمودًا، واختلفوا أين[2] ذلك؟ فقيل: الشام ومصر، عن الضحاك، وأبي مسلم، وقيل: الشام وبيت المقدس، عن قتادة، وقيل: مصر، عن الحسن، وذلك أن موسى عبر ببني إسرائيل البحر، ورجعوا إلى مصر وتَبَوَّؤُوا[3] مساكن آل فرعون «**وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ**» والحلال، وهو مواريث أهل مصر والشام، فإنهم خرجوا وتركوا أموالهم وديارهم وأغرقوا، وأعطى جميع ذلك بني إسرائيل، وقيل: أعطيناهم لذيذ الرزق «**فَمَا اخْتَلَفُوا**» يعني بني إسرائيل، وهم اليهود الذين كانوا في زمن النبي ﷺ كانوا على الإقرار بالنبي قبل مبعثه، فلما جاءهم ما علموه وهو معلومهم اختلفوا، فمنهم من آمن، ومنهم من كفر، وأنكروا الرئاسة. وقيل: جاءهم العلم أي: القرآن، يعني: ما اختلفوا إلاَّ[4] من بعد ما جاءهم القرآن والأدلة، عن أبي علي، وقيل: كانوا على الكفر قبل مجيء محمد فلما جاء بالدلائل المؤدية إلى العلم اختلفوا فآمن فريق وكفر فريق، عن الحسن، وابن زيد. وقيل: هم أسلاف اليهود، عن جماعة من المفسرين، ثم اختلفوا، فقيل: لما رجعوا إلى مصر صاروا أغنياء وملوكًا، وكثر نسلهم، فاختلفوا، عن الأصم، فكأنه قال: لم يختلفوا إلى أن جاءهم المعجزات وعاينوا الآيات، وقيل: اختلفوا بعد التوراة والإنجيل، وقيل: آمنوا في زمن الخوف والضيق، واختلفوا في زمن السعة والأمن بعد العلم بصحة نبوة موسى اختلفوا بعده «**إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ**» أي: يحكم بينهم «**يَوْمَ الْقِيَامَةِ**» لأنَّ مع بقاء التكليف لا تزول الشبهة فلا يرتفع الخلاف، وفي الآخرة يزول الشك والشبهة، ويحصل العلم الضروري، فيعلم الحق من الباطل «**فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ**» من أمر أديانهم فيميز المحق من المبطل، فيدخل المحقُّ الجنة، والمبطلُ النارَ.

---

(١) صادقا: صالحًا، ض.
(٢) أين: في، ش.
(٣) وتبوّؤا: وبنوا، ش.
(٤) إلاّ: إلى، ش.

الأحكام

تدل الآية على أنه تعالى أزاح العلة، وأنهم اختلفوا بعده، وأُتُوا في ذلك من قِبَلِ أنفسهم بعد أن آتاهم البينات.

ويدل قوله: «ورزقناهم» أن الرزق لا يكون حرامًا؛ لأنه تعالى لا يَمُنُّ بالحرام.

وتدل على أنه يقضي بين الخلق فيما اختلفوا فيه من الديانات يوم القيامة.

وتدل أن ذلك الاختلاف فعلهم، فيبطل قول مخالفينا في المخلوق.

قوله تعالى:

﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾

القراءة

قرأ أبو جعفر ونافع[(١)] وابن عامر «كَلِمَاتُ» على الجمع، وقرأ الباقون (كَلِمَةُ) على واحدة[(٢)]، وإنما جاز (كلمة ربك) لجملة من الكلام؛ لأنه لَمَّا كان في معنى واحد صار بمعنى الكلمة الواحدة، كما يقال: كلمة فلان لقصيدته.

اللغة

المِرَيَةُ: الشك، والامتراء «افتعال» منه[(٣)]، وهو طلب الشك، مع ظهور الدليل، وأصله من قولهم: مري الضرع، وهو مسحه ليدر، كأنه شك فيه: أَفِيهِ لبن أم لا؟ فيمريه، ويقال: امترى وتمارى: إذا شك، والتماري: المجادلة على شك.

---

(١) ونافع: ـ، ش. وقد كتب ثم شطب.

(٢) حجة القراءات ٣٣١.

(٣) منه: ـ، ض.

۞ الإعراب

النون في قوله: «فلا تكونن» نون التأكيد، وإنما بني الفعل مع نون التوكيد؛ لأنها ركبت مع الفعل على تقدير كلمتين، كل واحدة مركبة مع الأخرى، مع أن الأولى ساكنة، فاقتضت حركة بناء لالتقاء الساكنين.

«**ولو جاءتهم كل آية**» قال الأخفش: أَنَّثَ فعل (كل) لأنها مضافة إلى مؤنث، ولفظة (كل) للمذكر والمؤنث سواء.

۞ النزول[1]

قيل: قالت كفار قريش إنما يلقي هذا الوحي على لسان محمد شيطان، فأنزل الله تعالى: «**فإن كنت في شك**»، عن مقاتل.

وروي أنه لما نزلت الآية قال صلى الله عليه: «لا أشك ولا أسأل»[2].

۞ المعنى

ثم بَيَّنَ تعالى صحة نبوة محمد ﷺ، وأزال الشبهة فيها، فقال سبحانه: «**فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ**» اختلف المفسرون أن المخاطب بذلك من هو؟ فقيل: النبي ﷺ، وقيل: غيره.

فأما من قال بالأول اختلفوا على وجوه كثيرة: قيل: الخطاب له، والمراد غيره كقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [الطلاق: ١] وكقوله لعيسى: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ﴾ [المائدة: ١١٦]، وقيل: الخطاب له، وهو تأكيد لنفي الشك، فإنه عليه السلام لم يشك، وهذا كما يقال: إن كنت غلامي فأطعني، عن الفراء[3]. وقال الحسن وسعيد بن جبير: لم يشك ولم يسأل، وقيل: علم أنه لم يشك ولكن أراد أن يأخذ الرسول بقوله: «لا

(١) النزول: النظم، ض.

(٢) مصنف عبد الرزاق رقم ١٠٢١١.

(٣) معاني القرآن للفراء ٢/ ١٥٠.

أشك ولا أمترى» إقامة للحجة كقوله: لعيسى: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ﴾ [المائدة: ١١٦] أراد أن يظهر أنه لم يقله حجة على النصارى، وقيل: نهي عن الشك الذي ربما يُخْطِرُهُ الشيطان بالبال، ويثبت في القلب، وثقة بتصديق ما أنزل عليه، وبأنه مكتوب في الكتاب، عن أبي مسلم.

ومن قال: إنه خطاب لغيره، فالمعنى فإن كنت أيها الإنسان، أو أيها السامع في شك مما أنزلنا إليك على لسان نبينا ﷺ، وقيل: أيها الشاك في نبوته، عن أبي علي.

«[مِمَّا] أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ» يعني القرآن والشريعة «فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ» قيل: سل مؤمني أهل الكتاب كعبد الله بن سلام، وابن صوريا، وتميم الداري، وكعب الأحبار، فإنهم يخبرونك في كتابك، عن ابن عباس، والضحاك، ومجاهد، وابن زيد، وأبي علي. وقيل: سلهم عن صفة النبي المبشر به في كتبهم، ثم انظر ما[1] وافق تلك الصفة، وقيل: إنما أَمَرَهُ بسؤالهم ليعلموا أن البغي حملهم على ذلك، وقيل: هو سؤال إنكار لا سؤال استخبار، وقيل: معناه لو سألتهم لأقروا، عن الحسن. وقيل: هو سؤال تقرير «لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ» القرآن والإسلام «فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ» الشاكين «وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ» أي: لا تكن أيها السامع من الذين يجحدون في آيات الله فتكون ممن خسر حظه وباع رضا الله بسخطه، ورحمته بعذابه «إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ[2]» قيل: كلامه وإخباره أنهم لا يؤمنون، وقيل: وعيده يعني أنهم يصيرون إلى العذاب، وهم أهل النصب والعناد، عن الأصم، وأبي علي. وقيل: لَعْنُهُ إياهم، وقيل: سخطه عليهم، عن قتادة «لا يُؤْمِنُونَ» لا يصدقون «وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ» معجزة وحجة «حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ» قيل: يروا أسباب العذاب؛ لأن الألم لا يُرَى بالعين، وقيل: أراد حتى يعذبوا[3]، فعبر بالرؤية عن إيصال العذاب إليهم، و«الأليم» الموجع.

---

(١) ما: فما، ض.

(٢) لا يؤمنون: +، ض.

(٣) يعذبوا: يعذب، ش.

۞ الأحكام

تدل الآية على النهي عن الشك، وأن الشاك ينبغي أن يسأل من يثق به ليدله على الأدلة، ووجوه الدلالة، والأولى أنه خطاب لغيره؛ لأن الشك في النبوة والقرآن كفر، ولأنه كان على يقين من أمره، والأقرب أنه خطاب لغيره وإن جاز الآخر[١] على ما بينا.

وتدل على صحة الحجاج في الدين.

وتدل على أن ذكره وصفته في التوراة، ومن يرجع إليها يعلم صدقه، ويجد صفته، ولا تعلق للمجبرة بقوله: «**لايؤمنون**»؛ لأنه نفى الإيمان لا قدرة الإيمان، فإذا المراد أنهم لا يختارون الإيمان، بل تدل الآية على بطلان قولهم في المخلوق، حيث أضاف الإيمان[٢] إليهم، وذمهم على تركه، ولأنه لو كان خلقًا له لم يكن لذكر الآيات معنى؛ لأنه لو جاءت جميع الآيات، ولم يخلق الإيمان لا يؤمن، ولو خَلَقَ بغير آية كان مؤمنًا، فما معنى ذكر الآيات؟.

قوله تعالى:

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾

۞ القراءة

قراءة العامة: «**يُونُس**» بضم النون، وعن بعضهم بفتح النون، وعن الأعمش والجحدري بسكونها.

والقراءة: «**فلولا**»، وفي حرف ابن مسعود: أي[٣] هلاَّ، ويحمل على أنهما فسرا به، لا أنه قراءة.

---

(١) الآخر: الأخرى، ض.

(٢) الإيمان: ـ ، ض.

(٣) أي: وأي، ض.

۞ اللغة

لولا: معناه «هلاَّ»، وهي تكون على وجهين: «تحضيض» و«تأنيب»، كقولك: هلاَّ يأتي زيد بحاجتك، وفي[1] التأنيب[2]: هلاَّ[3] امتنعت من الفساد الذي دعيت إليه، قال الشاعر:

تَعُدُّونَ عَقْرَ النِّيبِ أَفْضَلَ مَجْدِكُمْ بَنِي ضَوْ طَرَى لَوْلاَ الكَمِيَّ المُقَنَّعَا[4]

أي: هلا تعدون.

والنفع ضد الضرر، وهو: إيجاب اللذة، أو ما يؤدي إليه، فالصلة بالمال نفع لأنه يؤدي إلى اللذة، وأكل الطعام المشتهى نفع للذته، وتناول الأدوية الكريهة نفع؛ لأنه يؤدي إلى اللذة.

وفي (يونس) لغتان ضم النون، وهو الاختيار، لضمة الياء[5]، وكثرة من قرأ بها، وسكون النون وفتحها وكسرها، وحكى ابن زيد الأنصاري عن العرب ضمه مع الفتحة والضمة والكسرة.

والخزي: الهوان.

۞ الإعراب

«إلا قوم يونس» استثناء منقطع، بمعنى لكنْ، وقيل: إنه منقطع في اللفظ متصل في المعنى؛ لأن المستثنى منه قرية، ولكن معناه: فما كان أهل قرية آمنوا إلا قوم يونس، فحذف (أهل) للإيجاز[6] من غير إخلال بالمعنى، ونصب (قوم) لأنه استثناء منقطع كقول الشاعر:

وَقَفْت فِيهَا أُصَيْلاَ لاً أسائلها إلاّ الأَوَارِيَّ لأيا ما أَبَيِّنُها

(١) وفي: في؛ ش، ض. وما أثبتناه من تفسير مجمع البيان، للطبرسي: ٥/ ٢٠٢.
(٢) وهي تكون على. . . وفي التأنيب: +، ض.
(٣) هلا: ـ، ش، ض. وما أثبتناه من التبيان في تفسير القرآن، للطوسي: ٥/ ٤٢٧، مجمع البيان، للطبرسي: ٥/ ٢٠٢.
(٤) البيت للأشهب بن رميلة/ انظره في: اللسان (ضطر)، والصحاح (لولا).
(٥) الياء: ـ ، ض.
(٦) للإيجاز: الإيجاز، ض.

عَـيَّـتْ جَـوابًـا ومَـابـالـرَّبـعْ مِـنْ أحـد والنُّؤْىُ كالحَوْضِ بَالمظلَومة الجَلَدِ][1]

كقوله تعالى: ﴿إِلَّا خَطَئًا﴾ [النساء: ٩٢].

۞ النظم

يقال: كيف اتصال قصة يونس بما قبلها؟

قلنا: فيه وجوه: حثهم على الإيمان ليرحمهم كما رحم قوم يونس لما آمنوا قبل نزول العذاب، وتقديره: هلا آمن هؤلاء قبل نزول العذاب بهم، فَيُمَتَّعُوا كما آمنت قوم يونس لما آمنوا، فزال عنهم العذاب[2]، ومتعوا إلى حين، وقيل: هلا كان إيمانهم قبل نزول العذاب لينفعهم، كما كان إيمان قوم يونس، عن الأصم، وقيل: يتصل بما قبله من وعيد الكفار، وقيل: يتصل بقصة قوم فرعون أنه لما آمن عند معاينة العذاب لم يقبل، كأنه قيل: هلا آمن قبل ذلك كما آمن قوم يونس.

۞ المعنى

«**فَلَوْلا كَانَتْ قَرْيَةٌ**» أي: هلا كان أهل قرية من القرى التي أهلكناها «**آمَنَتْ**» أي: آمن أهلها، فحذف الأهل، ولما أضاف الفعل إلى القرية أنث «**فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا**» لكونه حال التكليف «**إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ**» آمنوا فنفعهم ذلك؛ لأنه كان قبل الإلجاء ونزول العذاب، وقيل: (إلا) بمعنى (سوى)، وقيل: بمعنى (لكن) «**لَمَّا آمَنُوا**» قيل: آمنوا قبل اليقين بالعذاب، وقيل: إلا قوم يونس حق عليهم العذاب وما وعدوا بذلك قطعًا، وقيل: أخبرهم بنزول العذاب إن لم يؤمنوا، وخرج من بين أظهرهم، فظن القوم صدقه فرجعوا إلى الله تعالى قبل نزول العذاب، وتابوا، وتضرعوا، فقبل توبتهم، ولم يكونوا ملجئين.

---

(١) وقفت فيها... بالمظلومة الجلد: وما بالربع من أحد إلا الأوري، ش، ض. وما أثبتناه من تفسير القرطبي: ٥/٢٩٧، في تفسير الطبري: ١/١٠٧:

وَقَفْتُ فِيهَا أُصَيْلاَ لاَ أُسَائِلُهَا عَيَّتْ جَوابًا ومَا بالرَّبعْ مِنْ أَحَدِ
إِلاَّ الأَوارِيَّ لأَيًا مَا أُبَيِّنُهَا والنُّؤْىُ كالحَوْضِ بَالمظلَومة الجَلَدِ

(٢) عنهم العذاب: عن الأهم، ض.

ومتى قيل: أليس كان أخبر الله تعالى أنه يعذبهم يوم كذا، وأخبرهم النبي أن العذاب يصبحهم، فكيف خالف؟

قلنا: كان الوعيد بشرط عدم التوبة، وهكذا وعيد سائر المكلفين.

«**كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ**» الهوان، وهو عذاب الاستئصال في الدنيا، وأراد كشفنا قبل نزوله وكانوا يتوقعون ذلك، ولم يترايا لهم أن لو عاينوا لأهلكوا كسائر الأمم «**وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ**» يعني إلى وقت، وهو وقت انقضاء أجلهم.

۞ الأحكام

الآية تدل على أن الإيمان إنما ينفع في حال الاختيار، وأنه في حال الإلجاء لا ينفع فلا يقبل، وأن قوم يونس آمنوا وهم مختارون.

وتدل على أنه تعالى لم يَعِدْهُمْ بالعذاب قطعًا، ولا أخبرهم الرسول؛ إذ لو كان كذلك لما جاز خلافه، ولكن أوعدوا بشرط عدم التوبة، وروي أن قوم يونس تضرعوا أربعين ليلة.

وتدل على أن الإيمان فعل العبد، فيبطل قول مخالفنا في المخلوق.

۞ القصة

قد روي في هذه القصة أشياء كثيرة منها ما هو جائز، ومنها ما هو منكر، ونحن نبين الصحيح، ونميز بينه وبين الفاسد:

فروي عن سعيد بن جبير والسدي ووهب وابن إسحاق أن يونس أرسله الله تعالى إلى قومه بِنِينِوىَ من أرض الموصل، فدعاهم إلى الإيمان، فأبوا، فأخبرهم أن العذاب مصبحهم إلى ثلاث إن لم يتوبوا، وخرج يونس من بين أظهرهم، فلما أصبحوا وظهرت الأمارات التي كان أخبر بها يونس نحو غيم أسود وأشباه ذلك تابوا، وخرجوا إلى الصعيد بأنفسهم ونسائهم وصبيانهم ودوابهم، ولبسوا المسوح، وأخلصوا التوبة، وتضرعوا، وفرقوا بين كل والدة وولدها، وعلت الأصوات، فأجاب الله تعالى دعاءهم، وكشف عنهم العذاب.

وقيل: بلغ من توبتهم أن ردوا المظالم، عن ابن مسعود.

وقيل: أتوا شيخًا من بقية علمائهم وشاوروه فقال: قولوا: يا حي حين لا حي، يا حي محيي الموتى، ويا حي لا إله إلا أنت. فقالوها، فكشف الله العذاب، وخرج يونس وركب البحر، وظهرت الحوت وتساهموا، ووقعت القرعة عليه فقذفوه، فالتقمه الحوت، فبقي في بطنه أربعين ليلة، ثم قذفه إلى الساحل، وأنبت الله عليه شجرة من يقطين، ثم بعثه بعد ذلك، واختلفوا أنه بعث إلى قومه أو إلى غيرهم، على قولين، فهذا مما روي، وهو جائز ليس فيه شيء ينكره العقل والشرع.

فأما ما روي من المناكير، وهو ما رووا أن يونس قال لهم: إن العذاب يصبحهم لا محالة، وأقام ينتظر فلم ير شيئًا، فخرج مغاضبًا لربه، وهذا عظيم لا يجوز مثله على الأنبياء؛ لأن الأنبياء لا تخبر إلا عن وحي، وهو تعالى لا يخلف الوعد، ولأنه لا يجوز أن يغضب على الله؛ لأنه كفر.

ويروون أن العذاب غشيهم، وهذا [لا] يجوز؛ لأنه لو كان كذلك لصاروا ملجئين، فلا يقبل إيمانهم.

ورووا أن قوم يونس كانوا يقتلون من كَذَبَ، وأن يونس لما لم ير العذاب قال: كيف أرجع إلى قومي، فهرب. وهذا فاسد لما بينا أن الكذب لا يجوز على الأنبياء.

قوله تعالى:

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ۝٩٩ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ۝١٠٠﴾

القراءة

قرأ أبو بكر عن عاصم: «ونَجْعَلُ» بالنون على قراءة الحسن على أنه ذكر بنون التعظيم، وقرأ الباقون بالياء كناية عن اسم الله تعالى.

قراءة العامة: «الرجس» بالسين، وعن الأعمش بالزاي، وهما بمعنى.

۞ اللغة

المشيئة والإرادة والمحبة من النظائر يقال: شاء مشيئة، وأراد إرادة، والمشيئة: جنس من الأعراض يوجب الحكم للحي، وتُحِلُّ القلب، وضدها الكراهة.

والكُره، بضم الكاف: المشقة، وبالفتح: ما أُكْرِهْتَ عليه، وهو أن تكلف الشيء فتفعله كارهًا، وقيل: الضم والفتح بمعنى، والكراهة والكره والكراهية من النظائر، وكرهت الشيء كرهًا، وأكرهته عليه إكراهًا.

والإذن: الإطلاق بالفعل، ثم يستعمل في الأمر والإباحة، واللطف ونحوه، ويستعمل بمعنى العلم، وأصله من الإذن، كأنه أذن له بقول يسمع بالأذن.

والنفس والذات واحد، وهو ما يصح أن يعلم و[1] يخبر عنه، وهو مأخوذ من النفاسة.

۞ الإعراب

قال الأخفش: جاء قوله: «**جميعًا**» مع (كل) تأكيدًا كما قال: ﴿لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ﴾ [النحل: ٥١] و(كل) رفع؛ لأنه نعت لـ (مَنْ)، و(من) في محل الرفع؛ لأن الفعل مضاف إليه، تقديره: لآمن من في الأرض كلهم «**جميعًا**» نصب على الحال.

«**ويجعل**» رفع على الابتداء، ولم يعطفه على (حتى)، عن الأخفش.

۞ النزول

قال ابن عباس: كان رسول الله ﷺ حريصًا على إيمان جميع الناس، وأن يتابعوه طوعًا أو كرهًا، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

۞ المعنى

لما تقدم أن إيمان المختار ينفع، ولاينفع إيمان المُلْجَأِ بَيَّنَ أنه[2] لو كان ينفع

---

(١) و: أن، ض.

(٢) أنه: أن، ش.

لأَكْرَهَ أهل الأرض عليه؛ لأنه قادر عليه لكن لما لم يكن ينفع لم يكره، فقال سبحانه: «**وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ**» يا محمد «**لآمَنَ مَنْ فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا**» يعني لأكرههم على الإيمان، ولآمنوا اضطرارًا «**أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ**» استفهام، والمراد الإنكار، أي: لا يكرههم ولا يرد إكراههم، فإنه تعالى قادر على إكراههم، ولا يفعله «**حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ**» أي: حتى يؤمنوا «**وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ**» أي: ما كانت لتؤمن «**إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ**» قيل: بأمر الله، عن ابن عباس، والحسن، وأبي علي. وقيل: بعلمه؛ يعني علم منه ذلك قبل أن يؤمن وكلفه ليكون الجزاء على فعله، وقيل: بإطلاقه وتمكين من جهته، وقيل: معناه ما كانت نفس مؤمنة إلا بإذن الله تأتي بما أمرت طائعة غير مكرهة، عن الأصم. وقيل: لا تكون مؤمنة حتى يعلم ظاهره وباطنه، عن أبي مسلم. وقيل: لما بقي الإكراه جاز أن يُتَوَهَّم أن الإنسان يؤمن بحوله وقوته، فَنَفَى ذلك، وبين أنه مؤمن، ولكن أسباب الإيمان كلها من جهته تعالى «**وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ**» قيل: العذاب، عن أبي علي، وأبي مسلم[1]، والفراء[2]، وقيل: الرجس الغضب، عن ابن عباس. أي: كما يثيب من آمن يعذب من كفر، وقيل: الرجس الكفر، عن الحسن. أي: يحكم بالكفر على من خالف أمره ذمًا لهم، وقيل: يجعل عذاب الرجس وهو الشرك يوم القيامة على الكافرين، عن الأصم. «**عَلَى الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ**» أي: لا يعلمون دين الله، وما لزمهم من ذلك، عن أبي علي. وقيل: لا يعقلون شيئًا ذمًّا لهم، وقيل: لا يستعملون عقولهم بالتدبر في آيات الله، وحججه ليعلموا الحق من الباطل.

۞ الأحكام

تدل الآية على أنه تعالى يشاء خلاف قول البغدادية.

وتدل على أن مشيئته ليست بصفة ذاتية ليصح تعلقها بالشرط، فيصح أن مشيئته فعله، ولا يقال: لو علم ولو قدر كما يقال: لو شاء ولو أراد.

وتدل على أنه تعالى لم يرد الإكراه على الإيمان لذلك قال: «**أفأنت تكره الناس**».

(١) عن أبي علي وأبي: عن أبي مسلم وأبي علي، ض.

(٢) معاني القرآن للفراء ٢/ ١٥١.

وتدل على إن الإيمان وإن كان منهم فبأسباب من جهته تعالى، وتسهيله ولطفه، ليكون العبد متكلاً على ربه في جميع أحواله.

وتدل على أنه ليس إليه صلى الله عليه الإكراه على الإيمان.

وتدل على أنهم لو أكرهوا لم يستحقوا عليه ثواب الإيمان.

ويقال: كيف الخلاف في الإرادة؟

قلنا: الخلاف فيها وجوه نشير إليها:

أولها: أنه تعالى مريد على الحقيقة عندنا. وقالت البغدادية: إرادته فِعْلُهُ أو أمره أو حكمه.

وثانيها: أنه ليس بمريد لذاته خلافًا للنجارية[1].

وثالثها: أنه ليس بمريد بإرادة قديمة خلافًا للكلابية[2].

ورابعها: أنه مريد بإرادة يفعلها لا في محل يوجب حاله كونه مريدًا، وليس لكونه فاعلاً، وقال أبو الهذيل: معنى قولنا: مريد أنه فعل الإرادة كقولنا: خالق ورازق وفاعل.

وخامسها: أنه إذا وجد لا في محل توجب الحكم للقديم؛ لأنه اختص به.

وسادسها: أنه يريد جميع أفعاله غير الإرادة والكراهة.

وسابعها: أنه يريد من غيره الطاعة التي أمر بها، ولا يريد المباح ولا يَكْرَهُهُ، ولا يريد المعاصي ويكرهها، واختلفوا فقال القاضي: يريد الأكل[3] من أهل الجنة، وقال أبو علي: لا يريده.

---

(١) للنجارية: النجارية، ض.

(٢) للكلابية: الكلابية، ض.

(٣) الأكل: للأكل، ض.

قوله تعالى:

﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾

القراءة

قرأ عاصم وحمزة ويعقوب: «**قُلِ انْظُرُوا**» بكسر اللام لالتقاء الساكنين، والأصل فيه الكسر، وقرأ الباقون بضمها نقلوا حركة الهمزة إلى اللام[1].

قرأ الكسائي في رواية بعضهم[2]، ويعقوب: «**نُنْجِي رسلنا**» خفيفة، والباقون «**نُنَجِّي**» مشددة[3]، وهما لغتان أَنْجى يُنْجِي، وَنَجَّى يُنَجِّي، وقرأ الكسائي ويعقوب وحفص عن عاصم «**كذلك حقًا علينا نُنْجِي**» خفيفة، والباقون مشددة.

اللغة

النظر: تقليب الحدقة نحو المرئي التماسًا لرؤيته مع سلامة الحاسة. والنظر بالقلب: التدبر والفكر.

والنذر: جمع نذير، وهو صاحب النذارة، وهو التخويف والإعلام بموضع المخافة ليتحرز منه.

والانتظار: توقع ما يكون من الحال.

الإعراب

(كذلك) الكاف للتشبيه، شبه نجاة من بقي بنجاة من مضى، في أنه حق، فأما العامل في (ننجي) فيحتمل أن يكون «ننجي» الأول، أي: ننجي رسلنا والذين آمنوا،

(١) السبعة في القراءات ١٧٥.

(٢) في أصل ض فوق كلمة: (بعضهم) كتب لفظة: (نصر).

(٣) حجة القراءات ٣٣٧.

كذلك الإنجاء، ويحتمل أن يعمل فيه الثاني، تقديره: كذلك حَقًّا، و(حَقًّا) نصب على الحال، وإن كان لفظه لفظ المصدر، عن أبي مسلم. وقيل: نصب على المصدر تقديره: كذلك نحق حَقًّا، و(ثم) حرف عطف، وتقدير الكلام: كانت عادتنا فيما مضى أن نهلكهم فريقًا فريقًا، ثم ننجي رسلنا، عن أبي مسلم.

۞ المعنى

ثم بَيَّنَ تعالى ما يزيد في تثبيتهم وإرشادهم، فقال سبحانه: «**قُلِ**» يا محمد لمن يسألك الآيات: «**انْظُرُوا**» تفكروا «**مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ**» من العبر والدلائل من اختلاف الليل والنهار، ومجرى النجوم والأفلاك وما خلق من الجبال والبحار، وما أنبت من الأشجار والثمار، وما أخرج من أنواع الحيوان، وما ينزل من السماء من أنواع المطر، ووقوف السماء بلا عمد، والأرض بغير عماد، وكل ذلك تدبير[1] يوجب أن له مدبرًا دبره، ومُقَدِّرًا قدره لا يشبهه «**وَمَا تُغْنِي**» لا تكفي «**الآياتُ**» الدلائل[2] «**وَالنُّذُرُ**» التخويف «**عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ**» فيه وجهان:

أحدهما: أن يكون (ما) للنفي، أي: لا تغني عنهم هذه الآيات لدفع العذاب إذ لم يتفكروا فيها كقولك: ما يغني المال عنه شيئًا؛ إذ لم ينفقه في وجوهه، عن أبي علي، ومعناه: أنهم لا ينتفعون بها، وإنما ينتفع المتفكر فيها.

الثاني: أن تكون (ما) استفهاما كقولك: أي شيء يغني عنك من اجتلاب نفع أو دفع ضرر إذا لم يستدلوا بها، والآيات: الدلائل، والنُّذُر: العلماء، وقيل: الرسل، وكان الحسن إذا قرأ هذه الآية هتف بها وقال: وما تغني الحجج عن قوم لا يقبلونها، يعني لا يؤمنون بشيء يلزمهم الإيمان به، وقيل: من قوم شأنهم الرد والتكذيب والإعراض عما يشاهدون، ويسمعون، عن الأصم.

«**فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ**» يعني هؤلاء المشركين «**إِلاَّ مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا**» مضوا «**مِنْ**

---

(١) تدبير: تقدير، ض.

(٢) الدلائل: والدلائل، ض.

﴿قَبْلِهِمْ﴾ يعني يومًايعاينون العذاب نزل بهم كما عاين من مضى من الأمم كعاد وثمود وغيرهم. وأيام الله قيل: وقائعه، عن قتادة، وقيل: هل ينتظرون إلا وقائع كوقائع من كان من قبلهم، وقيل: معناه هل ينتظرون إلا مثل وقعة بدر، قال الأصم: وليس بصحيح؛ لأن هذه السورة مكية. **﴿قُلْ﴾** يا محمد لهم: **﴿فَانْتَظِرُوا﴾** ما يخوفكم به من العذاب وأيام الله تنزل بكم، كما نزل بمن كان قبلكم **﴿إِنِّي مَعَكُمْ﴾** منتظر لنزول ذلك بكم، عن أبي علي. وقيل: انتظروا ما أُخَوِّفُكم، فأنا أنتظر ما تخوفوني، عن الأصم، ليظهر حقيقة ما أخوف، وبطلان ما تخوفون، وقيل: انتظروا موعد الشيطان، فأنا أنتظر موعد الرحمن، حكاه الأصم. وقيل: انتظروا سوء عواقبكم، فأنا أنتظر لكم ذلك، وقيل: فانتظروا العقاب لكم، فأنا أنتظر الرحمة لي، ولمن تبعني.

ومتى قيل: ما ينتظره الرسول لا بد من وقوعه، فماهو؟ وأيضًا فقد أمنوا نزول العذاب، فما ينتظر فيهم؟

قلنا: لا بد من تخويف بعذاب معجل أو مؤجل، وما ينتظر لا بد من وقوعه، إما أن يكون سبيهم وقتلهم، أو[1] عذاب[2] الآخرة المعد لهم، وعلى المعنى الآخر ينتظر النصرة والرحمة، ولا بد من وصوله إليه، وإلى من تبعه.

﴿ثُمَّ نُنَجِّي﴾ نخلص **﴿رُسُلَنَا﴾** من العذاب وقت نزوله، وقيل: من شرور أعدائهم ومكرهم **﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾** أي: وننجي المؤمنين **﴿كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا﴾** أي: واجب علينا **﴿نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾** من أذى[3] الكافرين وشرهم، عن أبي علي. وقيل: حقًّا تأكيد، كقولك: هو زيد حَقًّا، والمعنى: كان واجبًا علينا نجاة المؤمنين، كذلك حَقًّا علينا نجاة هؤلاء.

❁ الأحكام

تدل الآية على توحيد الله تعالى وعدله إما بنفسه، وإما بواسطة؛ لأن السموات

(١) وإما: أو؛ ش، ض.

(٢) عذاب: وعذاب، ض.

(٣) أذى: + ، ض.

وما فيها أجسام وأعراض، والأجسام لا تخلو من الأعراض، والأعراض محدثة، وكذلك الأجسام، وإذا ثبت حدوث الأجسام فلا بد لها من محدث مخالف لها، وثبت أن الفعل المحكم لا يصح إلا من قادر عالم، وأن القادر العالم لا يصح إلا وهو حي موجود، وأن الموجود لو كان محدثًا لاحتاج إلى محدِث فيتسلسل، وإذا ثبت كونه حَيًّا لا آفة به كان سميعًا بصيرًا، وإذا ثبت منه الفعل والخطاب لا بد أن يكون مدبرًا، وإذا علم قبح القبيح وأنه غني عن فعله لا يفعله فكان جميع أفعاله حسنة، وإذا لم يجز عليه المنافع خلق الخلق لمنافعهم، فإذا كلفهم لا بد أن يزيح عللهم، ومن العلل الألطاف، ومن ذلك النبوات والشرائع، فعلى هذا الترتيب تدل على توحيده وعدله والنبوات والشرائع.

وتدل على وجوب النظر، وبطلان التقليد.

وتدل على أن الأفعال حادثة من جهتهم حتى تفيد نصب الآيات، فيبطل قولهم في المخلوق.

وتدل على أن نجاة المؤمن واجبة عليه تعالى لذلك قال: «**حَقًّا علينا**» ولفظة (على) تنبئ عن الإيجاب، و(حَقًّا) تنبئ عن الوجوب، خلاف ما يقوله بعضهم أنه لا يجب عليه شيء، وفي قوله: «**حقا علينا**» إشارة إلى أن تمكين الظالم لا يصح إلا بشرط ضمان الانتصاف منه للمظلوم.

قوله تعالى:

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾﴾

۞ اللغة

الشك: وقوف في المعنى ونقيضه كمن يشك كون زيد في الدار فلا يكون لإحدى الصفتين عنده مزية على الأخرى، فيقف، وقيل: الشك معنى غير الاعتقاد، عن أبي علي، وكان يقول ذلك أبو هاشم، ثم رجع فقال: ليس بمعنى، وهو اختيار القاضي.

والتوفي: قبض الشيء على التمام، ومنه: وَفَى، واستوفى، وتوفيت حقي من فلان، واستوفيته بمعنى.

والإقامة: نصب الشيء، ونقيضه: الإضجاع، وأصله من القيام: خلاف القعود، ومنه: أقام بالمكان: إذا استمر فيه، كاستمرار القيام في جهة الانتصاب.

والوجه: جارحة معروفة، وهو ما واجهك، ويستعمل بمعنى[1] الجهة، كقولك: معلوم من وجه كذا، ويستعمل بمعنى عين الشيء كقولك: هذا وجه الرأي، ومنه: ﴿وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ﴾ [الرحمن: ٢٧].

والحيف: قيل: أصله الميل، ويسمى الحيف؛ لأنه يميل إلى الحق، وقيل: أصله الاستقامة، وقيل لمائل القدم: أحنف، تفاؤلاً، كما يقال: مفازة.

المماسة بين الشيئين: اتصال من غير انفصال، وهما كونان في محلين متجاورين، وقيل: هو التأليف الذي يحل جزأين، ويتولد من الكون.

والكشف: رفع الساتر.

۞ الإعراب

«**إن كنتم**» شرط وجوابه في قوله: «**لا أعبد**».

ومتى قيل: كيف يصح ذلك، وهو لا يعبد غيره شَكُّوا أم لا؟

قلنا: لأن معناه: إن كنتم في شك فلا تطمعوا في تشكيكي حتى أعبد غير الله كعبادتكم.

(١) بمعنى: في معنى، ض.

وقيل: لأن معناه إن كنتم في شك فلا أشك أنا.

والباء في قوله: «**بخير**» وقيل: معناه: وإن يرد لك خيرًا، فجرى مجرى التقديم والتأخير، وسواء قولك: يردك بخير، أو: يردك خيرًا، فأما الإرادة فتتعلق بالخير؛ لأنها تتعلق بحادث.

والواو في قوله: «**وإن يمسسك**» قيل: واو استئناف، وليست بواو عطف تقديره: وإن يمسسك بضر من جهته لا يكشفه غيره.

۞ المعنى

ثم أمره تعالى بالبراءة من كل معبود، فقال سبحانه: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ**» خطاب للكفار؛ لأن المؤمن لا يشك في نبوته ودينه، فهو عام والمراد به الخصوص، ويحتمل العموم ويكون المراد التقدير «**إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي**» أَحَقٌّ هو أم لا.

ومتى قيل: كيف ذَكَرَ الشك، وهم لا يشكون في بطلان دينه؟

قلنا: فيه ثلاثة أوجه:

الأول: أنه على التقدير أي: من كان شاكًا في أمره فهذا حكمه.

الثاني: أنهم في حكم الشاك لاضطراب أنفسهم عند ورود الآيات.

الثالث: أن فيهم الشاك، فجرى على التغليب.

ومتى قيل: فالكفار يعلمون هذا مِنْ دِينِهِ، فما فائدة هذا القول؟

قلنا: زيادة في البيان، وزجرًا عن الشك والجهل، وقيل: كان فيهم من ينسبه إلى الشك، فَرَدَّ عليهم ذلك.

«**فَلا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ**» أي: من ديني الذي أدعوكم إليه، وهو الإسلام ألاّ أعبد شيئًاسوى الله مما تعبدون من الأوثان التي لا تنفع ولا تضر، وقيل: أُوَحِّدُ الله، وأتبرأ من الأوثان «**وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ**» قيل: يقدر أن يميتكم، ويقبض أرواحكم، وقيل: أحياكم لأنه[1] الذي تحق له العبادة، وهو لقدرته على

(١) لأنه: لأن، ض.

أصول النعم وإلهيته «وَأُمِرْتُ» أي: أمرني ربي «أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ» من المصدقين بالتوحيد وإخلاص العبادة له، وقيل: (مِنْ) بمعنى (مع) أي: أمرت بالكون مع المؤمنين لا معكم «وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ» أي: أمرت أن تقيم وجهك، قيل: أراد بالوجه نفسه، وقيل: معناه استقم في الدين بإقبالك على ما أُمِرْت به بوجهك، وقيل: أقم عملك، عن ابن عباس. وقيل: أراد أقم وجهك للصلاة بالتوجه نحو الكعبة، والأول أوجه «حَنِيفًا» مستقيمًا في الدين «وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ» أي: لا تشرك، فتكون من جملتهم، وقيل: لا تكن معهم «وَلا تَدْعُ» أي: أمرت، وقيل: كي لا تدعو «مِنْ دُونِ اللَّهِ» أي: لا تدعه إلهًا كفعل المشركين يدعون الأوثان آلهة، وقيل: لا تدعه دعاء الإله، وقيل: لا تعبده أي: لا تعبد سوى الله مما لا ينفعك إن أطعته ولا يضرك إن عصيته وتركته.

ومتى قيل: كيف يصح هذا، ومن ينفع ويضر لا يجوز أن يعبد أيضًا؟

قلنا: فيه وجهان:

الأول: لا ينفعك ولا[1] يضرك نَفْعَ الإله وضُرِّهِ، كالصحة والسقم، والموت والحياة ونحوها.

والثاني: لأنه أخسر للصفقة، وأبعد من الشبهة: عبادة جماد لا ينفع ولا يضر.

«فَإِنْ فَعَلْتَ» أي: عبدت غير الله أيها السامع، وقيل: المراد غير النبي [ﷺ]، وإن كان الخطاب له «فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ» لنفسك حيث توبقها «وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ» كأنه لَمَّا بَيَّنَ أن غيره لا ينفع ولا يضر عَقَّبَهُ ببيان أنه القادر على النفع والضر، وإذا فعل فلا دافع ولا مانع، فقال سبحانه: «وَإِنْ يَمْسَسْكَ» أي: يصبك من جهته «بِضُرٍّ» بلاء وشدة ومرض، «فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ» أي: لا يقدر أحد على كشفه غيره، «وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ» صحة جسم ونعمة وخصب ونحوها «فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ» لا يقدر على منعه أحد.

ومتى قيل: لما فصل بين الخير والضر وجميعه عندكم خير؟

قلنا: فيه وجهان:

(١) لا: + ، ض.

أحدهما: أن المَضَارَّ تنفر منها النفس، كما أن النعم تسر منها[1] النفس، فالواجب في أحدهم الصبر، وفي الآخر الشكر، وأحدهما نفع في الحال، والآخر عاقبته نفع، فلذلك فصل.

والثاني: أن من المضار ما يكون عقوبة، والخير لا يكون إلا رحمة.

ومتى قيل: كيف قيل: «**فلا راد لفضله**» ونحن نرى كثيرًا من الظلمة يردون فضل الله عن الناس؟

قلنا: لا يقدر [أحد] على رد فضل الله، ولكن يمنعون بعض الضعفاء عنه، كالأرزاق يخلقها الله تعالى، وهذا كالشمس يخلقها الله تعالى وينورها لعباده فلا يقدر أحد على رد ضيائها، ولكن يمنعه من الانتفاع به.

«**يُصِيبُ بِهِ**» بالخير «**مَنْ يَشَاءُ**» فيعطيه على ما يعلمه من المصالح «**وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ**» الغفور لمن تاب من ذنبه فلا يعاقبه، ويستره عليه، رحيم بالإنعام على خلقه، وقيل: لما ذكر المضار، وفيه العقوبات استدعى إلى التوبة بأنه غفور رحيم.

۞ الأحكام

تدل الآية على النهي عن الشك في الدين، وعبادة غير الله.

وتدل على أن للقدرة على النفع والضر مدخلاً في استحقاق العبادة، وهو أن يقدر على أصول النعم كالخلق والحياة، والشهوة والنعم، ولا يقدر عليه غيره تعالى، فلا يستحق العبادة إلا هو.

وتدل على أن هذه العبادات فعل العباد، لذلك تعلق به الأمر والنهي، ولو كان خَلْقَهُ لما صح ذلك.

قوله تعالى:

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾

---

(١) منها: منه، ش، ض.

۞ اللغة

الصبر: أصله حبس النفس على المكروه، قال أبو العباس: الصبر ثلاثة أشياء: الحبس، والإكراه، والجرأة، ومنه يقال: أَصْبَرَهُ الحَاكِم عَلَى اليَمِينِ أي: أكرهه على يمين، ﴿فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ﴾ [البقرة: ١٧٥] أي: أجرأهم، وقيل: [مات] صَبْرًا هو أن يُحْبَس ثم يقتل.

۞ المعنى

ثم ختم تعالى السورة بعد ذكر الوعد والوعيد بالوعظ الجميل تسلية له، ووعدًا للمؤمنين، ووعيدًا للكافرين، فقال تعالى: «قُلْ» يا محمد: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ» خطاب عام للمكلفين «قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ» يعني القرآن ودين الإسلام وشرائعه، والأدلة الدالة على صحتها، عن أبي مسلم. وقيل: جاءكم النبي والمعجزات الظاهرة، وقيل: جاءكم الحق الذي يجب له عليكم، وهو ما تَعَبَّدَ به خلقه، عن الأصم. «فَمَنِ اهْتَدَى» قَبِلَ الحق وسلك طريقة الهدى «فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ»؛ لأن نفع ذلك يعود إليه، وهو الثواب المستحق عليه «وَمَنْ ضَلَّ» عن طريق الحق «فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا"؛ لأنه يجني على نفسه، ومضرته تعود عليه بالعقاب الدائم «وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ» أي: لست بحفيظ لكم عن الهلاك والعذاب، ولا دافع عنكم بعد البلاغ والبيان وإزاحة العلة، وإنما الأمر إليكم بعد ذلك، عن أبي علي. وقيل: لست بوكيل في منعكم عن اعتقاد الباطل، وقيل: لست بكفيل لكم يعني لا أؤاخَذ بذنبكم «وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ» من القرآن والدين، واتِّبَاعُهُ: أداؤه إلى أمته والعمل به، واصبر[(١)] على مشقة ذلك، وقيل: اصبر على أذى أعدائك وتكذيبهم «حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ» يفصل بينك وبينهم في الدنيا بنصرك وقهرهم، وظهور دينك، وبطلان دينهم، وفي الآخرة بإثابتك ومَنْ تبعك، وعقوبة من عصاك، والأخذ من الظالم للمظلوم، وقيل: حتى يحكم الله بالهجرة والقتال، وقيل: يحكم من إظهار دينه وعلو أمره «وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ» أي: أنه[(٢)] لا يحكم إلا بالعدل.

---

(١) واصبر: والصبر، ض.

(٢) أنه: +، ض.

۞ الأحكام

تدل الآية على أن الحق الذي جاء يعرف بالأستدلال[1]؛ لذلك قسمهم بين مهتد وضال، خلاف ما يقوله أصحاب المعارف.

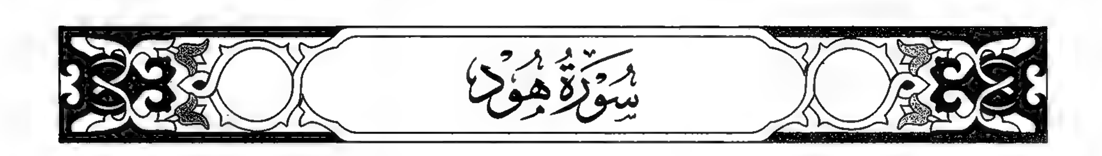
وتدل على صحة الحجاج في الدين.

وتدل على أن الاهتداء والضلال من فعل العبد؛ لذلك صح الذم والمدح والثواب والعقاب، ولو كان من خلقه لما صح ذلك، ولأنه كان لا يكون محسنًا إلى نفسه بالهداية ولامسيئًا بالضلال؛ لأنه الذي أوجده فيه فيبطل قول مخالفينا في المخلوق.

وتدل على أن العبد مُمَكَّنٌ من الأمر مختار، لولا ذلك لما صح الكلام، فيبطل قولهم في المخلوق والاستطاعة والإرادة.

وتدل على أن الرسول يتبع الوحي، ولا يسن ولا يحكم من تلقاء نفسه، خلاف ما قاله بعضهم أنه يبتدئ الشرع من قِبَلِ نفسه.

(١) بالاستدلال: باستدلال، ش، ض.



سورة هود

مكية وهي مائة وثلاث عشرة آية.

۞ القصة[1]

قال الأصم: ذكر بعضهم أن فيها آية مدنية، وهي قوله: «أَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ»، وليس كما قال، وروى أبو بكر عن النبي ﷺ أنه قيل له: أسرعَ إليك الشيب، فقال: «شيبتني هود وأخواتها»[2] (الحاقة)، و(الواقعة)، و(عم يتساءلون) و(الغاشية)، واختلفوا، فقيل: أراد بقوله: «شيبتني هود» أراد قوله[3] وقيل: ما فيها من الوعد والوعيد، وذكر القيامة، فآخر[4] الخبر يدل على هذا الوجه، وروى ذلك أبو جحيفة عن النبي ﷺ.

وفي خبر أبيٍّ: «من قرأ سورة هود أعطي من الأجر عشر حسنات، بعدد من صدق بهود، وصالح، وشعيب، وإبراهيم، وموسى، وكان يوم القيامة مع الشهداء إن شاء الله».

ولما ختم السورة بذكر القرآن بقوله: ﴿وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ﴾ [يونس: ١٠٩] افتتح هذه السورة ببيان ذلك الوحي، وأنه هو هذا الكتاب فصلت آياته وأحكمت، وأنه من عند الله تعالى.

---

(١) مكية وهي... القصة: ـ، ض.

(٢) الترمذي رقم ٣٢٩٧، والمستدرك رقم ٣٣١٤، والمعجم الكبير رقم ٥٨٠٤.

(٣) قوله: لقوله؛ ش، ض.

(٤) فآخر: وآخر، ض.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى:[1]

﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ۝٢ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ۝٣ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٤﴾

اللغة

الإحكام: منع الشيء من الفساد، وأصل الباب: المنع، ومنه: الحِكْمَة؛ لأنها تمنع من فعل الفساد، ومنه: حَكَمَة الدابة[2]، ومنه:

أَبَنِي حَنِيفَةَ أَحْكِمُوا سُفَهَاءَكُمْ[3]

أي: امنعوا، يقال: أحكم يُحْكِمُ إحكامًا، والحكيم في صفات الله تعالى يحتمل وجهين: أحدهما: بمعنى يُحْكِمُ «فعيل» بمعنى «مُفْعِل»، أي: يحكم أفعاله، فهو على هذا من صفة فعله، ويستعمل بمعنى عليم، فيكون من صفة ذاته؛ لأنه لم يزل عليمًا[4] لذاته.

والفصل: مصدر فصلت الشيء فصلاً، والفصل: الحُكْم[5] ؛ لأنه يفصل بين الخصومة، وتفصيل كل شيء: تبيينه.

والنذارة: الإعلام بموضع المخافة ليتقى.

---

(١) قوله تعالى: ـ ، ض.

(٢) الدابة: للدابة، ض.

(٣) البيت قاله جرير، وتمامه: إنِّي أخافُ عَلَيْكُمُ أَنْ أَغْضَبَا انظر في: الصحاح (حكم)، والعين(كم)، واللسان (حكم)

(٤) عليما: عليم، ض.

(٥) الحكم: الحاكم؛ ش، ض.

والبشارة: إعلام بما يظهر سروره في بشرة الوجه، وبشير ومبشر بمعنى، إلا أن في «بشير» مبالغة.

والاستغفار: طلب المغفرة.

۞ الإعراب

﴿الٓر﴾ محله رفع بالابتداء، وخبره: «**كتاب**»، وقيل: «**كتاب**» رفع؛ لأنه خبر ابتداء مضمر، أي: هذا كتاب.

وموضع «**أن لا تعبدوا**» من الإعراب يحتمل وجهين: الرفع على إضمار، تقديره: وفي ذلك الكتاب ألا تعبدوا، ويحتمل النصب بنزع الخافض، تقديره: بألا تعبدوا، وقيل: لئلاتعبدوا، عن الأصم.

ويقال: ما معنى (أن)؟

قلنا: يحتمل وجهين:

أحدهما: أن يكون بمعنى المصدر، كقولك: كتبت إليه ألا يخرجَ.

الثاني: معناه بأن، أو لأن.

و«**يمتعكم**» جزم؛ لأنه جواب الأمر[1]، و(إلا) في قوله: «**ألا تعبدوا إلا الله**» معناه: الإيجاب للمذكور بعدها، ونفي ما سواه، وهو بمنزلة الاستثناء، تقديره: لا تعبدوا أحدا[2] إلا الله.

۞ المعنى

قد مضى تفسير ﴿الٓر﴾، وبيّنّا الأقاويل فيها، وأن أولى الأقاويل ثلاثة:

أولها: أنه اسم للسورة، على ما قاله الحسن وأبو علي.

الثاني: أنه إشارة إلى إعجاز القرآن من حيث تألفه من هذه الحروف، وأنتم تتكلمون بها، وعجزتم عن مثلها.

---

(١) الأمر: للأمر، ض.

(٢) أحدا: واحدا؛ ش، ض.

الثالث: أن لكل حرف منها معنى، وهو حرف من اسمه تعالى، على ما روي عن ابن عباس.

ومن قال: بالأول والثاني يستدل بأنه عقب الحروف في جميع القرآن بذكر الكتاب.د

وقيل: (الر) أنا الله أرى، «**كِتَابٌ**» يعني القرآن.

«**أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ**» فيه أقوال:

الأول: أحكمت الآيات ولم ينسخ منها شيء كما نسخت الكتب والشرائع، «**ثُمَّ فُصِّلَتْ**[1]» ببيان الأحكام والحلال والحرام، عن ابن عباس.

الثاني: أحكمت آياته بالأمر والنهي، ثم فصلت بالوعد والوعيد والثواب والعقاب، عن الحسن، وأبي العالية.

الثالث: أحكمت آياته من الباطل، ثم فصلت بالحلال والحرام، عن قتادة.

الرابع: أحكمت آياته بالجملة، ثم تليت[2] وفرقت[3] بذكر آية آية، عن مجاهد.

الخامس: أحكمت آياته في كونها حجة، ثم فرقت في وجوه ما احتيج إليه، عن الأصم.

السادس: أتقنت فلا خلل فيها، ثم فصلت بإنزال آية آية ليتدبروا ويتفكروا، ويتفقهوا، عن أبي علي.

السابع: أحكمت نظمه بأن جعل على أبلغ وجوه الفصاحة حتى صار معجزًا، «**ثُمَّ فُصِّلَتْ**» بالشرح والبيان للفروض التي بينه، فكأنه قيل: محكم النظم، مفصل الآيات مشروحة مبينة، عن أبي مسلم.

«**مِنْ لَدُنْ**» أي: هذا الكتاب الذي أتاكم من عند «**حَكِيمٍ خَبِيرٍ**» أي[4] : حكيم في

---

(١) ثم فصلت: وفصلت، ش.

(٢) تليت: تثبت، ش.

(٣) وفرقت: وفرق؛ ش، ض.

(٤) خبير أي: + ، ض.

أفعاله وتدابيره، خبير[1] عالم بأحوال خلقه ومصالحهم، عن الأصم، وأبي علي، وأبي مسلم.

ثم بَيَّنَ تعالى ما في الكتاب وفصله، فقال سبحانه: «**أَلاَّ تَعْبُدُوا**» قيل: معناه أنزل الكتاب لئلا تعبدوا غير الله «**إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ**[2]» أي: قل يا محمد، إنني لكم منه نذير لمن عصاه وعَبَدَ غيره بالنار، «**وَبَشِيرٌ**» مبشر لمن أطاعه بالجنة «**وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ**» قيل: (ثم) بمعنى الواو، عن الفراء، أي: استغفروا وتوبوا، وقيل: (ثم) للتعقيب؛ أي: اطلبوا المغفرة بأن تجعلوها غرضكم، ثم توصلوا إليها بالتوبة.

ومتى قيل: لم جمع بين الاستغفار والتوبة؟

قلنا: قيل: اطلبوا المغفرة، واطلبوها بالتوبة، فالتوبة سبب طلب المغفرة المقصودة، وقيل: استغفروا ربكم من الذنوب السالفة، ثم توبوا إليه من الذنوب المستأنفة متى وجدت منكم المعصية، عن أبي علي.

وقيل: استغفروا من سالف ذنوبكم، ثم توبوا بألا تعودوا إليها، وتعبدوا الله وحده، وأطيعوا أمره، عن أبي مسلم.

وقيل: استغفروا مما سلف، وارجعوا بالطاعة فيما يستأنف.

«**يُمَتِّعْكُمْ**» يعني: إذا فعلتم ذلك يمتعكم في الدنيا «**مَتَاعًا حَسَنًا**» أي: يعيشكم عيشًا في خفض ودعة، وأمن وسعة، ويبسط لكم في العمر والنعم، ولا يهلككم «**إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً**» إلى وقت مسمى، وهو وقت موته الذي كتب الله له «**وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ**» قيل: ذي فضل في الدين والطاعة، وهو المطيع لله العابد له دون غيره، وسماه ذا فضل لعظم منزلته، وقيل: ذي فضل: المفضل على عباده، وقيل: ذي فضل: ذي عمل صالح، فَضْلُهُ: أَجْرُهُ وثوابه على قدر عمله، سمي الجزاء على

---

(١) خبير: ـ، ض.

(٢) نذير: +، ض.

الشيء باسم ذلك الشيء، والهاء في «**فضله**» قيل: يعود إلى ذي الفضل؛ لأن منازلهم في الطاعة تختلف فلا يُسَوَّى[1] بينهم، بل يُعْطَى كلُّ أحد بقدر عمله، وقيل: يعود على اسم الله تعالى، أي: يعطي كل ذي فضل من فضل الله، ومعنى يؤتي: يعطي «**وَإِنْ تَوَلَّوْا**» أعرضوا عما أمروا به، وقيل: المراد فإن تتولوا فحذف التضعيف «**فَإِنِّي أَخَافُ**» أي: فقل: إني أخاف «**عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ**» وهو يوم القيامة؛ لأنه يوم[2] كبير شأنه، وقيل: لأن فيه ثوابًا دائمًا وعقابًا دائمًا، وقيل: لأنه يحشر فيه الخلائق «**إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ**» يعني في ذلك اليوم مصيركم إلى حكمه؛ لأن حكم غيره يزول، وقيل: مرجعكم أي: مصيركم إليه، بأن يعيدكم للجزاء، وقيل: يعيدكم إلى مثل حالكم في الابتداء، فلا يملك أحد لكم سواه نفعًا ولا ضرًا «**وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**» من الإعادة والبعث والجزاء، فاحذروا مخالفته.

۞ الأحكام

تدل الآيات على حدث القرآن من جهات:

أحدها: قوله: «**أحكمت**»، ولا يصح ذلك إلا في الفعل.

وثانيها: قوله: «**فصلت**»، والتفصيل يصح في الأفعال.

وثالثها: «**من لدن حكيم**»، وهذه الإضافة لا تصح إلا والكلام محدث لاستحالة أن يكون القديم صادرًا عن جهة غيره.

وتدل على أن القرآن كلامه، وأنه لا خلل فيه من زيادة ونقصان، وتغيير أو مناقضة؛ لذلك وصفه بالإحكام.

وتدل على أن رأس الإيمان هو التوحيد، وعبادة الله وحده، لذلك افتتح السورة به.

وتدل على أن المطيع مُبَشَّرٌ بالجنة، والعاصي بالنار، جزاء على أعمالهم.

وتدل على إثبات المعاد، والقديم سبحانه يختص بالقدرة على الإعادة، فلا يقدر عليها غيره.

---

(١) يسوَّى: يستوى، ش.

(٢) يوم: ـ ، ض.

وتدل على أن الجزاء على الأعمال لذلك قال: «**وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ. . .**» الآية، فأوجب الجزاء على العمل، خلاف ما يقوله أهل الجبر.

وتدل على أن الاستغفار والطاعة والتوبة والتولي فِعْلُ العبد، فيبطل قولهم في المخلوق.

قوله تعالى:

﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٥﴾ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَاۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾﴾

القراءة

قراءة العامة: «**يثنون**»، وعن ابن عباس: (يَثْنَوْنَى) على وزن: يَحْلَوْلَى.

«**صُدُورُهم**» بالرفع، بجعل الفعل للصدور، أي: تكتوي.

اللغة

الثني: عطف الشيء بعضه على بعض، يقال: ثنيت الثوب وغيره، عطف بعضه على بعض حتى يخفى داخله، ومنه: الاثنان لعطف أحدهما على الآخر في المعنى، ومنه: فاتحة الكتاب سميت مثاني؛ لأنها تثنى في كل ركعة، ومنه: الثناء لعطف المناقب في المدح، ومنه: الاستثناء؛ لأنه عطف عليه بالإخراج منه، فأما قراءة ابن عباس (يَثْنَوْنَى) على وزن (يَفْعَوْعَل) فمعناه المبالغة في الشيء كقولك: اِجْلَوْلَى الغيب.

والدابة في الأصل: الذي من شأنه الدبيب، ودب يَدِبُّ دبيبًا، وفي العرف صار مختصًّا بنوع، وقد ورد القرآن بها على الأصل بقوله: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ﴾، ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ﴾ [النور: ٤٥].

والمستقر: «مستفعل» من القرار، وهو الموضع الذي يقر فيه الشيء، وهو قراره ومكانه.

۞ الإعراب

(من) في قوله: «من دابة» قيل: صلة وتأكيد؛ لأن المعنى لا دابة إلا ورزقها على الله، كقولك: ما أتاني من أحد.

۞ النزول[1]

قيل: نزلت في الأخنس بن شريق، وكان حلو الكلام، حلو المنظر، يلقى رسول الله ﷺ بما يحب، وينطوي بقلبه[2] على ما يكره.

وقيل: نزلت في بعض المنافقين، كان إذا رأى رسول الله ﷺ ثنى صدره وظهره، وطأطأ رأسه، وغطى[3] وجههُ[4] كيلا يراه النبي ﷺ، عن عبد الله بن شداد.

وقيل: قال المشركون: إنا لنغلق أبوابنا، ونرخي ستورنا، ونستغشي ثيابنا، ونثني صدورنا على ما نسر من عداوة محمد، وما يعلم به أحد، فأنزل الله تعالى هذه الآية، عن الأصم.

۞ المعنى

لما تقدم ذكر القرآن والدعاء إلى الإسلام بَيَّنَ تعالى فعلهم عند سماعه، فقال سبحانه: «أَلَا إِنَّهُمْ» يعني الكفار، وقيل: المنافقين، والأول أصح؛ لأن النفاق كان بالمدينة «يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ» قيل: يثنون على عداوة النبي ﷺ، عن الفراء[5]، والزجاج[6]. وقيل: ما هم عليه من الكفر، عن الحسن، وقيل: يثني صدره على سبيل الانحناء في خطابه لكافر مثله، عن أبي علي، وقيل: ولى ظهره إذا رأى رسول الله ﷺ، عن عبد الله بن شداد، وقيل: يخفون ما في صدورهم، عن ابن

---

(١) النزول: النظم، ض.
(٢) بقلبه: قلبه، ش.
(٣) وغطى من: وغطى، ض.
(٤) وجهه: جهة، ش، ض.
(٥) معاني القرآن للفراء ٢/ ١٥٢.
(٦) معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٣/ ٣٨.

عباس، ومعناه: يجعلون العداوة في ثني قلوبهم، فكنى بالصدر عن القلب، والقلب معدن العداوة، وقيل: يثنون صدورهم شكًّا وامتراءً في الحق، عن مجاهد، وقيل: يخفون صدورهم كيلا يسمعوا كلام الله، عن قتادة، وقيل: يعرضون بقلوبهم عنك، عن السدي. «**لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ**» ليخفوا ما فيه من الكفر، قيل: من الله جهلاً منهم، عن الحسن، ومجاهد، وأبي علي، والأصم؛ لأنهم لم يعلموا أنه عالم لذاته لا يخفى عليه شيء، وقيل: ليخفوا من النبي ﷺ[1]، عن عبد الله بن شداد. «**أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ**» يعني ألا أنه تعالى في وقت تغطيتهم رؤوسهم بثيابهم وإخفائهم بكل ما قدروا، وتناجيهم بأسرارهم وذلك أخفى ما يكون يعلم إسرارهم، عن الأصم، وأبي علي. وقيل: يستغشون ثيابهم كناية عن الليل، يعني حين يأوون إلى فراشهم، والمراد أنه تعالى يعلم السر في ظلم الليل تحت الثياب، فكيف تخفى عليه أسرارهم، وإذا اجتمع مع الستر ظلمة الليل كان أخفى، عن أبي مسلم. «**يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ**» يخفون «**وَمَا يُعْلِنُونَ**» يظهرون «**إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ**» يعني بالأسرار التي في القلوب، عن الأصم، وأبي علي، وأبي مسلم. «**وَمَا مِنْ دَابَّةٍ**» أي: ليس دابة صغرت أو كبرت، ومن كل حيوان يدب على الأرض، وقيل: كل ما أكل فهو دابة «**إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا**» يعني قوتها، وهو المتكفل لذلك، و(على) تنبيه على الوجوب، وقيل: بمعنى (من) أي: من الله رزقها؛ لأنه تعالى خالق الأرزاق «**وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا**» فيه أقوال:

أولها: مستقرها حيث تأوي إليه على وجه الأرض، ومستودعها حيث تموت وتبعث منه، عن ابن عباس، والربيع.

وقيل: مستقرها في الرحم ومستودعها في الصلب، عن مجاهد.

وقيل: مستقرها في أصلاب آبائهم، ومستودعها في أرحام أمهاتهم.

وقيل: مستقرها الرحم، ومستودعها مكان موتها، عن عبد الله.

وقيل: مستقرها حيث تستقر فيه في حياته، والمستودع الرحم، عن أبي مسلم، قال: ويجوز أن يراد بالمستودع: ما أودعته وهو الباطن من أمرها.

(١) صلى الله عليه وسلم: عليه السلام، ض.

وقيل: يعلم حيث[1] يتصرف وينقلب، ويعلم حيث يسكن[2]، عن أبي علي.

وقيل: مستقرها مأواها الذي تأوي إليه، ومستودعها يعني يعلم ما أودعها من تدبير الله الذي خلقها، عن الأصم.

وقيل: مستقرها وجه الأرض، ومستودعها بطن الأرض.

«كُلٌّ» يعني كل ذلك «فِي كِتَابٍ مُبِينٍ» أي: مثبت في اللوح المحفوظ، فثبته[3] لطفًا للملائكة وغيرهم، وفي الإخبار عنه[4] لطف لنا، وقيل: «في كتاب مبين» أي: في علم الله قبل كونه، يعني إذا علم كل شيء قبل[5] كونه، فكيف يقدرون[6] على إخفائه، عن أبي مسلم.

الأحكام

تدل الآية على أنه تعالى لا يخفى عليه شيء؛ لأنه عالم لذاته لا اختصاص لذاته بمعلوم دون معلوم، فيعلم الجميع.

وتدل على أنه تعالى هو الرازق، وأنه المتكفل برزق كل حي، وأنه أوجب ذلك على نفسه من حيث الحكمة.

وتدل على أن الرزق لا يكون إلا حلالاً؛ لأن الغاصب لا يجعل الله ما غصبه له؛ ولذلك يسترد منه، ويستحق الذم واللعن.

وتدل على أن ما فعلوا في قوله: «يثنون» و«يستغشون» فعلهم، فيصح قولنا في المخلوق.

---

(١) حيث: بحيث، ش.
(٢) يسكن: ليسكن، ش.
(٣) فثبته: مثبتة؛ ش، ض.
(٤) عنه: به، ض.
(٥) قبل: من، ض.
(٦) يقدرون: يقدر، ض.

قوله تعالى:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾﴾

القراءة

قرأ حمزة، والكسائي، وخلف بن هشام: «ساحر» بالألف[1]، يعنون النبي ﷺ، والباقون: «سحر» بغير ألف؛ يعنون القرآن.

اللغة

الأُمَّةُ: الجماعة على طريقة واحدة، وأصله: القصد، كأنها تقصد أمرًا واحدًا، ثم يستعمل في أشياء، فالأمة: الرجل الجامع للخير؛ لأنه يُقْصَدُ، ومنه: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ [النحل: ١٢٠]، والأمة: الدين، ومنه: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ [الزخرف: ٢٢] والأمة: الجماعة ومنه: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ [البقرة: ١٣٤]، والأمة: الصنف، ومنه: ﴿أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام: ٣٨]، والأمة: أتباع الأنبياء، ومنه: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ [آل عمران: ١١٠]، والأمة: المدة من الزمان، ومنه: ﴿وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف: ٤٥]، وسميت بذلك؛ لأن الأمة فيها تكون.

والحبس: المنع في خباء، حبسه يحبسه حبسًا، فهو محبوس، ومنه قول شريح: جاء محمد برفع[2] الحبس. أراد ما كان يحبسه أهل الجاهلية من البحيرة والسائبة، والوصيلة والحام، ومنه سمي الوقف حبسًا، وما روي أن خالدًا جعل أمواله ورقيقه وأعبده حبسًا في سبيل الله.

والأعتد: جمع العتاد، وهو ما أعده الإنسان من آلة الحرب.

---

(١) حجة القراءات ٣٢٧.

(٢) هكذا في المخطوطات. وكتب في ض فوق هذه الكلمة كلمة أخرى غير واضحة فيها طمس.

وحاق وحق بمعنى، عن أبي مسلم، وقيل: حَقَقْتُ عليه القضاء حقًّا، وأحققته إذا أوجبته، واستحق: استوجب، ويقال: حاققته فحققته[1] أي: خاصمته فخصمته، ومنه: الحديث: «فجاء رجلان يحتقان»[2] أي: يختصمان، والحِقاق: المخاصمة، كأن كل واحد منهما يقول: أنا أحق به، ومنه حديث علي: «إذا بلغ النساء نص الحقاق فالعصبة أولى»[3] يعني: بلغت، والحقيقة: ما يصير إليه حق الأمر ووجوبه، والحِقَّةُ: من الإبل: التي تستحق الركوب.

۞ الإعراب

(اللام) في قوله: «ليبلوكم» لام (كي) ومعناه الإرادة، يعني أراد بذلك ابتلاءكم.

و(اللام) في قوله: «لئن أخرنا» لام القسم، وليست بلام الابتداء. و(إن) حرف شرط، جوابه في جواب القسم، استغني به عن جواب آخر.

«أيكم» رفع على الابتداء. و«عملاً» نصب على التمييز «يومَ» نصب على الظرف «مصروفًا» نصب على خبر «ليس»، يعني ليس العذابُ مصروفًا عنهم.

۞ المعنى

ثم دل سبحانه على وحدانيته بعدما دعا إليه بما أظهر من آثار قدرته، فقال سبحانه: «وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ» فذكر بالجمع؛ لأنها سبع سماوات، وذكر الأرض؛ لأنه أراد جنس الأرض وإن كانت سبعًا «فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ».

ومتى قيل: فما الفائدة في هذه المدة مع قدرته على خلقها في لحظة؟

قلنا: لطفًا للملائكة ولمن شاهده، وهي توجد حالاً بعد حال فيكون الاعتبار أكثر وضبط آثار القدرة أقرب من أن توجد دفعة، وفي الخبر بذلك لطف[4] لنا.

---

(١) فحققته: وحققته؛ ش، ض.

(٢) سنن البيهقي الكبرى رقم ١٣٤٧٤.

(٣) سنن البيهقي الكبرى رقم ١٣٤٧٤.

(٤) لطف: لطفا؛ ش، ض.

«وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ» قيل: هو العرش المعروف كان على الماء قبل خلق السموات والأرض، ثم رفع، ووقوفه على الماء أبلغ في الاعتبار، وقيل: عرشه أي: بناؤه بخلق السموات والأرض على الماء، تقول: عرشت أعرش[1] عرشًا إذا بنيت، ومنه: ﴿وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ [النحل: ٦٨]، ومنه: ﴿خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ [البقرة: ٢٥٩] بنائها، وإنما قال ذلك؛ لأن بناءها على الماء أعجب وأبدع، عن أبي مسلم. «لِيَبْلُوَكُمْ» ليعاملكم معاملة المختبر، ليظهر إحسان المحسن وإساءة المسيء على ما عمله[2]، يعني ليكون الجزاء على الأعمال؛ لأن حقيقة الاختبار لا تجوز عليه مع كونه عالمًا لم يزل بجميع الأشياء «أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً» قيل: أيكم عمل بطاعة الله، عن ابن[3] عباس؛ لأن أحسن الأعمال ما فيه طاعة الله، وقيل: أيكم أتقى، عن مقاتل، وقيل: أيكم أزهد، عن الحسن، وقيل: خلق جميع ذلك لأن تحسنوا العمل «وَلَئِنْ قُلْتَ» لهم يا محمد «إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ» للحساب والجزاء «لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا» ردًّا[4] تكذيبًا «إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ» أي: ليس هذا إلا سحر تمويه لا حقيقة له، وهو قوله: ﴿إِنَّكُم[5] مَّبْعُوثُونَ﴾، وقيل: هذا القرآن سحر، وقيل: ما يقول محمد سحر، فالأول عن أبي مسلم، والثاني عن جماعة، والثالث عن أبي علي. وإذا قرئ (ساحر) فهم يعنون محمدًا ﷺ، «وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ» قيل: عذاب الاستئصال، وقيل: عذاب الآخرة، وقيل: ما نزل بهم يوم بدر «إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ» قيل: إلى جماعة معدودة علم أنه ليس فيهم من يؤمن، وقيل: إلى أجل معدود أي: محدود، «لَيَقُولُنَّ» يعني هؤلاء الكفار «مَا يَحْبِسُهُ» أي: يقولون على وجه التكذيب والاستهزاء: أين ذلك العذاب وما يحبسه حتى ليس ينزل؟! وقيل: قالوه استعجالاً جهلاً «أَلا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ» العذاب «لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ» أي: لا يصرف عنهم ذلك إذا نزل

(١) أعرش: لي عرش، ض.
(٢) عمله: علمه، ض.
(٣) ابن: + ، ض.
(٤) ردًّا: ردوا، ض.
(٥) إنكم: إنهم، ش، ض).

«وَحَاقَ بِهِمْ»، قيل: نزل بهم ما استحقوه من العذاب، عن أبي علي، وأبي مسلم، والأصم. «مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ» أي: وبال استهزائهم وجزاؤه.

الأحكام

تدل الآية على عظيم قدرته وحكمته في خلق السموات والأرض، وقد بينا كيفية دلالتها على إثبات الصانع وصفاته.

ويدل وقوف العرش على الماء على عظم قدرته سبحانه.

ومتى قيل: فأين قرار الماء؟

قلنا: لا يحتاج إلى قرار بل يمسكه الله تعالى بأن يخلق فيه السكون حالاً بعد حال، ولو احتاج كل جسم إلى قرار لتسلسل، وقال الأصم: ولم يكن ملتزقًا بالماء، وهو الظاهر.

وتدل على أنه تعالى خلق العرش قبل خلق السموات والأرض.

قال أبو علي: وتدل على أنه كان[1] قبل خلق السموات والأرض خلق ملائكة ليعتبروا بالعرش وبخلق السموات والأرض؛ لأنه لا يجوز خلق جماد إلا ومعه حي ينتفع به، وهذا مذهب شيخينا ومن تبعهما، فأما الإخشيدية فيجوِّزون ذلك، ويجعلون الفائدة الخبر عنه.

ويدل قوله: «ليبلوكم» على أنه خلق الخلق للتكليف، وهو مذهب العدلية؛ لأنه لولا التكليف لما حسن خلقه على هذا الوجه بما فيه من الآلام والتظالم.

قال علي بن عيسى: وتدل على أن الحسن قد يكون أحسن من حسن. قال القاضي: والحسن لا يدخل فيه التزايد، فالمراد أيكم أشد تمسكًا بطريقة الطاعات، واجتناب المعاصي، فالمراد[2] جملة الطريقة، لا عمل واحد.

وتدل على أنهم كانوا لا يؤمنون بالبعث؛ لذلك نسبوا قوله إلى السحر.

---

(١) كان: ـ ، ض.

(٢) فالمراد: والمراد، ض.

وتدل على أن العذاب إذا نزل بهم لا يصرف عنهم حَثًّا على التحرز قبل وقوعه، فالندم بعد وقوعه لا ينفع.

وتدل على أن أفعال العباد حادثة من جهتهم؛ ليصح الابتلاء؛ فيبطل قول مخالفينا في المخلوق.

قوله تعالى:

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَـٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾

اللغة

الذوق: تناول الشيء بالفم لإدراك الطعم، ذاق يذوق ذوقًا، والذوق: ذوق الأكل، وسميت نعم الدنيا ذوقًا لسرعة زوالها تشبيهًا بما يذاق ثم يزول، كما تسمى أحلام نوم.

وقال مشايخنا: الحواس خمس: الشم بالأنف للروائح، والذوق بالفم للمطعومات، والسمع للمسموعات بالأُذن، والعين للمرئيات، واللمس للحرارة والبرودة ونحوها.

قال القاضي: وفي الأربع لا بد من حاسة، فأما الحرارة والبرودة فتدرك بمحل الحياة، فلا يقال بأنها حاسة إلا توسعًا، والله تعالى يدرك جميع هذه الأشياء لا بحاسة.

قال أبو القاسم: معنى إدراكها علمه بها.

والنزع: قلع الشيء عن مكانه.

واليؤوس «فَعُول» من يائس فهو يَؤُوس، أي: كثير اليأس، وهو القطع على عدم ما يتوقعه، ونقيضه: الرجاء[1] .

---

(١) الرجاء: الرخاء، ش.

والفرح والسرور من النظائر، وهو انفتاح في القلب، ونقيضه: الغم، والسرور والغم من جنس الاعتقادات، وليسا بجنسين من الأعراض عند مشايخنا، ومنهم من قال: هما جنسان.

والفخور «فَعُوْل» من الفخر، وهو الذي يكثر فخره، والفخر: عز القديم، وهو الفخر أيضًابفتح الخاء، قال أبو زيد: فخرت الرجل على صاحبه أَفْخَرُه فخرًا أي فضلته عليه، والفخير الذي يفاخرك على وزن الخَصِيم[1]، والفِخِّير بالتشديد: كثير الفخر.

۞ الإعراب

«إلا الذين» استثناء من الإنسان؛ لأنه اسم للجنس كقوله: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر: ١ ـ ٣] فهو على تأويل جمع.

۞ المعنى

ثم بَيَّنَ تعالى ما قابل به الإنسان نعمه من الكفران[2]، فقال سبحانه: «**وَلَئِنْ أَذَقْنَا**» أعطينا «**الإِنْسَانَ**» قيل: أراد به الكفار، عن الأصم. «**مِنَّا رَحْمَةً**» أي: نعمة قيل: هو كل خير في نفسه وماله وولده وجميع أرزاقه، عن أبي مسلم. «**ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ**» أي: سلبناها إذا رأينا المصلحة فيه «**إِنَّهُ لَيَؤُوسٌ**» أي: قنوط في[3] الشدة، كفور في النعمة، جهلاً منه بالصانع الحكيم، وأنه لا يعطي ولا يمنع إلا لمصلحة، وجهلاً منه بوجوه المصالح، ومعنى «**كَفُورٌ**» لمن أنعم عليه لا يشكره «**وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ**» أعطيناه «**نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ**» أي: بعد بلاء أصابه «**لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي**» أي: زالت الشدائد عني نحو المرض والفقر وغيره «**إِنَّهُ لَفَرِحٌ**» قيل: ليفرح بنعمة الدنيا ويظنها لمنزلة له،

---

(١) الخصيم: الخصم؛ ش، ض.

(٢) الكفران: الكفر، ش.

(٣) في: ـ، ض.

وقيل: هو الفرح الخالص، فإن المؤمن لا يخلص فرحه لجهله بالعواقب، وما يؤول إليه أمره «**فَخُورٌ**» كثير الفخر أشرٌ بطرٌ، يفخر على غيره بدنياه «**إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا**» في أمر الله ونهيه وطاعته، فإن نالتهم نعمة شكروا، وإن أصابهم بلاء صبروا «**أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ**» لذنوبهم «**وَأَجْرٌ كَبِيرٌ**» عظيم، وهو الجنة.

۞ الأحكام

تدل الآية على ذم من حاله الكفران عند النعمة، واليأس عند الشدة، وهذا نهاية في الذم؛ لأنه يجمع مع كفر النعمة اليأس من الرحمة، فتدل على قبح اليأس من رحمة الله تعالى، وقد يبلغ حد الكفر؛ لأن العارف بربه لا ييأس من رحمته، وإنما ييأس الجاهل؛ لأنه تعالى المتكفل برزقه في الدنيا ولقبول توبته وطاعته في الأخرى، ولا يكلف إلا وله طريق إلى نجاته، فلا معنى لليأس.

وتدل على قبح الفرح والفخر، وهذا ينقسم، فالفرح المذموم، والفخر المذموم هو أن يكون في باب الدنيا، وهو البطر عند المحبوب، والجزع عند المكروه، كما قال الشاعر:

فَـــلاَ فَـــرِحٌ بِـــخَـــيْـــرٍ إِنْ أَتَـــاهُ وَلاَ جَـــزِعٌ مِـــنَ الـــحِـــدْثَـــان لاع[1]

فمن يفرح بالدنيا ويستطيل بها على الناس فذلك المذموم، فأما إذا فرح بِدِينِهِ وطاعته، وما يخلصه من أنواع البر، ويفخر به على الفساق فغير مذموم، ولهذا يحسن للمسلم أن يفخر بالنبي والكتاب والدين على الكفار.

وتدل على أن المراد بالخير والضر ما يكون من جهته تعالى دون ما يقع من الظلم، ولأنه[2] غير مضاف إليه.

وتدل على أن هذه الطريقة المذمومة لا يسلكها كل أحد، بل يسلكها الكفار.

وتدل على أن المغفرة تنال بالطاعة والصبر عن الكبائر خلاف قول المرجئة.

---

(١) البيت لمرداس بن حصين. انظر في: اللسان (لوع)، وتاج العروس(لوع).

(٢) ولأنه: لأنه، ض.

وتدل على أن هذه الأعمال فعل العبد، فيبطل قول المجبرة.

وتدل على أن الأجر جزاء أعمالهم، فيبطل قولهم أيضًا.

قوله تعالى:

﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُۖ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٖ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٖ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾

اللغة

الضِّيق بكسر الضاد: ضد السعة، والضَّيِّق: الشيء، والضَّيْقُ بفتح الضاد والضَّيْقَةُ بفتحها: الفقر، وضائق وضيق بالتشديد بمعنى، إلا أن الضائق يكون بضيق عارض، خلاف اللازم، وضائق في الآية أحسن من «ضَيْق» لوجهين: أحدهما: أنه عارض، والثاني: أنه أشكل[1] بتارك.

والكنز: المال المدفون، سمي بذلك لاجتماعه، وكل مجتمع من لحم وغيره مكنز[2]، وكنزت التمر في وعائه أكنز، أي: جمعت، إلا أنه في الشرع صار اسمًا لكل مال لم يخرج منه زكاته، وإن لم يكن مدفونًا.

والاستجابة: طلب الإجابة بالقصد إلى فعله، ويقال: استجاب بمعنى أجاب، يقال: استجاب الله دعاءك.

الإعراب

«أم يقولون» استفهام والمراد التقرير، كأنه قيل: بل يقولون، وقيل: فيه حذف، تقديره: أيكذبونك أم يقولون افتراه، عن أبي علي.

---

(١) أشكل: اكتفى، ظ.

(٢) هكذا في المخطوطات. ولعله: مكتنز.

وقيل: تقديره: أم يقولون ما تقدم من أمر الملائكة والكنز، أم يقولون هذا الثاني، عن أبي مسلم.

«**بعض**» نصب بـ «**تارك**»، فإن تركت التنوين كسرت (بعض) على الإضافة. «**أن يقولوا**» قيل: معناه: لأن يقولوا.

النزول

قيل: إن أهل مكة قالوا لرسول الله ﷺ: إن كنت رسولاً فَحَوِّلْ لنا جبال مكة ذهبًا[1] لنستغني فإنا نراك فقيرًا، أو ائتنا بالملائكة يشهدون لك بالنبوة.

وقيل: قالو: ائتنا بكتاب ليس فيه سب آلهتنا.

وقيل: قائل هذا عبد الله بن أبيّ[2] أميّة المخزومي، ففي ذلك نزلت الآية.

المعنى

ثم أمر الله تعالى رسوله بالثبات على الأمر، وحجاج القوم بما يقطع العذر، فقال سبحانه: «**فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ**»، قيل: اللفظ لفظ الشك، والمراد الزجر، والعرب تقول للرجل إذا أراد إبعاده عن أمر: لعلك تقدر أن تفعل كذا، وهو لا يظن بصاحبه الشك، والمراد به النهي، ويقول لولده: لعلك تقصر فيما أمرتك به، يريد توكيد الأمر[3]، فمعناه: لا تترك بعض ما أوحي إليك، ولا تترك الإبلاغ، ولا يضيق قلبك باقتراحاتهم، فإن ذلك عادة الجهال ظنوا أن النبوة ربوبية يقدر النبي [بها] على كل شيء، ولم يعلموا أن عليه الإبلاغ فقط، وهذا معنى قول أبي علي وأبي مسلم.

ومتى قيل: كيف نهاه عن ترك الإبلاغ، وهو لا يترك؟

فجوابنا فيه من وجهين:

أحدهما: أنه نهاه ولولا النهي لكان يتوهم منه التقصير، فهو قادر عليه، وهذا

---

(١) ذهبا: ـ ، ض.

(٢) أبي: ـ ، ض.

(٣) الأمر: للأمر، ض.

كقوله: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ﴾ [الإسراء: ٧٤] فهو بأمره وبنهيه ولطفه لا يقصر.

وثانيها: أنه يجوز أن ينهى عما يعلم أنه لا يقع تأكيدًا، كقوله: ﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء: ١٠٥] وقيل: إنه لعظيم ما يرد عليك من تخليطهم يتوهم أنهم يزيلونك عن بعض ما أنت عليه.

«وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ» أي: قلبك بتكذيبهم إياك، وقيل: باقتراحاتهم «أَنْ يَقُولُوا» قيل: لأجل أن يقولوا، وقيل: كراهة أن يقولوا «لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ» يعني هلا أعطي كنزًا من المال «أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ» يشهد له «إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ» أي: منذر ومخوف، وليس إليك المعجزات؛ لأنها فعله تعالى، يعلم ما فيه مصلحة.

ومتى قيل: لِمَ لَمْ يعطوا ما سألوا؟

قلنا: لما علم فيه من المفسدة، وقيل: لأنهم طلبوها للرد، لا للاسترشاد.

«وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ» أي: حفيظ له، قائم عليه، عالم به «أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ» يعني: إما أن يقولوا: لولا أنزل عليه كنز، أو يقولوا افتراه، وقيل: هو حكاية مستأنفة عن قوم آخرين، وقيل: (أم) بمعنى بل يقولون «افتراه» اختلقه من عنده كذبًا "قُلْ» يا محمد لهم «فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ»، وهذا تَحَدٍّ وليس بأَمْرٍ، يعني: هم يتكلمون بلغتك، وهذا الكتاب بلغتهم، فإن كان هذا كلامك فقل لهم يقولوا عشر سور «مِثْلِهِ» في الفصاحة والنظم والمعنى، «وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» أنه كلام محمد، أي: ادعوا كل من استطعتم[1] إلى المعاونة على المعارضة، وهذا أتم في التحدي «مَنِ اسْتَطَعْتُمْ» قيل: شركاءكم، وقيل: من خالف محمدًا من جميع الأمم.

ومتى قيل: لم ذكر في التحدي مرة عشر سور، ومرة سورة، ومرة حديثًا؟

قلنا: التحدي إنما يقع بما يظهر فيه الإعجاز، وإنما يظهر بمنظوم من الكلام، فمرة يتحدى بالأقل، ومرة بالأكثر.

(١) استطعتم: يستطيعون، ض.

«**فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا**» أي: يجيبوا «**لَكُمْ**» قيل: الخطاب للمؤمنين تقديره: فإن لم يجيبوكم أيها المؤمنون فاعلموا، عن مجاهد، وأبي علي. وقيل: الخطاب للمشركين يعني فإن لم يستجيب لكم[1] المؤمنون إذا دعوتموهم إلى المعاونة، ولا تتهيأ لكم المعارضة فقد قامت عليكم الحجة فاعلموا، وقيل: الخطاب للرسول، يعني: فإن لم يجيبوك أيها الرسول، وذكره بلفظ الجمع تفخيمًا كقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ﴾ [المؤمنون: ٥١] «**فَاعْلَمُوا**» خطاب للمؤمنين، وقيل: للمشركين، وقيل: للجميع، والغرض التنبيه على إعجاز القرآن، وأنه كلام الله تعالى أنزله على نبيه «**أَنَّمَا أُنْزِلَ**» يعني القرآن «**بِعِلْمِ اللَّهِ**» قيل: أنزله والله يعلم أنه حق منزل من عنده، وقيل: يعلم الله مواقع تأليفه في علو طبقته، وأنه لا أحد على معارضته، وقيل: معناه أحكمه، كما يقال: فعل هذا، عن أبي علي. وقيل: أنزله على علم من ترتيبه ونظمه، ولا يعلم غيره ذلك «**وَأَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ**» يعني فاعلموا أن مثل هذه المعجزات والآيات لا يقدر عليها إلا الله الواحد الذي لا إله إلا هو، «**فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ**» قيل: هو استفهام والمراد التقرير أي: أسلموا، وانقادوا، واعتقدوا توحيده.

۞ الأحكام

تدل الآية على حثه ﷺ على اتباع الوحي والإبلاغ، وتسلية له عما يقول الكفار.

وتدل على أن اقتراحاتهم لا تقدح في حاله، وأنه نذير ليس عليه إلا البلاغ، ولا يقدر على المعجزات.

وتدل على أنه تحدى بالقرآن، وأكد بقوله: «**وادعوا من استطعتم**» وذلك يدل على نبوته.

ومتى قيل: كيف يدل؟

قلنا: قد ثبت أنه تحداهم به[2]، وجعل ذلك دلالة صدقه، وأوعد مَنْ خالفه

---

(١) لكم: لك، ض.

(٢) به: ـ، ض.

بالقتل والأسر، وعاب دينهم وآلهتهم وآباءهم، وكانوا أحرص الناس على إبطال أمره، لما يدعي عليهم من التقدم والرياسة، ولما عابهم وما جاءوا حتى بذلوا المهج والأموال في إبطال أمره، وعدلوا عن أمر سهل يبطل أمره، إلى أمر صعب شاق لا يدل على بطلانه، فالأول المعارضة، والثاني المقاتلة؛ لأن المُحِقَّ قد يُقْتَل، فعدولهم من أدل الدليل على عجزهم.

وتدل الآية على صحة الحجاج في الدين وبطلان التقليد.

وتدل على أن القرآن بلغ في نظمه وفصاحته وحسن معناه مبلغًا حتى صار معجزًا.

وتدل على أنه لم يكن معجزة للصرفة على ما يزعمه بعضهم؛ لأنه كان بالركيك من الكلام أبلغ في الإعجاز، ولأن الصرفة تقدح في كمال العقل؛ لأن العلم بالصناعات من كمال العقل.

وتدل على أن ما قالوا وفعلوا فعلهم لذلك توجه الذم عليهم.

وتدل على أن للقرآن مثلاً حتى يصح التحدي.

قوله تعالى:

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾

۞ اللغة

التوفية: أداء الحق على التمام، وفيت حقه وأوفيته، وقيل: وفَّى بالتشديد، ووَفَى بالتخفيف بمعنى، إلا أنه بالتشديد أوكد.

والبَخْسُ: نقصان الحق، بخسه بخسًا: إذا نقصه، وكل ظالم باخس؛ لأنه يظلمه بنقصان الحق.

۞ الإعراب

(كان) في قوله: «من كان» قيل: في تقدير الزيادة والمعنى من يُرِدْ، وقيل: هو بمعنى وقع، وقيل: كقوله: ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ﴾ [يوسف: ٢٦].

«نوف إليهم» جواب الجزاء تقديره: من يكن مريدًا نوف إليهم.

۞ النزول

قيل: نزلت في الكفار، عن الأصم، وأبي مسلم.

وقيل: في المنافقين، عن أبي علي.

وقيل: في أهل الربا، عن مجاهد.

۞ المعنى

لما تقدم الدعاء إلى الدين، وكان أحد أسباب الصد عنه طلب الدنيا وزينتها، يعني: من كان قصده وطلبه الدنيا وزينتها «**نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ**» أي: نعطي جزاء أعمالهم تامًا «**وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ**» أي: لا ينقصون حقًّا «**أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ**» يعني في القيامة «**إِلاَّ النَّارُ**» يعني عذاب النار «**وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا**» أي: بطل صنيعهم في الدنيا «**وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**» أي: بطلت أعمالهم.

واختلفوا في معنى الآية، فقيل: المراد به المشركون[1] الذين لا يصدقون بالبعث، ويعملون أعمال البر كصلة الرحم، والكف عن الظلم ونحوه، فهي كلها مردودة عليهم؛ لأنهم لم يعبدوا الله بها، فلا يقبل شيء من ذلك، ولا يبخسون مع ذلك ما جعل لهم من أجل ورزق في الدنيا، عن الأصم، وتقديره: من أراد بعمله الدنيا دون الله، فذلك مردود عليه باطل، ومع ذلك لا يبخس ما جعل له حتى يستوفيه.

وقيل: هو أن يصل الكافر رحمًا، أو يعطي سائلاً، أو يرحم مضطرًا ونحوه من

(١) المشركون: المشركين؛ ش، ض.

أعمال البر، فيجعل الله له جزاء على عمله في الدنيا بتوسعة رزق، أو دفع مكروه، عن مجاهد، والضحاك.

وقيل: يريد بعملهم الغزو مع رسول الله ﷺ، وقسطهم من الغنيمة دون ثواب الآخرة، فأمر النبي ﷺ أن يوفيهم قسمتهم من الغنيمة، وهو صفة المنافق، ثم لا يكون لهم في الآخرة ثواب، عن أبي علي.

وقيل: من أراد الحياة الدنيا واختارها على الآخرة أعطيناه[1] ما يعمل له فيها وافيًا غير مبخوس، ولم ينفعه ذلك مصيره إلى النار؛ لأن أمر الدنيا ينحبط، وما حصل له فيها يبطل، عن أبي مسلم.

وتلخيصه: مَنْ عمل للدنيا نعطه ذلك، ولا نصيب له في الآخرة.

ووجه الإشكال في الآية من ثلاثة أوجه:

أحدها: ما أعمالهم[2] التي عملوها؟

والثاني: ما جزاؤه فيها؟

والثالث: كيف حبطت[3]، وقد وفى أجرها؟

أما الأول فاختلفوا فيه، فقيل: هو أعمال البر من العقليات دون الشرعيات، وقيل: أعمالهم لجمع الدنيا وزينتها كالأبنية والنقوش، وجمع أسبابها، عن أبي مسلم. وقيل: هو الغزو، عن أبي علي، على ما تقدم.

فأما الجزاء فلا إشكال أن التوفية تكون في الدنيا، وإنما الخلاف في كيفية ذلك، فقيل: يثيبه وليس بصحيح؛ لأن الكافر ليس من أهل الثواب، وقيل: هو سعة الرزق، وقيل: ليس ذلك بجزاء، ولكن لديهم بتلك الأعمال حظهم، فكأنه جزاؤهم، ثم بطلان ذلك؛ لأن أفعالهم تهلك، ودورهم تخرب.

فأما الإحباط فقيل: يبطل ما جمعوا، وقيل: يبطل أعمال البر؛ لأنه لا[4] ثواب

(١) أعطيناه: وأعطيناه، ش.
(٢) أعمالهم: عملهم؛ ش، ض.
(٣) حبطت: حبطوها؛ ش، ض.
(٤) لا: ـ، ض.

عليها، وإنما جعلها محبطة؛ لأنه لا يثاب عليها[1]، وقوله: «وحبط ما صنعوا» فيه هذان الوجهان.

الأحكام

تدل الآية على أنه تعالى يوفيهم أعمالهم من غير بخس.

وتدل على ذم طلب الدنيا.

وتدل على أن ذلك الطلب والعمل فعلهم ليس بخلق لله تعالى.

وتدل على وقوع التحابط، واختلفوا فيه على ثلاثة أوجه:

قيل: يقع بين الثواب والعقاب، عن أبي هاشم.

وقيل: بين الأعمال، عن الإخشيدية.

وقيل: بين الأعمال والجزاء، نحو أن يقع بين الطاعة والعقاب والمعصية والثواب، عن أبي علي، والأول أصح؛ لأنه المنتظر، وبينهما التنافي، والعجب ممن يقول في كتبه: لا تحابط بين الأعمال، والله تعالى نص على ذلك في آي كثيرة من القرآن.

قوله تعالى:

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾﴾

---

(١) لا يثاب عليها: لا ثواب عليه، ض.

۞ اللغة

البينة: الحجة الفاصلة بين الحق والباطل، ومنه: البيان، وأصله من البينونة، يقال: بان فلان: فارق، وأبان: فَصَلَ بين شيئين، وبان لك الشيء وأبان واستبان، وبين وتبين[1]، وأصله أن ينفصل من غيره حتى يظهر.

والحزب: الجماعة، وتحزب القوم إذا صاروا أحزابًا وفرقًا، وجمع الحزب: أحزاب، ومنه: ﴿يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾ [غافر: ٣٠]؛ لأنهم اجتمعوا فرقًا.

والعَرْضُ: إظهار الشيء حيث يرى للتوقيف على حاله، عرضت الجند أعرضه عرضًا، ومنه: عرضت الكتاب.

والأشهاد: جمع شاهد، كصاحب وأصحاب، وناصر وأنصار، وقيل: جمع شهيد كشريف وأشراف، وأصله من المشاهدة، كأنهم شهدوا بما عاينوا، وقيل: سمي الشاهد شاهدًا؛ لأنه بين بشهادته ما يوجب حكم الحاكم، ومنه: ﴿شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾ [النساء: ١٣٥] أي: مبينين لدينه، ومنه: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٨] بَيَّنَ.

والصد: المنع، صده يصده، والاسم صَادٌّ، وصد: منع، وصد: أعرض.

والعوج بالكسر في الدين، وبالفتح في العود ونحوه، وهو ضد الاستقامة.

ولا جرم أصله الجرم، وهو القطع، وتقديره: لا قطع عنهم، وقيل: أصله الكسب، جرم أي: كسب، وأجرم واجترم كسب الذنب، ومنه: ﴿فَعَلَيَّ إِجۡرَامِي﴾ [هود: ٣٥] ولا جرم قيل: لا قطع بهم عن ذلك، قال الشاعر:

وَلَقَدْ طَعَنْتُ أَبَا عُيَيْنَةَ طَعْنَةً ... جَرَمَتْ فَزَارَةُ بَعْدَهَا أَنْ يَغْضَبُوا[2]

أي: قطعتهم إلى الغضب.

قال أبو مسلم: «لا جرم» كلمة تستعملها العرب عند وقوع أمر عقيب فِعْلٍ.

---

(١) وتبيَّن: فتبين، ض.

(٢) البيت نسب لقيس بن زهير. انظر. اللسان (جرم) وتهذيب اللغة (جرم)

۞ الإعراب

العامل في قوله: «**إمامًا ورحمة**» محذوف وتقديره: أنزل كتاب موسى إمامًا ورحمة، ويجوز جعله إمامًا ورحمة. وقيل: نصب على الحال.

ويقال: أين خبر قوله: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ[1]﴾؟

قلنا: قيل: محذوف، تقديره: أفمن كان على بينة من ربه كمن لا بينة له، أو كمن هو في الضلالة. وقيل: تقديره: أفمن يجتهد في الدين كمن يكفر من الأحزاب.

قوله: «**فلا تك**» حذفت النون، واقتصر على الكاف، واختلفوا في علة حذفه، فقال سيبويه: لكثرتها في كلامهم، كما حذف التنوين من النداء المفرد، وكما حذفوا حرفًا من نفس الكلمة في قولهم: يا حَارِ.

وقال الأخفش: العلة في حذفها أنها ما دامت متحركة فهو حرف قوي متمكن، له في الفم حظ ومخرج قريب من اللام، فإذا سكنت لم يكن لها نصيب في الفم فصارت عنه في الخياشيم، فخالفت سائر الحروف، فصارت كالتنوين الزائدة التي تلحق الأسماء، فتثبت وتحذف، و(تكن)[2] فعل، وليس الفعل من مواضع التنوين، فحذفوها حين ضارعت التنوين.

و(هم) في قوله: «**هم الأخسرون**» قيل: زيادة للتوكيد. و(الأخسرون) خبر (أن)، وقيل: هو اسم مبتدأ، وخبره (الأخسرون)، والجملة خبر (أن).

وقوله: «**كتاب موسى**» رفع (كتاب) على الابتداء، وتقديره: كتاب موسى من قبله، ويجوز أن يكون خبر الابتداء.

۞ النظم

كيف يتصل قوله: «**أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ**» بما قبله، وبماذا يتصل؟

---

(١) بينة من ربه: ـ، ض.

(٢) تكن: يكن؛ ض، ش، د.

قلنا: قيل: يتصل بقوله: «قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ» فإذا لم يأتوا فقل: أفمن كان على بينة من ربه كمن لا يكون معه بينة.

وقيل: يتصل بقوله: «مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا» أي: من كان مجتهدًا في الدين عاملاً بحجج العقل والقرآن كمن يكون قصده وهمته الحياة الدنيا وزينتها؟

وقيل: يتصل بقوله: «أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ» فمن كان كذلك كمن كان بخلافه.

المعنى

«أَفَمَنْ كَانَ» قيل: هو كناية عن الرسول ﷺ، وقيل: كناية عن كل واحد من المحقين الذين يدينون بحجة وبينة؛ لأن (مَنْ) يتناول العقلاء، وهو عام، عن الأصم، وقيل: هم المؤمنون من أصحاب محمد، عن أبي علي. «عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ» أي: معه حجة من الله، وهو القرآن الدال على صحة نبوته وبيان شرائعه، وقيل: بينة حجة من عقله، وإنما أضاف البينة إليه تعالى لأنه ينصب الأدلة العقلية والشرعية «وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ» أي: يتبعه من يشهد بصحته، وهو القرآن، عن أبي مسلم، وقيل: الشاهد جبريل يشهد بصدق محمد ﷺ، ويتلو القرآن على النبي، عن ابن عباس، وعكرمة، وإبراهيم، ومجاهد، والضحاك، وأبي[1] العالية، وعلقمة. وقيل: شاهد من الله محمد رسول الله ﷺ، عن الحسين بن علي، وابن زيد، وأبي علي. وقيل: هو لسانه عليه السلام يتلو القرآن بلسانه، عن أبي علي، والحسن، وقتادة. وقيل: هو ملك يسدده ويحفظه، عن مجاهد. وقيل: هو علي عليه السلام، عن علي، وابن عباس، يشهد للنبي وهو منه، وقيل: البينة حجة العقل والدين يتلوه مؤكدًا له القرآن، عن أبي مسلم. وقيل: «أفمن» جمع المحقين، ويتلوه شاهد من الله محمد ﷺ، وقيل: «منه» كناية عن الله تعالى؛ لأنه ينصب الأدلة والشهداء، وقيل: يرجع إلى النبي أي: في نفسه شاهد ومعجز يدل على صدقه فكل[2] من نظر[3] إليه يعرف صحة نبوته، وقيل: «منه» علي عليه السلام[4] هو من النبي ﷺ، والصحيح أن قوله: «أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ» هو

(١) وأبي: وأبو، ض.
(٢) فكل: بكل، ض.
(٣) نظر: يظهر، ض.
(٤) عليه السلام: ـ ، ض.

كل محق معتقد التوحيد والعدل، والبينة هي[1] الحجج الدالة على ذلك، «**وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ**» مُؤَكِّد، وهو القرآن يشهد على ذلك، و«**مِنْهُ**» كناية عن الله تعالى؛ لأنه أنزله، وكذلك التوراة تشهد على ذلك، «**وَمِنْ قَبْلِهِ**» من قبل القرآن؛ لأنه مدلول عليه فيما تقدم، وقيل: من قبل محمد ﷺ «**كِتَابُ مُوسَى**» يعني التوراة «**إِمَامًا وَرَحْمَةً**» قيل: إمامًا يؤتم به في أمور الدين، «**ورحمة**» أي: نعمة من الله على عباده، ثم نسخ بعد ذلك، وقيل: هي شاهد الله لمحمد بما فيه من البشارة به وإن كان منسوخ[2] الأحكام فإن فيها أنه نبي حق «**أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ**» قيل: أصحاب موسى يؤمنون بالتوراة وما فيها، وقيل: يؤمنون بالقرآن «**وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ**» قيل: بمحمد ﷺ، وقيل: بالقرآن، وقيل: بكتاب موسى بما فيه من الإقرار بمحمد «**مِنَ الْأَحْزَابِ**» أي: من فِرَقِ الكفار[3] كاليهود والنصارى، ومشركي العرب، «**فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ**» ليعذب فيه «**فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ**» في شك «**مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ**» قيل: إن القرآن حق من عند الله، عن أبي علي، وقيل: في أمر محمد إنه الحق، وقيل: فلا تك في مرية[4] أن مَنْ كَفَرَ فالنار موعده، وقيل: لا تك في مرية فيما أخبرتك به عن الأحزاب، واختلفوا لمن الخطاب في قوله: «**فَلا تَكُ**» قيل: الخطاب للنبي، والمراد غيره، وقيل: الخطاب لغيره على تقدير: لا تك في مرية أيها الإنسان، أو أيها السامع منه «**مِنْ رَبِّكَ**» يعني: من أمره أو إنزاله «**وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ**» لا يصدقون بذلك، قيل: منهم شاكٌّ، ومنهم معاند، ومنهم جاهل لا ينظر، عن الأصم. «**وَمَنْ أَظْلَمُ**» هو استفهام والمراد التقرير، أي: لا أحد أظلم، عن الحسن وغيره، وظلم النفس أن يحرمها الثواب الأبد، ويهلكها بعذاب الأبد «**مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا**» أي: اختلق على الله الكذب، قيل: أراد أن أعظم الظلم ظلم من ادعى أن القرآن ليس بكلام الله، وادعى فيما ليس بكلامه أنه كلامه، أو قال لنبيه: إنه ساحر، أو قال للمعجز: إنه سحر، أو شبهه بخلقه، أو أضاف إليه فعلاً قبيحًا، أو كذب بآياته «**أُولَئِكَ**» يعني هؤلاء الذين تقدم وصفهم «**يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ**» قيل:

(١) هي: هو، ض.

(٢) منسوخ: مفسوخ، ض.

(٣) الكفار: +، ض.

(٤) مرية: +، ض.

يوقفون موقفًا يراه الخلائق للمطالبة بما عمل، فهو كالعرض على الله تعالى، وقيل: العرض على الملائكة الموكلين بالحساب، وقيل: على أولياء الله «**وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ**» قيل: هم الملائكة يشهدون على العباد، وهم الحفظة، عن مجاهد، والأعمش. وقيل: الأنبياء، عن الضحاك. وقيل: جميع الخلائق، عن قتادة. وقيل: شهداء كل عصر من المؤمنين «**هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ**» يعني كذبوا الرسل، وأضافوا إليه ما لم ينزل «**أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ**» قيل: هذا كلام الأشهاد، وقيل: هو ابتداء كلام من جهة الله تعالى، عن أبي مسلم. واللعن: الطرد والإبعاد في اللغة، وفي الشرع: عقوبة من الله، واختلفوا فقال أبو علي: اللعن بشرط عدم التوبة، وقال أبو هاشم: اللعن يكون للمستحق فلا يحتاج إلى شرط «**عَلَى الظَّالِمِينَ**» قيل: الكافرين.

ثم وصفهم، فقال سبحانه: «**الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ**» أي: يمنعون الناس عن دين الله، وذلك قد يكون بإلقاء الشبه، ويكون بالتهديد، والإطماع وغير ذلك «**وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا**» أي: يطلبون الدنيا[1] زيغًا عن الاستقامة، وقيل: ابتغاء العوج الزيادة والنقصان في الكتاب لتغيير الأدلة، فلا تستقيم صفة النبي ﷺ على ما كان يفعلها اليهود، وقيل: هو كتمان المراد، وتحريف التأويل، وإيراد الشبه، وقيل: يسلكون غير ما أمر الله بسلوكه منها، عن أبي مسلم. «**وَهُمْ بِالْآخِرَةِ**» أي: بالقيامة «**هُمْ كَافِرُونَ**» جاحدون، أما المشركون فينكرونها، وأما اليهود والنصارى فلا يؤمنون بها كما يؤمن المؤمنون «**أُولَئِكَ**» يعني هؤلاء الكفار «**لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ**» أي: لا يمتنعون من عذاب الله، ولا يمنعهم غيرهم، وقيل: سابقين، عن ابن عباس. وقيل: هرابًا، عن قتادة. وقيل: فائتين يعني وإن أمهلهم في الدنيا فلا يفوتونه لا في الدنيا ولا في الآخرة «**وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ**» أنصارًا ينصرونهم لدفع العذاب «**يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ**» أي: يزاد لهم العذاب، وقيل: على أنواع الكفر، ولا يفعل بهم إلا المستحق، عن أبي علي. وقيل: يضاعف «**مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ**» فلا يسمعون، ويستطيعون أن ينصروا، فلا ينصرون، فحذف الباء كقولك: لأجزينك ما عملت أي: بما عملت، وقيل: عذاب الضلال، وعذاب الصد عن الدين، وقيل: معناه كلما

(١) الدنيا: الدين، ض.

مضى ضعف جاء ضعف أبدًا مؤبدًا، عن أبي مسلم. وكل ذلك على مقدار الاستحقاق، و«**مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ**» قيل: يثقل عليهم سماع الأدلة والقرآن بغضًا وعنادًا فلا يسمعون، ولا لَهُمْ به عِلْمٌ وبصيرة، عن أبي علي، وأبي مسلم. وقيل: صم عن سماع الحق، عمي عن رؤيته، عن قتادة. وقيل: لا يستطيعون فهم ما يقال لبعدهم عن التفكر فيه، قيل: هم الأوثان لا يسمعون، ولا يبصرون، وتقديره: أولئك الكفار وآلهتهم لم يكونوا معجزين في الأرض، ويضاعف لهم العذاب، وما كانوا يستطيعون [أي] الآلهة، و(ما) بمعنى (الذي)، روي نحوه عن ابن عباس، وفيه بُعْدٌ «**أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ**» بأن فوتوها الثواب، وأوثقوها بالعقاب «**وَضَلَّ عَنْهُمْ**» أي: هلك عنهم «**مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ**» أي: يكذبون فلا ينتفعون بها، قيل: لا ينتفعون بالافتراء في الآخرة كما ينتفعون في الدنيا، وقيل: ضل عنهم الأوثان الذين كانوا يؤمنون بها، ولا ينتفعون بها، عن الحسن. «**لا جَرَمَ**» قيل: حقًا، عن الأصم. وقيل: حَقًّا وجب، وقيل: لا بد ولا محالة، عن الفراء، وقيل: كسب، وقيل: لا قطع بهم عن ذلك، فإنهم أهل النار «**أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ**» قيل: لأنهم كانوا أكثر نصيبًا في الدنيا فكان عذابهم أكبر، عن الأصم. وقيل: هم الأخسرون من غيرهم، وإن كان الكل في خسار.

۞ الأحكام

قوله: «**على بينة**» أكثر المفسرين على أنه القرآن، يدل على أنه مستقل في باب البيان.

وتدل على موافقة السنة للكتاب، لولا ذلك لما قال: «**ويتلوه شاهد منه**» يعني: محمدًا ﷺ، وإن كان الشاهد القرآن فالدلالة باقية[1].

ويدل قوله: «**ومن قبله**» على حدث القرآن؛ لأن ما تقدمه غيره لا يكون قديمًا، وكذلك تدل على حدث التوراة بأن ما تقدم المحدث بمدة يكون محدثًا.

ويدل قوله: «**ومن أظلم...**» الآية على أن الامتراء فعل العباد، وإلا لم يكن

(١) باقية: باق؛ ش، ض.

لتحقيق هذه الإضافة معنى، فيبطل قولهم في المخلوق، وكذلك في إيجاب اللعن لهم والعرض والإضافة والإشهاد والكذب[1] إليهم كل ذلك.

وتدل على عرض وحساب في المعاد، وفيه لطف؛ لأن العبد إذا تصور ذلك كان أقرب إلى الطاعة، وأشد ارتداعًا عن المعاصي.

وتدل على أن الصد عن الدين من أعظم الإجرام، ولا يكون كذلك إلا والدعاء إلى الدين وتبيانه واجب، وله رتبة عظيمة.

ومتى قيل: هل للمجبرة حجة في قوله: «**مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ**» في أن الكافر لا قدرة له على الإيمان؟

قلنا: لا؛ لأن السمع إذا حقق لم يكن مقدورًا للعباد، فكيف ينفي عنه الاستطاعة في الحقيقة، وإذا لم يدل الظاهر فلا بد من تأويل، وهو ما ذكرنا أنه يثقل عليهم.

قوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًاۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾

۞ اللغة

الإخبات: الطمأنينة، وأصله: الاستواء من الخبت، وهو الأرض المستوية الواسعة، فكأن الإخبات خشوع مستمر على استواء فيه.

والأعمى: الذي لا يبصر. والأصم: الذي لا يسمع، واختلفوا أن الإدراك هل هو معنى أم لا؟ فقال أبو هاشم: لا، ولكن كل حي لا آفة به يجب أن يدرك.

وقال أبو علي: هو معنى، وللمدرك بكونه مدركًا حال عند أبي هاشم، وإليه يشير أبو علي.

---

(١) والكذب: الكذب، ض.

وقال أبو القاسم: هو يرجع إلى العلم بالمدركات، فأما السميع البصير فليس بصفة زائدة[1] على كونه حَيًّا، وإنما الصفة المتجددة بكونه سامعًا، رأيا عند أبي هاشم[2].

وقال أبو علي: هما صفتان أيضًا، فأما العمى والصمم فهو آفة، وليس بمعنى، خلافًا للأشعرية.

۞ الإعراب

قوله: «**إلى ربهم**» قيل: معناه (اللام) أي: لربهم، وحروف الإضافة تتبادل إذا تقاربت المعاني، كقوله: ﴿أَوْحَىٰ لَهَا﴾ [الزلزلة: ٥] أي: إليها، وقيل: معناه توجهوا بإخباتهم إليه.

والواو في قوله: «**كالأعمى والأصم**» واو عطف، وقيل: إنما دخل الواو لعموم السببية أي: حال الكافر كحال الأعمى، وكحال الأصم، وكحال مَنْ جَمَعَ العمى والصمم، وقيل: المعنى واحد، ودخل الواو لاتصال الصفة الثانية بالأولى.

۞ المعنى

لما تقدم ذكر العقاب للكفار عقبه بذكر ما أعد للمؤمنين، ووصف المؤمنين على عادته تعالى في اقتران الوعد والوعيد، فقال سبحانه: «**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا**» صدقوا الله ورسله «**وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**» الطاعات «**وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ**» قيل: أنابوا وتضرعوا، عن ابن عباس، وقتادة، والأصم. وقيل: اطمأنوا إلى ذكر الله، عن مجاهد. وقيل: أخلصوا، عن مقاتل. وقيل: تخشعوا وخضعوا، عن الحسن، والأخفش، وأبي علي، وأبي مسلم، والكل متقارب «**أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**» دائمون.

ثم ذكر مثلاً للفريقين، فقال سبحانه: «**مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ**» يعني المؤمن والكافر «**كَالأَعْمَى وَالأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ**» سمي المؤمن بالسميع البصير والكافر بالأعمى

---

(١) زائدة: زائد؛ ض، ش..

(٢) وإليه يشير أبو علي... عند أبي هاشم: +، ض.

والأصم؛ لأن المؤمن ينتفع لاستعماله إياها في الدين، والكافر لا ينتفع، فصارت كالمعدومة «هَلْ يَسْتَوِيَانِ» قيل: لا يستويان في استحقاق الثواب، وقيل: كيف يستويان؟ وقيل: لا تستوي صفتهما عند العقلاء، عن أبي علي، وإنما ذكر على وجه التنبيه، وإن كان المعدود أربعًا؛ لأنه جعل الأعمى والأصم حزبًا، وهم الكفار، والسميع والبصير حزبًا، وهم المؤمنون «أَفَلا تَذَكَّرُونَ» أي: هلا تتفكرون في النعم فتشكروها[1].

۞ الأحكام

تدل الآية أن الجنة تنال بجميع ما ذكر، خلاف قول المرجئة.

وتدل على أن الإيمان والعمل والإخبات فعل العبد، فيبطل قول المجبرة.

وتدل على أن الخشوع في العبادة شرط فيها ليقع موقعها.

وتدل على أن المؤمن في اهتدائه كالبصير، والكافر في تحيره كالأعمى.

ويدل قوله: «أَفَلا تَذَكَّرُونَ» على وجوب النظر، وبطلان التقليد.

قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾

۞ القراءة

قرأ أبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو والكسائي ويعقوب: «أني لكم» بفتح الألف

(١) فتشكروها: فتشكرونها، ش، ض.

على معنى:[1] فإني، وقرأ نافع وعاصم وابن عامر وحمزة: «إني» بكسر الألف على معنى: قال: إني؛ لأن في الإرسال معنى القول.

وقرأ أبو عمرو ونصير عن الكسائي: «بادئ الرأي»، وقرأ الباقون: «بادي» الياء غير مهموزة[2]، أي: ظاهر الرأي، قال الشاعر:

وَقَـد عَـلَـتْـنِـي ذُرْأَةٌ[3] بَـادِي بَـدِي[4]

۞ اللغة

الإبانة: إظهار المعنى للنفس، أبان يبين إبانة فهو مبين، وأصله القطع، فكأنك قطعت المعنى عن غيره ليظهر، ومنه: البيان، إلا أن الإبانة تتضمن جعل جاعل، ونظيره: الظهور، والإظهار والبشر والإبشار من النظائر، إلا أن البشر مأخوذ من ظهور البشرة؛ لأن غالب أحوال الحيوان التستر بالصوف والشعر والوبر والريش، غير الإنسان، فإنه تظهر بشرته، وهو ظاهر الجلد، وقيل: سموا بشرًا لظهورهم.

والرُّذال: الدون، وكذلك الرَّذْل[5]، وجمعه أرذال، ثم أراذل جمع الجمع، كما يقال: كلب وأكلب وأكالب.

وبدا يبدو: ظهر، وفلان ذو بدوات: إذا بدا له الرأي بعد الرأي، وبدأت بالأمر: ابتدأت به، ومنه: المبدئ والبادئ اسمان لله تعالى؛ لأنه بدأ الخلق، والرأي الرؤية، ومنه: ﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ ٱلْعَيْنِ﴾ [آل عمران: ١٣] فالرأي: ما يراه الإنسان في الرأي لأمر، وجمعه: آراء.

---

(١) حجة القراءات ٣٣٧.

(٢) حجة القراءات ٣٣٨.

(٣) وقد علتني ذرأة: أضحى بحال ينتهي؛ شو ض.

(٤) البيت لأبي نخيلة. انظر في العين (ذرء) والصحاح (ذرا) واللسان(ذرا).

(٥) الرذل: الرذال؛ ش، ض.

۞ الإعراب

(اللام) في قوله: «**لقد**» لام القسم؛ لأنها تدخل في الفعل، ولام الابتداء للاسم خاصة.

ويقال: ما موضع «تعبدوا» من الإعراب؟

قلنا: يجوز فيه النصب بمعنى مبين، أي: لا تعبدوا، ويجوز فيه الجزم على النهي بتقدير: لا تعبدوا.

وكسر أليم؛ لأنه صفة اليوم، يعني: عذاب يوم مؤلم، ولو نصب جاز صفة للعذاب، ويجوز أن يكون صفة للعذاب، ويكسر للمجاورة، كقول الشاعر:

وجُحْرُ ضَبٍّ خَرِبِ

و«**بادي**» نصب على المصدر كقولك: ضربت أول الضرب، وقال الزجاج: نصبه بـ(اتبعك) أول الرأي من غير نكر، كأنه قيل: اتبعوا رأيًا غير سديد، أي لرأي غير سديد، وقيل: نصب على التمييز، فأما موضع (الذين) من الإعراب في قوله: «**إلا الذين هم أراذلنا**» فإنه الرفع بـ(اتبعك).

۞ المعنى

لما تقدم ذكر الفريقين المؤمن والكافر، والوعد والوعيد عقبه بأخبار الأنبياء تأكيدًا لذلك وغيره، وتخويفًا لهم، وتسلية للنبي ﷺ، وبدأ بقصة نوح، فقال سبحانه: «**وَلَقَدْ**» تأكيد كأنه قال حَقًّا «**أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ**» أي: قال لهم: إني لكم «**نَذِيرٌ**» مخوف من العواقب مظهر ذلك لكم، وقيل: «**مُبِينٌ**» لكم عن الله تعالى، عن الأصم «**أَنْ لا تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ**» يعني اعبدوا الله ولا تعبدوا غيره، فبدأ بالدعاء إلى العبادة بالإخلاص، قيل: لأن أهم الأمور التوحيد فدعا إليه، وقيل: إنه لا يصح شيء من العبادات والأعمال إلا بعد التوحيد فبدأ به، وقيل: يدخل فيه جميع الطاعات «**إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ**» يعني يوم القيامة، وإنما قال: أخاف، وإن كان عذاب الكفار مقطوعًا؛ لأنه لم يَدْرِ ما يؤول إليه حالهم، وقيل: لأن فيه استدعاء إلى الإيمان على ألطف الوجوه «**أَلِيمٍ**» أي: مؤلم، يعني: موجع «**فَقَالَ الْمَلأُ**» قيل:

الأشراف والرؤساء، وقيل: جماعة الكفار «الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ» الذين بعث إليهم «مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِثْلَنَا» يعني: قالوا لنوح: إنه بشر مثلنا[1] ظَنًّا[2] منهم أن الرسول يكون من جنس آخر، ولم يعلموا أن البعثة من الجنس أصلح، وعن الشُّبَهِ أبعد، ولأنه يتبع الصلاح، ولأن الرسول يظهر بالمعجز من أي جنس كان، فالمعتبر به «وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا» أي سفلنا أصحاب الحرف الخسيسة الذين لا مال لهم ولا جاه «بَادِيَ الرَّأْيِ» بترك الهمز يعني بظاهر الرأي، وبالهمز بأول الرأي، قيل: معناه أراذلنا وسفلنا برأي العين، عن مجاهد، وأبي علي، وأبي مسلم. يعني نراهم الأراذل لا نحتاج في تحقق أمرهم إلى تفكر، وقيل: اتبعوك بأول الرأي وظاهره من غير تفكر وروية، وقيل: يظهرون الإيمان ويبطنون خلافه، ويدل عليه[3] قوله: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ﴾، عن الأصم. «وَمَا نَرَى لَكُمْ» أي: لنوح ومن تبعه «عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ» في العلم والمال والجاه، وإنما قالوا ذلك لأنهم جهلوا طريقة الاستدلال، ولو استدلوا بالمعجزات أنه نبي لعلموا أنه نبي، وأن مَنْ آمن به مؤمن، وهم بمخالفته كفار، لعلموا الفضل، وهكذا عادة أرباب الدنيا، ينظرون إلى أرباب الدين إذا كانوا فقراء بعين الحقارة، ويسمونهم الرُّذال، والرذال عند الله هم العصاة، فأما المؤمن ـ وإن كان فقيرًا ـ فهو عند الله أكرم وأعز، وقيل: إنه خطاب لمن اتبع نوحًا، أي: لا نرى أنكم باتباعه استفدتم مالاً أو جاهًا، توهمًا منهم أن الثواب يكون في الدنيا «بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ» فيما تقولون.

۞ الأحكام

تدل الآية على أن الغرض من بعثة الأنبياء الإنذار والتخويف ليبلغوا الأمر والنهي فتدل من هذه الجهة أن أفعال العباد حادثة من جهتهم، وأنهم يقدرون على الإيمان والكفر، ولو كان أفعالهم خلقًا له أو كانوا لا يقدرون لما أفادهم البعثة والإنذار والتخويف، فيبطل قول المجبرة في المخلوق والاستطاعة.

وتدل على أن البعثة تكون لطفًا.

---

(١) يعني قالوا لنوح إنه بشر مثلنا: ـ ، ض.

(٢) ظَنًّا: قلنا، ض.

(٣) ويدل عليه: ـ ، ض.

ومتى قيل: فأي لطف في بعثة نوح مع كفر قومه؟

قلنا: قد آمن به جماعة وهم أصحاب السفينة، وقيل: في قصصهم لطف، والأول الوجه.

وتدل على أنهم ظنوا أن النبوة تقتضي خلاف الجنس، وذلك جهل؛ لما بينا.

وتدل على أن الفقر والتكسب بالصناعات ليس بنقص في الدين، ومن ظنه نقصًا فقد جهل؛ لأن الفضل بالدين والنقص بترك الدين.

قوله تعالى:

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًاۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِيٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًاۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمْۖ إِنِّيٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾

القراءة

قرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم: «فَعُمِّيَتْ» بضم العين وتشديد الميم على ما لم يسم فاعله[1]، بمعنى لبست واشتبهت[2]. وقرأ الباقون بفتح العين مخففة الميم، أي: التبست واشتبهت[3].

اللغة

العمى عمى العين، عَمِيَ يَعْمَى عمًا، ورجل عَمٍ وقوم عمون، والأعمى الذي لا

(١) حجة القراءات ٣٣٨.

(٢) واشتبهت: وسميت، ش، ض.

(٣) واشتبهت: واستميت، ش، ض.

يبصر لآفة في حاسته، هذا هو الأصل، ثم يقال: هؤلاء في عميهم أي: جهلهم؛ لأنه لا يبصر فيه، والمعامي الأراضي التي ليس بها أثر، ويقال: عمي عن الخير، وعمي عليه الخير، وفي الحديث: «نهى عن الصلاة إذا قام قائم الظهيرة صَكَّةَ عُمَيٍّ»، أي: حين كاد الحر يعمي.

والطرد: الإبعاد على جهة الهوان، طرده طردًا، وطرَّدَهُ بالتشديد: أخرجه عن بلده، وتَطَارَدَ ٱلْأَقْرَانُ: حمل بعضهم على بعض.

والازدراء: الاحتقار، وهو «افتعال» من الزراية، يقال: زريت عليه عيبته، وازدريت عليه: إذا قصرت به.

۞ الإعراب

«أنلزمكموها» فيها ثلاث مضمرات: ضمير المتكلم، وضمير المخاطب، وضمير الغائب، وهو على ترتيب حسن، بدأ بضمير المتكلم؛ لأنه أخص بالفعل، ثم بالمخاطب؛ لأنه أخص من الغائب، ثم بالغائب، ولو أتى بدل الثالث بالمنفصل جاز للمباعدة عن العامل، كقولك: ما ضربني إلا أنت. والميم فيه مضموم، وقيل[1]: يجوز إسكانه، واختاره الفراء، وجعله بمنزلة عَضْد وعَضُدٍ، وكَبِد وكَبْد.

قال علي بن عيسى: وبينهما فرق بيِّنٌ عند أصحابنا؛ لأن الإعراب لا يلزم فيه الثقل كما يلزم في بناء الكلمة، وإنما جاز مثل هذا في ضرورة الشعر كقول الشاعر:

ونَـاعٍ يُـخْـبِـرنَـا بِـمَـهْـلِـكِ سَـيِّـدٍ   تَـقَـطَّـعُ مِـنْ وَجْـدٍ عَـلَـيْـهِ الأنَـامِـلُ[2]

ويزدري: أصله: يزتري، بالتاء، فأبدلت التاء دالاً، فصار يزدري.

(رحمة) نصب بـ(أتاني).

۞ المعنى

ثم بَيَّنَ تعالى جواب نوح لقومه وما ألزمهم من الحجة، فقال سبحانه: «قَالَ يَا

(١) وقيل: هل؛ ش، ض.
(٢) الفراء، معاني القرآن، ج٢/ ١١.

قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي» أي: حجة، اختلفوا في أنه جواب عمَّاذا فقيل: في[1] قولهم: ﴿وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٦] كأنه قيل: تظنوني كاذبًا فما تقولون لو كنت على خلافه، وعلى بينة: حجة من الله واضحة أتصدقوني؟ عن أبي مسلم، وقيل: هو جواب عن قولهم: «**مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِثْلَنَا**» فمعناه إن كنت بشرًا كما تقولون إذا أتيتكم بحجة دالة على صدقي أتصدقوني، وقيل: المقصود بالرسالة نفع الخلق، فإذا أظهر[2] المعجز فقد أوضح الحجة، وأتم النعمة، فلا معنى لاعتبار البشرية، وقيل: هو جواب عن قولهم: ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ كأنه قيل: الحق لا يتبع المال والجاه، وإنما يتبع الحجة والدلالة، فما تقولون لو كنت على بينة من ربي، أي: برهان فيما أدعوكم إليه، وأنتم تهلكون أنفسكم، وقيل: هو جواب عن قولهم: «**مَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ**» كأنه قيل: اْعتَصَمُوا بالله وبما أتاهم من البينة والرحمة فنالوا المنزلة الرفيعة، وأنتم تبعتم الدنيا[3] الفانية، فأنتم الأراذل لا هم، ثم رد جميع ما قالوا، وبيَّن أنه تعالى أتاهم الخير والرحمة، فقال سبحانه: «**وَآتَانِي**» أعطاني «**رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ**» فأضاف البينة إليه؛ لأنه المنعم بنصب الأدلة وأضاف الرحمة إليه؛ لأنه المبتدي به، والرحمة والنعمة قيل: هو الدين، وقيل: الرسالة، وقيل: المعجزة «**فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ**» أي: خفيت، وقيل: المراد عموا عنها، إلا أنها جاءت كذلك للتصرف في الكلام مع الإفهام من غير إخلال، كما يقال: أدخلت الخاتم في يدي، وأدخلت القلنسوة في رأسي «**أَنُلْزِمُكُمُوهَا**» يعني: الرحمة فيدخل فيه الإسلام والدين وسائر النعم «**وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ**» قيل: معناه: ولا ألزمكم، وقيل: معناه: كيف ألزمكم وأنتم له كارهون[4]، وقيل: معناه على الدعاء وبيان الأدلة، وليس علي أن أضطركم وألجئكم، وقيل: معناه: أنجعلكم قابلين لها مع كراهتكم،

---

(١) في: عن، ض.
(٢) أظهر: ظهر، ض.
(٣) الدنيا: بالدنيا؛ ش، ض.
(٤) معناه ولا ألزمكم. . . وأنتم له كارهون: +، ض.

فيبطل تكليفكم «**وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ**» أي: على الرسالة والإبلاغ كناية عن غير مذكور، قيل: على الأداء دون القبول «**مَالاً**» أجرًا، يعنون: كيف تظنون أني كاذب، وأني جئت لا للنصح، وأنا لا أطالبكم بأجر، ولا أدعوكم لطمع، فلا مطمع لي فيكم، فلذلك استوى عندي الغنى والفقر، وقيل: أراد أن ينبئأنه لا يدعوهم ليستأكل أموالهم «**إِنْ أَجْرِيَ**» ثواب طاعتي وإيذائي «**إِلاَّ عَلَى اللَّهِ**» يعني ليس ذلك إلا عليه «**وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا**» أي: لا أبعدهم، وإن كانوا من الأراذل عندكم، بل أكرمهم «**إِنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ**» قيل: ملاقوجزاء ربهم يعاقب من طردهم، عن الزجاج[1]، وقيل: ملاقوثواب ربهم، فكيف يكونون أراذل، وكيف أهينهم ولا يستحقون ذلك، عن أبي علي. وقيل: إنهم معترفون بالقيامة مؤمنون بها فكيف يستحقون الطرد، وإنما يطرد الكفار «**وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ**» حالهم فتأمرونني بطردهم، وقيل: تجهلون الحق وأهله، فإن الناس يتفاضلونبالدين لا بالدنيا، وقيل: تجهلون مقدار أنفسكم فترفعونها وتستخفون بالمؤمنين، عن أبي علي. «**وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ**» يعني إذا طردتهم وكانوا خصمائي عند الله في الآخرة فمن ينصرني ليدفع عني عذاب الله، وقيل: إذا أرادوا الإيمان وتعلم الدين ثم طردتهم فقد ظلمتهم، فإذا أخذني الله فمن ينصرني «**أَفَلا تَذَكَّرُونَ**» أي: تفكرون في ذلك «**وَلا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ**» أي: لست أدعي درجة فوق الرسالة، ولا أدعي أن عندي خزائن الله يعني مقدوراته، فأفعل ما أشاء، وأعطيكم وأنفعكم ما أشاء[2] وأضركم، عن أبي علي، وأبي مسلم. وقيل: لا أقول لكم عندي خزائن الله فأدعوكم على أن أعطيكم منها، عن ابن جريج، والأصم. «**وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ**» قيل: أَدَّعي عِلْمَ الغيب، حتى أدلكم على منافعكم ومضاركم، فإن هذا درجة الربوبية، عن الأصم، وقيل: لا أعلم الغيب حتى أقضي على هؤلاء بأنهم مخلصون أم منافقون، وإنما أحكم على الظاهر، عن أبي مسلم. «**وَلا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ**» قيل: هذا جواب عن قولهم: «**مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا**» وكانوا يعظمون

---

(١) معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٣/ ٤٨.

(٢) وأعطيكم وأنفعكم ما أشاء: ـ ، ض.

الملك، عن الأصم. ومعناه أنا بشر كما قلتم، ولو قلت: إني ملك لكنت كاذبًا "**وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي**» تحتقر «**أَعْيُنُكُمْ**» من هؤلاء المؤمنين، بأن[1] رأيتم عليهم[2] زي الفقراء «**لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا**» أي: لو قلت فيهم غير الذي أعلم ظاهرًا لكنت ظالمًا لهم، الله أعلم بإيمانهم وبما في أنفسهم «**إِنِّي إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ**» لو كنت قلت غير ما أعلم.

۞ الأحكام

تدل الآية على أن المعتبر في النبوة المعجز لا غير.

وتدل على أن العمى عن الحق نقص عظيم.

وتدل على أن الدِّين لا ينفع إلا بالقبول مختارًا لذلك قال: «**أنلزمكموها**».

وتدل على أن الأنبياء يجب أن يجتنبوا المنفرات، لأن سؤال الأجرة لما أثر في حاله نفاه عنهم.

ويدل قوله: «**فمن ينصرني**» على أن أحدًا لا يدفع عن أحد ما يستحقه من العذاب بالشفاعة وغيرها.

ويدل قوله: «**إني ملك**» على أن الملائكة أفضل من الأنبياء.

وتدل على وجوب تعظيم المؤمنين[3] وقبح الاستخفاف بهم، وأن من يفعل ذلك فهو ظالم لنفسه.

قوله تعالى:

﴿قَالُوا يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾﴾

---

(١) بأن: فإن، ش.

(٢) عليهم: عليه؛ ش، ض.

(٣) المؤمنين: المؤمن، ض.

اللغة

الجدال: الخصومة سُمِّي بذلك لشدته، كما يقال لِزِمَام الناقة[1]: جَدِيلٌ، والجَدْلُ: شدةُ الفتل، وقال الزجاج[2]: الأجدل: الصقر؛ لأنه من أشد الجوارح، وجَدَلَ الحب في سنبله: اشتد، والجدالُ والمراء بمعنًى، غير أن المراء مذموم؛ لأنه جدال في الحق بعد ظهوره، كمري الضرع بعد دروره، بخلاف الجدال، وقيل: الجدال الخصومة بغير حجة، وليس بالوجه؛ لأنه تعالى قال: ﴿وَجَٰدِلۡهُم﴾ [النحل: ١٢٥]، ولا شبهة أنه جادلهم بالحجة.

والنصح: إخلاص العمل من الفساد، ونقيضه: الغش.

والغي: الانهماك في الباطل، والغي: الخيبة[3]، غَوَىَ يَغْوِي غَيًّا، ومنه: ﴿فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا﴾ [مريم: ٥٩]، قال الشاعر:

وَمَنْ يَغْوِ لاَ يَعْدِمْ عَلَى الَغْيِّ لائِمَا[4]

وأصله الفساد، غَوِيَ الفصيل يَغْوَى غَوىً[5]، إذا فسد جوفه[6] من شرب اللبن.

الإعراب

«إنما» فيه نفي وإثبات، وهو اختصاص المذكور بمعنى، ونفيه عن غيره، يقال: إنما زيد كريم؛ أي: هو كريم دون غيره، و(إنما) تدخل على الاسم والفعل، فإذا دخل على اسم فلا[7] يجوز إلا الرفع؛ لأن (ما) كافة للعمل، تقول: إنما زيدٌ عالمٌ، تقديره: زيدٌ عالمٌ.

---

(١) لزمام الناقة: للزمام الممر؛ ش، ض.
(٢) معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٣/ ٤٩
(٣) الخيبة: الغيبة؛ ش، ض.
(٤) عجز بيت للمرقش الأصغر.... وصدره: «فَمَنْ يَلْقَ خَيْرًا يَحْمَدِ الناسُ أَمْرَهُ»
انظره في: الصحاح (غوى)، واللسان (غوي)
(٥) غوى: غيا؛ ش، ض.
(٦) جوفه: جوفيه؛ ش، ض.
(٧) فلا: لا؛ ش، ض.

۞ المعنى

ثم بين تعالى ما جرى بين نوح وقومه، فقال سبحانه: «قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا» أي: خاصمتنا بغير حجة، أوهموا عند العجز عن الحجة أنه لا حجة له «فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا» أي: زدت على المقدار «فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا» من العذاب «إِنْ كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ» قيل: في نبوتك، وقيل: فيما تعدنا من العذاب «قَالَ» نوح «إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ» يعني إنما يأتي بالعذاب الله لا يقدر عليه غيره «إِنْ شَاءَ» أن يعذبكم، إن شاء عَجَّلَ، وإن شاء أَخَّرَ، على حسب المصلحة.

ومتى قيل: ما غرضهم في استعجال العذاب؟

قلنا: إيهام العامة أنه كاذب في دعواه.

«وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ» أي: لا تفوتونه بالهرب «وَلا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ» جمع نوح في هذه الآية بين الوعظ والتهديد والإنكار، ومعنى الآية: إن كان الله يريد أن يعاقبكم، ويعذبكم بسوء عملكم وكفركم، ويحرمكم ثوابه، فليس ينفعكم نصحي ما دمتم على ما أنتم عليه، إلا أن تتوبوا، والغي: الخيبة وحرمان الثواب، وهذا قول أبي علي، وأبي مسلم. وقيل: كان في قوم نوح مُجْبِرَة يقولون: إن الله تعالى يُضِلُّ عباده عن الدين، فنبههم بهذا القول على فساد ما يذهبون إليه، فقال على طريق الإنكار: إن كان كما تقولون من أن الله تعالى يفعل فيكم الكفر، فما ينفعكم نصحي، فلا تطلبوا مني نصحًا، وهذا قول جعفر بن حرب، وقيل: معناه إن كان الله يريد أن يهلككم فليس ينفعكم نصحي عند نزول العذاب بكم، وإن قبلتم وآمنتم؛ لأن حكم الله لا يقبل الإيمان عند نزول العذاب، عن الحسن، وقيل: إذا كان في معلوم الله أنكم لا تؤمنون، وأنه مهلككم بعذابه، فلا ينفعكم نصحي؛ لأنه لا ينجع فيكم «هُوَ رَبُّكُمْ» خالقكم ورازقكم «وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ» إلى حكمه وتدبيره، لا حكم لغيره، وقيل: إن كان الله يريد أن يحكم بغوايتكم عند نزول العذاب بكم، فلا ينفعكم نصحي، عن الأصم.

۞ الأحكام

تدل الآية على جواز الجدال في الدين، وأنه طريقة الأنبياء مع أممهم.

وتدل على بطلان التقليد.

وتدل على أن [إسناد] إنزال العذاب إلى الله دون الأنبياء.

وتدل على أن النصح والعظة إنما تنفع مع القبول، فإذا لم تقبل لا تنفع.

ومتى قيل: هل للمجبرة تعلق بقوله: «إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ» في أنه يضل عن الدين، ويخلق فيهم الكفر والضلال؟

قلنا: لا؛ لأن الإضلال عن الدين وخلق الكفر وإرادته قبيحة كالأمر، وإذا لم يجز أن يأمر بالكفر كذلك لا يجوز أن يخلق ويريد، ولأنه تعالى ذم فرعون والسامري والشيطان بأنهم يضلون عن الدين، فلو كان هو المضل عن الدين لما صح ذلك. وبعد، فإن ظاهر الآية لا يدل على قولهم؛ لأنه ليس فيها أنه فعل الغواية، أو دعا إليها أو خلقها، ولكن فيه أنه لا ينفع النصح إن كان الله يريد غوايتهم، فأما وقوعه أو جوازه[1] فليس في الظاهر، على أن المراد بالغي الخيبة، وقد بَيَّنَا ما قيل في معنى الآية. وبعد، فلو جاز أن يضل جاز أن يبعث من يدعو إلى الضلال، ولجاز أن يظهر المعجزة على الكذابين والضّلّال، ولجاز أن يكذب في أخباره، وكل ذلك يبطل قولهم.

قوله تعالى:

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾﴾

۞ اللغة

الجريمة والجرم: الذنب، وجرم وأجرم بمعنى، ورجل مجرم وجارم، وأصل الباب: القطع، قال الشاعر:

طَـرِيـدُ عَـشِـيَـرةٍ ورَهِـيـنُ ذَنْـبٍ بِـمَـا جَـرَمَـتْ يَـدِي وَجَـنَـى لِـسَـانِـي[2]

---

(١) أو جوازه: وجوازه، ض.

(٢) البيت للهيردان السعدي. انظره في: اللسان (جرم).

۞ الإعراب

(أم) استفهام، والمراد التقرير، ومعناه: أنهم يكذبونك، وقيل: معناه: (بل)، وقيل: تقديره: بل ليكذبونك في النبوة «أم يقولون» فيما تتلو عليهم (افتراه) لأن (أم) تقتضي ذلك.

۞ النظم

يقال: بم تتصل الآية؟

قلنا: فيها وجهان:

الأول: أنه يتصل بما قبله من قصة نوح، وافتراه قَوْلُ قَوْمِهِ، عن ابن عباس.

الثاني: أنه عاد الكلام إلى النبي ﷺ وقومه، فيتصل بقوله: «**أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ**»، عن مقاتل، والأصم، وأبي علي، وأبي مسلم، قال أبو مسلم: تمام قول نوح وقومه عند قوله: «**إليه ترجعون**»، وقيل: هو اعتراض بين قصة نوح، والمراد بهم قوم النبي ﷺ.

۞ المعنى

«**أَمْ يَقُولُونَ**» يعني الكفار «**افْتَرَاهُ**» يعني نوحًا افترى الكذب فيما يقول، عن ابن عباس، وقيل: يعني محمدًا افترى فيما قص علينا من نبأ نوح وغيره، افتراه: افتعله من قِبَلِ نفسه «**قُلْ**» يا محمد «**إِنِ افْتَرَيْتُهُ**» أي: افتعلته كذبًا«**فَعَلَيَّ إِجْرَامِي**» أي: عذاب جرمي لا تؤخذون به «**وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ**» أي: لا أُؤاخذ بجرمكم، قيل: هذا وعيد أي: إن كنت مجرمًا فعليَّ وَبَالُهُ، وإن كنت صادقًا فعليكم عقاب تكذيبكم، وقيل: هو حجاج يقوي صحة أمره، وأنه لا يتقوله مع ما فيه من العار في الدنيا، والعقاب في الآخرة.

۞ الأحكام

تدل الآية على أن أحدًا لا يؤخذ بذنب غيره، خلاف ما تقوله المجبرة.

وتدل على أن كل أحد مؤاخذ بذنبه.

وتدل على أن العقاب يستحق على الذنب.

قوله تعالى:

﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾

اللغة

الابتئاس «افتعال» من البؤس، وهو الحزن، والابتئاس: الحزن في استكانة، والبؤس: الفقر أيضًا، ابتأس ابتئاسًا، وهو مبتئس.

والصنع: اتخاذ الشيء بعد عدمه.

والسخرية: الإظهار، خلاف الإبطان على جهة الاستضعاف، ومنه: التسخير التذليل استضعافًا بالقهر، سخر من فلان، ورجل سُخْرَةٌ: يُسْخَر منه، وسَخَّره يُسَخِّر: في العمل، وسَخَرَه بفتح الخاء: إذا كان يَسْخَرُ.

والحلول: النزول للمقام، وهو من الحِلِّ، خلاف الارتحال، وحلول العرض في الجوهر: وجوده بحيث هو، والمصحح للحلول التحيز.

الإعراب

«سوف» والسين للاستقبال، تقول: سأصنع، وسوف أصنع، و(من) في قوله: «من يأتيه» قيل: بمعنى أي: على تقدير: أَنَّا نأتيه، وقيل: بمعنى الذي.

المعنى

عاد الكلام إلى قصة نوح، فقال سبحانه: «**وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلاَّ مَنْ قَدْ آمَنَ**» أي: أعلم الله نوحًا أنه لا يصدقه أحدٌ سوى من آمن، وهذا مما

لا يعلم إلا بالسمع، فلما علم ذلك دعا عليهم؛ لأنه فهم في ذلك أنه لا يؤمن منهم أحد، ولا من نسلهم، ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾﴾ الآية [نوح:٢٦]. «فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ» أي: لا تغتم بأمرهم وبفعلهم، فالفرج قريب، وقيل: لا يهمنك إهلاكهم، فإن الله تعالى يهلكهم ويذلهم، ويعزك وينجيك.

ولما أراد إهلاكهم أمر نوحًا باتخاذ السفينة له ولقومه، فقال سبحانه: «وَاصْنَعِ الْفُلْكَ» أي: اعمل السفينة، فنجاتك ومن آمن بك بها «بِأَعْيُنِنَا» قيل: بمرأى منا، عن ابن عباس، والضحاك، ومعناه أنا نرى ذلك، وقيل: بعلمنا، عن مقاتل، وقيل: بحفظنا، عن الربيع، وقيل: بحفظنا إياك عن قومك، وعلى ما علمك الله، عن الأصم، وقيل: بأعين أوليائنا من الملائكة الموكلين بك، وكانوا سفراء له[1]، يعلمونه كيفية السفينة، عن أبي علي «وَوَحْيِنَا» قيل: ما أوحينا إليك من صفتها وحالها، عن الأصم، وأبي مسلم، وقيل: بأمرنا أن اصنعها، قال ابن عباس: وذلك أنه لم يعلم صنعة الفلك، فأوحى الله إليه، وعَلَّمَهُ «وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا» أي: لا تسألني العفو عن هؤلاء الذين كفروا من قومك، ولا تشفع لهم "إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ» أي: عن قريب سيغرقون، وهذا غاية في الوعيد، كما يقال: لا تذكر حديث فلان بين يدي، وقيل: عنى بذلك امرأته وابنه.

ومتى قيل: كيف أخبر أنهم مغرقون، ولم يغرقوا بعد؟

قلنا: لتيقن توقعه.

ومتى قيل: هل كان يجوز ألاّيغرقهم؟

قلنا: نعم بأن يتوبوا ويسلموا، فإن الوعيد وإن كان مطلقًا يكون مشروطًا بذلك.

«وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ» يعني أن نوحًا أخذ في عمل السفينة، وأعرض عن قومه، وجعل يقطع الخشب ويضرب الحديد، وقيل: كان طول السفينة ألف ومائتي ذراع، وعرضها ستمائة ذراع، عن الحسن وجماعة، وقيل: طولها ثلاثمائة ذراع، وعرضها خمسون ذراعا، وارتفاعها ثلاثون ذراع، وبابها في عرضها، عن ابن عباس وقتادة، وقيل:

(١) له: إليه، ض.

كانت من خشب الساج، وكانت ثلاث طبقات: طبقة للناس، وطبقة للطير، وطبقة للدواب والوحش، وعملها في سنتين، عن ابن عباس، وقيل: عملها في أربعمائة سنة، وعن عائشة عن النبي ﷺ أن نوحًا مكث في قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا، فلما كان آخر زمانه غرس شجرة، وعظمت فقطعها، ثم عمل منها السفينة "**وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِنْ قَوْمِهِ**» جماعة «**سَخِرُوا مِنْهُ**» قيل: لما رأوه يعمل سفينته في البَرِّ على صفة من الهول، ولا ماء هناك، كانوا يتضاحكون منه، وقيل: قالوا: أَصِرْتَ نجارًا بعدما كنت نبيًّا، عن الأصم، وقيل: قالوا ما يقدر إلهك أن يكفيك، عن الأصم، وقيل: نظروا إليه بعين الاستخفاف، وظنوا أنه يفعل ذلك لغير فائدة؛ لأنهم لم يكونوا رأوه، فـ «**قَالَ**» نوح مجيبًا لهم «**إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا**» اليوم «**فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ**» أي: نجازيكم بالسخرية بالذم لكم، فنقول عند نزول العذاب: هؤلاء الذين زعموا أنهم أهل دين وحق فذوقوا، عن الأصم.وقيل: قال: لسخريتكم تعود عليكم بالغرق، وقيل: أراد بالسخرية الشماتة بهم، وقيل: أراد العذاب، ولذلك فسره بالعذاب، وسماه سخرية لتقابل الكلام، وقيل: إن تستجهلوني فإنا عند نزول العذاب نستجهلكم، عن الزجاج[1] «**فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ**» كلمة وعيد، أي: تعلمون عند نزول العذاب بكم وبال فعلكم، وصحة ما أقول «**مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ**» أي: تظهر فضيحته بإهلاكه «**وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ**» يعني دائمًا وهو عذاب النار، يعني يصيرون بعد الغرق إلى عذاب دائم.

۞ الأحكام

تدل الآية الأولى أنه تعالى أعلم نوحًا عليه السلام اليأس من قومه، فقال الأصم: فبين أنه لا يهلك قومًا وفيهم من يؤمن، وأنه إنما أهلكهم لما علم أنه لا يؤمن منهم أحد.

وقد اختلفوا في تبقية من يعلم أنه يؤمن، فقال أبو علي: واجب، ولا يجوز اخترامه، وقال أبو هاشم: يجوز، واتفقوا أنه يجوز تبقية من يعلم أنه يكفر، وبه يبطل اعتلالاتهم.

---

(١) انظر معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٣/ ٥٠.

ويدل قوله: «**ولا تخاطبني**» أنه لا تجوز المسألة، بخلاف الموعود، قال أبو علي: وذلك يدل على أنه لا يحسن من العبد أن يسأله ما يعلم أنه تعالى لا يفعله، وأخبر ألا يفعله، قال: وهذا يدل على أنه لا يفعل القبيح؛ إذ لو فعله لكان لنا أن نسأله ألاّيفعل، ولا يجب علينا الرضاء بفعله، بل بسخطه وبكرهه.

وتدل على أن عمل السفينة داخل في التكليف؛ لأنه عمل شاق، مأمور به.

وتدل على أن السخرية بأهل الدين مما يعظم في الوزر.

وتدل على أن تلك السخرية فعلهم، ليست بخلق لله تعالى.

قوله تعالى:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾﴾

القراءة

قرأ حفص عن عاصم: «**من كُلٍّ زوجين اثنين**» بتنوين (كل)، أي: من كل صنف زوجين، وذكر (اثنين) تأكيدًا، وكذلك في سورة (**قد أفلح**)، وقرأ الباقون غير منون على الإضافة في السورتين يعني: زوجين: ذكر وأنثى(١).

اللغة

الفَوْرُ: الغليان، وأصله الارتفاع، فارت القدر تفور، وفار غضبه: إذا جاش، ومنه: اشتق قولهم: فَعَلَهُ مِنْ فَوْرِهِ، أي قبل أن يسكن، يقال: فار يفور فورًا وفورانًا.

والزوج: واحد له شكل، إلا أنه كثر في الرجل الذي له امرأة، قال الحسن في قوله: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ [الذاريات: ٤٩] السماء زوج، والأرض زوج، والشتاء زوج، والصيف زوج، والليل زوج، والنهار زوج، حتى إذا صار الأمر إلى الله تعالى

---

(١) حجة القراءات ٣٣٩.

فهو فَرْدٌ، لا يشبهه شيء. ويقال: زوجان للذكر والأنثى، والزوج من النبات اللون، ومنه: ﴿زَوۡجِۭ بَهِيجٖ﴾ [الحج: ٥].

المعنى

ثم بَيَّنَ حال غرقهم ونجاة مَنْ في السفينة، وابتدأ بذكر أول أحوال السفينة، فقال سبحانه: «**حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا**» قيل: معناه فلما جاء أمرنا قيل: عذابنا، وقيل: أَمْرُنا بهلاك قومه «**وَفَارَ التَّنُّورُ**» نبع الماء منه، قيل: نبع الماء من موضع لا يعهد خروجه منه علامة لنوح، وهو تنور الخبز، عن ابن عباس، والحسن، ومجاهد، وأبي علي، وقيل: انفجر الماء من وجه الأرض، والعرب تسمي وجه الأرض تنورًا، عن ابن عباس، وعكرمة، وأبي عيينة، والزهري، وقيل: فار التنور طلع الفجر نور الصبح، عن علي عليه السلام[(١)]، وقيل: التنور أشرف موضع في الأرض[(٢)]، وأعلى مكانًا، عن قتادة، وقيل: فار التنور يحتمل اشتد الأمر كما يقال: حمي الوطيس، ومعناه: إذا رأيت الأمر يشتد، والماء يكثر، فَانْجُ بنفسك ومن معك إلى السفينة، عن أبي مسلم.

فأما من قال: هو تنور الخبز، وعلى ذلك أكثر المفسرين اختلفوا لِمَنْ كان، فقيل: تنور لنوح، وقيل: كان لآدم، قال الحسن: كان تنورًا من حجارة وكان لحواء حتى صار لنوح، واختلفوا في موضعه فقيل: بناحية الكوفة، عن مجاهد والشعبي، وقيل: في مسجد الكوفة، عن علي عليه السلام[(٣)]، وقال: قد صلى فيه سبعون نبيًّا، وقيل: كان تنور آدم، وكان بالشام بموضع يقال له: عين وردة، عن مقاتل، وقيل: فار التنور بالهند، عن ابن عباس، وقيل: إن امرأته أخبرته بخروج الماء من التنور فاشتغل بحمل ما أمر بحمله في السفينة «**قُلْنَا**» لنوح «**احْمِلْ فِيهَا**» أي: في السفينة «**مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ**» قيل: ذكر وأنثى من كل صنف من الحيوان، عن الحسن، ومجاهد، والضحاك، وقتادة، وقيل: الزوج الصنف، أراد أن يحمل من كل صنف اثنين ذكرًا وأنثى «**وَأَهْلَكَ**» أي: احمل ولدك وعيالك.

---

(١) عليه السلام: علي بن أبي طالب ـ صلى الله عليه وعلى آله ـ، ض.

(٢) في الأرض: ـ ، ض.

(٣) عليه السلام: ـ ، ض.

ومتى قيل: لِمَ[1] بدأ بسائر الحيوانات، ثم بأهله؟

قلنا: الواو للجمع، ولا توجب الترتيب، وقيل: لأنهم لا يهتدون بأنفسهم إلى النجاة، فإنجاؤهم واجب، وقيل: هم كانوا أكثر، فكان الشغل بهم أعظم، وقيل: لعلم نوح بحاجة الخلق إليهم، وقيل: ليعلموا أن منزلة الكلب والخنزير عند الله أعظم من منزلة الكفار أن نجاها وأهلكهم «إِلاَّ مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ» يعني: لا تحمل فيها من سبق الوعد بهلاكه، قيل: ابنه وامرأته، وكانا كافرين، عن الضحاك، وابن جريج. «وَمَنْ آمَنَ» أي: احمل من آمن بك في السفينة «وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ» قيل: القليل الذي نجا سبعة: نوح، وثلاثة بنين، وثلاث أخر، عن الأعمش، وقيل: ثمانية: نوح، وامرأته، وبنوه ونساؤهم، عن ابن جريج، وقتادة، والحكم، ومحمد بن كعب، سوى نسلهم، عن ابن إسحاق. وقيل: كانوا اثنين وسبعين رجلاً وامرأة وبنيه الثلاثة، وقيل: كانوا ثمانين فيهم ثلاثة هم بنوه: سام، وحام، ويافث، عن ابن عباس والكلبي وأبي علي. وقيل: كانوا عشرة سوى نسائهم، فكان الجميع ثمانية وسبعين نفسًا، وحمل معه جسد آدم، عن مقاتل.

الأحكام

تدل الآية على أنه تعالى خلص نوحًا والمؤمنين في السفينة، وأهلك الكفار، وفيه ترغيب وترهيب وتحذير لئلايسلكوا سبيل أولئك الكفار.

وتدل على أنه حمل من كل صنف زوجًا لتكون بهم عمارة الدنيا.

وتدل على أن المؤمنين قلة بالإضافة إلى الكفار.

وتدل على أن الحق لا يعلم بالكثرة، ولا تضرهم القلة، وإنما يعرف الحق بالدليل، ولهذا قال علي بن أبي طالب عليه السلام: «يا حارِ، الحق لا يعرف بالرجال، اعرف الحق تعرف أهله».

وما روي أن إبليس ركب السفينة اختلفوا، فمنهم من جوزه، ومنهم من أبى

(١) لم: لما؛ ش، ض.

ذلك؛ لأنه لو ولج[1] السفينة لغرق الشياطين، ولأنه عند استراق السمع يكون في الهواء، وروي أنه سكن البحار؛ ومن ثم يرسل جنوده.

قوله تعالى:

﴿وَقَالَ ٱرْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَٰبُنَيَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ ٱلْمَآءِ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾﴾

القراءة

قرأ حمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم: «مَجْراها» بفتح الميم، والباقون بضم الميم[2]، واتفقوا على ضم مميم «مرساها» غير محمد بن محيصن، فإنه فتح الميمين على أنهما مصدران، يعني بالله جريها ورسوها، يقال: جرى جريًا ومجرًا، ورسي يرسو رُسُوًّا[3] ومرسى، مثل ذهب مذهبًا وضرب مضربًا، فأما ضم الميمين فمعناه بالله إجراؤها وإرساؤها، كقوله: ﴿أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا﴾ [المؤمنون: ٢٩] و﴿أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ [الإسراء: ٨٠]، والمراد الإدخال والإخراج والإنزال، والاختيار ضم الميم من «مجراها» لتقابل «مرساها»، فأما فتح الميم فمن جَرى مجَرى، بالله جرين.

وقرأ حفص عن عاصم: «يا بُنَيَّ» بفتح الياء في جميع القرآن، والباقون جميع ذلك بالكسر، إلا ابن كثير، فإنه اختلف عنه في سورة (لقمان)، وسنذكره، وأما الكسر فإنها لما حذفت ألف الوصل نقلت حركته إلى الياء، وأما الفتح فلأنه أخف الحركات، ولأن الياء أخت الكسرة، فاستثقل اجتماعهما.

(١) ولج: لجا؛ ش، ض.
(٢) حجة القراءات ٣٤٠
(٣) حجة القراءات ٣٤٠

۞ اللغة

الجَرْيُ: مَرٌّ سريع، وهو مصدر جرى جَرْيًا وجِرْيَةً وجَرَيانًا، ويسمى الوكيل جَرِيًا؛ لأنه يجري مجرى موكله، والجمع أَجْرِياء.

والإرساء: إمساك السفينة بما تقف به، أرساها إرساءً، ورست رُسُوًّا، وأرست السفينة: وقفت، ورسى الشيء يرسو: ثبت، ومنه: ﴿وَقُدُورٍ رَّاسِيَـٰتٍۚ﴾ [سبأ: ١٣] وجبلٌ راسٍ، ورست أقدامهم في الحرب: ثبتت.

والموج: جمع موجة، وهي قطعة عظيمة من الماء ترتفع، وأصله الاضطراب، وماج يموج، وماج الناس يموجون.

والركوب: العلو على ظهر الشيء، ركب الدابة والسفينة، ومنه: المركب.

«سآوي» من قولهم: آوى يأوي: إذا رجع إلى منزل يقيم فيه، ومنه: المأوى.

والعصمة: المنع، واعتصم بفلان: امتنع، واعتصمت فلانًا: هيأت له ما يعتصم به، عصم يعصم فهو عاصم، والمعصوم في الدين: منع دعاء ولطف لا منع حيلولة، كأنهبالدعاء واللطف منعه من الكبائر.

۞ الإعراب

يقال: ما عامل الإعراب في «بسم الله»؟

[والعامل في (بسم الله) يحتمل ثلاثة أشياء:

الأول: اركبوا.

الثاني: ابتدِئُوا ببسم الله][١].

الثالث: بسم الله إجراؤها وإرساؤها.

وفي «يا بني» ثلاث ياءات: ياء التصغير، وياء الأصل، وياء الإضافة.

---

(١) ما بين المعكوفين زيادة من تفسير التبيان: ٥/ ٤٨٨. لاستقامة المعنى.

وقوله: «**إلا من رحم**» قيل: استثناء منقطع، كأنه قيل: لكن من رحم فهو معصوم، وقيل: تقديره: لا عاصم من أمر الله إلا الله، قيل: تقديره: لا عاصم اليوم من أمر الله إلا مَنْ رَحِمْنا، فأنقذنا، وقيل: إلا من رحم الله بالنجاة، وهو نوح، فإنه يعصم بأمر الله في السفينة، ومن آمن به وأطاعه، وهو اختيار أبي علي. و(من) قيل: محله رفع، وقيل: محله نصب، فعلى الأول تقديره: لا «عاصم» إلا الله، وعلى الثاني: لا «معصوم» إلا مَنْ رحمه اللهُ، وقيل: إلا من رحم يعني نوحًا عليه السلام.

المعنى

ثم بَيَّنَ ركوب السفينة، ومن تخلف عنها، فقال سبحانه: «**وَقَالَ**» نوحًا لقومه المؤمنين «**ارْكَبُوا فِيهَا**» يعني في السفينة «**بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا**» وقيل: المجرى موضع الإجراء، والمرسى موضع الإرساء، وقيل: نفس الإرساء والإجراء قيل: كان إذا أراد أن تجري قال: باسم الله فجرت، وإذا أراد أن ترسو قال: باسم الله، فرست، عن الضحاك، وقيل: إنها سارت لأول يوم من رجب، وقيل: لعشر مضين من رجب، فسارت ستة أشهر، ثم استوت يوم العاشر من المحرم على الجودي، وقيل: معناه اركبوا، واذكروا اسم الله حيث تَمُرُّ، وحيث تقف، تبركًا باسمه، وشكرًا لنعمته، واعتصامًا به، وقيل: المجرى: الموضع الذي يجري فيه الماء، والمرسى: الموضع الذي ترسو فيه السفينة، وتقف، عن أبي علي. «**إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ**» غفور للذنب بالتوبة، رحيم بنجاة المؤمنين في السفينة، وقيل: غفور حيث أمهلهم مع الكفر، رحيم بالمؤمنين حيث نجاهم «**وَهِيَ**» يعني السفينة «**تَجْرِي بِهِمْ**» بنوح ومن معه «**فِي مَوْجٍ**» واضطراب من الماء «**كَالْجِبَالِ**» عِظَمًا وارتفاعًا إشارة إلى شدة اضطراب الماء حال ركوبهم «**وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ**» قيل: هو كنعان، قيل: كان كافرًا «**وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ**» في ناحية من دين أبيه، أي: اعتزل دينه فلم يقبله، وكان في معزل من السفينة اعتزل ممن ركبها، فلم يركب «**يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا**» قيل: ناداه سبع مرات: يا بني اركب.

ومتى قيل: كيف دعاه وهو كافر، وقد نهي عن ركوب الكفار؟

قيل: كان شاقق أباه، عن الأصم، والحسن، وأبي علي.

وقيل: دعاه بشرط الإيمان، عن أبي مسلم، وهذا الدعاء قبل أن تظهر أمارة الآخرة.

«**وَلا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ**» فتهلك كما يهلكون «**قَالَ**» ابنه: «**سَآوي**[1]» سأرجع «**إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ**» أي: يمنعني، «**قال**» نوح: «**لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ**» أي: لا مانع من أمر الله اليوم وهو عذابه الغرق، وقيل: عاصم بمعنى معصوم، كقوله: ﴿عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٢١] بمعنى مرضية، أي: لا معصوم من أمر الله إلا من يرحمه الله «**إِلاَّ مَنْ رَحِمَ**» قيل: لا مانع إلا رحمة الله، عن أبي مسلم، ورحمة الله يوجبها للمؤمنين، وقيل: إلا نوح، فإنه يعصم بأمر الله، وقيل: إلا الله «**وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ**» أي: صار كالحيلولة بينهما «**فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ**» أي: صار من المغرقين.

۞ الأحكام

تدل الآية أنهم أمروا بالركوب عند ظهور العلامات.

وتدل على أنهم تعبدوا بذكر الله عند الركوب، وذلك يدل على أن الابتداء في كل أمر باسم الله عبادة.

وتدل على أن ابن نوح كان كافرًا؛ فلذلك أُهْلِكَ، فإذا جاز في نبي أن يكون ابنه كافرًا، فهلا جاز أن يكون ابْنَ كافر، فيبطل بذلك قول الإمامية في أبي[2] إبراهيم.

وتدل على عظيم نعمه على نوح ومن معه في حفظهم مع كثرة الأمواج، وعموم الأرض بالماء والغرق.

وتدل على معجزات لنوح عليه السلام.

قوله تعالى:

﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾

---

(١) سآوي: ـ، ض.

(٢) أبي: أب؛ ش، ض.

۞ اللغة

البلع: إجراء الشيء في الحلق إلى الجوف، بلع بلعًا، والإبلاع: إذهاب الشيء من أصله، حتى لا يُرَى له أَثَرٌ[1].

أقلعت السماء: إذا ذهب مطرها، حتى لا يبقى منه شيء، وأقلع عن الأمر: كف عنه وتركه رأسًا، وقلعت الشيء قلعًا، ومنزل قُلْعَةٍ: إذا لم يكنْ مُسْتَوْطَنًا، والقوم على قُلْعَةٍ: أي رحلة.

والغيض: غيبة الماء في الأرض، على جهة النشف، غاض الماء يغيض غيضًا: إذا ذهب في الأرض.

۞ الإعراب

«**بعدًا**» نصب على المصدر أي: أبعدهم الله بعدًا، ولا[2] تقطع الألف من «**ابلعي ماءك**»؛ لأنه من بَلَع يَبْلَع، والألف مقطوع في قوله: «**أقلعي**»؛ لأنه من «أقلع يُقْلِعُ».

«**وغيض الماء**» لم يسم فاعله، فلذلك رُفِعَ «**الماءُ**»، وكذلك «**قضي الأمر**».

۞ المعنى

ثم بَيَّنَ تعالى الحال بعد تناهي الطوفان، فقال سبحانه: «**وَقِيلَ**» يعني: لما تناهى الطوفان قيل: «**يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ**» الذي نبعت به العيون، وقيل: إن العيون من الأرض السابعة نبعت بالماء، ثم غيض إلى مواضعه، عن أبي علي «**وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي**» أمسكي، وليس ههنا قول وأمر، وإنما معناه أنه تعالى أذهب ماء الأرض في الأرض، وأمسك السماء، إلا أنه ذكر بلفظ الأمر تفخيمًا وتوسعًا «**وَغِيضَ الْمَاءُ**» نضب وذهب عن وجه الأرض إلى باطنها، وقيل: صار بعضه في الأرض وبعضه في البحار، عن أبي علي «**وَقُضِيَ الْأَمْرُ**» أي: فرغ من إهلاك قوم نوح على التمام، فتم هلاكهم

(١) أثر: أثرا؛ ش، ض.
(٢) لا: ألا؛ ش، ض.

«وَاسْتَوَتْ» واستقرت يعني السفينة «عَلَى الْجُودِيِّ» قيل: جبل بناحية [آمد قرب][1] الموصل، عن الزجاج[2]، وأبي علي، والأصم، وقيل: الجودي اسم لكل جبل وأرض صلبة، عن أبي مسلم، وقيل: أرسيت على الجبال شهرًا، وأهبطوا يوم عاشوراء، عن قتادة، وقيل: فصام نوح ومن معه ذلك اليوم شكرًا، وأمر نوح أن يقول: ﴿رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا﴾ الآية [المؤمنون: ٢٩]. «وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ» يحتمل أن يكون الله تعالى قال ذلك، ويحتمل أن يكون من كلام الملائكة، ويحتمل أن يكون من كلام نوح والمؤمنين، ومعنى بُعْدًا أي هلاكًا.

۞ الأحكام

تدل الآية على أنه اجتمع ماء الأرض وماء السماء، فانفجرت الأرض بالعيون، وأنزل من السماء.

وتدل أن السفينة استقرت على الجودي، وذكر الأصم في تفسيره، قال: روي أن الله تعالى أوحى إلى الجبال، أني أهبط السفينة على جبل منكم، فتطاولت الجبال، وتواضع الجودي، واستوت عليه السفينة، وروي نحوه، عن مجاهد، وهذا يحتمل ثلاثة وجوه[3]:

أحدها: أن يكون المراد أهل الجبل.

وثانيها: أن يكون مثلاً.

وثالثها: أن يكون معجزة لنوح مضمومة إلى سائر معجزاته.

وتدل على إعجاز القرآن؛ لأن فيه من الفصاحة وعجيب البلاغة ما لا يقدر عليه بشر من وجوه:

منها: أنه خرج مخرج الأمر على وجه التعظيم.

ومنها: حسن تقابل المعنى.

ومنها: ائتلاف الألفاظ المتلائمة.

---

(١) واحد: +، ش، ض.

(٢) انظر معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٣/ ٥٥، وفيه «جبل بناحية آمد».

(٣) أوجه: وجوه؛ ش، ض.

ومنها: حسن البيان في تصوير الحال[١].

ومنها: الإيجاز من غير إخلال.

ومنها: نقل الفهم على أتم الكمال، إلى غير ذلك مما يعلمه[٢] مَنْ تدبر، وله معرفة بكلام العرب ومخاطباتهم.

قال أبو علي: ولو فتش في كلام العرب والعجم لم يجدوا في كلامهم مثلها في فصاحة ألفاظها، وحسن نظمها، وجودة[٣] معانيها.

قوله تعالى:

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾

القراءة

قرأ الكسائي ويعقوب: «عَمِلَ» على فعل ماض[٤] «غَيْرَ» بالنصب على معنى: إن ابنك عمل عملاً غير صالح، يعني أشرك وكذب. فـ «غير» نصب لأنه نعت لمصدر محذوف، وقرأ الباقون: «عَمَلٌ» بالرفع والتنوين على أنه مصدر أو اسم. «غيرُ» بالرفع، ثم اختلفوا في تقديره: فقيل: إنه يعني: أن ابنك ذو عمل غير صالح، أو صاحب عمل غير صالح لإصراره على الكفر، فحذف المضاف وأقام المضاف إليه

---

(١) من قوله: «أقلعي وغيظ الماء...» إلى هنا: ـ، ض.

(٢) يعلمه: يعلم، ض.

(٣) وجودة: ووجوه، ض.

(٤) حجة القراءات ٣٤١

مقامه، عن الزجاج، وقيل: سؤالك هذا عمل غير صالح، عن ابن عباس، ومجاهد، وإبراهيم، وقيل: ولد غير صالح، عن الحسن.

فأما القراءة الأولى فقد زيفها بعضهم وقال: كان ينبغي أن يقول: عمل عملاً، وليس كما قال؛ لأن هذه قراءة ظاهرة، وهم يقولون: فعلت صوابًا، وقلت قولاً[1] حسنًا، قال الشاعر:

أَيُّها القَائِلُ غَيْرَ الصَّوَابِ ... خُذِ النُّصْحَ وَاَقْلِلْ عِتَابِي[2]

واختلفوا في قوله: «فلا تسألني» على أربعة أوجه:

أولها: قرأ أبو جعفر، ونافع بقراءة ورش، وإسماعيل بتشديد النون وإثبات الياء.

وثانيها: قرأ ابن عامر، ونافع برواية قالون بتشديد النون وكسرها من غير إثبات الياء.

وثالثها: قرأ أبو عمرو، ويعقوب بتخفيف النون وكسرها، [غير أن أبا عمرو أثبت الياء في الوصل وحذفها في الوقت، ووقف عليها يعقوب بالياء.

ورابعها: قرأ عاصم وحمزة والكسائي بسكون اللام وتخفيف النون وحذف الياء في الوصل والوقف][3].

أما التشديد للتأكيد وإثبات الياء على الأصل، وأما الحذف وترك التشديد للتخفيف من غير إخلال.

اللغة

النداء على وجهين:

نداء تعظيم كنداء العبد ربه؛ ولذلك كان حذف حرف النداء أحسن من إثباته؛ ولذلك قال: «رب».

---

(١) قولا: +، ض.

(٢) البيت لعمر بن أبي ربيعة. انظره في: الأغاني ١/ ١٣٥.

(٣) زيادة يستقيم بها السياق، وفي النسخ: بتخفيف النون وكسرها وحذف الياء. راجع زاد المسير ٢/ ٣٧٨ لأبي الفرج الجوزي ت: عبد الرازق المهدي. دار الكتاب العربي. بيروت. ط١ ١٤٢٢هـ ونص كلامه كالآتي: «وقرأ عاصم وأبو عمرو وحمزة والكسائي بسكون اللام وتخفيف النون، غير أن أبا عمرو وأبا جعفر أثبتا الياء في الوصل، وحذفاها في الوقف، ووقف عليها يعقوب بالياء، والباقون بحذفها الحالين» ٢/ ٣٧٨.

وثانيها: نداء تنبيه، كقوله: «**يا نوح**»؛ ولذلك أدخل حرف النداء، وهو الدعاء إلى أمر.

والعياذ: طلب النجاة بما يمنع من الشر، عاذ يعوذ عوذًا وعياذًا فهو عائذ، والعياذ: الاعتصام بما يمنع من المكروه.

والبركة: أصلها الثبوت، ومنه: البروك، والبركة: لثبوت الماء فيها، قال الشاعر:

وَلاَ يُنْجِي مِنَ الْغَمَرَاتِ إِلاَّ بَرَاكَاءُ الْقِتَالِ أَوِ الْفِرَارُ[1]

أي: الثبوت للقتال، وتبارك الله ثبت ودام، وقيل: ثبت تعظيمه لم يزل ولا يزال، فالبركة: ثبوت الخير بتمامه حالاً بعد حال.

۞ الإعراب

«**أمم**» رفع على الاستئناف، ونصب «**فريقا**» في قوله: «**فريقا هدى**» على إعمال الفعل تقديره: كما بدأكم تعبدكم فريقًا فريقًا. «**لكن**» جواب الجزاء كقوله: ﴿وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن﴾ [هود: ٤٧].

۞ المعنى

ثم حكى قصة نوح وابنه، فقال سبحانه: «**وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ**» أي: دعاه «**فَقَالَ رَبِّ**» أي: مالكي وخالقي وسيدي «**إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي**» وقد وعدتني أن تنجيني وأهلي «**وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ**» لا خلف فيه «**وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ**» فيما حكمت بهلاك قوم، ونجاة قوم «**قَالَ**» الله تعالى «**يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ**» اختلفوا في هذا الابن على ثلاثة أقوال:

منهم من قال: إنه كان ابنه لصلبه، فلذلك قال تعالى: «**وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ**» ثم اختلف هؤلاء في معنى الآية، فقيل: ليس من أهلك الذين وعدتك أن أنجيهم معك، وكان ابنه لصلبه، عن ابن عباس، وسعيد بن جبير، والضحاك، وعكرمة، وميمون بن مهران، والأصم، وأبي علي قالوا: ما بغت امرأة نبي قط، وكانت خيانتها في الدين تخبر الناس أنه مجنون، وهذا أصح ما قيل في الآية وعليه أكثر الأئمة. وقيل: ليس من أهلك من أهل دينك، وكان ابنه لصلبه.

---

(١) قاله بشر بن أبي حازم، انظره في: العين (برك)، والصحاح (برك)، واللسان (برك).

الثاني: أنه لم يكن ابنه لصلبه، وكان لغير رشده ولد على فراشه، وكان منافقًا[1]، ولم يعلم به نوح، عن الحسن، ومجاهد، وابن جريج، وعبيد بن عمير، قال الحسن: وكان منافقًا.

الثالث: كان من امرأته؛ ولذلك قال: «**إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي**» ولم يقل: «مني»، يروى ذلك عن محمد بن علي الباقر ﷺ، وكلا التأويلين لا يصح لقوله: «**وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ**».

واختلفوا في دعائه له، قيل: لم يعلم كفره، وكان منافقًا يظهر الإيمان، ويبطن الكفر، عن الحسن، والأصم، وأبي علي، وأبي مسلم.

وقيل: دعا بشرط الإيمان، وكان يرجو أن يؤمن، عن أبي مسلم.

وقيل: عرف ذلك منه، ولكن لشفقته قال ما قال، والعقل لا ينكر الدعاء للكافر، إنما يمنع منه الشرع، ولعله دعا بحكم العقل حتى ورد الشرع بالنهي.

ومتى قيل: لِمَ سأل من غير إذن، وعندكم لا يجوز ذلك على الأنبياء؟

فجوابنا: سبق الوعد بإنجاء أهله، وكان من أهله، وكان ممكنًا أن يقف على إسلامه فلما لم يستدل صار ذلك صغيرة منه.

وقيل: كان دعا ابنه إلى الإيمان، ودعا ربه في ابنه، ولم يكن عالمًا بحاله.

«**إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ**» بينا اختلاف القراء والمفسرين «**فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ**» يعني لا تسألني شيئًا حتى تعلم أنه جائزفي حكمي «**إِنِّي أَعِظُكَ**» أزجرك عن طريق الجاهلين، وذلك سؤال الجاهلين، قال أبو علي: أعظك لئلا تكون من الجاهلين، فحذف لدلالة الكلام عليه «**قَالَ**» نوح عند ذلك «**رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ**» أعتصم بك «**أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيسَ لِي بِهِ عِلْمٌ**»؛ لأن السؤال على ضربين منه ما يحسن، ومنه ما يقبح، فلا يجوز أن يسأل إلا ما يعلم حسنه «**وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي**» ذلك «**وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ**» لنفسي، قيل: قال ذلك تذللاً وخشوعًا، ولم يسبق منه ذنب، وقيل: طلب

(١) وكان منافقًا: ـ ، ض.

التوفيق والمعونة لئلا يكله إلى نفسه، وقيل: وقع منه صغيرة فاستغفر منها، وسأل المغفرة، فلما خربت الدنيا تعلق قلب نوح بما يؤول الأمر إليه، فقال سبحانه: «**قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ**» من السفينة «**بِسَلامٍ مِنَّا**» أي: بسلامة[1] ونجاة «**وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ**» يعني في الأقوات والذراري، فجميع الخلق من ذريته «**وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ**» أي: جماعة معك، وهم المؤمنون معه في السفينة، وقيل: أمم من ذرية من معك، وهم المؤمنون بعده «**وَأُمَمٌ**» جماعة ليسوا بمؤمنين، وإنما همتهم الدنيا «**سَنُمَتِّعُهُمْ**» في الدنيا «**ثُمَّ يَمَسُّهُمْ**» يصيبهم «**مِنَّا**» في الآخرة «**عَذَابٌ أَلِيمٌ**» وهم الكافرون، قال الحسن: هلك المتمتعون في الدنيا؛ لأن الجهل يغلب عليهم والغفلة، فلا يتفكرون[2] إلا في الدنيا وعمارتها وملاذها «**تِلْكَ**» يعني القصة المتقدمة «**مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ**» من أخبار ما غاب عنك «**نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلا قَوْمُكَ**»؛ لأنهم لما يكونوا أهل كتاب ولا سير، وقيل: إن المدة كانت بعيدة، والأخبار مندرسة «**مِنْ قَبْلِ هَذَا**» أي: من قبل هذا القرآن، وبيان القصة فيه، وقيل: من قبل هذا الإخبار والبيان «**فَاصْبِرْ**» أي: على القيام بأمر الله وتبليغ رسالته، وما تلقى من أذى الكفار كما صبر نوح «**إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ**» يعني خاتمة الخير والسعادة والنصرة للمتقين، فيكون لك كما كان لنوح، وقيل: الجنة لمن اتقى المعاصي، عن الأصم.

۞ الأحكام

تدل الآيات على أن الموالاة في الدين وحرمة الاعتقاد أولى بالرعاية وآكد من النسب، ولذلك غلب ذلك في قوم نوح، فوالَى الأجانب في الدين، ونهىَ عن موالاة ابنه.

وتدل على أنه لا يجوز على الأنبياء أن يسألوا شيئًا إلا بإذن الله.

ويدل قوله: «**من الجاهلين**» على قبح الجهل، وهو اعتقاد الشيء على خلاف ما هو به، وذلك قبيح على كل حال.

---

(١) بسلامة: إسلامه، ش.

(٢) يتفكرون: يتذكرون، ش.

وتدل على وجوب الاعتصام بالله عند نزول الشدائد، وأن غيره لا يغني عنه شيئًا.

وتدل على إن الإخبار بهذه القصة لطف لهذه الأمة من وجوه:

منها: العلم بمواضع الخطيئة.

ومنها: الاعتذار من التوبة.

ومنها: الجد في تعلم الدين.

ومنها: اجتناب الجهل.

ومنها: أن الموالاة تجب في الدين إلى غير ذلك.

وتدل على معجزة حيث أخبر عن غوامض الأخبار، مع بُعْد العهد من غير أن يقرأ كتابًا أو يسمع خبرًا.

ومتى قيل: أليس الطوفان شمل غير المكلف؟

قلنا: بلى، ولكن لم يكن عقوبة لهم، بل ماتوا بآجالهم، وإنما كانت عقوبة للكفار، عن الضحاك وجماعة، وهوقول مشايخنا.

ومتى قيل: أليس المجوس تنكر الطوفان؟

قلنا: لأنه ليس لهم كتاب ولا نبي، وإنما أخذوا من كذاب أتاهم بأمور باطلة كزرادشت[1] وماني، ومزدك، وأمثالهم، وقيل: أيامهم[2] نشأت بعد الطوفان.

ومتى قيل: فلم كرر هذه القصص؟

قلنا: ليس بتكرار إذا لم يكرره في مجلس، بل كانت تختلف الأحوال والمجالس في ثلاث وعشرين سنة.

وقيل: أعادها للمصلحة، وللحاجة[3] إليها.

(١) كزرادشت: كزدشت؛ ش، ض.
(٢) أيامهم: أيامنهم، ش.
(٣) للحاجة: حاجة؛ ش، ض.

وقيل: لما فيها من علو الطبقة في البلاغة والتصرف في الألفاظ والمعاني، وليصبر الرسول على أذى قومه حالاً بعد حال.

قوله تعالى:

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾

اللغة

المدرار: الكثير المتتابع، يقال: دِيَمةٌ مدرار، أي: كثير المطر، وهو «مِفْعَال» من الدرور، و«المِفْعال» بناءٌ للمبالغة كمِعْطَار، ولا يؤنث، ويقال: درت السماء: إذا مطرت، وأصله: من درَّت[1] الماشية، أي: خرج اللبن من الضرع، ودر الضرع[2]: إذا امتلأ لبنًا، ودرت العروق: إذا امتلأت دمًا.

الإعراب

نصب «هودًا» بفعل مضمر أي: وأرسلنا إلى عاد هودًا، وإنما حذف لتقدم الدليل في قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾ قال أبو مسلم: هو عطف على قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾.

و(عاد) ينصرف إذا ذهب به إلى معنى الحي، ولا ينصرف إذا ذهب به إلى معنى القبيلة.

وقال أبو مسلم: «**يرسل السماء**» جزم لأنه جزاء، «**ويزدكم**» معطوفًا عليه، و«**استغفروا**» شرط يستحق به الجزاء، وكسر لام (يرسل) لالتقاء الساكنين.

---

(١) درت: دررت؛ ش، ض.

(٢) ودر الضرع: ـ، ض.

۞ المعنى

ثم عطف تعالى بقصة هود على قصة نوح، فقال سبحانه: «وَإِلَى عَادٍ» أي: أرسلنا إلى عاد «أَخَاهُمْ هُودًا» يعني أخاهم في النسب دون الدين، فـ «قَالَ» هود: «يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ» قيل: وحدوه بالتوحيد، وقيل: اعبدوه باتباع أوامره، وقيل: اعبدوه مخلصين، وإنما بدأ بالتوحيد؛ لأنه أهم، ولأن الشرع يبنى عليه «مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ» يعني ما تعبدون من الأوثان ليسوا بآلهة، ولا يستحقون العبادة «إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ مُفْتَرُونَ» كاذبون في قولكم: الأوثان آلهة «يَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا» أي: على تبليغ الرسالة، وأداء النصح جُعْلاً «إِنْ أَجْرِيَ» قيل: رزقي، وقيل: ثوابي على ما أتحمله وأبلغه «إِلاَّ عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي» خلقني «أَفَلا تَعْقِلُونَ» قيل: معناه لماذا عدلتم عن الاستدلال والتفكر[1] فصرتم كمن لا يعقل، وقيل: معناه اعقلوا بأني أطلب نصحكم فاقبلوه، قيل: أفلا تعقلون عني ما أقول لكم، وهو مفهوم، عن أبي مسلم «وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ» قيل: آمنوا به وتوبوا من عبادة غيره، والمراد بالاستغفار الإيمان، وقيل: توبوا إليه؛ لأن التوبة استغفار، عن الفراء، وقيل: استغفروا لماضي ذنوبكم، وتوبوا بأن تعتصموا بالحق[2] فيما يستقبل، ودوموا على ذلك، وقيل: اطلبوا المغفرة واجعلوها مقصودكم، ثم توصلوا إليها بالتوبة، والأول الغرض، والثاني: السبب، «يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ» يعني المطر «مِدْرَارًا» متتابعًا، وقيل: غزيرًا كثيرًا، عن الأصم.

ومتى قيل: هل تكون نعم الدنيا جزاء للتوبة؟

قلنا: لا، ولكن تكون لطفًا تدعو إلى الطاعة والدوام على التوبة.

«وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ» أي: شدة إلى شدتكم قيل: يقوي أبدانكم ويصحها لتتمكنوا من الأفعال، وقيل: هو الأولاد التي يتقوى بهم المرء، وروي أنه تعالى حبس عنهم المطر، وأعقم أرحام نسائهم ثلاث سنين، فقال لهم هود: إن آمنتم أحيا لله بلادكم، ورزقكم المال والولد «وَلاَ تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ» أي: لا تعرضوا عن أمر الله مشركين كافرين.

---

(١) والتفكر: والتذكر، ض.

(٢) بالحق: بالخلق، ض.

۞ الأحكام

تدل الآية على أن في الطمع ما يؤثر في القبول، وفي الطمع ما ينفر عن القبول.

وتدل على أن الاستغفار والتوبة قد يكون كالسبب في نعم الدنيا، بأن يعلم كونها لطفًا؛ ولذلك قال تعالى: «يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا»؛ لأن ما ذكره تعالى تضمن سائر نعم الدنيا؛ لأن بالمطر إصلاح الحرث والزرع والضرع، وبالقوة صحة الأبدان وكثرة الأولاد، والعز والمنعة.

وتدل على أن الافتراء، ثم الاستغفار والتوبة عنها فعلهم.

قوله تعالى:

﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾﴾

۞ اللغة

اعتراه الشيء: أصابه، يقال: عراه الشيء يعروه أصابه، قال الشاعر:

وَإِنِّي لَتَعْرُونِي لِذِكْرَاكِ نِفْضَةٌ كَمَا انْتَفَضَ العُصْفُورُ بَلَّلَهُ القَطْرُ[1]

والكيد والمكيدة: الاحتيال في الشر، كاده يكيده كيدًا، وأصله: المعالجة، وكل شيء عالجته فأنت تكيده، وهو يكيد بنفسه، أي: يجود.

---

(١) البيت لمجنون ليلى. انظره في: العين (سلو)، واللسان (قفف)، وتاج العروس (بلل) وفي رواية: هِزَّةٌ.

والناصية: مقدم شعر الرأس، وقيل: هو قصاص الشعر، وأصل الناصية: الاتصال من قولهم: مَفَازَةٌ، تُنَاصِي مَفَازَةً، أي: تتصل بها، ونَصَوْتُه أَنْصُوْه نصْوًا: إذا اتصلت[1] به، والأخذ بالناصية عبارة عن القهر والملك.

والتولي عن الشيء: الإعراض عنه[2].

۞ الإعراب

«تولوا» قال أبو مسلم: أصله تتولوا، بتائين أسقطت أحدهما للتخفيف، ولأن في الثاني دليلا[3] على المحذوف.

۞ المعنى

ثم ذكر تعالى جواب قومه وما جرى عليهم، فقال سبحانه: «**قَالُوا**» يعني: كفار عاد «**يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ**» بحجة ومعجزة فنقر لك؛ وذلك لأنهم لم يُعدُّوا ما جاء به برهانًا لقلة التدبر، وهذا كذب منهم، وإنما تُعْلَمُ البينة بالتدبر، وإذا ظهرت ولم يتدبروا فيها بأمور عارضة كالشبه وتقليد الرؤساء وإيهام المردلها، واعتقاد أصول فاسدة دعت تلك إلى جحدها، وكانت صارفة عن التدبر فيها «**وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ**» يعني: لا نترك عبادة الأوثان لقولك إنه باطل، وأمرك بتركه.

ومتى قيل: ما الداعي إلى عبادة الأصنام مع أنها جماد؟

قلنا: أمور:

منها: الاعتقاد بأنها تقرب إلى الله.

ومنها: الاعتقاد بأن معبوده صورة، وأن هذه الأوثان على صورته.

ومنها: اعتقاد أن في عبادتها نفعًا عاجلاً وآجلاً.

ومنها: تقليد الرؤساء إلى غير ذلك.

---

(١) اتصلت: اتصل، ض.

(٢) عنه: منه، ض.

(٣) دليلا: دليل؛ ش، ض.

«وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ» أي: لا نصدقك بأنك رسول، وأن ما جئت به حق «إِنْ نَقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ» يعني إنك لست تتعاطى ما تعاطيت من سب آلهتنا إلا أن بعض آلهتنا أصابك بسوء، قيل: بجنون خبل عقلك، عن ابن عباس، والحسن، ومجاهد، وهذا مكابرة منهم؛ لأن كل عاقل يعلم أن الجماد لا يقدر على نفع وضر وجنون وخبل، ولكن لبسوا فقالوا: الذي حملك على هذا ما أصابك منها، فـ «قَالَ» هود عليه السلام «إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ» على نفسي «وَاشْهَدُوا» أنتم أيضًا «أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِهِ» يعني: الأوثان.

ومتى قيل: لِمَ أشهدهم وليسوا بأهل الشهادة؟

قلنا: لتقوم الحجة عليهم، لا لتقوم بهم؛ لأن البراءة عنهم تبين عجزهم.

«فَكِيدُونِي جَمِيعًا» أي: احتالوا جميعًا في مكري أنتم وأوثانكم «ثُمَّ لا تُنْظِرُونِ» لا تمهلوني، وهذا جواب عن قولهم «اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ». «إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ» أي: فوضت أمري إليه «رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ» حيوان يدب على وجه الأرض "إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا» قيل: بجميعها يتصرف فيها كيف شاء، عن الفراء، وقيل: يحييها ويميتها، عن الضحاك، وقيل: يقهرها، عن القتيبي، وإنما خص أخذ الناصية؛ لأن من عادة العرب استعمال ذلك إذا وصف إنسانًا بالذل والخضوع، فيقول: ناصيته بيدي، فخاطبها بما جرت به مخاطباتهم، عن أبي علي. «إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» طريق مستقيم واضح، قيل: معناه: إن ربي يدل على طريق مستقيم يدعو إليه ويأمركم به، وقيل: صراط ربي مستقيم لا عوج فيه، عن الأصم، وقيل: إن ربي في تدبيره لخلقه على صراط مستقيم، لا فساد فيه ولا خلل، عن أبي علي. يجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، وقيل: على طريق كل أحد لا يفوته أحد، ويرجع الخلق إلى حكمه. «فَإِنْ تَوَلَّوْا» قيل: فإن أعرضوا فقل يا محمد، وقيل: أعرضوا عني، عن أبي مسلم. «فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ» يعني تَوَلِّيكُمْ لسوء اختياركم لا لتقصير في إبلاغي، فإني أبلغت جميع ما أوحي إليّ «وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ» أي: يهلككم بكفركم ويستبدل قومًا غيركم يوحدونه ويعبدونه، وقيل: أي: أبلغت[1]،

(١) أبلغت: بلغت، ش.

والبلاغ بظهور المعجزة، وقد أظهرت، وإذا خالفوا استحقوا الهلاك «وَلا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا» قيل: لا ينقصه هلاككم، ولايلحقه ضرر؛ لأن وجودكم وعدمكم عنده سواء، وقيل: بإعراضكم تضرون أنفسكم دونه فإنه لا يجوز عليه النفع والضر، وقيل: لا تقدرون له على ضرر[1] إن أراد إهلاككم «إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ» أي: حافظ يحفظه من الهلاك إن شاء، ويهلكه إذا شاء، وقيل: يحفظ أعمال العباد حتى يجازيهم، وقيل: يحفظني من أن تنالوني بسوء، وقيل: (على) بمعنى اللام، أي: لكل شيء حفيظ، وقيل: حفيظ قاهر له بالملك والحفظ، فلا يفوته شيء عما يريد بهم، عن أبي مسلم.

۞ الأحكام

تدل الآية على جواز الحجاج في الدين.

وتدل على أنهم لبسوا بأن نسبوه إلى أن بعض آلهتهم أصابه بسوء، فأجاب بالقاطع بأنه بريء منهم، فكيدوني، فإذا لم يفعلوا بان بأنهم[2] لا يقدرون على نفع وضر.

وتدل على وجوب التوكل على الله، والاعتصام به.

قال أبو علي: ويدل قوله: «ويستخلف» أنه يهلكهم، لولا ذلك لم يكن استدلالا.

وتدل على أن التولي وتلك المقالات قَوْلُهُم وفعلهم، فليس بخلق الله، فيبطل قولهم في المخلوق.

قوله تعالى:

﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾﴾

---

(١) ضرر: ضر، ض.

(٢) بأنهم: أنهم، ش.

اللغة

الغِلَظ: عظم الجثة، وهو بَيِّنُ الغلظ، والغلظ بضم الغين وكسرها وفتحها ثلاث لغات، ثم تستعمل في غيره توسعًا، فيقال: قول غليظ، وعذاب غليظ؛ لأنه بمنزلته في الثقل على النفس، وطول المكث.

والجحود: ضد الاعتراف، وهو الخبر بأن الشيء لا يعرف صحته مع علم الجاحد به، والجَحْدُ بفتح الحاء: قلة الشيء، يقال: عامٌ جَحِدٌ أي: قَلَّ مطره، ورجل جحد: فقير.

والجَبَّارُ من النخل: ما فات اليد، نخلة جَبَّارَةٌ، ورجل جَبَّار، وفيه جَبْرِيَّة وجَبْرُوَّةٌ وجَبَرُوتٌ، وجُبُّورَةٌ[1]، أي: كِبْرٌ[2].

والعنيد: العاتي الطاغي، يقال: عند يعند عنيدًا وعنودًا: إذا تجبر، وعَنَدَ الرجل عن الأمر: إذا حاد عنه، فهو عاند وعنود، وعاند الحق عنادًا: إذا حاد عنه كبرًا، قال الشاعر:

إِنِّـي كَـبِـيـرٌ[3] لا أُطِـيـقُ الـعُـنَّـدَا[4]

والعنود: ترك القصد، والناقة العنود: التي لا تستقيم في سيرها، وطعن عند: إذا كان يمنة ويسرة، ويقال: عاند: إذا لزم، وعاند: إذا فارق.

الإعراب

«بعدًا» نصب على إضمار فعل[5] أي: أبعده الله بعدًا، ووقع (بعدًا) في موقع

---

(١) وجبورة: وجبروه، ش.

(٢) كبر: كثر؛ ش، ض.

(٣) كبير: عنيد؛ ش، ض.

(٤) أنشده الفراء، وصدر البيت:

إِذَا رَحَـلْـتُ فـاجْـعَـلُـونـي وَسَـطَـا

انظره في: جمهرة اللغة (دعن)، واللسان (عندا)، وتاج العروس (عند)

(٥) على إضمار فعل: +، ض.

الإبعاد، كما وقع (نباتًا) موقع الإنبات في قوله: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا﴾ [نوح:١٧].

ونصب «لعنة»؛ لأنه خبر ما لم يسم فاعله.

المعنى

ثم بَيَّنَ تعالى هلاك قوم هود لَمَّا لم يؤمنوا، فقال سبحانه: «**وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا**» قيل: عذابنا، عن الأصم، وأبي مسلم، وقيل: أَمْرُنا للملائكة بهلاك عاد، عن أبي علي. «**نَجَّيْنَا هُودًا**» أي: خلصناه من العذاب، وقيل: من أذى قومه «**وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ**» صدقوه، قيل: كانوا أربعة آلاف «**بِرَحْمَةٍ مِنَّا**» أي: بنعمة منا، وهي النجاة، وقيل: بالهدى والإيمان الذي هو رحمة من الله، عن الأصم. «**وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ**» قيل: هو الريح الذي أهلك عادًا، عن الأصم، وقيل: عذاب القيامة، أي: كما نجيناهم من عذاب الدنيا كذلك نجيناهم من عذاب الآخرة، عن أبي علي، وقيل: أرسل الله عليهم الريح سبع ليال وثمانية أيام، كما نطق به القرآن، وقيل: كانت تدخل الريح في مناخرهم، وتخرج من أدبارهم، وترمي بهم على مناخرهم، وترفعهم وتكبهم على وجوههم حتى تَقَطَّعَ أعضاؤهم، عن الأصم. «**وَتِلْكَ عَادٌ**» رده إلى القبيلة، فلذلك قال: «**تلك**»، ومعناه تلك عاد التي عرفتهم وقوتهم وبطشهم «**جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ**» قيل: الأدلة والحجج كلها، وقيل: معجزات هود ونبوته «**وَعَصَوْا رُسُلَهُ**» قيل: أراد هودًا وحده، وإنما جمع؛ لأن مَنْ كَذَّبَ رسولا واحدًا فقد كذب جميع الرسل، وقيل: كانت جميع الرسل طريقتهم واحدة، وقامت حجتهم على الكفار بوجوب إخلاص العبادة لله تعالى، فإذا خالفوا ذلك فهي مخالفة لجميعهم، عن أبي علي، وقيل: إن هودًا دعاهم إلى الإيمان بالرسل فأبوا، عن الأصم «**وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ**» أي: متكبر عات طاغ[1] لا يقبل الحق «**وَأُتْبِعُوا**» ألحقوا وأردفوا باللعنة، يعني لعنوا بعد الهلاك «**فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً**» قيل: لعنهم الله، وقيل: لعنتهم الملائكة والمؤمنون، وقيل: لعنهم هو العذاب، عن الأصم، واللعن في الأصل: الطرد والإبعاد من الخير، وهو من الله العذاب «**وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ**» يعني: يوم يقوم الناس

(١) طاغ: طاغي؛ ش، ض.

من قبورهم للجزاء والحساب أي: كما لعنوا في الدنيا يلعنون يوم القيامة، بأن يدخلوا النار، ويبعدوا من رحمة الله «**أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ**» أي: بربهم يقال: شكرت له وشكرته، وكفرته وكفرت به، ونصحته ونصحت له، وقيل: كفروا أي: جحدوا، وقيل: كفروا بنعمته فلم يشكروه. و(أَلاَ) ابتداء وتنبيه «**أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ**» قيل: أبعدهم الله من رحمته بعدًا، وقيل: أهلكهم الله.

۞ الأحكام

تدل الآيات على أنهم لما عصوا أهلكوا، فتدل على أن العذاب يُسْتَحَقُّ بالعصيان.

وتدل على أنهم لعنوا في الدنيا والآخرة، وذلك تحذير عن سلوك طريقتهم، واختلفوا، فقيل: إنه خطاب للنبي ﷺ وتسلية له، ووعدٌ[1] بالنجاة له ومن تبعه، وبالهلاك لمن عصاه وخالفه، وقيل: خطاب للكافرين بأنكم علمتم حال عاد مع قوتهم وعدتهم، فلما عصوا أهلكناهم، ولم يغن عنهم شيء، فحالكم إذا كفرتم كحال أولئك.

وتدل على أن الكفر والعصيان فعلهم، فيبطل قول المجبرة في المخلوق.

قوله تعالى:

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾﴾

۞ اللغة

الإنشاء: اتخاذ ابتداء، ومنه: أنشأ فلان وبني فلان، وأنشأ حديثًا وشعرًا، ونشأت السحاب: ارتفعت، وأنشأه الله.

---

(١) ووعد: ووعدا؛ ش، ض.

والعمر بفتح[1] العين وضمها[2]: البقاء، عَمِرَ الرجل: طال عمره، ولعَمْرُ الله: قسم ببقائه، والعمارة: ضد الخراب، وأصل[3] الكلمة من طول المدة، والعمرى في العطية أن تقول: أعطيتك هذه الدار عمري أو عمرك، وروي أنه أجاز العمرى، ونهى عن الرقبى، فالعمرى هبة في الحال بشرط الرجوع بعد موت الموهوب له، فتصح الهبة، ويبطل الشرط، والرقبى أن يعلق الهبة بشرط، فيقول: راقب موتي، فإذا مت فداري لك، فهو تعليق ملك بحظر[4]، فلا يجوز.

۞ الإعراب

«**ثمود**» محله خفض بـ(إلى)، ولك فيه الصرف وترك الصرف، إذا كان في محل النصب.

«**أَخَاهُم صَالِحًا**» نصب بمحذوف أي: وأرسلنا، وقيل: هو معطوف على قوله: «**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا**».

۞ المعنى

ثم ذكر قصة ثمود، فقال سبحانه: «**وَإِلَى ثَمُودَ**» أي: أرسلنا إلى ثمود «**أَخَاهُمْ**» في النسب «**صَالِحًا**» وهم كانوا بوادي القرى بين المدينة والشام، وعاد كان باليمن، عن أبي علي. قال لهم صالح «**قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ**» فبدأ بالتوحيد لأنه الأهم، ولأن الشرائع تبنى عليه، ثم بين الدلالات، فقال: «**هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ**» أي: ابتدأ خلقكم من الأرض؛ لأنه خلق آدم من الأرض فَكُلُّهُم من ولده، عن الأصم، وأبي علي، وأبي مسلم، وقيل: خلقكم «**وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا**»، قيل: جعلكم عمارها وسكانها بالتمكين منها، عن الأصم، وأبي علي، وقيل: أعاشكم فيها، عن ابن عباس، وقيل: أطال أعماركم فيها، عن الضحاك، وقيل: هو من العمر أي: جعلها لكم طول أعماركم، فإذا متم انتقل إلى غيركم، عن مجاهد، وقيل:

---

(١) بفتح: بضم، ض.

(٢) وضمها: وفتحها، ض.

(٣) وأصل: أصل، ض.

(٤) بحظر: بخطر، ض.

أسكنتكم[1] فيها، عن قتادة «**فَاسْتَغْفِرُوهُ**» أي: اطلبوا منه المغفرة، واجعلوا ذلك مقصودكم، ثم توصلوا إليه بالتوبة، وقيل: استغفروا لما مضى ثم ارجعوا إليه بصالح أعمالكم في المستقبل، وقيل: دوموا على التوبة، وقيل: هما واحد «**إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ**» الرحمة لمن استرحمه «**مُجِيبٌ**» لمن دعاه، وقيل: قريب لمن رجاه، مجيب لمن دعاه، فلما دعاهم صالح بهذا الدعاء الحسن والعظة البليغة، وانضم إليه الدلائل عدلوا عن ذلك، وأجابوا بجواب السفهاء، و«**قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا**» أي: كنا نرجو الخير من جهتك لما كنت عليه من الأحوال الجميلة قبل هذا القول، فالآن أيسنا منك، وقيل: كنا نرجوك، ونظنك عونًا لنا في ديننا، وقد خاب رجاؤنا بهذا القول الذي ابتدعته، وقيل: كنا نرجوأن تكون فينا سيدًا، وروي أنهم كانوا يسمونه قبل النبوة الأمين، ثم زادوا في الجهالة فقالوا: «**أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا**» من الأوثان، أتاهم صالح بالحجج فقابلوها بتقليد الآباء «**وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ**» من الدين «**مُرِيبٍ**» موجب للتهمة أهو حق أم لا؟ قال الأصم: الريبة أشد من الشك، وقال غيره: الريبة تكون مع تهمة.

۞ الأحكام

تدل الآية على أن صالحًا دعاهم إلى توحيد الله وعبادته، وأنه نبههم على نعمه المتضمنة لدلائله، فمن هذا الوجه تدل على أن العبادة تستحق بالقدرة على النعم.

وتدل على فساد التقليد، وأنه ليس بحجة.

وتدل على أن عبادتهم الأوثان والشك في الدين فِعْلُهُمْ، وليس بخلق الله تعالى.

قوله تعالى:

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾﴾

---

(١) أسكنتكم: أسكنكم، ض.

۞ اللغة

الخُسْرُ والخسران بمعنى، كالكفر والكفران، وخسرت الشيء وأخسرته: نقصته، وخسرت في البيع، وكل شيء: نقصته، ولم توفره، فقد خسرته.

والديار: جمع دار، وأصله من الدور، وسميت بذلك لأنها جامعة لأهلها، ثم تسمى البلد دارًا والقبيلة دارًا، ومنه: ديار بكر، وديار ربيعة، وقيل: كل موضع ذكر الدار فإنه يعني[1] القرية[2]، وكل موضع ذكر الديار فإنما عنى منازلهم، حكاه الأصم.

۞ الإعراب

يقال: أين جواب (إن) الأولى؟ و(إن) الثانية؟

قلنا: أما الأولى فجوابها الفاء، وأما الثانية فجوابها محذوف بتقدير: إن عصيته فمن أنه استغنى بالأول، فلم يظهر.

ومعنى (مَنْ) في قوله: «من ينصرني» استفهام، والمراد به النفي، أي: لا ناصر لي إن عصيته، وقوله: «أرأيتم» لا مفعول له؛ لأنه ملغى كما يلغى إذا دخل عليه لام الابتداء في قوله: أرأيت لَزَيْدٌ خير منك، وأنه نصب على الحال، كقولك: هذا عبد الله قائمًا، ونصب «فيأخذكم» على جواب النهي أي: لا تمسوها فيأخذكم.

فيقال[3]: في قوله: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ﴾ فما الفرق بين الجواب بالفاء والعطف؟

قلنا: العطف يوجب الاشتراك في المعنى، والجواب يوجب أن الثاني كالأول كهذه الآية أن الأخذ للمس.

ويقال: ما أصل أيام؟

قلنا: أصله أيوام؛ لأن أصله يوم، فلما اجتمع الواو والياء، والأول منهما ساكن

---

(١) يعني: يعزي، ض.
(٢) القرية: القرى؛ ش، ض.
(٣) فيقال: فقال، ض.

قلبت الواو ياء لأجل المقاربة في حروف العلة؛ لأن المقاربة في الحروف الصحيحة يجوز لها الإدغام، فلما انضاف إلى ذلك حرف العلة وجب القلب لا محالة.

❁ المعنى

ثم بَيَّنَ تعالى جواب صالح، فقال سبحانه: **«قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ»** تنبيه للمخاطب على التفكر، وقيل: تقديره: إنكم تكذبونني وتتهمونني، فأي شيء تعملون لو كنت على بينة وحجة، وقيل: تقديره: أعلمتم من ينصرني من الله إن عصيته بعد بينة أتتني[1] من ربي، ونعمة أنعم بها علي **«إِنْ كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ»**حجة **«مِنْ رَبِّي»** قيل: دلالات فيما أدعوكم إليه من التوحيد، وقيل: معجزة تدل على صحة نبوتي **«مِنْ رَبِّي»** أي: من جهة ربي؛ لأنه ينصب الأدلة ويظهر المعجزة **«وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً»** أي: أعطاني رحمة النبوة والعلم والحكمة **«فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ»** أي: يمنعني عذابه إذا عذبني عند عصياني **«فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ»** قيل: معناه: أنتم باحتجاجكم في عبادتكم[2] بفعل آبائكم ما تزدادون إلا خسارًا، عن مجاهد، وقيل: لا تزيدونني إلا بصيرة في خسارتكم، عن ابن عباس. وقيل: إن أجبتكم إلى ما[3] تدعونني إليه من عبادة غير الله لهوانكم كنت بمنزلة من يزداد الخسران، في معنى قول الحسن والأصم وأبي علي، وقيل: لا ينصرني أحد من دونه، وإن استنصرت بكم فما تزيدونني إلا سوءًا وخسارا، وقيل: ما تزيدونني بما تقولون إلا نَسبِي إياكم إلى الخسار، ومعنى خسارا قيل: نقصانًا، وقيل: تضليلاً، عن الفراء[4]، وقيل: الخنا والقول القبيح **«وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ»** يعني: إن شككتم بنبوتي فهذه ناقة الله **«[لَكُمْ] آيَةً»** أي: حجة، وإنما سميت ناقة الله؛ لأنه لم يكن لها مالك، ولأنه رفع عنهم مؤنتها، ولأنه اتخذها[5] آية وحجة، ووجه الحجة فيها: أنه تعالى أخرجها لهم من جوف صخرة

---

(١) أتتني: أتاني؛ ش، ض.

(٢) عبادتكم: عبادة؛ ش، ض.

(٣) ما: فما، ش.

(٤) معاني القرآن للفراء ٢/ ١٦٩.

(٥) اتخذها: أخذتها، ض.

صماء، وخرجت وهي حامل كما طلبوا، وكانت تشرب يومًا جميع المياه تنفرد به، ولهم يوم[1]، وتأتي المرعى يومًا، والوحش يومًا، وكان يكفي لبنها أهل تلك البلد مع كثرتهم، وقيل: أتى صالح صخرة فنقبها فإذا هي ناقة لها سقب، عن الأصم، «فَذَرُوهَا» أي: دعوها «تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ» من العشب والنبات «وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ» أي: لا يصبها سوء من[2] قتل أو جرح أو غيره «فَيَأْخُذَكُمْ» إن فعلتم ذلك «عَذَابٌ قَرِيبٌ» فيهلككم «فَعَقَرُوهَا» قيل: لأنهم كرهوا[3] بأن يكون لها يوم، ولهم يوم لضيق الماء والمرعى على مواشيهم، وقيل: عقروها رغبة في سمنها، وقيل: بغضًا على صالح كعادة الجهال، وقيل: عقرها أحمر ثمود، وضربت العرب المثل في الشؤم به، قيل: لما عقروها وقتلوها وأفلتهم السقب، فصعد الجبل ورغا، وقال: أي رب أي رب أمي أمي، حكاه الأصم، «فَقَالَ» لهم صالح «تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ» تبقون في داركم أحياء «ثَلاثَةَ أَيَّامٍ» فإن أصررتم أهلككم بعد ذلك فإنه «وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ». قيل: غير مكذوب فيه، وقيل: غير كذب، وقيل: إنما أمهلكم ثلاثة أيام لتتوبوا رحمة منه، فلما أصروا ولم يتوبوا هلكوا، عن أبي مسلم، وقيل: قال لهم: تصفر ألوانكم في اليوم الأول، وتحمر في اليوم الثاني، وتسود في اليوم الثالث، ثم في اليوم الرابع يصبحكم عذاب أليم، عن الأصم وغيره. وقيل: عقروها يوم الأربعاء، وأتاهم العذاب يوم الأحد، عن الأصم.

۞ الأحكام

تدل الآية على فساد التقليد، وأن الواجب اتباع الأدلة؛ لذلك عابهم لما عولوا على تقليد الآباء، وحاجهم بالبينة.

وتدل بأن العاصي إذا عذب بعد إقامة البينة فلا تخلص له من العذاب، خلاف قول المرجئة.

وتدل على أن العذاب يستحق على الأعمال.

---

(١) يوم: يوما؛ ش، ض.
(٢) من: ـ، ض.
(٣) كرهوا: كرهوها؛ ش، ض.

وتدل على أن العقر كان فعلهم، خلاف قول المجبرة.

وتدل على معجزات لصالح عليه السلام: منها: خروج الناقة وعظمها، ثم وعيده إن أقدموا عليها، فكان كما أخبر.

قوله تعالى:

﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾﴾

القراءة

قرأ أبو جعفر، والكسائي، ونافع برواية ورش، وقالون، وإحدى الروايات عن الأعمش: «يَوْمَئِذٍ» بفتح الميم[1]، وفي المعارج: ﴿عَذَابِ يَوْمِئِذٍ﴾ [المعارج: ١١] وقرأ الباقون بكسر الميم فيهما.

وقرأ حمزة، وحفص عن عاصم: «ألا إن ثَمودَ» غير منون كل القرآن، وقرأ الباقون «ثمودًا» بالتنوين ههنا، وفي (الفرقان)، و(العنكبوت)، و(النجم)؛ لأنه مكتوب بالألف في هذه المواضع، وأبو بكر عن عاصم لا ينون في (النجم).

وقرأ الكسائي وحده: «ألا بعدًا لثمود» بالخفض والتنوين[2]، قال الفراء[3]: قلت له: لم ذاك؟ قال: لأنه قرب من المنصوب، وهو مُجْزِئٌ، وقرأ الباقون بفتح الدال غير منونة، وقد بينا أنه يجوز صرفه وترك صرفه في المنصوب.

اللغة

الخزي: العيب الذي تظهر فضيحته، فيستحيا منه، خزي يخزى خزيًا: إذا وقع في بلية.

---

(١) حجة القراءات ٣٤٤.

(٢) حجة القراءات ٣٤٥.

(٣) معاني القرآن للفراء ٢/ ١٦٩.

الجاثم: البارك[1] بالأرض، قال أبو مسلم: أصله السكون، وجثم الطائر: إذا سكن في وكره، ورجل جُثْمَةٌ، وجَثَّامَةٌ: للنؤوم[2].

والعزيز: القادر على منع غيره من غير أن يقدر [هو] على منعه، وأصله: المنع عن الشيء: إذا قل، أي: امتنع بقلته، ومنه العَزَاز: الأرض الصلبة، وهي الأرض الممتنعة بالصلابة، والتعزز بفلان: الامتناع به، ومنه: مَنْ عَزَّ بَزَّ، أي: مَنْ غَلَبَ سَلَبَ.

والصيحة: الصوت العظيم من الحيوان، قال أبو علي: الصيحة لا تكون إلا حدوث صوت في فم حيوان.

وغنى بالمكان: أقام به، ومنه: المغاني: المنازل، سميت بذلك لاكتفاء الناس بها؛ لأن أصل الغنى الكفاية.

۞ الإعراب

ذكّر (أخذ)، وإن كانت الصيحة مؤنثة؛ لأنه حمل على المعنى، والصيحة والصياح واحد، ويجوز تأنيثه بالحمل على اللفظ، كما جاء في موضع آخر، والألف استفهام دخلت على (لا)، ومعناه التنبيه، فالألف لا تقتضي نفي معنى، ولا تبقيه[3]، فاقتصر بهما على التنبيه، كأنه يثبت معنى، وينفي غيره.

ويقال: لِمَ جاز صرف (ثمود) في حال النصب دون الجر والرفع؟

قلنا: لأنه لما جاز الصرف وترك الصرف اختير[4] الصرف في النصب؛ لأنه أخف الحركات.

۞ المعنى

ثم ذكر تعالى بقية قصة صالح وهلاك قومه، فقال سبحانه: «فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا»

---

(١) البارك: اللاطي؛ ش.
(٢) للنؤوم: للنوم؛ ش، ض.
(٣) ولا تبقيه: ولا تبقى، ض.
(٤) اختير: اختر، ش.

قيل: عذابنا، وقيل: أمرنا بالعذاب، عن أبي علي «**نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ**» أي: خلصناهم[1] من العذاب «**بِرَحْمَةٍ مِنَّا**» قيل: برحمتنا وهي البراءة، وقيل: بالإيمان الذي دعاهم إليه فأجابوا «**وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ**» أي: هوان ذلك اليوم، والذل الذي أصابهم «**إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ**» يعني القادر على ما يشاء «**الْعَزِيزُ**» لا يمتنع عليه شيء، ولا يُمْنَعُ عما يريد من إهلاك وغيره «**وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا**» يعني كفروا «**الصَّيْحَةُ**» وسموا ظلمة لظلمهم على أنفسهم بالعصيان، «**الصيحة**» قيل: أَمَرَ الله جبريل فصاح بهم صيحة ماتوا، ويجوز أن يكون خلق الله تلك الصيحة التي ماتوا عندها، وقيل: الصيحة العذاب، عن أبي مسلم «**فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ**» قيل: بلادهم، وقيل: منازلهم «**جَاثِمِينَ**» قيل: ساقطين على الوجوه هالكين، عن أبي علي، وقيل: قاعدين على الركب، وقيل: ساكنين أي: لما ماتوا وهلكوا صاروا ساكنين، لا حراك بهم، عن أبي مسلم «**كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا**» قيل: كأن لم يقيموا فيها ولم يسكنوها؛ لانقطاع آثارهم بالهلاك إلا ما بقي من أجسادهم الدالة على الخزي «**أَلا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ**» جحدوه، وجحدوا البعث والنبوة «**أَلا بُعْدًا لِثَمُودَ**» أي: أبعدهم الله بعدًا.

۞ الأحكام

تدل الآية على أن عادة الله إنجاء المؤمنين وإهلاك الكافرين، خلاف ما يقوله المجبرة أنه يجوز أن يعذب المؤمنين وينجي الكافرين.

وتدل على أن العذاب يُسْتَحَقُّ على الأعمال، خلاف قولهم.

وتدل على أن ثمودًا هلكت بصيحة تقطعت بها القلوب، وماتت النفوس.

وتدل أنهم كما عذبوا بالنار، يصيرون إلى النار، لذلك قال: «**ألا بعدًا لثمود**».

وتدل على أن الظلم والكفر فِعْلُهُمْ؛ لذلك استحقوا العذاب، فيبطل قولهم في المخلوق.

---

(١) خلصناهم: أخلصناهم، ض.

قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾﴾

القراءة

قرأ حمزة والكسائي: «**قالوا سلاما قال سلام**» بكسر السين وسكون اللام بغير ألف[1]، وفي (الذاريات) مثله قيل: هو بمعنى المسالمة، وقيل: سلام وسلم بِمَعْنىً كحلال وحِلٍّ وحرام وحرم[2]، وأنشد الفراء:

وَقَفْنَا فَقُلْنَا إِيه[3] سِلْمٌ فسلَّمتْ كَمَا اكْتَلَّ[4] بِالبَرْقِ الغَمَامُ اللَّوَائِحُ[5]

فأما المسالمة فهي المصالحة، يعني: صلح لك غير حرب.

وقرأ الباقون: «**سلام**» بالألف وفتح السين في السورتين.

وقرأ ابن عامر، وحمزة، وحفص عن عاصم: **يعقوبَ** بالنصب، قيل: بنزع حرف الصفة، كأنه قيل: ومن وراء إسحاق يعقوب، وقيل: بإضمار فعل أي: وهبنا له يعقوب، وقيل: بالحمل على معنى أي: وبشرنا بيعقوب. وقرأ الباقون بالرفع على الاستئناف.

اللغة

(لقد) تأكيد للكلام، اللام فيه لام التأكيد، واللبث: الإقامة، ما لبث، أي: ما[6] أقام. والعجل: ولد البقرة، عِجَّوْل لغة، وجمعه: عجاجيل.

---

(١) حجة القراءات ٣٤٦.

(٢) وحرم: ـ ، ض.

(٣) إيه: أنت؛ ش، ض.

(٤) اكتل: اعتل؛ ش، ض.

(٥) لذي الرمة. انظره في اللسان (طلح)، ومعاني القرآن للفراء ٢/ ١٧٠.

(٦) ما: ـ ، ض.

والحَنِيذ: المشوي، وهو المحنوذ، «فعيل» بمعنى «مفعول» «كطبيخ» بمعنى «مطبوخ»، و«قتيل» بمعنى مقتول، حَنَذَهُ يحنذه بكسر النون وضمها حنذًا، قال أبو عبيدة: كلما أسخنته فقد حنذته.

والإنكار: خلاف الاعتراف، نَكِرْتُ الشيء بكسر الكاف أَنْكُرُهُ بضمها، وأنكرته أُنْكِرُهُ، قال الأعشى:

وَأَنْكَرَتْنِي وَمَا كَانَ الَّذِي نَكِرَتْ ... مِنَ الحَوَادِثِ إلاَّ الشَّيْبَ والصَّلَعَا[1]

فجمع اللغتين في بيت واحد.

والإيجاس: الإحساس، توجس بالشيء: أحس به.

۞ الإعراب

نصب «سلاما» بإيقاع القول عليهما، وقيل: سلمت سلامًا يعني الدعاء له، «قال سلام» رفع لأنه خبر ابتداء محذوف، أي: عليكم سلام وقيل: لكم سلام، وقيل: هو رفع على الحكاية، كقوله تعالى[2]: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَىٰٓۗ﴾ [النمل: ٥٩]، ﴿وَقُولُواْ[3] حِطَّةٞ﴾ [البقرة: ٥٨]، وقوله: «أن جاء» محله نصب بإسقاط الخافض، كأنه قيل: بأن جاء.

۞ المعنى

ثم ذكر تعالى قصة إبراهيم ولوط وإهلاك قومه، فقال سبحانه: «**وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا**» يعني الملائكة، واختلفوا في عددهم قيل: كانوا ثلاثة: جبريل، وميكائل، وإسرافيل، عن ابن عباس، وقيل: كانوا تسعة، عن الضحاك، وقيل: أحد عشر، عن السدي، وكانوا على صورة الغلمان «**إِبْرَاهِيمَ**» يعني الخليل عليه السلام «**بِالْبُشْرَى**» بالبشارة قيل: بإسحاق، وقيل: بهلاك قوم لوط، وقيل: بإسحاق ونبوته، وأنه يولد له يعقوب، عن الحسن، وأبي علي. «**قَالُوا سَلامًا**» قيل: سلمنا سلامًا، بمعنى الدعاء له،

(١) قاله الأعشى. انظره في: الصحاح (نكر)، وتاج العروس (صلع)، وتهذيب اللغة (ركن).
(٢) تعالى: يعني، ض.
(٣) وقولوا: وقولي، ض.

وقيل: طلبوا فيه السلامة والأمن، وقيل: أرادوا بذلك استثناء بيته، عن أبي مسلم، وقيل: لم يكن السلام سمع بأرضه؛ لأنها كانت بلاد الشرك، فلما سمع إبراهيم سُرَّ به هو وامرأته «**قَالَ سَلامٌ**» أي: وعليكم سلام «**فَمَا لَبِثَ**» أي: ما أقام إبراهيم «**أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ**» مشوي؛ لأنه توهم أنهم أضياف؛ لأنهم كانوا على صورة البشر، وإلا فكان لا يشكل عليه أن المَلَك لا يأكل، وقيل: أتوه في صورة الإنس، واستضافوه؛ لأنهم أتوه على صفة يحبها لأنه كان يقري الضيف، عن الحسن، وقيل: أروه معجزة في صورهم مع البشارة له بالولد مع الكبر «**حنيذ**» قيل: نضيج، عن ابن عباس، ومجاهد، وقتادة. وقيل: مشوي، عن الحسن. «**فَلَمَّا رَأى**» إبراهيم «**أَيْدِيَهُمْ**» يعني أيدي الملائكة «**لاَ تَصِلُ إِلَيْهِ**» إلى العجل «**نَكِرَهُمْ**» أي: أنكرهم، وقيل: لم يعرف هذا فيما مضى من ضيف نزل بقوم «**وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً**» أي: أحس وأضمر منهم خوفًا، وقيل: حدّث به نفسه، عن الحسن، واختلفوا في سبب الخوف، فقيل: لما رآهم شبابًا أقوياء وكان ينزل طرفًا، فلما لم يتحرموا[1] بطعامه ظن أن يكون خبلا، عن أبي علي، وقيل: ظنهم لصوصًا، وقيل: كانوا إذا نزل بهم ضيف فلم يأكل من طعامهم ظنوا أنهم غير الخير، وقيل: ظن أنهم كفار أتوه ليغيروا عليه، عن الأصم، وقيل: ظن أنهم ليسوا من البشر، وأنهم جاءوا لأمر عظيم، فاشتغل قلبه، وقيل: علم أنهم من الملائكة فخاف أن يكون قومه المقصودين بالعذاب «**قَالُوا**» يعني الملائكة «**لاَ تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا**» أي: أرسلنا ربنا، وقيل: دعوا الله فأحيا العجل وظعن حَيًّا إلى مرعاه «**إِلَى قَوْمِ لُوطٍ**» لإهلاكهم «**وَامْرَأَتُهُ**» سارة «**قَائِمَةٌ**» قيل: وراء الستر تسمع كلامهم، وقيل: كانت قائمة تخدم الرسل وإبراهيم جالس معهم «**فَضَحِكَتْ**» قيل: تعجبًا من حال الأضياف وامتناعهم من أكل الطعام، وقالت: عجبًا لأضيافنا نخدمهم بأنفسنا مكرمة لهم، وهم لا يأكلون طعامنا، وقيل: ضحكت تعجبًا من حال قوم لوط، وأتاهم العذاب وهم في غفلة، عن قتادة، وقيل: ضحكت لما رأت العجل قد حيي، عن أبي علي، وقيل: ضحكت من خوف إبراهيم منهم في بيته، وهو فيما بين خدمه وحشمه، عن مقاتل، والكلبي، وقيل: ضحكت تعجبًا من أن يكون لها ولد على كبر

---

(١) يتحرموا: يتحروا؛ ش، ض.

سنها، عن ابن عباس، ووهب، وقيل: ضحكت سرورًا بالأمن منهم لما قالوا: (لا تخف)، وقيل: ضحكت: حاضت في الوقت، عن مجاهد، وعكرمة. قال الفراء[1] : ولم أسمعه من ثقة، ومن جهة أنه كناية، وقال غيره: تقول العرب: ضحكت الأرنب إذا حاضت، وفي هذا تعسف «**فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ**» أي: بابن يسمى إسحاق «**وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ**» أي: من بعد إسحاق يعقوب، قيل: الوراء ولد الولد، عن ابن عباس، والشعبي. فبشرناها بابن وابن ابن.

۞ الأحكام

تدل الآية على أن الملائكة أتت إبراهيم بالبشارة بالولد، وبإهلاك قوم لوط، وحكى الأصم أنهم جاؤوه في أرض له يعمل، فلما فرغ غرز مسحاته، وصلى ركعتين، فقالت الملائكة: الله أعلم به، حيث اتخذه له[2] خليلاً.

وعن السدي: لما قدم الطعام ولم يأكلوا فقال لهم: ألا تأكلون؟ فقالوا: لا نأكل طعامًا إلا بثمن، قال: فإن لهذا ثمنا[3]، قالوا: وما ثمنه؟ قال: تذكرون الله على أوله، وتحمدونه على آخره، فقال جبريل لميكائيل: حق لهذا أن يتخذه ربه خليلاً. وروي أنهم أتوه وهو يرعى غنمًا له.

وتدل الآية على أن السلام من سنن الأنبياء والملائكة، ولا خلاف أنه مشروع في شريعتنا.

وتدل على أنه كان خفي عليه حالهم، وذلك أنهم أرسلوا إلى قوم لوط، فجاز أن يخفى عليه حالهم، ويجوز أن يأتوه بالبشارة، وفي الابتداء يخفى حالهم، ثم يظهر، فتكون معجزة.

وتدل على أن البشارة تتضمن أشياء:

منها: أنه يولد له ولد على كبر سنه.

---

(١) معاني القرآن، للفراء ٢/ ١٧١.

(٢) له: ـ ، ض.

(٣) ثمنا: ثمن؛ ش، ض.

ومنها: أنه يحيى.

ومنها: أنه يكون نَبِيًّا.

ومنها: أنه يولد لولده[1] ولد، ويسمى يعقوب.

ومنها: أنه يرى ولد ولده.

ومنها: أن هذا الولد يكون من سارة؛ ليكون السرور لهما.

قوله تعالى:

﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾﴾

اللغة

ويل: كلمة رحمة لمن نزل به بلية، وقيل: إذا وقف يقال: يا ويلتاه، فإن الألف الخفيفة تورد بعدها هاء، وقيل: إنه ألف الندبة، قال ابن عرفة: الويل: الحزن، وتَوَيَّلَ الرجل: دعا بالويل، وقيل: الويل والويلة: الهلكة، والنداء في «يا ويلتا» تنبيه للمخاطبين، «ويا ويلتي» بفتح التاء وكسرها لغتان، كأنه يقول: ياويلتي تَعَالَي، فهذا حينك، كقولهم يا عجبي، أي: يا أيها العجب، هذا وقتك، وقال الفراء: أصل الويل «وي»، وهو الحزن يقال: وَيْ لفلان، أي حزن له، فوصلها العرب وأعربوها، قال قطرب: «وَيْ» كلمة تفجيع، وقال سيبويه: «وَيْح» زجر لمن أشرف على الهلاك، «وويل» لمن وقع في الهلكة، وعن ابن عباس: الويل المشقة والعذاب، قال الخليل: ولم أسمع على بنائه إلا «ويح» و«وَيْس»[2] وَ«وَيْه» وَ«وَيْل»، وهذه كلمات كلها متقاربة في المعنى.

---

(١) لولده: لولد، ض.

(٢) وويس: وويش؛ ش، ض.

والبعل: الزوج، وأصله: القائم بالأمر، ومنه: قيل للرب والصاحب: بعل، والبَعْلُ: ما يشرب بعروقه من الأرض من غير ماء؛ لأنه قائم بأمره في استغنائه عن تكلف السقي، وبَعَلَ الرجل يَبْعُلُ: إذا صار بَعْلاً، وجمع البعل: بُعُولة، والبَعْلَةُ: الزوجةُ.

والعجب المصدر، والعجب: ما يتعجب به.

والمجد: بلوغ النهاية في الكرم، قال أبو مسلم: أصل المجد الكثرة، مجد الرجل يَمْجُدُ مجادة ومجدًا: إذا كرم، ومجدت الإبل مجودًا[1]: إذا نالت من الكلأ[2] قريب[3] الشبع، كأنه بلغ نهايته، ومنه: المثل: فِي كُلِّ شَجَرٍ نَارٌ، وَاسْتَمْجَدَ المَرْخَ والغَفَارَ، يعني أكثرْ من ذلك، والله المجيد، والماجد أي: كثير النعمة والخير.

والروع راعه روعًا: إذا أفزعه، وارتاع ارتياعًا: إذا خاف، والرُّوع بضم الراء: النفس، ومنه: ألقى في رُوعِي، أي: في نفسي، سميت بذلك لأنها مَوْضِعُ الرَّوْع.

الإعراب

الألف في «**أتعجبين**» ألف تنبيه على صيغة الاستفهام، وليس بألف إنكار، وإنما هو توقيف وتنبيه.

«**شيخا**» نصب على الحال؛ لأن قوله: «**هذا بعلي**» معرفة، وقوله: «**شيخا**» نكرة، كقولك: هذا غلامي قائمًا، وفي بني تميم من يقول: بعلي شيخ، وتقديره: هذا بعلي، هذا شيخ.

«**أهل البيت**» نصب؛ لأنه نداء مضاف، والمعنى: يا أهل البيت.

ويقال: أين جواب قوله: «**فلما ذهب**»؟

قلنا: محذوف، تقديره: جعل يجادلنا، فحذف لدلالة الكلام عليه[4].

---

(١) مجودا: ـ، ض.
(٢) الكلأ: الخلا، ض.
(٣) قريب: قريبا؛ ش، ض.
(٤) لدلالة الكلام عليه: الدلالة عليه، ض.

المعنى

ثم بَيَّنَ تعالى ما جرى بينهم بعد البشرى، ومعرفته بحالهم، فقال سبحانه: «قَالَتْ» يعني: سارة امرأة إبراهيم «يَا وَيْلَتَى» تعجبًا منها «أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ» امرأة كبيرة «وَهَذَا بَعْلِي» زوجي «شَيْخًا» أي: في حال الشيخوخة والكبر، وقيل: كانت ابنة تسعين سنة، عن محمد بن إسحاق، وقيل: تسع وتسعون سنة، عن مجاهد. وأما إبراهيم فقال: كان ابن مائة سنة، عن مجاهد، وقيل: ابن مائة وعشرين سنة، عن محمد بن إسحاق[1]، وقيل: كان إبراهيم ابن تسع وتسعين سنة، وهي ابنة تسع وثمانين سنة، عن الأصم «إِنَّ هَذَا» الذي بشرت به «لَشَيْءٌ عَجِيبٌ» قيل: لم تتعجب من قدرة الله، ولم تُكَذِّبْ الرسل، ولكن أرادت[2] أن تعرف أنها ترد إلى حال الشباب وتلد، أم على تلك الحالة ترزق الولد، وقيل: قالت ذلك إظهارًا للنعمة بنقض العادة فيها وفي زوجها، وقيل: تعجب لطبع البشرية، لا أنها[3] أنكرت؛ لأنه إذا ورد هذا على النفس من غير روية وفكر[4] تتعجب، كما أن موسى لما ولى قيل: لا تخف، وأقبل.

ومتى قيل: لِمَ لا تلد العجوز؟

قلنا: أما عند مشايخنا بأنه تعالى أجرى العادة بذلك، ولو أجرى بأن تلد العجوز جاز؛ إذ ليس في الولد تأثير، وإنما هي محل والله تعالى يخلق الولد، ويربيه حالاً بعد حال، ثم يخرجه، وقيل: لأن الماء الذي يخلق منه الولد انقطع لدليل ارتفاع الحيض، عن علي بن عيسى، فيقال له: لم انقطع الماء؟ فإن قال: لأنه تعالى يقطعه بالعادة، عاد الأمر إلى ما قلناه، وإن قال: ينقطع بالطبع، فليس بشيء، وقد بَيَّنَّا بطلان الطبيعة، وبعد، فإنه تعالى قادر على خلق الولد من غير ماء؛ لأنه أجرى العادة بذلك.

---

(١) عن محمد بن إسحاق: ـ ، ض.

(٢) أرادت: أراد، ض.

(٣) لا أنها: لأنها؛ ش، ض.

(٤) وفكر: وتكبر، ض.

«**قَالُوا**» يعني الملائكة لها «**أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ**» أي: لا يُتَعَجَّبُ من أمر الله إذ أراد أمرًا، فإنه قادر على ما يشاء، وقيل: أتعجبين من أن يفعل الله تعالى ذلك بك وبزوجك، عن أبي علي، وهوالوجه، يدل عليه ما عقبه من الكلام فقال سبحانه: «**رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ**» يعني خير الدين والدنيا ونماؤها،وبقاؤها منه تعالى، وقيل: هو دعاء لهم بالرحمة والبركة، وقيل: تذكر بالنعمة «**عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ**» أي: أهل بيت إبراهيم «**إِنَّهُ**» تعالى «**حَمِيدٌ**» محمود على أفعاله الحسنة، ونعمه الجمة «**مَجِيدٌ**» كريم رفيع القدر، وقيل: واسع القدرة والنعمة، عن أبي مسلم، وقيل: حميد الفعل في إكرام من يطيعه، مجيد واسع العطاء على عباده، وقيل: قالت سارة لجبريل: ما آتيه؟ فأخذ بيده عودًا يابسًا فلواه بين أصابعه فاهتز أَخْضَرَ، عن السدي «**فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ**» أي: الخوف، وأمن كل مكروه «**وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا**» أي: أخذ يجادلنا قيل: يجادل رسلنا من الملائكة، عن الحسن وجماعة، وقيل: يسألنا ويكلمنا في قوم لوط، فعبر بلفظ المجادلة.

واختلفوا بأي شيء جادل على أقوال:

أولها: أن قال: «**إن فيها لوطًا**» فقالوا: «**نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله**»، عن الحسن.

والثاني: أنه سألهم أيعذبون[1]، وفيهم خمسون من المؤمنين؟ قالوا: لا، فَلَمْ يزل يسألهم حتى قال: إن كان فيهم رجل من المسلمين؟ فقالوا: لا، إن فيها لوطًا، عن قتادة، وقيل: لما قال خمسة، قالوا: لا، قال فأربع قريات فيها أكثر من أربعمائة ألف نفس، ما فيها خمسةٌ مؤمنون، ما عند هؤلاء خير، عن الأصم.

وثالثها: جادلهم بأي شيء استحقوا عذاب الاستئصال؟ وهل ذلك واقع لا محالة؟ أو هو تخويف؟ وبأي شيء يهلكون؟ وكيف ينجي الله المؤمنين؟ عن أبي علي.

---

(١) أيعذبون: يعذبون، ض.

ورابعها: أنه جادل في تأخير العذاب عنهم إن كان الأمر ورد لا على وجه القطع، فلما أخبروه[1] سكت.

وخامسها: جادل في لوط وقومه: هل يهلكون معه محنة وابتلاء كإهلاك الذراري، أو[2] يؤمرون بالخروج من بين أظهرهم؟.

﴿فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾ قيل: كانوا أربعة آلاف[3] ألف، عن ابن جريج، وقيل: لم يكن فيهم مؤمن إلا أهل بيت لوط، وفيهم امرأة كافرة ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ﴾ هذه إشارة إلى أن تلك المجادلة لم تكن من باب ما يُكْرَهُ؛ لأنه مدح إبراهيم بذلك، بل كان في أمر يتعلق بالحلم[4]، وذلك أنه رأى الخلق الكثير يدخلون[5] في النار فتأوه لهم، حليم لا يعجل بالعقوبة ﴿أَوَّاهٌ﴾ قيل: رجاع للتأوه، وقيل: رحيم، عن الحسن، وقيل: دَعَّاء، عن الفراء[6]، وقيل: متأوه من خوف النار، عن أبي علي، وقيل: آسف، عن أبي مسلم، يعني أسف على هلاكهم، لمحبة أن يؤمنوا ﴿مُنِيبٌ﴾ قيل: راجع إلى الله بالطاعة له، وقيل: يرجع في أموره إليه، متوكل عليه، عن أبي علي، وقيل: حليم عمن جهل، رحيم يطلب النجاة لهم، مجتهد بالطاعة ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ قيل: قالت الرسل: يا إبراهيم، ويحتمل أنه تعالى أوحى إليه أن ﴿أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ أي: عن الجدال ﴿إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ قيل: عذابه نازل بهم لا محالة، عن الأصم، وقيل: أمره جاء قطعًا باستئصالهم، عن أبي علي ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ يعني قوم لوط ﴿آتِيهِمْ﴾ نازل بهم ﴿عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ أي: غير مرفوع، ولا ممنوع عنهم.

۞ الأحكام

تدل الآية على أنه لا يتعجب من خلق الولد بعد الكبر؛ لأنه مقدور لله تعالى.

---

(١) أخبروه: أخبره، ض.
(٢) أو: و؛ ش، ض.
(٣) آلاف: ألف؛ ش، ض.
(٤) بالحلم: بالحكم، ض.
(٥) يدخلون: يدخل؛ ش، ض.
(٦) معاني القرآن للفراء ٢/ ١٧٢.

قال أبو علي: فيدل[1] قوله: «أهل البيت» على أن امرأة الرجل من أهل بيته، فتدل من هذا الوجه أن أزواج النبي ﷺ من أهل بيته، خلاف ما تقوله الرافضة.

وتدل على حسن الجدال؛ لأنه تعالى لم ينكر على إبراهيم جداله، ولكن بين أن الأمر جاء بهلاكهم قطعًا.

ويدل أنه تعالى يسمى حميدًا مجيدًا، خلاف ما تقوله الباطنية.

وتدل على أن ذلك الجدال فعل إبراهيم عليه السلام، ولم يكن خلقًا له تعالى.

قوله تعالى:

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ (٧٧) وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ (٧٨) قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ (٧٩) قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ (٨٠)﴾

القراءة

قراءة العامة: «هن أطهر» بضم الراء، على أنه خبر الابتداء، «وهن» ابتداء. وقراءة الحسن، وعيسى بن عمر: «أطهرَ» بنصب الراء، جعلوا (هن) فصلا وعمادًا، والمعنى: هؤلاء بناتي أطهرَ، فنصب على خبر المعرفة؛ لأن «بناتي» معرفة وَ«أطهر» نكرة، ولا يجوز ذلك عند الخليل وسيبويه وأكثر النحويين، وأما القراءة فلا تجوز البتة.

وقرأ أبو عمرو[2] وأبو جعفر ونافع: «ولا تخزوني» بإثبات ياء الإضافة على الأصل، والباقون بحذفها للتخفيف، ودلالة الكسر عليه.

---

(١) فيدل: ويدل، ض.

(٢) أبو عمرو: أبو عمر، ض.

۞ اللغة

سِيءَ بهم: أي: أُحْزِنَ لمجيئهم، يقال: سُؤْتُهُ فَسِيءَ، كقولهم: شغلته فَشُغِلَ، وسررته فَسُرَّ، والسوء: ما يظهر مكروهه لصاحبه، وأصل سِيءَ سُوِئَ بهم من السوء، إلا أن الواو سكنت ونقلت كسرتها إلى السين.

والعصيب: الشديد في الشر خاصة، وأصله من الشد، يقال: عصبت الشيء: شددته، والعصابة: شيءٌ يُشَدُّ به الرأس، اعتصب فلان بالتاج، وعصبت الشجرة: انتشر[1] ورقها، وعصبت فخذ الناقة لِتُدِرَّ، وناقة عصيب: لا تدر حتى تعصب، قال الشاعر:

فَإِنَّكَ إلاَّ تُرْضِ بَكْرَ[2] بْنَ وَائِلٍ   يَكُنْ لَكَ يَوْمٌ بِالعِرَاقِ عَصِيبُ[3]

والإهراع: الإسراع في المشي، قال صاحب (العين): هو السوق العنيف، أو الحثيث، قال أبو مسلم: والقران بالسوق أشبه.

والركن: معتمد البناء بعد الأساس، والركن: الناحية من الجبل، وأركان كل شيء: نواحيه، وبه يشبه العشيرة وأعوان الرجل.

۞ الإعراب

(ضيف) يكون للواحد والجماعة، وجواب (لو) في قوله: «**لو أن لي بكم قوة**» محذوف، دل عليه الكلام، تقديره: لحلت بينكم وبينهم.

«**بهم**» الضمير قيل: يعود على الملائكة، وقيل: على قومه، فعلى الأول قيل: ضاق ذرعًا بأضيافه، وعلى الثاني: ساء ظنًّا بقومه.

و(قَبْلُ) و(بَعْدُ) بُنِيَا[4] على الضم، فإذا أضيفا أعربا.

---

(١) انتشر: ينتشر؛ ش، ض.

(٢) فإنك إلا ترض بكر: فإن تك لا ترضى ببكر؛ ش، ض.

(٣) البيت لعتبان بن أصيلة، انظره في: تفسير الطبري ١٥/ ٤١٠.

(٤) بنيا: بني؛ ش، ض.

المعنى

ثم بَيَّنَ تعالى مجيء الملائكة إلى لوط بعد خروجهم من عند إبراهيم وما جرى بينهم وبين قوم لوط، فقال سبحانه: «**وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا**» يعني الملائكة «**لُوطًا سِيءَ بِهِمْ**» قيل: ساءه مجيء الملائكة؛ لأنه خاف عليهم من قومه، وقيل: إنما ساءه لأن قومه كانوا خوفوه بالقتل[1] إذا دخل ضيفٌ[2] دَارَهُ، وقيل: ساءه لضيق يده، وقيل: لفعل قومه، فخاف على أضيافه منهم، وكانوا صِبَاحَ الوجوه، وقيل: جاؤوا على صور الأضياف ليعاينوا ضيفهم، وقيل: كان تشديدًا في التعبد[3] لأولئك السفهاء «**وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا**» قيل: ضاق صدره بهم خوفًا وحزنا؛ إذْ[4] لم يجد مخلصًا من مكروه قومه، وقيل: انقطعت حيلته، ولم يقدر على شيء يضيفهم، ونسب ذلك إلى الذراع[5] على عادة العرب في وصف القادر أنه منبسط اليد والذراع[6]، عن أبي مسلم، وقيل: ضاق بحفظهم عن قومه، عن أبي علي «**وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ**» شديد في الشر، وأضاف الشدة إلى اليوم؛ لأنها وقعت في اليوم، كما تضاف الشدائد إلى يوم القيامة، وإنما قال ذلك لأنه لم يعلم أنهم رسل الله، وعلم من قومه ما هم عليه، ولم يجد ما يدفعهم، فتحير في ذلك، ودخلوا معه منزله، ولم يعلم بهم أحدًا إلا أهل بيته، وقيل: أتوه في نصف النهار، وهو في أرض يستعمل، فاستضافوه، فانطلق معهم، فلما مشى ساعة قال لهم: ما بلغكم من أمر هذه القرية، قالوا: وما أمرهم؟ قال: أشهد بالله أنها لشر قرية عملاً. قالها أربع مرات، وكان الله تعالى أمرهم ألا يهلكوهم حتى يشهد عليهم لوط أربع شهادات، عن قتادة، والسدي، وقيل: جعلهم بين ماشيته وألقى عليهم لباسًا من صوف ليخفيهم من قومه حتى أتى بهم إلى منزله، وكانوا أتوه وهو في ماشيته يرعى، عن أبي علي «**وَجَاءَهُ قَوْمُهُ**» قيل: خرجت

---

(١) بالقتل: القتل، ض.

(٢) ضيف: ضيفا؛ ش، ض.

(٣) التعبد: البعيد، ض.

(٤) إذ: إذا؛ ش، ض.

(٥) الذراع: الذرع؛ ش، ض.

(٦) الذراع: الذرع؛ ش، ض.

امرأته وأخبرت قومه، وقالت: في بيت لوط رجال ما رأيت أحسن وجوهًا، ولا أطيب ريحًا، ولا أنظف ثيابًا منهم، عن الأصم، وقيل: دخنت دخان، وكان ذلك عَلَمًا عندهم فجاؤوا «**يُهْرَعُونَ**» قيل: يسرعون في المشي، عن مجاهد، وقتادة، والسدي، إنما أسرعوا لطلب الفاحشة، وقيل: يدفعون، عن ابن عيينة، وقيل: يساقون وليس هناك سائق غيرهم، وإنما أضيف الفعل إليهم على لفظ ما لم يسم فاعله، يعني أن بعضهم يسوق بعضًا، عن أبي مسلم «**إِلَيْهِ**» يعني إلى لوط «**وَمِنْ قَبْلُ**» قيل: من قبل إتيان الملائكة، وقيل: من قبل مجيئهم إلى ضيفان لوط، وقيل: من قبل مجيئهم إلى لوط وداره، عن أبي علي، وقيل: قبل بعثة لوط إليهم، وقيل: إنما قال «**من قبل**»؛ لأنهم جهروا بها ولم يستحيوا «**كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ**» المعاصي، وهي إتيان الرجال في أدبارهم، «**قَالَ**» لوط لهم «**يَا قَوْمِ هَؤُلاءِ بَنَاتِي**» منعهم بألطف منع، وعرض عليهم بناته، واختلفوا، فقيل: أراد بناته لصلبه، عن قتادة، وقيل: نساء أمته؛ لأنهن كالبنات له، عن مجاهد، وسعيد بن جبير، واختلفوا كيف عرض؟ قيل: بالتزويج، وكان يجوز تزويج المؤمنة من الكافر في شريعته، وكذلك كان في صدر من الإسلام، ثم نسخ، وقيل: أراد التزويج بشرط الإيمان، عن الأصم، والزجاج[1]. وكانوا يخطبون بناته فلا يزوجهن منهم لكفرهم، واختلفوا، فقيل: كان لهم سيدان مطاعان، فأراد أن يزوجهما ببنتيه: زغوراء، ورمياء، وقيل: قاله للكبراء الذين أتوا بالعوام ليدفعوا عن أضيافه العوام، عن الأصم «**هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ**» قيل: تزويجهن أطهر لكم من نكاح الذكور، وقيل: هن أطهر من معاصي الله.

ومتى قيل: أي طهارة في نكاح الرجال حتى يقال: أطهر منه؟

قلنا: ليس هذا لزيادة الفعل، وإنما المراد هو الظاهر، كقولهم: الله أكبر، وكقوله: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾ [الصافات: ٦٢] ولا خير فيها.

«**فَاتَّقُوا اللَّهَ**» أي: اتقوا ما نهاكم عنه قيل: معناه آمنوا، فإذا آمنتم زوجتكم بناتي، والتقوى اسم لجميع الإيمان كله، عن أبي مسلم «**وَلاَ تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي**» أي: لا

(١) معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٣/ ٦٧.

تفضحوني في ضيفي، وقيل: لا تذلوني ولا تهينوني فيهم بركوبهم الفاحشة، وهذا كلام مبتلى بالسفهاء، سخر من فعلهم، وقيل: لا تستحيوني، يقال: خزي: إذا ستحيا، وخزي: إذا ذل وهان «**أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ**» قيل: يرشد إلى خير، ويمنع عن شر، عن أبي علي، وقيل: يأمر بمعروف، وينهى عن منكر، عن ابن إسحاق، وقيل: صالح شديد، وقيل: رجل يُهْتَدَى بصلاحه، ويميز ما له مما عليه، عن أبي علي «**قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ**» قيل: لسنا بأزواج لهن، عن أبي علي، وابن إسحاق، وقيل: ما لنا في بناتك من حاجة، فجعلوا تناول ما لا حاجة فيه كتناول ما لا حق لهم، فالأول رد على ظاهر اللفظ، والثاني على المعنى، وقيل: ما لنا في بناتك من حق؛ لأنك دعوتنا إلى نكاحهن بشرط الإيمان، ونحن لا نجيبك إلى ذلك، فلا يكون لنا فيهن حق، عن أبي مسلم. «**وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ**» من إتيان الرجال، فلما لم يقبلوا الوعظ، ولم ينتهوا أخذ لوط يتأسف على خلوه من عدد وعُدَّة[1] يتمكن بها من النهي عن المنكر فـ«**قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً**» أي: مَنَعَةً وقدرة على دفعكم «**أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ**» أرجع إلى عشيرة مانعة أتمكن بهم من النهي عن المنكر، وقيل: أراد قوة في نفسي، أو أنصارًا من عشيرتي، وإلا فله من الله ركن وثيق، وقيل: لم يبعث بعده نبي إلا في ثروة من قوة، ومنعة من عشيرته.

۞ الأحكام

تدل الآية على أن لوطًا لم يعرف أنهم رسل الله، وأنهم لماذا جاؤوا، وإنما ظنهم أضيافًا[2]، فخاف عليهم من قومه، وذلك لمصلحة يعلمها الله، وقيل: ليعاينوا فعل القوم، وقيل: لشديد المحنة عليهم.

وتدل على دفعه عنهم بالموعظة الجميلة، وتأسف على عدم قوة[3] يتمكن بها من دفعهم، فتدل على أن الواجب دفع القبيح بما يمكن من الموعظة، وباليد

(١) وعُدَّة: وعدده، ض.
(٢) أضيافًا: أضياف، ض.
(٣) قوة: قومه، ض.

والسيف، فيبدأ بأيسر الوجوه، فإن لم يندفع فبما يمكن، خلاف ما يقوله من يخالفنا في ذلك.

وتدل على أنه لما لم يتمكن انقطع إلى الله تعالى، فتدل على أن الواجب إذا لم يمكنه دفع المنكر، يكرهه بقلبه، ويسأل الله تعالى دفعه، وينقطع إليه، فإن قوله: «**أو آوي إلى ركن شديد**» كلام من أيس من نصرة المخلوقين، واعتمد على ربه، [وانقطع إليه][1].

وتدل على أنه عرض عليهم بناته، والظاهر أنه أراد بنات صلبه، ولا شبهة أنه لم يعرض الزنا، فلم يبق إلا النكاح، ثم يحمل على الوجهين على ما ذكرنا، وقد زوج النبي ﷺ زينب من أبي العاص بن الربيع، وكان مشركًا، وزوج ابنتيه من ابني أبي لهب: عتبة وعتيبة، وهو الظاهر، وإن كان يحتمل أنه شرط الإيمان، على ما قاله أبو مسلم.

وتدل على عظيم معصيتهم بإتيان الذكور، وهو كبيرة عظيمة في شريعتنا، واختلفوا، فمنهم من قال: فيه من الحد ما في الزنا، ومنهم من قال: يقتل، ومنهم من قال: ليس فيه حد معلوم، وروي أن النبي ﷺ قال: «رحم الله لوطًا، قد كان يأوي إلى ركن شديد، وكان له قوة بالله»[2].

قوله تعالى:

﴿قَالُواْ يَـٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَـٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾

---

(١) وانقطع إليه: + ، ض.

(٢) البخاري رقم ٣١٩٢، ومسلم رقم ٢٣٨.

القراءة

قرأ أبو جعفر، ونافع، وابن كثير: «فاسر» موصولة الألف[1]، وكذلك (ابن) بكسر النون ووصل الألف من سريت، يقال: سرى يسري وسريت وأسراه منه اعتبارًا بقوله: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ﴾ [الفجر: ٤]، وقرأ الباقون بقطع الألف فيها من أسريت، يقال: أسرى يُسْرِي إسراءً، ومنه: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ﴾ [الإسراء: ١] وهما بمعنى.

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو: «إلا امرأتك»[2] بالرفع على الاستثناء من الالتفات، تقديره: ولا يلتفت أحد إلا امرأتك فإنها تلتفت فتهلك. وقيل: (إلا) بمعنى (لكن)، وقيل: الرفع على البدل، وقرأ الباقون بالنصب على الاستثناء، من الإسراء، أي: أسر بأهلك إلا امرأتك، فلا تَسْرِ بها وخَلِّفْهَا في قومها، وذكر الأخفش أن الرفع أجود، وليس كذلك؛ لأن أكثر القراء على النصب، وله وجه صحيح، وهو قراءة أهل المدينة.

اللغة

الإسراء: سير الليل، أسرى يسرى وسرى يسري، فهو سَارٍ لغتان بمعنى إذا سار ليلاً، قال الشاعر:

أسرى إليك ولم يكن يسري[3]

يقال: سرى إذا سار ليلاً، وأسرى بفلان: إذا سيره ليلاً.

والالتفات: «افتعال» من اللفت، وهو اللي، يقال: لفت فلانًا عن رأيه: صرفته، وامرأة لَفُوتٌ: لها زوج ولها ولد من غيره، فهي تلتفت إلى ولدها، ومنه: الحديث في صفته ﷺ (إذا التفت التفت جميعًا[4]، كان لا يلوي عنقه يمنة ويسرة).

---

(١) حجة القراءات ٣٤٧.

(٢) حجة القراءات ٣٤٨.

(٣) مسند أحمد رقم ٦٨٤، والمستدرك رقم ٥٥٨٨، والمعجم الكبير رقم ٢٩١.

(٤) البيت قائله حسان بن ثابت وتمام البيت برواية أخرى:

حي النضيرة دبة الخدد ... أسرت إليك ولم تكن تُسري

والمطر معروف، يقال: مطرت السماء وأمطرت بمعنى، وقيل: مُطِرْنَا في الرحمة، وأمطرنا في العذاب، عن أبي عبيدة، وتمطَّر الرجل: تعرض للمطر.

والسَّجْلُ بفتح السين: الدلو العظيمة، ومنه: المساجلة، يعني المفاخرة، فأما السِّجِلّ بكسر السين فيقال: هو من السجل أيضًا؛ لأنها تتضمن أحكامًا، ويقال: هو من المساجلة، قال الشاعر:

مَنْ يُسَاجِلْنِي يُسَاجِلْ مَاجِدًا ... يَمْلأُ الدَّلْوَ إِلَى عَقْدِ الكَرَبْ[1]

قال الخليل: السجل ملء الدلو، وسجلتُ الماء: صببته، فالسِّجْلُ: الصبُّ، ومنه: افتتح سورة فسجلها أي قرأها، وأسجلته: أرسلته، وقيل: منه السِّجِّيل؛ لأنه «فِعِّيل» منه.

والنَّضْدُ مصدر نضدت الشيء بعضه على بعض مُتَّسِقًا، أو من فوق، والنضيد: المنضود، والنَّضَدُ: السرير يُنْضَدُ عليه المتاعُ.

والمُسَوَّمَة أصلها من السمة، وهي العلامة[2]، والسومة: العلامة، ومنه: السائمة، وهي المرسلة في المرعى.

الإعراب

«مسومة» من نعت الحجارة، وقيل: نصب على الحال «**إن موعدهم الصبح**» لم يجعل الصبح ظرفًا ولكن اسمًا، وهو خبر (إن)؛ لأن الموعد هو الصبح.

المعنى

ثم بَيَّنَ تعالى أن الملائكة لما رأوا ما فيه لوط من التوجع والتأسف، وما فيه قومه من الغلبة والقهر وضعفه، وأنه لا يجد حيلة شرحوا صدره، ومنوه[3] بالنصر والنجاة، فقال سبحانه: «**قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ**» أرسلنا لهلاكهم «**لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ**» فَأَمَّنُوهُ

(١) البيت للفضل بن عباس بن عتبة. انظره في: الصحاح (سجل).
(٢) العلامة: العامة، ض.
(٣) ومنوه: وأمنوه، ض.

قيل: أتوا بابه وهم معه في الدار، وهو يناظرهم ويناشدهم من وراء الباب، وهم يعاجلون تسور الجدار، عن ابن عباس وجماعة، فعند ذلك قال جبريل: افتح الباب، ففتح الباب[1] ودخلوا فضرب بجناحه وجوههم، فطمس أعينهم، عن قتادة، فصاروا لا يهتدون إلى بيوتهم، فانصرفوا يقولون: النجا النجا، فإن في بيت لوط أسحر قوم في الأرض، فلما علم لوط أنهم ملائكة قال لهم: متى موعد هلاكهم؟ قالوا: الصبح، ثم قالوا له: «فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ»، أي: سِرْ بأهلك ليلاً، قيل: كان لوط وابنتاه، عن الأصم «بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ» قيل: بطائفة، عن ابن عباس، وقيل: بل هو نصف الليل، عن أبي علي، كأنه قطع بنصفين[2]، وقيل: ببقية، عن الضحاك «وَلا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ» قيل: لا تنظروا، عن مجاهد، كأنهم تعبدوا بذلك للنجاة بالطاعة في هذه العبادة، وقيل: لا يلتفت أحد إلى ماله وأهله، عن الأصم، وقيل: لا يلتفت إلى متاعه بالمدينة، وأسرعوا في الخروج، ولم يلتفتوا التفات الرؤية، عن أبي علي، وقيل: أمرهم بألاَّ يلتفتوا إذا سمعوا الوجبة والهدة «إِلاَّ امْرَأَتَكَ» قيل: التفتت حين[3] سمعت الوجبة فقالت: يا قوماه فأدركها حجر فقتلها، وقيل: إلا امرأتك لا تَسِرْ بها، وقيل: تلفت فتهلك، «إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ» قيل: هلكت بعد هلاكهم فلذلك قال يصيبها ما أصابهم، قيل: إن العذاب يعمهم «إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ» أي: وقت الصبح «أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ» قال: لما طمس على أعينهم قالوا: يا لوط وصلتنا بمن سحرنا إن أصبحت لتعلمن. فقال لوط لجبريل عليه السلام: عَجِّلْ هلاكهم، فقال: إن موعدهم الصبح، والصبح قريب «فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا» فيه ثلاثة أقوال:

الأول: جاءت الملائكة.

الثاني: جاء أمرنا بالعذاب.

الثالث: العذاب جاء، وهو نفس الهلاك.

«جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا» قيل: لما كان وقت الصبح أدخل جبريل جناحه تحت

---

(١) ففتح الباب: ـ، ض.

(٢) وقيل بل هو نصف الليل... بنصفين: ـ، ض.

(٣) حين: حتى، ض.

الأرض فرفع أرضهم حتى سمع من السماء صياح الديكة ونباح الكلاب، ثم قلبها وأمطر عليها الحجارة، فعلى هذا «جعلنا»، أي: جعل أمرنا، فأضافها إلى نفسه لأنه أَمَرَ به، وقيل: إنه تعالى قلب تلك المدائن، وهو الظاهر، «وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا[1] » قيل: قلبهم وأمطر[2] عليهم الحجر، وقيل: من لم يمت منهم أرسل عليهم الحجر، وقيل: أرسل الحجارة على من لم يكن في قريتهم، عن أبي علي. «مِنْ سِجِّيلٍ» فيه أقوال شتى:

أولها: حجارة صلبة ليست من جنس الثلج والبرد، وهي فارسي معرب «سنْك وكْل»، عن ابن عباس، وقتادة، وسعيد بن جبير، ووهب. قال مجاهد: أولها حجر، وآخرها طين، قال الأزهري: لما عربته العرب صارت عربية، وقد أُعِرْبَتْ حروف كثيرة كالديباج والديوان.

وثانيها: شديد من الحجارة عن أبي عبيدة وغيره، وأنشد لابن مقبل:

ضَرْبا تَواصَى[3] بهِ الأبْطَالُ سِجِّينَا[4]

إلا أن اللام قلبت نونًا، والعرب تعاقب بين النون واللام.

وثالثها: سجيل أي: مثل السجيل في الإرسال وهو الدلو[5].

ورابعها: مرسلة عليهم من أسجلته إذا أرسلته.

وخامسها: من أسجلته، أي[6] : أعطيته، تقديره: من مثل العطية في الإدرار، وقيل: كان كتب عليها أسامي المعذبين.

---

(١) عليها: عليهم، ش.

(٢) وأمطر: مطر، ض.

(٣) تواصى: تعاطى؛ ش، ض.

(٤) البيت لابن مقبل، وصدر البيت:

ورَجْلَةٍ يَضْرِبُون البَيْضَ عن عُرُضٍ

انظر: جمهرة أشعار العرب ١/ ٨٨.

(٥) الدلو: الولد، ض.

(٦) أي: +، ض.

وسادسها: من السِّجِلِّ، وهو الكتاب، تقديره: من مكتوب الحجارة،وفي التنزيل أي: كتب الله أن يعذبهم بها.

وسابعها: من سجيل أي: من جهنم أبدلت النون لامًا.

وثامنها: من السماء الدنيا، وتسمى: «سجيلاً»[1]، عن ابن زيد.

وتاسعها: السجيل الطين لقوله: ﴿حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾ [الذاريات: ٣٣]، عن عكرمة، وقتادة، قال الحسن: كان أصلها الطين فشددت، وقال الضحاك: هو الآجُرُّ.

وعاشرها: سجيل موضع الحجارة، عن الأصم، وهو جبال في السماء، ومنه: ﴿مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ﴾ [النور: ٤٣]، وقيل: معلق بين السماء والأرض، عن عكرمة.

«مَنْضُودٍ» قيل: نضد بعضه على بعض عن الربيع حتى صار حجرًا، وقيل: متتابع، عن ابن عباس، وقيل: بعضها فوق بعض، وقيل: مصفوف، عن عكرمة «مُسَوَّمَةً» قيل: معلمة جعل عليها علامات تدل على أنها معدة للعذاب، فأهلكوا بها، وكانوا أربعة آلاف ألف، عن قتادة، وقيل: عليها سيماء لا تشاكل أحجار الأرض، عن ابن جريج، وقيل: مختومة، عن الحسن والسدي، وقيل: مكتوب على كل حجر اسم من رُمِيَ به، وقيل: مرسلة من أَسَمْتُ الخيل وسومتها أرسلتها في المرعى، وقيل: مسومة ببياض وحمرة، عن قتادة «عِنْدَ رَبِّكَ» قيل: في خزانته التي لا يتصرف في شيء منها إلا بإذنه، فأمطر على المهلكين بإذنه، وقيل: معدة في حكمه وعدله لهم، عن أبي مسلم، وقيل: في ملكه، عن أبي علي، «وَمَا هِيَ» تلك الحجارة المعدة للعذاب «مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ» قيل: ظالمي هذه الأمة، عن عكرمة، وقتادة، وتقديره: إن لم يؤمنوا، قال مجاهد: يرهب بها من يشاء، قال أبو علي: لا يكون ذلك إلا في زمن نبي أو عند الساعة؛ لأنه معجزة، وقيل: تقديره: لا تبعد من الظالمين إذا أذن الله في هلاكهم، وعن أنس أن النبي ﷺ سأل جبريل عن هذه الآية، فقال: «يعني عن ظالمي أمتك، ما من ظالم منهم إلا وهو يعرض حجر يسقط عليه ساعة فساعة»، وعن عمر أنه كان يمر بالرجل يظلم، فيقول: «ويحك اتق الحجر»، حكاه الأصم،

(١) سيجلاً: سجيل؛ ش، ض.

وقيل: أراد ظالمي قوم لوط، حكاه الأصم، وقيل: أراد امرأته، وقيل: هلكت في البلد، وقيل: فيهم.

۞ الأحكام

تدل الآية أنه تعالى نجَّى لوطًا وأهل بيته غير امرأته، فإنه أهلكها، وقيل: هلكت في البلد، وقيل: خرجت، ثم هلكت، والأول أصح لقوله: ﴿لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ [الحجر: ٦٠].

وتدل على أنهم عذبوا بالقلب والحجر، وقد بينا ما قيل فيه، والأقرب أنهما كانا معًا لا بُعَيْدُ، وعليه يدل الظاهر.

وتدل على أن عذاب الله لا يبعد عن كل ظالم، وفيه زجر عظيم.

وتدل على أن الظلم فِعْلُهُمْ؛ لذلك سموا ظالمين، ولو كان هو خَلَقَهُ وأوجده بجميع صفاته لكان أولى بهذا الاسم، تعالى الله عن ذلك.

قوله تعالى:

﴿۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾﴾

۞ اللغة

المحيط: الدائر على الشيء بمثل الحائط، أحاط به يحيط إحاطة، فهو محيط، وحاطه يحوطه حَوْطًا: إذا رعاه، كأن رعايته تحيط به، والحِوَاط: حظيرة تتخذ للطعام.

والإيفاء: إتمام الحق، وأصله الوفاء، وهو تمام الحق، وَفَى وأوفى لغتان، ونقيضه: البَخْسُ، وهو النقصان، بخس الشيء نقص.

وعَثِيَ يَعْثَى عِثِيًّا، وعاث يعيث عَيْثًا بمعنى، وهو الفساد.

والبقية: ترك شيء من شيء مضى، وأصله: البقاء، كأنه بقي بعضه، وذهب بعضه، بقي الشيء يبقى بقاء، والبقاء الاسم.

المعنى

ثم عطف تعالى قصة شعيب على ما تقدم من القصص، فقال سبحانه: «**وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا**» أي: فأرسلنا إلى مدين أخاهم شعيبًا في النسب، قيل: ولد مدين بن إبراهيم، فنسبوا إليه، وقيل: هو اسم للمدينة أو القبيلة، عن الزجاج[1]، وقيل: اسم للمدينة وأراد إلى أهلها، عن أبي مسلم، «**قَالَ**[2] **يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ**» أي: وحدوه ولا تعبدوا معه غيره «**مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ**» تقديره: ما لكم إله غيره، فبدأ بالتوحيد؛ لأنه أهم، ولأن غيره كالفرع عليه «**وَلا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ**» أي: لا تنقصوا ما كِلْتُمْ ووزنتم على غيركم، وكانوا يطففون في ذلك، فنهوا عنه «**إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ**» قيل: برخص الأسعار، فحذرهم غلاءها، وزوال النعمة، وحلول النقمة، عن ابن عباس، والحسن، وقيل: المال، وزينة الدنيا، عن قتادة، وابن زيد، والضحاك، وقيل: الخصب والسعة، عن مجاهد «**وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ**» يعني: عذاب اليوم يحيط بكم، وقيل: اليوم يحيط بعذابه بدلاً من إحاطته بنعمته، وأراد بالإحاطة أنه يهلكهم جميعًا، فلا ينجو منهم أحد «**وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا**» أتموا «**الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ**» أي: ما تكيلون وما تزنون عليهم «**بِالْقِسْطِ**» بالعدل «**وَلاَ تَبْخَسُوا**» لا تنقصوا «**النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ**» أي: أموالهم في معاملاتهم أي: لا تخونوا «**وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ**» أي: لا تعثوا: لا تسعوا بالفساد في الأرض، ولا تضطربوا بالفساد «**بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ**» قيل: طاعة الله خير من جميع الدنيا؛ لأنها يبقى ثوابها أبدًا والدنيا تزول، عن الحسن، ومجاهد. وقيل: ما أبقى الله خير لكم من الحلال، بعد إيفاء الكيل والوزن خير من البخس ومن التطفيف، عن أبي علي. وقيل: رزق الله، عن سفيان، وقيل: بقية الله من نعمه مع قلته خَيْرٌ من التماس الزيادة بالخيانة،

---

(١) معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٣/ ٧٢.

(٢) قال: فقال، ش.

وقيل: بقية الله ثوابه على العدل والنصفة خير من المال الذي خانوا فيه، يعني ما يبقى لكم عنده إذا أطعتموه، وهو الثواب خير لكم، عن أبي مسلم، وقيل: هو من البقاء يعني أن تبقوا على أنفسكم خير لكم، فلا تتعرضوا للعقاب، ومنه:

فَمَا بُقَيًّا عَلَيَّ تَرَكْتُمَانِي ... وَلَكِنْ خِفْتُمَا صَرَدَ النِّبَالِ[1]

وقيل: إبقاء الله نعمه خير لكم من إزالتها بالعذاب بالمعاصي، فالبقية في الرحمة والهلاك في العذاب، عن ابن زيد، وقيل: قليل في طاعة خير من كثير في معصية، وقيل: حظكم من ربكم، عن قتادة «**إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ**» فهو خير لكم «**وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ**»، قيل: لا أحفظ أعمالكم، فالله يحفظها، فاعبدوه يحفظ ذلك، عن أبي علي، وقيل: لست بحفيظ عليكم حتى أحملكم على الطاعة، وليس عَلَيَّ إلا البلاغ، وما أنا بضمين فأوخذ بكم، عن أبي مسلم، قيل: كان لم يؤمر بالقتال.

۞ الأحكام

تدل الآية على إرساله شعيبًا، وأنه دعاهم إلى عبادة الله والتوحيد أولا، فتدل على أن التوحيد أهم الأشياء.

وتدل على تحريم النقصان في الكيل والوزن.

وتدل على عظم موقع الظلم؛ لأنه إذا خيف العذاب في البخس في الدوانيق والحبات، فما هو أعظم في الظلم[2] أولى.

وتدل على أن المعصية يخاف عندها العذاب.

ويدل قوله: «بقية الله» على أنه يشتمل على نعم الدنيا والآخرة، فكل ذلك من جهته.

وتدل على أن العبادة وإيفاء الكيل والوزن فعلهم؛ ليصح الأمر، فيبطل قول مخالفينا في المخلوق.

وتدل على أن العذاب جزاء الأعمال.

---

(١) البيت للبيد بن ربيعة. انظره في: الصحاح (بقي)، واللسان (صرد) وتاج العروس (صرد).

(٢) في الظلم: ـ، ض.

قوله تعالى:

﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ ﴿٨٩﴾ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ ﴿٩٠﴾﴾

القراءة

قرأ حمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم: «**أصلاتك**» بغير واو على الجنس، وقرأ الباقون: «**صلواتك**» بالواو على الجمع[1].

قراءة العامة: «**نفعل في أموالنا ما نشاء**» بالنون، وعن بعضهم: (تفعل) بالتاء، (تشاء) بالتاء، أي[2]: يأمرك أن تفعل في أموالنا ما تحكم، وكلاهما بالتاء أَوْجَهُ، ولا يجوز القراءة بالوجهين.

اللغة

التوفيق: من الموافقة، وهو الاتفاق للصواب هو فعل ما يتفق عنده الصواب، وليس ذلك جنسًا بعينه، وإنما هو على ما في المعلوم أن يكون بهذه الصفة، ثم يكون نعمة وبلية، والله الموفق للصواب فقط؛ لأنه لم يعلم ما يتفق الصواب عنده إلا الله تعالى فهو صفة تعظيم على هذا، والتوفيق من الألطاف إلا أنه اختص بهذا الاسم ما اتفق وقوع الصواب عنده.

---

(١) حجة القراءات ٣٤٨.

(٢) أي: ـ، ض.

والشقاق: الخلاف، وأصله من الشق، وهو ناحية من الجبل، فكأنه صار في شق مباين بالعداوة، ويقال: شق فلان العصى إذا فارق الجماعة.

والودود: المحب من الود، وهو المحبة، فلان ودِيدُهُ أي: يتوادان، وَدِدْتُ الرجل أَوَدُّهُ وُدًّا ووِدادًا بفتح الواو وكسرها.

الإعراب

﴿أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِيٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ﴾ ليس بعطف على (أن) الأولى، وإنما هو معطوف على (ما) بتقدير: أو نترك فعل ما نشاء في أموالنا، وفيه وجه آخر، أن يجعل الأمر كالنهي، كأنه قيل: أصلواتك تأمرك بكذا، وتنهاك عن كذا، فتكون حينئذ مردودة على (أن) الأولى.

ويقال: أين جواب قوله: ﴿إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ ؟

قلنا: محذوف، وتقديره: إن كنت على بينة من ربي ورزقني فلا أزول عما أنا عليه من عبادته مع هذه الحال الموجبة للعبادة.

«**مثل ما أصاب**» يحتمل (مثل) الرفع على أنه فاعل الفعل يصيب. ويحتمل النصب بتقدير: كما أصاب، فلما حذف حرف الخفض انتصب (مثل).

المعنى

ثم حكى تعالى جدال قوم شعيب له بغير حجة، فقال سبحانه: «**قَالُوا**» يعني قوم شعيب «**أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ**» قيل: كان شعيب كثير الصلاة؛ ولذلك قالوا ذلك، عن ابن عباس، وقيل: إقباله على الصلاة المفروضة، وقيل: صلواتك: دينك، عن أبي مسلم، وقيل: معناه: في صلواتك الأمر بكذا، عن الحسن «**تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ**[1] **أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ**» وقيل: هل من حكم صلواتك ترك دين السلف؟ عن أبي مسلم، فجعلوا ملكهم علة لجواز[2] تصرفهم على أي وجه شاؤوا،

---

(١) ما يعبد آباؤنا أو: ـ ، ض.

(٢) لجواز: بجواز، ض.

ولم يعتبروا أمر الله جهلاً منهم «**إِنَّكَ لأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ**» يعني الصالح في نفسه المرشد لغيره، قيل: قالوه استهزاء، عن الحسن، وابن جريج، وابن زيد، وقيل: أنت الحليم الرشيد عند قومك، فهذا الأمر لا يليق بك في مخالفة قومك، عن الأصم، وقيل: معناه أنت السفيه الغاوي، عن ابن عباس، قال القتيبي: العرب تصف الشيء بضده قالوا للديغ: سليم، وللفلاة مفازة، وأنكر ذلك أبو علي؛ لأنه خلاف الظاهر «**قَالَ**» شعيب: «**يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ**» حجة «**مِنْ رَبِّي**» قيل: أرأيتم إن كذبتموني، وأنا على بينة من ربي، فما تصنعون؟ وما عذركم في ترك الإيمان؟ وقيل: إذا كنت على بينة من ربي ورزقه، فلماذا أعدل عن عبادته والدعاء إليه؟ «**بَيِّنَة**» حجة من ربي؛ لأنه ينصب الأدلة «**وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا**» قيل: حلالاً طيبًا من غير بخس، وقيل: علمًا ومعرفة، وقيل: هو النبوة والشرع «**وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ**» قيل: معناه أني لا أنهى عن قبيح، ثم أفعله، نحو قول الشاعر:

لا تَنْهَ عَنْ خُلُقٍ وَتَأْتِي مِثْلَهُ عَارٌ عَلَيْكَ إِذَا فَعَلْتَ عَظِيمُ[1]

وقيل: ليس نهيي إياكم لمنفعة أجرها إلى نفسي بما تتركون من التطفيف «**إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ**» أي: لا أريد إلا إصلاح أمور الناس في دينهم ودنياهم «**مَا اسْتَطَعْتُ**» أي: ما أمكنني من ذلك «**وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ**» أي: ما أفعله ليس بحولي وقوتي بل بمعونة الله وتيسيره ولطفه «**عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ**» أي: فوضت أمري إليه «**وَإِلَيْهِ أُنِيبُ**» قيل: أرجع إليه في المعاد، وقيل: إليه أرجع بعملي ونيتي، عن الحسن، وقيل: أرجع إليه في جميع أموري «**وَيَا قَوْمِ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي**» قيل: لا يحملنكم، عن الحسن، وقتادة، وقيل: لا يكسبنكم، عن الزجاج[2]، وأصل الجرم القطع، كأنه قيل: لا يقطعنكم إليه بحملكم عليه «**شقاقي**» خلافي وفراقي على الإصرار على الكفر «**أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ**» أي: لا تحملنكم مخالفتي على أمر تستحقون به أن يفعل بكم مثل ما فعل بهؤلاء «**مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ**» من الهلاك بالغرق «**أَوْ قَوْمَ هُودٍ**» بالريح «**أَوْ قَوْمَ**

---

(١) البيت نسب لأبي الأسود الدؤلي. انظره في: تاج العروس(عظظ)، واللسان (عظظ).

(٢) معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٣/ ٧٤.

صَالِحٍ» بالصيحة «**وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنكُمْ بِبَعِيدٍ**» قيل: قريب منكم في الزمان الذي بينكم وبينه، عن قتادة، وقيل: دارهم قريبة من دارهم، فوجب أن يتعظوا بهم، وقيل: وما عذاب قوم لوط منكم ببعيد «**وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ**» أي: اطلبوا المغفرة «**ثُمَّ تُوبُوا**» ثم توصلوا إليها بالتوبة، وقيل: استغفروا للماضي[1] واعزموا في المستقبل، وقيل: استغفروا ثم توبوا أي دوموا على التوبة، وقيل: استغفروا في العلانية، ثم أضمروا الندامة في القلب، عن القاضي «**إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ**» رحيم بالتائبين يقبل توبتهم، وقيل: رحيم بخلقه، ودود يحب المؤمنين، وقيل: يحبه المؤمنون.

۞ الأحكام

تدل الآية أن مخالفة الأنبياء توجب عذاب الاستئصال.

وتدل على أن التوبة تقبل من الكفر، فالقتل إذ كان دونه فأولى.

وتدل على أن طريقة الأنبياء الرفق بالأمم، حيث بعثوا بأشرف الأخلاق، والدعاء على وجه يكون أقرب إلى القبول.

قوله تعالى:

﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾﴾

---

(١) للماضي: للمعاصي، ش.

۞ اللغة

الفقه: فهم معنى الكلام، وقد صار في الشرع والعرف اسمًا لنوع في علم الدين.

والرهط: العصابة دون العشرة، ويقال: بل إلى الألف، وأصله الشد من الترهيط شدة الأكل، ومنه: الراهط جحر اليربوع؛ لشدة توثقه لينجى فيه، وهو الرهط أيضًا، ورهط الرجل: عشيرته وقومه، وأصله واحد.

والرجم: الرمي بالحجارة، والرجم: القتل، والرجم: الشتم، وأصله من الرُّجم، وهو الحجارة، وكذلك الرجام، ورجم فلان: ضرب بالحجارة، ورجمته: شتمته، كأنه رماه به، والرُّجْمَةُ الحجارة تجمع على القبر فُيَسَنَّمُ، وقيل: هو القبر.

والظهري: جعل الشيء وراء الظهر حتى ينساه، قال الشاعر:

وَجَدْنَاَ بَنِي البَرْصَاءَ مِنْ وَلَدِ الظَّهْرِ[1]

أي: أنهم ممن يظهرون لحوائج الناس فلا يلتفتون إليهم، وقال:

تَمِيَمْ بنَ زَيدٍ لاَ تكُونَنَّ[2] حَاجَتِي ... بِظَهْرٍ وَلا يَعْيَا[3] عَلَيّ جَوَابُها[4]

ويقال: جعل فلان حاجتي وراء ظهره، ونقيضه: جعله بين عينيه وأمامه، وأصله: الظهر خلاف البطن، ورجل مُظَهَّر: شديد الظهر، وظَهِيرٌ يشتكى ظهره، والبعير الظِّهْرِيّ: المُقلّة[5] للحاجة إليه، والجمع: ظَهَارِيٌّ، وهذا أَمْرٌ ظاهر عنك عَارُهُ، أي: زائل، قال الشاعر[6]:

وَعَيَّرَهَا الوَاشُونَ أَنِّي أُحِبُّهَا ... وَتِلْكَ شَكَاةٌ ظَاهِرٌ عَنْكِ عَارُهَا[7]

---

(١) البيت لأرطاة بن سهية، انظره في: الصحاح (ظهر)، واللسان (ظهر)، وصدر البيت:
فَمَنْ مبْلِغُ أَبْنَاءَ مُرَّةَ أَنَّنا

(٢) تميم بن زيد لا تكونن: تميم بن مر لا تلومن، ض.

(٣) ولا يعيا: ولا يضا، وما أثبتناه من تفسير البيان للطوسي: ٦/ ٥٥.

(٤) للفرزدق. انظره في اللسان (ظهر)، وتهذيب اللغة (ظهر).

(٥) المقلة: المعدة؛ ش، ض.

(٦) الشاعر: ـ ، ض.

(٧) البيت لكُثَيِّر. انظره في: الصحاح (ظهر) واللسان (شكو).

والمكانة: الحال الذي يتمكن بها صاحبه من عمله، يقال: لفلان عندي مكانة، وهو مكين: يريد منزلته.

والارتقاب: الانتظار، وهو طلب ما يأتي بتعليق النفس به، رقبه يرقبه رقوبًا، وارتقبه ارتقابًا، والجثوم: الجثو على الركب.

۞ الإعراب

موضع (من) في قوله: «**من هوكاذب**» من الإعراب فيه وجهان:

الأول: محله نصب، والعامل فيه: (العلم)، تقديره: فسوف يعلمون من كذب، أي: الكاذب، وقيل: العامل: (يخزيه) أي: يخزي من هو كاذب.

الثاني: محله رفع تقديره: ومن هو كاذب، فيعلم كذبه، ويذوق وبال أمره.

۞ المعنى

ثم بَيَّنَ تعالى ما قابلوا به شعيبًا في أدائه وموعظته من الرد حين أوبقوا أنفسهم، فقال سبحانه: «**قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ**» قيل: معناه ما نقبل كثيرًا، وقد فهموه، فجعلو (لا نفقه) مكان لا نقبل، وقيل: لا نعلم ما تقول من التوحيد، وقيل: لا نفقه صحة ما تقول، ولا معناه، عن أبي علي، وقيل: إنك لا تهدي، ولا ندري ما معنى كلامك، وبهتوه، عن الأصم «**وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا**» قيل: هينًا، عن الحسن، وقيل: ضعيف البصر، عن سفيان، وقيل: أعمى، عن سعيد بن جبير، وقتادة، وقيل: ضعيف البدن، عن أبي علي، وقيل: لا عشيرة لك ولا مَنَعَةَ، ولست من كبرائنا، عن الأصم، واختلفوا فمنهم من قال: لا يجوز أن يكون نبي أعمى؛ لأنه يُنَفِّر، ولأنه لا يجوز في الأعمى أن يكون قاضيًا وشاهدًا، فكذلك[1] النبي، ومنهم من قال: يجوز؛ لأنه لا تنفير فيه، فهو بمنزلة سائر العلل والأمراض، وإذا لم يقدح في الأداء[2] فلا تنفير، فلا معنى للمنع، قال سفيان: وكان يقال لشعيب: إنه خطيب الأنبياء «**وَلَوْلا**

---

(١) فكذلك: وكذلك، ض.

(٢) الأداء: الأذى، ض.

رَهْطُكَ» عشيرتك وقومك الذين يخالفونك ويوافقوننا، عن الأصم، وقيل: كان له عشيرة يمنعونه منهم، عن أبي علي. «لَرَجَمْنَاكَ» قيل: رجمناك بالحجارة حتى قتلناك، عن أبي علي، وأبي مسلم، وقيل: شتمناك، وقيل: طردناك «وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ» قيل: لست بالمحل الذي يعز علينا طردك وقتلك، وإنما نحترمك لعشيرتك، وقيل: لست عندنا بعزيز بل ذليل، «قَالَ» شعيب: «[يَا قَوْمِ] أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ» قيل: أتتركون المعصية لرهطي، ولا تتركون لله تعالى، وقيل: أرهطي أعظم حرمة من الله، عن الأصم، وقيل: تراقبون قومي ولا تراقبون الله «وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ» قيل: اتخذتم الله، والهاء كناية عنه أي: نسيتم الله، عن ابن عباس، والحسن، وأبي علي، وقيل: ما جاء به شعيب، عن مجاهد، أي: تركتم ما جاء به، وقيل: اتخذتم أمر الله، عن الزجاج[1] «وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا» أي: نبذتموه وراء ظهوركم وتركتم أمره، وقيل: جعلتم الله بمنزلة الفضل، عن ابن[2] زيد، وقيل: حملتموه على ظهوركم أي: فعلتم ما تستحقون به سخطه وعقابه، كقولك: حمل الناس على ظهره، أي: أسخطهم عليه، عن الأصم «إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ» قيل: عالم بأعمالكم فلا تعصوه، وقيل: عليم بأعمالكم فيجازيكم، وهو وعيد «وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ» قيل: اعملوا على ما تظنون من التمكين في أرضكم، والأمن من العذاب الذي كذبتم به، وقيل: اعملوا على ما يُمَكِّنُكُم، قال أبو مسلم: وكلا الوجهين يؤول إلى معنى واحد، أي: اعملوا أنتم على ما تقولون، وأعمل أنا على ما أقول، وقيل: على ما أنتم عليه من دينكم، ونحوه: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦]، عن الأصم، وقيل: فيه دليل أنه أيس من قومه، وقيل: اعملوا على مواضعكم، وقيل: هذا تهديد، كأنه قيل: كما أمرتم بأن تكونوا على هذه الحال من الكفر نحو قوله: ﴿وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ﴾ [الإسراء: ٦٤] عن علي بن عيسى «إِنِّي عَامِلٌ» على ما أمرني ربي «سَوْفَ تَعْلَمُونَ» أينا المخطئ الجاني على نفسه «مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ» يفضحه «وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ» ويجزي الكاذب «وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ» أي: انتظروا العذاب أن ينزل بكم، فأنا أنتظره، عن أبي علي،

(١) معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٣/ ٧٥.

(٢) ابن: + ، ض.

وقيل: انتظروا العذاب واللعنة، فأنا أنتظر الرحمة والنصرة، وقيل: انتظروا مواعيد الشيطان، فأنا أنتظر مواعيد الرحمن «**وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا**» بالعذاب، عن أبي علي «**نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا**» قيل: برحمتنا أنجيناهم، وقيل: بإيمانهم الذي هو رحمة منه؛ لأنه أمر به، وهدى إليه، وأزاح العلة حتى آمنوا «**وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ**» قيل: ظلموا بكفرهم، وقيل: ببخس الناس أشياءهم، عن أبي مسلم، وقيل: الصيحة العذاب، وقيل: صوت خلقه الله تعالى، فأهلكوا به «**فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ**» قيل: ساقطين على وجوههم، وقيل: خامدين موتى هلكى «**كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا**» أي: كأن لما يقيموا، ولم يسكنوا فيها، شبه حالهم في هلاكهم لانقطاع آثارهم كأن لم يكونوا بحالهم لو لم يكونوا فيها «**أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ**» قيل: هلاكهم، وقيل: أبعدهم الله من رحمته ونجاته «**كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ**» وقيل: لعنوا كما لعنت ثمود، قيل: شبه حالهم بحال ثمود؛ لأنهم أهلكوا بالصيحة مع الرجفة.

۞ الأحكام

يدل قوله: «**ما نفقه**» أن المعارف مكتسبة.

وتدل على أن الواجب رعاية حق الله تعالى، وأن ذلك مقدم على حقوق غيره، بخلاف ما فعلوا من رعاية حقوق الرهط، وتضييع حق الله تعالى.

وتدل على أن الأنبياء بعثوا بأكرم الأخلاق وأشرفها ورفقهم بالأمم، وذلك يدل على أن الواجب على الآمر بالمعروف أن يسلك طريقتهم.

وتدل على أن هلاك قوم شعيب وهلاك ثمود كان بالصيحة، لكن الصيحة في ثمود كان من تحتهم، وفي قوم شعيب كانت من فوقهم.

وعن أبي علي أن الصيحة يجوز أن تكون من فعل الله تعالى، ويجوز أن تكون من فعل مَلَكٍ.

وسئل ابن عباس عن عذاب يوم الظلة؟ فقال: إن الله تعالى بعث عليهم حرًّا أخذ بأنفاسهم فخرجوا إلى البرية يلتمسون الرَّوْحَ، فجاءت سحابة كهيئة ظلة فيها ريح، فاستكنوا بها من الشمس، فلما اجتمعوا تحتها جاءتهم الصيحة من فوقهم، فرجفت الأرض بالعذاب، وقيل: أسقطها الله عليهم، وقيل: أمطرت السحابة عليهم نارًا.

قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَـٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾﴾

اللغة

الرشد: نقيض الغي، والرشيد: الهادي إلى الخير، والرشد بضم الراء وسكون الشين والرشد بفتحها لغتان.

ويقال: قَدَمَ يَقْدُمُ، مثل نصر ينصر قَدْمًا، وقَدِمَ يَقْدَمُ، مثل علم يعلم: إذا تقدم، وأَقْدَم يُقْدِم: إذا تقدم، وقدم يقدم أيضًا: إذا تقدم، وكذلك استقدم، ومنه: ﴿عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ﴾ [الحجر: ٢٤] والورود: الدخول، والوِرْدُ: خلاف الصدر، والوِرْدُ: الماء الذي يُورد عليه، والوِرْدُ أيضًا يوم النوبة، وقيل: الوِرْدُ أيضًا: الإبل التي ترد الماء، ومنه: ﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ [مريم: ٨٦] قال الأزهري: مشاة عطاشًا كالإبل ترد الماء، والمورود: المفعول من الورود.

والرِّفْد أصله: العون على الأمر، فسمى العطية رفدًا؛ لأنها عون للمعطى، يقال: رفده رفدًا بكسر الراء وفتحها، ويقال: رفده وأرفده: إذا أعطاه، والاسم الرفد، والرافد المعين، ورفد فلان يرفد، فهو مرفود، كأنه أعطى، وترافد القوم: تعاونوا، والرفادة: مال كانت قريش تخرج فيما بينها تشتري للحاج طعامًا.

الإعراب

«لعنة» نصب؛ لأنه خبر ما لم يسم فاعله، والاسم الضمير في قوله: **«وأتبعوا»** تقديره: أتبع قوم فرعون اللعنة.

المعنى

ثم بَيَّنَ تعالى قصة موسى عطفًا على ما تقدم من قصص الأنبياء، فقال سبحانه:

«وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا» أي: حججنا، قيل: العصا واليد، عن الأصم، وقيل: سائر الأدلة «وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ» أي: حجة بينة واضحة سلطت على إبطال كل مذهب فاسد، وإنما ذكر الآيات والسلطان، وإن كان معناهما واحدًا لاختلاف اللفظ، كقول الشاعر:

يَــنْــأَ عَــنِّــي وَيَــبْــعُــدِ[(١)]

وقيل: معناهم مختلف، فالأول من جهة أنها عبرة عظيمة، والثاني: من جهة أنه قوة على إبطال أمر المبطل «إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَإِهِ» قيل: جماعته، وقيل: أشراف قومه «فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ» أي: اتبعوا ضلالة فرعون تقليدًا، وتركوا هدى موسى مع الحجج، كما هو عادة العوام «وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ» أي: لا يأمر برشد، ولا يهدي إلى خير، وقيل: في تكذيب موسى، وقيل: في قوله: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [النازعات:٢٤] وقيل: في جميع أفاعيله «يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» أي: يتقدمهم فيقودهم إلى النار، كما قادهم إلى الكفر «فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ» أي: أدخلهم.

ومتى قيل: لماذا ذكر بلفظ الماضي والمراد به المستقبل؟

قلنا: قيل: فيه وجوه:

قيل: لدلالة تقدمهم، ولأنه المعلوم من ذلك، عن أبي علي.

وقيل: لأن ما هو كائن لا محالة، كأن قد كان.

ومتى قيل: أليس الله تعالى أمر بهم ليدخلوا النار، فكيف أضاف إلى فرعون؟

قلنا: لأنه بسببه ودعائه إلى الضلالة.

«وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ» أي: بئس المنزل الموصول إليه، عن أبي مسلم، وقيل: بئس المدخل لمن دخله، عن أبي القاسم، وهو على هذا حقيقة، وقيل: بئس القوم الذين يردون النار، عن أبي علي، وهو على هذا توسع، وقيل: بئس الوقت الذي

(١) البيت لطرفة بن العبد، وتمامه:

فَمَالِي أَرَانِي وابْنَ عَمِّيَ مَالِكًا   مَتَى أَدْنُ مِنْهُ يَنْأَ عَنِّي وَيَبْعُدِ

يردون فيه النار، وقيل: الورد النصيب أي: بئس النصيب لهم المقسوم من النار، وقيل: يَرِدُون مشاة عطاشًا، فجعل وردهم النار يأسًا من الماء فيزدادون عطشًا «**وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً**» يعني أتبعهم الله وملائكته والمؤمنون بعد هلاكهم في الدنيا لعنة، ويلعنون يوم القيامة أيضًا، وقيل: أهل الدنيا تلعنهم في الدنيا، وأهل القيامة تلعنهم يوم القيامة «**بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ**» العطاء؛ يعني بئست العطية اللعنة، وبئست الخلعة النار، وقيل: الرفد المعونة أي: أن فرعون أعانهم على الباطل، وبئس العون إذا كانت معونة تفضي إلى النار، وقيل: بئس المعونة له بأن أدخلهم النار، وقيل: اللعن في الدنيا الغرق، وفي الآخرة النار.

۞ الأحكام

تدل الآية على أن الداعي إلى الضلال يقدم من اتبعه حتى يوردهم النار، فيكون فيه زجر عن ذلك، وهكذا أئمة البدع خلاف أئمة الهدى، فإنه يقدم قومه حتى يوردهم الجنة.

وتدل على أن الضال يلعن في الدنيا والآخرة.

وتدل على أن ذلك الاتباع فعلهم، وأن الإضلال فعله، خلاف ما يقوله أهل الجبر: أن الإضلال فِعْلُ الله، والاتباع خَلْقُهُ.

قوله تعالى:

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾﴾

۞ القراءة

قرأ يعقوب: «وما يؤخره» بالياء، ترجع الكناية على اسم الله تعالى، وقد تقدم في قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ﴾، وقرأ الباقون بالنون على الحكاية.

«يوم يأت» بحذف الياء ابن عامر، وعاصم، وحمزة، والباقون بإثبات الياء[1]، فالإثبات على الأصل، والحذف على التخفيف، والاجتزاء بالكسرة، والعرب تَجْتَزِئ بالكسرة عن الياء، وبالضمة عن الواو اتباعًا للمصحف، وكلهم قرأوا بحذف الياء في الأصل إلا ابن كثير، فإنه يُثْبِتُ في الحالين.

قراءة العامة: «إذا أخذ» بألف [بعد الذال]، وعن بعضهم بغير ألف، على الماضي.

۞ اللغة

الحصيد: المحصود، «فَعِيل» بمعنى «مفعول»، وهو قطع الزرع من الأصل، يقال: حصدت الزرع وغيره حصيدًا، وحصدهم بالسيف: إذا قتلهم، وهذا من الحصاد بكسر الحاء وفتحها.

والتَّباب: الخسران، والتتبيب: التخسير، تبًّا لفلان أي: هلاكًا له، ومنه: ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ﴾ [المسد: ١] أي: خسرت، قال جرير:

عَرَادَةُ مِنْ بَقِيَّةِ قَوْمِ لُوطٍ ... أَلاَ تَبًّا لِمَا فَعَلُوا تَبَابَا[2]

والأجل: الوقت المضروب لوقوع أمر.

والشَّقَاء: قوة أسباب البلاء، رجل شَقِيٌّ بَيِّنُ الشَّقْوَة والشِّقْوة والشَّقاوَة، والمشاقاة: المعاناة والممارسة؛ لأنه يشقى بالشيء.

والسعادة: قوة أسباب النعمة، والسعد: اليُمْن، يقال: سعد سعادة، وشقي شقاوة.

---

(١) حجة القراءات ٣٤٨.

(٢) انظره في: اللسان (عرد).

۞ الإعراب

«**ذلك**» إشارة إلى النبأ، تقديره: ذلك النبأ من أنباء القرى، وقيل: بل إشارة إلى الوحي، أي: ما أوحينا إليك.

والكاف في قوله: «**وكذلك أخذ ربك**» كاف التشبيه يعني أخذه لهؤلاء كأخذه لأولئك.

والضمير في قوله: «**نؤخره**» و«**يوم يأتي**» عن يوم الجزاء[1] الذي تقدم في قوله: ﴿يَوۡمٞ مَّشۡهُودٞ﴾ ، وقيل: يعود إلى العذاب في قوله: «**عذاب الآخرة**».

۞ المعنى

لما تقدم نبأ الأنبياء وَعَظَ المخاطبين بأتم موعظة ترغيبًا وترهيبًا، فقال سبحانه: «**ذَلِكَ**» أي: ما تقدم ذكره من قصص الأنبياء والأمم «**مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَى**» أي: من أخبار البلاد «**نَقُصُّهُ عَلَيْكَ**» يا محمد «**مِنْهَا**» يعني من القرى «**قَائِمٌ**» على بنائه، لم يذهب أصلاً، وإن كان خاليًا من الأهل «**وَحَصِيدٌ**» قد خرب وذهب أصلاً، عن قتادة، والأصم، وأبي مسلم، وقيل: قائم له أثر «**وَحَصِيدٌ**» لا أثر له، عن مقاتل، وقيل: قائم: خاوية على عروشها، وحصيد مستأصل، وقيل: القائم القرى التي لم تهلك، والحصيد: التي أهلكت، عن ابن إسحاق، وأبي علي، قال الحسن: وما حصده الله أكثر «**وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ**» بإهلاكهم «**وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ**» حين كفروا وعصوا حتى استحقوا العذاب، فبخسوا حق أنفسهم «**فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ**» أي: ما كفاهم شيئًا، ولا دفع عنهم عذابًا. و(آلهتهم) يعني الأوثان «**الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ**» أي: يعبدونها، ويعبدون غيرها، ويدعونها إلهًا "**لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ**» قيل: عذاب ربك، وقيل: أمر ربك بإهلاكهم «**وَمَا زَادُوهُمْ**» قيل: ما زادت الأوثان من عبدها، وقيل: ما زادت الدعاة إلى عبادة الأوثان أتباعها «**غَيْرَ تَتْبِيبٍ**» قيل: غير خسار، والتباب: الهلاك، عن أبي مسلم، يعني: لَمْ[2] يزيدوهم شيئًا إلا الهلاك، وقيل: اعتقادهم جواز العبادة لغير

(١) والضمير في قوله... يوم الجزاء: +، ض.

(٢) لم: لما، في جميع النسخ.

الله كفر، وجهلهم بالله كفر، فإذا انضم إلى ذلك عبادة الصنم فقد انضم كفر إلى كفر، وأضاف الهلاك إلى الأصنام؛ لأنها السبب في ذلك «وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ» يعني: هكذا أخذ ربك[1] لهؤلاء كما أخذ القرى وهي ظالمة، وقيل: هكذا عادة الله في إهلاك القرى لا محاباة فيه، وقوله: «وَهِيَ ظَالِمَةٌ» أي: أهلها ظلمة «إِنَّ أَخْذَهُ» بالعذاب[2] «أليم»[3] موجع «شَدِيدٌ» لا راحة فيه «إِنَّ فِي ذَلِكَ» في أخذنا هؤلاء، وقيل: في هذا النبأ «لآيَةً» أي: علامة وبرهانًا وعبرة «لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الآخِرَةِ» وهم الذين يؤمنون بالآخرة، وخصهم بذلك؛ لأنه يتفكر فيه وينتفع به، دون الجاهل، وإلا فهو حجة للجميع، وقيل: إنهم يعلمون أنه لا يخلف وعده ووعيده «ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ» يعني يجمع فيه الخلق للجزاء «وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ» يشهده أهل السماء والأرض، وليس يوم بهذه الصفة إلا يوم القيامة، وقيل: يشهده المتقون، ويساق إليه المجرمون، وقيل: يشهدون ما وقع لهم من الجزاء، عن الأصم، وقيل: يشهده الملائكة والأنبياء للشهادة على الأمم «وَمَا نُؤَخِّرُهُ» يعني الجزاء والعذاب «إِلاَّ لأَجَلٍ مَعْدُودٍ» لوقت قد عد وضرب، وهو يوم القيامة.

ومتى قيل: لمن عددها؟

قلنا: إذا كتبها الله تعالى[4] في اللوح المحفوظ، وأطلع عليه ملائكته صار أجلاً معدودًا، وكتم عن الناس لطفًا لكيلا يَأمَنَ كل ساعة من كونه.

«يَوْمَ يَأْتِ» يعني الجزاء والقيامة «لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ» أي: لا تتكلم في ذلك اليوم إلا بأمره، فلا يتكلم أحد حتى يُؤْذَنَ له، وقيل: يمنعون من الكلام إلا بالحق، فإنه مأذون فيه، ولا يجوز أن يقع منهم القبيح، وهم ملجؤون إلى ذلك، عن أبي علي، وقيل: لا يتكلم بكلام ينفع من شفاعة ووسيلة إلا بإذنه، وقيل: لا يتكلم العاصي بل يختم على فمه، وقيل: هي مواقف لا يؤذن [فيها]، ومواقف يؤذن

(١) يعنى هكذا أخذ ربك: ـ، ض.
(٢) بالعذاب: العذاب، ض.
(٣) أليم: الأليم، ض.
(٤) تعالى: ـ، ض.

[فيها]، عن الحسن. «**فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ**» أي: من هذه النفس، وهو اسم للجنس شقي وسعيد، وقيل: من الناس وهو مذكور في قوله: «**مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ**» (شقي) أي: محروم خائب عن كل خير يشقى بسوء عمله، و(سعيد) ناج مفلح بحسن عمله، عن الأصم، وأبي مسلم، وقيل: فمنهم من يصير إلى الجنة فقد سعد، ومنهم من يصير إلى النار فقد شقي، عن أبي علي.

۞ الأحكام

تدل الآية على أن من قصص الأنبياء لطف لنا، وأن فيه حثًا على الطاعة، واحتمال المكاره، وترك سلوك طريقة تلك الأمم.

ويدل قوله: «**قائم وحصيد**» على عبرة عظيمة؛ لأن الإنسان إذا تفكر فيما تكلفه أولئك من الأبنية الشداد، وأنفقوا فيها من الأموال، ثم هلكوا، وخربت اعتبر به، ولم يسلك طريقتهم.

ويدل قوله: «**وما ظلمناهم**» أنه منزه عن الظلم.

ويدل قوله: «**ولكن ظلموا**» أن للعبد فعلاً يستحق به اسم ظالم، فيبطل قول مخالفينا في المخلوق.

وتدل على أن العذاب يُسْتَحَقُّ على فعله، فتدل على أنه جزاء للأعمال.

ويدل قوله: «**يوم مجموع**» على المعاد وجمع الخلائق.

ويدل «**وما نؤخره**» أنه لا يقدم العذاب، ويؤخره للمصلحة.

وتدل على أن المكلفين فريقان شقي وسعيد، وأجمع أصحابنا أن الشقي إنما يشقى بعمله، والسعيد إنما يسعد بعمله.

ومتى قيل: أليس في الخبر: «الشقي من شقي في بطن أمه، والسعيد من سعد في بطن أمه»، وأنه لما نزلت هذه الآية سأل عمر رسول الله ﷺ، فقال: عَلَامَ نعمل؟ على شيء قد فرغ منه؟ أو على شيء لم يفرغ منه؟ فقال لي: «على شيء فرغ منه» الخبر إلى آخره، ثم قال: «إن الله خلق بعضهم شقيًا وبعضهم سعيدًا»؟

قلنا: هذا خبر واحد فلا يترك له أدلة العقل، وظاهر القرآن على أنه إذا صح فمعناه أي: من كان شقيًا، فالله يعلم أنه شقي، وهو في بطن أمه يعلم أنه يعصي، فيشقى، ويعلم أنه يطيع، فيسعد، وأما إن حمل على أنه في تلك الحال يشقي من غير ذنب، فلا يصح؛ لأنه لا ذنب له، ولأنه كان يجوز أن يلعن ويذم، كما في حال كفره، وما روي في خبر عمر: «كل ميسر لما خلق له»[1]، دليل على ما نقول؛ لأنه خلق للطاعة، وهو ميسر لذلك، يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦] وقوله ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة»[2].

قوله تعالى:

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ۖ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾﴾

۞ القراءة

قرأ حمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم: «سُعِدُوا» بضم السين، وقرأ الباقون بفتحها اعتبارًا بقوله: «شقوا» وإنما جاز ضم السين؛ لأنه على حذف الزيادة من أسعدوا؛ إذ هو لا يتعدى، ومثله في حذف الزيادة محبوب ومجبوب، وإنما الفعل أحبه وأَجَبَّهُ، وسعد وأسعد بمعنى.

۞ اللغة

الزفير: ترديد النفس مع الصوت مع الحزن حتى تنتفخ الضلوع، وأصله: الشدة، من قولهم مزفور: شديد الخلق، والزَّفْرُ: الحمل على الظهر خاصة لشدته، والجمع: أزفار، والزفر: الشد، وزَفَرَت النار: إذا سمع لها صوت في شدة توقدها، والزوافر:

---

(١) البخاري رقم ٤٦٦٦، ومسلم رقم ٢٦٤٧.

(٢) الموطأ رقم ٥٧١، والبخاري رقم ١٢٩٢، ومسلم رقم ٢٦٥٨.

الإماء اللواتي[1] يحملن القِرَبَ، وقيل: الزفير الشهيق؛ لأن الشهيق رَدُّ النفس، والزفير إخراج النَّفَسِ، وقيل: الشهيق: صوت فظيع يخرج من الجوف بمد النفس، عن علي بن عيسى، وأصله: الطول المفرط في قولهم: جبل شاهق: أي: ممتنع طولاً، ورجل شاهق: إذا اشتد غضبه، كأنه يمنع بها، وقيل: الزفير: أول نهاق الحمير، والشهيق: آخر نهاقها، قال ابن عرفة: والزفير من الصدر، والشهيق من الحلق، والزفير: أصوات المكروبين، زَفَرَ يَزْفِرُ، نحو ضَرَبَ يَضْرِبُ.

والجَذُّ: القطع، والمجذوذ: المقطوع، وجَذَّهُ: قطعه، ومنه: الحديث (أنه كان يأكل جَذِيذَة قبل أن يغدو في حاجته) أراد: شربة من سويق، سميت جذيذة؛ لأنها تجذ.

۞ الإعراب

(ما) في قوله: «**ما دامت السموات**» (ما) المصدر بتقدير: يدوم كدوام السموات والأرض.

و(**عطاء**) نصب على المصدر، أي: أعطاهم عطاء، فهو حال.

و(**خالدين**) نصب على الحال.

۞ المعنى

لما تقدم ذكر القيامة، وأن منهم شقي وسعيد، بيّن حال كل واحد، فقال سبحانه: «**فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا**» باستحقاق العذاب جزاء على أعمالهم «**فَفِي النَّارِ**» أي: يدخلون في النار «**لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ**» قيل: الزفير: الصوت الشديد، والشهيق: الصوت الضعيف، عن ابن عباس، وقيل: الزفير أول نهاق الحمار، والشهيق: آخره حين يفرغ من صوته يردده في جوفه، عن مقاتل والضحاك. قال قتادة: صوت الكافر في النار صوت الحمار أوله زفير، وآخره شهيق، وقيل: الزفير في الحلق، والشهيق في الصدر، عن أبي العالية، وقيل: هو أصواته بالويل والثبور، وقيل: هو البكاء

(١) اللواتي: التي، ض.

الدائم من عظم ما هم فيه، ذكره القاضي. «**خَالِدِينَ فِيهَا**» مقيمين دائمين «**مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ**» يفعل ما يريد لا يمنعه مانع، وقيل: يفعل ما يريد لا تبدو له البدوات؛ لأنه عالم بالأشياء «**وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا**» أي: يكونون في الجنة دائمين «**ما دامَتِ السَّمواتُ والأرضُ إلاّ مَا شاءَ رَبُّكَ عَطاءً غَيْرَ مَجْذوذٍ**» أي: غير مقطوع، عن ابن عباس، ومجاهد، والضحاك.

ومتى قيل: ما معنى قوله: ﴿مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ ومعنى قوله: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ وقد أجمعوا أن الثواب والعقاب دائمان؟.

قلنا: أما الأول فقد اختلف العلماء فيه على قولين:

الأول: المراد بالسموات والأرض هن هذه السموات والأرض بعينها.

والثاني: أن المراد ليس السماء والأرض بعينها، وإنما المراد التبعيد.

فأما من قال بالأول اختلفوا، فقيل: ما دامت سماء الآخرة وأرضها، وهي لا تفنى، عن الضحاك، والأصم، وأبي علي. وقيل: هو سماء الجنة والنار وأرضها، وكل ما علاك فهو سماء، وما استقر عليه قدمك فهو أرض، وقيل: أراد ما دامت الآخرة كدوام السماء والأرض في الدنيا، قدر مدة بقائها، عن الحسن، وقيل: ما دامت الأرض أرضًا، والسماء سماء، عن أبي علي.

فأما من قال: هو للتبعيد قال: للعرب ألفاظ في معنى التأبيد والتبعيد، كقوله: ما جئت البيت[1]، وأطل الليل، وأورق الشجر، وجن ليل، وسال سيل، وما اختلف الليل والنهار، وما سمر سامر، وحتى يبيض القار، ويشيب الغراب، وما طرق طارق، وما ذَرَّ شَارِقٌ، ولاح كوكب ونحوها، وكل ذلك يريدون به التبعيد، لا التوقيت والشرط، فخاطبهم بالمتعارف من كلامهم، قال الشاعر:

إذا شَابَ الغُرَابُ أَتَيْتُ أَهْلِي وَصَارَ القَارُ كَاللَّبَنِ الحَلِيبِ[2]

(١) ما جئت البيت: ما جنت النيب، ض.

(٢) انظره في: روضة العقلاء ١٥٨.

وقال آخر:

إِذا مَـا الـقَـارِظُ الـعَـنْـزِيُّ آبَـا[1]

قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠].

فأما قوله: «إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ» فقد اختلف العلماء في مقدار المستثنى، والمستثنى عنه على أقوال:

أولها: إلا ما شاء ربك في مقدار موقفهم على رأس قبورهم والمحاسبة[2]، فإنهم في ذلك الوقت ليسوا في الجنة، ولا في النار، عن الأصم، وأبي علي.

وثانيها: إلا ما شاء ربك مدة بقائهم في الدنيا.

وثالثها: الاستثناء يرجع إلى الزفير والشهيق، أي: لهم ذلك إلا ما شاء ربك من الأنواع الأخر.

ورابعها: أن الاستثناء يرجع إلى كونهم في النار تقديره: إلا ما شاء ربك، فيخرجهم من النار والحميم إلى الزمهرير، ففي ذلك الوقت لا يكونون في النار.

وخامسها: أن الاستثناء يرجع إلى الخلود، و(إلا) بمعنى (سوى)، كقولك: ما كان معي رجل إلا زيد، يعني سوى زيد، تقديره: خالدين فيها ما دامت السموات والأرض سوى ما شاء ربك من الخلود، وسوى ما شاء ربك من الزيادة، عن أبي مسلم، وهي المدة التي لا تتناهى.

وسادسها: أنه استثناء من الإخراج، وهو لا يريد إخراجهم، كقولك: أردت أن أفعل كذا إلا أن أشاء غيره، فالمعنى لو شاء أن يخرجهم لأخرجهم، ولكنه حكم أنهم خالدون فيها، قال الحسن: قد شاء الله تخليدهم؛ لأنه حمله على طريق التأكيد.

(١) البيت لبشر بن أبي خازم وصدره:

فَـرَجِّـي الـخَـيْـرَ وانْـتَـظِـرِي إِيـابِـي

انظره في: العين (قرظ)

(٢) والمحاسبة: وللمحاسبة، ش.

وسابعها: أن الاستثناء وقع على الزيادة، يعني إلا ما شاء ربك من زيادة النعيم لأهل الجنة، وزيادة العذاب لأهل النار، حكاه الزجاج[1].

وثامنها: (إلا) بمعنى الواو، وذلك شائع في اللغة، قال تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ [البقرة: ١٥٠] أي: ولا الذين ظلموا، يعني وقد شاء ربك خلود هؤلاء في الجنة، وخلود هؤلاء في النار، وكل هذه التأويلات على مذهب من يحمل الآيتين على الخلود.

فأما من قال: المراد بأهل الجنة الخلود وبأهل النار غيره، فقد اختلفوا، فقيل: إلا ما شاء ربك أن يخرج أهل التوحيد منها. روي ذلك عن ابن عباس وقتادة، وقيل: معناه: أن ذلك جزاؤهم إلا ما شاء ربك أن يتجاوز عنهم، فلا يدخلهم النار، وفي وصف السعيد إلا ما شاء ربك أن يدخلهم الجنة، عن أبي مجلز.

وقال ابن زيد: أخبرنا بالذي يشاء لأهل الجنة فقال: ﴿عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ ولم يخبرنا بالذي يشاء لأهل النار. وعن الضحاك: إلا ما مكثوا في النار حتى أدخلوا، فهذا لا يصح؛ لأن الآية في الفريقين على وجه واحد، فإذا أوجب الدوام في أحدهما، فكذلك في الأخرى، واختلفوا، فقيل: هذا الاستثناء منقطع، وأكثر ما يكون ذلك كقوله: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ [البقرة: ٣٤] معناه: لكن ما شاء الله من الزيادة.

۞ الأحكام

يدل قوله: «**شقوا**» و«**سعدوا**» أن الشقاوة والسعادة فعله؛ لذلك أضافه إليه، فيبطل قول من يقول: إنه شقي قبل أن يولد.

وتدل على أن كل شقي في النار وإن كان فاسقًا، بخلاف قول المرجئة.

ويدل قوله: «**عطاء غير مجذوذ**» على دوام الجنة، خلاف قول جهم، والآيتان تدلان على الخلود، ولو كان في أحدهما زيادة تأكيد، وهو قوله: «**عطاء غير مجذوذ**».

(١) معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٣/ ٧٩.

فأما حمل الآيتين على قطع الخلود - كما تزعمه الجهمية في فناء الجنة والنار- فباطل بالإجماع، ومما علم من دين الرسول ضرورة أن أهل الجنة يخلدون، وأن الكفار يخلدون، وإنما الخلاف في الفساق.

وقال وكيع بن الجراح: كفرت الجهمية بأربع آيات من كتاب الله تعالى: ﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾﴾ [الواقعة: ٣٣] وقالوا: تقطع وتمنع.

والثاني: قوله: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ﴾ [الرعد: ٣٥] وقالو: لا يدوم.

والثالث: قال تعالى: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦] وقالوا: لا يبقى.

والرابع: قوله تعالى: «**عطاء غير مجذوذ**» ولا شبهة في كفرهم؛ لأنهم ردوا ما عُلِمَ من دين الرسول ضرورة، وما نطق به القرآن.

قوله تعالى:

﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ ۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾﴾

القراءة

اختلف القراء في «**وإن كلا لما**»[1] قرأ ابن كثير ونافع بتخفيف (إنْ)، وتخفيف (لَمَا)، وقرأ أبو جعفر وابن عامر وحفص عن عاصم بتشديد (إنَّ) وتشديد (لَمَّا)، وقرأ أبو عمرو والكسائي ويعقوب وخلف بتشديد (إنَّ) وتخفيف (لَمَا)، وقرأ أبو بكر عن عاصم بتخفيف (إنْ) وتشديد (لَمَّا)، وقرأ الزهري: (لَـمًّا) بالتنوين والتشديد.

أما وجه قراءة نافع وابن كثير: فإن المراد به (إن) الثقيلة خففت، و(ما) صلة وزائدة (إن كلاً ليوفينهم).

---

(١) حجة القراءات ٣٥٠.

وأما وجه قراءة ابن عامر وحمزة بـ(إن) الثقيلة فبقي على الأصل، ولما يعني «لمن ما» فاجتمعت ثلاث ميمات، فحذفت واحدة وأدغمت الأولى في الثانية، قال الشاعر:

وَإِنِّـي لَـمِـمَّـا أُصْـدِرُ الأَمْـرَ وَجْـهَـهُ إِذَا هُـوَ أَعْـيَـا بِـالـسَّـبِـيـلِ مَـصَـادِرُهْ[1]

عن الفراء.

وقيل: أراد (كُلاً لما) بالتنوين، كما قرأهن[2] الزهري، بمعنى شديدًا وجميعًا، كقوله: ﴿أَكْلًا لَّمًّا﴾ [الفجر: ١٩] من لممت الشيء أَلُمُّهُ: إذا جمعته، إلا أنها بنيت على «فَعْلَى» فلم تنصرف نحو: «نبزى»، عن الزجاج[3]، وقيل: (لما) بمنزلة إلا ليوفينهم، وهو اختيار الزجاج[4]، وقيل: إنها المخففة، فشددت للتأكيد، عن المازني.

فأما وجه قراءة أبي عمرو والكسائي: جعلوا (ما) صلة، و(إن) مشددة للتأكيد وتقديره: وإن كُلاً ليوفينهم.

فأما وجه قراءة أبي بكر عن عاصم: فأراد (إن) الثقيلة فخففت، وقيل: جعل (إن) بمعنى (ما) الجحد، و(لما) بمعنى إلا، وتقديره: وما كل إلا ليوفينهم. ونصب (كُلاً) بإيقاع التوفية عليه أي: ليوفين كُلاً.

اللغة

التَّوْفِيَةُ: إكمال العطية وإتمامها، عن أبي مسلم.

والمِرْيَةُ: الشك مع ظهور الدلالة للتهمة، مأخوذ من مَرْيِ الضرع لِيُدِرَّ[5] بعد دروره.

---

(١) انظره في: الطبري ٧/ ١١٧، وانظره في: معاني القرآن للفراء ٢/ ١٧٩.

(٢) قرأهن: قرأها، ش.

(٣) معاني القرآن، وإعرابه للزجاج٣/ ٨١، ٨٢.

(٤) معاني القرآن، وإعرابه للزجاج٣/ ٨١، ٨٢.

(٥) ليدرَّ: ليرد، ض.

والنصيب: الحظ، وهو القسم المجعول له، يقال: هذا نصيبك من الإرث. ومنه: أنصباء الورثة.

والكلمة واحد الكلم. والاختلاف: ذهاب كل واحد إلى جهة غير جهة الآخر.

۞ الإعراب

«**كُلاًّ**» قيل: نصب لأنه اسم (إن)، ومن خفف (إن) حذفوا التشديد، وتركوا العمل على حاله، كقولهم: لم يك زيد قائمًا، فحذف النون ولم يتغير العمل، وقيل: نصب لوقوع التوفية عليه.

فأما[1] (اللام) في قوله: «**لما**» قيل: لام القسم دخلت على (ما) التي للتوكيد، وقيل: لام الابتداء دخلت على (ما) بمعنى (الذي).

فأما (اللام) في «**ليوفينهم**» فلام القسم، والفرق بينهما أن لام القسم تدخل على الماضي والمستقبل، ولام الابتداء لا تدخل إلا في المستقبل، وتصاحب[2] النون الثقيلة، فلا تفارقها، عن أبي مسلم.

ويقال: (كل) هو معرفة؟

قلنا: نعم؛ لأنه إنما يحذف منها ما قد عرف، والمعنى: وإن كل المكلفين ليوفينهم.

۞ النظم

يقال: كيف تتصل الآية بما قبلها؟

قلنا: فيه وجوه:

قيل: لما قص نبأ الأمم، وأنه أهلكهم بكفرهم وعبادة غير الله، اتصل به «**فلا تك في مرية**» في بطلان ما كانوا عليه، وإنا لنوفينهم جزاء أعمالهم.

---

(١) فأمّا: : وأما، ض.

(٢) وتصاحب: ولصاحب، ض.

وقيل: هو تسلية للنبي ﷺ أي: لا يحزنك تكذيبهم إياك فإنا نفعل بهم ما فعلنا بالأمم من قبلهم من توفية الجزاء.

وقيل: بَيَّنَ مِنْ قَبْلُ اختلاف الأمم على أنبيائهم تكذيبًا لهم، ثم بيّن في هذه الآية أن خلاف هؤلاء كخلاف أولئك خِلافُ كُفْرٍ، لا خلاف اجتهاد، عن أبي مسلم.

ويقال: كيف اتصل قوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ ؟

قلنا: اتصال التنبيه بالحال الذي بُيِّنَ، تقديره: كَذَّبَ هؤلاء بالكتاب الذي آتيناك كتكذيب أولئك بالكتاب الذي آتينا موسى.

۞ المعنى

«**فَلا تَكُ**» قيل: الخطاب للنبي ﷺ ، والمراد هو ومن آمن به، عن أبي علي، وهم جماعة المكلفين، كأنه قيل: فلا تك أيها الإنسان أو أيها السامع «**فِي مِرْيَةٍ**» في شك «**مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلاءِ**» أي: إنما يعبد هؤلاء كفر وضلال، وهو عبادة الوثن، وقيل: لا تكن في شك أنها ليست بآلهة، عن أبي علي «**مَا يَعْبُدُونَ إلاَّ كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ**» أي: على طريق التقليد؛ لأن القليل يعتقد لشبهة، والأكثر يعتقدون تقليدًا «**مِنْ قَبْلُ**» أي: من قبل أن أوحي إليك «**وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ**» لمتممون لهم «**نَصِيبَهُمْ**» حظهم «**غَيْرَ مَنْقُوصٍ**» أي: من غير نقصان، بل يصل إليهم ما استحقوه، وقيل: نصيبهم من العقاب من غير نقص على جهة العقوبة، بعدما حكمنا بذلك، وقيل: من خير أو شر، عن ابن عباس، وقيل: من العذاب، عن ابن زيد، وقيل: إن عذاب الاستئصال يقتضي نقصان عذاب الآخرة، فأخبر أنه متى لم يعاقبهم في الدنيا وَفَّرَ عذابهم في الآخرة من غير نقصان، وليس بالوجه، وقيل: نصيبهم من الرزق، وقيل: نصيبهم من العمر وإن عبدوا غيرنا «**وَلَقَدْ آتَيْنَا**» أعطينا «**مُوسَى الْكِتَابَ**» يعني التوراة «**فَاخْتُلِفَ فِيهِ**» يعني اختلف فيه قوم موسى، فَمِنْ مُصَدِّقٍ، ومن مكذب، عن أبي علي، كما فعل قومك بالقرآن بعدهم، تنبيها وتسلية [للرسول]، وقيل: ذكر الخلاف، ولم يبين كيفية الخلاف، والخلاف يكون على وجهين، فقد يكون كلاهما باطلا، كاختلاف اليهود والنصارى في المسيح، فتوجه الذم عليهما، وخلاف بين مبطل ومحق، كاختلاف

المسلم مع اليهود، فيتوجه الذم على المبطل، وقيل: اختلف علماؤهم في تأويله، عن الأصم. «**وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ**» يعني لولا أنه خبر الله ووعده السابق بأنه يؤخر الجزاء إلى يوم القيامة لِمَا فيه من المصلحة لعجل الثواب والعقاب لأهله، وقيل: لولا أنه أوحي في الكتب أنه سيرسل إليهم رسولاً يبين لهم ما يتقون لقضي بينهم، عن الأصم. وقيل: لولا كلمة سبقت من ربك في إبقائهم للمصلحة في التأخير لقضي بإرسال العذاب، عن أبي علي، وقيل: لولا كلمة سبقت من ربك في الآجال والأرزاق، عن الأصم «**لَقُضِيَ**» أي: انفصل الأمر على التمام «**بَيْنَهُمْ**» بين المؤمنين والكافرين بنجاة المؤمنين، وهلاك الكافرين، وقيل: لقضي بينهم أي: لفرغ من عذاب الكافرين وهلاكهم «**وَإِنَّهُمْ**» يعني قوم موسى «**لَفِي شَكٍّ مِنْهُ**» أي: من كتابهم، وقيل: من نبوة موسى، وقيل: في شك من الوعيد «**مُرِيبٍ**» والريب الشك مع تهمة «**وَإِنَّ كُلاً**» قيل: من الجاحدين والمخالفين، وقيل: الذين قصصنا عليك نبأهم، وقيل: من المختلفين المذكورين في قوله: «**فاختلفوا**»، عن أبي علي. «**لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ**» أي: يعطيهم ربك جزاء أعمالهم وافيًا تامًا على الصغير والكبير والخير والشر «**إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ**» عليم بأعمالكم، يجازيكم عليها؛ إذ لا يجوز الجزاء ممن ليس بعالم بالذنب، ومقدار الاستحقاق.

الأحكام

تدل الآية على قبح الشك في الدين.

وتدل على أن الشك فعل العبد، وكذلك عبادة غير الله، فيبطل قول المجبرة في المخلوق.

وتدل على أن القوم سلكوا طريقة التقليد، وأن التقليد في الدين باطل، وليس بطريق للعلم.

وتدل على أن المعارف مكتسبة؛ لذلك صح قوله: «**وإنهم لفي شك**».

وتدل على أنه تعالى يوفر جزاء أعمالهم، وأن الثواب والعقاب يُسْتَحَقَّان على الأعمال، خلاف ما يقوله أهلُ الجبر.

وتدل على أنه تعالى يؤخر العقاب لما يعلم من المصلحة.

قوله تعالى:

﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾﴾

القراءة

قراءة العامة: «زُلَفًا» بضم الزأي، وفتح اللام، وقرأ أبو جعفر بضم الزاي واللام، وقرأ ابن محيصن بضم الزاي وجزم اللام، وقرأ مجاهد: «زَلْفَى» مثل: (قُرْبَى)[1] وكلها لغات.

اللغة

الاستقامة: الاستمرار في جهة واحدة، وهو استفعال من قام يقوم، وأصله الواو، واستقام يستقيم استقامة، ويقال: أقام واستقام، كما يقال: أجاب واستجاب.

والطغيان: تجاوز الحد في العصيان والفساد، فالطاغي اسم ذم كالباغي، وطغى الماء والسيل إذا جاوز الحد تشبيهًا بحال الطاغي، وطغى البحر: هاجت أمواجه، وطغى الدم: تَبَيَّغَ[2]، والطغيان والطُّغْوَان لغتان، والفعل: طغيت وطَغَوْتُ، حكاهما الخليل.

والركون: السكون إلى الشيء محبة له، ركنت إليه أركن، قال الخليل: رَكِنَ بكسر الكاف يَرْكَنُ بفتح الكاف ركنا، قال: ولغة سُفْلَى مضر: رَكَنَ يَرْكَن، وهي شاذة.

والزُّلَفَى أصله: القرب في المنزلة، وجمعها: زلف، ومنه: المزدلفة منزل في

---

(١) قال القرطبي: «وقرأ مجاهد وابن محيصن أيضاً: (زُلْفى)؛ مثل: (قربى)، القرطبي ٩/ ١١٠ ت: ابن العم الطفيش، دار الكتب المصرية. القاهرة. ط٢ ١٩٦٤م.
وانظر تفسير الثعلبي ٥/ ١٩٣. ت: أبو محمد بن عاشور، نشر: دار إحياء التراث العربي. بيروت ط١، ٢٠٠٢م.
والبحر المحيط ٦/ ٢٢٣. لأبي حيان. ت: صدقي جميل. دار الفكر ـ بيروت. ط١٤٢٠هـ.

(٢) تتبيَّغ: ثبيغ، ض.

الحج بعد عرفة، ومنه: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ﴾ [الشعراء: ٩٠]. قال أبومسلم: الزلف: الساعات والأوقات أيضًا؛ لأنه يقرب إلى الوقت، ساعة بعد ساعة.

۞ الإعراب

التاء من (أمرت) في محل الرفع؛ لأنه فعل ما لم يسم فاعله. «**ومن تاب**» معطوف عليه.

«**زلفا**» نصب على الظرف؛ لأنه يريد في ذلك الوقت.

۞ النزول

عن ابن عباس: ما نزلت آية كانت أشق على رسول الله ﷺ من هذه الآية: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ ، وقال: «شيبتني هود وأخواتها»[(١)].

وقوله: «**أقم الصلاة**» قيل: نزلت في رجل من الأنصار، كان يبيع التمر، فأتته امرأة تبتاع التمر، فقال: هذا ليس بجيد، وفي البيت أجود منه، وذهب بها إلى بيته، ثم ضمها إلى نفسه، فقالت: اتق الله، فتركها وندم على ذلك، وأتى النبي ﷺ ، فأخبره بما فعل، فلم يَرُدَّ عليه، وقال: «أنتظر أمر وحي»، وحضرت صلاة العصر، فصلى رسول الله ـ صلى عليه وآله ـ، فلما فرغ قال: «أين السائل»؟ فقال: هاأنذا، فقال: «أشهدت معنا هذه الصلاة»؟ قال: نعم، قال: «اذهب فإنها كفارات لما عملت»، فنزلت الآية، قال عمر: هذا له خاصة أم لنا عامة؟ فقال: «بل للناس عامة»[(٢)].

۞ النظم

قيل: لما تقدم نبأ الأمم، وتكذيبهم الأنبياء، قال تثبيتًا للنبي ﷺ «**فاستقم**» على أداء الرسالة وإقامة أمر الله، عن أبي مسلم.

وقيل: لما ذكر تكذيب قومه له، بيّن أن الله تعالى يكفيه أعداءه، فاشتغل بما أمرت، واستقم عليه، وبين الاستقامة من بعد، ذكره شيخنا أبو حامد.

---

(١) الترمذي رقم ٣٢٩٧، والمستدرك رقم ٣٣١٤، والمعجم الكبير رقم ٧٩٠.

(٢) سنن النسائي الكبرى رقم ١١٢٤٨، وابن حبان رقم ١٧٢٩، وابن خزيمة رقم ٣١٢.

المعنى

«فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ» أي: استقم يا محمد على أمر ربك، والعمل به، والدعاء إليه كما أمرت. والاستقامة: هو أداء ما أمر به والانتهاء عما نهي عنه، وقيل: استقم على القرآن، عن عائشة، والثوري، وقيل: الخطاب له والمراد أُمَّتُهُ، عن السدي. «وَمَنْ تَابَ مَعَكَ» أي: رجع معك إلى طاعة الله، يعني واستقم أنت والمؤمنون، وقيل: استقم أنت على الأداء، واستقيموا على القبول «وَلا تَطْغَوْا» قيل: لا تجاوزوا أمر الله بالزيادة والنقصان، فتخرجوا عن حد الاستقامة، عن أبي علي، وقيل: لا تعصوا الله ولا[1] تخالفوه، عن ابن زيد. «إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ» أي: عليم بأعمالكم، لا يخفى عليه شيء فيجازيكم به «وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا» قيل: لا تميلوا إلى الظلمة في شيء من دينكم، عن ابن عباس، والأصم. وقيل: لا ترضوا بأعمالهم، عن أبي العالية، تلحقوا بالمشركين، عن قتادة، وقيل: لا تداهنوا الظلمة، عن السدي، وابن زيد. وقيل: الركون المنهي عنه الدخول معهم في ظلمهم، أو إظهار الرضا بفعلهم، أو إظهار موالاتهم، فأما إذا دخل عليهم أو خالطهم لدفع شرهم أو لحسن معاشرتهم فيجوز، عن القاضي، وقيل: الركون إليه أن يصير عونًا له «فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ» أي: يصيبكم العذاب والنار «وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ» أي: لا يكون لكم سواه أعوان تمنعكم من عذابه، وقيل: إن ركنتم إليهم يَكِلُكُم الله تعالى إلى حولهم وقوتهم «ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ» أي: لا تنصرون في الدنيا على الكافرين والظالمين إذا ركنتم إليهم؛ لأنكم لا تستحقون النصر، عن أبي علي، وقيل: لا تغنيكم شفاعته، قيل: لا حول يمنع ولا أمر يدفع، عن أبي مسلم «وَأَقِمِ الصَّلاةَ" أَدِّها بتمامها «طَرَفَيِ النَّهَارِ» قيل: صلاة الغداة والمغرب، عن ابن عباس، والحسن، وابن زيد، وأبي علي. وقيل: صلاة الفجر وصلاة العشاء، عن مجاهد. وقيل: صلاة الفجر والظهر والعصر، عن محمد بن كعب القرظي. وقيل: صلاة الفجر والعصر، عن الضحاك. وقيل: صلاة الفجر والظهر، عن مقاتل. «وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ» أي: قريبًا من طرفي النهار، قيل: العشاء الآخرة، عن ابن عباس، ومجاهد، وابن زيد. وقيل: المغرب والعشاء، وقيل: طرفي

---

(١) ولا: لا، ض.

النهار الفجر والظهر والعصر، «**وزلفا من الليل**» المغرب والعشاء، عن الأصم؛ لأن الظهر تبع للطرف الأخير؛ لأنه بعد الزوال، وزلفا قريبًا من طرفي النهار «**إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ**» قيل: الحسنات الصلوات الخمس يكفرن الخطايا، والسيئات الصغائر؛ لأنه عرف الحسنات بالألف واللام، وقد تقدم ذكر الصلاة فانصرف إليه، وهذا قول أكثر المفسرين. وقيل: الحسنات قول العبد: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر. عن مجاهد. وقيل: الحسنات التوبة تزيل المعاصي، وقيل: الطاعات يكفرن السيئات، وتكفيرها وجهان:

أحدهما: أن تكون طاعاته أعظم ثوابًا من عقاب سيئاته، فكانت سيئاته الصغيرة.

والثاني: التوبة تكفر الكبائر، وأراد تعالى الوجهين، عن أبي علي.

وقيل: الحسنات أفعال الخير كله، وهو فعل النبي والمؤمنين.

«**يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ**» يُزِلْنَ السيئات[1]، وهي أفعال الشر كله، وهو فعل المشركين، ومعنى (يذهبن): يزلن، فتبقى الحسنات، وتذهب السيئات، وهي بشارة للنبي ﷺ بأنه يغلب المشركين، ويظهر دينه على أديانهم حتى يكون الخير غالبًا، ونظيره قوله تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ﴾ [الأنبياء: ١٨]، عن أبي مسلم. «**ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ**» فيثبتون على الدين، عن أبي مسلم. قيل: (ذلك) يعني القرآن (ذكرى)، وقيل: إقامة الصلاة بذكره ذنوبه فيتوب عنه، وتدعوه إلى مجانبة القبيح كقوله: ﴿إِنَّ الصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، عن الأصم، وقيل: ذلك الوعد ذكرى «**وَاصْبِرْ**» قيل: على تبليغ الرسالة، وأداء الحقوق، وقيل: على أذى الكفار «**فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ**» أي: لا يبطل إحسانهم بل يوفر عليهم جزاءه. وقيل: المصلين، عن ابن عباس.

۞ الأحكام

تدل الآية على وجوب الاستقامة في الدين، والاستقامة أداء الواجبات، واجتناب المحرمات.

---

(١) يزلن السيئات: ـ ، ض.

وتدل على أن التوبة عما سلف لا تصح إلا مع التمسك بأداء الواجبات فيما يستقبل.

وتدل على قبح الركون إلى كل ظالم، وهذا الركون ينقسم، فمنه: الميل إليهم، ومنه: الرضاء بطريقتهم، ومنه: معاونتهم، ومنه: موالاتهم، فأما مخالطتهم لدفع الشر، أو حسن معاشرتهم والرفق في القول فذلك غير منهي عنه، وقد ندب الله تعالى باللين والرفق في مخاطبة الكفار، فالظَّلَمَةُ أولى.

وتدل على أن من ركن إلى الظالم تمسه النار، ولا ناصر له، فيبطل قول المرجئة في الشفاعة.

ويدل قوله: «**أقم الصلاة**» على وجوب الصلاة بهذه الأوقات.

وتدل على المواقيت في الجملة، وقد بين رسول الله صلى الله عليه وآله تفصيل ذلك.

ويدل قوله: «**إن الحسنات**» على أن في الطاعة ما يزيل المعصية، والأصح ما حكيناه عن أبي علي رحمه الله، ولا تصح دعوى العموم فيه؛ لأنا نعلم أن كثيرًا من الحسنات تقع من الكفار ولا تُكَفِّرُ معاصيهم.

ويدل قوله: «**ذكرى**» على وجوب النظر والتدبر.

ويدل قوله: «**واصبر**» على وجوب الصبر على الطاعة واجتناب المعصية، ويدل أن شيئًا من أعمال العباد لا يضيع، وإنما يضيعه العبد إذا فعل ما يحبطه.

وتدل على الموازنة؛ لأنه متى نقص من عقابه مقدار طاعة فقد وفاه، ولم يصنع ما يحبطه.

وتدل على أن الاستقامة والتوبة والصلاة والذكرى فعل العبد، فيبطل قول المجبرة في المخلوق.

قوله تعالى:

﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ (١١٦) وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ (١١٧) وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١١٩)﴾

اللغة

البَقِيَّةُ: ما بقي من الشيء بعد ذهابه، وهو الاسم من الإبقاء، ويقال: في فلان بقية، أي: فعل ما يمدح به. وقال القتيبي: قولهم: بقية؛ أي: مُسْكَةٌ فيهم من خير. ويقال: استبقى النفس وتوقه أي: تحرز من الآفات.

والتَّرَفُّه: النعمة، والمُتْرَفُ: المتنعم، وقال ابن عرفة: المترف المتروك يصنع ما يشاء، لا يمنع منه، وإنما قيل للمتنعم[1]: مترف؛ لأنه يطلق له لا يمنع من تنعمه.

والاختلاف: ذهاب كل واحد في جهة غير جهة صاحبه، يقال: خالف بعضهم بعضا، واختلفوا، قال أبو مسلم: فالاختلاف أن يخلف قولهم قول سلفهم، فيكون قد خلف بعضهم بعضًا، فسواء قولك: خلف بعضهم بعضًا، وقولك: اختلفوا، كما أن سواء قولك: قتل بعضهم بعضًا، وقولك: اقتتلوا، ومنه: لا أفعل ما اختلف العصران، واختلف الجديدان، أي: جاء هذا بعد ذلك.

الإعراب

(لولا): معناه: هَلَّا، ولِمَ لا، وهو تعجيب وتوبيخ، وقيل: (لو) حرف للتمني، وصل بها (لا)، كما وصل بـ(هل)، عند التبكيت، ويقال: هلا فعلت كذا، وجواب

(١) المتنعم: للمنعم، ض.

(لولا) قوله: «ينهون»، عن أبي مسلم، ويقال: إنه حرف تقريع، يقول لابنه: لولا تخلفك لجمعت لك المال، فأما الاستثناء في قوله: «إلا من رحم» قيل: استثناء منقطع، عن الفراء[1]، والزجاج[2]. وذلك لأنِه إيجاب لم يتقدم فيه صيغة النفي، وإنما تقدم تهجين خرج مخرج السؤال.

«قليلاً» نصب على الاستثناء.

۞ المعنى

لما تقدم ذكر إهلاك الأمم بَيَّنَ تعالى أنهم أُتُوا من جهتهم، ولو كان فيهم مؤمنون لما استأصلناهم رحمة منا، ولكن لما عم الكفر استحقوا العذاب، فقال سبحانه: «فَلَوْلَا كَانَ» أي: هلاّ كان «مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ» من الأمم الماضية قبلكم «أُولُو بَقِيَّةٍ» قيل: ذووا بقية من دين وعقل، وقيل: أولو خير وطاعة، يقال: إنه لذو بقية، إذا كان فيه خير، ومعنى الكلام: هلا كان منهم من كان فيه خير ينهون عن الفحشاء حتى لا يعمهم الهلاك، وقيل: معناه: من كان يتقي على نفسه من عذاب، أي: يرحم نفسه فلا يعرضها لعذاب النار، عن الأصم، وأبي مسلم. وقيل: بقية خير من الماضين، كقولهم: فلان بقية المشايخ، وقيل: أولو بقية، أي: كان يجب أن تكون فيهم بقية، يعني هلا كانوا باقين مع كثرة الرسل، وإقامة الحجج، وينهون[3] عن الفساد، فكيف اجتمعوا على الكفر فعمهم العذاب، عن أبي علي. ثم وصف أولو بقية فقال: «يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ» أي: هلاّ نهوا عن المنكر، فالمراد لم يكن في القرون بقية تنهى عن الفساد «إِلاَّ قَلِيلاً مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ» استثناء منقطع، يعني لكن قليلاًمنهم أمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر وهم أتباع الأنبياء، وأهل الحق، فأنجاهم الله من جملة من أهلكهم، قال ابن جريج: استقل أهل الخير من كل قوم.

ثم عاد الكلام إلى الأكثر فقال: «وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا» أنفسهم بالمعاصي «مَا أُتْرِفُوا

(١) معاني القرآن ٢/ ١٨٠.

(٢) معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٣/ ٨٣.

(٣) وينهون: ينهون، ش.

فِيهِ» أي[1]: مالوا إلى الدنيا وزينتها واتبعوها، وقيل: اتبعوا ما عودوا من النعيم واللذات وأسباب الدنيا، عن الفراء. وقيل: نعموا، عن ابن عباس. وقيل: تجبروا في الملك، عن مجاهد. والترفه: الاشتغال بالملاذ والتنعم، وقيل: انظروا فذكر تعالى أنهم اتبعوا اللذات، ونسوا المنعم وشكره «وَكَانُوا مُجْرِمِينَ» أي: مصرين على الجرم، وقيل: مشركين، عن الأصم «وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْم وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ» قيل: بظلم صغير يكون منهم؛ لأنه يُكَفَّرُ بإصلاحهم، وقيل: بظُلم[2] كبير من قليل منهم، لأنه إذا كان الكثير مصلحين لا يعذبهم، وقيل: بظلم بأنه لا يهلكهم مع صلاحهم، أو إنما يهلكهم بذنوبهم وارتكابهم الكبائر، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـًٔا﴾ [يونس: ٤٤]، عن أبي علي، وقيل: بشركهم وكفرهم وظلمهم أنفسهم «وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ» أي: لا يتظالمون بينهم، وإنما يهلكهم إذا تظالموا، وروي عن النبي ﷺ أنه قال في هذه الآية: «وأهلها ينصف بعضهم بعضًا». «وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً» أي: على ملة واحدة فيكونوا مسلمين صالحين، عن قتادة، وذلك بالإلجاء على الإسلام، فلا يستحقون حينئذ الثواب فلا يشاء ذلك، ولكن شاء أن يؤمنوا باختيارهم، ليستحقوا المنزلة الرفيعة، عن أبي علي، وقيل: لو شاء لجعلهم أمة واحدة في الجنة تفضلاً منه، عن أبي مسلم، ولكن اختار لهم أعلى الدرجتين فكلفهم ليستحقوا الثواب، وقيل: لو شاء لجعلهم أمة واحدة، ورفع الخلاف عما بينهم «وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ» على أديان شتى بين يهودي ونصراني ومجوسي ونحو ذلك، عن مجاهد، وقتادة، وعطاء، والأعمش، والأصم، وقيل: مختلفين معناه أن خَلَفَ هؤلاء الكافرين يخلف سلفهم في الكفر تقليدًا لا نظرًا واستدلالاً، عن أبي مسلم، وقيل: مختلفين كل صنف يضلل صاحبه ويكفره، وقيل: في الرزق والمال ليسخر بعضهم بعضًا، عن الأصم. وقيل: عامل للجنة وعامل للنار، وقيل: مختلفين في المغفرة والرحمة «إِلاَّ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ» قيل: يرحم بالألطاف من نجا من الاختلاف، وتمسك بالحق، والاستثناء منقطع، ومعناه: لكن من رحم الله، وقيل:

---

(١) أي: + ، ض.

(٢) بظلم: لظلم؛ ش، ض.

رحمه بالمدح والثناء والثواب بإيمانه، وقيل: إلا من رحمه بطاعته، وأضافه إلى نفسه لأنه بِأَمْرِهِ وهدايته وتمكينه، وقيل: إلا من رحم ربك فنظر وعرف الحق «وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ» قيل: وللرحمة خلقهم، عن ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والضحاك، وأبي علي، وهذا أولى الأقاويل في هذه الآية؛ لأن الرحمة أقرب إليه فرجعت الكناية إليه.

ومتى قيل: الرحمة مؤنثة وهو قال: «ولذلك» دل أنه أراد الاختلاف؟

قيل: معناه الفضل والإنعام فيحمل على المعنى، ولأن الرحمة مصدر، وذلك كثير في القرآن وكلام العرب، قال تعالى: ﴿عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ [البقرة: ٦٨] ولم يقل: تلك، وقال الشاعر:

إِنَّ السَّمَاحَةَ وَالسَّخَاوَةَ ضُمِّنَا ... قَبْرًا بِمَرْوَ[١] عَلَى الطَّرِيقِ الوَاضِحِ[٢]

ولم يقل: ضمنت، قال الفراء: لأنه ذهب إلى المصدر[٣]، وقالت الخنساء:

فَذَلِكَ يَا هِنْدُ الرَّزِيَّةُ فَاعْلَمِي ... وَنِيرانُ حَرْبٍ حِينَ شَبَّ وَقُودُهَا[٤]

ولم تقل: فتلك.

وقيل: معناه على الاختلاف خلقهم، عن الحسن، وعطاء، ومقاتل، واللام تكون بمعنى (على)، كقولك[٥]: أكرمتك على برك بي، ولبرك، ثم هذا يحتمل معنيين: أحدهما: أن تكون لام العاقبة الف فيه[٦] أي: خلقهم على علم منه بأنهم يختلفون، وقيل: معناه إلا من رحمه الله فنظر واستدل فعرف الحق، والنظر والاستدلال خلقهم للتعبد، فمنهم المطيع ومنهم العاصي، وللتعبد خلقهم، والوجه في الآية الذي حكيناه أولاً، والثاني كله تعسف.

---

(١) بمرو: بمرذ، ض.
(٢) البيت لزياد الأعجم. انظره في الأغاني ١٥/ ٣٧١.
(٣) معاني القرآن ١/ ١١٥.
(٤) انظره في: الأغاني ٤/ ٢١١.
(٥) كقولك: قولك، ض.
(٦) الف فيه: ـ، ش.

«وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ» أي: وجب وعيده الذي لا خلف فيه، وَصَلَ بتمامه إلى عباده، عن الأصم، وقيل: معنى (تمت) أي: مخبرها يكون على ما أخبر به، عن أبي علي. «لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ» يوم القيامة «مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ» الذين اختلفوا في الحق، وتمسكوا بالباطل، وقيل: من الكفار.

ومتى قيل: ما فائدة قوله: «وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ"؟

قلنا: لأنه لو لم يتقدم الخبر لجاز العفو، فلما أخبرنا بأنه يخلدهم في النار، فلا[1] يجوز غير ذلك.

الأحكام

تدل الآية الأولى أنه لو كان في أهل القرون الماضية جماعة ينهون عن الفساد لما عمهم الهلاك.

ويدل قوله: «وما كان ربك...» الآية أنه لا يعذب من كان مصلحًا؛ لأنه ظلم، فتدل على بطلان قول المجبرة أنه يجوز أن يعذب الأنبياء والمؤمنين، ويثيب الفراعنة.

وتدل أنهم اختلفوا، وأن الاختلاف من جهتهم، فيبطل قولهم في المخلوق، ولا يقال: إن معناه للاختلاف خلقهم؛ لأنه لو كان كذلك لما صح أنه ينهى عنه، ولَمَا جاز أن يعذب عليه، ولا يبعث الرسل الداعية إلى خلافه.

وتدل على معجزة لنبينا ﷺ حيث أخبر عن الغيب ببقاء الخلاف، وبما يكون قبل أن يكون، فكان كما أخبر.

قوله تعالى:

﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾

---

(١) فلا: لا؛ ش، ض.

القراءة

قرأ نافع، وحفص عن عاصم: «وإليه يُرْجَعُ الأمر» بضم الياء وفتح الجيم على ما لم يسم فاعله، «الأمر» بالرفع لأنه اسم ما لم يسم فاعله، وقرأ الباقون بفتح الياء وكسر الجيم على أن الفعل مضاف إلى الأمر(١).

وقرأ أبو جعفر، ونافع، وابن عامر، وحفص عن عاصم، ويعقوب: «وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ» بالتاء على الخطاب، وقرأ الباقون بالياء على الحكاية عن الغائب، وفي سورة (النمل) على هذا الخلاف(٢).

اللغة

القصص: الخبر عن الأمور التي يتلو بعضها بعضًا، قَصَّه: إذا اتبع أثره، ومنه: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِۖ﴾ [القصص: ١١] أي: اتبعي أثره، ويحتمل أنه تتبع أثر من يخبر عنه.

والنبأ: الخبر عما فيه عظمة الشأن، من قولهم لهذا الخبر نبأ، ومنه: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ﴾ [ص: ٦٧].

والتثبيت: تمكين إقامة الشيء، ثَبَّتَهُ تثبيتًا: إذا مكنه، وأصله من الثبوت، ويقال: ثبته بتمكينه، وثبته بتسكينه، وثبته بالخبر عن وجوده، والدلالة على ثبوته.

والمكانة: الطريقة التي يتمكن من العمل عليها، يقال: له مكانة عند فلان، أي: قدر وجاه، قال ابن عرفة: التمكين: زوال الموانع.

والانتظار: طلب الإدراك بما يأتي من الأمر، وأصله من النظر.

الإعراب

نصب (كُلاًّ) على المصدر، بتقدير: كل القصص نقص عليك، ويكون «ما نثبت

(١) حجة القراءات ٣٥٣.
(٢) حجة القراءات ٣٥٣.

به فؤادك» بَدَلاً عنه، عن الزجاج[1]. قال أبو مسلم: هو مفعول به، يريد كلا نقص عليك ما نثبت به فؤادك، فيكون (كلا) منصوبًا على الظرف.

و(ما) في قوله: «**ما نثبت به فؤادك**» منصوب بوقوع الفعل عليه، والعامل فيهما واحد، وهو قوله: «**نقص**». و«**فؤادك**» منصوب بوقوع التثبيت عليه.

۞ المعنى

لما تقدم قصص الأنبياء بين في هذه الآية أن فائدته تثبيت فؤادك، وتسكينه بتكذيب قومه، وأن اتبع آثارهم، ولا تعمل بعمل أممهم الذين استحقوا العذاب ترغيبًا وترهيبًا، فقال سبحانه: «**وَكُلاًّ نَقُصُّ عَلَيْكَ**» أي: إنا نقص عليك كل هذه القصص «**مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ**» قيل: نسدده، عن ابن عباس، وقيل: نقوي، عن الضحاك، وقيل: نُصَبِّر لئلا تضيق، عن ابن جريج، وقيل: ليطيب به قلبك مما نالك من قومك «**وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ**» قيل: في هذه السورة، عن ابن عباس، والحسن، ومجاهد، وقيل: في هذه الدنيا، عن قتادة، وقيل: في هذه الرسالة، عن الأصم، وقيل: في هذه الأنباء، عن أبي علي. والأوجه أن المراد به في هذه السورة وسائر السور. «**الْحَقُّ**» يعني الصدق من الأنباء من والوعد والوعيد «**وَمَوْعِظَةٌ**» أي: تخويف وزجر عن المعاصي «**وَذِكْرَى**» قيل: تذكرة للآخرة والوعد والوعيد ليذكروا ويتعظوا «**لِلْمُؤْمِنِينَ**» فخصهم بالذكر؛ لأنهم ينتفعون به، ولأنهم يصدقونه «**وَقُلْ**» يا محمد «**لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ**» قيل: اعملوا ما قدرتم عليه بجهدكم وطاقتكم، فأنا أعمل بجهدي وطاقتي، وقيل: اعملوا على ما أنتم عليه، فأنا أعمل على ما أنا عليه من الإسلام، وهذا وعيد وليس بأمر، وقيل: «**إنا عاملون**» قيل: اعملوا ما قدرتم عليه بجهدكم وطاقتكم في انتقاص آجالكم وأرزاقكم، عن الأصم «**وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ**» قيل: انتظروا للعذاب والقهر ونحن ننتظر الرحمة والنصر، عن أبي علي، وقيل: انتظروا مواعيد الشيطان، فأنا أنتظر مواعيد الرحمن، فلما ذكر الوعيد اتصل به ﴿**وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ**[2]﴾ ليتحقق ذلك، ويعلم أنه القادر على ذلك لا يُمْنَع منه، «**وَلِلَّهِ**

---

(١) معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٣/ ٨٤.

(٢) ولله غيب السموات والأرض: ولله ملك السموات والأرض؛ ش، ض.

«غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ» قيل: أراد خزائن السموات والأرض، عن ابن عباس، وقيل: جميع ما غاب عن العباد ولا يخفى عليه شيء، عن الضحاك، وقيل: غيب نزول العذاب من السماء، وقيل: هو العالم بالعواقب ووجوه المصالح، وقيل: هو العالم بأعمالكم، ومقادير الجزاء **«وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ»** أي: إلى حكمه يرجع **«الأَمْرُ كُلُّهُ»** في المعاد؛ لأنه في الدنيا قد يملك غيره امتحانًا بالأمر والنهي والنفع والضر، فزال جميع ذلك يوم القيامة، وقيل: الأمر كله إليه من غير رجوع، كقولهم: رجع إليَّ من فلان مكروه أي: أصابني من غير أن كان منه شيء، وقيل: الرجوع هو النشأة الثانية بعد الأولى تنتهي إلى ألاَّ يكون فيوجد غيره، وذلك بعد فناء الخلق، **«فَاعْبُدْهُ»** يعني: إذا كان هو المالك للأمور فهو المستحق للعبادة فاعبده وتذلل له، وقيل: وحِّده ولا تصفه بالشريك **«وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ»** ثق به وفوض الأمر إليه **«وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ»** أي: لا يخفى عليه شيء من أعمالهم فيجازي كل أحد بعمله، وعن كعب: «خاتمة التوراة خاتمة هود».

۞ الأحكام

تدل الآية على أنه تعالى يلطف برسوله[1] ليثبته، وهذه القصص من تلك الألطاف له ولأمته.

وتدل على أن الغيب يختص هو بالعلم به، خلاف ما تقوله الرافضة: أن الأئمة يعلمون الغيب.

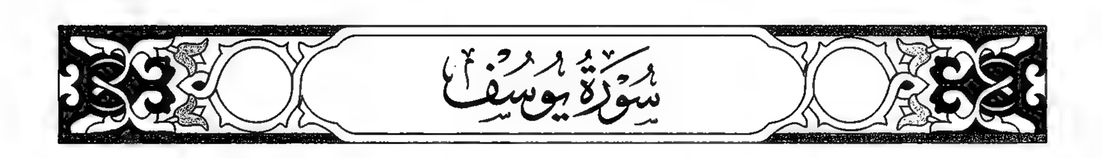
ويدل قوله: **«فاعبده»** على وجوب الإخلاص في العبادة.

وتدل على وجوب تفويض الأمر إليه.

وتدل على ترغيب وترهيب قوله: **«وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ»**.

---

(١) برسوله: لرسوله؛ ش، ض.



وهي مكية مائة وإحدى عشرة آية

وفي خبر أُبَيّ عن النبي ﷺ: «علموا أبناءكم سورة يوسف، فأيما مسلم تلاها وعلَّمها هوّن الله عليه سكرات الموت».

ولما ختم السورة بذكر القصص، وذكر في السورة قصص الأنبياء، افتتح هذه السورة بأن هذه القصص آيات الكتاب، وأنه تعالى أنزله، وأن من تلك القصص قصة يوسف وإخوته ـ عليهم السلام ـ، ثم قص نبأهم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى:

﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ۝٢ وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ ۝٣﴾

القراءة

قرأ أبو عمرو، وحمزة، والكسائي: ﴿الٓر﴾ بكسر الراء، وقرأ أبو جعفر[1]، ونافع، وابن كثير، وعاصم، ويعقوب بفتح الراء، وقرأ ابن عامر بين الفتح والكسر.

(١) الحجة في القراءات السبع ١٧٩.

ويقال: لِمَ لا تعَدّ[1] «آلر» [آية]؟

قلنا: لأنه على حرفين، ولا يشاكل رؤوس الآي، وَعَدَّ (طه)؛ لأنه يشاكل رؤوس الآي.

اللغة

الآية: الحجة والعلامة. والبيان: إظهار المعنى بما يفصله عن غيره، وأصله البَيْن وهو القطع، بان[2] الشيء: انفصل، وبان الشيء: إذا اتضح، وأبان فهو مبين، وهو بيِّن، والبيان: الكشف عن الشيء، واختلفوا فقيل: البيان الأدلة، عن أبي علي، وأبي هاشم وهو صحيح، وقيل: هو العلم الحادث، عن أبي عبد الله البصري، وليس بالوجه؛ لأنه التبيين.

والعقل: العلم، والعقل: علوم ضرورية إذا حصلت صار مكلفًا، وأصل العقل المنع، ومنه: العقال، وسمي العقل عقلاً؛ لأنه يمنع من القبيح، وقيل: لأن به تثبت الاستدلاليات كالعقال[3] للإبل.

الإعراب

﴿الٓر﴾ محله رفع؛ لأنه ابتداء وخبره «**تلك آيات**» وقيل: خبر ابتداء محذوف، أي: هذه (الر).

(ما) في قوله: «**بما أو حينا إليك**» (ما) المصدر أي: بإيحائنا، وفي قوله: «**هذا القرآن**» يحتمل ثلاثة أوجه من الإعراب:

[الأول]: النصب بإيقاع الوحي عليه.

الثاني: الجر بالبدل مما في قوله: «**بما أوحينا إليك**».

الثالث: الرفع على تقدير جواب هو، عن الزجاج، ولا تجوز القراءة إلا بالنصب.

---

(١) تعد: عد، ش، ض.

(٢) بان: لأن؛ ش، ض.

(٣) كالعقال: كالعقل؛ ش، ض.

۞ النزول

قيل: إن علماء اليهود قالوا لكبراء المشركين: سلوا محمدًا عن خبر يوسف وإخوته، وَلِمَ نزلوا مصر، وتركوا منزلهم بالشام، فنزلت السورة، عن الأصم.

وقيل: إن أصحاب رسول الله ﷺ قالوا: لو قصصت علينا، فأنزل الله تعالى: «**نحن نقص عليك أحسن القصص**» قالوا: يا نبي الله، لو حدثتنا فنزل: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ﴾ [الزمر: ٢٣].

۞ المعنى

﴿الٓر﴾ قد بَيَّنَّا ما قيل فيه، وأن أولى الأقوال أن يكون اسمًا للسورة، كما روي عن الحسن، وأبي علي، أو أنه إشارة إلى أن هذا الكتاب من هذه الحروف، وأنتم تتكلمون بها، فإذا عجزتم عن مثله فاعلموا أنه معجز، وأنه كلام الله تعالى على ما ذكره أبو مسلم، أو أنها حروف من أسماء الله تعالى على ما روي عن ابن عباس، فقوله: ﴿الٓر﴾ أنا الله أرى «**تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ**» قيل: إشارة إلى السورة، فهو إشارة إلى ما يأتي على التوقع لها، وقيل: تلك آيات، وقيل: إنه إشارة إلى ما تقدم من اسم السورة، كأنه قال: سورة يوسف تلك؛ لأن (الر) اسم للسورة، وقيل: هي إشارة إلى ما وعده الله تعالى من إنزال الكتب إليه، وبشر به على ألسنة الرسل فقال: «**تلك**» تصديقًا لما وعد «**آيات الكتاب**» أي: علامات الكتاب دلالاته وإعجازه، وسائر ما تحتاجون إليه من أمر دينكم «**إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ**» يعني الكتاب «**قُرْآنًا**»، وسمي قرآنًا، لأنه يُجْمَع ويُقْرَن بعضه إلى بعض، فسمي قرآنًا «**عَرَبِيًا**» يعني بلغة العرب بأنفاس العرب «**لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**» أي: لتعلموا معانيه وأحكامه، وتفهموا جميع ما فيه، وقيل: لتعلموا أنه من عند الله إذا كان عربيًّا وعجزتم عن مثله «**نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ**» أي: نخبرك «**أَحْسَنَ الْقَصَصِ**» قيل: سمي أحسن لأنه بلغ النهاية في الفصاحة مع حسن المعاني، وصدق الحديث، والفائدة العظيمة، عن أبي مسلم، وقيل: لأن فيه أخبار الأمم الماضية، وأخبار ما يكون في المستقبل وفي القيامة مع جودة اللفظ وحسن المعنى، عن أبي علي، وقيل: لأنه يتضمن العبر والأحكام والأخبار عن الأنبياء مع ما فيه من

التوحيد والمواعظ والأحكام، وقيل: أحسن القصص قصة يوسف، وقيل: أراد بالأحسن الحَسَن كقوله: «الله أكبر».

ومتى قيل: هل يكون حُسْن أحسن من حُسْنٍ، وصِدْقٌ أصدقُ من صِدْقٍ؟

قلنا: لا، وإنما يطلق أحسن وأصدق في جملة، وجملة[1] لا يتخللها إلا ما هو حسن، وصدق، وجملة أخرى خلافها، فمن هذا الوجه تستعمل، فأما إذا كان شيئًا واحدًا فلا.

«بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ» أي: بوحينا إليك يا محمد هذه القصة في القرآن؛ لأن القصة قد تكون غير قرآن، وقيل: بوحينا إليك أخبار الأمم تصديقًا لأمرك، وتحقيقًا لنبوتك «وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ» أي: من قبل إنزال الوحي والقرآن من الغافلين، قيل: كنت غافلاً من قصة يوسف، وسورة يوسف.

۞ الأحكام

تدل الآية على حدث القرآن من حيث فضله ووصفه بصفات لا تليق بالقديم سبحانه، منها: كونه دلالة، ومنها: كونه منزلاً، ومنها: كونه عربيًّا، ومنها: كونه مجموعًا مكتوبًا.

ويدل قوله: «**عربيا**» أن جميع ما فيه عربي ليس فيه لغة أخرى، ويبطل قول من يقول: فيه لغات فارسية ورومية.

وتدل على أن الغرض منه أن يُعْلَم، بخلاف قول من يقول: لا يفهم معناه، أو أن الغرض من بعضه ألا يفهم؛ لذلك قال: «**لعلكم تعقلون**».

ويدل قوله: «**أحسن القصص**» على أن قصص القرآن من أحسن الحديث وأصدقه، وقد بَيَّنَّا كيف يستعمل الأحسن والأصدق.

ومتى قيل: إذا قال: «**نحن نقص**» فهل يوصف بأنه قاصٌّ؟

---

(١) وجملة: فجملة؛ ش، ض.

قلنا: لا؛ لأنه في العرف يستعمل فيمن يتمسك بطريقة مخصوصة، وإن صح المعنى؛ ألا ترى أنه لا يطلق عليه اسم مُعَلِّمٍ وفقيه، ولا يجوز[1] وإن صح المعنى.

قوله تعالى:

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾﴾

القراءة

قرأ أبو جعفر وابن عامر: «**يا أبت**» بفتح التاء في جميع القرآن[2]، والباقون بكسر التاء، ويجوز فيه ثلاثة أوجه:

الأول: كسر التاء، وعليه أكثر القراء على حذف ياء الإضافة، ودلالة الكسرة على المحذوف.

والثاني: فتح التاء على حذف الألف المنقلبة عن ياء الإضافة، وتقديره: يا أبتاه.

الثالث: الرفع، أجازه الفراء[3] ولم يجزه غيره، فأما الوقف عليه، فوقف ابن كثير على الهاء، ويقول: بدلاً من ياء الإضافة، والباقون ويعقوب بالتاء على الأصل، ويجوز الوقف على التاء؛ لأن ياء الإضافة مقدرة فيه.

وقرأ أبو جعفر: «**أحد عشر**» ساكنة العين، والباقون بفتحها، وقد بينا ذلك.

---

(١) ولا يجوز: ويجوز؛ ش، ض.

(٢) حجة القراءات ٣٥٣.

(٣) معاني القرآن، للفراء ٢/٧.

وقرأ حفص: «يا بني» بفتح الياء جميع القرآن[1]، والباقون بكسر الياء للدلالة على حذف الياء.

وقرأ القراء: «يوسُف» بضم السين، وعن طلحة بن مصرف بكسر السين، وقيل: إنه اسم عبري[2]، وقيل: عربي، وضم السين وكسرها لغتان، وكذلك يونس بضم النون[3] وكسرها لغتان.

اللغة

الكوكب والنجم من النظائر، وجمعه: كواكب، والسجود: الخضوع، ومنه:

تَرَى الأُكْمَ فيهَا سُجَّدًا لِلْحَوَافِرِ[4]

والكيد: طلب الحيلة، كاده يكيده كيدًا فهو كائد.

والاجتباء: الاختيار، مأخوذ من: جبيت الماء في الحوض: إذا جمعتَهُ فيه، وخلصتَهُ بنفسك.

الإعراب

يقال: ما موضع (إذ) من الإعراب؟

قلنا: نصب بتقدير «اذكر إذ قال»، وقيل: نَقُصُّ عليك إذ قال يوسف، عن الزجاج، وقيل: كنت من الغافلين إذ قال.

«كوكبا» نصب على التمييز، وقوله: «وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ» ولم يقل: ساجدات؛ لأنه لما وصف هذه الأسماء بالسجود كما يوصف الآدميون خرج فعلها على فعل الآدميين.

---

(١) حجة القراءات ٥٦٤.

(٢) عبروي: عبري؛ ش، ض.

(٣) النون: السين، ض.

(٤) البيت لزيد الخيل الطائي، وتمامه:

بِجَيْشٍ تَضِلُّ البُلْقُ في حَجراته ... تَرَى الأُكْمَ فيها سُجَّدًا للحوافِرِ

وفي قوله: «**يا بني**» ثلاث ياءات: ياء التصغير، وياء الأصل، وياء الإضافة، حذف أحدهما وأدغم الأخرى، والكسرة دلالة للمحذوف.

و(**يكيدوا**) محله نصبٌ؛ لأنه جواب النهي في قوله: «**لا تقصص**».

«**لك**» قيل: [اللام][1] صلة، أي: يكيدوك، كقوله: ﴿لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٤]، وكقولهم: نصحتك، ونصحت لك، وشكرتك، وشكرت لك، وقيل: معناه: ليكيدوا لأجلك كيدًا، و«**كيدًا**[2]» نصب على المصدر، وذكره تأكيدًا، كقولهم: ضربه ضربًا.

والكاف في قوله: «**وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ**» كاف التشبيه، أي كما أراك في المنام كذلك يجتبيك، و(**إبراهيم وإسحاق**) بدل من أبويك، إلا أن إبراهيم وإسحاق اسمان لا ينصرفان.

۞ المعنى

ثم ابتدأ تعالى بقصة يوسف، فقال سبحانه: «**إِذْ قَالَ**» أي[3]: اذكر إذ قال «**يُوسُفُ لِأَبِيهِ**» يعقوب ـ عليهما السلام ـ، وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «الكريم بن الكريم بن الكريم بن الكريم[4] يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم»[5] «**يَا أَبَتِ**» ناداه تنبيهًا «**إِنِّي رَأَيْتُ**» أي: في منامي باتفاق المفسرين، قال ابن عباس: كانت الرؤيا فيهم وَحْيًا «**أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ**» وقال ابن عباس والحسن: الشمس والقمر أبواه، والكواكب إخوته الأحد[6] عشر، وقال السدي: الشمس أبوه والقمر خالته؛ لأن أمه «راحيل» قد كانت ماتت، وقيل: رأى هذه الرؤيا وله اثنتا[7] عشرة

---

(١) اللام: ـ، ض.
(٢) وكيدا: وكيد، ض.
(٣) قال أي: أروي أي، ض.
(٤) بن الكريم: ـ، ض.
(٥) الترمذي رقم ٣١١٦، ومسند أحمد رقم ٥٧١٢، والمعجم الأوسط ٢٦٥٧، والسنن الكبرى رقم ١١٢٥٤.
(٦) الأحد: الإحدى؛ ش، ض.
(٧) اثنتا: اثني، ض.

سنة، عن وهب، وقيل: كان بين رؤياه وبين مسير أبيه وإخوته إلى مصر أربعون سنة، عن ابن عباس وأكثر المفسرين، وقيل: ثمانون سنة، عن الحسن «رَأَيْتُهُمْ» أعاد رأيتهم تأكيدًا لما طال الكلام، وقيل: لأنه نوبتان، دل أنه رآهم ورأى سجودهم له، عن أبي علي «لِي سَاجِدِينَ» قيل: أراد السجود المعروف حقيقة تكرمة له، لا عبادة، وقيل: هو الخضوع له، عن أبي علي، وقيل: رآهم هبطوا من السماء، فسجدوا له، عن مقاتل، وقيل: لما بلغ إخوته رؤياه، قالوا: ما رضي أن سجد له إخوته حتى سجد له أبواه، «قَالَ» يعقوب: «يَا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ» أي: لا تخبرهم بذلك ظن[1] أنهم يحسدونه، ونهاه عن إظهار رؤياه، وإنما قال «رؤياك» ولم يقل «ما رأيت»؛ لأن ذلك لَمْ يكن رؤية في الحقيقة «فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا» يحتالون عليك، ويبغونك الغوائل؛ لأنهم يعلمون تأويلها، فيحسدونك «إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ» ظاهر العداوة يلقي بينكم العداوة، ويفتنهم بك، عن الأصم «وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ» أي: كما أراك هذه الرؤيا تكرمة لك يجتبيك، أي: يختارك، قيل: بالنبوة، عن الحسن، وقيل: هذا تأويل رؤياه عبرناه، عن أبي مسلم «وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ» قيل: تعبير الرؤيا، عن قتادة، ومجاهد، وسماه تأويلاً؛ لأنه يؤول أمره إلى ما رآه في منامه، يعني تأويل أحاديث الناس فيما يرونه في منامهم[2]، قال ابن زيد: كان أعبر الناس للرؤيا[3]، وقيل: تأويل الأحاديث في كتب الله ودلائله على توحيده، والمشروع من شرائعه، وأمور دينه، عن الحسن، وأبي علي، وقيل: يعلمك معرفة الأشياء قبل كونها، وهو الغيب دلالة على رسالتك، عن أبي مسلم، وقيل: علم النبوة، عن الأصم، وأضاف[4] التعليم إلى الله تعالى لأنه يعلمه بالوحي «وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ» بالرسالة والعلم وغيرها «وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ» وهم إخوته الأحد عشر بالنبوة، وكانوا اثني عشر، عن ابن عباس[5]، وقيل: يتم نعمته عليهم بإنقاذهم من المحن على يديك،

(١) ظن: ـ ، ض.
(٢) في منامهم: ـ ، ض.
(٣) للرؤيا: ـ ، ض.
(٤) وأضاف: فأضاف، ض.
(٥) ابن عباس: ابن زيد، ض.

واختلفوا، قيل: قوله: «ويتم» إخبار عنه، وقيل: بل هو دعاء «**كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ**» بالخلة والنبوة والنجاة من النار وغير ذلك «**وَإِسْحَاقَ**» قيل: بأن فداه من[1] الذبح، عن عكرمة، وهو الذبيح، وقيل: بإخراج يعقوب من صلبه، عن أكثر المفسرين، وليس هو الذبيح بل الذبيح إسماعيل «**إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ**» قيل: في إنعامه واختيار رسله، لا يرسل إلا من يصلح له، عليم بالضمائر فيرسل من يصلح له، ويقوم بطاعته، عن أبي مسلم، وقيل: حكيم في قضاياه عليم بأحوال خلقه.

ومتى قيل: إذا قال يعقوب له ذلك، فلماذا خاف من الذئب، ومن الإخوة عليه؟

قلنا: قيل: قاله مشروطًا بأن الله تعالى يجتبيه بشرط السلامة والبقاء، فلم يخبر قطعًا، وقيل: علم ذلك قطعًا بالوحي، ولكن خاف وصول المضار إليه دون الهلاك؛ ولذلك عظمت حسرته، ولو أيس منه لقل حزنه.

۞ الأحكام

تدل الآية على صحة تأويل الرؤيا، وأنه قد يكون منها[2] من قبله تعالى، فتكون أمارة، وربما تكون دلالة إذا اقترن به غيره؛ لذلك قطع يعقوب فيما قال.

وتدل على أن يعقوب أخبره بأنه يكون رسولاً، وقيل: قال ذلك عن وحي، وقيل: بل حمل رؤياه على ذلك، عن أبي مسلم.

ويدل قوله: «**وعلى آل يعقوب**» أنه يبعث جميع[3] إخوته أنبياء؛ لأنهم[4] آل يعقوب، عن الحسن، والأصم، وأبو علي يقول: تدل على أن منهم من يبعث، ولا تدل على ذلك في جميعهم، ويحتمل أن يكون بالإنعام في بعضهم بالنبوة، وفي بعضهم بغيره.

وتدل على نبوة يوسف قطعًا.

---

(١) من: عن؛ ش، ض.
(٢) منها: سببها، ش، ض، والتصحيح من هامش، ض.
(٣) جميع: + ، ض.
(٤) لأنهم: لأنه؛ ش، ض.

وتدل على أن النبوة من النعم العظام.

وتدل على أن النبوة ليست بمستحقة.

وتدل على جواز أنبياء في وقت واحد.

وتدل على أنه قد يجب في بعض الأوقات إخفاء فضيلة؛ تحرزًا من الحسود.

وتدل على أن الجد أب على ما يقوله أبو حنيفة في الجد مع الإخوة.

وتدل على أن للشيطان تأثيرًا في المكائد وهو وسوسته، خلاف ما يقوله أبو علي.

قوله تعالى:

﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٨ ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ۝٩ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ۝١٠﴾

القراءة

قرأ ابن كثير: «**لقد كان في يوسف وإخوته آية**» بغير ألف على واحدة، حمله على شأن يوسف[١]، وقرأ الباقون: «**آيات**» على الجمع؛ لأن أمور يوسف كانت كثيرة، فكل واحد آية بنفسه.

وقرأ أبو جعفر ونافع: «**غيابات الجب**» على الجمع في الحرفين في قوله: «**وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ**[٢] **الْجُبِّ**» وقرأ الباقون: «**غيابة**» على الواحد في الحرفين.

قراءة العامة: «**يلتقطه**» بالياء، كناية عن بعض، وعن[٣] الحسن بالتاء كناية عن السيارة.

---

(١) حجة القراءات ٣٥٥.

(٢) غيابت: غيابات، ش.

(٣) وعن: عن؛ ش، ض.

اللغة

العصبة: الجماعة التي يتعصب بعضها ببعض، ومنه: العصبة أقرباء الرجل، وقيل: هو ما بين الواحد إلى العشرة، وقيل: إلى خمسة عشر، وقيل: إلى الأربعين، وقيل: لا واحد له من لفظه كالرهط.

والغيابة: الموضع الذي يغيب فيه صاحبه، وكل ما غيب شيئًا عن الحس، يكون فيه فهو غيابة، قال المنخل:

إِذَا أَنَا يَوْمًا غَيَّبَتْنِي غَيَابَتِي ... فَسِيرُوا بِسَيْرِي في العَشِيرَةِ وَالأَصْلِ[1]

وأصله من الغيب، يقال: وقعنا في غيبة وغيابة أي: هبطة من الأرض.

والجب: البئر الذي لم يطو؛ لأنه قطع عنها ترابها حتى بلغ الماء من غير طي، كأنه ليست فيها إلا القطع للتراب، وأصل الجب: القطع، ومنه: المجبوب، ومنه: ﴿جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ﴾ [الفجر: ٩] قطعوا، قال الأعشى:

لَئِنْ كُنْتَ في جُبٍّ ثَمَانِينَ قَامَةً ... وَرُقِّيتَ أَسْبَابَ السَّمَاءِ بِسُلَّمِ[2]

والالتقاط: تناول الشيء من الطريق، ومنه: اللُّقَطَة للمتاع، واللقيط للصبيان.

والسيارة: الجماعة من المسافرين؛ لأنهم يسيرون في البلاد، وأصله من السير، وقيل: السيارة: مارة الطريق، سار يسير سيرًا.

الإعراب

(اللام) في قوله: «**ليوسف**» جواب القسم، تقديره: وَاللهِ ليوسف وإخوته أحب إلى أبينا منا، ويوسف لا ينصرف؛ لأنه اسم عجمي معرفة. وقد يصرف في ضرورة الشعر، ويصرف إذا كان نكرة. «**يخل**» جزم لأنه جواب للأمر، «**وتكونوا**» جزم لأنه[3] معطوف على «**يخل**»، و«**تلتقطه**» بالتاء على تأنيث السيارة، قال الشاعر:

(١) هو المنخل بن العنبري، انظر البيت في: تاج العروس (غيب).

(٢) انظره في: الصحاح (سبب)، واللسان (سبب).

(٣) لأنه: لا، ض.

طُولُ اللَّيَالِي أَسْرَعَتْ في نَقْضِي[1]   طَوَيْنَ طُولِي وطَوَيْنَ عَرْضِي

فقال: أسرعت وطوين لتأنيث الليالي، ولم يحمله على طول، وهو مذكر.

المعنى

ثم ابتدأ تعالى بقصة يوسف، فقال سبحانه: «لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ» أي: في شأنهم وخبرهم[2] فحذف لدلالة الكلام عليه، «وإخوته» أولاد يعقوب، وكان ليعقوب اثنا عشر ابنًا لصلبه، وهم أولاد علات[3]، ويوسف وبنيامين من أم واحدة، واسمها راحيل، فأما الباقون فقيل: لأمهات شتى، وقيل: لأم واحدة اسمها ليّا، حكاه الأصم. «آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ» قيل: حجة على هؤلاء اليهود الذين سألوا عن قصة يوسف على صدق محمد ﷺ في نبوته، لأنه أخبر عن كتبهم بسرائر أخبارهم، ولم يعلم من جهتهم بل علم وحيًا، عن أبي مسلم، وروي أن اليهود سألوا النبي ﷺ عن قصة يوسف، فأخبرهم بها كما في التوراة، فعجبوا، وقالوا: من أين لك هذا يا محمد؟ فقال: «علمنيه ربي»، وقيل: آيات أي: عبر ومواعظ حيث نالوه بالأذى حسدًا، ثم صار أمره إلى ما صار، ثم إنه عف عنهم وصفح، وقيل: للسائلين ولمن لَمْ يسأل، كقوله: ﴿سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾ [فصلت: ١٠] «إِذْ قَالُوا» يعني إخوة يوسف، قيل: شكا بعضهم إلى بعض ما عليه يعقوب من تقديم يوسف وأخيه فقالوا: «لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ» بنيامين «أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا» قال الأصم: وكان يعقوب لصغرهما يرحمهما ويقربهما، فاستثقلوا قرب يوسف من أبيه، وفرط محبته له «وَنَحْنُ عُصْبَةٌ» أي: جماعة وكانوا عشرة، قيل: نحن عصبة، فنحن أنفع لأبينا، وقيل: نحن عصبة لا نعجز بالاحتيال عليه «إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ» أي: في ذهاب عن طريق الصواب الذي هو التعديل بيننا في المحبة، وقيل: خطأ في الرأي في أمر الدنيا والأولاد؛ إذ نحن أنفع له من يوسف وأخيه في القيام بأمواله ومواشيه وأمور دنياه وأعماله، ولم يريدوا الضلال في

---

(١) نقضي: بعض؛ ش، ض.

(٢) شأنهم وخبرهم: خبرهم وشأنهم؛ ض.

(٣) علات: علة؛ ش، ض.

الدين؛ لأنه لا يجوز على الأنبياء أن يضللوا نبيًّا، ولأنهم كانوا على دينه، ولأنهم كانوا يعظمونه غاية التعظيم، ولهذا طلبوا محبته، وقيل: أرادوا إنه لفي ذهاب عن طريق الآباء «مبين» بين ظاهر.

ومتى قيل: إذا قصدوا اكتساب محبة أبيهم فَلِمَ ذُمُّوا؟

قلنا: لاكتسابهم ذلك من وجه يقبح.

ومتى قيل: كيف قدمهما عليهم؟ وإن كان صوابًا، كيف عابوه؟

قلنا: التقديم والتأخير في الرتبة طريقه الاجتهاد، فيعقوب قدم يوسف إما لوحي[١]، وإما كان لما يرجو منه من الأحوال، وإمّا لصغره ووفاة أمه، وإما لانقطاعه إليه، أو لميل إليه ميل طباع لحسن خُلُقه وخَلْقه وكياسته وذلك مباح، ولعل اجتهادهم أدى إلى أنهم أحق بالتقديم لسنهم وكفايتهم لأعماله، فلاختلاف الاجتهاد اختلفوا.

ومتى قيل: كيف جاز مثل هذا عليهم، وهم أنبياء؟

قلنا: قيل: كانوا مراهقين، ولم يكونوا بالغين، عن أبي علي، يدل عليه «**يرتع ويلعب**»، وقيل: كانوا بالغين، ووقعت منهم صغيرة، عن الحسن.

«**اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ**» أي[٢] : ألقوه موضعًا «**أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ**» قيل: تآمروا[٣] في أمره، فقالوا: اقتلوه، أو اطرحوه، أو ألقوه موضعًا، واختلفوا من قال هذا على قولين:

أحدهما: أن بعض إخوته قال ذلك.

والثاني: أنهم شاوروا أجنبيًّا فأشار عليهم بقتله، ولم يقل ذلك إخوته.

فأما من قال بالأول أنهم[٤] إخوته فقيل: قال ذلك شمعون، عن وهب، وقيل: روبيل عن مقاتل.

---

(١) لوحي: الوحي، ض.
(٢) أي: أو، ض.
(٣) تآمروا: تؤامروا؛ ش، ض.
(٤) أنهم: أنه، ض.

«**أرضًا**» قيل: إلى أرض لا يصير خبره إليه، فيصير كالميؤوس منه، وقيل: أرضًا، تأكله السباع، أو يهلك «**يخل لكم وجه أبيكم**» أي: يخلص لكم خاليًا من يوسف، فإنه شغله عنا «**وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ**» من بعد قتل يوسف أو غيبته «**قَوْمًا صَالِحِينَ**» قيل: تائبين يعني نتوب بعد قتله فنعود إلى الصلاح، عن جماعة من المفسرين، وهو قول أبي علي، وقيل: أرادوا صلاح الدنيا، وهو أنه عند فقد يوسف يعود حالهم مع أبيهم إلى الصلاح، والأول أقرب؛ لأنه ذكر عقيب معصية.

ومتى قيل: هذا يدل على بلوغهم وعلمهم بالوعيد؟

قلنا: المراهق قد يعلم ذلك خصوصًا إذا كان ولد نبي يسمع عن أبيه.

«**قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ**» أي: من إخوته على جهة المشورة، قيل: هو روبيل، وكان ابن خالة يوسف، عن قتادة، وابن إسحاق، وكان أحسنهم رأيًا فيه، ونهاهم عن قتله، وقيل: هو يهوذا، عن الأصم، والزجاج، وكان أقدمهم في الرأي والفضل وأسنَّهم، عن الأصم «**لا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ**» أي: قال لهم: لا تقتلوه فَقَتْلُهُ عظيمٌ، ولكن اجعلوه في جُبٍّ، وإنما قال ذلك رجاء أن يَسْلَمَ، أو يأخذه بعض السيارة، فيبعد عن مكروه الإخوة «**غَيَابَتِ الْجُبِّ**» قيل: إلى قعر الجب بحيث يغيب، عن قتادة، والحسن، والألف واللام للعهد؛ لأنه لم يرد الجنس، فلا بد أن يكون معهودًا لهم، عن أبي مسلم، واختلفوا في ذلك الجب، فقيل: إنه بئر ببيت المقدس، عن قتادة، وقيل: بأرض الأردن، عن وهب، وقيل: بين مدين ومصر، عن كعب، وقيل: على ثلاث فراسخ من منزل يعقوب «**يَلْتَقِطْهُ**» يأخذه لقطة «**بَعْضُ السَّيَّارَةِ**» مارةِ الطريق والمسافرين، فيذهب به إلى ناحية أخرى «**إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ**» شيئًا مما تقولون في يوسف، فليكن هذا فعلكم، فإنه دون القتل والإتلاف، عن أبي مسلم.

۞ الأحكام

يدل قوله: «**آيات للسائلين**» أنه ﷺ سئل عن شأنهم وقصتهم.

وتدل أن بعضهم أشار بقتله، وقد بينا ما قيل فيه، فمنهم من قال: كان من الإخوة، وكان صغيرًا، وهو قول أبي علي، ومنهم من قال: لم يكن منهم، ومنهم من قال: يجوز أن يكون ذلك الواحد منهم لم يكن مرشحًا للنبوة.

وتدل على أن التوبة من القتل تصح، خلاف ما قاله بعضهم؛ لأنه تعالى حكى عنهم، ولم ينكر.

وتدل على أنه لا يجوز للآباء إظهار الميل إلى بعض أولادهم[1] حتى لا يؤدي ذلك إلى فتنة وتحاسد، كما كان فيهم.

وتدل على أن ميله إلى بعضهم لبَعْض الأغراض الصحيحة جائز، وأن يعقوب مال إليه لبعض الوجوه التي ذكرنا، وقيل للحسن: أيحسد المؤمن؟ قال: أنسيت حديث بني يعقوب، حيث حسدوا يوسف، ولكن غمه في صدرك، ولن يضرك ما لم تظهره بيد أو لسان.

قوله تعالى:

﴿قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَـٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿١٢﴾﴾

القراءة

قرأ أبو جعفر: «تأمنا» مشددة النون من غير إشمام، والقراء السبعة بالإشمام، وهو الإشارة إلى النون المدغمة بالضمة، وهو اختيار أبي عبيد وأبي حاتم؛ لأن أصله: (تأمننا) بنونين، فأدغمت إحداهما في الأخرى، وفيه أربعة أوجه: (تأمننا) بالإظهار على الأصل؛ لأن النون من كلمتين، و(تأمنا) بالإدغام لالتقاء المثلين من غير إشمام، و(تأمنا) بالإدغام والإشمام للإشعار بالأصل، و(تئمنا) بكسر التاء، لأن ماضيه فَعِلَ نحو: حَمِدَ، إلا أن القراءة بالإدغام والإشمام.

وفي «يرتع ويلعب» خمس قراءات:

الأول: قرأ ابن كثير بالنون فيهما «نرتع ونلعب»[2] أضاف الفعل[3] إليهم

---

(١) أولادهم: أولاده؛ ش، ض.

(٢) حجة القراءات ٣٥٥

(٣) الفعل: ـ، ض.

جميعًا، الرعي واللعب كليهما[١]، وكسر عين (نرتعِ) بالارتعاء، يقال: ارتعيت ارتعاءً.

الثاني: قرأ ابن عامر وأبو عمرو بالنون فيهما[٢]، وجزم العين، قال: قيل: لأبي عمرو: وكيف يقرأ (نلعب)، وهم أنبياء؟ قال: لم يكونوا يومئذ أنبياء[٣].

الثالث: قرأ حمزة وعاصم والكسائي بالياء فيهما، وجزم[٤] العين أضافهما إلى يوسف.

الرابع: قرأ أبو جعفر ونافع بالياء فيهما بكسر العين من (يرتع) أضاف ذلك أيضًا[٥] إلى يوسف.

الخامس: قرأ يعقوب: «**نرتع**» بالنون وجزم العين، أضاف الرعي إليهم جميعًا "**ويلعب**» بالياء أضافه إلى يوسف وهو رواية هارون عن أبي عمرو، وهو قراءة الأعرج وإبراهيم النخعي، وأهل الحجاز، اتفقوا على كسر عين (**نرتعِ**)، وغيرهم من أهل العراق والشام اتفقوا على الجزم، ومن جزم فلأنه جواب «**أرسله معنا**»، ومن كسر فهو تفعيل من رعيت، حذفت علامته للجزم، وبقيت كسرة العين بحالها.

۞ اللغة

الأمن: سكون النفس إلى انتفاء الشر، ونقيضه: الخوف، ويقال: أمنت بكسر الميم فهو آمن، وآمنتُ بفتح الميم صدقت، وأَمَّنْتُ غيري: أعطيته الأمان، ورجل أُمنة وأَمنة، بضم الهمزة وفتحها: يثق بكل أحد.

غدًا: اسم ليوم لم يجئ بعد، وأمس: اسم ليوم قد مضى، ونقص غد لنقصانه، أنه لم يكن، وتمم أمس لأن معناه تام؛ لأنه كان ووُجد.

---

(١) كليهما: كلاهما: ش، ض.
(٢) بالنون فيهما: وبالنون فيهما بالنون، ض.
(٣) أنبياء: ـ ، ض.
(٤) وجزم: وكسر، ض.
(٥) أيضا: ـ ، ض.

والرتع: التصرف في الشهوات والسعة، رتع فلان في ماله: إذا أنفقه في شهواته، قال القطامي:

أَكُفْرًا بَعْدَ رَدِّ المَوْتِ عَنِّي ... وَبَعْدَ عَطَائِكَ المِائَةَ الرِّتَاعَا[1]

ورتع: أكل ما شاء، والمراتع: موضع الرتع، وهذه إبل رتاع، وقوم راتعون، وكل مخصب فهو راتع، وقيل: الرتع: الاتساع في الملاذ.

۞ المعنى

ثم بَيَّنَ تعالى أنهم عند اتفاق رأيهم فيما تراودوا فيه من أمر يوسف كيف سألوا أباهم، فقال سبحانه: **«قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ»** يعني لا تأمننا عليه ولا تبعثه معنا مع نصحنا له **«أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ»** بالنون يضاف إليهم، وبالياء إلى يوسف، قيل: يرتع في بقول الصحراء ويلعب، عن أبي علي، وقيل: يبسط ويسعى فيما يريد، عن مجاهد، وقيل: نرعى مواشينا ونلعب، وقيل: نرتع فيما نشتهي الطعام، ونلعب في المراعي، عن الأصم **«وَإِنَّا لَهُ»** ليوسف **«لَحَافِظُونَ»** قيل: نحفظه لنرده عليك، وقيل: نحفظه في حال لعبه، قال مقاتل: في الآية تقديم وتأخير، وذلك أن إخوة يوسف قالوا له: أرسله، فقال أبوهم: إنه ليحزنني، فحينئذ قالوا: ما لك لا تأمنا على يوسف وإنا له لناصحون؟، والكلام يصح من غير تقديم ولا تأخير، فلا معنى لحمله عليه، وقيل: استأذنوه دفعات فلم يأذن، فقالو: ما لك لا تأمنا؟ قال الحسن: جعل يوسف في الجب، وهو ابن تسع عشرة، وكان في البلاء إلى أن وصل إليه أبوه ثمانين سنة، ولبث بعد الاجتماع ثلاثًا وعشرين سنة، ومات وهو ابن عشرين ومائة سنة.

وذكر الأصم: كان يوسف يوم ألقي في الجب له[2] عشر سنين، وقيل: كان له ثماني عشرة سنة، وقيل: اثنتا عشرة سنة، والأقرب أنه كان صغيرًا، فما قاله الأصم أقرب.

---

(١) انظره في: اللسان (سمع)، وتاج العروس (سمع).

(٢) له: وله؛ ش، ض.

۞ الأحكام

تدل الآية على أنهم كانوا صبيانًا صغارًا من وجهين:

أحدهما: قوله: «**نرتع ونلعب**» وهذا لا يكون من كلام البالغين أن يستأذنوا في اللعب.

وثانيهما: إذنه لهم، وترك الإنكار.

ويدل قوله: «**وإنا له لحافظون**» على كونه صَبيًّا يحتاج إلى الحفظ.

وتدل على ظهور حسدهم ليوسف حيث منعه[1] يعقوب عن الخروج معهم، وأنه كان يحرسه منهم، ولا يأمنهم عليه، وإنما منعه خوفًا عليه منهم.

ومتى قيل: كيف يكون اثنا عشر ولدًا[2] كلهم أطفال؟

قال أبو علي: كانوا بني عَلَّاتٍ، فلا يمتنع تقارب سنهم، فلا يستنكر ذلك.

ومتى قيل: هل تدل الآية على إباحة اللعب؟

قلنا: اللعب لا يباح للمكلفين، ولكن كانوا صبيانًا، وقيل: في اللعب ما هو مباح كالرمي والاستباق، وقد روي عن النبي ﷺ: «أنه كان يمر بالحسن والحسين ـ صلوات الله عليهما ـ، وهما يلعبان فلا ينكر»، وروي أنه قال: «كل لعب حرام إلا ثلاثة: لعب الرجل مع فرسه، وقوسه، وأهله»[3]، وفي حديث أبي رافع: كنت ألاعب الحسن والحسين ـ عليهما السلام ـ بالمداحي، وله تفسير ليس هذا موضعه قد استقصيناه في (جلاء الأبصار).

قوله تعالى:

﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾ فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾﴾

---

(١) منعه: منع؛ ش، ض.

(٢) ولدًا: ولد؛ ش، ض.

(٣) الترمذي رقم ١٦٣٧، وابن ماجة ٢٨١١، ومسند أحمد رقم ١٧٣٣٨.

۞ القراءة

قرأ «الذيب» بترك الهمز أبو جعفر ونافع وعاصم والكسائي، والباقي بالهمز، وهما لغتان[1]، وذكرنا الخلاف في غيابة وغيابات.

۞ اللغة

الذئب: سَبْعُ معروف، وقيل: أصله من تَذَاءَبت[2] الريح: إذا أتت من كل جانب، سمي بذلك كأنه يحتل من كل جهة، وذُئِبَ الرجل: وقع الذئب في غنمه، وأرض مَذْأَبَةٌ: كثيرة الذئاب، وجمع الذئب: أَذْؤُب[3] وَذِئَابٌ وذُؤْبان.

وشعرت بالشيء: فطنت له، ومنه: سمي الشاعر لفطانته، وليت شعري، أي: ليتني علمت، والمشاعر: المناسك، والشعائر: إعلام الحج، واحدها شعيرة، وقيل: شعارة.

۞ الإعراب

ويقال: أين جواب (لما) في قوله: «فلما ذهبوا»؟

قلنا: محذوف، واختلفوا في تقديره: قيل: عظمت فتنتهم، وقيل: كَبُرَ[4] ما قصدوا إليه، وقيل: جوابه فعلوا ذلك، فحذف، عن أبي مسلم، وقيل: أجمعوا على قطيعة الرحم وعقوق الوالد، وقيل: على مذهب الكوفيين الواو مقحمة، تقديره: أجمعوا، والبصريون لا يجيزون إقحام الواو؛ لأنه لم يثبت بحجة، ولا قياس، وقيل: جوابه: (أوحينا)، والواو زائدة على هذه أيضًا.

«عصبة» رفع؛ لأنه خبر الابتداء، كقولك: زيد قائم، وروي عن علي بالنصب (عصبة) على تقدير: ونحن نجتمع عصبة.

---

(١) حجة القراءات ٣٥٦.

(٢) تذاءبت: تذايب؛ ش، ض.

(٣) أذؤب: أذاب؛ ش، ض.

(٤) كبر: كبير؛ ش، ض.

۞ المعنى

ثم بَيَّنَ تعالى أنهم لما أظهروا الشفقة والنصيحة هَمَّ يعقوب أن يبعثه معهم، وحثهم على حفظه، فقال سبحانه: «قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي» يعني يعقوب قال لهم: إني[1] ليغمني «أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ[2]» أي: يحزنني غيبته عني، ومفارقته إياي، عن أبي مسلم، وقيل: ليغمني أخاف عليه شغلكم بالرعي أو غيبتكم وانفراده عنكم، قيل: كان يعقوب رأى في منامه أن الذئب شد عليه، وهو ينزعه منه، فلهذا قال ذلك، وقيل: خاف عليه الضياع، فأكد عليهم في الحفظ، وقيل: كانت أرضهم مَذْأَبَةً، فخاف عليه الذئب، قال الحسن: علم أنه لا يأكله الذئب، لكنه خَوَّفَهُم، وقيل: كانوا لا يعلمون ما يقولون ليعقوب إن اعتلوا، فلما قال: أخاف أن يأكله الذئب قالوا: وجدنا العلة «قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ» جماعة نرى الذئب قد قصده، فلا نمنعه عنه «إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ» قيل: كالذي ذهب رأس ماله على رغم منه، وقيل: إنا عجزة ضعفة، وقيل: خسرنا أنفسنا حيث دفع عنا، وخسرنا أخانا، عن أبي علي، فتكفلوا به وبحفظه، قال الحسن: وايم الله كانوا أخوف عليه من الذئب «فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ» قيل: فيه حذف، وهو أنه أرسله معهم، قيل: أرسله إرادة لفرح قلبه في الخروج معهم، وقيل: إجابة لما سألوه ليؤدي إلى ألفة ومحبة، وذهبوا به «وَأَجْمَعُوا» أي: عزموا جميعًا "أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ» قعر البئر الذي يغيب فيها الشيء، عن الحسن، وقيل: طلبوا بئرًا قليلة الماء، فجعلوه فيها، وقيل: بل جعلوه في جانب منها، وقيل: أرسله معهم، فأخرجوه مكرمًا، فلما وصلوا إلى البئر أظهروا العداوة، وجعلوا يضربونه، وهو يستغيث بواحد واحد فلا يغيثه، ويقول: يا أبتاه، فهموا بقتله، فمنعهم يهوذا، فانطلقوا به إلى الجب، فجعلوا يدلونه في البئر، وهو يتعلق بشفير البئر، ونزعوا قميصه، فقال: لا تفعلوا ردوا عليّ القميص، أتوارى به، فيقولون: ادع الشمس والقمر والأحد عشر الكوكب تؤنسك، فيقول: لم أرَ شيئًا، فربطوا يده ودلوه في البئر، وكان في البئر ماء، فسقط فيه، ثم آوى إلى صخرة، فكان يهوذا يأتيه بالطعام،

(١) إني: أي؛ ش، ض.
(٢) به: ـ ، ض.

عن السدي، وقيل: أمر الله تعالى صخرة حتى ارتفعت من أسفل البئر فوقع يوسف عليها، وهو عريان، فأتى جبريل، وكان قميص إبراهيم الذي أتي به من الجنة حين ألقي في النار معلقًا على يوسف في عنقه فأخرج القميص منه، وألبسه إياه، وقيل: أضاء له البئر، وعذب الماء حتى أغناه عن الطعام والشراب، وقيل: مكث في الجب ثلاثة أيام «**وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ**» إلى يوسف قيل: أعطاه الله الرسالة وهو في الجب، والبشارة بالنجاة والملك، وأنهم محتاجون إليه، عن الحسن وغيره، وقيل: البئر وسلامته فيها كانت معجزة له، وقيل: أعطاه الرسالة وتأخر الأداء[١] لضرب من المصلحة «**لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا**» أي: لتخبرنهم بهذا الأمر «**وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ**» قيل: لا يعلمون أنك تخبرهم بما يؤول إليه حالك، وقيل: لا يشعرون بأنه أوحي إليه، عن قتادة، ومجاهد، وقيل: لا يشعرون أن الله أطلعه على ما أرادوا به، وقيل: لا يعلمون بأن يوسف في وقت ينبئهم بأمرهم، عن ابن عباس، والحسن، وابن جريج، والأصم، وقيل: لما دخلوا مصر على يوسف عرفهم، وهم له منكرون، أخذ الصاع ونقره، فَطَنَّ، فقال: إن هذا الجَامَ يخبرني أنه كان لكم أخ من أبيكم ألقيتموه في الجب، وبعتموه بثمن بخس، وذلك قوله: «**لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا**»، عن ابن عباس، قيل: كان الماء كدرًا، فصفي، وعذب، ووكل الله به ملكًا يحرسه، ويطعمه، عن مقاتل، وقيل: كان جبريل يؤنسه، حكاه الأصم.

۞ الأحكام

تدل الآية على أنه أوحي إلى يوسف وهو في الجب، وهو قول المفسرين أجمع، الحسن، وقتادة، والأصم، وأبو علي، وأبو مسلم، والقاضي.

ومتى قيل: كيف صار نبيًا في صغره؟

قلنا: كما صار عيسى ويحيى ـ عليهما السلام ـ، وإذا أكمل الله تعالى[٢] العقل، وأتم الآلة، فلا مانع من إرساله.

(١) وغيره وقيل البئر. . . وتأخر الأداء: ـ، ض.

(٢) تعالى: ـ، ض.

ومتى قيل: فيه نفرة؟

قلنا: النفرة إنما هي لو أرسل وحاله كما كان، فأما إذا صار كالبالغ فهو أقرب إلى القبول، ويكون معجزة تامة.

ومتى قيل: كيف أوحى الله من غير معجز، وإن كان فلا يستدل به؟

قلنا: يجوز تقديم الرسالة وتأخير الأداء لضرب من المصلحة تسكينًا لقلبه وعلو درجته، ثم لا بد من معجزة يعلم أنه رسول، ثم يتأخر المعجز الذي تستدل به أمته إلى وقت الأداء، كما يجوز تقدم الأمر والنهي على حال التكليف، ولا يقال: إنه وحي إلهام؛ لأنه خلاف الظاهر وخلاف إجماع المفسرين، ولا يحمل ذلك على أنه معجزة ليعقوب؛ لأنه لا تعلق له به، ولأنه لا مانع من حمله على ما ذكرنا، ولأنه كان يجب أن يعرفه يعقوب، ولو عرفه لكان يلتقطه دون السيارة.

وتدل على أنه يجوز التخويف بشيء، ويعلم أنه لا يقع؛ لأن يعقوب كان يعلم أنه يَسْلَمُ ويبعث نبيًا.

ويدل الألف واللام على أنهم أرادوا بئرًا معروفة معهودة عندهم تأوي إليها السيارة، وكانت على ظهر الطريق.

قوله تعالى:

﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ عِشَآءٗ يَبۡكُونَ ١٦ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ ١٧ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖۚ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ١٨﴾

القراءة

قراءة العامة: «بدَمٍ كذِب» بالذال معجمة من فوق، وعن عائشة: «بدمٍ كدِبٍ» بالدال، أي: دم طري.

وقراءة العامة: «**فصبر جميل**» على تقدير: صبري صبر جميل، وقيل: شأني صبر جميل، عن قطرب، فهو خبر ابتداء محذوف، وقرأ أشهب العقيلي: «**فصبرًا جميلاً**» على المصدر أي: لأصبرن صبرًا جميلا، قال ذو الرمة:

أَلاَ إِنَّمـا مَـيٌّ فَـصَـبْـرًا بـلـيَّـة   وَقَدْ يُبْتَلَى الْحُرُّ الكَرِيمُ فَيَصْبِرُ

وقيل: هو نصب على الإغراء، أي: فاصبري يا نفس صبرًا جميلاً، أو عليك صبرًا جميلاً، فأما الرفع فقال الشاعر:

يَشْكُو[1] إِلَيَّ جَمَلِي طُولَ السُّرَى   يا جَملي ليس إليّ المشتكى

صَبْرٌ جَمِيلٌ فَكِلانا مُبْتَلى[2]

يعني: ليكن منك صبر جميل، وقيل: هو رفع بالابتداء، وخبره محذوف بتقدير: فصبر جميل أَوْلَى من الجزع الذي لا ينبغي لي.

اللغة

العِشاء: آخر النهار، وهو طرف من أطراف الزمان، وقيل: العشاء أول ظلام الليل، وقيل: العشاء: من زوال الشمس إلى الصباح، والعشاء: من صلاة المغرب إلى العتمة، والعشاء بفتح العين: الطعام، يقال: عشوت فلانًا وعشيته: أطعمته، والأعشى: الذي لا يبصر بليل، والعشاء في العين المصدر؛ لأنه يستضيء ببصر ضعيف أخذ من العشاء.

الاستباق: افتعال من السبق، وأصله: أن يتقدم أحدهما صاحبه، ومنه: السباق، سبق يسبق سبقًا، والسَّبَقُ: الخطر، واستبقا ما زادا[3] حتى يظهر الأقوى، ومنه: المسابقة، وهو على ثلاثة أوجه: السباق، وهو جائز في الخيل والإبل بغير عوض، ويجوز أن يعوض من الجانبين، فأما أن يعوض غيرهما فيجوز. والرمي يجوز

(١) يشكو: شكى؛ ش، ض.
(٢) البيت للملبد بن حرملة الشيباني. انظره في اللسان (شكا) وتهذيب اللغة (شكا).
(٣) ما زادا: ما زاد، ض.

بالاتفاق، واختلفوا في المسابقة على الأقدام، فقال أصحابنا: يجوز بعوض وغير عوض، ولأصحاب الشافعي فيه وجهان: أحدهما: يجوز، والآخر: يجوز بعوض، واختلفوا في الصراع على هذا الخلاف، فأما العوض في الموضع الذي يجوز كيف يلزم، فعندنا يلزم بالمسابقة، وليس العقد بلازم، وقال الشافعي: هو عقد لازم.

۞ الإعراب

يقال: أين جواب (لو) في قوله: «**ولو كنا صادقين**»؟

قلنا: محذوف، دل عليه ما تقدم من الكلام، وهو قوله: «**ما أنت بمؤمن لنا**» تقديره: ولو كنا صادقين ما صدقتنا لاتهامك إيانا في أمر يوسف.

«**بدم كذب**» كَسَرَ كذب؛ لأنه نعت للدم، ومعناه: مكذوب فيه، يقال: هذا ماء سَكْب، وشراب صَب، يعني مسكوب ومصبوب، وقيل: في كذب، وقيل: بدم هو كذب، قال الفراء: ويجوز «كذبًا» بالنصب على تقدير: جاؤوا بالدم، وكذبوا كذبًا[1].

(أمرًا) نصب بـ(سولت)، والفاعل (أنفسكم)، ثم ابتدأ (فصبر)، وقد بينا ما قيل فيه.

۞ المعنى

ثم بَيَّنَ تعالى ما قالوا حين رجعوا إلى أبيهم، فقال سبحانه: «**وَجَاءُوا أَبَاهُمْ**» يعني إخوة يوسف انقلبوا إلى أبيهم «**عِشَاءً**» يعني ليلاً ليلبسوا على أبيهم، وليكونوا أجرأ على الاعتذار «**يَبْكُونَ**» قيل: لما سمع أصواتهم فزع، وقال: ما بالكم؟ «**قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ**» قيل: نَنْتَضِلُ من السباق في الرمي، عن الزجاج[2]، وقيل: نستبق بالعدو ليبين أينا أسرع عدوًا، عن أبي علي، وقيل: نشتد، عن السدي، وروي أن في قراءة ابن مسعود (ننتضل) «**وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا**» أي: ما ننتفع به من الثياب والطعام وغيره «**فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ**» قيل: أكل الذئب يوسف، وقيل: عَرَّضُوا وأرادوا أكل الذئب المتاع، والوجه هو الأول «**وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا**» أي: بمصدق لنا فيما نقول «**وَلَوْ**

---

(١) معاني القرآن للفراء ٢/ ١٨٨.

(٢) معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٣/ ٩٤.

كُنَّا صَادِقِينَ»، عن الحسن، والسدي، وأبي علي، والزجاج، وإنما قالوا ذلك لأنه كان يتهمهم في أمره «**وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ**» أي: قميص يوسف «**بِدَمٍ كَذِبٍ**» لأنه لم يكن دم يوسف، وقيل: ذبحوا سخلة، وجعلوا دمها على قميص يوسف بدم كذب، عن ابن عباس، ومجاهد، وقيل: قال لهم: أروني القميص فقال: يا بني ما عهدت الذئب حليمًا، لو أكل لحمه لمزق قميصه، عن الحسن، فقالوا: بل قتله اللصوص، فقال: كيف قتلوه وتركوا قميصه، وهم إلى قميصه أحوج منهم إلى قتله، وقيل: كان في قميص يوسف ثلاث آيات: حين ألقي على وجه أبيه فارتد بصيرًا، وحين قُدَّ من دبر، وحين جاؤوا على قميصه بدم كذب، عن عامر الشعبي. فحينئذ «**قَالَ**» يعقوب «**بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ**» يعني: ليس الأمر كما تقولون بل سولت، قيل: زينت، وقيل: التسويل بتزيين النفس بما ليس بحسن، عن قتادة، وقيل: سهل بعضكم لبعض حتى يسهل[1] عليكم، ففعلتموه، عن أبي مسلم، وأبي علي «**أَمْرًا**» أي: في يوسف غير الذي قلتم ففعلتموه «**فَصَبْرٌ جَمِيلٌ**» أي: شأني صبر جميل، يعني أصبر صبرًا جميلاً، والجميل: هو صبر لا شكوى فيه ولا جزع، والصبر إنما هو على فعل الله، وهو تخلية، وقيل: امتحانه بمحبة يوسف مع مفارقته، فأما الصبر على فعل الظالم فلا يجب، وقيل: معناه لا أعاشركم غير جميل ولا عبوس، بل أعاشركم جميلاً، وقيل: لما سقط حاجبا يعقوب على عينيه، قيل له: ما هذا؟ قال: طول الزمان وكثرة الأحزان، فأوحى الله إليه: يا يعقوب أتشكوني؟ قال: رب خطيئة أخطأتها فاغفرها، وهذا بعيد؛ لأن ما قاله يعقوب ليس بشكوى، وهو بمنزلة قول أيوب: ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾ [الأنبياء: ٨٣]؛ لأن الشكوى من فعل الظالم جائز، وقيل: يجوز أن يكون متعبدًا بترك إظهار الشكوى مندوبًا إليه، كما هو في شريعتنا، وقيل: نزل البلاء بيعقوب على كبره وبيوسف[2] على صغره بلا ذنب منهما، فأكب يعقوب على حزنه، وانطلق يوسف في رقه، وكل ذلك بعين الله تعالى يرى ويسمع حتى أتى بالمخرج[3]، وكل ذلك امتحان

(١) يسهل: سهل، ض.

(٢) وبيوسف: ويوسف، ض.

(٣) بالمخرج: الفرج، ض.

«وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ» قيل: المعين لي وبه أستعين عليكم فيما تصفون من أمر يوسف، وقيل: المستعان على الصبر في ذلك، عن أبي علي، وأبي مسلم، وقيل: على احتمال الحزن لأجل ما تصفون.

الأحكام

تدل الآية على أن البكاء لا يدل على صدق دعوى الباكي.

وتدل على جواز الاستباق؛ لأنه لم ينكر عليهم ذلك، وقد بيَّنَّا.

وتدل على علمه بكذبهم حيث قال: «سولت لكم أنفسكم».

وتدل على وجوب الصبر عند الشدائد، ونزول المحن، والاستعانة بالله، وفيه تأديب لكل من نزل به محنة، وروي أنأهل الإفك لما كذبوا على عائشة بما ذكروا، قالت: (مثلي ومثلكم كمثل يعقوب وولده، قال: فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون)، فعند ذلك أنزل الله تعالى براءتها.

قوله تعالى:

﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنِۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾

القراءة

قرأ عاصم وحمزة والكسائي: «بشرى» بغير ألف[1]، وسكون الياء، وقرأ الباقون: «يا بشرايَ» بالألف، وفتح الياء على الإضافة، بشر أصحابه بوجدان عبد، فأما الأول فقيل: نادى المستقي رجلاً من أصحابه يسمى: بشرى، كما يقال: يا زيد، عند السدي، وقيل: بشرى من البشارة، وبشرى وبشراي لغتان بمعنى.

---

(١) حجة القراءات ٣٥٧.

اللغة

السيارة: مارة الطريق والمسافرون من السير، والوارد الذي يتقدم الرفقة إلى الماء ليستقي، وأصله من الورود، والموارد: الطرق، والموارد: ما وردت عليه من ماء.

أدليت الدلو: أرسلتها في البئر لتملأها، ودلوتها إذا أخرجتها ملأً، ويقال: بَشَّرْتُ فلانًا أبشره تبشيرًا، وذلك يكون بالخير والشر، فإذا أطلقت فالبشارة بالخير، والنِّذَارةُ بغيره، وبشرت بالتخفيف والتشديد بمعنى، وبشراي وبشرى بمعنى، ويجوز بُشْرَيّ بالتشديد، وهي لغة هذيل، ولا يقرأ به، قال الشاعر في التخفيف:

بَشْرتُ عِيَالي إِذْ رَأَيْتُ صَحِيفَةً[1] أَتَتْكَ مِن الحَجَّاجِ يُتْلَى كِتَابُها[2]

ومنه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ﴾ [آل عمران: ٤٥] قرئ بالتشديد والتخفيف.

والسر: خلاف الإعلان، أسررته إسرارًا، ونظيره: الإخفاء.

والبضاعة: القطعة من المال تجعل للتجارة، وأصله: القطع، يقال: بضعت الشيء: إذا قطعته، ومنه: المبضع.

وشرى: باع، ومنه: (بئس ما شروا)، قال الشاعر:

وَشَرَيْتَ بُرْدًا لَيْتَنِي مِنْ بَعْدِ بُرْدٍ كُنْتُ هَامَةْ

واشتريت: ابتعت.

والبخس: النقص من الحق، بخسه: إذا نقصه.

والزهيد[3]: القليل، وأزهد الرجل إزهادًا، ورجل مزهد: قليل المال. قال الخليل: الزهادة في الدنيا، والزهد في الدين خاصة.

الإعراب

«بشراي» لا بد من فتح الياء؛ لأن قبلها ألف ساكنة، كقولك: هذه عَصَايَ،

---

(١) صحيفة: محقة؛ ش ض.

(٢) الطبري ٦/٣٦٨

(٣) الزهيد: الزهد؛ ش، ض.

وهذه قَفَايَ، وموضعه رفع؛ لأنه نداء مفرد، فأما بشراي بتشديد الياء لغة هذيل، وقيل: لغة طيء، فإنهم يقلبون الألف ياء، ثم يدغمون الياء والتاء.

«**بضاعة**» نصبت[١] على الحال.

«**بخس**» مصدر، وضع موضع الاسم.

المعنى

ثم بَيَّنَ تعالى حاله بعد إلقائه في البئر، فقال سبحانه: «**وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ**» قيل: رفقة مارة نزلت بقرب البئر، قيل: كانوا مقبلين من مَدْيَنَ يريدون مصر من أهل مصر، عن الأصم، وقيل: كانت البئر بظهر الطريق، وقيل: بل كانت بعيدة من العمران، إنما كانت للرعاة[٢] «**فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ**» قيل: رجلاً من أهل مدين، يقال له: مالك بن ذعر، ليطلب لهم الماء، وقيل: بعثوا رجلين: مالك بن ذعر، وعون بن عامر «**فَأَدْلَى دَلْوَهُ**» أي: أرسل في البئر ليستقي، فتعلق يوسف بالحبل[٣]، فلما خرج إذ هو بغلام أحسن ما يكون، فـ «**قَالَ**» المدلي «**يَا بُشْرى**[٤] **هَذَا غُلامٌ**»، عن قتادة، والسدي، وقيل: نظر[٥] في البئر ورآه، فقال: هذا غلام، فأخرجوه، عن أبي علي، وقيل: بشراي اسم رجل من أصحابه ناداه، عن السدي، وقيل: بشر أصحابه بأنه وجد عبدًا، عن قتادة «**وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً**» قيل: أخفاه المدلي ومن معه عن باقي التجار لئلا يسألوا الشركة فيه، لرخص ثمنه، عن مجاهد، والسدي، فقال: بضاعة استبضعناها لبعض أهل المال إلى مصر، وقيل: أسروه، يعني: إخوته أخفوا أنهم إخوة، وقالوا: هذا عبد لنا، وتابعهم يوسف على ذلك لئلا يقتلوه، عن ابن عباس، وقيل: أسرّه[٦] بعض التجار من بعض، وقيل: أسروا بيعه «**بضاعة**» أي: قالوا: هذه بضاعة لقوم، وقيل: اعتقدوا أن يجعلوها

---

(١) نصبت: نصب، ض.
(٢) للرعاة: لرعاة، ض.
(٣) بالحبل: في الحبل، ض.
(٤) يا بشرى: يا بشراي؛ هي إحدى القراءات المتواترة وربما هي قراءة المؤلف أيضًا.
(٥) نظر: نظروا؛ ش، ض.
(٦) أسرّه: أسروه؛ ش، ض.

بضاعة لملك مصر، وقيل: اعتقدوا فيه أنه بضاعة، وكتموا حاله، كأنهم علموا أنهم إن أظهروا ذلك لا يتهيأ لهم بيعه، عن أبي مسلم، وقيل: أتاه يهوذا بالطعام فلم يجده في البئر فأخبر إخوته فطلبوه، فإذا هم بمالك[١] نزول في رفقة، وعندهم يوسف، فقالوا: هذا عبدنا أبق منا، وقال وهب: كان يهوذا ينظر من بعد، ولما أخرجوه من الجب أخبر الآخرين فأتوا مالكًا، وقالوا: هذا عبدنا. فقال مالك: أنا أشتريه منكم «**وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ**» أي: بما يفعلون من أمر يوسف وغيره «**وَشَرَوْهُ**» أي: باعوه، قيل: إخوة يوسف باعوه، عن ابن عباس، ومجاهد، وأبي علي، وقيل: السيارة هم الذين باعوه، عن قتادة، وقيل: الذين أخرجوه من الجب باعوه من السيارة، عن الأصم، قال الأصم في قولهم إن إخوته كانوا حضورًا، وقالوا: هو عبد لنا أبق وشروه: أكره أن يلحق هذا بهم؛ لأن همهم كان تنحيه عن أبيه «**بِثَمَنٍ بَخْسٍ**» ناقص، قليل، وقيل: حرام؛ لأن ثمن الحر حرام، عن الضحاك، ومقاتل، والسدي، والأصم. وقيل: ظلم، عن قتادة، وقيل: قليل، عن عكرمة، والشعبي، وأبي مسلم، قال أبو مسلم: لأن القليل يعني العد فيه عن الوزن، وقيل: زيف «**دَرَاهِمَ**» بدل من الثمن «**مَعْدُودَةٍ**» قيل: قليلة غير موزونة؛ لأن عد القليل يغني عن الوزن، عن أبي مسلم، وقيل: في ذلك الزمان كانوا لا يزنون ما نقص عن أوقية وهو أربعون درهمًا، واختلفوا في عدد الدراهم فقيل: كانت[٢] عشرين، عن ابن مسعود، وابن عباس، وقتادة، والسدي، فاقتسموها درهمين درهمين، وقيل: اثنين وعشرين[٣]، عن مجاهد، وقيل: أربعين[٤]، عن عكرمة «**وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ**» قيل: إخوة يوسف كانوا من الزاهدين فيه وأرادوا إبعاده، ولم يعلموا حالهِ وكرامته على الله، قال الأصم: وهذا ليس بشيء، وقيل: المستقون زهدوا في شرائه؛ لأنهم وجدوا عليه علامة الأحرار، وأخلاق أهل النبل، فكرهوه مخافة أن تلحقهم تبعة، وقيل: كانوا في نفس يوسف من الزاهدين لم يشتروه للفجور وإنما اشتروه للربح، وقيل: الذين باعوه

---

(١) بمالك: بملك، ش.

(٢) كانت: كان، ض.

(٣) اثنين وعشرين: اثنان وعشرون؛ ش، ض.

(٤) أربعين: أربعون؛ ش، ض.

كانوا من الزاهدين في الثمن، عن أبي علي، وقيل: زهدوا في اصطناعه لعلمهم أنه ليس بعبد، وإن كان عبدًا أن تلحقهم تبعة، عن أبي مسلم.

۞ الأحكام

تدل الآية على أن اللقيط حكمه حكم الأحرار، وذكر إسماعيل بن إسحاق عن علي عليه السلام أنه قضى في اللقيط أنه حر، وقرأ: «وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ».

قال القاضي: واختلف في يوسف في ذلك الحال، فقيل: كان[1] كبيرًا كما روي عن الحسن أنه يذكر فيستدل بكون ثمنه حرامًا على أن اللقيط حر، قال: ويبعد التعلق بهذه الآية؛ لأن القوم لم يكن صنيعهم حجة، ولا نعلم كيف كانت الشريعة، وأما الآن فلا شبهة أن ظاهر اللقيط الحرية، كما أن ظاهره الإسلام، إلا أن يثبت خلاف ذلك، وإنما الخلاف إذا بلغ كافرًا فعلى قول أبي حنيفة يرد إلى الإسلام، وعند الشافعي إن أظهر دينًا يقر عليه بالحرية أخذ منه[2] الجزية، وإلا رد إلى دار الحرب، وان أَقَرَّ بالرق على نفسه يقبل إقراره، فإن عقد عقودًا ثم أقر صُدِّقَ في حق نفسه دون غيره مما عاقده، وقال الشافعي: تفسخ عقوده.

وتدل على أن ذلك البيع والشراء وإلقاءه في البئر كل ذلك فعلهم؛ لذلك ذمهم، ولو كان خلقًا لله تعالى لما لحقهم لوم، فيبطل قول المجبرة في المخلوق.

قوله تعالى:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾

---

(١) كان: ـ، ض.

(٢) منه: عنه، ض.

۞ اللغة

الكرم والكريم واحد، وصف بالمصدر، والكَرْم: العنب، سمي لكرمه؛ وذلك لأنه ذلل لقاطعه، وأكرم الرجل: عظّم.

والمثوى: موضع المقام، والثوى: الإقامة، وثوى وأثوى أقام، وأم مثواك: صاحبة منزلك، والثوية: مأوى الغنم لإقامته.

والغالب: القادر من غير مانع حتى يقع ما يريد، غلب الرجل غلبًا وغلبة والغلاب المغالبة، ورجل غلبة يغلب.

والأشُدُّ: كمال القوة، وقيل: لا واحد لها من لفظها، وقيل: واحدها شَدٌّ في القياس كالأَضُرِّ واحدها: ضَرّ، والأشر واحدها: شَرٌّ، وأصله من الشدة[١].

۞ الإعراب

(مصر) لا ينصرف؛ لأنه اسم أعجمي معرفة، وإذا نكرته صرفته مَصْرًا من الأمصار. ومنه: ﴿ٱهْبِطُوا۟ مِصْـرًا﴾ [البقرة: ٦١].

والكاف في قوله: «**وكذلك**» للتشبيه[٢]، شبه التمكين له في الأرض بنجاته من الهلكة.

واللام في قوله: «**ولنعلمه**» على معنى الكلام المتقدم، تقديره: دبرنا ذلك لنمكنه ولنعلمه كذلك.

۞ المعنى

ثم بَيَّنَ تعالى حاله بعد بيعه، فقال سبحانه: «**وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ**» قيل: لما أخرجوه من البئر انطلق به مالك بن ذعر إلى مصر، فلما دخل مصر تلقاه العزيز واسمه: قطفير، عن ابن عباس، وقيل: إطفير، وكان على خزائن مصر، والملك:

(١) الشدّة: الشره، ض.

(٢) للتشبيه: التشبيه، ض.

الريان بن الوليد، ولم يمت حتى آمن بيوسف، فاشترى يوسف منه بأربعين دينارًا وزوج نعل وثوبين أبيضين، عن ابن عباس. وقيل: عرضه على البيع في سوق مصر، فتزايدوا حتى بلغ ثمنه وزنه ورِقًا، عن وهب، وابتاعه العزيز، وقيل: الذي اشتراه من مصر كان رجلاً «من مصر» أي: من أهل مصر، فحذف المضاف، وأقام المضاف إليه مقامه «**لامْرَأَتِهِ**» واسمها: راعيل، عن ابن إسحاق، وهي التي تسمى زليخا. «**أَكْرِمِي مَثْوَاهُ**» أي: عظمي منزله ومقامه، وقوله: «**أَكْرِمِي مَثْوَاهُ**» أعظم منزلة من قولهم: أكرمته؛ لأن من أكرم غيره لأجله فهو أعظم منزلة ممن يكرمه في نفسه فقط، وقيل: أكرمي منزلته، عن قتادة، وابن جريج. وقيل: إنه رأى في يوسف سيماء الخير، فأوصى أهله به «**عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا**» أي: يكفينا أمورنا إذا بلغ وعلم الأمور، وقيل: ينفعنا بيعه بثمن صالح، عن أبي علي «**أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا**» نتبناه، قيل: وكان قطفير لا يأتي النساء، وكانت امرأته حسنة[1] ناعمة طاغية في ملك ودنيا، وقيل: أفرس الناس ثلاثة: العزيز حيث قال لامرأته: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ [يوسف: ٢١]. وبنت شعيب حيث قالت في موسى: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦]، وأبو بكر حين ولى عمر، عن ابن مسعود. وقيل: لما ابتاعه قال له: من أنت؟ قال: أنا يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، إنك لإذًا ابن ساداتنا وخيارنا، ومن أهل بيت مَنَّ الله عليهم، ادع الله لي ييسر لي ولدًا، فدعا يوسف فولدت له امرأته أربعة وعشرين ولدًا[2] في اثني عشر بطنًا «**وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ**» أي: كما خلصناه من الجب وأيدي إخوته، كذلك لطفنا له حتى تمكن في الأرض، وصار ملكًا إليه الأمر والنهي، وقيل: لما بلغ يوسف ثلاثين سنة استوزره فرعون مصر «**وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ**» قيل: علم الغيب معجزة له، فيخبرهم بما يحمل إليه، وقيل: عواقب الأمور، عن أبي مسلم، وقيل: علوم الشرع، وقيل: تأويل الرؤيا، وقيل: جميع ذلك «**وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ**» أي: قادر لا يعجزه شيء «**على أمره**» أي: تدابيره وأفعاله فيفعل ما يشاء، والضمير في «**أمره**» يعود على

---

(١) حسنة: ـ ، ض.

(٢) ولدًا: رجلًا، ض.

اسم الله، وقيل: غالب على أمر يوسف يحفظه ويحوطه ويدبر أمره ولا يكله إلى غيره «وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ» ما الله صانع بيوسف، وما تؤول إليه حال يوسف، وقيل: لا يعلمون أنه غالب على أمر يوسف.

ومتى قيل: (لِنُعَلِّمَهُ) مستقبل، فتدل أنه لم يكن نبيًا من قبل؟

قلنا: يجوز أن يترادف التعليم من الله تعالى على قدر الحاجة.

«وَلَمَّا بَلَغَ» يوسف «أَشُدَّهُ» أي: منتهى شبابه وقوته قيل: الأشد من ثماني عشرة سنة إلى ثلاثين سنة، عن ابن عباس، وقيل: ثلاثًا وثلاثين سنة، عن مجاهد، وقيل: عشرين سنة، عن الضحاك، وقيل: إلى أربعين سنة، وقيل: إلى ستين سنة «آتَيْنَاهُ» أعطيناه «حُكْمًا وَعِلْمًا» قيل: العقل والعلم، وقيل: النبوة، عن مجاهد، وقيل: الحكم النبوة، والعلم الشريعة، عن ابن عباس، وقيل: الحكم الدعاء إلى دين الله تعالى، والعلم: علم الشرع، وقيل: الحكم بين الناس، والعلم بوجوه المصالح، والصحيح أنه كان نبيًّا قبل ذلك، والحكم والعلم يؤتى النبي وغير النبي، وقيل: ما آتاه قبل ذلك كانت معجزة لأبيه، ولما بلغ أشده آتاه النبوة، والأول أصح، وقيل: آتاه العلم، ووفقه للعمل به وهو الحكمة «وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ» أي: كما جازينا يوسف على صبره كذلك نجزي سائر المحسنين، قيل: المؤمنين، عن ابن عباس، وقيل: المهتدين، وقيل: الصابرين على النوائب، عن الضحاك، وقيل: أراد به محمدًا-صلى الله عليه وعلى آله ـ كما فعلت بيوسف وأعطيته الملك بعد ما قاسى من البلاء، كذلك أفعل بك، عن ابن جرير.

۞ الأحكام

تدل الآية على أن الذي اشتراه غير صاحب الدلو، اشتراه منه لامرأته.

وتدل على أنه دبر أمر يوسف حتى مكنه وعلمه وبعثه نبيًّا، واختلفوا فيه على ثلاثة أوجه:

قيل: أوتي النبوة في الجب، وإنما فوض إليه الأمر أن يحكم، عن الحسن وأبي علي، وقد بَيَّنَّا أنه الصحيح وما قيل فيه.

وقيل: بعث نبيًّا في هذه الحالة، وهو عند انتهاء القوة، عن الأصم، وأبي مسلم، وذكر الأصم أن ما كان في الجب وفعل به كان معجزة له، فكأنه جوز تقديم المعجزة إرهاصًا.

وقيل: لم يكن نبيًّا مرسلاً، وهذا باطل؛ لأنه خلاف القرآن والإجماع.

وتدل على أن العلم من أعظم نعم الله تعالى، وقد استدل بعضهم بقوله: «**وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ**» أن النبوة جزاء للعمل، وليس كذلك؛ لأنه ليس في الآية أن النبوة جزاء للعمل، ولأن[1] النبوة قد تكون صلاحًا عند إحسانه، لا أنها تصير جزاء لإحسانه.

قوله تعالى:

﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٣﴾

القراءة

قرأ أبو جعفر ونافع وابن عامر: «**هِيتَ لك**» بكسر الهاء وفتح التاء، وقرأ ابن كثير: «**هيْتُ لك**» بفتح الهاء وضم التاء مثل جِئْتُ، وهي لغة، وقرأها ابن عمار عن ابن عامر بكسر الهاء وضم التاء وهمز الياء من هيَّأت[2] لك، وهو قراءة السلمي وقتادة وأبي وائل.

وقرأ أبو عمرو وعاصم وحمزة والكسائي ويعقوب «**هَيتَ**» بفتح الهاء وفتح التاء والياء غير مهموزة، وفتحت التاء[3] لأنها بعد ياء ساكنة مثل: وأَيْنَ[4]، وليت، ونحو

---

(١) ولأن: فلأن، ض.

(٢) تهيأت: هيأت؛ في جميع النسخ.

(٣) التاء: الياء؛ ش، ض.

(٤) وأين: رأيت، ش.

ذلك، وهي قراءة النبي ﷺ.، واللغة المعروفة، ومعناه هَلُمَّ، قال الشاعر لأمير المؤمنين قال أبو مسلم: أنشدناه المبرد.

أَبْـلِـغْ أَمِـيَـر الـمـؤمـنـيـن　　أخـا الـعـراق إذا أَتَـيْـتَـا[١]

أن الَـعـراق وأهـلـه　　عِـتـقٌ إلـيـك فَـهَـيْـتَ هَـيْـتَـا[٢]

وقال طرفة ـ وهو يشهد لقراءة ابن كثير ـ:

لَـيْـسَ قـومـي بـالأَبْـعَـدِيـن إذا مـا　　قـال داعٍ مـن الـعـشـيـرة هَـيْـتَ[٣]

وقد أنكر أبو عمرو والكسائي الهمز، ويحكى عن عكرمة: (هئت لك)، وعن يحيى بن يعمر: (هَيتِ) بفتح الهاء وكسر التاء، وعن يحيى بن وثاب: (هِئَتُ) بضم التاء وكسر الهاء، وهي قراءة غير مرضية، ويحكى عن علي وابن عباس: (هِيتُ) بكسر الهاء وضم التاء مثل (جِيتُ) من غير همز، ومثاله من الأسماء «بير وذيب»، ومعناه: هلم، وقيل: إذا ضم التاء فمعناه: هيأت لك.

اللغة

المراودة: المطالبة بأمر يعمل به، وأصله من راد يرود: إذا طلب المرعى، فهو رائد، وفي المثل: «الرائد لا يكذب أهله»، وجمعه: رُواد[٤]، وهو في الآية كناية عما تريد النساء من الرجال، ولا يقال في المطالبة بدين: راودوه، والمرود: الرفق في السير[٥]، ومنه: أرودت لهم روادًا ومرودًا بضم الميم وفتحها، ورويد تصغير رود، قال أبو مسلم: المراودة مفاعلة من الإرادة وهو من راد يرود، وأصل الإرادة من الراود الذي يدل عليهم. قولهم المراودة.

(١) أتيتا: ثبتا؛ ش، ض.
(٢) انظره في الصحاح (هيت)، واللسان (هيت).
(٣) الطبري ١٦/ ٢٠.
(٤) رواد: رادة؛ ش، ض.
(٥) في السير: والسير، ض.

وغلّقت بالتشديد من الإغلاق، وهو إغلاق الباب، ونقيضه: الفتح، وإنما شددت لتكثير الإغلاق، والمبالغة في الإيثاق. والباب معروف، وأصله من الواو، ودليله بُوَيْبٌ وأبواب، إلا أن حرف العلة وهو الواو سكنت وانفتح ماقبلها فصارت ألفًا.

وهيت: هلم، يقال للواحد والاثنين والجمع المذكر والمؤنث سواء.

۞ الإعراب

«**معاذ الله**» نصب على تقدير أعوذ معاذًا فهو مصدر. و«**أحسن**» فعل ماض وهو مبني على الفتح.

۞ المعنى

ثم بَيَّنَ تعالى ما همت به امرأة العزيز، وامتناع يوسف تعظيمًا له[1]، وتفخيمًا لشأنه، فقال سبحانه: «**وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا**» يعني امرأة العزيز التي يوسف في بيتها طلبت منه أن يواقعها «**وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ**» عليه وعليها، بابًا بعد باب، قيل: كانت سبعة أبواب، وقيل: باب الدار، وباب البيت، وإنما غلقت قيل: لئلا يفر منها، فقد كانت دعته قبل ذلك فأبى، وعرفت حاله، وتزينت بكل زينة، وغلقت الأبواب، ودعته إلى نفسها، وقيل: غلقت الأبواب لكيلا يطلع عليها أحد، وقيل: «**هَيْتَ لَكَ**» فيه قولان:

الأول: أنها لغة عربية، عن مجاهد وجماعة من المفسرين، ثم اختلفوا فقيل: هلمّ لك، عن ابن عباس، والحسن، وابن زيد، وقيل: أَقْبِلْ، حكاه أبو مسلم عن المبرد.

والثاني: أنه ليس بلغة عربية، عن عكرمة وغيره.

ثم اختلفوا، فقيل: هي بالقبطية: هلم لك، عن السدي، وقيل: بالسريانية:

---

(١) له: لها، ش.

عليك، عن الحسن، وقيل: هيت كلمة من كلام قومه، دعته بها إلى نفسها، عن الأصم، وهذا محمول على أحد ثلاثة أوجه:

أولها: موافقة اللغتين.

والثاني: أن تكون العرب أخذته وعربته، فتكون لغة عربية معربة، أو يقال: إنه تعالى حكى هذه اللفظة، كما قيلت[1] بتلك اللغة، كما ذكر في القرآن أسماء عبرانية، يدل على ما قلنا ما روى أبو عبيدة[2] قال: كان الكسائي يقول: هي لغة لأهل حورَان[3]، وقعت إلى الحجاز معناه «تعال».

«قَالَ» يوسف «مَعَاذَ اللَّهِ» أي: أعتصم بالله وأستجير به مما دعوتني إليه، وهو مصدر يقال: عذت عياذًا أو معاذًا، تقديره: عياذًا بالله إن أجبت إلى هذا، فكأنه أظهر الإباء، وسأل الله أن يعيذه ويعصمه «إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ» قيل: الله ربي رفع من محلي وأحسن إليّ، وجعلني نبيًّا فلا أعصيه أبدًا، عن الزجاج[4]، وقيل: أراد العزيز زوج المرأة، وهو مالكي أحسن مثواي أي: بإكرامي وبسط يدي، ورفع منزلتي، فلا أخونه، عن مجاهد، وابن إسحاق، والسدي، والأصم، وأبي علي، قال الحسن: يعني العزيز، وعليه أكثر المفسرين، وجوز أبو مسلم كلا الوجهين.

ومتى قيل: كيف سماه ربًا وهو حر لا يُمْلك؟

قلنا: يجوز أن يُمْلك عقلاً، وإنما لا يجوز شرعًا، ولا يعلم حكم للشرائع في ذلك الوقت، وقيل: كان مصورًا بصورة السيد، وقيل: يجوز أن يكون من عادة ذلك الزمان جواز إطلاق هذه اللفظة في غير المالك.

«إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ» أي: لا يظفر ببغيته وخيره من ظلم نفسه بمعاصي الله، وبهذا الفعل، عن أبي علي، وقيل: لا يفلح الزناة[5].

---

(١) قيلت: قالت؛ ش، ض.

(٢) أبو عبيدة: أبو عبيد، ض.

(٣) حوران: خوران، ش، ض.

(٤) معني القرآن وإعرابه للزجاج ٢/ ١٠١.

(٥) الزناة: ـ ، ض.

۞ الأحكام

تدل الآية على أن الواجب الامتناع من كل قبيح لرعاية حق الله تعالى، ويجوز أن يمتنع لرعاية حقوق غيره.

وتدل على أن الإقدام على المعصية ظلم.

وتدل على أن المتصور بصورة السيد يسمى رَبًّا.

وتدل على أن يوسف ما أرادها، ولا هم بقبيح؛ لأن جميع ما في الآية من كلامه يدل على ذلك، ومَنْ هَمَّ بقبيح لا يقول مثل ذلك.

وتدل على أن الواجب عند الدعاء إلى معصية الاستعاذة بالله ليعصمه من ذلك، ويدخل فيه دعاء الشياطين ودعاء شياطين الإنس[1]، ودعاء النفس، ونحو ذلك.

وتدل على أن تلك المراودة فعلها وأن الاستعاذة فعله، فيبطل قول المجبرة في المخلوق.

قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَـٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾﴾

---

(١) الإنس: للإنس، ض.

۞ القراءة

قرأ ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو ويعقوب: «**المخلِصين**» بكسر اللام في جميع القرآن على معنى أنهم يخلصون العبادة لله، فهم أخلصوا له بذلك، وقرأ الباقون بفتح اللام؛ أي: أخلصوا، واختيروا للنبوة[1].

وقراءة العامة: «**قُبُل**» و«**دُبُر**» بالتثقيل، وخفف ابن إسحاق ذلك، وهما لغتان.

۞ اللغة

الهم: القصد، وهو مقاربة الشيء من غير دخول فيه، قال الشاعر:

هَمَمْتُ وَلَمْ أَفْعَلْ وَكِدْتُ وَلَيْتَني[2] تَرَكْتُ عَلَى عُثْمَانَ تَبْكِي حَلائِلُهْ[3]

والبرهان: الحجة، يقال: برهن أي: بَيَّنَ بحجةٍ. والاستباق: «افتعال» من السبق، وهو: طلب السبق إلى الشيء.

والقد: الشق طولاً، ومنه: قد الأديم يقده قدًا، ويقال: هو مقدود إذا كان ذاهبًا في جهة الطول على استواء، وفلان حسن القد، أي: التقطيع، والقِدّ بكسر القاف: سير يقطع من جلد غير مدبوغ.

ألفيا: أدركا، يقال: ألفى يُلْفِي إلفاءً، قال: ألفى أباه بذلك الكسب يكسب أي: وجد أباه.

۞ الإعراب

(من) في قوله: «**قُدّ من دبر**» قيل: لابتداء الغاية إذ ابتداء القد كان منها، و(من) الثانية للتبعيض، أي: هو بعض الكاذبين، وإنما قال: «**من الخاطئين**» ولم يقل من الخاطئات لتغليب المذكر على المؤنث إذا اختلط.

---

(١) حجة القراءات ٣٥٨.

(٢) وليتني: فليتني، ض.

(٣) لضابئ البرجمي. انظره في: اللسان (قير)، وتاج العروس (قير).

المعنى

ثم بَيَّنَ تعالى ما جرى بينهما، ونزه نبيه عن كل سوء، فقال سبحانه: «**وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا**» أي: قصدت هي، وقصد هو، واختلف العلماء فيه على قولين: منهم من قال: لم يوجد من يوسف ذنب كبير ولا صغير، ومنهم من قال: بل وجد منه، ثم انصرف وندم.

فأما الأولون اختلفوا في معنى الآية على أقوال: فقيل: همها القصد والعزيمة، وهمه الشهوة وميل الطبع، عن الحسن، وأبي علي، قال الحسن: كان همها أخبث الهمم، وأما همه فما طبع عليه الرجال من شهوة النساء، ويقال: همني كذا: أي اشتهيت، وعلى هذا: «**لَوْلا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ**» يتعلق بمحذوف، تقديره: ولولا أن رأى البرهان لَعَزَمَ ولَفَعَلَ، وقيل: همها القصد، وهمه تمناها أن تكون له زوجة، عن الضحاك، عن ابن عباس، وقيل: الهم علق بما لا يصح تعليق العزم والإرادة به؛ لأنها موجودة باقية، فالذي يتعلق به الهم محذوف في الجانبين، فلا بد من إضمار، فكأنه قال: ولقد همت به أرادت الفاحشة منه، وهم بها لضربها ومنعها عن نفسه، كما يقال: هممت بفلان أي: بضربه وإيقاع مكروه به، ومعنى «**لَوْلا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ**» أي: لولا البرهان لضرب، ولو ضرب لأهلكه أهله، أو كانت تدعي عليه المراودة على القبيح، وأنه ضربها لامتناعها، فأراه الله تعالى البرهان ليمتنع من الضرب، وتقديره: وهم بضربها ودفعها، ولولا أن رأى برهان ربه لضرب فجواب (لولا) محذوف على هذا المعنى أيضًا، وقيل: في الآية تقديم وتأخير، أي: ولقد همت به ولولا أن رأى برهان ربه لهم بها، وهذا قول أبي مسلم وجماعة، وأنكر هذا الوجه الزجاج[1] وعلي بن عيسى وضَعَّفَاه، وعللا بوجهين: أحدهما: أنه لا يجوز تقديم جواب لولا، والثاني: أن جوابه يكون باللام كقوله: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ۝١٤٣ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصافات: ١٤٣، ١٤٤] وممن أجازه جماعة من أهل العربية، وقالوا: يصح أن يقال: لقد قُتِلْتَ لولا أن خلصتك، وقد قال تعالى: ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن

(١) معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٣/ ١٠١.

﴿رَبَطۡنَا عَلَىٰ قَلۡبِهَا﴾ [القصص: ١٠] وقيل: همها العزيمة، وهمه ما يخطر بباله من أمرها، ووسوس إليه الشيطان بالدعاء إليها من غير أن يكون منه عزم، عن الأصم، فسمي الخطور بالبال همًا من حيث كان الهم في الأكثر يقع عنده، والعزم يتبعه، والعرب تسمي الشيء باسم ما يقع عنده.

وأما الفرقة الثانية اختلفوا فيه، ورووا ما لا يليق بالأنبياء، فأضافوه إلى السلف، وهم عنه براء، وأطالوا الكلام فيه، وجملته أن بعضهم قال: قعد بين رجليها ينزع ثيابه، ورووه عن ابن عباس، وبعضهم قال: حل تكة سراويله، ورووه عن سعيد بن جبير، وقيل: جمع بينهما الشيطان، عن الضحاك، وزادوا شيئًا يقبح إضافته إلى الأنبياء، وقد نزهه الله تعالى عن ذلك بقوله: «**كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ**»، وقال: «**إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ**» وقال يوسف: «**ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ**» وقالت امرأة العزيز: «**أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ**».

فأما البرهان الذي رآه فقد اختلفوا فيه على أقوال:

أولها: هو حجة الله بتحريم الزنا والعلم بما على الزاني من العقاب، عن محمد بن كعب وأبي علي، وقيل: هو ما أتاه الله من آداب أنبيائه في العفاف وصيانة النفس عن الأرجاس، عن أبي مسلم، وقيل: رأى مكتوبًا في سقف البيت ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَسَآءَ سَبِيلٗا﴾ [الإسراء: ٣٢] وقيل: هو النبوة المانعة من ارتكاب الفواحش، عن الصادق عليه السلام، وقيل: كان في ذلك البيت صنم فسترته بأن ألقت عليه ثوبًا، وقالت: أستحي منه، فقال يوسف: تستحي من الصنم وأنا لا أستحي من الواحد القهار؟ عن علي بن الحسين ـ عليهما السلام ـ، وقيل: هو ما آتاه الله من العلم والحكمة، فكل هذه الوجوه مما يصح، ويكون لطفا من الله امتنع لأجله من الفاحشة، وقد روي في ذلك أشياء بعيدة، فقيل: البرهان أنه سمع قائلاً يقول: يابن يعقوب، لا تكن كالطير له ريش فإذا زنا ذهب ريشه، وقيل: بل سمع: أنت مكتوب في الأنبياء، وتعمل عمل السفهاء، وقيل: رأى صورة يعقوب عَاضًا على أنامله، عن ابن عباس، والحسن، وسعيد بن جبير، ومجاهد، وعكرمة، والضحاك، وقيل: رأى صورة الملك، عن ابن عباس، فإن ثبت هذا فالمراد به صور في نفسه صورة يعقوب،

والملك، وقيل: رأى كَفًا بدت فيما بينهما[١] مكتوب فيها النهي فلم ينته، فأرسل الله جبريل، وقال: إليك عبدي قبل أن يصيب الخطيئة فرآه عَاضًّا على أصبعه، عن وهب، وقيل: رأى يعقوب ضرب صدره، فخرجت شهوته من أنامله، فمن ذلك نقص أولاده، وقيل: هو سيده دنا من الباب، فذلك البرهان والامتناع لأجل هذه لا يليق بالأنبياء؛ لأن السفهاء يمتنعون لذلك، ولأقل منه، «**كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ**» قيل: كما أريناه البرهان لنصرفه عن الزنا نفعل به الألطاف لنصرفه عن المعاصي والفحشاء، عن أبي علي وأبي مسلم، وقيل: تقديره: كذلك كان شأنه لولا البرهان لم يمنعه منه شيء، فلما رأى البرهان انصرف عنه، عن الأصم، وقيل: كذلك فعلنا لنصرفه عن الفحشاء، والسوء الخيانة، والفحشاء ركوب الفاحشة، وقيل: السوء الإثم، والفاحشة الزنا «**إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ**» بفتح اللام، المختارين للنبوة، وبكسر اللام المخلصين في العبادة والتوحيد «**وَاسْتَبَقَا الْبَابَ**» يعني تبادرا الباب، أما يوسف فهربًا[٢] منها، ومن ركوب الفاحشة، وأما هي فطلبت[٣] يوسف ليقضي حاجتها، فأدركته فتعلقت بقميصه من خلفه، قيل: رأى يوسف الأبواب قد انفتحت فعلم أن الصواب الخروج، فخرج هاربًا، وقيل: بل أخذ يفتح الأبواب، فأدركته «**وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ**» أي: شقت قميصه طولاً من خلف؛ لأن يوسف كان هاربًا، وهي تعدو خلفه، فلما خرجا[٤] ألفيا أي: وجدا «**سَيِّدَهَا**» أي: زوجها عند الباب، وقيل: كان معه ابن عم هذه المرأة، فلما رأت زوجها بادرت بإحالة الذنب عليه فـ" **قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا**» تعني الزنا «**إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**" قيل: الضرب بالسياط، عن ابن عباس، واختلفوا في قوله: «**إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**» كلام من؟ قيل: من كلام المرأة، وقيل: من كلام الزوج، عن الأصم، فتبرأ يوسف و«**قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي**» أي: طلبت مني ذلك، وقيل: ما أراد ذكر ذلك حتى

(١) بينهما: بينها، ض.
(٢) فهربا: هربا؛ ش، ض.
(٣) فطلبت: طلبت؛ ش، ض.
(٤) خرجا: أخرجا، ش.

قذفته بالذنب، فاشتبه الأمر على الزوج «وَشَهِدَ شَاهِدٌ» قيل: حكم حاكم، عن مجاهد، وقيل: بين، واختلفوا في الشاهد قيل: صبي في المهد أنطقه الله بذلك، عن ابن عباس، وأبي هريرة، والحسن، والضحاك، وقتادة، وعن بعضهم ذلك الصبي كان ابن خال المرأة، وذلك جائز؛ لأن يوسف كان نبيًا في ذلك الوقت، وقيل: الشاهد كان رجلاً حكيمًا، له رأي، فقال ببراءته، عن ابن عباس بخلاف، والحسن، وعكرمة، وقتادة، ومجاهد، وقيل: هو[١] ابن عم راعيل[٢]، فكان جالسًا مع زوجها عند الباب، عن السدي، وقيل: الشاهد قميصه المقدود من دبر، عن مجاهد، وليس بالوجه «إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ» شق «مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ» المرأة «وَهُوَ» يعني يوسف «مِنَ الْكَاذِبِينَ» فيما قال لأنه القاصد، وهي الدافعة «وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ» من خلف «فَكَذَبَتْ» المرأة ويوسف من الصادقين؛ لأنه الهارب وهي الطالبة، وهذا قياس صحيح[٣] وأمر ظاهر «فَلَمَّا رَأَى» قيل: فجيء[٤] بالقميص، ورأوه «قُدَّ مِنْ دُبُرٍ» أي: شق من خلف عرف الزوج خيانة المرأة، فقال: «إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ» قيل: هو توريك الذنب عليها عند رؤية الزوج، وهي حال دهش وتحير يوسف، قيل: الزوج، قال يوسف، وقيل: الشاهد قال «يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا» أي: عن هذا الحديث، فلا تذكره على سبيل طلب البراءة؛ كي لا يفشو، عن الأصم، وقيل: لا تلتفت إلى هذا الحديث فقد ظهرت براءتك، فلا تذكره على سبيل طلب البراءة، عن أبي علي، وأبي مسلم «وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ» قيل: توبي من الذنب إلى ربك، وكانوا يعبدون الله تعالى مع الأصنام، عن الأصم، وقيل: سلي زوجك ألا يعاقبك على ذنبك «إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ» أي: من القوم المذنبين.

۞ الأحكام

تدل الآية على تنزيه يوسف عما راودته، وإنه إنما انصرف لما رأى

(١) هو: ـ، ض.
(٢) راعيل: راحيل.
(٣) صحيح: ـ، ض.
(٤) فجيء: ـ، ض.

من[1] البرهان، وكان مخلصًا لله، ولو فعل ما روي في ذلك لكان أعظم الفاحشة، وأي فاحشة أعظم من أن يقعد بين فخذيها، ويحل سراويله، وإنما امتنع مما يجري مجرى الإلجاء والقهر، وذلك مما لا يمدح به.

وتدل على أن يوسف هرب منها، وأنه أظهر براءته عند الباب.

وتدل على أنهم كانوا يعبدون الله لذلك قال: «**واستغفري لذنبك**" ؛لأن ظاهر الاستغفار طلب المغفرة من الله، قال الأصم حاكيًا عن بعضهم: إن ذلك السيد كان قليل الغيرة، فلذلك قال ليوسف: «**أعرض عن هذا**»، واقتصر على هذا القدر.

واحتج إسماعيل بن إسحاق بالآية على جوازا الحكم بالعلاقة نحو ما يفعله مالك في اللقطة، قال القاضي: والآية تدل على الحكم في نفي التهمة لا في الأحكام.

قال أبو علي: وفي قوله: «**استبقا الباب**» من اختصار اللفظ وكثرة المعاني، وفصاحة النظم ما يدل على أنه كلام الله تعالى، وليس من كلام البشر؛ لأن فيه أنه هرب منها، وأنها عدت خلفه لتأخذه لكيلا يسبقها فيخرج فتعلقت بقميصه، وانشق القميص بجذبها، ومحاولته التخلص والخروج من الباب، فجمع ذلك كله في قوله: «**وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ**».

وتدل على أن الهم به والاستباق فعلهما، وأن الكيد فعلهن، فصح قولنا في المخلوق.

قوله تعالى:

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾﴾

---

(١) من: ـ ، ض.

القراءة

قراءة العامة: «**متكأ**» بالتشديد والهمز، وفتح التاء، وعن مجاهد: «**متكا**» خفيفة غير مهموزة، وروي نحوه عن ابن عباس، وعن أبي جعفر بغير همز وتشديد التاء، قال أبو زيد الأنصاري: كل ما حز بالسكين فهو متكأ، والمتكأ والبتك: القطع.

قرأ أبو عمرو: «**حاشا**» بإثبات الألف على الوصل، وهي رواية الأصمعي عن نافع، قال الشاعر:

حَاشَا أَبِي ثَوْبَانَ إِنَّ لَهُ ضَنًّا عَنِ المَلْحَاةِ[1] والشَّتْمِ[2]

وهو الأصل لأنه من المحاشاة، وهي التنحية والتبعيد، وقرأ الباقون بحذف الألف للتخفيف، وكثرة دورها على الألسن، واتباعًا للمصحف، وقال أبو عبيدة: قرأ بها في مصحف الإمام[3] عثمان (حاش) بغير ألف.

قراءة العامة: «**شغفها**» بالغين معجمة من فوق، وعن أبي رجاء العطاردي والشعبي والأعرج بالعين غير معجمة، قال الفراء[4]: ذهب بها كل مذهب أخذ من شعف الدابة حين ترعى، والمجنون مشغوف يقال: أشغفني الأمر، فأما قراءة العامة: بلغ حبها شغاف القلب.

قراءة العامة: «**بشرًا**» بالنصب قيل: نصب بنزع حرف الصفة أي: ببشر، وقيل[5]: خبر (ما) الجحد كقولهم: ما زيد قائمًا، وقرأ الأعمش: «**بشر**» بالرفع، وهي لغة أهل نجد، وبني تميم؛ لأنهم لا يُعملون (ما)، قال الشاعر:

شَتَّانَ ما بَيْنِي وبَيْنَ بَنِي أَبِي جَمِيعًا فما هذان مُسْتَوِيان

---

(١) الملحاة: المنحاة؛ ش، ض.
(٢) البيت للجميح الأسدي، انظره في: اللسان (حاشا).
(٣) الإمام: للإمام، ض.
(٤) معاني القرآن للفراء ٢/ ١٩٢.
(٥) وقيل: قيل، ض.

تَمَنَّوْا لِيَ[1] المَوت الذي يَشْعَبُ الفتى فكُلُّ فَتىً وَالْمَوْتُ يَلْتَقِيَانِ[2]

اللغة

العزيز: المنيع بقدرته عن أن يضام في أمره، وكان زوجها ممتنعًا بملكه، ويجوز أن يكون هذا اسمًا له.

والفتى: الغلام الشاب، والمرأة الفتاة، قال أبو مسلم: العرب تسمي العبد فتى.

والمتكأ الذي يتكأ عليه كالوسادة ونحوها، وأنكر أبو عبيدة ما قيل فيه: إنه الأترج. وأكبرنه: أعظمنه، يقال: أكبرت فلانًا، وأنكر أبو عبيدة أكبرن بمعنى حضن قال: ليس ذلك في كلام العرب، قال: وعسى أن يكون من شدة ما أعظمنه حضن، وقد روي في ذلك شعرًا:

نَأْتِي النِّسَاءَ عَلَى أَطْهَارِهِنَّ ولا نَأْتِي النِّسَاء إذَا أَكْبَرْنَ إِكْبَارا[3]

قال علي بن عيسى: وهذا مصنوع، لا يلتفت إليه؛ لأن العلماء بالرواية والشعر لا يعرفونه، وما روي عن ابن عباس «حضن» محمول على أنهن حضن في تلك الحال، لا أن اللفظ عبارة عنه.

الإعراب

يقال: لم قال: **«وقال نسوة»** بالتذكير؟

قلنا: لأنه تأنيث جمع قدم عليه الفعل، وتأنيث الجمع تأنيث لفظ، فيبطل معه تأنيث المعنى لئلا يجتمع في اسم تأنيثان، كما بطل تذكيرالمعنى مع تأنيث اللفظ في «رجال» فجاز فيه الوجهان: إن حمل على اللفظ أنث، وإن حمل على المعنى ذُكِّرَ، و(ما) تعمل عمل (ليس) عند أهل الحجاز، ترفع الاسم، وتنصب الخبر، تقول: ما زيد قائمًا، وبنو تميم لا يعملونها، ونصب «حبا» على التمييز.

---

(١) تمنوا لي: يدنو إلى؛ ش، ض.

(٢) انظره في: تاج العروس (شتت).

(٣) اللسان (كبر) وتاج العروس (كبر).

۞ المعنى

ثم بَيَّنَ تعالى أن قصتها شاعت، وما احتالت فيه، فقال سبحانه: «**وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ**» أي: جماعة من نساء مصر، وقيل: كانت امرأة الساقي، وامرأة الخباز، وامرأة صاحب الدواب[1]، وامرأة الحاجب، وامرأة صاحب السجن، عن مقاتل، وقيل: إنها أطلعت النساء على ذلك حيث استعانت بهن ليحتلن لها، ويتمكن أمرها، فأظهرن ذلك، عن الأصم، وقيل: عيرنها بذلك لما سمعوا حديثها، وقلن هي مع جلالة محلها تدعو عبدها إلى نفسها «**امْرَأَتُ الْعَزِيزِ**» وهو زوجها «**تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ**» قيل: تريد عبدها الكنعاني لنفسها ليفجر بها «**قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا**» قيل: شغاف القلب علاقه، وهي جلدة عليه، يعني دخل حبه الجلد حتى أصاب[2] القلب، عن السدي وأبي عبيد، وقيل: باطن القلب، عن الحسن، وقيل: وسط القلب، عن أبي علي، وقيل: حجب حبه قلبها حتى لا يعقل سواه، عن الكلبي «**إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ**» في خطأ بَيِّنٍ وذهاب عن طريق الرشد «**فَلَمَّا سَمِعَتْ**» راعيل «**بِمَكْرِهِنَّ**» بقولهن وعذلهن، وقيل: هو عيبهن لها في السر فسمي مكرًا اتساعًا، عن أبي مسلم، وقيل: حيلهن في تقبيح أمرها، عن أبي علي «**أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ**» فاستضافتهن، قيل: أرادت إبلاء عذرها، وقيل: أرادت إيقاعهن فيما وقعت فيه، عن الأصم، قال وهب: وأخذت مأدبة، ودعت أربعين امرأة منهن «**وَأَعْتَدَتْ**» أي: أعدت «**لَهُنَّ مُتَّكَأً**» أي: مجلسًا، وما يتكأ عليه من النمارق والوسائد، والمتكأ: ما يتكأ عليه، عن ابن عباس، وأبي علي، وقيل: طعامًا، عن الحسن، وسعيد بن جبير، وقتادة، وابن إسحاق، وابن زيد، قال القتيبي: والأصل فيه أن كل[3] من دعوته ليطعم عندك، وأعددت له وسادة يسمى الطعام متكأ على الاستعارة، وقيل: متكأ أترجة، عن وهب، وقيل: إنه ليس بمعنى المتكأ، ولكنه محمول على أنها أتتهم بقوله في ذلك المجلس، وقيل: المتكا بالتخفيف الأترج، عن ابن عباس، وقيل: الزماورد، عن الضحاك «**وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ**

---

(١) الدواب: الرواتب، ض.

(٢) أصاب: أضاف؛ ش، ض.

(٣) كل: ـ ، ض.

مِنْهُنَّ سِكِّينًا» لتقطيع الفواكه التي قدمت إليهن «**وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ**» وكانت قد أجلسته غير مجلسهن فأمرته بالخروج إما للخدمة أو السلام أو ليرينه «**فَلَمَّا رَأَيْنَهُ**» وكان كالقمر ليلة البدر «**أَكْبَرْنَهُ**» وأعظمنه لما وجدن من جماله، وقيل: حضن، وليس بالوجه، وقد بَيَّنَّا «**وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ**» لما رأينه دهشن وتحيرن فقطعن أيديهن بتلك السكاكين، وهن يحسبن أنهن يقطعن الأترج والفواكه، وقيل: أبنّ أيديهن حتى ألقينها، عن قتادة، وقيل: ما أحسسن إلا بالدم، ولم يجدن ألم القطع من شغل قلوبهن به، عن مجاهد «**وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ**» أي: نزاهة لله من كل سوء أن يكون هذا بشرًا، وقيل: «حاش» كلمة تنزه بها العرب، تقول للرجل: فعلت كذا؟ فيقول الآخر: حاش لله، كما يقال: معاذ الله، وقيل: معناه معاذ الله، وقيل: رفع الله منزلته عن منزلة البشر، فنعوذ بالله أن نقول: هو بشر، بل نقول بأنه ملك كريم «**إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ**» قلن: كنا نلومك في حب بشر، لا في حب ملك، وقيل: ليس هذا إلا ملك كريم[1] في عفته وإبائه الفاحشة، وكن اعتقدن فضل المَلَكِ على بني آدم.

۞ الأحكام

قال أبو علي: تدل الآية على أن الملك أفضل من بني آدم؛ لأنهن ذكرن من هو النهاية في الفضل، ولم ينكر الله تعالى ذلك عليهن.

وتدل على عظم ما أعطي يوسف من الحسن والجمال.

وتدل على أنه من نعمه، وروي عن الحسن قال: قسم الحسن بين الناس ثلاثة أجزاء، أعطي يوسف جزءًا، وقسم جزءآن بين الناس، وقيل: كان فضله على غيره كفضل البدر على النجوم.

وتدل على أنهن شبهن يوسف في العفة بالملك؛ لأنه في الحسن لا يشبه بهم.

---

(١) إن هذا إلا ملك كريم: +، ش.

قوله تعالى:

﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾﴾

۞ القراءة

قرأ يعقوب وحده: «السَّجْنُ» بفتح السين على المصدر، يقال: سجنه سَجْنًا: إذا أوقعه في الحبس، وقرأ الباقون بكسر السين، على الاسم، وهو الحبس.

۞ اللغة

اللوم: العذل لُمْتُهُ ألومه لَوْمًا، ورجل ملوم، والمليم الذي يستحق اللوم، واللوماء: الملامة، واللامة الأمر يلام عليه، ورجل لُوَمَةٌ بفتح الواو يلوم الناس، وبسكونها يلومه الناس، واللوم نظير الذم، وهو الوصف بالقبيح على جهة التحقير، ونقيضه: الحمد.

والسجن: المنع عن التصرف بالحبس، سجن يسجن سَجْنًا، والسَّجَّان: المتولي للحبس، والسِّجْن بكسر السين: موضع الحبس.

والاستعصام: الامتناع عن طلب المعصية، وأصله: العصمة، وهو المنع، ومنه: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ﴾ [هود: ٤٣].

والصَّغَار: الذل والهوان. والصبو: الميل إلى الشيء، صَبَا صَبْوًا وصِبىً[1] وُصُبوًّا وصَباءً، وصبا إذا مال، وهو صابي، قال الشاعر:

إِلَــى هِــنْــدٍ صَــبَــا قَــلْــبِــي وَهِــنْــدٌ مِــثْــلُــهَــا يُــصْــبِــي[2]

(١) صبا صبوا وصبى: أصبا صبوا وصبيا؛ ش، ض.

(٢) قاله زيد بن ضبة، انظره في: اللسان (صبا).

ومنه: الصابئ بالهمز، وجمعه: صُبًّا على وزن فُعَّال من صبأ، أي: مال من دين إلى دين.

والبدو: الظهور، بدا يبدو بدوًا، والبداء في الرأي التلون؛ لأنه كلما ظهر له رأي مال معه، وفلان ذو بدوات.

۞ الإعراب

النون في قوله: (لنكونن) نون التأكيد، وهي تخفف وتشدد، والنون في قوله: «ليسجنن» نون التأكيد، إلا أنه إذا وقف على المشدد ليسجنن، والوقف على قوله: (ولنكونن) بالألف؛ لأنه بمنزلة التنوين في أنه يجب أن يكون حاله في الوقف، خلاف حاله في الوصل، تقول: رأيت رجلاً، فإذا وقفت قلت: رجلَا، ومنه[1]: ﴿لَنَسْفَعًا﴾ [العلق: ١٥]، قال الأعشى:

وصَلِّ عَلَيَّ حِينَ العَشِيَّاتِ والضُّحَى ... ولا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ وَاللهَ فَاعْبُدَا[2]

أراد فاعْبَدنْ[3] فوقف بالألف «قال رب» أي: يا رب، وهذا نداء مفرد، ومحله رفع. «أصب إليهن» جواب المجازاة لقوله: «وإلا تصرف عني» ولذلك جزم، وإنما هو إنْ لا تصرف، فأدغمت النون في اللام. و«أكن» معطوف على «أصب».

ويقال: «ليسجننه» هل هو فعل المؤنث؟

قلنا: لا؛ لأنه لو كان فعل المؤنث، ودخل عليه نون التأكيد لصار يُسْجَنَانِّهِ، كقولك: يقتلانه، وأصل الفعل ليسجنَنَّ كقولهم: ليقتلَنَّ، ولهذا قال «بدا لهم» ولم يقل بدا لهن، وإنما جاز ذلك لاختلاط المذكر من أعوانها بالمؤنث، فغلب المذكر.

ويقال: ما متصرف (حتى)؟

قلنا: على أربعة أوجه حرف جر، وحرف[4] عطف، وناصبة للفعل، وحرف من

---

(١) ومنه: منه؛ ش، ض.

(٢) قاله الأعشى، انظره في: اللسان (سبح)، وتاج العروس (سبح).

(٣) فاعبدن: فاعبدني؛ ش، ض.

(٤) وحرف: وأحرف، ض.

حروف الابتداء، فالجارة كالذي في الآية، والعاطفة كقولهم: خرج الناس حتى الأمير، والناصبة «حتى يَأْتِيَ وعد الله»، وحرف من حروف الابتداء، كقولك: سرحت الناس حتى زيدٌ مسرحٌ.

۞ المعنى

ثم بَيَّنَ تعالى ما وصف به يوسف من البراءة، فقال سبحانه: «**قَالَتْ**» يعني راعيل امرأة العزيز للنسوة التي جمعتهن «**فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ**» جعلت إعظامهن إياه عُذْرٌ لها، يعني هذا الذي أصابكن في رؤيته من ذهاب العقل هو الذي لمتنني فيه، أي: في حبي إياه، وشغفي به، وقيل: قالت: أنتن بنظرة واحدة أحببتنه هذا الحب، فكيف حالي، وأنا أنظر إليه آناء الليل والنهار، ثم أَقَرَّتْ على نفسها، واعترفت ببراءة يوسف، فقالت: «**وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ**» أي: أردت منه الفاحشة «**فَاسْتَعْصَمَ**» أي: امتنع بالله، وسأله العصمة من فعل القبيح «**وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ**» أي: إن لم يطعني فيما أمرته ودعوته إليه «**لَيُسْجَنَنَّ**» أي: ليحبسن «**وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ**» من الأذلاء، فلما رأى يوسف إصرارها على ذلك، وإيعادها له، ولم يكن له جواب استعاذ بالله فـ «**قَالَ رَبِّ السِّجْنُ**» الحبس «**أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ**» يعني أختار الحبس على الفاحشة، وإلا فكان لا يحب الحبس.

ومتى قيل: السجن كان معصية، فكيف اختاره؟

قلنا: دفع إلى أمرين السجن أو النار، فاختار أهونهما، وقيل: كونه في السجن على هذا الوجه طاعة فيجوز أن يختاره، وإنما قبح لفعلهم، وقيل: هو على التقدير، أي: لو كان مما أريد لكان إرادتي لهذا أشد، وقيل: معناه السجن أسهل عَلَيَّ من الزنا، وقيل: توطيني نفسي على السجن أحب إلي من توطيني نفسي على الزنا، عن أبي علي «**مما يدعونني إليه**» يعني النسوة، قيل: لأنهن دعونه إلى ما دعته إليه امرأة العزيز بدلالة الكلام، عن أبي علي، وقيل: إنهن قلن لها: نحن نسأله أن يفعل ما دعوته إليه «**وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي**» بألطافك وصنعك «**كَيْدَهُنَّ**» حيلهن، وهو إظهار

المحاسن والتزين بالزينة ولطف الكلام وغيره «أَصْبُ إِلَيْهِنَّ» أميل إليهن، قيل: لأنهن أردنه، وقيل: لأنهن قلن له أطع مولاتك، وقيل: أَصْبُ إلى قولهن في الدعاء إلى امرأة العزيز «وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ» يوم وعيدك، ومكاني من النبوة، وقيل: مع علمي بما في الفاحشة إذا ركبتها كان ذلك فعل الجهال لا فعل العلماء.

ومتى قيل: ما معنى سؤال اللطف والله تعالى يفعله لا محالة؟

قلنا: لجواز أن تتعلق المصلحة بإعطائه عند الدعاء المتجدد.

ومتى قيل: كيف علم أنه لولا اللطف لركب الفاحشة؟ وإذا وجد اللطف امتنع؟

قلنا: لما في نفسه من الشهوة، وعلم أنه لولا لطفه لارتكب، وعلم[١] أن الله تعالى يعصم أنبياءه بالألطاف، وأن من لا يكون له لطف لا يبعثه الله نبيًّا.

«فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ» أي: أجاب، ومعناه: فعل ما سأل وهو إجابة الدعاء عند أبي علي؛ ولذلك يقال: فلان مستجاب الدعوة «فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ» حيلهن «إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ» لدعاء الداعي «الْعَلِيمُ» بإخلاصه، وبما يصلحه من الإجابة أو يفسده، وقيل: السميع بدعائه، العليم بمكرهن «ثُمَّ بَدَا لَهُمْ» ظهر لهن أي: لهذه المرأة وأعوانها لما غضبن عليه بعد الإياس عنه فغلب المذكر على المؤنث، وقيل: هو فعل العزيز وأصحابه، عن الحسن، وأبي علي. «مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ» أي: عاينوا، قيل: هو ما دلهم على براءة يوسف، عن أبي علي، وأبي مسلم، وقيل: أراد العلامات الدالة على الإياس منه، وقيل: الآيات: قد القميص، وقطع الأيدي، والاستعصام، عن قتادة. «لَيَسْجُنُنَّهُ» أي: يحبسونه. حلفت المرأة لأسجننه؛ لذلك أدخل نون القسم، قيل: إن المرأة قالت لزوجها: إن هذا العبد فضحني، ولا أقدر على الاعتذار، فإما أن تحبسه أو تأذن لي فأعتذر، فعند ذلك حبسه، وقيل: حبسه لئلا تصل إليه المرأة[٢]، وقيل: أرادوا[٣] توريك الذنب عليه، وإزالته عنها فحبسوه[٤]، عن أبي مسلم، وقيل: كان

---

(١) وعلم: ولعلم، ض.

(٢) المرأة: الإمرأة، ض.

(٣) أرادوا: أراد؛ ش، ض.

(٤) فحبسه: فحسبوه؛ ش، ض.

الحبس[1] ملتصقًا بدار العزيز، فأرادت أن تحبسه في موضع تراه إذا أشرفت عليه «حَتَّى حِينٍ» أي: إلى وقت، قيل: إلى سبع سنين، عن عكرمة، وقيل: إلى عشر سنين، عن الكلبي، وقيل: إلى دهر طويل، عن الأصم، وقيل: إلى وقت يرون فيه رأيهم، وقيل: إلى وقت ينسى حديث المرأة معه، وينقطع عن الناس، عن أبي علي.

۞ الأحكام

تدل الآية على براءة يوسف لذلك قال: «**فاستعصم**».

وتدل على أن الانصراف عن المعاصي يكون بلطف الله؛ لذلك دعا الله، واستعصم به.

وتدل على أن الواجب الاستعصام به عند نزول البلاء.

قال الأصم: تدل على أنهم أظهروا العقوبة في نفسه، ولم يصرن إلى شيء من فساد دينه.

وتدل على أن تلك الأفعال والكيد والسجن فعلهم، وليس بخلق لله تعالى.

قوله تعالى:

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًاۖ وَقَالَ ٱلْأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٣٦ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْأٓخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ۝٣٧ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ۝٣٨﴾

---

(١) الحبس: الحيس، ش.

۞ القراءة

قراءة العامة: «آبائي» بالهمز والمد، وعن الأعمش (آباي) مقصور غير مهموز، وفتح أبو جعفر ونافع وابن كثير وابن عامر وأبو عمرو ياء (آبائيَ)، وأسكنها الآخرون، فالجزم على الأصل، والفتح على موافقة الألف التي استقبله، لأنها أخت الفتحة.

۞ اللغة

العصر: مصدر عصر يعصر عصرًا، وهو الاعتماد على الشيء ليستجلب ما فيه، ومنه: المعصرات: السُّحُب يتعصر منها الماء، فإذا صار السحاب إلى أن يمطر فقد اعتصر، وأعصر القوم إذا مطروا.

والفتى: الشاب القوي، قال الزجاج: كانوا يسمون المملوك[1] فتى، شيخًا كان أو شابًا، يقال للعبد: فتى، وللأمة: فتاة، ومنه: الحديث «لا يقولن أحدكم عبدي وأمتي، ولكن فتاي وفتاتي»[2].

والاتباع: اقتفاء الأثر، وهو طلب اللحق بالأول.

۞ الإعراب

«ترزقانه» النون علامة الرفع، ولو كان نصبًا أو جزمًا لقال: ترزقاه.

و(إبراهيم وإسحاق ويعقوب) لا ينصرف شيء منها؛ لأنها أسماء عجمية، وكررهم قيل: تأكيدًا، وقيل: الأول عماد كقوله: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٥] فصار الأول كألقاب[3]، والثاني: ابتداء. و(كافرون) خبره، وفيه (من) في قوله: «من شيء» صلة تقديره: ما كان لنا أن نشرك بالله شيئًا.

---

(١) المملوك: الملوك، ض.

(٢) صحيح مسلم رقم ٢٢٤٩، ومسند أحمد رقم ٩٤٦٥، وسنن أبي داود رقم ٤٩٧٥.

(٣) كألقاب: كالمقاصي، ض.

۞ المعنى

ثم بَيَّنَ تعالى ما جرى عليه في الحبس، فقال سبحانه: «**وَدَخَلَ مَعَهُ**» أي: مع يوسف، وفي الكلام حذف، تقديره: فحبسوه، وفي قوله: «**ودخل معه**» دليل على المحذوف، عن أبي علي «**السِّجْنَ فَتَيَانِ**» قيل: غلامان لملك مصر، واسمه: الوليد بن ريان، أحدهما صاحب طعامه، والآخر صاحب شرابه، واختلفوا في سبب حبسهما، فقيل: انتهى إليه أن صاحب طعامه يريد أن يسمُّه، وأن الآخر سانده فحبسهما، عن قتادة، والسدي، وقيل: إن أهل مصر أرادوا المكر، فدسوا إلى هذين، وضمنوا لهما مالاً ليسما الملك، فأجابا ثم ندم صاحب الشراب، وعزم صاحب الطعام، فلما أحضر[1] الطعام قال الساقي: أيها الملك لا تأكل، فإن الطعام مسموم، وقال الآخر: لا تشرب؛ فإن الشراب مسموم، فقال الملك للساقي: اشرب فشرب فلم يضره، وقال للخباز: كل من طعامك فأبى، فجرب على حيوان، فهلكت، فحبسا و«**قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي**» قيل: إن يوسف قال لأهل السجن: إني أعبر الرؤيا، روي أنهما قالا له: لقد أحببناك حين رأيناك، فقال: لا تحباني، فوالله ما أحبني أحد إلا دخل عليه من حُبيِّ بلاء، أحبتني عمتي فنسبوني إلى السرقة، وأحبني أبي فألقيت في الجب، وأحبتني امرأة العزيز فألقيت في السجن، فلا تحباني بارك الله فيكما، فقال أحدهما لصاحبه: هلم فلنجربه، فسألاه، فقال أحدهما: إني رأيت في النوم كأني أعصر خمرًا، وقال الآخر: رأيت كأني أحمل فوق رأسي خبزًا تأكل الطير منه، قيل: لم يكونا رأيا شيئًا، وإنما سألا ليجربا. عن ابن مسعود قال: إنهما قالا ما رأينا شيئًا إنما كذبنا لنجربك، وقيل: بل رأياه على صحة وحقيقة، ولكن كذبا في الإنكار، عن الأصم، وأبي علي، وقيل: بل رأى واحد، ولم ير الآخر، حكاه الأصم «**أَعْصِرُ خَمْرًا**» قيل: أعصر العنب للخمر، وقيل: هي لغة تسمي العنب خمرًا، عن الضحاك، وقيل: هي لغة عُمان، وقيل: تقديره: عنب الخمر، عن الزجاج[2]،

---

(١) أحضر: حضر، ض.

(٢) معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٣/ ١٠٩.

وقيل: قال أحدهما وهو صاحب الشراب: رأيت كأني في بستاني، وإذا بأصل حَبْلَةٍ عليها ثلاثة عناقيد من عنب فجنيتها، وكان كأس الملك بيدي فعصرتها فيه، وسقيت الملك، فشربه، «**وَقَالَ الآخَرُ**» وهو صاحب الطعام «**إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ**» رأيت كأن فوق رأسي ثلاث سلال فيها الخبز وسائر الأطعمة، فإذا سباع الطير ينهشن منه، «**نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ**» أي: أخبرنا بتعبيره وما يؤول إليه أمر هذه الرؤيا، إنا نراك من المحسنين[1]، قيل: رأوه قائمًا يذكر الله، عن الأصم، وقيل: من الذين أحسنوا العلم، عن الفراء[2]، وقيل: نراك من المحسنين إلينا في تعبير الرؤيا إن فسرت لنا الرؤيا فقد أحسنت، عن ابن إسحاق، وأبي مسلم، وقيل: نراك من المحسنين في تعبير الرؤيا؛ لأنه كان يعبر لغيرهم فَيُحْسِنُ، عن أبي علي، وقيل: كان يداوي مريضهم، ويعزي حزينهم، ويجتهد في عبادة ربه، عن قتادة، وقيل: كان يعين المظلوم، وينصر الضعيف، ويعود المريض، عن الزجاج، وقيل: كان يقوم[3] على مرضاهم، ويوسع على من ضاق أمره، ويجمع له، عن الضحاك، فعند ذلك «**قَالَ**» يوسف «**لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ**» قيل: كره أن يخبرهما بالتأويل لما على أحدهما فيه من البلاء، فعدل إلى الإخبار عن شيء آخر، فلم يدعاه حتى أخبرهما، عن ابن جريج، وقيل: إنما قدم هذا ليعلما ما خصه الله تعالى به من النبوة، وليقبلا عنه، ويقيما على طاعة الله تعالى، وقال: لا يأتيكما طعام، ولهذا بدأ ببيان المعجزة بالدعاء إلى التوحيد والدين، وقيل: هما طلبا النفع بسؤال الرؤيا، فلا يأتيكما طعام «**تُرْزَقَانِهِ**» في منامكما «**إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا**» أخبرتكما «**بِتَأْوِيلِهِ**» في اليقظة، عن السدي، وابن إسحاق، وقيل: كان الملك إذا أراد قتل إنسان صنع له طعامًا معلومًا وأرسله إليه، فعلى هذا ترزقانه في اليقظة، عن ابن جريج، يعني أخبر بما يأتي من الطعام الدال على القتل، وقيل: إنه كان يخبر بما غاب كما كان يخبر عيسى عليه السلام،

---

(١) أي أخبرنا بتعبيره. . . من المحسنين: +، ض.

(٢) معاني القرآن للفراء ٢/ ١٩٥.

(٣) يقوم: يقدم، ض.

عن الحسن، والأصم، وأبي علي، وهو اختيار القاضي، وقيل: «**لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا**» بتفسيره وألوانه أي طعام أكلتم ولم أكلتم، ومتى أكلتم، عن أبي علي «**ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي**» قيل: قالا له: كيف عرفت تأويل الرؤيا، ولست بساحر ولا كاهن ولا عراف؟ فأخبرهما أنه رسول الله، وأنه تعالى علمه[1] ذلك، وقيل: علمني ربي معجزة لنبوتي يعني علم الغيب «**إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ**» أي: دين قوم «**لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ**» وبتوحيده «**وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ**» يعني بالبعث والجزاء «**وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ [آبَائي] إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ**» في الإيمان بالله واليوم الآخر «**مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ**» أي: لا ينبغي لنا ونحن محل النبوة ومعدن الرسالة أن ندين بغير التوحيد، فبدأ بدعائهم إلى التوحيد، وعبادة الله و«**ذَلِكَ**» يعني التمسك بالتوحيد والبراءة من الشرك «**مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ**» أي: على المكلفين؛ لأنه كلفهم ومكنهم، وهداهم، وبين لهم ونصب الأدلة، ثم أثابهم على طاعته، وقيل: فضل الله علينا إذ جعلنا أنبياء وعلى الناس أن جعلنا عليهم رسلاً، عن ابن عباس «**وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ**» هذه النعم.

الأحكام

تدل الآية على نبوة يوسف؛ لأن علم الغيب معجزة له.

وتدل على علمه بتعبير الرؤيا، وكان تعبيره على القطع؛ لأنه يعبر عن وحي.

وتدل على صحة الرؤيا، خلاف ما قال بعضهم.

وتدل على وجوب الدعاء إلى الدين عند وجود الفرصة، كما فعله يوسف عليه السلام.

وتدل على أن العلم والدين من فضل الله على الناس.

وتدل على أن الإخبار وترك الشرك فعله؛ لذلك أضافه إلى نفسه، فيفسد[2] قولهم في المخلوق.

---

(١) علمه: علم، ش، ض.

(٢) فيفسد: ففسد، ض.

قوله تعالى:

﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٖ مِّنۡهُمَا ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾﴾

۞ اللغة

الصحبة: ملازمة اختصاص بوجه من الوجوه، ومنه: أصحاب النبي ﷺ لملازمتهم الاختصاص[1] بالكون معه، وأصحاب أبي حنيفة للزوم الاختصاص بمذاهبه، وأصحاب الجنة والنار لكونهم فيها، وصاحب السجن لملازمة الاختصاص بكونه فيه.

والرب: المالك، والرب: السيد، وإذا أطلق فُهِمَ منه الله، وإذا أريد غيره فيقال: رب الدار، ورب الغلام.

والاسم جمعه: أسماء، وهو ما دل على معنى غير مقترن بزمان ومكان، كقولك: زيد وعمرو، وهو على وجهين: مفيد لصفة، كقولنا: قادر، ولقب كقولنا: زيد، ولا تجوز الألقاب على الله تعالى.

والقيم: المستقيم، وأصله من قام يقوم، ومنه: هذا قِوام الأمر، وقيامه، أي: هو مما يستقيم به الأمر.

وقضاء الشيء: إحكامه وإمضاؤه، والفراغ منه على التمام، ومنه: ﴿لَمَّا قُضِيَ﴾ [إبراهيم: ٢٢] أي: فرغ، ومنه: القاضي.

(١) الاختصاص: للاختصاص، ض.

والاستفتاء: طلب الفتيا، وهو «استفعال» منه، والفتيا: جواب حكم المعنى، وهو غير الجواب بعلته.

والبضع: القطعة من الدهر[1]، وأصله من القطع، والبضعة: القطعة من اللحم، ومنه: البضاعة الطائفة من ماله، كأنه قطعه منه، وقيل: البضع من ثلاث إلى عشر، عن ابن عباس، وقيل: إلى السبع، عن الفراء[2]، ومجاهد، والأصم، وقيل: من الثلاثة إلى الخمسة، عن أبي عبيدة، وقيل: إلى التسع، عن قتادة، والأصمعي.

والسنة: مدة من الزَّمان اثنا عشر شهرًا، وجمعه: سنون وسنوات.

۞ القراءة

قراءة العامة: «فيسقي» بفتح الياء وكسر القاف «ربه» بالباء، مَنْ فتحهما يعني يسقي سيده، وعن عكرمة: (فَيُسْقَي) بضم الياء وفتح القاف «رِيَّهُ» بكسر الراء، وإقامة الياء المشددة مقام الباء، ومعناه يسقي من الخمر رِيَّه، حكاه أبو مسلم، وذكر أنها قراءة شاذة مرغوب عنها.

۞ الإعراب

الألف في قوله: «أَأَرْبَابٌ» استفهام، والمراد التقرير، ومعناه: الواحد القهار خير من جماعة لا تضر ولا تنفع.

والهاء في قوله: «فأنساه» قيل: يعود على يوسف، يعني: أنسى الشيطان يوسف ذكر ربه حتى استعان بمخلوق، وقيل: يرجع إلى النساء في أنساه الشيطان ذكر يوسف عند الملك.

«بضع سنين» نصب على الظرف.

---

(١) الدهر: الدية، ش؛ الرية، ض. وما أثبتناه من: تفسير مجمع البيان للطبرسي: ٥/٣٥٨، والتبيان في تفسير القرآن، للشيخ الطوسي: ٦/١٤٢.

(٢) معاني القرآن للفراء ٢/١٩٦.

النظم

يقال: لم قدم يوسف هذه المقدمة قبل تعبير الرؤيا؟ وكيف يتصل بما قبله؟

قلنا: فيه وجوه:

أحدها: لما تقدم إظهار المعجزة بعلم الغيب وغيره أتبعه بالدعاء إلى الدين وعبادة الله تعالى وترك الشرك.

وثانيها: قيل: إنه وجد فرصة منهما لقبول كلامه، فبدأ بالدعاء إلى الدين قبل تعبير الرؤيا، عن الأصم.

وثالثها: قيل: علم أن أحدهما يقتل والآخر يكرم، فأراد أن يخرجا من عنده على دين صحيح ليهلك الهالك عن بينة، ويحي الحي عن بينة إشفاقًا عليهما.

ورابعها: قيل: أهم الأشياء الدعاء إلى الدين، وهو[1] فرض لا يجوز تأخيره؛ فلذلك بدأ به.

المعنى

«**يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ**» سماهما بذلك لكونهما في السجن، وهو الحبس «**أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ**» قيل: أَمْلاكٌ متباينون من حجر وخشب لا تنفع ولا تضر خير، أم الله الواحد القهار القادر[2] الذي إليه الخير والشر، والنفع والضر، وقيل: عبادة واحد حي قادر خير، أم عبادة أحجار وخشب لا تقدر ولا تحيي، والقهار: القادر الذي لا يمتنع عليه شيء «**مَا تَعْبُدُونَ**» ابتدأ بخطاب اثنين، ثم خاطب بلفظ الجمع، قيل: لأنه قصد جميع[3] من هو في مثل حالهما، وقيل: خاطب جميع من هو في الحبس، وقيل: يجوز أن يخاطب الاثنان بلفظ الجمع «**مِنْ دُونِهِ**» أي: من دون الله «**إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا**» يعني: يسمون الأوثان آلهة، ولا يصح معانيها،

---

(١) وهو: و؛ ش، ض.

(٢) القادر: + ض.

(٣) جميع: جمع، ض.

فكأنهم عبدوا أسماء، لا أشخاص لها، وقيل: ما تعبدون إلا أصحاب أسماء سميتموها لا حقيقة لها «**أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ**» يعني هذه التسمية صدرت منكم ومن آبائكم ولا حقيقة لها «**مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ**» أي: من حجة، يعني ليس في عبادة غير الله حجة، بل الحجة قائمة على بطلانه «**إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ**» أي: الحكم على العباد في الأمر والنهي له، وقد أمركم ألاتعبدوا إلا إياه، و«**ذَلِكَ**» يعني التوحيد والعدل وعبادة الله لا غيره «**الدِّينُ الْقَيِّمُ**» المستقيم الذي لا عوج فيه «**وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ**» قيل: التوحيد، عن أبي علي؛ لأنه إنما يعلم من تدبر الأدلة، وترك هواه، وعرف الحق وهم الأقل، ثم عبر رؤياهما فقال: «**يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا**» قيل: قال للساقي، أما العناقيد الثلاثة فتبقى في الحبس ثلاثة أيام، ثم يخرجك الملك، وتعود إلى ما كان. ومعنى (ربه) أي: مالكه؛ لأنه كان عبده «**وَأَمَّا الآخَرُ**» وهو صاحب الطعام «**فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ**»، قال ابن مسعود: قالا: ما رأينا شيئًا كنا نلعب، فقال يوسف عليه السلام[1] : «**قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ**» أي[2] : فرغ من الأمر الذي تسألان، وتطلبان معرفته، ونزل بكما ما قلت، وهذا إنما قاله عن وحي، وقيل: وقع الأمر، وقيل: الذي أخبره بالصلب قال هو: ما رأيت شيئًا "**وَقَالَ**» يوسف «**لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا**» والظن بمعنى اليقين هذا قول الأكثر، واختيار أبي علي، وفسره قتادة بالظن الذي هو خلاف اليقين، قال: لأن عبارة الرؤيا ظن، فيحقق الله ما يشاء، والأول أصح، وقيل: الظن يرجع إلى الناجي، لا إلى يوسف، ومعنى «**ناج**» أي: يتخلص من السجن، ويعود إلى مرتبته «**اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ**» أي: سيدك، وهو المالك، وقيل: لما بقي في السجن مدة لا يذكره أحد قال لهذا: اذكر للملك بأن في السجن غلامًا محبوسًا حبس ظلمًا، لعله يخرجه، وقيل: قال له: اذكر حالي لعله يرغب فيه، ويخرجه من السجن «**فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ**» يعني أنسى الشيطان يوسف ذكر الله في تلك الحال، فاستعان بالمخلوق فلبث في السجن، عن ابن عباس، والأصم، والحسن. وقيل: أنسى الشيطان الساقي ذكر يوسف عند الملك، فلم يذكره

---

(١) عليه السلام: ـ، ض.

(٢) أي: يعني، ض.

حتى لبث في السجن، عن محمد بن إسحاق، والحسن، وأبي علي، وأبي مسلم، وتقديره: فأنساه الشيطان ذكره لربه.

ومتى قيل: كيف استعان بمخلوق حتى روي عن النبي ﷺ فقال: «رحم الله يوسف لولا كلماته ما لبث في السجن طول[1] ما لبث»[2] وروي عنه: «عجبت من أخي يوسف كيف استعان بالمخلوق دون الخالق»، وروي «أن جبريل أتاه، وقال: يا يوسف، يقول لك ربك: ما استحييت أن استعنت بالآدميين، لألبثنك في السجن بضع سنين، فقال يوسف: وهو في ذلك عني راضٍ؟ قال: نعم، قال: لا أبالي».

قلنا: الاستعانه بالعباد في دفع المضار والتخلص من الظلم جائز، بل ربما يجب ذلك؛ ولهذا كان النبي صلى الله عليه وآله يستعين بالأنصار والمهاجرين وغيرهم، ولهذا ذم الله تعالى المتخلفين من الأعراب، وإنما عجب النبي ﷺ؛ لأنه ترك عادته في الصبر، والتوكل على الله دون غيره، ويحتمل أنه فعل ذلك بغير إذن، ويحتمل أنه كان متعبدًا بألاّيشكو إلى غيره.

ومتى قيل: كيف أضاف النسيان إلى الشيطان، وهو فعل الله تعالى؟

قلنا: لأنه تعرض للنسيان لاشتغاله بخدمة الملك وغيره، فلما شغله الشيطان بذلك حتى نسي أضاف إليه.

«فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ» أي: مكث، وبقي فيه «بِضْعَ سِنِينَ» قيل: اثنتي عشرة سنة، عن ابن عباس، وقيل: سبع سنين عند أكثر المفسرين، وقيل: كان في السجن قبل هذه الكلمة سبع سنين، وبعدها خمس سنين، عن مقاتل، وقيل: قبلها خمس، وبعدها سبع سنين، عن الكلبي، وقيل: كان سبع قبلها[3] وسبعٌ بعدها[4]، وقيل: كان قبلها ثلاث عشرة سنة، وبعدها سبع سنين، حكاه الأصم.

(١) السجن طول: طول السجن، ض.
(٢) صحيح ابن حبان رقم ٦٢٠٦.
(٣) قبلها: بعدها، ض.
(٤) بعدها: قبلها، ض.

ومتى قيل: هل يجوز ما روي أنه بقي في السجن لأجل هذه الكلمة؟

قلنا: روي ذلك، فإن صح، فالوجه فيه أنه ابتلاء لتشديد[1] المحنة، ولأنه المصلحة، ولا يجوز أن يقال: إنه عقوبة؛ لأنه لا يستحق العقوبة.

وعن ابن عباس: أن يوسف عليه السلام عثر ثلاث عثرات:

إحداها: حين قال: «اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ» «فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ».

والثاني: حين هَمَّ بها فحبس.

والثالث: قوله: «إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ» فقالوا: «إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ».

وروي أن جبريل أتاه فقال: يا يوسف، اشتد عليك الحبس؟ قال: نعم، قال: «قل اللهم اجعل لي من كل أمر همني وأحزنني من أمر ديني وآخرتي فرجًا ومخرجا، وارزقني من حيث لا أحتسب».

۞ الأحكام

تدل الآية أن القوم كانوا يعبدون الأصنام.

وتدل على أن الواجب البداية بالأهم، وهو الدعاء إلى الدين والتوحيد لذلك بدأ به بعد ظهور المعجزة، وأَخَّرَ تعبير الرؤيا.

وتدل على أن ما لا ينفع ولا يضر لا يستحق العبادة، ولا تجوز عبادته.

وتدل على أن ما لا حجة فيه لا يصح التمسك به.

وتدل على أن العبادة لا تصح إلا بأمره.

وتدل على أن ما عبّره صدر عن وحي؛ لذلك قطع، ولهذا حمل شيخنا أبو علي الظن على العلم، قال أبو علي: وكان ذلك من معجزاته، أن معنى الرؤيا قطع، وتكون كما خَبَّرَ.

(١) لتشديد: وتشديد، ش.

وتدل على أن الواجب عند نزول الشدائد الاعتصام بالله، ويجعل عمدته الاستعانة[1] به، وإن جاز أن يستعين بغيره.

ومتى قيل: كيف نسيه الساقي مع مشاهدته المعجزات، وقرب المدة؟

قلنا: اشتغل بأمور الملك وأعماله، مع قلة عنايته بشأن يوسف.

وتدل على أن عبادتهم غير الله فعلهم؛ فيصح قولنا في المخلوق.

قوله تعالى:

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾

القراءة

قرأ حفص عن عاصم: «**دأبا**» بفتح الهمزة، والباقون ساكنة الألف، وهما لغتان[2].

وقرأ حمزة والكسائي: «**تعصرون**» بالتاء على الخطاب لقوله: «**قدمتم لهن**» وقرأ الباقون بالياء على الكناية عن الناس[3].

---

(١) الاستعانة: للاستعانة، ض.

(٢) حجة القراءات ٣٥٩.

(٣) حجة القراءات ٣٦٠.

قراءة العامة: «أُمَّةٍ» بضم الهمزة وتشديد الميم وفتحها أي بعد حين، وعن ابن عباس وعكرمة والضحاك: «بعد أمة» بفتح الألف والميم مخففة أي: بعد نسيان، يقال: أَمِهْتُ أي: نسيت[١]، يقال: أَمِهَ يَأْمَهُ على مثال عَلِمَ يَعْلَمُ أَمَهًا: إذا نسي، ورجل مأموه: ذاهب العقل، وأنشد أبو عبيد:

أَمِهْتُ وكُنْتُ لاَ أَنْسَى حَدِيثًا   كَذَاكَ الدَّهْرُ يُودِي بِالعُقُولِ[٢]

وقرأ مجاهد: «بعد أمْهٍ» بسكون الميم[٣] وفتح الألف والهاء الخالص، وهما لغتان، ومعناهما النسيان، قال أبو الهيثم: إنما هو (أَمْهٍ) بجزم الميم، (وأَمَهٍ) بفتحها خطأ، وقال غيره: (الأَمَهُ) بفتح الميمِ: النسيانُ.

اللغة

الرؤيا: ما يراه النائم، وهو تخيل، ويجوز فيه الهمز وترك الهمز، والرؤيا ترجع إلى الاعتقاد، ثم هو على وجوه: منها ما يكون من[٤] جهة النائم، من اعتقاداته، أو بقية اعتقاد كان يعتقده.

العَجَفُ: ذهاب السمن، يقال للذكر: أعجف، وللأنثى: عجفاء، والجمع: عِجَاف، ولا يجمع «أَفْعَل» على «فِعَال» إلا أعْجَف وعِجَاف[٥].

والعبر والتعبير: تفسير الرؤيا، وهو نقل معنى التأويل إلى تفسير السائل، وهو من عبور النهر ونحوه، ومنه: المعبر والعبارة، والتعبير ما يعبر عليه من سفينة أو قنطرة، وهذا عابر سبيل أي: مار طريق.

والضغث: التباس الشيء بعضه ببعض[٦]. يقال للحالم: أضغثت الرؤيا، والأضغاث: الأحلام الملتبسة، والضغث: الحزمة من كل شيء ثقل أو حشيش أو

---

(١) يقال أمهت أي نسيت: ـ، ض.
(٢) اللسان (أمه).
(٣) وقرأ مجاهدٌ «بعد أمة» بسكون الميم: وقرأ مجاهد بسكون الميم «أمة»، ض.
(٤) من: ـ ض.
(٥) العين (عجف).
(٦) العين: (ضغت).

نحوه، قال ابن الزبيري: الضغث: ملء اليد من الحشيش، ومنه: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا﴾ [ص: ٤٤] أي: قبضة، والفعل الضغث.

والحُلْم: الرؤيا في النوم، حَلَمَ يَحْلُمُ بفتح اللام في الماضي وضمها في المستقبل، واحتلم فهو حالم، والحِلم بكسر الحاء: ضد الطيش، وأصله الأناة والسكون، والحُلْم ما يرى في النوم؛ لأنها حال سكون ودعة، يقال: حَلَمَ يَحْلَم حُلْمًا، بالتخفيف والتثقيل.

«الادكار»: افتعال من الذكر(١)، وأصله ادتكار، إلا أن التاء قلبت دالاً فصار اِذْدِكار، ثم أدغمت الدال فيها فصار «ادَكار» على أصل إدغام الأول في الثاني، ويجوز «اذَّكر» ليغلب الأصل على الزائد، والإذِّكار: طلب الذكر، ونظيره: الاستذكار والتذكر.

والأمة: الجماعة تؤم أمرًا، والأمةُ: المدةُ، وهي الجملة من الحين.

والصِّدِّيق: الكثير التصديق بالحق، وكل نبي صديق لهذا، وقيل: هو الكثير الصدق، وبناء فِعِّيل للمبالغة والكثرة، كالشِّرِّيب والضِّلِّيل والحِمِّير، ونحوه.

والزرع: إلقاء البذر في الأرض للنبات، زرع يزرع زرعًا، ومنه: المزارعة بالثلث أو الربع، وسمي المخابرة مشتقًّا من فعل أهل خيبر.

والدَّأْبُ: العادة، يقال: دأب يَدْأَبُ دَأْبًا، ودأب في عمله يدأب دُؤُوبًا: اجتهد، وأدأبته أنا إدْآبًا، ويقال للشأن: دَأَبٌ وَدَأْبٌ(٢) بفتح الهمز وسكونها، وهما لغتان.

«ويذر» جاء في(٣) المستقبل، ولا ماضي له من لفظه، استُغْنِيَ عنه بـ(ترك) مع حذف الواو، وكذلك ماضي «يدع».

والإحصان: إلقاء الشيء فيما هو كالحصن، ونظيره: الإحراز، أحصنه إحصانًا: إذا جعله في حرز.

---

(١) الذكر: الدكر، ض.
(٢) ودأب: ـ، ض.
(٣) جاء في: ـ، ض.

والشدة والصعوبة من النظائر، والشدة في سبعة أصناف: شدة في العقد، وشدة في المد، وشدة في الزمان، وشدة في الشراب، وشدة في البدن، و[شدة في] الغضب، وشدة في الألم.

والعام والحول والسنة نظائر، وهو اسم لمقدار من الزمان اثني عشر شهرًا، قال الخليل: العام حول يأتي على شتائه(١) وصيفه.

والغوث نفع يأتي على شدة حاجة بنفي المضرة، ومنه: الغيث: المطر الذي يأتي وقت الحاجة، يقال: غاثهم الله يغيثهم غيثًا، وأصابهم غيث، والغيث: الكلأ نبت من السنا، وجمعه: غيوث، والغياث أصله الواو، ومنه: الغوث، وأغاثك الله إغاثة، ويجوز تغويثًا، إذا قال: واغوثاه! من يغيثني؟، ويغاث يحتمل أن يكون من الواو، ويحتمل أن يكون من الياء.

وأصل العصر: عصر العنب ونحوه؛ لأنه توطّأ عليه ليحلب ما فيه، يقال: عصرت العصير عصرًا، والاعتصار: أن يَغَصَّ(٢) الإنسان بالطعام، فَيَعْتَصِرَ بالماء إذا شربه قليلاً قليلاً، والمُعْصِرَات: السحاب تعتصر بالمطر، وعَصِرَ القَوْمُ: مُطِرُوا، والعصارة: ما يستخرج من العصر، والإعصار: ريح تدبر السحاب؛ لأنه كالمعتصر فيها، والعُصْرَةُ(٣) : المنجاة، كنجاة الغَصَّان باعتصار الماء، قال؛ الشاعر:

لَـوْ بِـغَـيْـرِ الـمَـاءِ حَـلْـقِـي شَـرِقٌ ... كُـنْـتُ كـالـغَـصَّـان بِـالْـمَـاءِ اْعـتِـصَـارِي

وقال آخر:

صَـادِيًـا يَـسْـتَـغِـيـثُ غَـيْـرَ مُـغَـاثٍ ... وَلَـقَـدْ كَـانَ عُـصْـرَةَ الـمَـنْـجُـودِ(٤)

أي: نجاة المكروب.

---

(١) شتائه: شتوه؛ ش، ض.

(٢) يغص: يعصر؛ش، ض.

(٣) العصرة: العصيرة؛ ش، ض.

(٤) قاله أبو زبيد. انظره في: الصحاح (عصر)، واللسان (عصر).

۞ الإعراب

يقال: لم جاز إدخال اللام في الرؤيا، مع أن الفعل يتعدى إليه.

قلنا: لأنه إذا تقدم المفعول ضعف عمله، فجاز إدخال حرف الإضافة لهذه العلة.

«**سبع عجاف**» رفع لأنه فاعل، و«**سبع سنبلات**» نصب[1] لأنه مفعول، تقديره: أرى سبع سنبلات. و«**أخر**» لا ينصرف؛ لأنه صرف عن جهة صواحبها التي جاءت بالألف واللام، وهذه جاءت خاصة بغير ألف ولام، فكأنها عدلت عن وجهها، تقول: هذه النسوة الوسط والكبر، ولا تقول: وسط وكبر، وتقول: نسوة أخر، فلما خالفت أخواتها، ترك صرفها.

«**قالوا أضغاث أحلام**» رفع على تقدير: هي أضغاث أحلام.

«**فأرسلون**» تم الكلام، ثم ابتدأ «**يوسف**»، أي: يا يوسف رفع؛ لأنه نداء مفرد.

ويقال: ما موضع قوله: «**وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ**»؟

قلنا: (أخر) موضعه جر تقديره: وفي أخر، إلا أنه ينصرف.

و«**يغاث الناس**» رفع؛ لأنه اسم ما لم يسم فاعله.

۞ المعنى

ثم بَيَّنَ تعالى لما قرب الفرج ليوسف عليه السلام رأى الملك رؤيا هالته، وأشكل عليهم حتى عبرها يوسف، وكان سبب نجاته، فقال سبحانه: «**وَقَالَ الْمَلِكُ**» يعني ملك مصر، وهو الوليد بن ريان، والعزيز وزيره، فيما روي، حكاه أبو مسلم «**إِنِّي أَرَى**» في منامي، فحذف لدلالة الكلام عليه «**سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ**» مهازيل، فابتلعت المهازيل السمان، فدخلن في بطونهن حتى لم ير منهن شيئًا «**وَسَبْعَ سُنْبُلاتٍ**» يعني رأى سبع سنبلات «**خُضْرٍ**» قد انعقد حبها «**وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ**» قد استحصدت، فالتوت اليابسات على الخضر حتى غلبن عليها «**يَا أَيُّهَا الْمَلأُ**» قيل:

---

(١) نصب: ـ، ض.

الأشراف، وقيل: أيها الجماعة، وقيل: جمع السحرة والكهنة، وقصها عليهم، وقال «**أَفْتُونِي فِي رُؤْيايَ**» أي: عبروا ما رأيت في منامي «**إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيا تَعْبُرُونَ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ**» أي: اختلاط رؤيا، معناه أحلام مختلطة منتهية «**وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلامِ بِعَالِمِينَ**» أي: لا نعلم عبارتها، فكان جهلهم بذلك سبب نجاة يوسف؛ لأن الساقي تذكر حديث يوسف «**وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا**» أي: تخلص من القتل من صاحبي السجن «**وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ**» أي: تذكر حديث يوسف وحبسه وحاجته «**بَعْدَ أُمَّةٍ**» أي: بعد حين، عن ابن عباس، والحسن، ومجاهد، وقتادة «**أَنَا أُنَبِّئُكُمْ**» أخبركم «**بِتَأْوِيلِهِ**» أي: تفسيره وتعبيره وما يؤول إليه، «**فَأَرْسِلُونِ**» أي: أطلقوني لأمضي وآتيكم بتأويله «**يُوسُفُ**» في الكلام محذوف يدل عليه ما بقي كأنه قيل: فأرسلوه فأتى السجن وقال. وقيل: لم يكن السجن في المدينة، فلما أتاه قال، عن[1] ابن عباس «**يُوسُفُ**» أي: يا يوسف «**أَيُّهَا الصِّدِّيقُ**» الكثير الصدق، وقيل: الصادق فيما عبرت لنا من الرؤيا «**أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ**» إلى آخره، فإن الملك رأى هذه الرؤيا، واشتبه التأويل «**لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ**» لعل كلمة طمع ورجاء «**لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ**» قيل: يعلمون فضلك وعملك، فيخرجونك من السجن، وقيل: لعلهم يعلمون تأويل رؤيا الملك، فأجابه يوسف معبرًا ومعلمًا، وزاد في البيان فقال: أما السبع العجاف والسبع السنابل اليابسة، فالسنون الجدبة، والسبع السمان والسبع الخضر: السنون الخصبة، فذلك قوله: «**تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا**» أي: كعادتكم في الزراعة كسائر السنين، وقيل: زراعة متوالية في هذه السنين، عن أبي علي، وقيل: بجد واجتهاد «**فَمَا حَصَدْتُمْ**» قطعتم من الزرع «**فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ**» أي: اتركوه في سنابله «**إِلاَّ قَلِيلاً**» تأكلونه، وإنما أمر بذلك؛ لأنه أبقى وأبعد من الفساد «**ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ**» يعني سنين جدبة قحطه «**يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ**» إنما أضاف الأكل إلى السنة لوقوع الأكل فيها، كقول الشاعر:

نَـهَـارُكَ يَـا مَـغْـرُورُ سَـهْـوٌ وغَـفْـلَـةٌ   وَلَـيْـلُـكَ نَـوْمٌ والـرَّدَى لَـكَ لاَزِمُ[2]

---

(١) عن: ـ، ض.

(٢) البيت لعبد الله بن عبد الأعلى الشيباني. انظره في: البداية والنهاية ٩/ ٢٠٦.

فوصف بذلك؛ لأن السهو والنوم يقعان فيهما «**إِلاَّ قَلِيلاً مِمَّا تُحْصِنُونَ**» تحرزون، فلا تأكلون «**ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ**» فخبرهم يوسف بخبر لم[1] يسألوه عنه، ولم يكن في رؤيا الملك، وكله من علم الغيب «**عَامٌ**» أي: سنة «**فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ**» قيل: يمطرون من الغيث، وهو المطر، وقيل: ينقذون من الغياث «**وَفِيهِ يَعْصِرُونَ**» الثمار التي تعتصر في الخصب كالعنب والزبيب والسمسم، عن ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وهو كناية عن كثرة النعم والخصب، وقيل: تحلبون، عن ابن عباس بخلاف، وقيل: تنجون نجاة المعتصر بالماء عند الغصص، عن أبي عبيدة، والزجاج، وقيل: تمطرون، عن أبي مسلم، وقرأ: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا﴾ [النبأ: ١٤]، وقيل: تنجون من البلاء، وتعتصرون بالخصب، وقيل: لم يعصروا في الأربع عشرة سنة، ثم عصروا في تلك السنة، حكاه الأصم.

۞ الأحكام

تدل الآية على أن النسيان كان من الساقي؛ لذلك قال: «**وادكر بعد أمة**».

وتدل على أن يوسف كان يعبر لهم عن وحي؛ لذلك كان يقطع.

وتدل على نبوته من حيث أخبر عن الغيب.

وتدل على صحة الرؤيا، وإن كان من كافر.

وتدل على أنه عليه السلام علمهم ما فيه سبب نجاتهم.

وتدل على أنه يجب مراعاة أسباب الدنيا، وعن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «عجبت لصبر يوسف وكرمه يغفر الله له، أرسل إليه للاستفتاء في الرؤيا ولو كنت أنا ما أخبرتهم حتى أشترط الخروج من الحبس».

(١) لم: لما؛ ش، ض.

قوله تعالى:

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾

القراءة

قرأ عاصم في رواية الأعشى والبرجمي عن أبي بكر عنه: «**النسوة**» بضم النون، وقرأ الباقون: بكسر النون، وهما لغتان.

قرأ أبو عمرو: «**حاشا**» بالألف، والباقون بغير ألف، وقد بيّنّا[1].

اللغة

الخطب: أمر يعظم شأنه، فيخاطب الإنسان فيه صاحبه، ومنه: الخطبة؛ لأنها يخاطب بها، وهذا خطب جليل، وما خطبك: ما شأنك؟.

حاش: قال أبو مسلم: هي كلمة تجمع معنى الاستثناء والتنزيه والتعجب، تقول: جاءني القوم حاشا زيد، استثنيتزيدا من الحاش، قال النابغة:

وَمَا أُحَاشِي مِنَ الأَقْوَامِ مِنْ أَحَدِ[2] [3]

وأضيفت الكلمة إلى اسم[4] الله تعالى لما تضمنت من معنى التعجيب، وكذلك

---

(١) حجة القراءات ٣٥٩.

(٢) من أحدِ: أحدا، ش.

(٣) عجز بيت للنابغة الذبياني، وصدره:

وَلاَ أرى فَاعِلاً فـي النَّـاسِ يُـشْـبِـهُـهُ

انظره في: العين (حوس)، وأساس البلاغة (حشو).

(٤) اسم: ـ ، ض.

العرب تفعل في الشي يعجب، فتقول: يا لله، كما تقول: يا للعجب، كأنهم إذا عجبوا نادوا غيرهم مستغيثين ومتعجبين.

أصل حَصْحَصْ: حَصَّ، كقولهم كُبْكِبُوا، وأصله كُبُّوا، وكَفْكَفَ الدمع، وكَفَّ الدمع، وردَّ وردَّد، فهذه تضعيف دل عليه الاشتقاق، وهو قول الزجاج[1]، والحص: استئصال الشيء، يقال: حص شعره إذا استأصل قطعه، فظهرت مواضعه، ومنه: الحصة القطعة من الشيء، وحصحص الشيء: وضح، والأحص: القليل الشعر، وحصت البيضة شعر الرأس، قال الشاعر:

قَدْ حَصَّتِ البَيْضَةُ رَأْسِي فَمَا أَطْعَمُ يَوْمًا غَيْرَ تَهْجَاعِ[2]

وحصت الأرض حاصة: أصابها ما يذهب بنباتها فانكشف، وحصحص البعير بثفناته في الأرض: إذا برك حتى تستبين آثارها فيه، قال حميد:

وَحَصْحَصَ فِي صُمِّ الحَصَى ثُفِنَاتِهِ وَرَام القِيَامَ سَاعَةً ثُمَّ صَمَّمَا[3]

والخيانة: ضد الأمانة، وأصله من النقض[4].

والكيد: الاحتيال سِرًّا لإيصال الضرر إلى غيره، كاده يكيده كيدًا فهو كائد.

والتنزيه: إزالة الشيء عما كان لازمًا، وأبرأت الرجل من الدين.

والأمَّارة: الكثيرة الأمر بالشيء، والنفس بهذه الصفة لأنها تكثر شهوتها، فتدعو إلى المقبحات، واستعمال الأمر في النفس مجاز كثر استعماله حتى صار كالحقيقة ذنبًا، فقال للتكثير.

۞ الإعراب

اللام في قوله: «ليعلم» أي: لكي يعلم.

والألف واللام في قوله: «النفس» الجنس، وأراد أن كل النفوس كذلك، وقيل:

---

(١) معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٣/ ١١٥.

(٢) لأبي قيس بن الأسلت. انظره في: الصحاح (حصص)، والعين (حص).

(٣) قاله حميد بن ثور. انظره في: الصحاح (صمم)، واللسان (صمم).

(٤) النقض: التنقض، ض.

للعهد أي: نفسي كذلك، وقد تقدم ذكره، أمَّارة «فَعَّالَةٌ» من الأمر. و«**إلا ما رحم**» استثناء.

۞ المعنى

ثم بَيَّنَ تعالى إخراج يوسف من السجن، وما ظهر من براءته، فقال سبحانه: «**وَقَالَ الْمَلِكُ**» وفي الكلام حذف يدل عليه ما بقي، كأنه قيل: لما رجع الساقي إلى الملك وأخبره بحديث يوسف وتعبير الرؤيا قال الملك «**ائْتُونِي بِهِ**» يعني بيوسف الذي عبر رؤياي، «**فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ**» يعني رسول الملك إلى يوسف، وقال: أجب الملك فـ «**قَالَ**» يوسف «**ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ**» أي: سيدك، وهو الملك «**فاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ**» ما شأنهن على تهمتي أم لا؟ عن الأصم، وقيل: ما ذنبي في النسوة، وقيل: ما شأنهن هل ظهر أني بريء، وأنهن دعونني إلى الفساد، عن أبي علي، قال ابن عباس: إن خرج يوسف من السجن يومئذ قبل أن يعلم الملك شأنه ما زالت في نفس العزيز منه حاجة[1]، يقول: هذا الذي راود امرأتي، وقيل: ما أحب أن يخرج حتى يعلم طهارته وعصمته وبراءته مما قذف به، وأنه حبس بظلم، وقيل: طلب العذر، عن قتادة «**إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ**» قيل: إن الله بكيدهن عالم، عن أبي علي، وقيل: إنما عنى[2]: سيدي العزيز بكيدهن عليم، استشهدوه بما علم من حاله، عن أبي مسلم، والأول الوجه، «**قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ**» وفي الكلام حذف يعني لما سمع الملك ذلك دعاهن، ودعا امرأة العزيز، وقال لهن: ما خطبكن أي: ما شأنكن، وما أمركن، وما أمر يوسف، وإنما لم يفرد امرأة العزيز، قيل: لحسن الأدب، وقيل: لأنه أراد منهن أن يخبرنه ليثق به «**إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ**» يعني عياذًابالله وتنزيهًا من هذا الأمر وأن نقول[3] عليه سوءًا "**مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ**» فاعترفن ببراءته، وأنهن ظلمنه وحبس مظلومًا و«**قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ**» قيل: تبين وظهر، عن ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، كأن معناه: انقطع الباطل

(١) حاجة: حاكه، ض.
(٢) عنى: عنيا، ش.
(٣) وأن أقول: وأن نقول؛ ش، ض.

وظهر الحق «وَإِنَّهُ» تعني يوسف «لَمِنَ الصَّادِقِينَ» في قوله: «هي راودتني عن نفسي»، وفي براءته «ذَلِكَ لِيَعْلَمَ» قيل: هذا من كلام يوسف عليه السلام، ومعناه: ذلك الذي فعله من رد الرسول إلى الملك وسؤال النسوة ليعلم العزيز «أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ» يعني لم أخنه في حال غيبته عني، عن الحسن، ومجاهد، وقتادة، والضحاك، والأصم، وأبي ملسم. واتصل قول يوسف بكلام امرأة العزيز، وقطع الحكاية عنها لظهور الدلالة على المعنى، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهۡلِهَآ أَذِلَّةٗۚ وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ﴾ [النمل: ٣٤]، ونحو قوله: ﴿يُرِيدُ أَن يُخۡرِجَكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِۦ﴾ [الشعراء: ٣٥] هو كلام الملأ، ثم اتصل به الحكاية عن فرعون ﴿فَمَاذَا تَأۡمُرُونَ﴾ [الشعراء: ٣٥]. قال الفراء: وهذا من أغمض ما يأتي في الكلام أن يحكى عن واحد، ثم يعدل إلى شيء آخر في قول آخر، لم يَجْرِ له ذكر، وقيل: بل هو من كلام امرأة العزيز يتصل بما قبله، أي: ليعلم يوسف أني لما أخنه بالغيب في حال غيبته بتوريك الذنب عليه، وإن خنته بحضرته، عن أبي علي، «وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ» أي: لا يهديهم بكيدهم إلى خير بل يعاقبهم ويصيرون إلى الهلاك، عن أبي علي، وقيل: لا يهدي صنع من خان الأمانة، وقيل: يبطل كيدهم ولا يتمه، عن أبي مسلم. «وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي» قيل: هذا من كلام يوسف عند أكثر أهل التأويل، وقيل: من كلام امرأة العزيز، قال أبو علي: هو الأظهر والصحيح، ومعناه: وما أبرئ نفسي ولا أحكم لها بالبراءة من فعل القبائح في الجملة «إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ» أي: تحب الشهوات وإن كانت قبيحة، وتدعو إليها، فجعل ذلك بمنزلة الأمر «إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي» أي: رحمه يعصمه بألطافه فاعتصم، قيل: هذا من كلام يوسف، بين أن امتناعه عنها كان بحول الله ولطفه وهدايته لا بنفسه، ولولا لطفه لقدم على المعاصي، وقيل: بين أنه لم يمتنع[1] لقلة الشهوة، ولكن للخوف من العقاب، ونهي الله تعالى عنه، وقيل: بل هو من كلام المرأة لما اعترفت ببراءة يوسف، أقرت على نفسها بأن نفسها دعتها إلى ذلك، وذلك يدل على توبتها، وقيل: الاستثناء منقطع عما قبله، تقديره: لكن من رحم ربي فعصمه بألطافه، كقوله تعالى: ﴿وَإِن نَّشَأۡ نُغۡرِقۡهُمۡ فَلَا صَرِيخَ لَهُمۡ وَلَا هُمۡ يُنقَذُونَ ٤٣ إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ﴾ [يس: ٤٣، ٤٤] وقيل: الكلام به أليق، وقيل: يتصل بكلامها «إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ» يغفر الذنب لمن

(١) يمتنع: يمنع، ض.

تاب كما عصم من استعصم، وقيل: غفور لما حدث مني، رحيم[1] بي يدخلني الجنة، وبجميع خلقه.

۞ الأحكام

تدل الآيات على صدق يوسف وصبره وكثرة أناته حيث رَدَّ الرسولَ ليظهر براءته.

ويدل قوله: «**وإنه لمن الصادقين**» على براءته وبطلان ما ترويه الحشوية في بابه، وقد بلغ من جهلهم أن رووا أن يوسف لما قال: «**ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب**» قال جبريل: ولا حين هممت؟ فعند ذلك قال: «**وما[2] أبرئ نفسي**»، ورووا أنه قال له: ولا حين حللت تكتك؟ وقيل: قالت المرأة له ذلك، فضموا إلى ما نسبوا إليه من الفاحشة نسب[3] الكذب إليه، حتى نبهه جبريل. وكتاب الله أصدق، وقوله أحق.

ومتى قيل: لو لم يفعل شيئًا، ولم يَهُمَّ فما معنى قوله: «**وما أبرئ نفسي**»؟

قلنا: إن حمل على أنه من كلام يوسف، فإنما سلك طريقة الصالحين في ذم النفس، فلولا[4] عصمة الله تعالى لارتكب ما دعته شهوته إليه، ولأن المرء لا يثق من نفسه كل الثقة حتى يبرئها، ويحتمل أنه أراد ما أبرئهامن الشهوة.

وعن مطرف بن عبد الله: أنتم تعجبون ممن هلك كيف هلك، وأنا أعجب ممن نجا كيف نجا، نفس أمارة بالسوء، وعدو يراك من حيث لا تراه.

قوله تعالى:

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِيۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْأٓخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾

---

(١) رحيم: رحيما؛ ش، ض.
(٢) وما: ومما، ض.
(٣) نسب: فنسب، ش.
(٤) فلولا: ولولا، ض.

القراءة

قرأ ابن كثير: «حيث نشاء» بالنون مضافًا إلى الله تعالى لقوله: «**مكنا**» و«**نصيب**» وقرأ الباقون بالياء مضافًا إلى يوسف لقوله: «**يتبوأ**»[١].

اللغة

الاستخلاص: خلوص الشيء من شائب الاشتراك، كأنه يريد أن يكون خالصًا له، ومنه: المخلص، وفي حديث سلمان: «أنه كاتبه أهله على أربعين أوقية خلاص»، أي: ما اخلصته[٢] النار من الذهب، وكذلك الخلاصة.

والتمكين من المكانة، وأصله من التمكين في الأمر، وهو ما يتمكن به من الأمر، يقال: له عند فلان مكانة، وهو مكين إذا كان له قدر وجاه يتمكن بها ما يروم.

والتبوُّؤ: اتخاذ منزل يرجع إليه، وأصله من الرجع، باء: رجع.

الإعراب

الألف واللام في قوله: «**الأرض**» للعهد، دون الجنس، كأنه قال: خزائن أرضك.

المعنى

لما تبين للملك أمانة يوسف وبراءته وعلمه، أَمَرَ بإحضاره ليجعله من خلصائه على ما حكى الله تعالى، فقال سبحانه: «**وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ**» أي: أجعله خالصًا في تدابيري، ومهمات أموري «**فَلَمَّا كَلَّمَهُ**» وفيه حذف يعني فلما جاءه الرسول، وخرج من السجن، ودخل على الملك، وكلمه، فـ"**قَالَ**» الملك: «**إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا**» أي: عندنا «**مَكِينٌ**» أي: متمكن فيما أردت «**أَمِينٌ**» فيما ائتمنت، وقيل: معناه مكين لتلك المنزلة الرفيعة، أمين بتبين براءتك، وقيل: كان ليوسف يومئذ

(١) حجة القراءات ٣٦٠.

(٢) اخلصته: اخلصه، ش، ض.

ثلاثون[1] سنة، ثم قال: إني أحب أن أسمع رؤياي منك، فأعادها[2] عليه، فقال الملك: ومن يكفي هذا الأمر، فـ «قَالَ» يوسف «اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ» يعني أرض مملكته، وهو أرض مصر «إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ» قيل: حفيظ عمن[3] لا يستحقها، عليم بوجوه التدبير فيها، عن قتادة، وابن إسحاق، وأبي علي، وقيل: عليم بوجوه متصرفاتها، عن الزجاج[4]، وإنما سأل ذلك لصلاح العباد لحسن تدبيره لهم، وقيل: (**حفيظ عليم**) كاتب حاسب، وقيل: حافظ للحساب عليم بالألسن، وقيل: حفيظ بتقديره في هذه السنين، عليم بوقت الجوع حين يقع، عن الكلبي.

ومتى قيل: كيف مدح نفسه؟

قلنا: ذلك جائز إذا لم يكن فيه استطالة، وقيل: إنما ذكر ليعرف الملك حاله، فيقيمه في تلك الأمور لما فيه من صلاح العباد والبلاد.

ومتى قيل: كيف تولى من جهة الكفرة والظلمة؟

قلنا: ذلك يجوز عقلاً إذا تمكن من وضع الحق مواضعه، ولأن ما يجري مجرى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إذا لم يتمكن منه إلا بالتولي من جهته[5] جاز بخلاف الحدود والأحكام، وبعد فإنه كان يفعل ذلك من جهة نفسه لكونه نبيًا وإمامًا، وكان له أن يفعله بغير أمره، فإذا استأذنه لتسقط كلفة المخالفة جاز، وبعد فإنه ليس فيه ما يجري مجرى الولاية، وإنما هو التصرف في ملكه.

قال القاضي: والأقرب أنه علم أنه إذا تولى الخزائن، وتمكن منه آل الأمر إليه؛ فلهذا طلب ذلك ففوض الملك أمور مصر إليه، وعزل قطفير، وسلم سلطانه وخزانته إلى يوسف، ودخل بيته، وهلك العزيز في تلك الأيام، فزوجت راعيل من يوسف، فولدت له رجلين: افرائيم، وميشا، واستوسق له أمر مصر فعدل فيما بينهم، فأحبه

---

(١) ثلاثون: ثلاثين؛ ش، ض.
(٢) فأعادها: وأعادها، ض.
(٣) عمّن: لمن، ض.
(٤) معاني القرآن للزجاج ٣/ ١١٦.
(٥) جهته: ـ ، ض.

الرجال والنساء، قال تعالى: «**وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ**» أي: كذلك كان سبب تمليكنا إياه، يعني رؤيا الملك، وما اقتصصناه عليهم، عن الأصم، وأبي مسلم. ومكناه أي: ملكناه أرض مصر «**يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ**» بمعنى ينزل حيث يشاء.

ومتى قيل: إذا كان الملك هو المُمَكِّنَ له، فكيف أضيف ذلك إلى الله تعالى؟

قلنا: لأنه حصل بلطفه وهدايته[1] وقوة الدواعي[2] من جهته، وهيأ الأسباب حتى مَلَّكَهُ.

«**نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ**» أي: نختص بنعم الدين والدنيا من نشاء «**وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ**» المطيعين لله تعالى، قيل: الصابرين، عن ابن عباس، ووهب، وقيل: دعا الملك إلى الإسلام، فأجاب وأسلم، عن مجاهد «**وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ**» أي: ثواب الآخرة «**خَيْرٌ**» أي: أفضل من نعم الدنيا «**لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ**» المعاصي.

الأحكام

تدل الآية على أنه يجوز للمرء أن يمدح نفسه إذا كان فيه مصلحة، ولم يكن فيه استطالة وتفاخر، وقد قال النبي ﷺ[3] : «أنا سيد ولد آدم ولا فخر»[4].

وتدل على أن التولي من جهة الظلمة جائز، وهذا على وجهين: إن كان حدًّا أو حكمًا لم يجز، وفيما يجري مجرى الأمر بالمعروف، والتصرف في ملكه يجوز، وفي العقل يجوز مطلقًا، ولا يعلم كيف كان الشرع في ذلك الوقت، والأصح أنه إنما تولي ثم تصرف من جهة نفسه، لما علم أن الأمر يؤول إليه.

وتدل على أن ذلك التمكين والملك حصل بلطف الله وتدبيره ونصرته في المواطن.

---

(١) وهدايته: ـ ، ض.
(٢) الدواعي: الداعي، ض.
(٣) وآله: ـ ، ض.
(٤) مسلم رقم ٢٢٧٨، وأبو داود رقم ٤٦٧٣، والترمذي رقم ٣١٤٨.

ويدل قوله: «**يتبوأ منها حيث يشاء**» أنه كان يتصرف باختياره كما يريد، وذلك يوضح أنه كان لا يرجع إلى أمر الملك، وصار بحيث لا أَمْرَ عليه، عن أبي علي، وقيل: كل ذلك كان ثوابًا منه على صبره؛ لذلك قال: «**ولا نضيع أجر المحسنين**»، عن أبي علي، وقيل: بل هو بين تفضل وبين تكليف، وكلاهما يبعد عن الثواب وصفته، عن القاضي.

قوله تعالى:

﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾﴾

القراءة

قرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم: «**لفتيانه**» بالألف والنون، وهو قراءة الحسن والأعمش وحميد واختيار أبي عبيد، قالوا: لأنه كذلك في مصحف ابن مسعود، وقال الباقون: «لِفِتْيَتِهِ» بالتاء من غير ألف، وهما لغتان كالصبيان والصبية[١].

اللغة

جَهَازُ البيت: متاعه، وجهزت فلانًا: هيأت جهاز سفره، ومنه: جهاز المرأة.

وأصل المراودة: الطلب، ومنه: «الرائد لا يكذب أهله»، وهو يرتاد له كذا، أي: يطلب، ومنه: الإرادة، وهو طلب الفعل، والإرادة جنس من الأعراض يختص بالحي[٢].

---

(١) حجة القراءات ٣٦١.

(٢) بالحيّ: الحي، ض.

والفتى: الشاب القوي، وجمعه: فتيان وفتية.

والبضاعة: القطعة من مال الرجل، واستبضعت الشيء: جعلته بضاعة، وأصل البضع: القطع، ومنه: المِبضع؛ لأنه يقطع به.

والرحل: أوعية المتاع، وجمعه للتكثير: رِحَالٌ، وللقليل: أَرْحُلُ، قال ابن الأنباري: يقال للوعاء: رَحْلٌ، وللمسكن: رحل، وأصله: المعَدَّ للرَّحْل.

۞ المعنى

ثم بَيَّنَ تعالى أنه لما تمكن يوسف بمصر، ودخلت السنون المجدبة، وأصاب الناس الجوع، وقصدوا مصر، فنزل بآل يعقوب ما نزل بالناس، فأرسل بنيه إلى مصر ليمتاروا من مصر كما يمتار غيرهم، عن السدي، وابن إسحاق «**فَدَخَلُوا عَلَيْهِ**» أي: على يوسف، وهم عشرة؛ لأنه أمسك عنده بنيامين[1] «**فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ**» قيل: إنما أنكروا لطول العهد، فإن ما بين أن فارقوه حتى دخلوا عليه أربعين سنة، عن ابن عباس، وقيل: لأن سبب التغير فيه أكثر، لأنه كبر والتحى، وكان فارقهم صغيرًا، عن القاضي، وقيل: لأنه تزيا بزينة الملك جالسًا على السرير في عنقه طوق ذهب، وقيل: إنه تعالى أذهلهم عن معرفته حتى لا يهيموا في الأرض من فرط الحياء مما جَنَوْا عليه، وكان فيه مفسدة، وقيل: لأنهم باعوه مملوكًا صغيرًا، ثم رأوه ملكًا كبيرًا، عن أبي علي، وقيل: كان بينه وبينهم ستر «**وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ**» قيل: سألهم عن حالهم فقالوا: نحن قوم من أرض الشام جئنا نمتار لما أصابنا الجدب، فقال: لعلكم جواسيس، جئتم تنظرون عورة هذه البلاد؟ قالوا: لا، نحن بنو أب واحد، وهو شيخ صدّيق[2] يقال له: يعقوب، نبي من أنبياء الله، قال: كم كنتم؟ قالوا: كنا اثني عشر، ذهب أخ لنا، وكان أحب إلى أبينا، قال: فإلى من يسكن أبوكم بعده، قالوا: أخ لنا أصغر منه، قال: كم[3] أنتم ههنا؟ قالوا: عشرة، قال:

---

(١) بنيامين: ابنيامين، ش.

(٢) صدّيق: صدق، ش.

(٣) كم: كما؛ ش، ض.

وأين الآخر؟ قالوا: عند أبينا، قال: فمن يعلم أن ما قلتم حق؟ قالوا: نحن ببلاد غربة، لا يعرفنا أحد، قال: فكيف تخبرون أن أباكم صِدِّيق، وهو يحب الصغير منكم، ائتوني بأخيكم أنظر إليه فأنا أرضى بذلك، قالوا: فإن أبانا يحزن على فراقه، وسنراود عنه أباه، قال: دعوا بعضكم رهينة، فتركوا شمعون عنده، وكان أَبَرَّهُمْ بيوسف، وأحسنهم رأيًا فيه.

ومتى قيل: لِمَ لَمْ يعرفهم يوسف نفسه؟

قلنا: لعله خاف ألايرجعوا إليه، وقيل: ربما لو عرفوه كتموه، ولم يحملوا أخاه إليه، وقيل: إنه لم يؤذن بالتعريف تمامًا للمحنة على يوسف ويعقوب، ولما علم الله تعالى فيه من الصلاح، وهذا هو الوجه.

«**وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ**» أي[1]: جعل لكل رجل منهم ما باعه، وهو حمل بعير، فكان لا يدفع إلى واحد أكثر من ذلك توسعة للخلق «**قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ**» وهو بنيامين أخ لهم من الأب، وليوسف من الأب والأم، عن قتادة.

ومتى قيل: كيف استجاز أن يطلب أخاهم، ولا معاملة بينه وبينهم؟

قلنا: لما ذكروا ميل أبيهم إليه أحب أن يراه، ويعلم حاله، وقيل: أحب حصول الأبوين عنده على التدريج فيه باستدعاء أخيه، وقيل: إنما فعل جميع ذلك بإذن الله، وأمره لما علم فيه من المصلحة.

«**أَلا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ**» أي: لا أبخس أحدًا شيئًا، فأتم لكم ما أكيل لكم، وأزيدكم حمل بعير لأجل أخيكم، وأكرم منزلتكم «**وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ**» قيل: أنزل كل أحد منزلته، وقيل: خير المضيفين، عن مجاهد، وقيل: أنصفكم في المبايعة، وأحسن جزاءكم، عن أبي علي «**فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلا تَقْرَبُونِ**» أي: ليس لكم عندي طعام أكيله عليكم، «**ولا تقربون**» أي: لا تقربوا داري وبلادي بعد ذلك «**قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ**» قيل: نطلب أباه ونسأله أن يرسله معنا، وقيل: سنخدع

(١) أي: ـ، ض.

أباه حتى يرسله معنا، عن ابن عباس، ومعناه: نتلطف به[1] «وَإِنَّا» له «لَفَاعِلُونَ» وعد منهم إياه، ثم اختلفوا، فقيل: يجتهدون في المسألة، عن ابن عباس، وأبي مسلم، قال: وذلك لأنهم جوزوا ألاَّ يجيبهم يعقوب إلى ذلك، فوعدوه الاجتهاد، وقيل: لصائرون إليك به إن أرسله أبوه معنا، عن أبي علي، فالوعد على هذا الشرط، وقيل: لفاعلون أي: نأتيك به على كل حال، فالوعد على القطع، عن الأصم «وَقَالَ» يوسف «لِفِتْيَانِهِ» قيل: لعبيده وغلمانه، عن قتادة، وأبي مسلم، وقيل: لأعوانه، عن الأصم «اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ» أي: ثمن طعامهم، وما كانوا[2] جاءوا به «فِي رِحَالِهِمْ» في أوعيتهم «لَعَلَّهُمْ» يعرفون ذلك «إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ» إليَّ.

ومتى قيل: فما السبب في جعل ذلك في رحالهم؟ وأي تعلق له بالرجوع؟

قلنا: للعلماء فيه وجوه:

قيل: كانوا إخوته وأولاد الأنبياء، فأراد أن يبرهم على وجه لا يلحقهم امتنان ومذلة.

وقيل: علم أنهم إذا رأوا ردوه عليه.

وقيل: إزالة للتهمة أنه لا يطلب أخاه لطمع أو زيادة ثمن، أو نحو ذلك، وإنما يطلب للنظر والمعرفة، عن أبي علي.

وقيل: أراد أن يعرف أبوه فرط إكرامه لهم، وجميل رعايته إياهم، فيكونوا إلى العود أقرب، وبعثه أخاه[3] معهم آمن، عن الأصم.

وقيل: لأنه رأى أخذ الثمن من إخوته، وهو فيما يأكلون لومًا مع حاجتهم إليه، فرده من حيث لا يشعرون، تكرمًا وفضلاً.

وقيل: ليرجعوا إليه بما يظهر من تكرمته في ردها في زمان الجدب.

---

(١) به: له، ض.

(٢) كانوا: ـ، ض.

(٣) أخاه: أخيه؛ ش، ض.

وقيل: خاف أن يتعذر عليهم ثمن الطعام، فلا يعودوا[1]، فرد البضاعة ليسهل عليهم العود، وعلى أبيهم إرسالهم، عن الكلبي.

وقيل: ليرجعوا ويعرفوا سبب ردها، فكل ذلك أدعى لهم إلى الرجوع.

وقيل: أراد أن يتسعوا به، وخشي أن يضرهم أخذه؛ لأن الزمان زمان شدة.

الأحكام

تدل الآيات على أن يوسف كان يسأل عن أحوالهم، ويتبع ذلك شيئًا فشيئًا، حتى طلب أخاهم؛ لأنه لو سألهم ابتداء لكان فيه تهمة.

قال أبو علي: إنما أراد أن يصل خبره إلى أبيه، فيعلم أنه حي من حيث لا يعرف إخوته، فيكتمونه.

وتدل على أنه أراد منهم الرجوع؛ لذلك رد البضاعة.

قوله تعالى:

﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمۡ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَآ أَخَانَا نَكۡتَلۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمۡ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبۡلُ فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمۡ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ رُدَّتۡ إِلَيۡهِمۡۖ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبۡغِيۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتۡ إِلَيۡنَاۖ وَنَمِيرُ أَهۡلَنَا وَنَحۡفَظُ أَخَانَا وَنَزۡدَادُ كَيۡلَ بَعِيرٖۖ ذَٰلِكَ كَيۡلٞ يَسِيرٞ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنۡ أُرۡسِلَهُۥ مَعَكُمۡ حَتَّىٰ تُؤۡتُونِ مَوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأۡتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمۡۖ فَلَمَّآ ءَاتَوۡهُ مَوۡثِقَهُمۡ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ﴿٦٦﴾﴾

القراءة

قرأ حمزة والكسائي: «**يكتل**» بالياء، وهي قراءة الأعمش ويحيى بن وثاب، يعني: أخاهم بنيامين يكتل لنفسه، كما نكتال نحن لأنفسنا، وقرأ الباقون: «**نكتل**» بالنون أي: نكتال نحن وهو[2].

---

(١) يعودوا: يعودن؛ ش، ض.

(٢) حجة القراءات ٣٦١.

وقرأ[1] حمزة والكسائي وحفص عن عاصم والأعمش ويحيى بن وثاب: «خير حافظًا»[2] بالألف على التفسير والتمييز على تقدير: هو خيركم حافظًا، وقرأ الباقون: «حفظًا» بغير ألف على المصدر يعني: خيركم حفظًا.

اللغة

الرجوع: المصير إلى الموضع الذي منه خرج، ومنه: الرجوع إلى النشأة الثانية؛ لأنه رجوع إلى الحياة بعد مفارقتها.

والكيل: كيل الطعام، وكِلْتُ فلانًا: أعطيته الشيء كيلاً، وأكلت عليه: أخذت منه.

والأمن: اطمئنان القلب إلى سلامة الأمر، أَمِنَهُ يأمنه أمنًا، وائتمنته ائتمانًا.

والبغي: أصله الطلب، والباغي لطلبه ما ليس له.

والميرة: الأطعمة التي تحمل من بلد إلى بلد، مَارَهُ يَمِيرُهُ[3] ميرًا: إذا حمل الطعام إلى بلده، ومثله: امتار امتيارًا.

والإيتاء: بالمد الإعطاء، آتاه يؤتيه إيتاءً، والإتيان به: المجيء به.

والموثق: العقد المؤكد بالقسم، ومنه: الميثاق.

الإعراب

«حافظًا» نصب على التمييز، وقيل: على الحال، و(حفظًا) على المصدر.

ويقال: ما الفرق بين (خير حافظا)، و(خير حافظ)؟

قلنا: الإضافة تدل على أن الموصوف حافظ، وليس كذلك التمييز، وأجاز الزجاج كلا الوجهين.

---

(١) وقرأ: وقراءة، ض.

(٢) حجة القراءات ٣٦٢.

(٣) يميره: يمير؛ ش، ض.

«**نكتل**»[1]: أصله: نكتال، ذهبت الألف لالتقاء الساكنين اللذين أحدهما اللام، عن أبي مسلم.

واللام في قوله: «**لتأتنني**» لام القسم.

(ما) في قوله: «**ما نبغي**» قيل: (ما) الاستفهام، والمراد به الجحد، معناه[2]: أي شيء نبغي، يعني «لا نبغي»، وموضعه نصب، وقيل: (ما) الخبر، والمراد به البغي، أي: لا نبغي فيما أخبرناك به الكذب، أجاز كلا الوجهين الفراء والزجاج[3].

ويقال: ما موضع (أن) من الإعراب في قوله: «**إلا أن يحاط بكم**»؟

قلنا: نصب بمعنى المفعول له، وتقديره: إلا الإحاطة بكم، كقولهم: لم تأتني إلا لأجل الدراهم، ولم تأتني إلا أن تأخذ الدراهم، عن الزجاج.

۞ المعنى

لما تقدم الوعد منهم ليوسف في بنيامين عقبه بذكر ما جرى مع أبيهم في ذلك، فقال سبحانه: «**فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ**» قيل: لما رجعوا قالوا ليعقوب: قدمنا على خير رجل، أكرمنا كرامة لو كان من ولد يعقوب ما أكرمنا مثله، فقال: إذا أتيتموه فأقرِئوه[4] مني السلام، ثم قال: أين شمعون؟ قالوا: ارتهنه ملك مصر، وأخبروه بالقصة، فقال: ولم أخبرتموه؟ فقالوا: أخذنا وقال: إنكم جواسيس، وقصوا القصة، وقالوا: «**يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ**» قيل: منع زيادة الكيل على عدد الرؤوس؛ لأنه كان لكل واحد منهم حمل بعير، فمنعوا تمام ما أرادوا، وقيل: منع منا[5] الكيل في المستقبل إن لم نأت بأخينا لقوله: ﴿فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي﴾، عن الحسن، وأبي علي، والأصم، والزجاج، وأبي مسلم، وهو الوجه، بينوا أنه إن لم

---

(١) أكتل: أكتله، ض.

(٢) معناه: أي معناه، ش.

(٣) معاني القرآن للزجاج ٣/ ١١٩.

(٤) فأقرئوه: فأقروه، ض.

(٥) منا: + ، ض.

يبعث معهم أخاهم يمنع منهم الكيل «**فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا**» بنيامين إلى ملك مصر «**نَكْتَلْ**» نحن وهو، وبالياء يكتل هو أيضًا لنفسه «**وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**» قيل: نحفظه بجهدنا حتى نرده عليك، وقيل: نحفظه من الآفات والغوائل «**قَالَ**» يعقوب «**هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ**» يعني إن ضمنتم حفظه لم يكن هذا الضمان في الثقة به إلا كضمانكم حفظ أخيه يوسف، وتقديره: هل هذا الضمان إلا كالضمان على حفظ يوسف، وإنما قرعهم بحديث يوسف، وإلا علم في هذه الحال أنهم لا يفعلون ما لا يجوز «**فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا**» يعني حفظ الله بنيامين خير من حفظكم، عن أبي علي، وقيل: معناه: وثقت بكم في حفظ يوسف، فكان ما كان، فالأولى أتوكل على الله في حفظ بنيامين، وقيل: معناه: فالله خير حافظًا ليوسف، وكان يعلم أنه حي، عن الأصم، وقيل: ذكر ذلك على سبيل استنزال الرحمة.

ومتى قيل: لِماذا بعث معهم وقد دهاه منهم ما دهاه مع هذا الكلام؟

قلنا: لتغيير الأحوال؛ لأنهم لما كبروا مالوا إلى الخير والصلاح، وقيل: الضرورة[1] والقحط ألجآه إلى ذلك، وقيل: إنه تعالى أوحى إليه بذلك، وضمن حفظه، وهذا هو الوجه «**وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ**» بخلقه يرحم ضعفي وكبر سني، ويرده عليّ، «**وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ**» يعني ما حملوه من مصر، وقيل: أوعية الطعام «**وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ**» ثمن الطعام «**رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي**» قيل: أي شيء نطلب وراء هذا، أوفى[2] لنا الكيل، ورد علينا الثمن، عن قتادة، وأرادوا أن تطيب نفس يعقوب، فيبعث بابنه معهم، وقيل: استبشر بوجود بضاعتهم لضيق أيديهم، وهذا لا يصح، وقيل: ما نطلب بما أخبرناك عن ملك مصر الكذب، ودليله: «**هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا**»، عن أبي علي، والفراء[3]، والزجاج[4]، وقيل: ما نريد منك شيئًا أن تعطينا فإن هذه[5] بضاعتنا ردت إلينا، والملك لا يأخذ منا شيئًا إحسانًا وإكرامًا، وإذا فعلنا ما

(١) الضرورة: للضرورة، ض.
(٢) أوفى: يوفي، ض.
(٣) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٠٠.
(٤) معاني القرآن للزجاج ٣/ ١١٨.
(٥) فإن هذه: فهذه، ض.

أمرنا به في أخينا أمنا جانبه فيما وعدنا به، فإن أرسلته معنا نمير أهلنا؛ أي: نجلب الميرة، وهي الأطعمة التي تحمل من بلد إلى بلد «**وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ**» أي: نزيد على أحمالنا حمل بعير لأجله، وقيل: حمل [بعير]، يعني: حمل حمار، وهي لغة يقال للحمار بعير، عن مجاهد، وهذا خلاف الظاهر «**ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ**» قيل: قليل، فنحتاج إلى أن نضيف إليه كيل بعير أخينا، عن أبي علي، وقيل: يسير على من يكيل، لا مؤنة فيه ولا مشقة، عن الحسن، وقيل: إذا أتيناه بأخينا[1] يسر علينا الكيل، عن الأصم، وقيل: سريع لا بخس فيه ولا يزيد، وهذا كله منهم بيان وجه الصواب في إرساله، فلما رأى يعقوب رد البضاعة، وتحقق عنده إكرام الملك إياهم عزم على إرسال ابنه معهم فـ «**قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ**» قيل: تعطوني ما يوثق به من يمين أو غيره «**مِنَ اللَّهِ**» أي: بإشهاد الله أو القسم بالله وعهده على أنفسكم، وقيل: تحلفوا لي بخاتم النبيين وسيد المرسلين محمد ﷺ، عن ابن عباس «**إِلاَّ أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ**» إلا أن تهلكوا جميعًا، عن مجاهد، وقيل: إلا أن تغلبوا حتى لا تطيقوا ذلك، ولا تقدروا على دفعه «**فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ**» أعطوه عهدهم ويمينهم، قيل: حلفوا بمحمد ﷺ ومنزلته من ربه، عن ابن عباس. «**قَالَ**» يعقوب «**اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ**» أي: شاهد وحافظ بالوفاء، وقيل: كفيل، عن القتيبي، وقيل: لما قال يعقوب «**الله خير حافظا**» و«**الله على ما نقول وكيل**» قال تعالى: «وعزتي وجلالي لأردن عليك كليهما[2] بعدما توكلت عليّ».

۞ الأحكام

تدل الآية على وجوب التوكل على الله في جميع مهماته وأموره، وقوله: «**فالله خير حافظًا**» كالدلالة على أنه أخبره بحياة يوسف، وأنه محفوظ محروس.

وتدل على جواز أخذ العهد والميثاق.

وتدل على أن الحفظ وترك الحفظ فعلهم، فيبطل قول المجبرة في المخلوق.

وتدل على أن العاقل ينبغي أن يصون نفسه عن مواضع التهم؛ لأن أولاد يعقوب

---

(١) أتيناه بأخينا: ـ ، ض.

(٢) كليهما: كلاهما؛ ش، ض.

لو لم يتقدم منهم في أمر يوسف ما تقدم ما قال لهم يعقوب ما قال، وقيل: لأنه عليه السلام لو لم يثق بهم لما أرسله معهم؛ لأنهم لما كبروا ندموا على ما كان منهم، ولم يصروا، وإنما عيرهم بحديث يوسف حثًا لهم على حفظ أخيه، وقد قال بعض أهل الحشو: إنه لم يثقبهم لكونهم مصرين غير نادمين، وهذا باطل لما ذكرنا.

قوله تعالى:

﴿وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَهُمۡ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغۡنِي عَنۡهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ إِلَّا حَاجَةٗ فِي نَفۡسِ يَعۡقُوبَ قَضَىٰهَاۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلۡمٖ لِّمَا عَلَّمۡنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٦٨﴾ وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٦٩﴾﴾

اللغة

الغنى: أصله الكفاية، ومنه: الغنى في المال مقصور؛ لأنه اكتفى به، وربما يمد لضرورة الشعر، والغِناء بكسر الغين والمد: من الصوت، غنى يغني غناء، والغَنَا بالمد وفتح الغين: الكفاية، وغني عن كذا فهو غان، وغنى القوم في دارهم أقاموا، ومنازلهم مغانيهم؛ لأنهم اكتفوا بها، والغانية: المرأة التي اكتفت بزوجها، وقيل: هي التي غنيت بجمالها عن الحلي، وغني به لأجله بطلب حاجته، وغنى عنه: وجوده وعدمه سواء.

والحكم: فصل الأمر، ونظيره: القضاء، وهو إتمامه، والفراغ[1] منه.

الإعراب

(من) في قوله: «من شيء»، قيل: (من) توكيد، ومعناه: ما كان يغني عنهم من الله شيء.

---

(١) والفراغ: وللفراغ، ض.

﴿إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ﴾ استثناء.

۞ المعنى

ولما عزم يعقوب على إرسال ابنه معهم أوصاهم كيف يدخلون مصر، فقال سبحانه حاكيًا عنه: «**يَا بَنِيَّ لا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ**» إذا دخلتم مصر «**وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ**» وقيل: خاف عليهم العين؛ لأنهم كانوا ذَوِي[1] جمال وهيئة وكمال، وهم إخوة ولد رجل واحد، عن ابن عباس، والحسن، وقتادة، والضحاك، والسدي، والأصم، وأبي مسلم، وقيل: خاف عليهم حسد الناس لهم، وأن يبلغ الملك قوتهم وبطشهم، فيحبسهم أو يقتلهم خوفًا على ملكه، عن أبي علي، وأنكر العين، وذكر أنه لم يثبت بحجة، وقيل: خاف عليهم الغوائل إذا كانوا مجتمعين، فرأى التفرق أسلم، عن أبي علي، وقيل: أراد بافتراقهم أن يصل بنيامين إلى يوسف، عن النخعي «**وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ**» يعني أن ما يريد الله بكم لا ينفع منه الاحتياط، وإن كان ينفع من الناس، ومنه: قيل: لا ينفع الحذر إذا جاء القدر.

ولما أمرهم بالحذر عقبه بهذا؛ كيلا يظن ظان أن الحذر ينفع عند نزول المقادير منه سبحانه «**إِنِ الْحُكْمُ**» أي: الحكمة «**إِلاَّ لِلَّهِ**» وهو لا يحكم إلا بالحكمة والصواب «**عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ**» أي: فوضت أمري إليه، وكذلك يفعل كل من توكل عليه، وقيل: إنما قال ذلك ليؤكد عليهم التمسك بطاعة الله[2] واجتناب معاصيه، وطلب الرزق من حيث أمر به، عن أبي علي «**وَلَمَّا دَخَلُوا**» مصر «**مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ**» قيل: كان بمصر أربعة أبواب فدخلوها من أبوابها متفرقين «**مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ**» أي: لم يغن عنهم ذلك الاحتياط شيئًا إذا أراد الله ابتلاءهم بشيء فاجتنابهم لا يعصمهم من ذلك «**إِلاَّ حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا**» يعني إلا غرضًا كان في نفس يعقوب حصل له وتمم عليه، واختلفوا في تلك الحاجة، قيل: تفرقهم كان حاجة في نفس يعقوب، كان يراه صوابًا، وأشفق عليهم إشفاق الآباء على

---

(١) ذوي: ذا؛ ش، ض.

(٢) بطاعة الله: بطاعته، ش.

الأبناء قطعًا، ففعلوا ذلك، وقيل: الله تعالى ذكر الحاجة وهي[1] كثيرة فلم يبيِّن، فالله تعالى أعلم بها، وقيل: خاف[2] عليهم من الحسد والعين، وقيل: الحاجة هو إرادته أن يدفع الله عن ولده، ويردهم إليه، فاجتهد لذلك، عن الأصم، وقيل: أراد أن يدخلوا سريعًا، ويخرجوا سريعًا، فلا يعوقهم عائق، وقيل: أراد إن لحقهم مكروه ألا يلحقهم جميعًا "**وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍلِمَا عَلَّمْنَاهُ**» أي: عالم بما آتاه من النبوة، وعلوم الدين، وتعليم الله إياه بالحجج «**لِمَا عَلَّمْنَاهُ**» قيل: لتعليمنا إياه، عن مجاهد، وقيل: لعالم بما علم، وقيل: لذو حفظ لما علمناه، والمعنى: أنه يعمل بالعلم لا بالجهل «**وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ**» ما علمه يعقوب من دين الله، عن أبي علي، وقيل: لا يعلمون حال يعقوب، وقيل: لا يعلمون فيقدمون على الأمور بجهالة.

۞ الأحكام

تدل الآية على أن يعقوب أمرهم بالتفرق مخافة عليهم، وقد بَيَّنَّا ما قيل فيه، فجماعة المفسرين قالوا: خاف عليهم العين، وأنكر أبو علي ذلك، وقد أنكر ذلك جماعة من المتكلمين، ومنهم من جوزه، وروى فيه خبر أن النبي ﷺ قال: «العين حق»[3]، وكان يعوذ الحسن والحسين، ويقول: «أعيذكما من كل عين لاَمَّةٍ»[4]، وروى الأصم في ذلك أخبارًا، فمنها ما روي أن بني جعفر بن أبي طالب كانوا غلمانًا بيضًا، فقالت أسماء بنت عميس: يا رسول الله، العين إليهم سريعة، فاسترق لهم من العين، فقال ﷺ: «نعم». وروي أن جبريل رقى رسول الله ﷺ وعلمه[5] الرقية: «بسم الله أرقيك، من كل شيء يؤذيك، ومن كل عين حاسد الله يشفيك». وروي عن النبي ﷺ أن إبراهيم عليه السلام عوذ ابنيه، وأن موسى عوذ ابني هارون، وأن النبي ﷺ عَوَّذَ الحسن والحسين «أعيذكما بكلمات الله التامة من كل شيطان وهَامَّة وعين لاَمَّة»، وإذا وردت فيها الأخبار وروي عن السلف ولا يمنع منه العقل، فلا معنى للمنع.

---

(١) وهي: وهو، ض.
(٢) خاف: ما خاف، ش، ض.
(٣) البخاري رقم ٥٤٠٧، ومسلم رقم ٢١٨٧.
(٤) البخاري رقم ٣١٩١، وأبوداود رقم ٤٧٣٧، ومسند أحمد رقم ٢٤٣٤.
(٥) وعلمه: وعلله، ش.

ثم اختلفوا في وجه الإصابة، فمنهم من قال: يخرج من عين العاين شعاعٌ يتصل بمن رآه، فيؤثر فيه تأثير السم، وهذا لا يصح؛ لأنه لو كان كذلك لما اختص ببعض الأشياء دون بعض، ولأن الشعاع جواهر، والجواهر متماثلة، ولا يؤثر بعضها في بعض، ونحن لا نقول: السم يؤثر، بل الله تعالى[1] أجرى العادة بالإماتة عند شرب السم، ولولا تلك العادة لجاز أن يكون السم غذاء، وقيل: هو فعل العائن يفعله فيه، وهذا لا يصح؛ لأن الجسم لا يصح أن يفعل في شيء إلا وبينهما مماسة، ولم يوجد ههنا، ولأنه لو كان فعله لوقف على اختياره، ولأن استحسانه للشيء لا يوجب أن يمرضه، وكيف والمرض والموت ليسا[2] بمقدورين[3] للعباد، وقيل: إنه فعل الله تعالى بالعادة لضرب من المصلحة عند رؤية شيء واستحسانه فيمرضه أو يغيره أو يميته لطفًا ومصلحة، وهذا أقوى ما قيل فيه، وهو قول أبي هاشم والقاضي.

وتدل على أن الواجب التوكل على الله في جميع الأمور، ولا يَغْتَرّ[4] بالاحتياط، بل يحتاط ويتوكل عليه، ويفوض أمره إليه.

قوله تعالى:

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (٦٩) فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَـٰرِقُونَ (٧٠)﴾

اللغة

أوى إلى منزله يأوي أويًا: إذا صار إليه، آويته أنا، آويه إيواء: إذا صيرته، والمأوى: مكان كل شيء، والإيواء أن تضمه إليك.

---

(١) تعالى: ـ، ض.
(٢) ليسا: ليس، ض.
(٣) بمقدورين: بمقدور؛ ش، ض.
(٤) يغتر: يتغير؛ ش، ض.

ويقال: لم جاز اجتماع حروف العلة في كلمة واحدة من «آوى»؟

قلنا: لأن الهمزة كالحرف الصحيح، إذْ[1] لم تكن حرف مد ولين، ومع ما[2] لها من الحظّ في الحروف، فجاز على علة لهذه العلة.

والابتئاس: اختلاف[3] البؤس والحزن، والابتئاس: الاغتمام.

والسقاية: الإناء التي يسقى فيها، وأصله من السقي، وقيل: السقاية والصواع واحد، عن أبي مسلم، قال الأصم: الصاع غير الصواع، يقال: سقيته بيدي سقيًا، وأسقيته: جعلت له سقيا، والسقي بالفتح المصدر، وبالكسر الحظ من الشرب، سقيت على فلان: قلت له: سقاه الله.

والإيذان: الإعلام، ومنه: الأذان والتأذين، وهو النداء يسمع بالأذن، والإذن: الإطلاق؛ لأنه يسمع بالأذن.

والعير: القافلة التي فيها الأحمال، وأصله: الحمير، ثم كثر فسمي كل قافلة عيرًا، قال أبو مسلم: العير الإبل السائرة، ومن فيها هم أهل العير، فحذف الأهل استغناء كقولهم: تميم قالت، يعني بني تميم.

۞ الإعراب

(هم) في قوله: «**جهزهم**» محله نصب لوقوع الفعل عليه، وفي قوله: «**بجهازهم**» في محل الكسر؛ لأنه مضاف إليه.

والكناية في قوله: «**إنكم**» (كم) اسم[4] (إن)، وخبره قولهم: «**السارقون**».

ويقال: لم قال: «**ولمن جاء به**»، ثم قال: «**استخرجها من وعاء أخيه**»؟

---

(١) إذ: إذا؛ ش، ض.

(٢) ومع ما: ونعما، ض.

(٣) اجتلاب: اختلاف؛ ش، ض.

(٤) اسم: ـ ، ض.

قلنا: إن ذكَّر رجع إلى الصاع، والتأنيث إلى السقاية.

المعنى

ثم بَيَّنَ تعالى دخولهم مصر، وكيف جرى الأمر، فقال سبحانه: «**وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ**» من الطرفين بنيامين، قيل: ضمه إليه، وأنزله معه، عن الحسن، وقتادة، وقيل: لما دخلوا عليه قالوا: هذا أخونا الذي أمرتنا أن نأتيك به، فقال: أحسنتم، ثم أنزلهم وأكرمهم وأضافهم، وأجلس كل اثنين على مائدة، فبقي بنيامين فردًا، فبكى، وقال: لو كان أخي حيًّا لأجلسني معه، فقال يوسف لهم: بقي أخوكم وحده، فاجلس معي، فجعل يؤاكله، فلما كان الليل أنام كل اثنين على فراش، وضم بنيامين إلى نفسه، وجعل روبيل يقول: مارأينا مثل هذا، ثم أنزل كل اثنين منزلاً، وأنزله معه في منزله، و«**قَالَ**» له «**إِنِّي أَنَا أَخُوكَ**» قيل: أطلعه على أنه أخوه، وقيل، لا يسوؤك[1] ما عملته الإخوة لمكاننا، ثم رأى المصلحة في حبسه، فجعل السقاية في رحل أخيه بمواطأة منه، لكيلا يسوؤه[2] ذلك، عن أبي علي، والأصم، وأبي مسلم، والقاضي، وقيل: سأله عن أمه وأخيه، فأخبره بذلك، وبما أسلفوا إلى أخيه يوسف، فقال: «**إِنِّي أَنَا أَخُوكَ**» مكان أخيك، ولم يطلعه على أنه أخوه، ثم احتال في تحصيله عنده، وقال: لا تبتئس بما فعله الإخوة، عن وهب، والشعبي «**فَلا تَبْتَئِسْ**» أي: لا تحزن «**بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**» أي: بما سلف من فعل إخوتك إليك، وإلى أخيك من أمك، وقيل: لا تبتئس باستبدادهم بالأموال والتصرفات، وضيق يدك، فقد زال ذلك، عن أبي علي.

ومتى قيل: بهذا الصنيع أحزن والده وإخوته وصيرهم متهمين؟

قلنا: إذا كان فيه مصلحة جاز، ولأنه يؤدي إلى إزالة غموم جمة، فجاز وإن كان فيه غم، على أنه فعله بوحي، وأما التهمة فلا ينبغي لأحد أن يتهمهم، وهم أنبياء.

---

(١) يسوؤك: يسؤنك؛ ش، ض.
(٢) يسوؤه: يسؤه؛ ش، ض.

«**فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ**» قضى حاجتهم وحملهم الطعام، ووفاهم الكيل، وجعل لكل واحد حمل بعير، ولبنيامين مثله، وقيل: جهزهم هيأ لهم أسباب الميرة «**جَعَلَ السِّقَايَةَ**» قيل: المشربة التي كان يشرب بها الملك، وقيل: كان كأسًا من ذهب، عن ابن زيد، وقيل: كان يسقى بها الملك، وقيل: جامًا من فضة، عن الحسن، وابن إسحاق، وروي ذلك عن ابن عباس، وقيل: كان ذلك من فضة مرصعة بالجواهر، عن عكرمة، وقيل: كان يسقى بها الملك، فلما جاء أيام القحط جعلها ليوسف مكيالاً لا يكال بغيرها، وأنكر الأصم ذلك، وذكر أنه مِشْرَبَةٌ للملك «**فِي رَحْلِ أَخِيهِ**» التي يحمل فيها الطعام، ثم ارتحلوا وانطلقوا، ثم أدركوا وحبسوا، وأذن مؤذن أي: نادى منادٍ «**أَيَّتُهَا الْعِيرُ**» القافلة أو أهل العير، وقيل: كانت القافلة من الحمير، عن مجاهد «**إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ**».

ومتى قيل: لِمَ جاز النداء بالكذب؟

قلنا: فيه قولان:

الأول: أن يوسف لم يأمرهم بذلك، ولم يعلمهم، وإنما كان أَمَرَ بجعل السقاية في رحل أخيه، فلما فقدها الموكلون اتهموهم بسرقتها[(١)]، ونادوهم، عن أبي علي.

الثاني: أنهم نادوهم[(٢)] على ظاهر الحال فيما يغلب على ظنونهم، ولم يكن بأمر يوسف، وإن علم أنهم سيفعلونه، وقيل: عنوا به «**إنكم لسارقون**» يوسف من[(٣)] أبيه فيما قيل، ولم يريدوا الصواع، عن أبي مسلم.

وعن كعب لما قال يوسف له: «**إِنِّي أَنَا أَخُوكَ**» قال: إني لا أفارقك، فتوصل إلى المقام عنده بهذا الصنيع، قال أبو علي: أعلم أخاه أنه يحتال لاحتباسه عنده.

الأحكام

تدل الآية على أن يوسف أطلعه على أنه أخوه، هذا هو الظاهر، وأنه حبسه بمواطأة منه على ما ذكره أبو علي.

---

(١) بسرقتها: بسرقها؛ ش، ض.
(٢) نادوهم: ـ ، ض.
(٣) من: عن؛ ش، ض.

وتدل على أنه نودي بالسرقة، فأما أن يقال: كان بغير أمر يوسف، أو كان تعريضًا؛ لأنه عليه السلام كما لا يجوز أن يكذب لا يجوز أن يأمر بالكذب، ولا شبهة أنه كَذِبٌ في الظاهر.

قوله تعالى:
﴿قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾﴾

القراءة

قراءة العامة: «**صواع الملك**» وعن أبي هريرة: (صاع الملك) والصاع هو الصواع عند جماعة أهل اللغة، وذكر الأصم أن الصاع غير الصواع، وجمع الصواع: صِيعان، وجمع الصاع: أَصْوُعٌ، وقرأ أبو رجاء: (صوع الملك) بالواو، وقرأ يحيى بن يعمر: (صوغ) معجمة بالغين من حرف مصدر صاغ يصوغ صوغًا، يقال: صغت الشيء صوغًا، ومنه: الحديث: «كذبة كذبها الصواغون»[1] قال أبو هريرة: لما قيل له: خرج الرجال، فقال: صاغ كذبًا، وصاغ شعرًا.

اللغة

الإقبال: مجيء الشيء على [جهة] المقابلة[2]، ونظيره: التوجه، ونقيضه: الإدبار، والإقبال ـ إذا أطلق ـ يراد به الإقبال على الخير والصلاح، وإنما يجوز خلاف ذلك بالبعيد[3].

والفقد: غيبة الشيء، عن الحسن، بحيث لا يرى أين هو، والفاقد: المرأة تفقد

(١) ابن ماجه رقم ٢١٥٢، ومسند أحمد رقم ٧٩٠٧.
(٢) ض، ش: المغايرة التصويب من: تفسير مجمع البيان: ٦/ ١٧٠.
(٣) بالبعيد: بالتعبد، ش.

ولدها أو بعلها، يقال: فقدت الشيء فقدًا، وتفقدته[1]: إذا طلبته عند غيبته، والفاقد من الوحش الذي يغيب عنها ولدها، قال الشاعر:

ثَكْلَى[2] فَقَدَتْ حميما[3]

والصواع: مكيال الطعام، وجمعه: صيعان، ويقال: صاع وأصواع أيضًا.

والحمل: قدر من المتاع مهيأ لأن يحمل، والحمل ـ بالفتح ـ: ما اتصل، وبالكسر: ما انفصل، وجمعه: أحمال وحمول، وإنما خص المنفصل بالفتح؛ لأن النصب[4] أخف الحركات، والحمل المتصل أثقل كما في البطن ورأس الشجر، والحمل المتصل أخف والكسرة أثقل الحركات، فأدخلت فيه للمعادلة.

والزعيم والكفيل[5] والضمين نظائر، وهو القابل للشيء متضمنًا بصحته، والزعيم أيضًا: القائم بأمر القوم؛ لأنه كالمتكفل لذلك، زعم زعامة، والزعيم[6] الرئيس، قال الشاعر:

حَتَّى إذا بَرَزَ اللِّوَاء رَأَيْتَهُ   تَحْتَ اللِّوَاءِ عَلَى الخَمِيسِ زَعِيمَا[7]

۞ الإعراب

ذكّر **(لمن جاء به)**، وأنّث **«ثم استخرجها»**، قيل: التذكير يرجع إلى الصاع، والتأنيث إلى السقاية، وقيل: الصواع يذكر ويؤنث، عن الأخفش والزجاج، فمن أنث قال: ثلاث أصوع، ومن ذكر قال: ثلاثة أصواع، نحو: أبواب.

---

(١) وتفقدته: وتفقد، ض.

(٢) ثكلى: ثكلتني، ض.

(٣) جزء بيت لرؤبة بن العجاج، وتمامه:

أَنِينَ عَبْرَى أَسْلَمَتْ حَمِيما   بُكَاءَ ثَكْلَى فَقَدَتْ حَمِيما

(٤) النصب: للنصب، ض.

(٥) والكفيل: الكفيل، ض.

(٦) والزعيم: كالزعيم، ش.

(٧) البيت لحميد الهلالي. انظره في: العين (زعم).

والتاء في قوله: «تالله» حرف القسم، وحروف[1] القسم ثلاثة: الباء وهو الأصل لذلك يدخل على جميع الظاهر والمكني، ثم الواو فرع عليه، فيدخل على الظاهر دون المكني، ثم التاء لا تدخل إلا على اسم الله؛ لأنه بدل من بدل، فاختص بما هو أحق بالقسم، وهو اسم الله، وقيل: الواو قلبت تاء كالتراث ونحوها.

۞ المعنى

ثم بَيَّنَ تعالى ما جرى بينهم بعدما سمع العير النداء، فقال سبحانه: «**قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ**» قيل: لما سمعوا النداء يقول: قفوا، أقبلوا على المنادي، أي: أعطفوا عليهم بوجوههم، وقالوا: «**مَاذَا تَفْقِدُونَ**» أي: ما الذي ضل عليكم؟ قيل: فقالوا لهم: ألم نكرم ضيافتكم، ألم نُوَفِّكُمُ الكيل.

فإن قيل: لم اتهموهم دون غيرهم؟

قلنا: لأنهم نزلوا[2] دارًا منفردين[3] لا يدخلها غير رسل الملك، وكان الصاع فيها.

قلنا: الوجه فيه أنهم جعلوا ذلك في رحله؛ فلذلك نادوا، وقيل: يحتمل أن من جعل فيه أخبرهم بما يوجب التهمة.

«**وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ**» أي: بالصاع «**حِمْلُ بَعِيرٍ**» من الطعام «**وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ**» كفيل، يقوله المؤذن، وكان زعيم القوم يتكلم عنهم؛ فلذلك قال: (وأنا) بعدما قال: (تفقدون)، و(نفقد صواع الملك)، «**قَالُوا**» يعني إخوة يوسف «**تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ**» أيها القوم «**مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ**» قط.

ومتى قيل: هل علم ذلك من حالهم أم لا؟ فإن لم يعلموا فكيف قال: «علمتم»؟ وإن علموا فكيف اتهموهم؟

---

(١) وحروف: وحرف، ش.

(٢) نزلوا: تولوا؛ ش، ض.

(٣) منفردين: مفردا؛ ش، ض.

قلنا: إنما قالوا ذلك لما رأوا من صحة معاملتهم لشدة توقيهم لما لا يجوز، وصلاحهم في الأمور وعبادتهم حتى عرفوا بالستر، وأنهم لا يتناولون ما ليس بحق لهم، وقيل: لأنهم ردوا البضاعة التي وجدوها، وهذا لا يليق بحال السراق، عن الكلبي.

وقيل: لما دخلوا مصر شدوا أفواه دوابهم كيلا تتناول حرث الناس، وكانوا لا يظلمون أحدًا، ولا يطؤون زرعًا.

ومتى قيل: كيف نودوا بالسرقة ولم يسرقوا؟

فجوابنا: قيل: نودوا لا عن أمر يوسف وعلمه، عن أبي علي، وقيل: هو أمر بذلك، وأراد أنهم سرقوه من أبيه، عن أبي مسلم.

۞ الأحكام

تدل الآية على أن الحيلة في المباحات تحسن ليصير ما هو حرام حلالاً، فإن يوسف لو حبس أخاه من غير حيلة ذم عليه، فاحتال بحيلة حتى أسقط الذم عن نفسه، ولهذا قلنا: إن جِلْدَ الميتة يطهر بالدباغ، وأن الخمر يجوز تخليله، ولهذا تصح العقود في تحليل المحظورات.

وتدل على صحة الكفالة والضمان.

وتدل على أن من فقد شيئًا يجوز أن يعطي على وجوده جُعْلاً.

وتدل على أن الزعيم غارم، يلزمه ما ضمن، كما هو في شريعتنا من وجوب الضمان على الكفيل والضمين.

وتدل على براءة إخوة يوسف بقوله: «**مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ**».

وتدل على أن ما فعلوا بيوسف كان في صغرهم؛ لنفيهم عن أنفسهم الفساد والسرقة.

قوله تعالى:

﴿قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمۡ كَٰذِبِينَ ٧٤ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ٧٥ فَبَدَأَ بِأَوۡعِيَتِهِمۡ قَبۡلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسۡتَخۡرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ ٧٦﴾

۞ القراءة

قرأ يعقوب: «**يرفع درجات من يشاء**» بالياء في (يرفع) و(يشاء)، كناية عن اسم الله، «**درجات**» غير منونة على الإضافة، وقرأ عاصم، وحمزة، والكسائي بالنون فيهما قوله: «**كذلك كدنا ليوسف**» «**درجات**» منونة، وقرأ أبو جعفر، ونافع، وأبو عمرو، وابن كثير، وابن عامر بالنون فيهما «**درجات**» غير منونة على الإضافة[1].

۞ اللغة

الجزاء: مقابلة النعم بما يستحق عليه، جازاه مجازاة، تقول: جزيت فلانًا أجزيه، وأجزيت عنه: إذا كافأت عنه.

والدين: ما يدان به، والدين: الجزاء، والدين: العادة[2]، ومنه:

أَهَــذَا دِيــنُــهُ أَبَــدًا وَدِيــنِــي[3]

۞ الإعراب

الكناية في قوله: «**فما جزاؤه**» إلى ماذا ترجع فيه؟

---

(١) حجة القراءات ٣٦٣.

(٢) العادة: العيادة، ش.

(٣) جزء بيت للمثقب العبدي، وصدره:

تَــقُــولُ إِذَا دَرَأْتُ لَــهَــا وَضِــيــنِــي

انظره في: الصحاح (وضن)، واللسان (وضن).

قيل: إن شئت إلى السارق، وإن شئت إلى السَّرَقِ، عن الأخفش.

وفي قوله: ﴿قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ﴾ تقديران في الإعراب:

الأول: جزاء السارق، كما تقول: جزاء السارق القطع، فهو يعني القطع جزاؤه، لتمكين البيان.

الثاني: جزاؤه من وجد في رحله، فالسارق جزاؤه، فيكون مبتدأ ثانيًا، والفاء جواب الجزاء، والجملة خبر (مَنْ)، قال أبو علي: الجزاء الأول مبتدأ، وخبره محذوف، وتقديره: جزاؤه عندنا جزاؤه عندكم.

ويقال: ما معنى (مَنْ)؟

قلنا: يحتمل وجهين:

أحدهما: بمعنى الذي، كأنه قيل: جزاؤه الذي وجد في رحله مسترقًا.

والآخر بمعنى الشرط، كأنه قيل: جزاء السارق إنْ وجد في رحله إنسان[1] فالموجود في رحله جزاؤه استرقاقًا[2].

وتلخيص الكلام على القولين: جزاؤه جزاء الموجود في رحله، أو جزاؤه الموجود في رحله.

۞ المعنى

ثم بَيَّنَ تعالى عند إنكارهم السرقة ما جزاء من وجد في رحله، فقال سبحانه: «**قَالُوا**» يعني الذين نادوا «**فَمَا جَزَاؤُهُ**» ثوابه ومكافأته، قيل: جزاء السارق، وجزاء السرقة، وذكَّر لأنه أراد السَّرَقَ «**إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ**» في قولكم: ما كنا سارقين.

ومتى قيل: كيف يكون ذلك جزاء، وذلك لا يعلم عقلاً ولا شرعًا لهم؟

قلنا: فيه وجهان:

الأول: يجوز أن يكونوا على شرع لنبي من الأنبياء.

(١) انان: إنسان. والصواب ما أثبتناه كما هو في تفسير مجمع البيان: ٦/ ١٧٣.

(٢) استرقاقًا: استحقاقًا؛ ش، ض. والتصويب من تفسير مجمع البيان: ٦/ ١٧٢.

والثاني: أن يكون ذلك على عادة الملك[1] في أهل الجنايات لمصالح العباد.

«قَالُوا» يعني إخوة يوسف **«جَزَاؤُهُ»** أي: جزاء السرقة **«مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ»** أَخْذُهُ واسترقاقه **«فَهُوَ جَزَاؤُهُ»** عندنا كما هو جزاؤه عندكم، وللمفسرين فيه أقوال:

الأول: أن الاسترقاق كان عند الفريقين بني إسرائيل والملك، كان عادتهم أن يسترقوا السارق، عن الحسن، ومعمر، والسدي، وابن إسحاق، وأبي علي. وقيل: كان يسترق سنة، وكذلك كان سُنَّة آل يعقوب في السارق.

والثاني: كان جزاء السرقة في بني إسرائيل الضمان، وعند الملك الاسترقاق، عن الأصم وجماعة، وقيل: كان في بني إسرائيل جزاؤه ضمان مثلين، وفيما بين القبط الاسترقاق، فهم للمبالغة في البراءة رضوا بالاسترقاق إن صح عليهم السرقة.

الثالث: كان حكم السارق بأرض كنعان أنه يسترق ويستخدم على قدر سرقته، وفي دين الملك الضرب والضمان، عن الضحاك، وقيل: كان الحكم بأرض مصر أن يضرب ويغرم ضعف ما سرق.

الرابع: **«قَالُوا جَزَاؤُه»** يعني: جزاء ذلك يجب على من وجد في رحله لهذا الفعل جزاؤه، فمن وجد في رحله يجب أن يجزى بذلك الجزاء، عن أبي مسلم، وقيل: سألهم يوسف: ما جزاء السارق عندكم؟ قالوا: يؤخذ بسرقته.

«كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ» قيل: بالاسترقاق، عن أبي علي وغيره، وقيل: نجزي المستحق، ولا نأخذ به، عن أبي مسلم **«فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ»** قيل: قالوا: لا بد من تفتيش، وانصرف بهم إلى يوسف **«فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ»** قيل: يوسف، وقيل: غيره، فتشها **«قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ»** بنيامين، قال: ما أظن أن هذا أخذ شيئًا، قالوا: لا بد أن يفتش[2] فإنه أطيب لنفسك وأنفسنا، فلما فتحوه أخرجوه منها، فذلك قوله: **«ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا»** أي: استخرج السقاية، وقيل: الصاع **«مِنْ[3] وِعَاءِ أَخِيهِ»** التي فيها متاعه **«كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ»** أي: كما فعلوا في الابتداء فعلنا بهم، وقيل: أمرنا بأن يحتال ليحبس أخاه عنده، عن أبي علي، ومعنى **«كدنا»** قيل: صنعنا، عن ابن عباس، وقيل:

---

(١) الملك: الملوك، ض.

(٢) يفتش: تفتش، ش، ض.

(٣) من: ـ، ض.

ألهمنا، عن الربيع، وقيل: أردنا، عن الأنباري، وأبي مسلم، وقيل: دبرنا، ويقال للتدبير الخفي إنه كاده، ويقال: كدت بمعنى أردت، وقيل: الكيد أن يؤتى من حيث لا يعلم، فلما أتاهم الحادثة من حيث لم يظنوه سمي كيدًا، وتقديره: كذلك كدنا إخوته له بما دبرنا في أمرهم من حيث يخفى عليهم حتى ضم أخاه إلى نفسه «**مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ**» بنيامين، ويضمه إلى نفسه «**فِي دِينِ الْمَلِكِ**» في عادته عن جزاء مَنْ سرق أن يستعبد، قيل: كان عادة[1]، ولولا هذه الحيلة لما أمكنه من أخذ أخيه، وقيل: في دينه أي: في حكمه وقضائه، عن قتادة، وقيل: في سلطانه، عن ابن عباس «**إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ**» قيل: ما كان له سبيل إلى أخذه إلا بهذه الحيلة والسبب وإلا كان الملك لا يمكنه، وقيل: ما كان له سبيل حتى وجد السبيل بما جرى على لسان إخوته أن جزاء السارق الاسترقاق، ورضوا بذلك، ولم يكن ذلك حكم الملك، وكان ذلك مراد يوسف، وشاءه الله؛ لأنه بأمره، عن الحسن، وقيل: لولا رضاهم بحكم الملك بالاسترقاق وأمر الله تعالى له بذلك لما وجد إلى ذلك سبيلاً، فإن الملك كان لا يمكنه، وقيل: ما كان ليوسف ترك دين بني إسرائيل والأخذ بحكم الملك إلا أن يشاء الله، فيأذن له فيه، عن الأصم، وقيل: إنما أخذه بقولهم، لا بحكم الملك «**نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ**» بالعلم والنبوة، كما رفعنا درجة يوسف على إخوته، وقيل: بالألطاف الجميلة، ونريه وجوه الصواب في بلوغ المراد، وقيل: نرفع درجات من نشاء في الدنيا بالنبوة والعلم، وفي الآخرة بالثواب، عن الأصم «**وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ**» قيل: فوق كل عالم عليم، حتى ينتهي إلى الغني[2] بنفسه عن التعليم، منه بدأ وإليه يعود، عن ابن عباس، والحسن، وسعيد بن جبير، وقتادة، وقيل: فوق كل ذي علم عليم ممن رفعه الله، عليم قد رفعه من وجه آخر بالعلم، فهو أعلم بذلك الأمر الآخر، وقيل: للمبالغة فهو تعالى عليم لعلمه بكل معلوم، وغيره عالم؛ لأنه يعلم بعضها، وقيل: فوق كل ذي علم عليم أي: من يعلم بعلم، فلا بد فوقه عليم لا بعلم[3]، بل عليم لذاته وهو الله تعالى.

---

(١) عادة: عادلا، ض.

(٢) الغني: الشيء، ش.

(٣) لا بعلم: لا يعلم، ض.

۞ الأحكام

تدل الآية على أن جزاء السارق للصاع عندهم هو جزاؤه عند آل يعقوب، هذا هو الظاهر.

ويدل قوله: «وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ» أنه تعالى عالم لا بعلم؛ لأنه لو كان له علم لكان فوقه عليم، وهذا لا يجوز، فيبطل قول جميع الصفاتيه من قال: إنه عالم بعلم قديم، لا هو هو، ولا غيره، كما تقوله الأشعرية، أو بعلم قديم غيره، كما تزعمه الكرامية، أو بعلم أزلي لا يوصف كالكلابية، أو بعلم محدث كهشام بن الحكم والرافضة.

قوله تعالى:

﴿۞ قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾﴾

۞ اللغة

الإخفاء والإسرار والكتمان نظائر، والإسرار: إخفاء المعنى في النفس، ونقيضه: الإعلان والإبداء والإظهار، وهو استخراج المعنى من النفس بالبيان عنه، أسر يسر إسرارًا، وأبدى يبدي إبداءً، ومنه: البداء: تردد الرأي؛ لأنه يظهر له رأي بعد رأي.

والمعاذ: الاعتصام بالله، كأنه يقول: اعتصامًا بالله أن يكون هذا، والاعتصام: الامتناع، يقال: أعتصم بالله من شر فلان، ومعاذ الله، وعياذ الله، واللهم عائذًا بك، كأنه قيل: أستجيرك.

۞ الإعراب

«معاذ الله» نصب على المصدر، وكذلك تفعل العرب في كل مصدر، وضعته موضع «يَفْعَلُ»، و«نَفْعَلُ» و«أَفعَلُ»[1]، فإنها تنصبه، كقولهم: حمدًا لله، وشكرًا لله، يعني أحمده وأشكره.

والهاء في قوله: «فأسرها» يرجع إلى محذوف أي: أسر الكلمة، أو المقالة.

۞ المعنى

ثم بَيَّنَ ما جرى بعد وجود الصواع، فقال سبحانه: «قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ» قيل: لما أخرج الصاع من رحله، قالت إخوته له: لماذا صنعت؟ فضحتنا، قال: لا علم عندي بذلك، وضع الصواع[2] في رحلي من وضع البضاعة في رحلكم، فقالوا ليوسف: «إِنْ يَسْرِقْ» هذا «فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ» يعني: من أمه «مِنْ قَبْلُ» يعنون يوسف.

واختلفوا في السرقة التي وصفوا بها يوسف على أقوال:

الأول: قيل: سرق صنمًا لجده من قبل أمه، وكسره وألقاه على الطريق، عن سعيد بن جبير، وقتادة، وابن زيد، وقيل: لخالة له، عن ابن جريج، وقال الكلبي: بعثته أمه لما أرادت الرحيل مع يعقوب إلى فلسطين أن يأتيها بصنم لأبيها من ذهب، ليكن إذا فقدها أبوها أسلم، فأخذها، وجاء بها إلى أمه.

وثانيها: أنه كان يسرق الطعام من المائدة ويعطيها المساكين، عن وهب، وقيل: سرق بيضة وأعطاها المساكين، عن مجاهد، وقيل: دجاجة، عن نصر بن عيينة.

الثالث: أن عمته خبأت منطقة إسحاق في ثيابه، وكان عندها وتحبه، ولا تريد مفارقته، فنسب إلى ذلك بإخفاء المنطقة بمقامه عندها، عن ابن عباس، والضحاك، وأبي علي. ولم يكن يعقوب يسترده منها حتى ماتت، وقيل: بل كذبوا عليه، وبهتوه،

---

(١) وأفعل: واجعل، ض.

(٢) الصواع، الصاع، ش.

ولم تكن قلوبهم خالية من الحسد بعد أن فعلوا به ما فعلوا، عن الأصم، وهذا لا يصح، وسنبين الكلام فيه من بعد.

«**فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ**» أي: أسر الكلمة ولم يظهرها، قيل: هي قوله: «**أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا**» عن الحسن، وأبي مسلم، تقديره: أنتم شر مكانًا متى قلتم هذا «**وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ**» أنه كذب، عن ابن عباس، والحسن، وقتادة، وقيل: أسر يوسف كلامهم في نفسه، ولم يبدها لهم كيلا يعلموا أنه يوسف، عن الأصم، وأبي علي؛ إذ لو قال: أنا يوسف متى سرقت لعلموه، وقيل: أسر أمر السقاية، ولم يذكر براءة أخيه من السرقة، بل سكت عن ذلك.

ومتى قيل: لماذا أسرها؟

قلنا: كيلا يعلموه، وقيل: انتظر فيه الوحي، وهو الوجه.

«**قَالَ**» يوسف لهم «**أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا**» قيل: شر منزلاً عند الله ممن رميتموه بالسرقة في صنيعكم بيوسف، وقيل: أنتم شر طريقة ومقالاً حيث دفعتم السرقة، ولا أصل لها.

ومتى قيل: كيف خاطبهم بهذا وهم أنبياء، وكيف أضافوا السرقة إليه؟

قلنا: قال الحسن: لم يكونوا أنبياء في ذلك الوقت، وإنما أعطوا النبوة من بعد، وقيل: إنما قالوا: «**فقد سرق**» على الظن، وظاهر[1] ما سمعوا من حديث المنطقة والصنم، فأما خطاب يوسف إياهم، فالمراد أن ما فعلتم بيوسف شر مَكَانًا، وأنتم شر مكانًا في ذلك «**وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ**» قيل: تقولون، وقيل: تكذبون، عن قتادة.

ولما حبس يوسف أخاه عنده، ورأوا أنه لا سبيل إلى تخلصه سألوه تخليته، وحبس واحد منهم بدلاً منه، فـ «**قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا**» يعنون يعقوب «**فَخُذْ أَحَدَنَا**» عبدًا "**مَكَانَهُ**» وبدلاً منه، عن الحسن.

---

(١) وظاهر: ظاهر، ض.

ومتى قيل: ما الذي حملهم على أن يفدوه بأنفسهم؟

قلنا: تعظيمًا للموثق الذي أتوه، فتشفعوا وترفقوا[١] في القول كي يخلصوه، وقيل: لما تقدم منهم في أمر يوسف فعلموا أنه لا يقبل معاذيرهم، وقيل: إشفاقًا على أبيهم، ورعاية لقلبه؛ لئلا يزيد حزنًا على حزن «**إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ**» قيل: في أفعالك، وقيل: إلينا في الكيل، ورد البضاعة والإضافة، فأملنا هذا منك لإحسانك إلينا، عن الأصم، وقيل: إن فعلت ذلك كنت من المحسنين، عن ابن إسحاق، فأجابهم يوسف، و«**قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ**» أي: أعوذ بالله أن أفعل ذلك، لكنا ظالمون[٢] في ذلك، لا نأخذ بريئًا بمجرم، وقيل: لتغيير[٣] حكم الله، وذلك يدل على أن حكم الله كان الاسترقاق، وقيل: لأن المصلحة والمبتغى كان في أخذ أخيه لا في أخذ غيره، وقيل: ذكرهم قولهم: ﴿جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ﴾ فبين أن هذا إذا كان حكمه فَتَرْكُهُ ظُلْمٌ، عن أبي مسلم.

۞ الأحكام

تدل الآية على أن ما سبق منهم في أمر يوسف كان في حال الصغر؛ ألا ترى لما كبروا كيف أرادوا أن يجعلوا أنفسهم فداء أخيه إشفاقًا عليه، وعلى أبيهم.

وتدل على عظيم شفقة الآباء، قالوا: «**إن له أبًا شيخًا كبيرًا**».

وتدل على أن الكبر وسيلة حيث توسلوا بقولهم: شيخًا كبيرًا.

وتدل على أن أخذ البريء بالمجرم ظلم، ومن فعله كان ظالمًا، فتدل على أنه تعالى لا يفعل ذلك.

وتدل على أن ذلك فِعْلُهُ حتى يكون هو الظالم، فيبطل قول مخالفينا في المخلوق.

---

(١) وترفقوا: ورفقوا، ض.

(٢) ظالمون: ظالمين؛ ش، ص.

(٣) لتغيير: لنعتبر، ض.

قوله تعالى:

﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾

القراءة

قراءة العامة: «سرق» بالتخفيف ونصب السين والراء على أنه فعل ماض مضاف[1] إلى الابن، وقرأ ابن عباس والضحاك: «سُرِّق» بضم السين وكسر الراء وتشديدها، على ما لم يسم فاعله، يعني أنه نسب إلى السرقة، كقولك: فسقته أي: نسبته إلى الفسق، قال أبو علي: وهو أحب القراءتين إلي؛ لأنه أبعد لكلامهم من الكذب.

اللغة

اليأس: قطع الطمع في الأمر يئس يأسًا، وأيس ييأس، واستيأس، استفعل: منه، يقال: استيأس يستيئس استيئاسًا، فهو مستيئس.

والنَّجِيُّ[2] : القوم يتناجون، يقال ذلك للواحد والجمع، قال تعالى في الواحد: ﴿وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾ [مريم: ٥٢] وقال في الجماعة: ﴿خَلَصُوا۟ نَجِيًّا﴾ [يوسف: ٨٠] وإنما جاز ذلك؛ لأنه مصدر جعل نعتًا كالعدل، والمناجاة: رفع الشيء من كل واحد إلى صاحبه عن خفية، ومثله المسارة، وأصله: النجو وهو الارتفاع، ومنه: ﴿نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ [يونس: ٩٢]، يقال: نجوت فلانًا أنجوه نجيًا، والنجوى يكون اسمًا ومصدرًا، قال

---

(١) مضاف: ـ، ض.

(٢) النجي: النجا؛ ش، ض.

تعالى: ﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ﴾ [الإسراء: ٤٧] أي: متناجين، وقال في المصدر: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ﴾ [المجادلة: ١٠] وجمع النجي: أنجية، قال الشاعر:

إِنِّـي إِذَا مَـا الـقَـوْمُ كَـانُـوا أَنْـجِـيَـةْ[١]

وتناجوا تناجيًا.

والتفريط: التقصير بترك التقدم في الأمر، وأصله: التقدم، ومنه: «أنا فرطكم على الحوض»[٢] أي: متقدمكم إليه.

ولن أبرح: لا أزال، وقيل: لا أزول، يقال: لا أبرح أفعل كذا، أي: لا أزال أفعله[٣].

والقرية: الأرض الجامعة لمساكن كثيرة، وأصله الجمع، يقال: قريت الماء في الحوض: إذا جمعت، ونظيره: البلد والمدينة.

والعير: القافلة التي فيها الحمير، قال أبو مسلم: العير: القافلة من الإبل.

۞ الإعراب

قوله: «**ما فرطتم**» موضع (ما) من الإعراب فيه ثلاثة أوجه:

أولها: النصب بـ(تعلموا) كأنه قيل: ألم تعلموا تفريطكم.

وثانيها: الرفع على الابتداء، والخبر (من قبل).

وثالثها: أن يكون صلة لا موضع لها؛ لأنها لم تقع موقع اسم معرب، تقديره: من قبل هذا فرطتم في يوسف.

«**واسأل القرية**» «**والعير**» قيل: أهل العير، فلما حذف الأهل أقام القرية والعير مقامهما[٤].

(١) البيت لجميح الأسدي، انظره في: العين (نجو)، واللسان (روي).

(٢) البخاري رقم ٦٢٠٥، ومسلم رقم ٢٢٨٩.

(٣) أفعله: فعله، ض.

(٤) مقامهما: مقامها، ض.

۞ المعنى

ثم بَيَّنَ تعالى أنهم لما يئسوا من يوسف كيف تناجوا فيما بينهم؟ فقال سبحانه: «**فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا**» أي: يئسوا[1]، يعني: إخوة يوسف «**مِنْهُ**» قيل: من يوسف أن يجيبهم إلى ما سألوا ويرد أخاهم عليهم، وقيل: ييأسوا من أخيه بنيامين أن يُرَدَّ عليهم ومن نجاته، عن أبي مسلم «**خَلَصُوا**» أي: خلوا، وانفردوا حيث لم يكن معهم غيرهم «**نَجِيًّا**» يتناجون، ويتشاورون ماذا يفعلون، وقيل: تناجوا في محاربته، فلم يتفقوا على ذلك خوفًا من أن يقتل بعضهم، فيلحق أباهم من ذلك غم، عن أبي علي، وقيل: تناجوا في التفرق في البلاد، فلم يتفقوا لأَجْلِ أبيهم، وتناجوا في المقام، فلم يتفقوا خوفًا من القحط على ما خلفوه، وتناجوا في الرجوع، فلم يتفقوا حياء من أبيهم، فاتفقوا على أن شيئًا من ذلك لا يتم إلا بمشاورة أبيهم، فعند ذلك قيل: «**ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ**» «**قَالَ كَبِيرُهُمْ**» روبيل، وقيل: كان أسنهم، عن ابن إسحاق، والضحاك، وقتادة، وهو ابن خالة يوسف، وهو نهى عن قتله، وقيل: شمعون، وكان رئيسهم، وأكبرهم في العلم والفضل، لا في السن، عن مجاهد، وقيل: يهوذا، وهو نهى عن قتله، عن الأصم «**أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ**» أي: عهدًا بِرَدِّ ابنه إليه «**وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ**» قصرتم، وقيل: قدمتم، يعني مع هذا سبق منكم «**فِي يُوسُفَ**» ما لا يمكن تلافيه «**فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ**» أي: لا أزال بهذه الأرض ولا أزول عنها، قيل: هي أرض مصر «**حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي**» في الرجوع «**أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي**» قيل: بالخروج، وترك أخي ههنا، وقيل: بالموت، وقيل: براءة ساحتنا ما يكون عذرنا عند أبينا، عن أبي مسلم، وقيل: يحكم لي بالسيف فأحارب من حبس أخي، عن أبي صالح، وأبي علي، وقيل: قال لهم: أنا أكون ههنا، واحملوا أنتم الطعام إليهم، وأخبروهم بما وقع «**وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ**» أي: أفضل مَنْ فَصَلَ بين الناس، وقيل: هو خير الحاكمين يعلمه ببراءة ساحتنا، عن الأصم «**ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ**» فصرفهم مع

(١) يئسوا: ييأسوا؛ ش، ض.

العير، وأقام هو؛ لأنه عهد ألاّ يرجع الجميع، فلما لم يرجع هو، وأقام لم ينقضوا الميثاق، عن الأصم، «**فَقُولوا**[١] **يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ**» قيل: قولوا: خرج الصاع من رحله من بين يدي الرفقة، وقالوا: إنه سرق على ظاهر الحال لذلك قيدوه بقوله: «**وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ**»، «**وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا**» ولا نشهد على هذا لكن نخبرك بما جرى، وما قيل في ابنك، قيل: ما قلنا: إنه سرق إلا بما علمنا من وجود الصاع في رحله، عن ابن إسحاق، وقيل: قال يعقوب: ما يدري الرجل أن السارق يؤخذ بسرقته إلا بقولكم، فقالوا: «**ما شهدنا إلا بما علمنا**» عن يوسف أن السارق يؤخذ بسرقته، ويسترق، وكان ذلك حكم الله في شريعة يعقوب «**وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ**» قيل: ما كنا نشعر أن الصاع في رحل ابنك، ويصير أمرنا إلى هذا، ولو علمنا ما ذهبنا به معنا، عن الحسن، وقتادة، ومجاهد، والأصم، قالوا: وقلنا: نحفظ أخانا، فما لنا في حفظه سبيل، وقيل: لا ندري ما كان الأمر في السرقة، فنحن شاهدنا إخراج الصاع من رحله، ولا ندري أنه سرق أم لا، عن عكرمة، وقيل: لم نعلم أنك تصاب به كما أصبت بيوسف، ولو علمنا لم نذهب به، عن ابن كيسان، وقيل: معناه أنه سرق ليلاً وهم نيام، والغيب الليل بلغة حِمْيَر، عن ابن عباس، قال ابن عباس: لم نعلم ما كان يصنع في ليله ونهاره، ومجيئه وذهابه، «**وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا**» قيل: أهل القرية، فحذف الأهل كقولهم: تميم، يعني بني تميم، وقيل: أراد سؤال القرية، ولو سأل لتكلمت[٢] بها معجزة له، وقيل: القرية مصر، عن ابن عباس، والحسن، وقتادة، وقيل: القرية من قرى مصر ارتحلوا بنا إلى مصر، عن ابن عباس «**وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا**» يعني القافلة التي قدمنا معهم، وكانوا من أرض كنعان من جيران يعقوب، وإنما قيل هذا؛ لأنهم ظنوا التهمة؛ لأنهم كانوا أهل[٣] تهمة عند يعقوب، عن ابن إسحاق، وهذا لا يجوز، وإنما استشهدوا لبيان الحال «**وَإِنَّا لَصَادِقُونَ**» فيما أخبرناك به.

---

(١) فقولوا: فقالوا؛ ش، ض.

(٢) لتكلمت: لتكلم؛ ش، ض.

(٣) أهل: ـ ، ض.

۞ الأحكام

تدل الآية على أنهم استشاروا في أمر بنيامين، ثم اتفقوعلى ما قال كبيرهم.

وتدل على أن ذلك المشير الذي أقام بمصر كالمقيد؛ لذلك قال: ارجعوا.

وتدل على أنه تجوز الشهادة والخبر بظاهر الحال، والمتولي للأسرار هو اللَّه تعالى.

وتدل على أن التفريط كان فعلهم؛ لذلك وبَّخَهُم، فيصح قولنا في المخلوق.

قال أبو علي: وقوله: «**خلصوا نجيا**» من فصيح كلام القرآن، الذي لا يوجد في غيره، وذلك كالدال أنه كلام رب العزة.

قوله تعالى:

﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾

۞ اللغة

سولت الشيء: إذا زينته، قال أبو مسلم: سولت[1] لكم أنفسكم، أي: أعطاكم أنفسكم سؤلها، والتسويل: حديث النفس بما يطمع فيه.

والتولي: الانصراف عن الشيء، ونظيره: الإعراض، ونقيضه: الإقبال.

والابيضاض: انقلاب الشيء إلى حال البياض، والبياض: لون يحل الجوهر، ومعنى قولنا: أبيض أن فيه بياضًا، ويدرك في محله، بخلاف الكون يوجب للمحل حَالاً.

---

(١) سولت: سوله؛ ش، ض.

والكظم: اجتراع الغيظ، وهو أن يَمَسَّكَ الحزن في قلبه، ولا يبثه إلى غيره.

تفتأ: لا تزال، فَتِئَ يَفْتَأ فَتأً وفُتُوءًا[1]، ويقال: ما فَتِئْتُ أقول ذلك، قال أبو مسلم: تفتأ: تزال، سواء قولك: لا تزال، وتزال، قال أبو علي: ما فتئ زيد قائمًا، وما برح، وما زال بمعنى، وقد تستعمل هذه الحروف بحذف «لا»، و«ما»، فتقول: تزال، وإن كان القائل يعني ذلك، وإنما يحذف لعلم السامع به، كقول امرئ القيس:

فَقُلْتُ يَمِينُ اللهِ أَبْرَحُ قَاعِدًا وَإِنْ قَطَّعُوا رَأْسِي لَدَيْكِ وَأَوْصَالِي[2]

الحَرَضُ: المشرف على الهلاك، ومنها: حَرَّضْتُهُ على كذا أمرته به؛ لأنه إذا خالف فقد هلك، والحارضة: التي لا خير عنده، حرض الشيء وأحرضه: أفسده، وأصل الباب: فساد الجسم والعقل، قال العرجي:

إِنِّي امْرُؤٌ لَجَّ بِي حُبٌّ فَأَحْرَضَنِي حَتَّى بَلِيتُ وحَتَّى شَفَّنِي السَّقَمُ[3]

والحرض المصدر لا يثنى ولا يجمع.

والشكوى: صفة ما يجده من البلوى، شكوته شكوًا وشكاية، وشكوته فأشكاني: أي: اعتبتني من شكواي، وأشكاني: أحوجني إلى الشكوى.

البث: تفريق الهم بإظهاره، بث ما في نفسه بثًا، وأبثثته إبثاثًا، وكل شيء فرقه فقد بثه، ومنه: ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾ [البقرة: ١٦٤].

۞ الإعراب

رفع «فصبر جميل»؛ لأنه خبر ابتداء محذوف، تقديره: فشأني صبر، أو أمري[4] صبر، وقيل: لأنه ابتداء وخبره محذوف، تقديره: فصبر أولى من الجزع، ولو نصب جاز على الأمر، والإغراء، قال الشاعر:

شَكَا إِلَيَّ جَمَلِي طُولَ السُّرَى صَبْرًا جَمِيلاً فَكِلَانَا مُبْتَلَى[5]

(١) فتئ يفتأ فتأ وفتوءًا: في تفتأ فتى وفتوا؛ ش، ض.
(٢) انظره في: الصحاح (يمن)، واللسان (يمن).
(٣) انظره في: الصحاح (حرض) وتاج العروس (شفف).
(٤) أمري: امر، ش.
(٥) انظره في: تهذيب اللغة (شكا)، واللسان (شكا).

و(يا) في قوله: «**يا أسفى**» نداء، ومعناه البيان أن الحال حال حزن، كأنه قيل: يا أسف هذا من أذائك، ومثله: واحزناه[١].

المعنى

ثم بَيَّنَ تعالى ما جرى بينهم وبين أبيهم عند رجوعهم، فقال تعالى: «**قَالَ**» يعني يعقوب، وفي الكلام محذوف، دل عليه ما بقي، تقديره: فلما رجعوا إلى أبيهم، وقصوا عليه القصة، قال لهم مجيبًا: «**بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ**» قيل: زينت، عن قتادة، والأصم، وقيل: سهلت، عن أبي علي، وقيل: سولت لكم أنفسكم حين ذهبتم به لتزدادوا حمل بعير، وقيل: أردتم أمرًا وهممتم به، وقيل: أعطيتم أنفسكم سؤلها، عن أبي مسلم.

ومتى قيل: هم لم يفعلوا قبيحًا، فلماذا خاطبهم بهذا؟

قلنا: قيل: لعله اتهمهم في تخلفهم[٢]، وقيل: تذكر حديث يوسف، فرجع الكلام إليه، وقيل: إنه قال لهم في ذهابهم به على ما ذكرنا، وهو الأوجه.

«**أَمْرًا**» قيل: أمرًا أردتم به، وقيل: أردتم إتمام الميرة «**فَصَبْرٌ جَمِيلٌ**» أي: شأني صبر جميل، لا جزع معه «**عَسَى اللَّهُ**» طمع ورجاء «**أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا**» يوسف وبنيامين، وقيل: أوحى الله إليه بذلك[٣]، فقوله: «**عسى**» واجب، وإنما أبهم ولم يفسر؛ لأنه علم أن حديث السرقة باطل، ولكن لم يعلم تفاصيله، إنه هو الحكيم في تدبير خلقه، العليم بأحوالهم، وحزني على فقدهم، وقيل: العليم بما تقولون من صدق أو كذب «**وَتَوَلَّى عَنْهُمْ**» أي: انصرف، وقيل: ما حدث من أمر بنيامين جدد حزن يوسف، فقال «**يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ**» والأسف أشد الحزن، ومعناه: يا حزناه، عن الحسن، وقتادة، والضحاك، ومجاهد «**وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ**» والبكاء، فلما كان البكاء من الحزْن أضاف العمى إليه، وقيل: عمي فلم يبصر ست سنين، عن

---

(١) واحزناه: يا حزناه، ض.

(٢) تخلفهم: تخلفه؛ ش، ض.

(٣) إليه بذلك: بذلك إليه، ض.

مقاتل، وقيل: أشرف على العمى، فكان لا يرى إلا شيئًا يسيرًا «**فَهُوَ كَظِيمٌ**» مملوء من الحزن، والهم ممسك عليه، لا يبثه، عن ابن عباس، والحسن، وقتادة، والضحاك، ومجاهد، ومقاتل، وقيل: غمّ قد أحل بقلبه، عن أبي مسلم، وقيل: كظيم بالغيظ لم أرسلَه معهم؟ عن السدي.

واختلفوا كم بين خروج يوسف إلى يوم التقائه ثانية، قيل: ثلاثون سنة لم تجف عينه، عن الحسن، وقيل، وصل إليه بعد ستين سنة، وقيل: قال جبريل ليوسف: إن بصر أبيك قد ذهب من الحزن عليك فوضع يده على رأسه، قال: ليت أمي لم تلدني، ولم أك حزنا على أبي، حكاه الأصم «**قَالُوا**» يعني ولد يعقوب لأبيهم «**تَاللَّهِ**» قسم منهم «**تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ**» أي: لا تزال تذكر يوسف، عن ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والحسن «**حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا**» قيل: مشرفًا على الهلاك، وقيل: دهشًا فاسدًا، لا عقل لك، عن ابن إسحاق، وقيل: دَنِفَ الجسمِ مخبولَ العقل «**أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ**» الميتين.

ومتى قيل: ما معنى قولهم لأبيهم هذا؟

قلنا: قيل: ليكف عن البكاء إشفاقًا عليه، وقيل: تبرمًا من بكائه، لما نغص عليهم من العيش، فأجابهم يعقوب فـ «**قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو**» أظهر شكواي «**بَثِّي**» همي، عن ابن عباس، وقيل: حاجتي، عن الحسن «**وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ**» قال لهم: أشكو إلى الله في ظُلَمِ الليالي، وأوقات الخلوات، فلأي شيء تسخرون أنتم، وقيل: أوحى الله إليه: (وعزتي لو كانا ميتين لأخرجتهما لك حتى تنظر إليهما). «**وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ**» قيل: أعلم أن رؤياه صادقة، وأنتم ستسجدون له، عن ابن عباس، وقيل: أعلم من إحسان الله إليّ ما يوجب حسن الظن، عن قتادة، وقيل: الأنبياء أعلم بالله من جميع الخلق، عن أبي مسلم، وقيل: أعلم أن يوسف حي، وقيل: لما أخبروه بسيرة الملك، وقع في نفس يعقوب فطمع، وقال: لعله يوسف، وقيل: إن ملك الموت دخل على يعقوب، فقال له: قبضت روح ابني يوسف؟ قال: لا، ذكره الأصم، قيل: أرسل الله إليه ذئبًا فكلمه، فسأله هل أكلتم ابني؟ قال: لا، أما علمت أن لحوم الأنبياء حرام علينا.

۞ الأحكام

تدل الآية أنه نزه ابنه عن السرقة؛ ولذلك قال: «**بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ**».

وتدل على أن الواجب عند المحن والشدائد الصبر الجميل، والتوكل على الله.

ومتى قيل: كيف اشتد حزنه مع كونه نبيًّا؟

قلنا: لأنه أصيب بما لم يصب به غيره، بعث يوسف مع كماله، ففقد، ثم بعث بأخيه ففقد، فاشتد غيظه على نفسه وحزنه على ولده، عن أبي علي.

ومتى قيل: كيف خفيت أخباره على طول المدة، وقرب المسافة؟

قلنا: قال أبو علي: العلة في ذلك ظاهرة؛ لأنه حمل إلى مصر على أنه عبد، فمنع من الاختلاط، ثم وقع إلى العزيز، فألزمه الدار، ثم لبث في السجن بضع سنين، فانقطعت أخبار الناس عنه، فلما تمكن احتال في اتصال خبره بأبيه، ولم يأمن أن يبعث رسولاً ألاَّ يمكنه الإخوة من الوصول.

وتدل على إباحة الحزن والبكاء، وروي أن النبي ﷺ بكى على ابنه إبراهيم عليه السلام وحزن، وقال: «تدمع العين، ويحزن القلب[1]، ولا نقول ما يسخط الرب»[2].

وتدل على أن أفعال العباد فعلهم؛ لذلك قال: «**سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ**»، فيصح قولنا في المخلوق.

قوله تعالى:

﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيۡهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٩٠﴾﴾

---

(١) تدمع العين ويحزن القلب: ـ، ض.

(٢) البخاري رقم ١٢٤٢، ومسلم ٢٣١٥.

۞ القراءة

قرأ حمزة والكسائي: (مزجية) بالإمالة، لأن أصله الياء، والباقون بالإقحام والنصب بفتح الجيم، وقرأ أبو جعفر وابن كثير: «**إنك لأنت يوسف**» بكسر الألف على لفظ الخبر، وقرأ نافع ويعقوب: «**أينك**» بفتح الألف غير ممدود، وقرأ أبو عمرو: «**آئنك**» بمد الألف، وهو رواية قالون عن نافع، وقرأ ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي: «**آئنك**» بهمزتين[1]، وكل ذلك على الاستفهام، ويجوز في العربية أربعة أوجه:

أولها: تخفيف الهمزتين كما قرأه أهل الكوفة، وهو الأصل.

وثانيها: إدخال الألف بينهما.

وثالثها: تليين الثانية، وذلك للتخفيف.

ورابعها: بهمزة واحدة على الخبر، عن الزجاج[2].

۞ اللغة

التحسس: طلب الشيء بالحاسة، والتحسس والتحسيس نظائر، وفي الحديث: «لا تجسسوا ولا تحسسوا»[3] قيل: معناهما واحد، عن الحربي، وهو التطلب معرفة الأخبار، قال ابن الأنباري: يشق أحدهما لاختلاف اللفظين، كقولهم: بعدًا وسحقًا، قال الشاعر:

يَـنْـأَ عَـنِّـي وَيَـبْـعُـدِ[4]

قال بعضهم: التجسس بالجيم: البحث عن عورات الناس، والتحسس بالحاء: الاستماع لحديث القوم، وسئل ابن عباس عن الفرق بينهما؟ فقال: لا يبعد أحدهما

(١) حجة القراءات ٣٦٣.

(٢) معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٣/ ١٢٨.

(٣) البخاري رقم ٤٨٤٩، ومسلم رقم ٢٥٦٣

(٤) بعض بيت لطرفة بن العبد، وتمامه:

فَمَالِي أَرَانِي وابْنَ عَمِّي مالكا ... متى أَدْنُ مِنْهُ يَنْأَ عَنِّي ويَبْعُدِ

عن الآخر إلا أن التحسس في الخير، والتجسس في الشر، ومنه: ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ﴾ [آل عمران: ٥٢] وأصله الإدراك بالحس، ثم وضع موضع العلم والوجود، يقال: هل أحسست فلانًا؟ أي: هل رأيته؟، ومنه: ﴿هَلۡ تُحِسُّ مِنۡهُم مِّنۡ أَحَدٍ﴾ [مريم: ٩٨].

واليأس ضد الرجاء، يائس من كذا.

والرَّوْح: الراحة، والروح: الرحمة، وأصل الباب الريح التي تأتي بالرحمة، والروح والفرح السرور.

والأهل: خاصة الرجل، وما ينسب إليه، وأهل البلد خاصته. وأصل المزجاة قيل: القلة كقول الأعشى:

الْوَاهِبِ الْمِائَةَ الْهِجَانَ وَعَبْدَهَا عُوذًا يُزَجِّي خَلْفَهَا أَطْفَالَهَا[١]

وقال آخر:

وحَاجَةٍ غَيْرَ مُزْجَاةٍ مِنَ الحَاجِ[٢]

وقيل: أصله السوق والدفع. والتزجية: دفع الشيء كما تزجي البقرة ولدها. والريح: تزجي السحاب وتسوقه وتَدفعه، والمزْجَى: القليل التافه الذي يزجى به العيش، يقال: زجيت وأزجيت: سقت ودفعت.

والمن: النعمة، وأصله القطع، ومنه: ﴿أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٍ﴾ [فصلت: ٨]، فسمي النعمة مَنًّا[٣]؛ لأنها تقطعه من حال البؤس، مَنَّ عليه منًّا ومِنَّةً: أنعم عليه، كأنه قطع شكرها، ومنه: المنون: الموت لقطعه الحياة.

۞ الإعراب

«هل علمتم» استفهام، والمراد التقرير والتوبيخ، وقوله: «أئنك» فيه أَلِفَان مفتوحة، ومكسورة، فالمفتوحة للاستفهام، والمكسورة من (إن) التي تدخل في

---

(١) انظره في: جمهرة اللغة (طفل).

(٢) البيت للراعي النميري، وتمامه:

ومُرْسِلٍ ورسولٍ غيرِ مُتَّهَمٍ وحاجةٍ غيرِ مزجاة من الحاج

انظره في اللسان (زجا)، وتهذيب اللغة (زجا).

(٣) منًّا: من؛ ش،ض.

جوابها لام التأكيد، ألا ترى إلى قوله: «**لأنت يوسف**» فجعل اللام جوابًا، عن أبي مسلم.

۞ المعنى

ثم بَيَّنَ تعالى ما أمرهم به يعقوب من طلب يوسف، فقال سبحانه: «**يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ**» قيل: استخبروا من شأنهما واطلبوا خبرهما، عن الأصم، وقيل: التمسوا، عن ابن عباس، وقيل: تَعَرَّفوا، عن أبي مسلم «**مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ**» قيل: توهم أن الذي احتال بهذه الحيلة يوسف؛ لأنه علم يقينًا أن ابنه لم يسرق، فبعثهم لطلب يوسف، وقال: انظروا[1] مَنْ حَبَسَ ابني على أي دين، وكيف وقع بمصر، ومن أين هو؟ وتعرفوا خبر بنيامين، وماذا عمل؟ عن أبي علي، وقيل: علم أن يوسف حي، وبنيامين لم يسرق، فأمرهم بطلبهما، عن الأصم «**وَلا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ**» أي: لا تقنطوا من رحمته، عن قتادة، والضحاك، وقيل: من فرجه، عن ابن زيد «**إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ**» قيل: لأن من أيس من رحمة ربه فقد أساء ظنه بربه فيكفر؛ لأنه ظن أنه تعالى لا يرحمه، وإن رجع إليه واعتذر لذنبه، وهذا كفر، وقيل: لا ييأس من روح الله في حال التكليف إلا الكافر والجاهل بربه، وإنما ذكر ذلك للحث على طلب الرحمة.

ومتى قيل: أليس الفاسق يائسًا من رحمة الله؟

قلنا: لا؛ لأنه لو تاب لرحمه، وقيل: هو على التغليب فيدخل فيه الفاسق في الجملة، وقيل: معناه لا نصيب للكافر في رحمة الله.

«**فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ**» وفيه حذف أي: خرجوا إلى مصر «**فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ**» يعني الملك، وكانوا يسمونه عزيزًا لمنعته، وتلطفوا في مسألته رجاء أن يرحمهم في شأن أخيهم لما نزل بأبيهم «**مَسَّنَا وَأَهْلَنَا**» أي أصابنا وقومنا المختص بنا «**الضُّرُّ**» قيل: الشدة والجوع والقحط، قيل: شكوا ما نالهم من هلاك مواشيهم،

---

(١) انظروا: انتظروا، ش.

والبلاء الذي أصابهم «وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ» قيل: رديئة لا تؤخذ إلا بوكس، عن ابن عباس، وأبي علي، خسيسة سريعة الزوال، وقيل: قليلة، عن الحسن، ومجاهد، وإبراهيم، وقتادة، وابن زيد، والأصم، وأبي مسلم، وقيل: كاسدة غير نافقة، عن الضحاك، وأصله أنه لا يؤخذ إلا بشدة ودفع، واختلفوا في تلك البضاعة، قيل: كانت دراهم رديئة لا تنفق في ثمن الطعام، عن ابن عباس، وقيل: خلق الغرارة[1]، ومتاع رث، عن ابن أبي مليكة، وقيل: متاع الأعراب الصوف والسمن، عن عبد الله بن الحارث، وقيل: حبة الخضراء، عن مقاتل، والكلبي، وقيل: الإقط، عن الحسن، وقيل: قليلة لا تبلغ ثمن الطعام، عن ابن إسحاق، وقيل: النعال والأدم، عن الضحاك، وروي عنه سويق المُقْل «فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ» أي: تمم لنا فأعطنا ما كنت تعطينا، قيل: بالثمن الجيد، «وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا» قيل: بفضل ما بين الثمنين الجيد والرديء، ولا تنقصنا من السعر، عن سعيد بن جبير، وقال: لم تحل الصدقة لأحد من الأنبياء، وهو قول جماعة، وقيل: سألوا الصدقة وهم أنبياء، وكانت حلالاً لهم، وإنما خص بالتحريم لنبينا ﷺ، عن سفيان بن عيينة، وكان مجاهد والحسن يكرهان أن يقول الرجل: اللهم تَصَدَّقْ عليّ؛ لأن الصدقة مما يبتغى بها الأجر، وقيل: تصدق علينا برد أخينا، عن ابن جريج، والضحاك «إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ» أي: يثيبهم، قيل: لم يقولوا: إن الله يجزيك؛ لأنهم لم يعلموا دينه، عن الضحاك «قَالَ» يوسف «هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ» قال لما أراد أن يعرفهم حاله، قال هذا القول، وكلمهم بلسانهم، عن الأصم، واختلفوا في السبب الذي حمله على ذلك، قيل: لما قالوا له ما قالوا، أدركته الرقة فدمعت عيناه وباح بما كان يكتمه، عن السدي، وابن إسحاق، وأبي علي، وقيل: رأى المصلحة في ذلك، إما بأمر الله، أو بزوال الموانع، وقيل: إنه حدثهم أن مالك بن ذعر قال: وجدت غلاما[2] من بني إسرائيل[3] فابتعته من قوم، فقالوا: أيها الملك نحن بعناه، فغاظه[4] ذلك، فأمر بقتلهم، فقال يهوذا: كان يعقوب

(١) الغرارة: للغرائز، ض.
(٢) غلاما: غلام؛ ش، ض.
(٣) في ض: كذا.
(٤) فغاظه: فغلظه، ض.

يحزن بفقد واحد حتى كف بصره، فكيف إذا أتاه في بنيه، وقال ليوسف: ابعث بأمتعتنا إلى أبينا، فرحمهم وبكى، وقال ذلك، عن الكلبي. وفيه نظر، وقيل: إنما قال ذلك حين قرأ كتاب يعقوب إليه، وكان فيه: (من يعقوب إسرائيل الله بن إسحاق ذبيح الله بن إبراهيم خليل الله، إلى عزيز مصر، أما بعد فإنا أهل بيت موكل بنا البلاء، ألقي جدي في النار، فجعلها الله عليه بردًا وسلامًا، وأما أبي فشدت يداه ورجلاه، ووضع السكين على قفاه، ففداه الله، وأما أنا فكان لي ابن، وكان أحب أولادي إليّ، ذهب عني، وكان له أخ أتسلى به، فذهبوا به، ثم رجعوا، وقالوا: إنه سرق، وإنك حبسته، وإنا أهل بيت لا نسرق، ولا نلد سارقًا، فإن رددته، وإلا دعوت عليك دعوة تدرك السابع من ولدك)، فلما قرأ يوسف لم يتمالك البكاء، وقال: هذا كلام من أهل بيت النبوة، وأظهر ما أظهر، وقيل: قال لأخيه بنيامين: هل لك ولد؟ قال: نعم ثلاثة بنين، قال: ما سميتهم؟ قال: سميت الأكبر يوسف محبة لك؛ لأذكرك به، وسميت الثاني ذئبًا؛ لأذكرك به، فلما سمع يوسف هذه المقالة تغير، وقال ما قال «**هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ**» من إلقائه في الجب، والعزم على قتله إلى أن منع الله «**وَأَخِيهِ**» قيل: بالتفريق بينهما حتى أفردوه «**إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ**» قيل: كنتم في ذلك الوقت جهلاء جهالة الصبا لا جهالة العصيان؛ لأن (إذ) إشارة إلى ذلك الوقت، فدل أنهم في الحال بخلاف ذلك لولاه لقال: وأنتم جاهلون، وقيل: ذكر ذلك عذرًا لهم؛ ليعتذروا به، وقيل: إذ أنتم صبيان، عن ابن عباس، وقيل: شبان، عن الحسن، وقيل: مذنبون، وقيل: جاهلون بما يؤول إليه أمر يوسف وأمركم «**قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ**» قيل: عرفوه، عن أبي علي، وقيل: توهموا أنه يوسف، عن الأصم.

واختلفوا بماذا عرفوه؟ قيل: لما قال ذلك القول، ورفع الحجاب عرفوه، قالوا: أئنك لأنت يوسف، عن ابن عباس، وقيل: وضع التاج عن رأسه فعرفوه بشامة، عن ابن عباس، وقيل: لما سمعوا قول أبيهم: إنه حي، وإنه المانع لبنيامين، وسمعوا كلامه، «**قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ**» متعجبين «**قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي**» من أمي «**قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا**» أي: أنعم بأن جمع بيننا، وقيل: بسائر نعمه دينًا ودنيا "**إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ**» قيل: بأداء فرائضه واجتناب معاصيه، ويصبر عما حرم عليه، وقيل: يتقِ الزنا

ويصبْر على الأذى، عن ابن عباس، ومقاتل، وقيل: يتقِ معاصَي الله ويصبْر على السجن، عن مجاهد «**فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ**» أي: ثواب المطيعين يوفر عليهم.

۞ الأحكام

تدل الآيات على أنه علم حياة يوسف؛ لذلك أمرهم بطلبه.

وتدل على أن اليأس من رحمة الله وقطع الرجاء كُفْرٌ.

وتدل على أن الكفر كان معلومًا في شريعته، وكان تتعلق به الأحكام، كما هو في شريعتنا، لولا ذلك لم يكن في تمييزه من غيره معنى.

ويدل قوله: «**وتصدق علينا**» أن الصدقة قد تصح شرعًا على الأغنياء.

وتدل على أن المحاباة في البيع كالصدقة على ما تأوله بعض المفسرين.

ويدل قوله: «**إذ أنتم**» أن ذلك فعلوه في حال الصبا، عن أبي علي.

ويدل آخر الآية أن الجزاء على الأعمال وفعل العباد، فيبطل قول المجبرة في المخلوق، وجزاء الأعمال.

قوله تعالى:

﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾﴾

۞ اللغة

الإيثار: تفضيل أحد الشيئين على الآخر، ونظيره: الاختيار، والاجتباء نقيضه: الإيثار عليه، ويقال: آثرته، وأصله: الأثر الجميل، وإنما يؤثر من له أثر جميل، والآثار الأخبار؛ لأنها خبر عن آثار قوم تقدموا، والأثر: ما بقي من رسم الخلق، وستثير التبر إثارة، والمأثرة بضم الثاء وفتحها: المكرمة؛ لأنها توثر، أي: تذكر.

والخطيئة: إزالة الشيء عن جهته إلى ما لا يصلح فيه، خطئ خطأً فهو خاطئ، والفرق بين خَطِئَ وأخطأ: أن خَطِئَ تعمد إزالة الشيء عن جهته إلى ما يصلح فيه، خَطِئَ خِطْئًا فهو خاطئ، والفرق بين أخطأ[1] إذا أذنب.

والثَّرْب: اللوم والإفساد والتقرير بالذنب، والثرب: الشحمة الرقيقة في الجوف، وجمعها: ثروب، والأثارب جمع الجمع، ومنه: الحديث: «نهى عن الصلاة إذا صارت الشمس كالأثارب» يعني تصرفت وخصت مواضع دون مواضع، شبهت بسماحيق الشحم، وقيل: أصله الإفساد، عن أبي عبيدة، قال الشاعر:

فَعَفَوْتُ عَنْهُمْ عَفْوَ غَيْرِ مُثَرِّبٍ وتَرَكْتُهمْ لِعِقَابِ يَوْمٍ سَرْمَدِ[2]

قال ثعلب: يقال: ثَرَّبَ فلان على فلان إذا عدد عليه ذنوبه، قال أبو مسلم: التثريب مأخوذ من الثرب، وهو شحم الجوف، فكأنه موضوع للمبالغة في اللوم والتعنيف، والتقصي إلى أبعد غاياتها.

۞ الإعراب

«**خاطئين**» نصب؛ لأنه خبر (كان)، ونصب «**لا تثريب**» على التثربة، و(اليوم) نصب على الظرف، ويجوز فيه الرفع، أما النصب فعلى النفي، وأما الرفع فعلى تقدير: ليس بتثريب.

۞ المعنى

ثم بَيَّنَ تعالى اعترافهم بالخطأ في أمر يوسف، وعفو يوسف عنهم، فقال سبحانه: «**قَالُوا**» يعني إخوة يوسف «**تَاللَّهِ**» «**قَسَمٌ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا**": اختارك وفضلك بالعلم والحكم والملك «**وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ**» قيل: مخطئين في كتمان أمر يوسف لأبيهم[3]، عن أبي علي، وقيل: مذنبين، وقيل: خاطئين بيننا وبينك، عن الأصم.

---

(١) أخطأ: خطا؛ ش، ض.

(٢) قاله بشر بن أبي خازم. انظره في: أساس البلاغة (ثرب)، والصحاح (ثرب).

(٣) لأبيهم: ـ ، ض.

ومتى قيل: كيف قالوا خاطئين، وهم كانوا صبيانًا؟

فجوابنا: قيل: إنهم ابتدؤوا الفعل وهم صبيان، وبلغوا مُصِرِّينَ على كتمان الأمر عن أبيهم يوهمون أن ما أخبروه على ما أخبروه، عن أبي علي، وقيل: كان يلزمهم[1] الاستغفار بعد البلوغ، وقيل: التوبة وإن لم تجب فهو حسن، فلذلك استغفر لهم، وقيل: كانوا بالغين، ولم يكونوا أنبياء، والأول الوجه.

«**قَالَ**» يوسف «**لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ**» قيل: لا تفتيش ولا توبيخ، عن سفيان، وأبي علي، وقيل: لا معاقبة ولا إفساد، عن أبي عبيدة، وأبي مسلم، يعني لا يلحقكم مني ما يفسد حالكم، وقيل: لا تعداد للذنوب، وقيل: لا لوم عليكم، اليوم يرفع اللوم، قيل: لأنه أول أوقاته التي كشف فيها نفسه لهم، فكان وقت الانتقام، فمتى عفا لم يرجع، وقيل: لأن يوسف قدم توبيخهم وهم لا يعرفونه، فلما بين لهم أمره قال: لا تثريب اليوم، أي: الآن انقطع ذلك ومضى، وقيل: أراد باليوم الزمان، فيدخل فيه جميع الأوقات، قال الشاعر:

فَالْيَوْمَ يَرْحَمُنَا مَنْ كَانَ يَغْبِطُنَا ... والْيَوْمَ نَتَّبِعُ مَنْ كَانُوا لَنَا تَبَعَا[2]

وقيل: تم الكلام عند قوله: «**لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ**» ثم ابتدأ بقوله: «**الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ**» وقيل: خص اليوم لأنهم ندموا وتابوا، عن أبي علي «**يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ**» قيل هو دعاء لهم، وقيل: لما كان الله تعالى آخذًا لحقه منهم حسن منه على طريق الإجلال لهم أن يقول ذلك، والمغفرة ستر الخطيئة برفع العقوبة «**وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَاذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا**» قيل: لما عرفهم يوسف نفسه سألهم عن أبيه فقالوا: ذهبت عيناه فقال: «**اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا**» وأعطاهم قميصه، عن السدي، وقيل: كان ذلك القميص هو الذي على بدنه بعثه ليشم[3] رائحته منه، عن أبي علي، وأبي مسلم، وقيل: كان ذلك القميص من الجنة، عن الضحاك، وقيل: كان ذلك القميص قميص إبراهيم سار إلى يعقوب فجعله في قصبة حديد، وعلقه على يوسف، عن مجاهد «**فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي**

(١) يلزمهم: بلغهم، ض.

(٢) البيان والتبيين، ٤٧٥؛ الوافي بالوافيات، ١١/ ٢٤١؛ وقائله جاريه لما مات الحجاج بن يوسف الثقفي.

(٣) ليشم: فيشم؛ ش، ض.

يَأْتِ بَصِيرًا» أي: يعود مبصرًا، وفيه معجزة له، وقيل: يأتيني بصيرًا، وكان دعاه، وقيل: كان أعمى فصار بصيرًا، عن الحسن، والسدي، وقيل: إنما ائتمنهم على القميص لما عرف من إنابتهم وصلاحهم.

ومتى قيل: ما معنى حمل القميص إليه؟

فجوابنا: قيل: علامة جعلها الله ليشم منه رائحة يوسف قبل لقائه، وقيل: ليعلم صدق ما يقولون، ويعلم حياته فيأتيه، وقيل: أمره جبريل بإرسال القميص، فإن فيه ريح الجنة، لا يقع على مبتلى ولا سقيم إلا صح وعوفي، وقيل: ليعلم نبوته حيث رد بصره بشم قميصه، ففيه بشارة به، وبأنه نبي **«وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ»** قيل: بجميع قومكم وأولادكم لينزلوا معي مصر.

۞ الأحكام

يدل قوله: **«آثرك الله علينا»** أنه كان نبيًّا.

ومتى قيل: إنه أراد به النعم وما آتاه من الصبر أو بالعلم والملك لم يصح الاستدلال به، وقد ذكر القاضي قوله: **«إن كنا لخاطئين»** أن ذلك يدل على أنهم كانوا بالغين؛ لذلك اعترفوا بالذنب، وأما أبو علي فحمله على الخطأ في إخفاء أمر يوسف[1] على يعقوب لكي لا يشتد حزنه.

وتدل على أنهم تابوا مما سلف لذلك قال: **«لا تثريب»**، و**«يغفر الله لكم»**.

وتدل على معجزة في القميص ليوسف، عن أبي مسلم، وروي عن النبي ﷺ لما فتح مكة أخذ بعضادتي الباب، وفيه الملأ من قريش، وقال: «لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، ماذا تقولون، وماذا تظنون»؟ قالوا: نظن خيرا، ونقول خيرًا، أخ كريم، وابن أخ كريم، وقد قدرت فاعف، قال: «إني أقول كما قال أخي يوسف **«لا تثريب عليكم اليوم»**»، ثم قال: «ألا إن كل دم ومال ومأثرة كانت في الجاهلية فهي تحت قدمي، إلا سدانة البيت وسقاية الحاج»[2].

---

(١) أمر يوسف: أمر يعقوب يوسف، ض.

(٢) ابن ماجه رقم ٢٦٢٨، ومسند أحمد رقم ٤٩٢٦، والدارقطني رقم ٧٦ كتاب الحدود.

قوله تعالى:

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلۡعِيرُ قَالَ أَبُوهُمۡ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَۖ لَوۡلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ٩٤ قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلۡقَدِيمِ ٩٥ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلۡبَشِيرُ أَلۡقَىٰهُ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ فَٱرۡتَدَّ بَصِيرٗاۖ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٩٦ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ٩٧ قَالَ سَوۡفَ أَسۡتَغۡفِرُ لَكُمۡ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٩٨﴾

القراءة

قراءة العامة: «**فلما أن جاء البشير ألقاه**» وروي عن ابن مسعود أنه قرأ: (وجاء البشير من بين يدي العير[١]، وهذا محمول على التفسير والبيان، لا أنه قرآن.

اللغة

الفصل: أصله القطع، ومنه: قيل للحاكم: فاصل؛ لأنه يقطع الأمور، وفَصَلْتُ الشيء فصلاً، ونقيضه: الوصل.

والتفنيد: تضعيف الرأي، فنده تفنيدًا، والفَنَدُ: ضعف الرأي، قال الشاعر:

يا صَاحِبَيَّ دَعَا لَوْمِي وَتَفْنِيدي ... فَلَيْسَ مَا فَات مِنْ أَمْرٍ بِمَرْدُودِ[٢]

وقيل: أصله الفساد، قال النابغة:

إِلاَّ سُلَيْمَانَ إِذْ قَالَ الْمَلِيكُ لَهُ ... قُمْ فِي الْبَرِيَّةِ فَاحْدُدْهَا عَنِ الْفَنَدِ[٣]

أي: امنعها من الفساد، ويقال: أفنده الدهر: أفسده، قال ابن مقبل:

دَعِ الدَّهْرَ يَفْعَلْ مَا أَرَادَ فَإِنَّهُ ... إِذَا كُلِّفَ الإِفْنَادُ بِالدَّهْرِ[٤] أَفْنَدَا

---

(١) العير: البعير، ش.

(٢) لبشار بن برد. انظره في: الطبري ١٦/ ٢٥٢.

(٣) انظره في: لسان العرب (حدد)، وتهذيب اللغة (حد)، وتاج العروس (حدد).

(٤) كلف الإفناد بالدهر: حلف الإنسان بالدهر؛ ش، ض؛ انظره في: الطبري ١٦/ ٢٥٢.

أي: أفسد.

والضلال: الذهاب عن جهة الصواب، يقال: ضل عن الطريق، وضل عن الدين ذم، وعند الإطلاق في الشرع يعرف الضلال من الدين، ويسمى الضلال قديمًا للمبالغة في الصفة، كقوله: ﴿كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾ [يس: ٣٩].

والبشير: الآتي بالبشارة العظيمة لما في «فعيل» من المبالغة.

والارتداد: انقلاب الشيء إلى حال كان عليه، ومنه: الردة.

۞ الإعراب

يقال: ما موضع (أن) في قوله: «**فلما أن جاء البشير**».

قلنا: لا موضع لها؛ لأنها ترد مع (لما) و(حتى) للتوكيد وصلة، كقوله: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ[1] رُسُلُنَا﴾ [هود: ٧٧] وقال في موضع آخر: ﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا﴾ [العنكبوت: ٣٣].

۞ المعنى

بَيَّنَ تعالى ما جرى عليه أمر يعقوب في القميص، فقال تعالى: «**وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ**» أي: خرجت القافلة من مصر متوجهة إلى كنعان «**قَالَ أَبُوهُمْ**» يعقوب لأولاد أولاده؛ لأن أولاده كانوا بمصر مع الرفقة «**إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ**» فيه قولان:

أولهما: هذا الريح المعروف بعينه، وهو حركة الجو عند أكثر المفسرين، ثم اختلف هؤلاء فقيل: جاءت الريح برائحة يوسف من ثماني[2] ليال، عن ابن عباس، وقيل: من مسيرة شهر، عن الحسن، والأصم، وقيل: ثمانين[3] فرسخًا، عن الحسن، وقيل: من[4] مسيرة ثلاثة أيام، عن مجاهد، وقيل: أوصل الله إليه الريح معجزة ليوسف ليعلم يعقوب أن محنته تناهت، وليكون لطفًا له لِيَقِلَّ حزنه، وليكون بشارة بلقاء يوسف وحياته.

---

(١) ولما جاءت: ولما أن جاءت، ض.

(٢) ثماني: ثمان؛ ض، ش.

(٣) ثمانين: ثمانون؛ ض، ش.

(٤) من: عن، ض.

وثانيها: أنه رأى أمارات رجا ربه رجاء قويًا بورود يوسف عليه، أو أتاه الوحي بما جرى من يوسف وإخوته وتوجيه القميص، فذكر أمر الريح ووجدانها مجازًا، كما يقال: شممت روائح الخير، عن أبي مسلم، وجوز الوجه الأول أيضًا.

«وْلا أَنْ تُفَنِّدُونِ»، قيل: تكذِّبوني[1]، والفَنَدُ الكذب، عن ابن عباس، ومجاهد، وقيل: تهرمون، عن الحسن، وقتادة، وقيل: تضعفوني[2]، عن ابن إسحاق، وقيل: تقولون: شيخ قد خرف وذهب عقله، وقيل: تلومون، عن الأخفش، وأبي مسلم، وقيل: تضللوني، عن أبي عبيدة **«قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ الْقَدِيمِ»** في خطئك من حبك يوسف وكثرة ذكره، ألا[3] تنساه، وقيل: إنما قالوا له هذه الكلمة الغليظة إشفاقًا عليه، فخفف الله عنهم، عن قتادة، وقيل: كان عندهم أن يوسف مات، فكان بذكره ذاهبًا عن الصواب، عن الحسن، ولا شبهة أنهم لم يريدوا الضلال في الدين **«الْقَدِيم»** المتقدم **«فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ»** برسالة يوسف وقميصه، قيل: كان البشير يهوذا، عن ابن عباس، وقيل: كان البشير مالك بن ذعر رجلا من مدين، عن ابن عباس بخلاف، وقيل: جاء البشير من بين يدي العير، عن ابن مسعود، وقيل: قال يهوذا: أنا ذهبت بالقميص ملطخًا بالدم، فأخبرته أن يوسف أكله الذئب، فأنا أذهب بالقميص اليوم، فأخبره أنه حي، فأفرحه كما أحزنته، وقيل: خرج حافيًا حاسرًا يعدو معه سبعة أرغفة، فما استوفاها حتى أتى أباه، وكانت المسافة ثمانين فرسخًا، عن ابن عباس **«أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ»** يعني ألقى البشير قميص يوسف على وجه يعقوب **«فَارْتَدَّ بَصِيرًا»** رائيًا بعدما كان عمي، عن جماعة المفسرين، قال الضحاك: رجع إليه بصره بعد العمى، والقوة بعد الضعف، والشباب بعد الهرم، والسرور بعد الحزن، وقيل: قال يعقوب للبشير: ما أدري ما أثيبك، هون الله عليك سكرات الموت، فقيل: قال له: كيف خلفت يوسف؟ قال: هو ملك مصر، قال ما أصنع بالملك؟ على أي دين تركته؟ قال: على الإسلام، قال: الآن تمت النعمة، **«قَالَ»** يعقوب لهم: **«أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي**

(١) تكذبوني: تكذبون؛ ض، ش.

(٢) تضعفوني: تضعفون، ض.

(٣) ألا: ولا؛ ض، ش.

أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ» قيل: من حياة يوسف، وأنه تصدق رؤياه، ويجمع بيننا، وقيل: من فضل الله ولطفه ما لا تعلمون أنتم، عن أبي علي[(١)]، وقيل: أعلم من بلوى الأنبياء وما ينالهم من المحن، وما يأتي من الفرج ما لا تعلمون أنتم، عن أبي علي، فعند ذلك **«قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا»** أي: سل الله لنا المغفرة مما لحقك من جهتنا من الحزن **«إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ»** مذنبين **«قَالَ»** يعقوب **«سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ»** قيل: أخرهم إلى ليلة الجمعة، عن ابن عباس رفعه، وقيل: أخرهم إلى وقت السحر؛ لأنه أقرب إلى إجابة الدعاء، عن ابن مسعود، وإبراهيم التيمي، وابن جريج، وقيل: إنما أخر لأنهم سألوا أن يستغفر دائمًا في دعائه، فاستغفر في الحال، ووعد في المستقبل، عن أبي علي، وقيل: أخر إلى السحر ليلة الجمعة فوافق ليلة عاشوراء، عن طاووس، وقيل: كان يستغفر لهم كل ليلة جمعة في نيف وعشرين سنة، عن وهب، وقيل: لم[(٢)] يمت أحد من ولد يعقوب حتى أكرمه الله بالرسالة، عن الأصم، ودل بقوله: ﴿وَٱلْأَسْبَاطِ﴾ [البقرة: ١٣٦] وهو عبارة عنهم.

۞ الأحكام

تدل الآيات على معجزات:

منها: مجيء الريح بريح يوسف.

ومنها: القميص.

ومنها: عوده بصيرًا بعدما عمي.

وتدل على أن السرور بنعم الدنيا جائز كما فعله يعقوب بالقميص.

وتدل على أن الاستغفار والندم شرط في المغفرة.

وتدل على أن مغفرتهم كانت متعلقة باستغفاره لما ناله منهم، أو لشفاعته.

---

(١) عن أبي علي: +، ض.

(٢) لم: لما؛ ش، ض.

وتدل على أن الذنب فعلهم لذلك حثّ إلى الاستغفار فيبطل قول المجبرة في المخلوق.

وتدل على أن لفظ القديم قد يطلق على المتقدم، وقد اختلفوا في حقيقة القديم، فقيل: الموجود لم يزل فيكون مجازًا في غيره، عن أبي علي، وقيل: المتقدم في الوجود، عن أبي هاشم، قال القاضي: ما قاله أبو علي أقرب إلى عرف المتكلمين، وما قاله أبو هاشم أقرب إلى اللغة.

قوله تعالى:

﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ ۞رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۖ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ أَجۡمَعُوٓاْ أَمۡرَهُمۡ وَهُمۡ يَمۡكُرُونَ ﴿١٠٢﴾﴾

اللغة

الرفع: النقل إلى جهة العلو، ونقيضه: الوضع.

والعرش: السرير الرفيع، وأصله الرفعة، وقيل: أصله البناء، ومنه: ﴿خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ [البقرة: ٢٥٩] وعَرَشَ الكَرْمَ: رَفَعَهُ.

والخُرُورُ: السقوط والانحطاط على الوجه، يقال: خر سقط.

والسجود: خضوع بوضع الوجه على الأرض، وأصله التذليل.

وبدا: ظهر، وسميُ بُدًّوا لظهور الشخص فيه من بعيد.

والنزغ: الوسوسة، والنزغ: أن ينزغ بين[1] قوم حتى يفسد ما بينهم، يقال: نزغ بيننا أي: أفسد. والفاطر: الخالق، وأصل الفَطْرِ: الشق، ومنه: فطر ناب البعير. والمكر والخديعة من النظائر.

۞ الإعراب

ويقال: للأب وللأم أبوان، ولا يقال: أمان، لتغليب المذكر على المؤنث، كما يغلب المفرد على المضاف في تثنية العمرين، ومنه: ﴿وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ﴾ [النساء: ١١] (آمنين) نصب على الحال، و(من) في قوله: «**من الملك**»، و«**من تأويل**» قيل: صلة، وقيل: للتبعيض.

«**فاطر**» نصب لأنه نداء مضاف كأنه قيل: يا فاطر فحذف لدلالة الكلام عليه.

«**رب**» في محل[2] النصب؛ لأنه نداء مضاف أي: يا رب، وإنما كسر؛ لأن المعنى ربي فحذف الياء «**جعلها ربي حَقًّا**» يعني الرؤيا، وهي مؤنثة.

۞ المعنى

ثم بَيَّنَ تعالى التقاء يوسف مع أبيه وإخوته، وما دعا به، فقال سبحانه: «**فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ**» وفي الكلام حذف، تقديره: فلما خرج يعقوب من أرضه وأتى مصر ودخل على يوسف، وقيل: إن يوسف بعث مع البشير باثنتي عشرة راحلة وما يحتاج إليه من السفر، وسألهم أن يأتوه بأهلهم، فتهيأ يعقوب للخروج إلى مصر، فلما دنا من مصر أمر بإعلام يوسف، فتلقاه يوسف في الجند وأهل المصر قال يعقوب: يا يهوذا، هذا فرعون مصر، قال: لا، هذا ابنك، ثم تلا الآية على ما قص الله تعالى، فقال: «**فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ**» يعني يعقوب وإخوته «**آوَى إِلَيْهِ**» ضم إليه «**أَبَوَيْهِ**» قيل: أباه وأمه، وكانا حيين، عن ابن إسحاق، وأبي علي، وقيل: أبوه وخالته؛ لأن أمه ماتت في النفاس بأخيه بنيامين، فتزوجها أبوه، فأقامها مقام أمه، عن السدي

---

(١) بين: عن؛ ش، ض.

(٢) محل: ـ، ض.

وجماعة، وقيل: نشرت أمه راحيل من قبرها حتى سجدت له[1] تحقيقًا للرؤيا، عن الحسن، وقيل: أنزل أبويه معه وإخوته في منازل شتى، وقيل: «**ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ**».

ومتى قيل: كيف قال: ادخلوا بعد الدخول؟ وما وجه الاستثناء، وقد حصل الدخول؟

قلنا: قد قيل: في تقدير الكلام وجوه:

أحدها: تلقاهم يوسف خارج المصر، ودخل منزلاً، فلما دخلوا عليه ضمهم إلى نفسه، وقال: ادخلوا مصر، عن الأصم.

وثانيها: قيل: خرج مستقبلاً لهم، وخرج أهل البلد، فلما رجع قال: ادخلوا مصر، قاله السدي [يحكي] عن فرقد السبخي[2].

وثالثها: ادخلوا مصر مقيمين إن شاء الله آمنين، والاستثناء للإقامة، وقيل: في الآية تقديم وتأخير، والاستثناء في قول يعقوب لبنيه «**سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي**» ومعنى الكلام: سوف أستغفر لكم إن شاء الله، فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه، وقال ادخلوا مصر إن شاء الله، هذا معنى قول ابن جريج، وقيل: الاستثناء رجع على الأمر، كقوله: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [الفتح: ٢٧] ومعنى قوله: «**آمنين**» يعني على أنفسكم وأموالكم وأهليكم، لا تخافون أحدًا، وقيل: وكانوا فيما خلا يخافون ملك مصر، عن ابن عباس، وقيل: آمنين من القحط والشدة والفاقة «**وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ**» أي: أجلس أبويه على السرير الرفيع، وهو سرير الملك، وقيل: العرش السرير، عن ابن عباس، والحسن، وقتادة، ومجاهد «**وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا**» يعني وقعوا له في السجود أبواه وإخوته، وقيل: خروا، عن ثعلب، كقوله: ﴿لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ [الفرقان: ٧٣] واختلفوا في هذا السجود، فقيل: سجود للتحية لا

---

(١) له: ـ، ض.

(٢) غن فرقد السبخي: فقد قرأ السحي، ش، ض؛ الطبري، ١٢/٣٠١.

سجود العبادة[1]، وكان تحية الناس يومئذ السجود، وقيل: عظموه بالسجود، والمعبود هو الله تعالى كما في قصة آدم، عن الأصم، وقيل: كان كالقبلة، عن أبي علي، وقيل: المراد بالسجود الخضوع والتواضع على طريق التعظيم لا السجود بعينه، وقيل: سجدوا له أي: لله شكرًا، عن ابن عباس، وذكر أبو مسلم في قوله: «خروا» يعني أهل مملكته، فكان كل من دخل على يوسف من أهل مملكته يخر[2] له ساجدًا، وهذا لا يصح؛ لأنه لا يكون تأويلاً للرؤيا، ويحتمل السجود وجهًا حسنًا، «**وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا**» أي: ليوسف يعني لأجله، يعني سجدوا لله شكرًا لأجل يوسف ولقائه «**وَقَالَ**» يوسف: «**يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا**» قيل: كان بين الرؤيا وتأويلها[3] أربعون سنة، عن سليمان بن عبد الله بن شداد، وقيل: ثمانون سنة، عن الحسن، وقيل: ثماني عشرة سنة، عن ابن إسحاق، وقيل: اثنتان وعشرون سنة، عن الكلبي، وقيل: سبعون سنة، عن عبد الله بن شوذب.

ومتى قيل: إذا علم يعقوب صحة الرؤيا فلماذا حزن الحزن العظيم؟

قلنا: قيل: لأنه رأى وهو صبي، وقيل: لأن طول الغيبة مع شدة المحنة يوجب الحزن، وقيل: أمن الموت ولم يأمن البلايا.

«**وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ**» بدأ بالسجن دون الجب كرمًا لئلا يبدأ[4] بصنيع إخوته، وقيل: لأن نعم الله في إخراجه من السجن أكبر، وقيل: لأن السجن طالت مدته، وكثرت محنته «**وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ**» وكانوا ببوادي الشام أصحاب إبل وشاء "**مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ**» قيل: أفسد، وقيل: قطع، عن الأصم، وقيل: النزغ الإغراء، عن أبي علي «**بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ**» أي: بلطفه حصلت هذه النعم من الاجتماع وغيره، وقيل: لطيف التدبير لما يشاء «**إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ**» بجميع الأشياء «**الْحَكِيمُ**» في التدابير، قيل: دخلوا مصر وهم اثنان وسبعون إنسانًا من رجل

---

(١) العبادة: للعبادة، ض.

(٢) يخر: خر؛ ض، ش.

(٣) كان بين الرؤيا وتأويلها: كان للرؤيا وبين تأويلها، ض.

(٤) لئلا يبدأ: لابتدا، ش، ض.

وامرأة، وخرجوا مع موسى عليه السلام، والمقاتل منهم ستمائة ألف، وخمسمائة وسبعة وسبعون رجلاً سوى الذرية والهرمى والزَّمْنَى، عن وهب، وقيل: أقام يعقوب في مصر أربعة وعشرين سنة، ثم توفي ودفن في الشام، عن ابن إسحاق، وقال سعيد بن جبير: نقل يعقوب إلى بيت المقدس في تابوت من ساج، وكان عمره مائة وسبعة وأربعين سنة، فلما تم ليوسف الأمور كلها والمنى بأجمعها، وعلم أن نعم الدنيا لا بد تنقطع تمنى أرفع الدرجات، فقال: «**رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ**» أعطيتني «**وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ**» قيل: تعبير الرؤيا، وقيل: علم الدين، وقيل: علم الغيب «**فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ**» أي: خالقهما «**أَنْتَ وَلِيِّي**» ناصري «**فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ**» قيل: أنت أوليت نعمتي في الدنيا والآخرة، يعني في الدنيا النبوة والملك، وفي الآخرة الجنة «**تَوَفَّنِي مُسْلِمًا**» قيل: أراد اللطف في الثبات على الإسلام إلى الموت، وقيل: لما جمع لله بينه وبين إخوته، أحب أن يجتمع مع آبائه في الجنة فدعا بهذا الدعاء، وقيل: تمنى الموت ولم يتمن أحد قبله، فإنه لما تم أمره أحب اللحوق بالله ورضوانه، ومعنى «**توفني مسلمًا**[1]» أي: ثبتني على الدين حتى توفني، قيل: وتوفاه الله بمصر، وهو نبي، فدفن في النيل، في صندوق و«**ذَلِكَ**» يعني ما قصصت عليك، فعاد بعد تمام القصة إلى خطاب النبي ـ صلى الله وعلى آله ـ «**مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ**» من[2] أخبار ما غاب عنك «**نُوحِيهِ إِلَيْكَ**» ولولا ذلك لما علمته «**وَمَا كُنْتَ**» يا محمد «**لَدَيْهِمْ**» عندهمأي عند أولاد يعقوب «**إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ**» قيل: عزموا عليه، وقيل: اتفقت آراؤهم، عن أبي مسلم «**وَهُمْ يَمْكُرُونَ**» بيوسف، وقيل: مكرهم إلقاؤهم إياه في غيابة الجب، عن ابن عباس، والحسن، وقتادة، وقيل: مكرهم احتيالهم في أمره حتى ألقوه، عن أبي علي.

۞ الأحكام

تدل الآية على جواز اتخاذ[3] السرير الرفيع والفرش الثمينة.

(١) مسلمًا: + ، ض.

(٢) من: ما، ض.

(٣) اتخاذ: أخذ؛ ض، ش.

وتدل على أن رفع الغير على السرير تعظيمًا له جائز.

وتدل على أن السجود لغير الله على غير وجه العبادة يجوز، وأن ذلك يعتبر بالقصد.

وتدل على أن نزغات الشيطان فِعْلَهَ، وما يفعله العباد فِعْلُهُمْ، ليس شيء من ذلك خلق الله تعالى؛ لذلك أضافها إلى الشيطان؛ بل على زعمهم جميع ذلك من الرحمن، ولأنه أضاف النعم إلى الله والوسوسة إلى الشيطان، ولو كان الجميع خلقًا لله تعالى ما كان للفرق معنى.

وتدل على معجزة لنبينا ﷺ حيث قص هذه القصص من غير أن قرأ كتابًا، وسمع حديثًا، أو خالطه أهله مع صحة ما أخبر.

قوله تعالى:

﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوٓا۟ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾﴾

القراءة

«كأين» قرئ بالمد على وزن كايِّن. «وكأين» بغير مد وتشديد الياء، وقد تقدم بيانه.

قراءة العامة: «والأرض» بالكسر عطفًا على السموات، وعن عكرمة أنه قرأ بالرفع على الابتداء؛ لأنه قطع على قوله: «السموات»، ثم ابتدأ والأرض، وعن بعضهم بالنصب.

«ويمرون» قراءة العامة[1]، وروي أن في قراءة ابن مسعود: **«يمشون عليها»**.

---

(١) قراءة العامة والأرض. . . قراءة العامة: ـ ، ض.

۞ اللغة

الناس: جماعة الإنسان، وهو[1] من ناس ينوس نَوْسًا ونَوَسانا[2]، إذا تحرك يمينًا وشمالاً من نفسه لا يحركه غيره، والنوس: تَذَبْذُبُ الشيء، ومنه الحديث: «رأيت العباس وضفيرتاه تنوسان على ترائبه» أي: تتحركان، ويسمى بعض[3] ملوك حمير ذَوِي[4] نواس لضفيرتين كانتا تنوسان على عاتقيه.

والحرص: طلب الشيء باجتهاد في إصابته، حرص يحرص حرصًا، فهو حريص عليه.

والعالَم: الجماعة من الحيوان الذي من شأنه أن يعلم؛ لأنه مأخوذ من العلم، وجمعه: العالمين، وقيل لما حواه الفلك: عالم على طريق التبع للحيوان الذي ينتفع به، وهو مخلوق لأجله.

والغاشية: المجللة للشيء بانبساطها عليه، غشيه يغشاه غشيانًا: إذا غطاه، فهو غاشٍ، وهي غاشية، والغشاء: الغطاء.

والبغتة: الفجأة، وهي مجيء الشيء من غير توقع. والساعة: مقدار من الزمان.

۞ الإعراب

«وكأين» معناه «كم»، وأصلها «أي» دخلت عليها الكاف للتفخيم والإيهام.

ويقال: لم جعله من[5] في (كأين) دون «كم»؟

قلنا: لأن[6] (كأين) أشد إبهامًا[7] من (كم)، فاحتاجت إلى (من) ليدل أن[8] ما يذكر تفسيره. «بغتة» نصب على الحال.

---

(١) وهو: وهم؛ ض، ش.
(٢) نوسا ونوسانا: نؤسا ونوسا؛ ض، ش.
(٣) بعض: يعني؛ ض، ش.
(٤) ذوي: غلام؛ ض، ش.
(٥) من: ـ، ض.
(٦) لأن: لاين، ض.
(٧) إبهاما: إيهامًا، ض.
(٨) أن: ـ، ض.

۞ النزول

قيل: نزل قوله: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم﴾ في المشركين إذ سألوا: مَنْ خلق السموات والأرض؟ وينزل القطر؟ قالوا: الله، ثم هم يشركون، عن عكرمة، والشعبي، والأصم، وأبي مسلم.

وقيل: نزلت في ثلاثة من مشركي العرب كانوا يقولون: لبيك لا شريك لك إلا شريكًا هو لك، تملكه وما ملك، عن ابن عباس، وأبي علي.

وقيل: لما سمع المشركون ما قبل هذه الآية من الآيات قالوا: فإنا نؤمن بالله الذي خلق هذه الأشياء، ولكنا نزعم أن له شريكًا، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وقيل: نزلت في أهل الكتاب معهم شرك وإيمان، عن الحسن.

وقيل: نزلت في المنافقين.

وقيل: نزلت في قصة الدخان، فإنه لما غشي أهل مكة أيام القحط، قالوا: ﴿رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا﴾ [الدخان: ١٢]، ثم عادوا إلى الشرك، فالأول إيمان، والثاني شرك.

۞ المعنى

لما تقدم ذكر الآيات والمعجزات التي لو تفكروا فيها لعرفوا الحق، فلم يتفكروا، بَيَّنَ تعالى أن التقصير ليس من جهته تعالى؛ لأنه بين ونصب الأدلة، ولا من جهتك لأنك دعوتهم، ولكن من جهتهم حيث رضوا بالجهل، فقال سبحانه: «**وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ**» على إيمانهم «**بِمُؤْمِنِينَ**» مصدقين؛ لأن حرص الداعي لا يغني إذا كان المدعو لا يجيب «**وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ**» أي: ما سألتهم على تبليغ الرسالة، وبيان الشريعة جزاء، ليكون ذلك مانعًا من القبول، فالأعذار[1] منقطعة «**إِنْ هُوَ**» قيل: القرآن، وقيل: بيان الله وأدلته «**إِلاَّ ذِكْرٌ**» عظة، وتذكير يذكرون به الجنة والنار، والمعاد، عن الحسن «**لِلْعَالَمِينَ**» أي: للمكلفين.

ثم بَيَّنَ أنهم أتوا من قبل أنفسهم، فقال: «**وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ**» أي: وكم من آية من

---

(١) فالأعذار: والأعذار، ش.

حجة ودلالة «فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ» قد بينا في مواضع ما فيها من الأدلة، وقيل: أراد الشمس والقمر والنجوم والسحاب والمطر، وما في الأرض [من] ألوان النبات والأشجار والفواكه، وقيل: أحوال الناس وآثار المتقدمين «يَمُرُّونَ عَلَيْهَا» أي: يشاهدونها بالمرور عليها «وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ» يعني لا يتفكرون فيها، والمراد به الكفار «وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُمْ مُشْرِكُونَ» يعني ما يصدقون الله ولا يعبدونه إلا ويشركون الأوثان في العبادة، قيل: هم مشركو قريش، أقروا بالحق، وعبدوا الأوثان، عن ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وقيل: أهل الكتاب، عن الحسن، وقيل: هذا في الدعاء، نسوا ربهم في الرخاء، ودعوه في البلاء، عن عطاء، وقيل: ما يؤمن أكثرهم إلا وكانوا مشركين قبل إيمانهم «أَفَأَمِنُوا» استفهام والمراد الإنكار، أي: لا يؤمنهم «أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ» قيل: عذاب يغشاهم، وهو عذاب الاستئصال، عن مجاهد، والأصم، وأبي مسلم، وقيل: مجللة، عن ابن عباس، وقيل: المراد به القيامة، عن أبي علي، وقيل: الصواعق والقوارع، عن الضحاك «أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً» يعني القيامة فجأة، قبل أن يعلموه أو يتوبوا «وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ» لا يعلمون قيامها، وسميت القيامة ساعة لتعجيل أمرها كتعجيل الساعة، قال ابن عباس: تهيج الصيحة بالناس وهم في أسواقهم.

۞ الأحكام

تدل الآية على أن ترك الطمع وسؤال الأجر يؤثر في قبول الدعوة لذلك ذكره في أخبار الأنبياء.

وتدل على أن المعارف مكتسبة، وعلى وجوب النظر.

وتدل على جواز اجتماع التصديق والشرك، فأما الإيمان الشرعي فلا يجتمع مع الكفر، ولا يجوز اجتماع صفة مؤمن وصفة كافر؛ لأنه مدح وذم.

وتدل على أن الإيمان والكفر فعلهم، فيبطل قول المجبرة في المخلوق.

قوله تعالى:

﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾﴾

القراءة

قرأ حفص عن عاصم: «**نوحي إليهم**» بالنون حيث كان؛ لقوله: «**أرسلنا**»[(١)]، وقرأ الباقون: «**يُوحَى**» بالياء وفتح الحاء على ما لم يسم فاعله.

وقرأ أبو جعفر ونافع وابن عامر ويعقوب ورواية عن عاصم: «**أفلا تعقلون**» بالتاء على الخطاب، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم وحمزة والكسائي بالياء على المغايبة.

اللغة

السبيل: الطريق، وهو المكان المهيأ للسلوك، ودين الإسلام طريق يؤدي إلى الجنة، وهو سبيل الحق، والسبيل يُذَكَّر ويؤنث.

والبصيرة: جمعها بصائر، وهو ما يبصر به الشيء أي: يعرف، وأصله ظهور الشيء وبيانه، ثم سمي العلم بصيرة كأنه يبصره بعينه.

والسير: المرور الممتد في جهة، ومنه: السير واحد السيور لامتداده في جهة، سار يسير سيرًا، وسَيَّرَهُ تسييرًا.

الإعراب

«سبحان» مصدر لا ينصرف. قال الشاعر:

سُبْحَانَ مِنْ عَلْقَمَةَ الفَاخِرِ[(٢)]

---

(١) حجة القراءات ٣٦٥.

(٢) عجز بيت للأعشى وصدره:

أَقُولُ لَمَّا جَاءَنِي فَخْرُهُ

انظره في: الصحاح (سبح).

۞ المعنى

ثم أمر تعالى نبيه صلى الله عليه وآله أن يبين ما يدعو إليه، فقال سبحانه: «قُلْ» يا محمد «هَذِهِ سَبِيلِي» أي: طريقي وقيل: سنتي ومنهاجي، عن ابن زيد، وقيل: دعوتي، عن الربيع، والضحاك، وقيل: ديني، عن مقاتل، وأبي علي، ثم فسر ذلك، فقال سبحانه: «أَدْعُو إِلَى اللَّهِ» إلى توحيده وعدله ودينه «عَلَى بَصِيرَةٍ» أي: يقين ومعرفة، يعني أدعوهم بحجة لا على وجه التقليد والإلف «وَمَنِ اتَّبَعَنِي» أي: آمن بي وصدقني فهو يدعو وهم دعاة الحق، عن ابن[1] زيد، والكلبي، وقيل: معناه أنا ومن اتبعني على بصيرة، وقيل: من اتبعهم أصحابه، عن ابن عباس «وَسُبْحَانَ اللَّهِ» تنزيه[2] له عما أشركوا «وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ» به «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ» يا محمد «إِلاَّ رِجَالاً» لأنهم أتم عقلاً وفضلاً «مِنْ أَهْلِ الْقُرَى» دون أهل البوادي؛ لأنهم أعقل وأفضل، عن قتادة، وقيل: النفس إليهم أسكن، وقيل: لم يبعث الله نبيًّا من أهل البادية، ولا من الجن ولا من النساء، عن الحسن «أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ» يعني هؤلاء المنكرين لنبوتك «فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ» من الأمم المكذبين لرسلهم كيف أهلكناهم، كذلك سبيل هؤلاء «وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ» قيل: الجنة وما فيها، وأضاف الدار إلى الآخرة لاختلاف اللفظين «خَيْرٌ» أي: أفضل؛ لأن ما عدا الجنة بالإضافة إليها لا خير فيها، وقيل: هو خير لصفاء نعيمها ودوامها «لِلَّذِينَ اتَّقَوْا» المعاصي «أَفَلا تَعْقِلُونَ» يعلمون ويفهمون ما قيل لهم.

۞ الأحكام

تدل الآية على أنه عليه السلام دعا إلى التوحيد والعدل، وكذلك الصحابة، لا كما يزعمه الجهال.

وتدل على فضل الدعاء إلى الله، وفضل الدعاة، ولهذا قال صلى الله عليه وآله وسلم: «العلماء أمناء الرسل على عباد الله»[3].

---

(١) ابن: ـ، ض.

(٢) تنزيه: تنزيها؛ ض، ش.

(٣) مسند الشهاب رقم ١١٥.

وتدل على أنه يدعو إلى الله في كل أوقاته، وإن كان يبين الشرائع على الأوقات.

وتدل على أن الواجب في الدعاء أن يكون على علم وثقة، وذلك يوجب فساد التقليد.

وتدل على أنه تعالى لم يبعث من الملائكة والجن والبوادي والنساء.

وتدل على أن البعثة يقترن بها الوحي، خلاف ما قاله بعضهم.

وتدل على أن الدار الآخرة يختص بها المتقي، فيبطل قول المرجئة.

وتدل على أن التقوى فعلهم فيبطل قولهم في المخلوق.

قوله تعالى:

﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ (١٠٨) وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِيٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓۗ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۗ وَلَدَارُ ٱلْأٓخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٠٩)﴾

القراءة

قرأ أبو جعفر، وعاصم، وحمزة، والكسائي: «**كُذِبوا**»[١] بالتخفيف وكسر الذال، وهي قراءة علي عليه السلام، وابن عباس، وأبي بن كعب، وابن مسعود، وعلي بن الحسين، ومحمد بن علي، وجعفر بن محمد، وزيد بن علي، ومحمد بن عبد الله النفس الزكية عليهم السلام، وسعيد بن جبير، والسلمي، وعكرمة، والضحاك، وعلقمة، ومسروق، والنخعي، ومحمد بن كعب والأعمش، وعيسى بن عمر، وابن أبي ليلى، وابن عبيد. وقرأ نافع، وابن كثير، وابن عامر، وأبو عمرو، ويعقوب بالتشديد وهي قراءة عائشة، والزهري، وعطاء بن أبي رباح، والحسن، وقتادة، وروي

---

(١) حجة القراءات ٣٦٦.

ذلك مرفوعًا، أما التشديد فقيل: معناه أن الرسل علموا أن القوم كذبوهم، والتخفيف ظن الأمم أن الرسل كذبوا.

قرأ عاصم، وابن عامر، ويعقوب: «**فَنُجِّي**» بنون واحدة[1]، وتشديد الجيم وسكون الياء، قال علي بن عيسى: وذلك خطأ؛ لأن النون متحركة فلا تدغم في الساكن، ولا يجوز إدغام النون في الجيم، وروي عن بعضهم بنون واحدة وسكون الياء، وتخفيف الجيم وسكون الياء على الاستقبال على معنى نحن نفعل بهم ذلك، وفي (الشعراء) عن ابن محيصن: (**فنجا من نشاء**) بفتح النون والجيم والتخفيف على أنه فعل ماض.

۞ اللغة

الاستيئاس: اليأس وهو انقطاع الطمع، وهو «استفعل»، كأنه طلب اليأس لعلمه بامتناع الأمر، والبأس: الشدة، وهو شدة الأمر على النفس، ومنه: البؤس الفقر، والبائس: الفقير، ومنه: لا بأس عليك.

والقصص: الخبر يتلو بعضه[2] بعضا من أخبار من تقدم، قصه يقصه قَصًّا، وأصله الاتباع، ومنه: القصاص.

والعبرة: الدلالة التي تعبر إلى البغية، ومنه: العبور.

واللب: العقل، وجمعه: الألباب، سمي به؛ لأنه أنفس شيء في الإنسان، ولب كل شيء: خياره.

۞ الإعراب

«**من نشاء**» موضعه رفع على قراءة التخفيف؛ لأنه اسم ما لم يسم فاعله، وعلى قراءة التشديد نصب لوقوع النجاة عليه.

«**تصديق**» نصب لأنه خبر (كان)، واسمه مضمر.

---

(١) حجة القراءات ٣٦٨.

(٢) بعضه: بعضها؛ ض، ش.

المعنى

لما تقدم حديث الرسل المبعوثين إلى الأمم عقبه بذكر ما جرى بينهم وبين أممهم تسلية للنبي ﷺ، وبشارة لقرب الفرج، فقال سبحانه: «**حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ**» قيل: يئسوا من إيمان قومهم، وقيل: عن تعجيل العذاب لطول الإمهال «**وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا**» على قراءة التخفيف ظن الأمم أن الرسل كذبوهم فيما أخبروهم من نصر الله، وهلاك أعدائهم، عن ابن عباس، وابن مسعود، وسعيد بن جبير، ومجاهد، وابن زيد، والضحاك، والأصم، وأبي مسلم. ومن قرأ بالتشديد يعني ظن أن الرسل أي: أيقنوا أن الأمم كذبوهم تكذيبًا عمهم حتى لا يصلح أحد منهم، عن عائشة، والحسن، وقتادة، وأبي علي. والظن يكون بمعنى العلم قال الشاعر:

فَقُلْتُ لهم ظُنُّوا بِأَلْفَيْ مُدَجَّجٍ سُرَاتُهُمْ في الفَارِسِيِّ المُسَرَّدِ[1]

وما روي عن بعضهم أن الرسل ظنوا أنهم كذبوا فيما وعدوا وأوحي إليهم فقد أعظم الفرية على رسل الله؛ لأن ذلك كفر، لا يجوز على الأنبياء، قال الأصم: ذلك لا يحل ذكره.

فأما قراءة مجاهد فتحتمل وجهين:

أحدهما: أن الأمم ظنوا أن الرسل كذبوا جاء الرسلَ نَصْرُنَا.

الثاني: ظنت الرسل أن قومهم كَذَبُوا، وافتروا على الله، وعلى هذا الظن بمعنى العلم.

«**جَاءَهُمْ**» يعني الرسل «**نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ**» أي: نُخَلِّص من نشاء من العذاب عند نزوله وهم المؤمنون «**وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُنَا**» عقابنا «**عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ**» المشركين «**لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ**» أخبارهم قيل: الأنبياء والأمم، عن أبي مسلم «**عِبْرَةٌ**» أي: عظة لما جرى من نصرهم بهلاك عدوهم، وقيل: في قصص يوسف وإخوته عبرة وموعظة، عن أبي علي، وأبي مسلم، وذلك الموعظة هو ما أصاب بعد إلقائه في الجب، وبيعه وحبسه من ملك مصر، والجمع بينه وبين إخوته وأبويه، وروي أن سعيد بن جبير والضحاك اجتمعا في دعوة فسئل سعيد بن جبير عن هذه الآية، فقال: حتى إذا

(١) قاله دريد بن الصمة: انظره في: الصحاح (ظنن).

استيأس الرسل من قومهم أن يصدقوهم، وظن المرسل إليهم أن الرسل كذبوهم. فقال الضحاك: ما رأيت كاليوم قط، لو رحلت في هذا إلى اليمن كان قليلاً. وقيل: في هذه القصص عبرة؛ لأنه قط لم يقرأ كتابًا، ولا سمع حديثًا، ولا خالط أهله، ثم حدثهم بهذه القصص في حسن معانيه، وجودة ألفاظه بحيث لم يرد عليه أحد، فدل ذلك على صدقه «**لِأُولِي الْأَلْبَابِ**» أي: لذوي العقول «**مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى**» يعني ما كان القرآن حديثًا يختلق[1] كذبًا، وقيل: ما أداه محمد أنزل عليه، وقيل: البشارة به[2] ليست بكذب، بل وردت الكتب بها «**وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ**» قيل: تصديقه الكتب؛ لأنه جاء كما بشر به في الكتب، عن الحسن، وقتادة، وقيل: تصديقه أنه يشهد بأنه حق، والذي بين يديه الكتب كالتوراة والإنجيل، عن الحسن، وإنما قيل بين يديه؛ لأنه وجد، فصار كأنه حاضر، وقيل: بين يديه أمر به «**وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ**» أي: بيان كل شيء بالعباد إليه حاجة من أمور الدين والحلال والحرام والوعظ والأمثال والحكم، وعم كل شيء للمبالغة، وإلا فالمراد ما ذكرنا، «**وَهُدًى**» بيان ودلالة التوحيد والعدل والنبوات والشرائع «**وَرَحْمَةً**» أي: نعمة ينتفع به المؤمن في العلم والعمل «**لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**» وخصهم لأنهم ينتفعون به، وإلا فهو هدى للجميع.

۞ الأحكام

تدل الآيات على أن أقرب ما يكون العبد من الفرج ونصر الله أضيق ما يكون حالاً.

وتدل على حدث القرآن من حيث تأخر عن غيره، ومن حيث إنه قصص وتفصيل كل شيء، وهدى، ورحمة.

وتدل على أن بأس الله وهو العذاب لا يرد عن المجرم، فيبطل قول المرجئةفي الفاسق.

وتدل على عظم حال القرآن حيث وصف بأنه تفصيل كل شيء وهدى ورحمة.

---

(١) يختلق: يخلق، ض.

(٢) به: ـ ، ض.



سورة (الرعد)، قال الأصم[1]: هي مدنية كلها[2] بإجماع غير قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾ الآية.

وقال سعيد بن جبير: هي مكية.

واختلفوا في عدد آياتها[3]، فقيل: ثلاث وأربعون آية في الكوفي، وأربع في الحجازي، وخمس في البصري.

وعن أبي بن كعب، عن النبي ﷺ: «من قرأ سورة الرعد أعطي من الأجر عشر حسنات، بوزن كل سحاب مضى، وكل سحاب يكون إلى يوم القيامة، وكان يوم القيامة من الموفين[4] بعهد الله تعالى»[5].

ولما ختم سورة (يوسف) بذكر الأنبياء، وذكر قصصهم افتتح هذه السورة بأن جميع ذلك آيات الكتاب، وأن الله تعالى أنزله.

---

(١) الأصم: الأصمعي، د.
(٢) كلها: + ، د.
(٣) آياتها: آياته، د.
(٤) الموفين: الموقنين، د.
(٥) تفسير البيضاوي ١/ ٣٣٥، تفسير أبي السعود ٥/ ٢٥، الكشاف ١/ ٦٢٠، ومجمع البيان، المجلد الرابع ج١٣/ ١٣٦.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى:

﴿الٓمٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَاۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّىۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾﴾

القراءة

﴿الٓمٓرۚ﴾ أمالها أبو عمرو والكسائي وغيرهم، وفخمها جماعة منهم عاصم، وقد بينا، ولم يعد ﴿الٓمٓرۚ﴾ وعد ﴿طه﴾ و﴿كٓهيعٓصٓ﴾؛ لأن (طه) تشاكل رؤوس الآي[1] ولا تشبه الاسم المفرد.

اللغة

العمد: ما يعمد به البناء لمنعه[2] عن أن يميل، وهو جمع عمود، وعَمَدُ يجوز[3] أن يكون العمد جمع عماد كإهاب وأهب.

والاستواء: الاستيلاء بالاقتدار، وتعود الأمر، وأصله: استواء التدبير، والاستواء: الاستقرار، والاستواء: القصد.

والتسخير: التذليل.

الإعراب

يقال: ما محل قوله: «والذي أنزل» من الإعراب؟

قلنا: فيه وجهان: الرفع على أنه مبتدأ، وخبره (الحق). والجر على أنه عطف

(١) الآي: الآية، ض.
(٢) لمنعه: للمنعة، د.
(٣) يجوز: تجو، د.

على (الكتاب)، وهو غيره، على قول مجاهد، ويجوز أن يكون صفة على قول الحسن، كقول الشاعر:

إِلَى الْمَلِكِ الْقِرْمِ وَابْنِ الْهُمَامِ وَلَيْثِ الْكَتِيبَةِ فِي الْمُزْدَحَمْ

ويقال: لم دخل الألف واللام في و(الشمس)؟

قلنا: لأن اسمها بمعنى الصفة؛ إذ لو وجد مثلها لكان شمسًا، ولو وجد مثل القمر لكان قمرًا[1]، وليس كذلك زيد وعمرو، وكل من صفة الشمس والقمر وإن كان بلفظ الجمع.

۞ النزول

قال مقاتل: نزلت الآية في مشركي مكة حين قالوا: إن محمدًا يقول القرآن من تلقاء نفسه[2].

۞ المعنى

﴿الٓمٓرۚ﴾ بينا الكلام فيه، وأن أولى الأقاويل أحد ثلاثة أوجه:

أحدها: أنه اسم للسورة، على ما روي عن الحسن وأبي علي.

وثانيها: أنه إشارة إلى أن[3] القرآن مؤلف من هذه الحروف.

وثالثها: معنى ﴿الٓمٓرۚ﴾ أنا الله أعلم وأرى.

«**تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ**» قيل: هذه آيات الكتاب التي تقدمت صفتها والوعد بها، وقيل: تلك إشارة إلى السورة؛ أي: هذه السورة آيات الكتاب، والكتاب القرآن، عن ابن عباس، وأبي مسلم. وقيل: الكتاب التوراة والإنجيل، تقديره: ما قصصت عليك

---

(١) قمرا: قمر، د.

(٢) تفسير البغوي ١/ ٢٩١.

(٣) أن: + ، د.

آيات[١] التوراة والإنجيل، عن مجاهد، وقتادة، والسدي. «وَالَّذِي[٢] أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ» يعني القرآن أنزله الله[٣].

ومتى قيل: كيف عطف الشيء على نفسه؟

قلنا: إنه استئناف ليس بعطف، تقديره: وهذا القرآن الذي أنزل عليك الحق، وقيل: إنه صفة وإن دخلت الواو، عن الفراء. وقيل: أراد بالكتاب جميع القرآن، وبـ(الذي أنزل) ما تقدم إنزاله، ويجوز عطف البعض على الكل.

«وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ» لا يصدقون مع صحته وبيانه.

ولما تقدم أنهم لا يؤمنون بيّن دلالة[٤] التوحيد والإيمان فقال سبحانه: «اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا» قيل: بغير عمد ترونها[٥] وأنتم ترونها، عن ابن عباس، والحسن، وقتادة، وإياس بن معاوية، وأبي علي، وأبي مسلم، واختيار القاضي، قال الحسن: وفيه تقديم وتأخير، تقديره: رفع السموات ترونها بغير عمد، وقيل: بغير عمد مرئية[٦]، أثبت العمد ونفى الرؤية، عن ابن عباس[٧] بخلاف، ومجاهد. وأنكر شيخنا أبو علي ذلك، وذكر أنه لو كان عمدًا لكان كثيفًا ولرئي[٨]، ولأن النفي دخل على العمد، لا على الرؤية، وجوز شيخنا أبو هاشم الوجهين جميعًا. «ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ» قيل: استولى على العرش بالقهر والعلو، وقيل: استولى على الملك، وقيل: استولى على إمضاء الأمور، وقيل: العرش السماء وهو ملك الله، عن أبي مسلم. وقيل: هو العرش المعروف.

---

(١) آيات: +، د.
(٢) والذي: +، د.
(٣) الله: +، ش.
(٤) دلالة: دلائل، د.
(٥) ترونها: ـ ، د.
(٦) مرئية: مزيله، د.
(٧) عباس: +، د.
(٨) ولرئي: ولرائي، ض.

ومتى قيل: (ثم) يقتضي حدوث معنى، فما معناه في الآية؟

قلنا: قيل: «**ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ**» بالتدبير للأجسام التي قد كونها، فتدل على حدوث التدبير، وقيل: إنما هي لتسخير الشمس والقمر ولكنه قدم في صورة الكلام كقوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ﴾ [محمد: ٣١] يعني حتى يجاهد من نعلمه من المجاهدين، عن أبي علي. وقيل: إنه لعطف اللفظ، لا لعطف المعنى كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ [الأعراف: ١١]، قال الشاعر:

وَلَقَدْ سَادَ ثُمَّ سَادَ أَبُوهُ ثُمَّ قَدْ[١] سَادَ قَبْلَ ذَلِكَ جَدُّهُ[٢]

وقيل: إنه دخل على نفس العرش، وأراد أنه يصرفه كيف يشاء[٣] ولا يكاد يوصف به إلا بعد وجوده.

«**وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ**» ذللهما لمنافع خلقه ومصالح عباده «**كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُسَمًّى**» يعني أنهما يجريان إلى وقت معلوم وهو فناء الدنيا، وإذا قامت القيامة وقعت الشمس والقمر وخسفا، عن الحسن، وأبي مسلم، والقاضي. وقيل: أراد بالأجل درجاتهما ومنازلهما ولهما مائة وثمانون منزلاً، عن ابن عباس. «**يُدَبِّرُ الأَمْرَ**» قيل: يقضيه، عن مجاهد. وقيل: يدبر أمر الرسل في إرسالهم، وقيل: يدبر أمر الدنيا والآخرة بلا معين، وقيل: يدبر جميع ما يفعله فيقع على ما توجبه الحكمة «**يُفَصِّلُ الآيَاتِ**» يبين[٤] الدلائل بما يحدثه في السموات والأرض من أنواع النبات[٥] والأقوات والإحياء والإماتة الدالة[٦] على البعث، وقيل: يفصل آيات الكتاب احتجاجًا عليكم

---

(١) قد: ـ، ش.

(٢) وهذا البيت للشاعر أبو نواس الحسن بن هانئ وفي رواية أخرى:
قل لمن ساد ثم ساد أبوه قبله ثم قبل ذلك جده.

(٣) يشاء: شاء، د.

(٤) يبين: نبين، د.

(٥) الدلائل بما يحدثه... أنواع النبات: ـ، د.

(٦) الدالة: الدلالة، ض.

«لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ» أي: لتوقنوا بالمعاد، وأنكم تبعثون للجزاء، والمراد باللقاء لقاء جزائه.

۞ الأحكام

تدل الآية على حدث القرآن حيث وصفه بالإنزال، وكونه مفصلاً[(١)].

وتدل على أنه رفع السموات بغير عمد، على ما ذكر أبو علي.

ومتى قيل: كيف يمسكه؟

قلنا: فيه وجهان:

الأول: أنه يخلق فيه السكون حالاً بعد حال، عن أبي علي، وجماعة.

و[(٢)] الثاني: أنه يفعل في النصف السفلائي من الاعتماد ما يمنع العلوي من الهوي، وفي النصف[(٣)] العلوي ما يمنع[(٤)] السفلائي[(٥)] من الصعود، عن جماعة، وجوز أبو هاشم كلا الوجهين. فأما من قال: إنه عمد لا يرى، فلا بد أن يقول يخلق فيه من السكون ما يمنعه من الهوي، وإن كان لطيفًا في نفسه.

ومتى قيل: هلا جاز أن يقال: يخلق فيه سكونًا باقيًا، فيمنعه من الهوي؟

قلنا: لا[(٦)]، لأن ما فيه من الاعتماد يولد الهوي حالاً بعد حال، والحادث بالوجود أولى من الباقي، فكان يجب أن يبطل السكون.

ويدل قوله: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ على كونهما جمادين مسخرين، لا كما يزعمه بعض المنجمين أنها حية مصرفة.

---

(١) مفصلا: متصلاً، د.

(٢) و: +، د.

(٣) +، في ض: وتدل على وجوب النظر لولا ذلك لم يكن لتفصيل الآيات معنى، وتدل على أن المعارف مكتسبة، وتدل على. . .

(٤) ما يمنع: من المنع، د.

(٥) السفلائي: +، ش.

(٦) لا: ـ، د.

ويدل قوله: ﴿يُفَصِّلُ ٱلْآيَـٰتِ﴾ على وجوب النظر، لولا ذلك لم يكن لتفصيل الآيات معنى.

وتدل على أن المعارف مكتسبة.

وتدل على على أن وجوب النظر يدل[1] على بطلان التقليد.

ويدل قوله: ﴿بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ أنه أراد من الجميع الإيقان، خلاف ما تقوله المجبرة القدرية.

قوله تعالى:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَـٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَـٰوِرَٰتٌ وَجَنَّـٰتٌ مِّنْ أَعْنَـٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾

القراءة

قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر: عن عاصم[2]: «يُغَشّي» بالتشديد وفتح الغين، وقرأ الباقون: بالتخفيف، وقد تقدم ذكره في سورة (الأعراف).

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحفص عن عاصم ويعقوب: «**وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان**» كلها بالرفع عطفًا على قوله: «**وجنات**»، وقرأ الباقون بالجر عطفًا على الأعناب، وقرأ حفص عن عاصم في رواية القواس[3]: «**صُنوان**» بضم الصاد، وهي قراءة أبي عبد الرحمن السلمي، وقرأ الباقون بكسر الصاد، وهما لغتان.

---

(١) على وجوب النظر ويدل على: قد تقدم في ض.

(٢) عن عاصم: +، د، ش.

(٣) القواس: الفراس؛ ض، د.

قرأ عاصم وابن عامر: «يسقى» بالياء على تقدير: «يسقى كله» أو لتغليب المذكر على المؤنث، وقرأ الباقون بالتاء لقوله: (جنات).

قال[1] أبو عمرو: ومما يشهد للتأنيث قوله تعالى: «ونفضل بعضها على بعض»، وقرأ حمزة والكسائي والأعمش: «يفضل» بالياء رَدًّا على قوله: «يدبر» و«يفصل» و«يغشي». وقرأ الباقون: بالنون على تقدير: ونحن نفضل.

۞ اللغة

المد: البسط، وهو أن يأخذ المجتمع، فيجعله على الطول والعرض، وهو من صفات الأجسام، مده يمده مدًّا فهو مادٌّ، ومدده يمدده تمديدًا، ومدُّ النهار: ارتفاعه، وأمد العرفج[2]، إذا جرى الماء في عوده.

والرواسي: جمع راسية، أرسى[3] بموضع كذا: أقام به، ومنه: ﴿أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٢] أي: ثباتها، وأرسيت السفينة والوتد[4] في الأرض: أثبتهما.

والأنهار: جمع نهر، وهو: المجرى الواسع من مجاري الماء، وأصله من السعة، ومنه النهار لاتساع ضيائه، ومنه قول الشاعر:

ملكت بها كفي فأنهرت فتقها[5]

أي: أوسعت.

والزوج: الصنف، ومنه: ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ﴾ [الشورى: ٥٠] أو[6] يصنفهم، والزوج الواحد الذي يكون معه آخر، والاثنان زوجان؛ لأنهما صنفان الذكور زوج، والإناث

(١) قال: قرأ، ض.
(٢) العرفج: العرمج، د؛ الخرفج، ش.
(٣) أرسى: رسا، ش.
(٤) الوتد: الربد؛ د، ش، ض.
(٥) فتقها: فكفها، ش. والبيت لقيس بن الخطيم، وتمامه:
يرى قائم من دونها ما وراءها
(٦) أو: أي، د.

زوج ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾ [الواقعة: ٧] أي: أصنافًا، قال أبو عبيدة: الزوج يكون واحدًا، ويكون اثنين، وهو هاهنا واحد. والقطع جمعه قطعة.

والتجاور: التقارب في المكان، ثم يستعمل في غيره توسعًا، والمجاورة معنى يحل المحل، وهو من جنس الأكوان في محلين، لا مسافة بينهما، وضده: الافتراق، ونظيره: الاجتماع.

والجنة والجنان[1]: البستان يجنّه الشجر[2] أي: تستره، ومنه الجن والجنون والجنة والجنان والجنين.

والصنوان: أن يكون الأصل واحدًا، ومنه النخلة والنخلتان[3] والثلاث والأربع، قال ابن دريد بن كيسان: الصنوان[4] إذا تقاربتا، وذكر ثعلب عن ابن الأعرابي الصنو: المثل، وقوله ﷺ: «ألا إن عم المرء صنو أبيه»[5] أي: مثل أبيه.

والتفضيل: جعل أحد الشيئين أفضل من الآخر.

۞ الإعراب

قال الزجاج[6]: الأجود في «جنات» الرفع على العطف على قوله: «**قطع**» أي: وفي الأرض جنات، وعليه القراءة، ويجوز النصب بمعنى: وجعل فيها جنات، ويجوز الخفض نسقًا على قوله: ﴿وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾.

۞ المعنى

لما ذكر تعالى في الآية الأولى من نعمه وآلائه على عباده في السموات من رفعها

---

(١) والجنان: +، د.

(٢) يجنه الشجر: تحت الشجرة، د، ش، ض.

(٣) والنخلتان: والنخلات، د.

(٤) الصنوان: صنوان، د.

(٥) أخرجه الطبري في تفسيره ٧٥/ ٣٣١، وابن كثير في تفسيره ٢٥/ ٦٥٧، وتفسير البغوي١/ ٥٤، وحلية الأولياء ٤/ ٣٨٢، وسنن النسائي الكبرى ٥/ ٥١ برقم (٨٧١٦)، ومسند البزار ٦/ ١٣١ برقم (٢١٧٦) بلفظ: «عم الرجل صنو أبيه».

(٦) قال الزجاج: +، د.

وإجراء الشمس والقمر وما يصدر من السماء من تدبير ووحي، ودل بذلك على وحدانيته، عَقَّبَهُ بذكر الأرض وما فيها من نعمه وأدلته، فقال سبحانه: «وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ» أي: بسطها طولاً وعرضًا لتصير قرارًا تتصرف منها الحيوانات، وقيل: بسطها على الماء، عن ابن عباس. وقيل: كانت الأرض مدورة ودحاها من مكة من تحت البيت، عن الأصم. وقيل: كانت مجتمعة عند بيت المقدس «وَجَعَلَ فِيهَا» أي: خلق في الأرض «رَوَاسِيَ» أي: جبالاً ثوابت أوتدها بها كي لا[1] تميل، وفيها من المنافع العظيمة نحو: المياه[2] والمعادن وغير ذلك، ولو كانت مساوية للأرض لم تحصل تلك المنافع «وَأَنْهَارًا» أي: وأجرى أنهارًا من الماء لشربهم وطهارتهم وسقي أراضيهم، فكأنه تعالى قال جعل رواسي مرتفعة وأنهارًا منخفضة تمامًا للحكمة وتدبيرًا لمنفعة البرية وتنبيهًا على تحقيق قوله: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ [يونس: ٣] «وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ» يعني كما جعل ذلك جعل فيها من كل الثمرات نفعًا للحيوانات طعامًا وفاكهة، ولم يقتصر على صنف واحد «جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ» قيل: صنفين حلو وحامض، ورطب ويابس، وأسود وأبيض، وذكر وأنثى، عن ابن عباس. وقيل: جعل في الثمار صنفين كالعنب فيه أسود وأبيض، والرمان فيه حلو وحامض، عن أبي علي. «اثْنَيْنِ» قيل: زوجين يحتمل الذكر والأنثى، فذكر الاثنين هاهنا أنه أراد ضربين من النبات، عن الحسن، والزجاج، وأبي علي. وقيل: ذكر ذلك تأكيدًا لقولهم: جاء القوم كلهم أجمعون، وقيل: معناه خلق مع كل شيء شكله، عن الأصم. «يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ» فذكر الليل والنهار عقيب ذلك لأن النعمة لا تتم إلا بهما، قيل: اثنين ضياء النهار وظلمة الليل، عن الأصم. وقيل: يدخل النهار في الليل ويدخل الليل في النهار، عن ابن عباس. وقيل: يذهبه، عن الحسن. وقيل: يأتي بالنهار فيغشى الليل بضوه، عن أبي علي. «إِنَّ فِي ذَلِكَ» فيما تقدم ذكره «لآيَاتٍ» لحجج ودلائل «لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ» فيها فيستدلون بها على أن لها صانعًا حكيمًا فبين أنه لا ينتفع بها إلا مع التفكر والتدبير[3] وَفِي الأَرْضِ

---

(١) كي لا: كيلا، د.

(٢) المياه: المأه، د.

(٣) والتدبير: والتدبر، ش.

قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ» ثم بَيَّنَ تعالى أن الأرض مع تقاربها وتجاورها مختلفة متباينة «مُتَجَاوِرَاتٌ» قيل: متقاربة مختلفة بعضها عذب ينبت، وبعضها سبخة لا تنبت، عن ابن عباس، ومجاهد، والضحاك. وقيل: بعضها عامر، وبعضها غامر[1]، عن الزجاج. وقيل: مرتفعة ومنخفضة، عن الحسن. وقيل: سبخة ورملة وحصباء وحرة كلها أراضي وهي مختلفة، عن الأصم. وقيل: قرى متجاورات يقرب بعضها من بعض، ذكره هشام عن قتادة. وقيل: قطع متجاورات وفيها أشجار مختلفة، وتختلف في القلة والكثرة، عن أبي مسلم. «وَجَنَّاتٌ» بساتين[2] «مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ» قيل: نخلات أصلها واحد، وهي الصنوان، ومنها ما هو فرد نخلة واحدة، عن ابن عباس، والبراء بن عازب، ومجاهد، وقتادة، قال الحسن: النخلتان أصلهما واحد، وقيل: أشكالاً وغير أشكال، ومعنى الصنوان الأمثال، عن أبي علي، والأصم. وقيل: مجتمع وغير مجتمع، عن سعيد بن جبير. «يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ» قيل: بماء السماء، عن مجاهد، والضحاك. وقيل: بقطر وأعين، عن الأصم. وقيل: بجنس واحد، عن أبي علي. «وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ» قيل: فيه حلو وحامض، وجيد وفاسد، عن الحسن. وقيل: الفارسي، والدقل، والحلو، والحامض، عن الحسن[3]، وروي مرفوعًا، فالأرض واحد، والهواء واحد، والماء واحد، ويختلف في الطعم واللون والرائحة، تنبيهًا منه تعالى أنه يحصل باختراعه ـ جل وعزّ ـ لا بطبع «إِنَّ فِي ذَلِكَ» قيل: في اختلاف ألوانه وطعومه، عن ابن عباس، وقيل: فيما تقدم ذكره «لَآيَاتٍ» يعني حججًا ودلالات أن لها مقدرًا[4] وخالقًا «لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ» الأدلة فيتفكرون فيها، ويستدلون بها.

۞ الأحكام

تدل الآية على أن الأرض خلقت ثم مدت، وقد بَيَّنَّا ما قيل فيه.

---

(١) غامر: غامرة، د، ض.
(٢) وبساتين: وبساتين، د، ض.
(٣) عن الحسن: ـ ، ش.
(٤) مقدرًا: مقدورًا، د، ض.

وتدل على أنه أرسى الجبال لتسكن الأرض، وهو تعالى يقدر على تسكينها من غير الجبال إلا أنه تعالى اختار ذلك لما فيه من المصلحة، ولما في الجبال من المنافع سوى تسكين الأرض.

وتدل على أنه تعالى أجرى الأنهار بعد خلق الأرض؛ خلاف ما قاله قوم أن الأنهار قبل الأرض.

وتدل على أنه تعالى خلق جميع ما خلق لمنافع خلقه لأنه لا بد من عرض، فإذا لم تجز عليه المنافع والمضار علم أنه خلقه لمنافع غيره، ولهذا قال مشايخنا: إنه في ابتداء الخلق لا بد أن يخلق مع الجمادات حيوانًا ينتفع، وإلا كان عبثًا.

وتدل على وجوب النظر.

ويدل قوله: ﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ﴾ الآية على بطلان قول أصحاب الطبائع والمنجمين؛ لأن جميع ما يذكرونه من الأسباب متفقة، والثمرات والنبات مختلف في التفضيل وفي الطعم واللون والرائحة، عن أبي علي.

قال أبو القاسم البلخي: وإنما[1] اختلف ذلك لأجل العوارض.

قال القاضي: أليس مع العوارض الطبائع ثابتة، وهذه الأحوال تختلف.

قوله تعالى:

﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٥﴾

القراءة

اختلف القراء في قوله: «أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ» وأمثاله إذا كان على صورة الاستفهام في الأول والثاني، فمنهم من يجمع بين استفهامين في الحرفين،

(١) وإنما: إنما، ش.

ويستفهمون في الأول والثاني، وهم: ابن كثير وأبو عمرو وعاصم وحمزة، ثم اختلف هؤلاء، فإن ابن كثير يستفهم بهمزة واحدة إلا أنه لا يمد، وأبو عمرو على الخبر في الأول والاستفهام في الثاني، واختلف[1] هؤلاء من وجه آخر، وأبو جعفر يستفهم بهمزة مطولة يمد فيها، وعاصم وحمزة بهمزتين كل القرآن، ومنهم من لا يجمع بين الاستفهامين، ثم اختلفوا، ونافع وابن عامر والكسائي ويعقوب يستفهم في الأول، ويقرأ على الخبر في الثاني، وأبو جعفر وابن عامر يستفهم بهمزة واحدة مطولة، ونافع ويعقوب بهمزة غير مطولة، وابن عامر والكسائي بهمزتين، هذا مذهبهم إلا في موضع يثبتها، فأما أبو جعفر فلا يجمع بين استفهامين في موضع من القرآن، فأما نافع فكذلك إلا في (الصافات)، وكذلك ابن عامر إلا في (الواقعة)، وكذلك يعقوب إلا في (النمل)، وكذلك الكسائي إلا في (العنكبوت) و(الصافات).

۞ اللغة

العجب: الأمر الخارج عن العقل والعادة، عن أبي مسلم.

والغل: طَوْقٌ تُشَدُّ به اليد إلى العنق.

۞ الإعراب

يقال: ما العامل في قوله: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا﴾ ؟

قلنا: قيل: محذوف، تقديره: أئذا كنا ترابًا نبعث، ودل ما بعده على المحذوف، عن الزجاج.

۞ المعنى

لما تقدم ذكر الأدلة على توحيده تعالى، وصفاته دالاً بذلك على أنه قادر على الإعادة والمجازاة، وثبتوا على التكذيب مع ظهور الآيات، عجب من شأنهم، فقال تعالى: «وَإِنْ تَعْجَبْ» يا محمد من قول هؤلاء الكفار في إنكار البعث، وقيل: إن تعجب أيها السامع من كفرهم فقولهم[2] عجب، ثم فسر قولهم بما بعده من قوله:

---

(١) واختلف: ثم اختلف، ش.

(٢) فقولهم: قولهم، ش.

«أئذا كنا»، وقيل: إن تعجب من تكذيبهم إياك بعدما كنت صادقًا أمينًا فأعجب من ذلك قولهم: «أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا» بعد الموت بالاستحالة «أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ» أي نعاد خلقًا جديدًا كما كنا قبل الموت، وموضع العجب هاهنا أشياء:

منها: إنكارهم[1] أن من قدر على الإيجاد قدر على الإعادة.

ومنها: إنكارهم عدله لجواز التسوية بين المحسن والمسيء، ولكان ما يوجد في الدنيا من الآلام والمصائب عبثًا، ولكان التكليف لا يصح.

«أُولَئِكَ» يعني[2] منكري البعث «الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ» أي: جحدوا قدرة الله على البعث «وَأُولَئِكَ الأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ» قيل: كفرهم غل في أعناقهم، وقيل: الأغلال في أعناقهم يوم القيامة في النار، عن أبي علي. «وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ» الملازمون لها «هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ» دائمون.

۞ الأحكام

تدل على قبح قولهم في إنكار البعث، وأنه كفر.

ومتى قيل: كيف أنكروا البعث؟ وكيف تصح الإعادة؟

قلنا: أنكروا أن يصيروا أحياء بعدما ماتوا وصاروا رميمًا، ويمكن أن يقال: أنكروا إعادتهم بعد الفناء، فالأول إنكار لجمع أجزائهم وخلق الحياة فيهم، والثاني إعادة أعيانهم بعد الفناء.

وأما الإعادة ففيه خلاف، قال أبو علي: كلما كان مقدورًا للقديم خاصة، ويصح عليه البقاء تصح الإعادة عليه، ولا تجوز الإعادة على ما لا[3] يقدر عليه غيره تعالى.

وقال أبو هاشم: كل ما كان مقدورًا له، وهو مما يبقى تصح عليه الإعادة.

وقال القاضي: كلما يبقى ولا يكون متولدًا، ويكون مقدرًا للقديم تصح عليه

(١) إنكارهم: ـ، ش.
(٢) يعني: +، ش.
(٣) لا: ـ، ش.

الإعادة، فعلى هذا يصح أن يعيد الأجزاء والحياة إلا أنهم اختلفوا فيما يجب أن يعاد من الحي، فقال أبو القاسم: يعيد جميع أجزاء الشخص، وقال أبو هاشم: يعيد الأجزاء التي بها يبين من غيره ويعيد التأليف، ثم رجع وقال: يعيد الحياة مع البنية، وما عدا ذلك يجوز فيه التبادل.

وتدل على أن إنكار البعث كفر، فيبطل قول من يقول: الكفر لا يكون إلا في أفعال القلب.

وتدل على دوام عقاب الكفار، خلاف ما قاله جهم.

وتدل على أن هذا القول والكفر حادث من جهتهم، فيبطل قول المجبرة في خلق الأفعال.

قوله تعالى:

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٦﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾﴾

القراءة

اتفق القراء على التنوين في قوله: «هاد»، وحذف الياء في الوصل، واختلفوا في الوقف، قرأ ابن كثير ويعقوب بالوقف على الوصل، وقرأ الباقون بغير الياء، وهو رواية ابن فليح عن ابن كثير للتخفيف.

اللغة

الاستعجال: طلب التعجيل بالأمر، والتعجيل تقديم الأمر قبل[1] وقته.

والسيئة: خصلة تسوء النفس، ساءه يسوؤه، ونقيض السيئة الحسنة، وهي خصلة تسر النفس.

---

(١) قبل: +، ش.

وخلت الدار بهلاك أهلها، وأصله من الخلو.

والمثلات: العقوبات، واحده: مثلة بضم الثاء وفتح الميم، نحو: صدقة وصدقات، ومن قال في الواحدة مُثْلَةٌ بضم الميم وسكون الثاء، قالوا في الجمع[1] : مُثُلات وَمُثَلات وَمُثْلات، قال ابن اليزيدي: المثلات: الأمثال والأشباه، يقال: مثلت به أمثل مَثْلاً بفتح الميم وجزم الثاء.

والإنذار: الإعلام لموضع المخافة ليتقى، ومنه: النذُر والنذير والمنذر، يقال: نذر به: أي علم به فاتقاه.

۞ الإعراب

«هاد» محله رفع، وأصله «هادٍ» إلا أنه من بنات الياء، فلا يدخلها الرفع، وحذفت الياء لالتقاء الساكنين التنوين والياء، وقيل: رفع بالابتداء، وقيل: خبره الابتداء.

۞ النزول

قيل: نزلت في مشركي مكة سألوا أن يأتيهم بالعذاب استهزاء منهم كما حكى عنهم: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢]، عن ابن عباس، والحسن، وقتادة.

۞ المعنى

لما تقدم ذكر الكتاب وأدلة التوحيد ووعيدهم بالعذاب بيّن تكذيبهم بذلك واستعجالهم العذاب استهزاءً، فقال سبحانه: «**وَيَسْتَعْجِلُونَكَ**» يعني المشركين يطلبون تعجيل ما أوعدوا به من السيئة «**قَبْلَ الْحَسَنَةِ**»، قيل: العذاب قبل الرحمة، عن ابن عباس، ومجاهد، والأصم، وأبي علي، وأبي مسلم، وسمي العذاب سيئة لأنه يسوؤه، وقيل: بالعذاب قبل الإسلام، حكاه الأصم، وقيل: سألوا العذاب تكذيبًا،

(١) الجمع: الجميع؛ ش، ض.

ولم يسألوا الخيرات وإنما أمهلوا للمصلحة والتعريض للتوبة «**وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ**» أي: مضت من قبلهم في الأمم التي عصت الله، وكذبت الرسل «**الْمَثُلاتُ**» العقوبات، عن أكثر المفسرين، وقيل: المثلات: الأمثال التي ضربها لهم، وقيل: هي المسخ القردة والخنازير، فَبَيَّنَ أنه تعالى يفعل ذلك بحسب المصلحة لا بحسب الاقتراح «**وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ**» قيل: بتأخير العقاب عن أهل الشرك، فجعل التأخير مغفرة، عن أبي مسلم. وقيل: لذو مغفرة إذا تابوا، عن أبي علي. «**وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ**» لمن أصر.

ثم بَيَّنَ تعالى سوء طريقتهم من إنكار المعجزات واقتراح الآيات مع استعجال العذاب، فقال سبحانه: «**وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ**» أي: حجة على نبوته كما نزل على الأنبياء، عن الأصم. وقيل: سوى ما نزل، عن أبي علي. «**إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ**» مخوف «**وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ**» دَالٌّ يهديهم ويرشدهم، واختلفوا فيه على ستة أقوال:

الأول: المنذر والهادي[1] محمد ﷺ، عن الحسن، وقتادة، وأبي الضحى، وعكرمة، وأبي علي.

الثاني: الهادي هو الله والمنذر محمد ﷺ، عن ابن عباس، وسعيد بن جبير، والضحاك.

الثالث: لكل أمة نبي يهديهم، وداع يرشدهم، عن ابن عباس، ومجاهد[2]، وقتادة، والزجاج، وابن زيد.

الرابع: داع وقائد يدعوهم إلى الضلال، أو إلى الحق، عن الكلبي، وأبي صالح، وقتادة، والزجاج[3]، وأبي العالية.

الخامس: المنذر النبي والهادي علي عليه السلام، عن ابن عباس.

(١) المنذر والهادي: والهادي والهادي، ض.
(٢) يدخل النهار في الليل. . . ومجاهد: ـ، د.
(٣) قتادة والزجاج: ـ ، د، ش.

السادس: (هَادٍ) دليلٌ يدلهم على الحق، عن الأصم. وروي عن رسول الله ﷺ[1] أنه وضع يده عَلَى منكب عَلِيٍّ ثم قال: «أنت الهادي يا علي، بك يهتدي المهتدون من بعدي».

الأحكام

تدل الآية على قبح استعجال العقاب.

وتدل على أنه يؤخره، وإن استعجلوه لضرب من المصلحة.

وتدل على أنهم يحكموا في المعجزات، وأنه تعالى يفعل ذلك بحسب المصلحة.

وتدل الآية على بطلان الجبر من[2] وجوه:

منها: أن ذمهم بالاستعجال دل أنه فعلهم.

ومنها: أنه بين أنه يغفر ظلمهم[3].

ومنها: أنه ذمهم على اقتراح الآيات.

ومنها: أنه جعل لكل قوم هاديًا، فلو لم يكن لهم اختيار لما كان للمنذر والهادي معنى.

قوله تعالى:

﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾﴾

---

(١) وآله: +، د، ش.
(٢) من: +، د، ش.
(٣) منها أن ذمهم... يغفر ظلمهم: ـ، د.

۞ القراءة

قرأ ابن كثير ويعقوب: «المتعالي» بإثبات الياء في الوقف والوصل على الأصل، وقرأ الباقون بحذف الياء في الحالين للتخفيف.

وذكر ابن ماجد في (تفسيره) عن قتادة بأن مصحف أُبَيّ: (الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تضع)، وقراءة العامة بخلافه، ويحمل على أنه فسره به.

۞ اللغة

الغيض: ذهاب الماء في[1] جهة العمق، غاض الماء يغيض غيضًا، وغاض الدم، وغاضت النطفة، وقيل: الغيض: النقصان، عن الزجاج، والفراء، وأبي مسلم. يقال: غاضت المياه: نقصت، قال الشاعر:

غَيَّضْنَ مِنْ عَبَرَاتِهِنَّ وَقُلْنَ لِي ... مَاذَا لَقِيتَ مِنَ الْهَوَى وَلَقِينَا[2]

والرحم: رحم الأنثى، وجمعه: أرحام[3]، وهو موضع[4] الولد، وشاة رحوم: اشتكت[5] رحمها بعد النتاج.

والمقدار: ما يقدر به غيره.

والغيب: ما غاب عن الحواس، غاب غيبًا، وغيَّبه تغييبًا، وهو حصوله بحيث يخفى عن الحس، ونقيضه: الشهادة، وهو حصول الشيء بحيث يظهر للحس، ومنه: شهد فلان؛ أي: حضر بحيث يقع عليه الحس.

والمتعالي والعالي واحد، ومنه: تعالى؛ أي: جل عن كل نبأ، وقيل: المتعالي: المقتدر على وجه يستحيل أن يساويه غيره.

---

(١) في: من، د.

(٢) البيت قائله جرير في قصيدة مطلعها أمسيت إذ حل الشباب حزينا.
انظر: ديوان جرير، دار صادر، بيروت.

(٣) أرحام: الأرحام، د.

(٤) موضع: موقع، د.

(٥) اشتكت: انسكب، د.

والاستخفاء: طلب الاختفاء، خفي خفاءً[1] : نقيض ظهر.

والسارب: السائر الجاري بسرعة، وسرب الماء، ومنه قول ذي الرمة:

كأنه من كلى مفرية سرب

وقيل: السارب: السالك في سربه، ومنه: السروب، وقيل: السارب: الذاهب في الأرض، ومنه قول قيس بن الحطيم:

إنـي سـربـت وكـنـت غـيـر سـروب[2]

ومنه: السرب بكسر السين: القطيع من الظباء والنساء، وبالفتح الإبل، يذهب رحلي سربه بالفتح والكسر: أي طريقه، والسرَب بفتح السين والراء: الماء السائل من المزادة.

الإعراب

محل (ما) في قوله: «**ما تحمل**»، «**وما تغيض**»، «**وما تزداد**» نصب لوقوع العلم عليه، و(المتعالي) محله رفع لأنه نعت لقوله: «**عالم**».

وقوله: «**مستخف**» رفع إلا أنه من بنات الياء، وأصله: مُسْتَخْفِيٌ، فذهبت الياء لالتقاء الساكنين.

«**وسارب**» تقديره: وهو سارب.

النظم

في اتصال الآية بما قبلها وجوه:

قيل: تتصل بقوله: «**وإن تعجب**» وهو احتجاج للبعث، يعني من كان بهذه الصفة في القدرة والعلم يقدر على البعث، عن الأصم.

وقيل: تتصل بقوله: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾ [الحج: ٤٧] وبقوله: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ﴾ يعني هذا الذي يعلم غوامض الأمور فهو أعلم بالمصالح يفعل بحسبها[3]،

(١) خفاء: خفاه، د.

(٢) وتمام البيت: وتقرب الأحلام غير قريب.

(٣) بحسبها: بحسبه، د.

ولو علم الصلاح في إنزال الآية لفعل، عن أبي القاسم، وأبي مسلم، والقاضي، قال القاضي[(١)] : وبدأ بما في الأرحام لشدة الاهتمام به ولأنه مما لا يمكن معرفته مع بذل الجهد، فمن كان عالمًا به فهو بالمصالح أعلم، قال أبو القاسم: يعني أنه لا يعاقب إلا من يعلم أنه لا يؤمن، ولا يعاقب من يؤمن.

۞ المعنى

«**اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى**» أنه ذكر أو أنثى، واحد[(٢)] أو أكثر وأكبر[(٣)]، يتم أو لا يتم «**وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ**» قيل: ما ينقص من تسعة أشهر، وما يزداد عليه، فإن الولد يولد لستة أشهر فيعيش، ويولد لسنتين، فيعيش، عن ابن عباس، وسعيد بن جبير، ومجاهد، والضحاك. وقيل: ما تغيض بالسقط[(٤)] عن أن يتم، وما تزداد بالتمام، عن الحسن، وقتادة، والأصم، وأبي مسلم. وقيل: ما ينقص[(٥)] بظهور دم الحيض، فتنقص[(٦)] بذلك[(٧)] الأيام، لأنه لا يعتد بها في الحمل وينقص حال الولد، وما تزداد في الأشهر في حال الولد، عن ابن عباس بخلاف، وابن زيد، قال: كلما غاض الرحم من الدم يومًا زاد في الحمل حتى يستكمل، وقيل: ما لا يخلقه الله عما في الرحم، بل يجعله غذاءً للولد، وما تزداد ما يبلغه[(٨)] إلى الزيادة في الولد، حكاه شيخنا أبو حامد، وقيل: ما تغيض الأرحام بالحيض والدم الذي يخرج منها، وما تزداد بعد حيضها من ذلك، ويجتمع فيها إلى الوقت الذي تغيضها فيه، عن أبي علي. وليس المراد في حال حملها[(٩)]، وقيل: غيض الأرحام الدم تراه المرأة في حال حملها، عن مجاهد. والزيادة ألا ترى[(١٠)]، ويتم الولد؛ لأن غيض[(١١)] الرحم

(١) قال القاضي: ـ ، ش.
(٢) واحد: واحدًا، د.
(٣) وأكبر: ـ ، د.
(٤) بالسقط: بالسقوط، د.
(٥) ما ينقص: ما تغيض، د.
(٦) فتنقص: فيتغيظ، د؛ تنقص، ش.
(٧) بذلك: تلك، ش.
(٨) يبلغه: يبعله، ض.
(٩) حملها: الحمل، د.
(١٠) ألا ترى: لا تبرأ، د.
(١١) غيض: غيظ، د.

يكون بخروج الدم لأن في حال الحمل يجتمع الدم، ويكون كالغذاء للولد، وما يظهر قبل[1] هو حيض يذكره، «**وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ**» أي: بقدر وحَدٍّ لا يجاوزه، ولا ينقص عنه، قيل: هو في الولد لأنه قدر حياته وموته، وكماله ونقصانه[2]، ورزقه وتكليفه، وقيل: هو الأرزاق والآجال، عن قتادة. وقيل: بل هو عام في جميع الأشياء، وقيل: بمقدار[3] ما يحتاج إليه الخلق، وتقتضيه المصلحة «**عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ**» قيل: ما غاب عن[4] حس العباد وما شاهدوه لأنه تعالى لا يغيب عنه شيء، وقيل: يعلم الموجود والمعدوم، والغيب هو المعدوم، وقيل: الغيب السر، والشهادة العلانية، عن الحسن. ويدخل في هذين الحرفين كل معلوم، فنبه أنه عالم بجميع المعلومات موجودًا كان أو معدومًا «**الْكَبِيرُ**» يعني الذي كل شيء دونه لكمال صفاته من كونه عالـمًا لذاته، قادرًا لذاته، حيًا لذاته، وقيل: كبير عن شبه المخلوقين «**الْمُتَعَالِ**» قيل: على كل شيء بقدرته، فلا يساويه قادر، وقيل: المنزه عما لا يجوز عليه في ذاته وفعله، وقيل: المتعالي عما يقوله المشركون، عن الحسن. «**سَوَاءٌ مِنْكُمْ**» أي: سَيَّانِ[5] في معلومه «**مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ**» أي: كتم وأخفى «**وَمَنْ جَهَرَ بِهِ**» أظهر «**وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ**» قيل: المستتر في الظلمات، والظاهر في الطرقات، وقيل: ذاهب بالنهار، عن أبي علي، وأبي مسلم. وقيل: الجاهر بنطقه والمضمر في نفسه سواء في معلومه، عن الزجاج. وقيل: مستخف صاحب ريبة[6] يستخفي بالليل كي لا يرى، وقيل: مستخف بالنهار، عن الحسن. قال الزجاج: هو جائز في اللغة، يقال: أسرب الوحش: إذا دخل في كُنَاسِهِ[7]، وقيل: سالك في سربه أي: مذهبه، عن أبي عبيدة. وقيل: ظاهر بالنهار في ضوئه، وقيل: السارب الظاهر من خفي ما[8] كان فيه، عن ابن عباس، وقتادة.

---

(١) قبل: هل، ش.
(٢) ونقصانه: ونقصه، د.
(٣) بمقدار: المقدار، ش.
(٤) عن: من، د.
(٥) سيان في د كتب فوق لفظة: (شيئان) لفظة: (سيان)؛ شيئان، ش.
(٦) ريبة: دينه، د.
(٧) كناسه: كناسته، د.
(٨) ما : +، د.

۞ الأحكام

استدل بعضهم بالآية على أن الحامل تحيض، قال: لأن الحيض هو الدم الذي يتساقط عن الرحم، قال القاضي: وليس في الظاهر بيان لذلك.

واختلفوا في الحامل هي تحيض أم لا؟

قال أبو حنيفة وأصحابه: لا، وإن رأت الدم فهو استحاضة، وهو قول الحسن، وإبراهيم، وسعيد بن المسيب، وعطاء، والحكم.

وقال الشافعي: يثبت حكم الحيض.

وقال بعضهم: إذا كان بصفة الحيض فلا حمل.

واختلفوا في مدة أكثر الحمل، فقال أبو حنيفة: سنتان، وروي ذلك عن عائشة والضحاك وجماعة من الفقهاء، وعن جويبر: مكث الضحاك في بطن أمه سنتين، وقال الشافعي: أربع سنين، وهو قول الزيدية، وروي[1] أن محمد بن عجلان مكث في بطن أمه ثلاث سنين، فشق بطنها وأخرج، وقد نبتت أسنانه، وعن حماد بن سلمة: سمي هرم بن حيان لأنه بقي في بطن أمه أربع سنين، وذكروا أن محمد بن عبد الله بن الحسن النفس الزكية عليه السلام[2] بقي في بطن أمه أربع سنين، ذكره السيد أبو طالب.

وتدل على أنه تعالى عالم بكل معلوم.

ويقال: ما الفرق بين المقدور حتى يدخله التخصيص، وبين المعلوم حتى لا يدخله؟

قلنا: لأنه لا[3] معلوم إلا ويصح أن يعلمه كل عالم سواء كان موجودًا أو معدومًا

(١) وروي: روي، د.
(٢) عليه السلام: +، د، ش.
(٣) لا: +، د.

ولا تخصيص فيه، والمقدورات فيها تخصيص لأن ما يكون مقدورًا لزيد لا يكون مقدورًا لعمرو[1]، ولأن[2] من الأشياء ما لا يكون مقدورًا، وإن كان معلومًا.

قوله تعالى:
﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ١١﴾

القراءة

ذكر ابن خلف عن قتادة أن في مصحف أُبَيّ: «**له معقبات من بين يديه ورقبة من خلفه**». وقراءة العامة بخلافه[3]، فنحمله[4] على أنه فسره به، لا أنه[5] كان قراءة، أو أنه كان قراءة فنسخ.

اللغة

المعقبات: أصله التعقيب، وهو كون الشيء بعد آخر، فالمعقبات الكائنات بعضها خلف بعض، والمعقب الطالب دينه مرة بعد مرة، قال الشاعر:

حَتّـى تَـهَـجَّـرَ فـي الـرَّوَاحِ وَهَـاجَـهُ   طَـلَـبُ الـمُـعَـقِّـبِ حَقَّهُ[6] الـمَـظْـلُـومُ[7]

ومنه: العقاب لأنه يستحق عقيب الجرم، والعُقاب لأنه تعقيب بطلبه الصيد مرة بعد مرة، وقيل: واحدها معقب[8]، والجمع: معقبة، ومعقبات جمع الجمع، كما قالوا: درجاوات[9] ولبناوات، عن الفراء.

---

(١) ولا تخصيص فيه... مقدورًا لعمرو: -، ش.
(٢) ولأن: لأن، د.
(٣) بخلافة: بخلاف، د.
(٤) فنحمله: فيحمل، د.
(٥) لا أنه: لأنه، د.
(٦) حقه: ذنبه، د.
(٧) البيت قائله لبيد بن ربيعة أنظر:
لسان العرب (وهج)؛ ديوان لبيد بن ربيعة، ص ١٢٨، بيروت.
(٨) معقب: معقبة، ش.
(٩) درجاوات: رجالات، د.

والتغيير: تصيير الشيء على خلاف ما كان، غيره تغييرًا، وتغير تغيرًا[1]، ويقال: وأل إليه: أي لجأ إليه، والموئل: الملجأ «مفعل» من وأل يئل[2] فهو وائل، ومنه سمي الرجل وائلاً، وقيل لعلي عليه السلام وكان درعه صدرًا بلا مؤخر: لو احترزت من ظهرك، فقال: إذا أمكنت من ظهري فلا وَألتَ؛ أي: لا نجوت.

۞ الإعراب

الضمير في قوله: «لَهُ مُعَقِّبَاتٌ» قيل: يقع على اسم الله، وقد تقدم في قوله[3]: «عالم الغيب والشهادة»، وقيل: بل يعود على اسم النبي ﷺ، وقد جرى ذكره في قوله: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌۖ﴾، عن ابن زيد. وقيل: يعود على ﴿مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾ وعليه أكثر المفسرين، وهو قول أبي علي، وأبي مسلم، والقاضي.

«وَالٍ» أصله والي، ذهبت الياء لاجتماع الساكنين.

۞ النظم

قيل: الآية تتصل بما قبلها كأنه قيل: وسارب بالنهار، وله معقبات وهم الأحراس والأعوان، عن أبي علي.

وقيل: إنه يتصل به ولكن المراد بالمعقبات الحفظة، عن أبي علي، والأصم.

وقيل: يتصل بقوله: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ و﴿يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ﴾ أي: كما يعلم هو جعل عليهم حفظة يحفظونه[4].

وقيل: يتصل بقوله: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌۖ﴾ فَبَيَّنَ أنه محفوظ بالملائكة.

۞ النزول

قيل: نزلت في قصة عامر بن الطفيل، وأربد بن قيس أتيا المدينة ليقتلا

---

(١) تغيرا: تغييرًا، د.
(٢) يئل: يئيل، د.
(٣) في قوله: +، د.
(٤) يحفظونه: تحفظونه، د.

رسول الله ﷺ، فدعا الله فكفى شرهما، فهلك أربد بالصاعقة، وهلك عامر بالغدة، عن ابن زيد. وستأتي من بعد القصة.

وقيل: بل هو عام.

۞ المعنى

«لَهُ مُعَقِّبَاتٌ» قيل: للسارب بالنهار، عن الأصم، وأبي علي، وأبي مسلم، وأكثر المفسرين، وهو الأوجه. وقيل: الله[1] ـ عز وجل ـ، وقيل: النبي ﷺ، عن ابن زيد.

واختلفوا في المعقبات على أقوال:

أولها: أنها الملائكة يتعاقبون، تعقب ملائكة الليل ملائكة النهار، وهم الحفظة، يحفظون عليه عمله، عن الحسن، وسعيد بن جبير، وقتادة، ومجاهد، والأصم، وأبي علي، وأبي صالح، وإبراهيم، وابن جريج. قال الحسن: هم أربعة أملاك، يجتمعون عند صلاة الفجر، وهو معنى قوله: ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨].

الثاني: أنهم ملائكة يحفظونه من أمر الله والمهالك حتى ينتهوا به إلى المقادير، فإذا كان ذلك خلوا بينه وبين المقادير، عن أبي علي، وابن عباس.

وقيل: هم عشرة أملاك على كل آدمي، يحفظونه.

الثالث: هم الأمراء والملوك في الدنيا، يكون[2] له[3] الأحراس، والشرط، والمواكب بين يديه، ومن خلفه، يحفظونه، حكاه الأصم، وروي عن ابن عباس، وعكرمة، والضحاك، وهو قول أبي مسلم، قال: وتقديره: وسارب نهارًا بالمعقبات الأحراس والأعوان الذي قدر أنهم يحرسونه، ولم ينجه[4] أحراسه من الله.

---

(١) الله: لله، د.
(٢) يكون: تكون، د.
(٣) له: لها، ش.
(٤) ينجه: تنجه، د.

«مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ[١]» أي: يطوفون به كما يطوف الموكل بالحفظة[٢]، وقيل: يحفظون ما تقدم من عمله وتأخر إلى أن يموت، عن الأصم. وقيل: الأحراس يحرسونه، عن عكرمة، والضحاك، وأبي مسلم. «يَحْفَظُونَهُ» قيل: يحفظون عمله بأن يكتبوا[٣] ذلك، عن الحسن، وقيل: يحفظونه من وجوه المهالك والمعاصي والخواطر[٤]، وقيل: من الجن والإنس والهوام، وقيل: يحفظونه مما[٥] لم يُقدّر نزوله فإذا جاء المقدور بطل الحفظ، عن ابن عباس. ومعناه: أنهم لا يعلمون العواقب فيحفظونه فإذا جاء الأمر الحتم لا ينفع الحفظ «مِنْ أَمْرِ اللَّهِ» قيل: بأمر الله، وحروف الصفات تتعاقب وتتبادل[٦] في كلام العرب، عن الحسن، وإبراهيم، ومجاهد، وقتادة، والأصم، وأبي علي، وروي ذلك عن ابن عباس، وقيل: «يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ» أي من المهالك والجن والهوام، عن مجاهد، وإبراهيم. وقيل: يحفظون عليه أمر الله أي: الحسنات والسيئات، عن ابن جريج، وأبي علي. يعني بالإحصاء[٧] والكتابة، وقيل: فيه تقديم وتأخير؛ أي: له معقبات من أمر الله وهم الملائكة يحفظونه من أمر الله، عن ابن عباس. قيل: يحفظونه من أمر الله الذي إذا نزل بقوم فلا مرد له البتة، وقيل: الحرس يحفظونه من أمر الله، ولا ينفع، عن عكرمة، والضحاك. والهاء في قوله: «يحفظونه» قيل: يرجع[٨] إلى السارب وهو الوجه، وقيل: إلى الرسول، عن ابن زيد. «إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ» من النعمة والحال الجميل بعذاب الاستئصال «حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ» بترك الشكر وعصيان الله وظلم العباد، وقيل: أراد به أهل مكة آمنهم، وأطعمهم، فلم يشكروا فغير الله تعالى[٩] ذلك عليهم.

---

(١) ومن خلفه: +، د.

(٢) بالحفظة: بالحفظ، د.

(٣) يكتبوا: يكتبون، د.

(٤) والخواطر: بالخواطر، د.

(٥) مما: بما، د.

(٦) تتعاقب وتتبادل: تتبادل فتتعاقب، د؛ : تتناوب فتعاقب، ض.

(٧) بالإحصاء: بالإحصار، ض.

(٨) يرجع: رجع، د.

(٩) تعالى: ـ ، ش.

ويقال: كيف[1] يتصل قوله: «إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ» بما قبله؟

قلنا: قيل: إنه يتعلق بقوله: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾ [الحج: ٤٧] فبين أنه لا ينزل ذلك إلا والمعلوم من جميعهم التغيير، حتى لو علم أن فيهم من يؤمن أو يعقب مؤمنًا لا ينزل العذاب. وقيل: بل يتعلق[2] بالسارب، فإنه إذا أتى بالمعصية بطل الحفظ وعوقب، وقيل: بل هو على الإطلاق[3].

«وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا» أي: عذابًا، سماه به لأنه يسوءه، وقيل: أراد الأمراض ونحوه، وليس بالوجه لأنه يرد من غير تغيير «فَلا مَرَدَّ لَهُ» أي: لا يرده أحد «وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ» قيل: ملجأ، وقيل: يلي أمرهم ويمنع العذاب منهم.

۞ الأحكام

تدل الآية على أنه تعالى وكل بالمكلف ملائكة، وقد أجمعوا على ذلك.

ومتى قيل: فأي فائدة فيه؟

قلنا: لطف لنا من حيث علمنا حفظ أعمالنا، وكتبته علينا، فنكون إلى الطاعة أقرب، ولحفظهم[4] إيانا عن المهالك، وفيه نعمة عظيمة أنه[5] إذا تصور أن معه ملائكة تشاهد أعماله، فيمتنع عن المعاصي، فيكون لطفًا من هذا الوجه أيضًا.

ومتى قيل: فماذا يكتبون من الأعمال؟

قلنا: قيل: كل الأعمال، ثم يمحو الله ما يشاء من المباحات، ويثبت ما فيه ثواب أو عقاب، وقيل: بل لا يكتبون إلا الحسنات والسيئات.

ويدل قوله: «إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ» على أنه لا يعذب أحدًا إلا بذنب، فيدل على[6] أنه لا يعذب أطفال المشركين.

---

(١) في هامش د: فإن قيل.
(٢) يتعلق: تعلق، د.
(٣) الإطلاق: إطلاقه، د.
(٤) ولحفظهم: ولحقهم، د.
(٥) أنه: ولأنه، د.
(٦) أنه لا يعذب أحدًا إلاّ بذنب، فيدل على: +، د.

وتدل على بطلان الجبر؛ لأن التغييرات لو كانت منه لكان هو المغير، ولما كان للكلام فائدة، ولكان هو الموقع في الأول والثاني.

قوله تعالى:
﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾﴾

القراءة

قراءة العامة: «**المِحال**» بكسر الميم، وقرأ الأعرج بفتح الميم، ذكر شيخنا أبو القاسم في تفسيره[1] وروي ذلك عن ابن عباس، وذكر أن معناه[2] الحول أي: القوة، وقيل: إنه «مفعلة» من الحيلة، ومنه المرء يفحش[3] لا المحال[4]، فالميم زائدة على هذه القراءة، فأما المحال بالكسر فقيل: الميم زائدة، وهو من الحول، ونحوه ميم «مكان»، عن ابن قتيبة. وقيل: «الميم» أصلية، قال الأزهري: غلط ابن قتيبة فإن الحرف إذا كان على مثال فعال أوله ميم مكسورة فهي أصلية، مثل: (مهاد) و(ملاك) و(مراس).

واختلفوا مِمَّ[5] أُخِذَ؟ قيل: من قولهم: محل فلان بفلان: إذا سعى به إلى السلطان، وعرضه للهلاك، وقيل: المحل[6]: الشدة، ومنه سميت السنة الضعيفة[7]: سنة[8] المحل، وماحلت فلانًا محالاً[9]: أي قاومته أينا أشد، قال أبو مسلم: وبناء

---

(١) تفسيره: تفسير، ض.
(٢) معناه: معنى، د.
(٣) يفحش: يفجر، ش.
(٤) المحال: المحالة، ش.
(٥) مِمَّ: ثم، د.
(٦) المحل: المحيل، ض.
(٧) الضعيفة: الصعبة، د.
(٨) سنة: سنية، د.
(٩) محالاً: محاو؛ د، ض.

المحال «فعال» من المحل، وهو الشدة، ولفظة «فعال» تقع على المجازاة والمقابلة، فكأنه تعالى[(١)] قال: هو شديد المغالبة لمن غالبه.

۞ اللغة

«يريكم» أصله من الرؤية، وتصريفه: أراه يريه، إراءة، نحو أقامه، والإيراء أن يجعله على صفة الرؤية بإظهار المرئي له[(٢)]، أو يجعله على صفة «يرى».

والإنشاء والاختراع نظائر.

والسحاب: جمع سحابة، والمراد به الجنس؛ ولذلك قال: **«الثقال»**، ولو قال: الثقيل لجاز، عن أبي القاسم.

والصاعقة: نار تسقط من السماء بحال هائلة.

والبرق: يلمع كعمود[(٣)] النار، يظهر في السحاب، وجمعه: بروق.

۞ الإعراب

(الملائكة) رفع[(٤)] عطف على **(الرعد)** بتقدير: وتسبح[(٥)] الملائكة، «والرؤية» تتعدى إلى ثلاثة مفعولات:

أولها: الكناية في قوله: **«يريكم»**.

والثاني: البرق.

والثالث: **«خوفًا وطمعًا»** وهو نصب على التفسير، وقيل: نصب على الحال.

۞ النزول

قيل: نزلت الآية في رجل من الطغاة جاء إلى النبي ﷺ يجادله[(٦)]، فقال: يا

---

(١) تعالى:ـ ، ش.
(٢) له: +، د.
(٣) كعمود: كمعود، ض.
(٤) رفع: ـ ، د.
(٥) وتسبح: يسبح، د.
(٦) يجادله: جادله، ض.

محمد، ربك من لؤلؤ أو من[1] ياقوت أو ذهب أو فضة، فأرسل الله عليه صاعقة فذهبت بقحفه، عن أنس بن مالك، وعبد الرحمن بن صحار العبدي، ومجاهد. وقيل: كان يهوديًا، ذكره ابن جرير.

وقيل: نزلت في أربد بن قيس لما أراد هو وعامر بن الطفيل قتل النبي ـ صلى الله عليه وآله[2]، وجاء إلى المسجد، وكلَّمه عامر، وعمد أربد ليضربه فجفت يده على قائم سيفه، فرجع خائبًا، فأرسل الله عليه صاعقة، فأحرقته[3]، وابتلي عامر بغدة كغدة البعير، فقتلته، عن ابن عباس، وابن جريج، والأصم، وفيه يقول لبيد:

أَخشى عَلى أَربَدَ الحُتوفَ وَلا ... أَرهَبُ نَوْءَ السِّماكِ وَالأَسَدِ

فَجَّعَني الرَعْدُ وَالصَّواعِقُ بِالـ ... ـفارِسِ يَوْمَ الْكَريهَةِ النَجُدِ

وقيل: نزلت في مشركي العرب، يجادلون رسول الله، عن الحسن.

وقيل: نزلت في رجل أنكر القرآن، وكذب الرسول، فأرسل الله عليه صاعقة فهلك، عن قتادة.

۞ النظم

قيل: تتصل الآية بقوله: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ [الحج: ٤٧]، عن أبي القاسم.

وقيل: لما تقدم التحذير من العقاب عقبه بذكر العقاب، عن أبي مسلم.

۞ المعنى

«**هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ**» يعني الله تعالى يريكم البرق، وهو النار التي[4] يخلقها الله تعالى في السحاب فترى، وهو مقدمة[5] المطر كالمبشر به «**خَوْفًا وَطَمَعًا**» قيل: تخويفًا،

(١) من: +، د.
(٢) وآله: +، ش.
(٣) فأحرقته: فأحترق، د.
(٤) التي: الذي، د.
(٥) مقدمة: مقدم، د.

وقيل: خوفًا من الصواعق التي تكون معها، وطمعًا في الغيث الذي يزيل القحط، عن الحسن، وأبي مسلم. وقيل: خوفًا من أذاه للمسافر وطمعًا للمقيم في الرزق به، عن الضحاك، وقتادة، وأبي علي. وقيل: خوفًا إذا كان في زمان يضر[1] المطر، وطمعًا إذا كان في زمان ينفع، عن الأصم. وقيل: خوفًا في مكان وبلدة يضر المطر بها، وطمعًا بها في بلدة ينفعه، عن الزجاج. وقيل: خوفًا من البرد والغرق، وطمعًا في نماء الزرع «**وَيُنْشِئُ السَّحَابَ**» أي: يخترع بأن يوجدها عن عدم، بلا آلة ولا سبب، وقيل: إنما أنشأ السحاب غربال المطر، كيلا يفسد الزرع والنبات، عن ابن عباس، وكعب. وقيل في معنى ينشيء: يرفع، وقيل: يجري، وقيل: يثير، وليس بالوجه؛ لأن الظاهر أنه ابتدأ[2] خلقه بلا سبب، وهو الإنشاء والاختراع «**الثِّقَالَ**» قيل: ثقال بالماء، عن مجاهد. وقيل: ثقال[3] في نفسه «**وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ**» قيل: الرعد هو الصوت المسموع من ناحية السحاب، وقيل: الرعد اسم ملك، وكذلك البرق اسم ملك، قال القاضي: وهذا الأوجه لأن[4] مثل هذا التأويل يطرق على القرآن مذاهب الباطنية[5].

واختلفوا في معنى «**يُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ**» على ثلاثة أقوال:

الأول: ينزه الله تعالى لما[6] فيه من الدلالة على تعظيمه، ووجوب حمده، فكأنه هو المسبح؛ لأن الصوت العظيم دل على أنه قادر لذاته لا يشبه خلقه، فهذا أوجه الأقوال.

وثانيها: يسبح بما فيه من الأنواع الداعية إلى تسبيحه وحمده.

وثالثها: أن الرعد ملك يزجر السحاب بصوته، ويسبح لله ويحمده، وهذا خلاف الظاهر، وما روي «أن الرعد ملك والبرق سوطه»[7] بيَّنَّا أنه خلاف الظاهر، فلا

---

(١) يضر: ضر، ض.
(٢) ابتدأ: يبتدئ، د.
(٣) ثقال: ثقل، د.
(٤) لأن: فإن، د.
(٥) الباطنية: ـ ، د.
(٦) لما: فيما، د.
(٧) سوطه: صوته، د.

يجوز حمل الكلام عليه إلا بدليل، والرعد[١] : هو الصوت المسموع من ناحية السحاب، والبرق: النار الساطع الذي يرى[٢].

«وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ» يعني ينزهون الله ويحمدونه؛ خوفًا من عقابه «وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ» أي ينزلها من السماء وهي النار الساقطة «فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ» أي: يهلك بها من يشاء إهلاكه كما أهلك أربد «وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ» أي: يجادلون[٣] ويخاصمون أهل التوحيد في ذات الله وصفاته ليصرفوهم عن الحق، وقيل: كان جدالهم في الله قولهم: إنه ذهب أو فضة، عن الحسن. وقيل: جدالهم في القرآن والرسل[٤] «وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ» أي: شديد القوة، عن مجاهد، وقتادة. وقيل: شديد العقوبة، عن أبي عبيدة. وقيل: شديد النقمة، عن الحسن. وقيل: شديد الغلبة لمن غالبه، عن أبي مسلم. وقيل: شديد الحول، عن ابن عباس. وقيل: شديد الجدال، عن ابن عرفة، يقال: ماحل عن أمره، أي: جادل[٥].

فأما ما روي عن بعضهم شديد الحقد، فلا يصح؛ لأن الحقد لا يجوز عليه تعالى.

فأما قول أبي علي: شديد الكيد، فأراد أنه يأخذهم من حيث لا يعلمون.

۞ الأحكام

تدل الآية على أنه تعالى يلطف لعباده بالبرق والرعد لأنهما يدعوان[٦] إلى التسبيح والتحميد والاعتبار بصوت النفختين والتفكر فيه، والاستدلال به على عظمة الله تعالى، وعظم قدرته.

---

(١) والرعد: فالرعد، د.

(٢) يرى: يرمي، ض.

(٣) يجادلون: ـ ، ش.

(٤) والرسل: والرسول، ش.

(٥) جادل: مجادل، د؛ حاول، ض.

(٦) لعباده بالبرق والرعد لأنهما يدعوان: عباده بالرعد والبرق لأنها تدعوا، د؛ يدعوان: يدعوا، ش، ض.

وتدل على أن السحاب مبتدأ ينشئه الله تعالى في الجو، خلاف من يقول: إنه بخار البحر[1].

وتدل على أن الرعد يدل على تنزيهه سبحانه، وروي عن جماعة موقوفًا ومرفوعًا، قالوا: عند سماع الرعد «سبحان من يسبح الرعد» ليس فيه حجة إلا ترك[2].

وظاهر[3] القرآن يدل على قبح المجادلة بالباطل؛ لذلك يرسل عليهم الصواعق.

قوله تعالى:

﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ۩ ﴿١٥﴾﴾ اللغة

الاستجابة والإجابة بمعنى، غير أن في الاستجابة معنى الطلب، قال الشاعر:

وداع دعا يا مَنْ يجيب إلى الندا ... فلم يستجبه عند ذاك مجيب

والسجود: الخضوع، وأصله التذليل[4]، ومنه:

ترى الأكم فِيهَا سُجَّدًا لِلْحَوَافِرِ

والظلال: جمع ظل.

والفيء: الذي يرجع بعد ذهاب ضوئه، ومنه: الظلة، لسترها[5]، وظل وظلال كرق ورقاق[6].

---

(١) البحر: البحار، د.
(٢) إلا ترك: إلا تركوا، د.
(٣) وظاهر: ظاهر، د.
(٤) التذليل: التذلل، د.
(٥) لسترها: يسيرها، د.
(٦) كرق ورقاق: كزق وزقاق، د.

والآصال: واحدها أصيل، وجمعها: أصل، وآصال جمع الجمع، وهو العشي، كأنه قيل: أصل الليل الذي ينشأ منه لأنه مأخوذ من الأصل.

الإعراب

أضيف الدعوة إلى الحق، وإن كانت الدعوة هي الحق؛ لاختلاف الاسمين، كما يقال: مسجد الجامع، ومنه: ﴿وَلَدَارُ ٱلْأَخِرَةِ﴾ [يوسف: ١٠٢].

المعنى

لما بيّن تعالى فيما تقدم أنه شديد المحال في مجازاة من يجادل في الله، بَيَّنَ حال من ينقطع إليه وحال من ينقطع إلى غيره، فقال تعالى: «**لَهُ**» أي: لله «**دَعْوَةُ الْحَقِّ**» قيل: كلمة الإخلاص شهادة أن لا إله إلا الله، عن ابن عباس، وقتادة، وابن زيد. وقيل: الله الحق من[١] دعاه دعا الحق، عن الحسن. كأنه يومئ إلى أن عبادته والانقطاع إليه حق، وقيل: من دعاه فقد دعا حيًا قادرًا سميعًا، عالمًا[٢]، بصيرًا، فيكون دعاؤه حقًّا، ولا يذهب باطلاً، وقيل: عبادته[٣] الحق؛ لأن غيره لا يستحق العبادة، وقيل: هي الدعاء الذي يقع على وجه يؤمل فيه الإجابة؛ لأن الدعوة على هذا الوجه تكون مسموعة مستجابة، وقيل: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾ أي الدعاء إلى الحق وهو الإسلام، والأوثان لا دعوة لهم ولا يجيبون إذا دعوا «**وَالَّذِينَ يَدْعُونَ**» يعني يدعون[٤] المشركين[٥] «**مِنْ دُونِهِ**» أي: من دون الله فدعوا الأوثان أربابًا، وقيل: يدعونهم لحاجاتهم، عن الحسن. «**لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ**» أي: لا تجيبهم «**بِشَيْءٍ**» مما دعوا «**إِلاَّ كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ**» شبه دعاء الأوثان بباسط كفه إلى الماء «**لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ**» واختلفوا في معناه، فقيل: كباسط كفيه إلى الماء يدعو الماء بلسانه ويشير إليه بيده فلا

---

(١) من: في، د.
(٢) سميعًا عالمًا: عالمًا سميعًا، د، ش.
(٣) عبادته: عبادة، د.
(٤) يدعون: يدعوا؛ د، ش، ض.
(٥) المشركين: المشركون، د.

يأتيه، عن مجاهد، والأصم. وقيل: يريد أن يصل إلى تناول الماء بيده على بسطها، عن أبي علي. وقيل: كباسط كفيه إلى الماء فمات قبل أن يصل، عن الحسن. وقيل: كعطشان على ساقية، ولا دلو معه يمد يده إلى البئر، فلا يبلغ الماء، ولا يرتفع الماء إليه، وكذلك الأوثان لا يجيبونهم ولا ينفعونهم[1]، عن علي عليه السلام، وعطاء، وأبي مسلم. وقيل: كعطشان يرى الماء من بعيد يريد أن يتناوله فلا يقدر عليه، عن ابن عباس. وقيل: كمشير إليه يريد بهذا القدر أن يبلغ فاه فلا يبلغ، عن القاضي، قال: وهو الأقرب. وقيل: كما أن العطشان لا ينفعه بسط الكف إلى الماء كذلك الأوثان لا تملك لهم نفعًا ولا ضرًا، عن الضحاك عن ابن عباس. وقيل: إنه مثل لمن يسعى[2] فيما لا يدرك، فيقال: هو كالقابض على الماء، عن أبي عبيدة، والقتيبي، وأبي مسلم، وأبي القاسم، قال الشاعر:

وَأَصْبَحْتُ[3] مِمَّا كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَهَا ... مِنَ الْوُدِّ مِثْلَ الْقَابِضِ الْمَاءَ بِالْيَدِ

«وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ» أصنامهم «إِلاَّ فِي ضَلالٍ» قيل: في هلاك، وقيل: في ضلال عن الصواب، وقيل: عن طريق الإجابة والنفع، كأنه قيل: في ضلال عن دعوة الحق.

ثم بَيَّنَ تعالى كمال قدرته وملكه، فقال سبحانه: «وَلِلَّهِ يَسْجُدُ» قيل: يصلي، عن ابن عباس. وقيل: يخضع ويتذلل «مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ» من الملائكة «وَالأَرْضِ» أي: ومن في الأرض من بني آدم، والمراد به المكلفون، وقيل: من في السموات الشمس والقمر والنجوم، ومن في[4] الأرض الجبال والشجر والدواب، حكاه الأصم، والأول الوجه. «طَوْعًا وَكَرْهًا» قيل: المؤمنون يسجدون طوعًا، والكافر يؤخذ به كرهًا، وكان الربيع بن خثيم يقول إذا قرأ هذه الآية: بل طوعًا يا رب[5]. وقيل: منهم من يسجد طوعًا، ومنهم من يسجد كرهًا، يثقل عليهم السجود لمشقته فيتحملونه،

(١) لا يجيبونهم ولا ينفعونهم: لا تجيبهم ولا تنفعهم، د.
(٢) يسعى: يبتغي، د.
(٣) وأصبحت: فأصبحت، د.
(٤) في: +، د، ش.
(٥) يا رب: بارًا، د.

فمدحهم بذلك، عن الأصم. وقيل: يخضع له المؤمن باختياره والكافر بما ينزل به من الأمور الدالة على أنه مقهور ذليل خاضع، وإن كان يجحد بلسانه نحو المرض والفقر والموت، عن أبي علي. قال القاضي: ولعله أقرب إلى المراد وأدل على القدرة، وأعم. «**وَظِلَالُهُمْ**» يعني ظلال الساجدين، وقيل: المراد بالظلال نفس الأشخاص، عن الأصم، قال: أراد أنه دليل لا يمنع عليه ما يريد أن يتصرف فيه، وقيل: يسجد شخصه دون قلبه لأنه لا يريد بسجوده[١] عبادة ربه من حيث يسجد مخافة، وقيل: المراد به الظلال أنها تسجد بسجود الأشخاص وتخضع حتى قال الحسن ومجاهد: الظل يسجد، والشخص لا يسجد، وقيل: الخضوع يظهر في ظله قبال[٢] الانحطاط والارتفاع غدوة وعشية فيجري بتدبير الله تعالى، يقال: سجد البعير: إذا تطأطأ ليركب، وقيل: المراد به[٣] ما يصح به الظل صباحًا ومساءً فكل ذلك يخضع لله تعالى، ويدل على قدرته، عن أبي علي. «**بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ**» قيل: بالغداة والعشي، وهو ما بين العصر والمغرب، وقيل: الآصال بعد الزوال، عن أبي وائل.

۞ الأحكام

تدل الآية على أن العبادة يستحقها الله تعالى وأن ذلك واجب له دعوة الحق، وينفع ويضر، بخلاف الأوثان.

وتدل على كمال قدرته في خضوع أهل السموات والأرض له[٤].

وتدل على أن دعاء الكفار فعلهم فيبطل الجبر.

واتفق القراء والفقهاء أن هاهنا سجدة تلاوة.

---

(١) بسجوده: سجود، د.
(٢) قبال: قبل، د.
(٣) به: ـ ، د.
(٤) له: +، د.

قوله تعالى:

﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾﴾

القراءة

قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم: «**يستوي الظلمت والنور**» بالياء لأنها مقدمة على اسم الجمع، وقرأ الباقون بالتاء، واختاره أبو عبيد قال: لأنه لا[1] يحل بين اسم المؤنث، وبين الفعل حائل.

اللغة

التشابه: التشاكل بين الشيئين حتى يلتبس أحدهما بالآخر، وأصله من الشبه، والشبه بفتح الشين والباء وبكسر الشين وسكون الباء[2] والشبيه بزيادة الياء واحد.

والقهر: الغلبة، والقهار الغالب، وهو مبالغة في القدرة على الغلبة، ومعناه أنه القادر على أن يغلب كل شيء، ولا يغلبه غالب.

الإعراب

(من) استفهام والمراد به التقرير يعني الله رب السموات.

المعنى

لما بَيَّنَ تعالى في الآية الأولى أنه المستحق للعبادة وله[3] من في السموات والأرض عقبه بما يجرى مجرى الحجاج على الكفار، فقال سبحانه: «**قُلْ**» يا محمد

(١) لا: : لم، د.

(٢) وبكسر الشين وسكون الباء: ـ ، د.

(٣) وله: له، د.

لهؤلاء الكفار «**مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ**» أي: خالقهما ومدبرهما فإذا استعجم عليهم الجواب ولا يمكنهم أن يقولوا الأصنام فـ«**قُلِ**» أنت هو «**اللَّهُ**» فإن أقروا أنه الله فقل أنت كذلك، عن الحسن. وقيل: فإن لم يعترفوا وجحدوا فقل أنت هو الله، عن ابن عباس.

ومتى قيل: كيف يكون هو السائل والمجيب والملزم بقوله: «**قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ**»؟

قلنا: إذا كان المقصد[١] بالحجاج ما تبين[٢] من بعد لم[٣] يمتنع ذلك فكأنه قيل: الله هو[٤] الخالق فلماذا اتخذتم من دونه أولياء، ولأن الأمر الظاهر الذي لا يجيب الخصم إلا أنه لا يمتنع أن يبادر السائل إلى ذكره، ثم يورد الكلام عليه هربًا من التطويل، وتقريبًا لموضع الحجة، فصار في التقرير[٥] كأنه قيل: أليس الله رب السموات والأرض «**قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ**» وقد علمتم أنهم لم يخلقوا كخلقه، وقيل: إنه أمره بذلك لأنهم كانوا يعترفون به فكان المقصد[٦] ما يورد بعده من الحجاج كأنه قيل: أليس الله هو الخالق عندنا وعندكم قل أفاتخذتم من دونه أولياء، كأنه إذا قالوا الله قيل كما تقولون، ثم «**قُلْ**» إلزامًا إلى الحجة[٧] : «**أَفَاتَّخَذْتُمْ**» أي: كيف اتخذتم «**مِنْ دُونِهِ**» أي: من دون الله[٨] «**أَوْلِيَاءَ**» قيل: أربابًا، عن ابن عباس، يعني الأصنام اتخذوها آلهة وعبدوها، وقيل: يدعون أنها تضر وتنفع، وتكون وليًّا وناصرًا «**لا يَمْلِكُونَ لأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلا ضَرًّا**» يعني هذه الأصنام لا تملك لنفسها ضرًا ولا نفعًا ولو قصدت بالكسر لا تملك دفعًا فلأن لا تملك لغيرها[٩] أولى.

---

(١) المقصد: المقصود، د.
(٢) تبين: بين، د.
(٣) بعد لم: نقدم، د.
(٤) هو: ـ، د.
(٥) التقرير: التقدير، د.
(٦) المقصد: المقصود، د.
(٧) إلى الحجة: للحجة، ش.
(٨) أي من دون الله: ـ، د.
(٩) لغيرها: غيره، د.

ثم ضرب لهم[١] مثلاً تقريعًا لهم[٢] وتوبيخًا بعد إلزام الحجة، فقال سبحانه: «**قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ**» يعني كما لا يستوي الأعمى والبصير، كذلك لا يستوي المؤمن والكافر لعلم المؤمن، وحسن عاقبته، وجهل الكافر، وسوء عاقبته، ثم زاد في الإيضاح، فقال سبحانه: «**أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ**» أي: لا تستوي، فالظلمات الضلالة والجهل، والنور العلم والهدى «**أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ**» قيل: وصفوا الله بأن[٣] له شريكًا، وقيل: جعلوا له شريكًا في عبادته «**خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ**» يعني هذه الأصنام هل خلقوا شيئًا كما خلق الله تعالى ليشتبه الحال عليهم ما الذي خلق الله وما الذي خلق الأوثان، والمعنى: إذا كان الخلق كله لله تعالى دل أنه الإله الحي القادر العالم السميع البصير فلا تبقى شبهة أنه المستحق للعبادة دونها؛ لأنهم لم[٤] يخلقوا شيئًا، ولا ملكوا نفعًا ولا ضرًّا.

ثم أمر بعد ظهور الحجة، وزوال الشبهة بالاعتراف بالحق، فقال سبحانه: «**قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ**» يستحق به العبادة من أصول النعم وفروعها «**وَهُوَ الْوَاحِدُ**» قيل: الذي يستحق من الصفات ما لا يستحق غيره كونه قديمًا لذاته، قادرًا لذاته، عالمًا لذاته، حيًّا لذاته، سميعًا بصيرًا لذاته، غنيًا لا مثل له ولا شبيه، وقيل: الواحد الذي لا يتجزأ ولا يتبعض، وقيل: الواحد في الإلهية «**الْقَهَّارُ**»[٥] القادر على ما يشاء، الغالب لكل أحد، لا يمتنع عليه شيء.

۞ الأحكام

تدل الآية على أنه تعالى الخالق لما في السموات والأرض والمدبر[٦]، مالك النفع والضر، فيستحق العبادة دون غيره.

---

(١) لهم: ـ، د.
(٢) لهم: +، د.
(٣) بأن: أن، د.
(٤) لم: لا، د.
(٥) القهار: ـ، ش.
(٦) والمدبر: والذي هو، د.

وتدل على الحث على النظر بما ضرب من الأمثال، وعلى صحة الحجاج في الدين.

وتدل على أن غيره لا يخلق شيئًا يشبه خلقه[1] بخلق غيره.

وتدل على نفي ثان[2] له؛ إذ لو كان له شريكًا لكان خلقه كخلقه.

وتدل على أن قولنا: واحد، صفة مدح، فيقتضي أن المعنى الصحيح ما بدأنا به أولا[3] دون الثاني.

ومتى قيل: أليس تدل على خلق الأفعال من وجوه:

أحدها: أنه قال: ﴿خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ﴾ منكرًا لذلك، وعندكم الخلق تخلق كخلقه.

وثانيها: قوله: ﴿فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ﴾ وعندكم قد يشتبه ذلك.

وثالثها: قوله: ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ فأطلق، فعمومه يقتضي دخول أفعال العباد فيه.

فجوابنا: أن الآية وردت احتجاجًا على الكفار وردًا عليهم في اتخاذهم أربابًا، فوجب أن يكون معنى الآية ما يليق به ما لا[4] يدفعه، ويكون حجة عليهم[5]، وحمله على ما قال يؤدي إلى ذلك، كأنه يقول: لم اتخذتم من دون الله أربابًا والله تعالى خلق ذلك فيكم؟ ولو قال ذلك قالوا: كيف يفارقه، فيكون حجة عليه، وعلى ما نقوله كأنه قال لهم[6]: لم اتخذتم من دون الله ربًا وهو الخالق للسموات والأرض وجميع ما فيها من النعيم[7] والذي اتخذتم لا يملك نفعًا ولا ضرًا فيتم الحجاج، وأيضًا فإنه وصف الشركاء بذلك، والشركاء جماد، لا فعل لهم، فلا ذكر لأفعال العباد فيه،

(١) يشبه خلقه: يشتبه الخلق، د.
(٢) ثان: ثاني، د.
(٣) أولا: أولاو إله، د.
(٤) لا: + د، ش).
(٥) عليهم: عليه، د.
(٦) لهم: ـ ، ش.
(٧) النعيم: النعم، د.

فثبت أنه لا تعلق لهم بظاهر الآية، وأيضًا الآية وردت تمدحًا، ولا يجوز أن يتمدح بخلق[1] الظلم[2] والكفر وعبادة غيره.

فأما الجواب عن الأول مما تعلقوا به من وجوه:

أحدها: أنا لا نطلق أن غيره يخلق أصلاً فضلاً أن نقول: خلقهم كخلقه، ولكن نقول: يفعل ويحدث لأن الخلق عند بعض مشايخنا الْمُخْتَرَع، والعبد لا يقدر عليه، ومنهم من قال: هو يفعله بحسب ما يريده، لا يزيد ولا ينقص، وهذا في التحقيق لا يصح إلا في أفعاله تعالى.

وثانيها: لو قلنا: إن غيره يخلق لَمَا صح التشابه؛ لأن أحدنا يفعل بقدرة وآلة وأسباب[3]، ويقدر على بعض الأعراض كالحركات والسكنات والأصوات ونحوها، والله يخترع السموات والأرض وما فيهما وينشئ السحاب والمطر والنبات والأجسام والحيوانات والألوان والطعوم والروائح[4] والحياة والموت والقدرة وغيرها من الأجناس التي لا يقدر عليها غيره تعالى وكيف يشبه الخلق مع ظهور التمييز.

وثالثها: أنهم محجوجون بهذه الآية، لأنهم قالوا: كل حركة فعل الله تعالى[5] وفعل العبد كسب له، ولا يتميز، فحصل التشابه.

ورابعها: أن المقصد[6] بالآية الرد على عباد الأصنام، فلا مدخل لأفعال العباد فيه، وبهذا نجيب عن احتجاجهم بالوجه الثاني.

فأما الثالث: فلا بد للآية من تخصيص؛ لأن كثيرًا من الأشياء خارج عن الآية بالاتفاق، وإذا خص جاز لنا أن نخصها أيضًا، فنقول: المراد خالق كل شيء يستحق به العبادة؛ إذ[7] كلُّ نِعَمُهُ.

---

(١) بخلق: ـ ، د.
(٢) الظلم: بالظلم، د.
(٣) وأسباب: ـ ، ش.
(٤) والروائح: والأرائح، د.
(٥) تعالى: ـ ، د.
(٦) المقصد: المقصود، د.
(٧) إذ: أو، د.

قوله تعالى:

﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًاۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءًۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾﴾

القراءة

قرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم: «**يوقدون**» بالياء، واختاره أبو عبيد لقوله: «**ينفع الناس**»، قال: ولا مخاطبة هاهنا، وقرأ الباقون بالتاء على الخطاب.

وقراءة القراء(١) : «**بَقدرها**» بفتح الدال، وعن الحسن «**بقدرها**» مخففة.

اللغة

السيل: مصدر سال الماء وغيره يسيل سيلاً، والسيل: الماء أيضًا سمي لسيلانه وجريه من مواضع مرتفعة.

والوادي: سفح الجبل العظيم المنخفض(٢) الذي يجتمع فيه المطر، ويقال: واد(٣) وأودية على غير قياس، وقد جمع أوداه، قال جرير:

عَـرَفْـتُ بِـبُـرْقَـةِ الأوداهِ رَسْـمًـا ... مُـحِـيـلاً طـافَ عَـهْـدُكَ مِـنْ رُسُـومِ

ويقال: ودى الوادي يَدِي إذا سال، ومنه: أخذت الدية؛ لأنه جمع المال العظيم الذي يودى عن القتيل، ويقال: وداه يديه إذا أعطى ديته.

(١) القراء: الفراء، ض؛ العامة، د.
(٢) المنخفض: المنخفظ، د.
(٣) واد: واود، ض.

والزبد: زبد القدر، وزبد البحر، وزبد السيل، وهو الخبث الذي يعلوه عند الغليان.

والربا: أصله الزيادة، ومنه الربا في البيع، والرابي الزائد، ربا يربو ربوًا فهو رابٍ.

والجفاء: ما جفاه السيل في مجراه، يقال: جفي الوادي وأجفاه[1] إذا ألقى غثاءه، وأجفأت القدر: ألقت زبدها، وأجفأت البلاد: إذا ذهب خيرها، قال القتيبي: الجفاء ما رماه الوادي إلى جنباته، قال ابن الأنباري: يقال: جفأت الريح السحابَ: فرقته، والجفاء مشتق من الجفاء، وهو ما نفاه السيل.

والإيقاد: هو إلقاء الحطب في النار، أوقد[2] إيقادًا.

والحلية: الزينة والمتاع، كل شيء من شأنه أن يتمتع به.

والافتداء: جعل أحد الشيئين بدلاً من الآخر.

۞ الإعراب

﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ﴾ كلام مستأنف، عن أبي القاسم، ومحله رفع بالابتداء.

و﴿ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ خبره، وتقديره: له الخصلة الحسنى أو الحالة الحسنى[3].

و«متاع» عطف على «حلية» فلذلك كسرها تقديره: أو ابتغاء[4] متاع.

﴿زَبَدٞ مِّثۡلُهُۥۚ﴾ رفع على الخبر والابتداء، ﴿فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ﴾ أي: يذهب على هذه الحالة، فيكون نصبًا على الحال، قال الشاعر:

إذا أكلت سمكًا وفرضا[5] ذهبت طولاً وذهبت عرضا

(١) وأجفاه: وأجفى، د.
(٢) أوقد: وقد، د.
(٣) أو الحالة الحسني: +، د.
(٤) ابتغاء: اتباع، د.
(٥) وفرضا: وقرضا، د.

أي: ذهبت على هذه الحالة، والفرض[1] نوع من التمر.

المعنى

ثم ضرب سبحانه مثلين للحق والباطل، أحدهما: الماء وهو ما يعلوه من الزبد على ما رتبه، فقال سبحانه وتعالى: «**أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً**» يعني المطر «**فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ**» أي: جرت من ذلك الماء «**أودية**» يعني الماء في الأودية «**بِقَدَرِهَا**» قيل: بقدر الأودية في الصغر والكبر، عن الحسن، وقتادة، والأصم، وأبي علي. وقيل: بقدر من ملأها[2]، عن مجاهد، والزجاج. «**فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ**» يعني الماء الذي يسيل في الوادي «**زَبَدًا**» وهو الخبث الذي يعلوه «**رَابِيًا**» أي: زائدًا عاليًا عليه مرتفعًا فوق الماء، فشبه الحق والإسلام بالماء النافع للخلق الباقي، والباطل بالزبد الذاهب باطلاً، وقيل: إنه مثل القرآن ينزل من السماء، فتحتمل القلوب حظها على قدر اليقين والشك، فالماء مثل لليقين، والزبد للشك، عن ابن عباس. وقيل: هو مثل لأعمال المؤمنين والكافرين، ثم ذكر المثل الآخر، فقال سبحانه: «**وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ**» وهو الذهب والفضة والرصاص وغيره مما يذاب «**ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ**» أي طلب زينة كالذهب والفضة تتخذ منها «**أَوْ مَتَاعٍ**» أي طلب متاع ينتفع بها وهو جواهر الأرض كالحديد والصفر والنحاس والرصاص تتخذ[3] منها الأواني ينتفع بها «**زَبَدٌ مِثْلُهُ**» أي: مما يوقدون عليه النار زبد مثل زبد السيل، فمثل الحق والقرآن كمثل الصافي من هذه الجواهر يثبت وينتفع به صاحبه في الدارين، ومثل الباطل مثل الزبد الذي لا يبقى ولا ينتفع به «**كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ**» أي: مثل الحق والباطل «**فَأَمَّا الزَّبَدُ**» الذي على السيل والجواهر «**فَيَذْهَبُ جُفَاءً**» باطلاً متفرقًا بحيث لا ينتفع به، وقيل: يلقيه إلى الجوانب، فيذهب باطلاً، وقيل: تنشفه الأرض «**وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ**» وهو المال الصافي والأعيان المنتفع بها «**فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ**» فينتفع به الناس، كذلك الحق

---

(١) والقرض: القرض، د.

(٢) ملأها: ملؤها؛ د، ش، ض.

(٣) تتخذ: يتخذ، د.

يثبت[١]، فينتفع به صاحبه والباطل يذهب باطلاً" **«كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ»** أي: يبين الحق والباطل ويؤكدها بضرب الأمثال حتى لا تبقى شبهة **«لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا»** قيل: تم الكلام عند قوله: **«الأمثال»** واستأنف الكلام بقوله: **«لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا»** عن أبي القاسم، والحسن، والأصم. وقيل: بل يتصل بما قبله لأنه قال: الذي يبقى هو مثل المستجيب، والذي يذهب جفاء مثل من لا يستجيب، ثم بَيَّنَ الوجه في كل واحد منهما، عن القاضي. وقوله: **«لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا»** أي: أجابوا دعوة الله، وآمنوا به وأطاعوه **«الْحُسْنَى»** قيل: الجنة، عن الحسن، والأصم، وأبي علي. وقيل: الخصلة الحسنى أو الحالة الحسنة[٢]، وهي صفة الثواب والجنة، عن أبي مسلم. **«وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ»** لله فلم يؤمنوا به **«لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لافْتَدَوْا بِهِ»** أي جعلوا ذلك بدل أنفسهم فِدًى[٣] من العذاب، ولا يقبل ذلك عنهم **«أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ»** قيل: هو مؤاخذة العبد[٤] بالذنوب كلها صغيرها وكبيرها لا يغفر له شيء، عن إبراهيم. وهذا لأن الكافر لا صغير في ذنبه، فكل ذنوبه كبائر، وإنما يطلق اسم الصغير بالإضافة إلى غيره، وقيل: سوء الحساب، أخذه به[٥] على التوبيخ والتقريع، عن أبي علي. وقيل: سوء الحساب المناقشة فيه لأنه يسؤوهم، وقيل: سوء الجزاء[٦] فسمى الحساب جزاء، وقيل: لا يقبل لهم طاعة ولا يغفر لهم معصية **«وَمَأْوَاهُمْ»** أي: مصيرهم **«جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ»** أي: الفراش والمصير، وقيل: بئس ما مهدوا لأنفسهم مصيرهم في الآخرة، وسمي المهاد[٧] مهادًا لأنه موضع المهاد لهم **«أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى»** هذا استفهام والمراد

(١) فينتفع به الناس كذلك الحق يثبت: ـ، ش.
(٢) أو الحالة الحسنة: +، د.
(٣) فدى: بدل، ض.
(٤) العبد: القتل، د.
(٥) أخذه به: وحده به، ش.
(٦) الجزاء: الحساب، ش.
(٧) المهاد: النار؛ د.

الإنكار، أي: لا يستوي من يعلم الحق كمن لا يعلم وهو بمنزلة الأعمى، قيل: القرآن والدين، وقيل: لا يستويان في الثواب «**إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الأَلْبَابِ**» يعني يتعظ ويتدبر «**أُولُو الأَلْبَابِ**»[1] أي: ذوو العقول إذا تدبروا بعقولهم.

۞ الأحكام

في الآية تنبيه للمكلف على التفكر في الأدلة والأمثال، وحث على طلب العلم ومجانبة الجهل، وإتيان[2] الحق، واجتناب الباطل، وأن من آثر الحق فمثله كالماء الصافي، والمتمسك بالباطل مثله كالزبد لا ينتفع به.

قال القاضي: وإذا تأمل المتأمل ما في هذه الآيات من ضروب الفوائد وإيجاز اللفظ، علم أن ذلك مما لا يحتمله إلا كلام هو معجز، وليس من كلام البشر.

قوله تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾﴾

۞ القراءة

قرأ ابن كثير وأبو عمرو: «**يُدخَلونها**» بضم الياء وفتح الخاء، على ما لم يسم فاعله، وقرأ الباقون بفتح الياء وضم الخاء، على إسناد الدخول إليهم.

۞ اللغة

الوصل: ضم الشيء إلى الشيء، من غير فرجة، ونقيضه: الفصل، وهو أن يكون بينهما فرجة، وَصَلَهُ يَصِلُهُ وصلاً، وأوصله إيصالاً، واتصل اتصالاً.

---

(١) يعني يتعظ ويتدبر أولو الألباب: ـ، د.

(٢) وإتيان: وإيثار، د.

والدرء: الدفع، درأته أدرأه درءًا، ومنه: ﴿وَيَدۡرَؤُاْ عَنۡهَا ٱلۡعَذَابَ﴾ [النور: ٨]، أي: يدفع، ويقال: درأته بالهمز: إذا دفعته، وداريته: ختلته ولاَيَنْتُهُ، وسوَّى أبو عبيدة بينهما في باب ما يهمز، وما لا يهمز.

والعدانة[١] : الإقامة، عدن بالمكان: أقام به، يعدن عدنا، ومنه المعادن التي يخرج منها الذهب والفضة.

والعقبى[٢] فُعلى: من العاقبة[٣]، وهو الانتهاء الذي يؤدي إليه الابتداء[٤] من خير أو شر.

الإعراب

«الذين» محله رفع؛ لأنه صفة (أولي الألباب).

ويقال: بم يتعلق الباء في **«بما صبرتم»**؟

قلنا: فيه قولان:

الأول: بمعنى السلامة لكم بما صبرتم، ودل عليه قوله: **«سَلامٌ عَلَيْكُمْ»**.

الثاني: أن يتعلق بمحذوف على تقدير: هذه الكرامة لكم بما صبرتم.

ويقال: ما معنى (ما) في قوله: **«بما صبرتم»**؟

قلنا: فيه وجهان:

أحدهما: المصدر كأنه قيل: بصبركم.

الثاني: بمعنى (الذي)، كأنه قيل: بالذي صبرتم.

«ابتغاء» نصب على الحال و**«جنات»** رفع بدل من **«عقبى»**؟

(١) والعدانة: والعدن، د.
(٢) والعقبى: عقبى، د.
(٣) العاقبة: المفاعلة، د.
(٤) الابتداء: الانتهاء، ش.

۞ النظم[1]

ومتى قيل: بأي موضع يتصل قوله: «الَّذِينَ يُوفُونَ»؟

فجوابنا: قيل: بقوله: ﴿أُوْلُوا الْأَلْبَابِ﴾ فوصفهم بهذه الصفات، عن الأصم، وابن جرير. وقيل: بقوله: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ﴾، عن أبي علي. قال القاضي: وكلا القولين متقارب، وإن كان الثاني أقرب وأقوى؛ لأن من يعلم هو الذي يصح منه ما ذكره من الخصال.

۞ المعنى

«الَّذِينَ يُوفُونَ» أي: يؤدون على التمام «بِعَهْدِ اللَّهِ» قيل: عهده أوامره ونواهيه، وقيل: عهده كلما يلزم العبد عقلاً وسمعًا، والعقليات: كالتوحيد، والعدل، وما شاكله من الواجبات، والشرعيات: كأوامر الشرع ونواهيه «وَلا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ» أي: لا يبدلون ولا يرجعون، والميثاق ما وثقه المكلف على نفسه مما لزمه، والميثاق العقد الموثق[2]، وقيل: ميثاق الرسول، وهو ما حلفوا له، عن أبي علي[3].

ومتى قيل: إذا دخل جميع[4] الأوامر والنواهي في العهد، فما معنى ذكر ما بعده؟

فجوابنا عنه جوابان:

أحدهما: ذكر ذلك لئلا يظن ظان[5] أن[6] ذلك فيما بينه وبين ربه، فذكر ما بينه وبين العباد.

وثانيها: أنه تأكيد.

---

(١) النظم: ـ، د.
(٢) الموثق: المؤكد، د.
(٣) أبي علي: أبي مسلم، د.
(٤) جميع: ـ، د.
(٥) ظان: +، د.
(٦) أن: وأن، د.

«**وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ**» قيل: المراد به الإيمان بجميع الكتب والرسل حتى لا يفرق بينهما، وقيل: صلة محمد، ومؤازرته، ونصرته، والجهاد معه، عن الحسن. وقيل: صلة الأرحام، عن ابن عباس، والأصم. وقيل: بل هو ما يلزم من صلة المؤمنين، والتولي[1] والحفظ، والذب عنه في باب الدين، فيدخل فيه صلة الرحم وغيره، عن أبي علي، وأبي مسلم. قال القاضي: وهو الوجه لعموم الكلام ما أمر الآمر قبل إيجاب الفعل[2] بطريقة «إِفْعَلْ»، عن أكثر الفقهاء. وقيل: الأمر على الوجوب، وقيل: الأمر هو الترغيب في الفعل بطريقة «إِفْعَلْ» وهو على الندب عند الإطلاق، عن أبي علي، وأبي هاشم. وقيل: هو قول القائل لمن دونه: افعل، إذا أراد المأمور به، عن القاضي. «**وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ**» أي: عقابه «**وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ**» قيل: مناقشته، وقيل: سوء الحساب ألا يقبل لهم طاعة، ولا يغفر لهم سيئة، وقد بَيَّنَّا من قبل ما قيل فيه «**وَالَّذِينَ صَبَرُوا**» الصبر: حبس النفس عن الشيء على وجه يشق، فمعناه صبروا على طاعة غير[3] الله وعن معصيته، عن ابن[4] زيد. وقيل: صبروا على المصائب والنوائب، وقيل: صبروا في جهاد الأعداء، وقيل: صبروا على دينهم «**ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ**[5]» أي: طلب رضاه وثوابه، وذكر الوجه عبارة عن إخلاصه في ذلك وترك الرياء، وقيل: طلب تنزيهه عن معصيته ومخالفة أمره «**وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ**» أدوها على ما فرض عليهم «**وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً**» قيل: أراد الزكاة المفروضة، عن الحسن وجماعة، ثم اختلفوا، فمنهم مِن قال: الإخفاء أولى لأنه أبعد من الرياء، ومنهم من قال: الإظهار أولى لأنه أبعد من التهمة وأدعى لغيره من الاقتداء به، وقيل: بل هي الزكاة وما يتطوع به، فقوله[6]: «**سرًّا**» يرجع إلى التطوع «**وعلانية**» يرجع إلى الزكاة الواجبة، عن الأصم. وقيل: الزكاة والحقوق الواجبة، عن أبي علي.

---

(١) والتولي: وبالتولي، د.
(٢) إيجاب الفعل: الإيجاب للفعل، د.
(٣) غير: +، د.
(٤) ابن: +، د.
(٥) ربهم: الله، د، ش، ض.
(٦) فقوله: لقوله، د.

وقيل: السر ما يؤديه بنفسه، والعلانية ما يؤدي به إلى الإمام «وَيَدْرَأُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ» قيل: يدفعون المعصية[١] بالتوبة إذا أذنبوا، عن الأصم، وأبي مسلم. والمراد دفع عقابه لأن السيئة وقعت، عن القاضي. وقيل: يدفعون ما نالهم من الشر، أو نال غيرهم بالموعظة الحسنة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، عن أبي علي. وقيل: يدرؤون بحسنتهم سيئة غيرهم، عن ابن عباس وجماعة، ثم اختلفوا، فمنهم من قال: يحلمون إذا أخبروا عن الغير بغيبة وسعاية، ومنهم من قال: إذا ظلموا غفروا[٢] ولا يكافئون الشر بالشر، عن قتادة، وابن زيد، والقتيبي. قال الحسن: إذا أحرموا أعطوا، وإذا ظلموا عفوا، وإذا قطعوا وصلوا «أُولَئِكَ» يعني من كان بهذه الصفة[٣] «لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ» يعني ثواب الجنة، فالدار الجنة عقباها التي هي العاقبة المحمودة، عن ابن عباس، والحسن، وأبي علي[٤]. وقيل: أعقبهم بطاعتهم الدار التي يقيمون فيها، عن الأصم. وقيل: لهم العاقبة الحسنة، عن أبي مسلم.

ثم وصف الدار، فقال سبحانه: «جَنَّاتُ» أي: بساتين «عَدْنٍ» أي[٥]: إقامة تدوم، ولا تفنى، عن أبي علي. وقيل: هو الدرجة العليا، وسكانها الشهداء والصديقون، عن ابن عباس. وقيل: جنات عدن مدينة الجنة، فيها الأنبياء والأئمة[٦] والشهداء، عن الضحاك. وقيل: قصر من ذهب، لا يدخله إلا نبي أو صديق أو شهيد أو حكم[٧] عدل، عن عبد الله بن عمر، والحسن.

ثم بَيَّنَ ما يتكامل به سرورهم من اجتماع قومه معه، فقال سبحانه: «يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ» أي: من كان صالحًا في الدين «وَأَزْوَاجِهِمْ» ولم يفصل بين زوج وزوجة، والأقرب أن المراد من مات عنها، أو ماتت عنه «وَذُرِّيَّاتِهِمْ» يعني أولادهم

---

(١) المعصية: بالمصيبة، د.
(٢) غفروا: يغفروا، د.
(٣) الصفة: الصفات.، د.
(٤) الحسن وأبي علي: الحسن بن علي، د.
(٥) أي: +، د.
(٦) والأئمة: الأئمة، د.
(٧) حكم: حاكم، د.

على اختلاف درجاتهم «وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِنْ كُلِّ بَابٍ» قيل: من أبواب الجنة، عن ابن عباس، والحسن، والأصم، وأبي علي وجماعة. وعن النبي ﷺ: «أبواب الجنة ثمانية»، وقيل: من كل باب من أبواب الكرامة كباب[1] الصلاة، وباب الزكاة، وباب الصوم والصبر، وقيل: من كل باب من أبواب الكرامة لهم «سَلَامٌ عَلَيْكُمْ» أي: ويقولون سلام عليكم بشارة منهم للمؤمنين بالسلامة والكرامة، ثم اختلفوا، فقيل: السلامة منهم، وقيل: من الله سبحانه يبلغونه «بِمَا صَبَرْتُمْ» أي: هذه المنزلة والكرامة جزاء على ما صبرتم على التكليف وطاعة الله سبحانه «فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ» أي: نعم ما أعقبكم الله بعد الدار الأولى، وقيل: نعم العاقبة في هذه الدار لكم، وهي الجنة، قال مقاتل: يدخلون في مقدار يوم وليلة من أيام الدنيا ثلاث مرات، معهم الهدايا والتحف يقولون: سلام عليكم بما صبرتم.

۞ الأحكام

تدل الآية على أن الجنة لا تنال إلا باستكمال هذه الخصال، فيبطل قول المرجئة.

وسئل بعض الأئمة عن صفة المؤمنين، فتلا هذه الآية؛ لأنها جامعة لخصال الإيمان.

وتدل على عظيم منزلة أهل الجنة، وأن الملائكة تزورهم.

وتدل على أن الذي ينفع من الاتصال وصله أهل الدين دون الأرحام[2].

وتدل على تكامل نعم أهل الجنة فإن في الآية ثلاثة أشياء للمؤمنين:

منها: الجنة ونعيمها، وبلوغ كل منية فيها.

ومنها: اجتماع أهله معه، وذلك من عظيم النعم أن يجتمعوا، ويتذكروا أحوال الدنيا، ويشكروا الله ويحمدوه[3] على ما مَنَّ عليهم.

ومنها: إكرام الملائكة إياهم بالسلام وغيره.

---

(١) كباب: باب، د.
(٢) الأرحام: الأرجاج.، د.
(٣) ويحمدوه: ويحمدونه، د.

قوله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ اللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ۙ أُولَٰٓئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ الدَّارِ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ وَفَرِحُوا۟ بِالْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا فِي الْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾﴾

۞ اللغة

النقض: التفريق الذي ينفي تأليف البناء، ونظيره: الهدم، ونقض العهد العمل، بخلاف موجبه. والفرح والسرور نظائر. والمتاع: ما يستمتع به.

۞ النزول

قيل: نزلت الآية في الحرورية.

وقيل: نزلت في كفار مكة أشروا وبطروا[1]، فنزلت فيهم: «**وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا**».

۞ المعنى

لما تقدم ذكر حال الفريقين في الآخرة وما تستحق كل فرقة عَقَّبَهُ بذكر من يستحق[2] العقاب تأكيدًا، ثم بَيَّنَ أن حالهم في الدنيا بخلاف حالهم في الآخرة في نعيم الدنيا؛ لأنه بحسب المصلحة لا بالاستحقاق، فقال تعالى[3] : «**وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ**» قيل: عهد الله أوامره وما ألزم العبد كالتكليف، ونقضه ألا يتفكروا فيه ولا يعملوا[4] به، وقيل: نقضه كفرهم، عن الأصم. «**مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ**» قيل: من بعد ما أحكمه الله عليه بما دل على وجوبه، وقيل: من بعد ما أحكموه على أنفسهم بالعهد

(١) وبطروا: وأبطروا.، د.

(٢) يستحق: استحق، د، ش.

(٣) تعالى: سبحانه، د.

(٤) ولا يعملوا: ولايعمل، د.

مع الرسول، وقيل: هم الخوارج، عن مصعب بن سعيد[1] سألت[2] أبي عن الحرورية فقال: هم الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه. . . إلى آخر الآية **«وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ»** قيل: قطعوا الرحم، وقد أمروا بصلته، عن ابن عباس، والأصم. وقيل: قطعوا النبي ﷺ وقد أمروا بصلته ونصرته، عن الحسن. وقيل: هو العمل بأوامر الله، وقيل: هو مواصلة المؤمنين **«وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ»** قيل: الدعاء إلى غير الله، عن ابن عباس. وقيل: لقتال الرسول والمؤمنين، عن الحسن. وقيل: بظلمهم[3] للناس والقتل بغير حق، عن أبي علي. وقيل: بفعلهم المعاصي **«أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ»** البعد من رحمة الله **«وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ»** يعني جهنم والنار لأنه يسؤهم **«اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ»** أي: يوسع له إذا كانت مصلحته في التوسعة **«وَيَقْدِرُ»** أي[4] : يضيق عليه إذا كانت المصلحة[5] في التضييق، وقيل: يقدر[6] بحسب الحاجة، وقيل: بحسب المصلحة **«وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا»** قيل: فرحوا بما أوتوا من الرزق وحطام الدنيا ونسوا فناءها وبقاء الآخرة، وقيل: فرحوا في غير موضع الفرح؛ لأن الدنيا ليس بموضع للفرح لسرعة فنائها **«وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي»** جنب **«الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ»** أي: قليل ذاهب، عن مجاهد. وقيل: زائل، عن الحسن. وعن[7] ابن مسعود **«إلا متاع»** كزاد الراعي يزوده أهله الكف من التمر أو السويق أو الدقيق[8].

۞ الأحكام

تدل الآية على أن من كان بهذه الصفة يستحق اللعن والعقاب، خلاف قول المرجئة.

---

(١) سعيد: سعد، ش.
(٢) سألت: +، ش.
(٣) بظلمهم: لظلمهم.، ض.
(٤) أي: أن، د.
(٥) المصلحة: مصلحته.، د.
(٦) يقدر: +، د، ش.
(٧) عن: ـ ، د.
(٨) أو السويق أو الدقيق: والسويق والدقيق، ش، ض.

وتدل على أنه تعالى[1] يبسط الرزق، ويضيق بحسب المصلحة.

وروي عن النبي ﷺ «أن الله تعالى يقول: إن من عبادي من لا يصلح له إلا الفقر ولو أغنيته لأفسده ذلك، ومنهم من لا يصلح له إلا الصحة ولو أمرضته لأفسده ذلك»، فبين أنه تعالى يدبرهم بحسب المصلحة.

وتدل على أنه لا ينبغي للإنسان أن يغتر بالدنيا، وينسى الآخرة.

وتدل على أن هذه الخصال فعل العبد، فيبطل قول المجبرة.

وتدل على قبح هذه الخصال.

وتدل على قبح الفرح بالدنيا على سبيل الافتخار[2]، والاقتصار عليه.

قوله تعالى:

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾﴾

القراءة

قال أبو القاسم رحمه الله: (حسن مآب) منهم من قرأ برفع النون على أنه عطف على قوله: «طوبى لهم»، وهو خبر الابتداء أي: ولهم حسن مآب، وعن بعضهم بالنصب على تقدير: ثوابًا لهم طيبًا وحسن مآب[3].

اللغة

الإنابة: الرجوع عن قولهم، ناب ينوب نوبة إذا رجع مرة، فالإنابة الرجوع إلى الحق بالتوبة، وأناب[4] فلان القوم: أتاهم مرة بعد مرة.

---

(١) أنه تعالى: أنه الله.، د.

(٢) الافتخار: ـ ، د.

(٣) وعن بعضهم بالنصب.... وحسن مآب: ـ ، د.

(٤) وأناب: وإنبات، د؛ وانتاب، ش.

وطوبى فعلى[(١)] من الطيب، فيقال في المبالغة إذا كان مذكرًا: أطيب، والمؤنث[(٢)] طُوبَى، كما يقال: أفضل وفضلى، قال أبو عبيدة: طوبى فعلى من كل شيء[(٣)] طيب.

والمآب: المرجع، آب يؤوب أوبًا ومآبًا: إذا رجع، وسمي المثوى في الآخرة مآبًا ومنقلبًا لأن العباد يصيرون إليه.

الإعراب

«**من أناب**» في محل النصب بـ «**يَهدِي**»، و«**الذين آمنوا**» في محل نصب[(٤)] من قوله: «**من أناب**».

وقوله ثانيًا: «**الذين آمنوا**» بدلاً من الأول، وقيل: محله رفع بالابتداء، وخبره قوله: «**طوبى لهم**». وقيل: «**طوبى**» وما بعده من جملة الكلام خبر الابتداء الأول، «**لولا**» هلا، و«**ألا**» تنبيه.

النزول

قيل: لما أتى رسول الله ﷺ[(٥)] قومه بالرسالة، ودعا إلى الإسلام ورفض الأوثان فقالوا: لا نعرف ما تقول فأتنا بآية فنصدقك كآيات الرسل، فنزلت الآية، عن ابن عباس.

وقيل: نزلت في مشركي العرب، عن الأصم.

وقيل: في عبد الله بن أمية وأصحابه من أهل مكة.

---

(١) فعلى: فاعل، د.
(٢) والمؤنث: وللمؤنث، د.
(٣) شيء: ـ ، د.
(٤) نصب: النصب؛ د، ش.
(٥) صلى الله عليه وآله: +، د.

۞ النظم

لما ذكر تعالى حال الكفار وسوء عواقبهم عقبه بذكر ما اقترحوا من الآيات، وترك تفكرهم في الآيات المنزلة فقال سبحانه: «**ويقول**»[(١)].

ومتى قيل: كيف يتصل قوله: «**إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ**» بما قبله؟

فجوابنا: أنهم استعجلوا العذاب، وبَيَّنَ أنه يضل من يشاء، أي يهلك من يشاء معجلاً، ويؤخر من يشاء، عن أبي مسلم. والمراد بقوله: «**آية**» آيات العذاب، قال القاضي: وإنما يرسل الآيات، وينزل النقمات بحسب المصلحة[(٢)].

وقيل: لما اقترحوا الآيات بين أنهم لا يجابون إلى ذلك؛ لأن في المعلوم أنهم لا يؤمنون، وأنه يهلكهم.

وقيل: اقترحوا آيات مخصوصة نحو أن يجعل الصفا ذهبًا ويُحْيي موتاهم، فبَيَّنَ أنه ينزل بحسب المصلحة، ويمتحن بها، فيعذب من يشاء إذا جحدها، ويهدي من يشاء بقبولها.

۞ المعنى

«**وَيَقُولُ**[(٣)]» يعني: الكفار قالوا «**لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ**» على محمد ﷺ «**آيَةٌ**» قيل: آيات العذاب والهلاك، عن أبي مسلم، معجزات مخصوصة سوى القرآن مما اقترحوها، قال القاضي: وهو الأقرب. وقيل: طلبوا آيات للاضطرار[(٤)]، فبيّن بقوله: «**يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ**» أن الزمان زمان تكليف فلا مصلحة في إجابتهم، عن أبي القاسم. وقيل: طلبوا الآيات على وجه الرد والتكذيب فلذلك لم يجبهم «**قُلْ**» يا محمد «**إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي**» من يشاء، ذكر أبو القاسم فيها وجوهًا:

منها: أن المراد بها الحكم والتسمية.

---

(١) ويقول: ويقولون، ض.
(٢) المصلحة: المصالح، د، ش.
(٣) ويقول: ويقولون، ض.
(٤) للاضطرار: الاضطرار، د.

ومنها: المراد به زيادة الألطاف للمؤمنين ومنعها من الكافرين، ومثله بقوله لصاحبه: أفسدت سيفك؛ أي: لم تتعهده حتى فسد، وإن لم يرد فساده.

ومنها: أنه أراد يهلك بالعذاب من يشاء، وينجي من يشاء، وهو اختيار أبي مسلم، والقاضي.

وقيل: يضل عن ثوابه ورحمته عقوبة لهم على كفرهم، ويهدي إلى ثوابه من أناب، عن أبي علي.

«مَنْ أَنَابَ» أي: رجع إلى الله تعالى، وتاب.

ثم وصف من أناب، فقال سبحانه: «الَّذِينَ آمَنُوا» صدقوا الله ورسوله «وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ» يعني تسكن قلوبهم إلى القرآن إذا تدبروا فيه وعلموه معجزًا دالاً على الأحكام وعلى النبوة وأنه كلام رب العزة، وقيل: تطمئن قلوبهم عند وعده ووعيده، وقيل: الذكر هو ذكر الله تعالى وتوحيده، وقيل: هو الحلف بالله تعالى[1] من حلف به تعالى تسكن قلوب[2] المؤمنين، وقيل: تسكن قلوبهم، فلا تضرهم[3] الخواطر والوساوس، عن أبي القاسم، وهو الأصح لأنه يدخل فيه القرآن وجميع أمور الدين، ونفي التشبيه والشك عن قلوب المؤمنين لما علموه استدلالاً دون التقليد.

ومتى قيل: كيف يصح الجمع بين هذه الآية وبين قوله: ﴿وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢]؟

قلنا: للعلماء فيه وجوه:

منها: تسكن قلوبهم[4] إلى صحة الدين والقرآن، والوعد والوعيد، والبعث والجزاء، فعند ذلك خافوا العاقبة، وكلما كان علمهم أقوى كان خوفهم أشد، عن القاضي.

ومنها: أن قلوبهم تطمئن بآيات الوعد إذا قوي أملهم في الثواب لتمسكهم بالطاعة، وتوجل قلوبهم إذا خافوا العقاب إشفاقًا وحذرًا من تقصير أو معصية، عن أبي علي.

---

(١) تعالى: +، د.

(٢) قلوب: قلب، د.

(٣) فلا تضرهم: فلا تضر، ش.

(٤) قلوبهم: قلبهم، د.

ومنها: أن السكون في الدين والخوف[١] في العقاب فهما أمران مفترقان.

«**أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ**» يعني أن الواجب أن يطمئن قلب العبد بذكر الله، وقيل: قلوب محمد وأصحابه، عن مجاهد، وابن عيينة. وقيل: هو عام في المؤمنين، عن أكثر المفسرين. «**الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**» يعني ما أمروا به من الطاعات «**طُوبَى لَهُمْ**» قيل: فرح وقرة عين، عن ابن عباس. وقيل: نعم ما لهم[٢]، عن عكرمة. وقيل: غبطة لهم، عن ابن عباس، والضحاك. وقيل: طوبى مدينة في الجنة، عن الضحاك. وقيل: حسنى لهم، عن قتادة. وقيل: خير وكرامة لهم، عن إبراهيم، والأصم. وقيل: الجنة لهم، عن مجاهد. وقيل: شجرة في الجنة، عن أبي عبيدة، وعمير[٣]، ووهب، وشهر بن حوشب، ورواه أبو سعيد الخدري مرفوعًا. وقيل: أصلها في دار النبي صلى الله عليه وفي كل دار مؤمن منها غصن، حكاه الأصم وغيره. وقيل: هنيئًا بطيب العيش لهم، وقيل: أطيب الأشياء لهم وهو الجنة، عن أبي علي. وقيل: العيش الطيب لهم، عن الزجاج، هذه أقوال المفسرين الذين قالوا إنها بلغة العرب، وروى[٤] بعضهم خلافه[٥]، فقيل: طوبى: الجنة بالحبشية[٦]، وقيل: اسم للجنة بالهندية[٧]، وقيل: هو البستان بالهندية، عن الربيع، وهذا لا يصح؛ لأنه ليس في القرآن إلا العربي فوجب أن يحمل إن صح على موافقة اللغتين أخذته[٨] وعربته، ومما يبين ما قلنا أنهم بينوا[٩] اشتقاق الحرف وأصله. «**وَحُسْنُ مَآبٍ**» الجنة[١٠] أي[١١]: حسن مرجع.

---

(١) والخوف: والجور.، د.

(٢) ما لهم: نالهم، د، ش، ض، والتصحيح من تفسير التبيان ٦/ ٢٥٠، وفتح القدير ٣/ ١١٧، ومعاني القرآن ٣/ ٤٩٣، ومختصر تفسير ابن كثير ٢/ ٤٠٠ بلفظ: قال عكرمة: (نعم ما لهم).

(٣) وعمير: ـ، د.

(٤) وروى: وروى من، ش.

(٥) خلافه: عن خلافه، د، ض.

(٦) بالحبشية: بالحبشة، د.

(٧) بالهندية: بالهند، د، ض.

(٨) أخذته: أخذًا به، ض.

(٩) بينوا: ثلثوا؛ ض.

(١٠) الجنة: ـ، د.

(١١) أي: +، د.

۞ الأحكام

تدل الآية على أن الهداية إلى الجنة لا تحصل إلى بالتوبة والإنابة.

وتدل على أن الواجب سكون النفس في الدين وإزالة الشبهات.

وتدل على أن الجنة لا تنال إلا بالإيمان والعمل الصالح، خلاف ما تقوله المرجئة.

وتدل على أن الإيمان والعمل حادث من جهتهم، فيبطل قول المجبرة.

قوله تعالى:

﴿كَذَٰلِكَ أَرۡسَلۡنَٰكَ فِيٓ أُمَّةٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهَآ أُمَمٞ لِّتَتۡلُوَاْ عَلَيۡهِمُ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَهُمۡ يَكۡفُرُونَ بِٱلرَّحۡمَٰنِۚ قُلۡ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ مَتَابِ ٣٠﴾

۞ اللغة

المتاب: التوبة، تاب يتوب توبًا ومتابًا، نحو قال يقول قولاً ومقالاً، والتوب والتوبة واحد إلا أن التوبة للدفعة الواحدة، كما يقال: قمت قومة، وقلت قولة، والتوبة: الندم على ما فات والعزم على ألا يعود إلى مثله.

۞ الإعراب

الكاف في قوله: «**كذلك**» كاف التشبيه، وقيل: وجه التشبيه: أرسلناك كما أرسلنا قبلك، عن الحسن، وأبي علي، وأبي مسلم. وقيل: التعبير على هؤلاء كالتعبير على أولئك المؤمنين بالثواب، وقيل: كما أرسلنا إلى أمم وأعطيناهم كتبًا تتلو عليهم كذلك أعطيناك، وأنت تتلو عليهم، فلماذا اقترحوا غيرها، حذف الياء من «**متاب**» على عادة العرب فيما يضيفونها إلى أنفسهم.

۞ النظم

قيل: الآية تتصل بما قبلها بقوله: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ﴾.

وقيل: تتعلق بقوله: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٞۖ وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ﴾ ، عن أبي مسلم.

وقيل: تتعلق بقوله: ﴿يَنقُضُونَ عَهۡدَ﴾ أي: في أمتك مثل ما كان في الأمم ممن ينقض العهد، عن القاضي.

۞ النزول

قيل: نزلت في عبد الله بن أبي أمية المخزومي وأصحابه لما نزل: ﴿ٱسۡجُدُواْۤ لِلرَّحۡمَٰنِ﴾ [الفرقان: ٦٠] قالوا: ما نعرف الرحمن إلا صاحب اليمامة، يعنون مسيلمة، فنزلت الآية، عن ابن عباس.

وقيل: نزلت في مشركي العرب قالوا: أما الله فنعرفه، وأما الرحمن فلا نعرفه، عن الحسن، وقتادة.

وقيل: نزلت في صلح الحديبية لما كتب رسول الله ﷺ: «بسم الله الرحمن الرحيم»، فقال سهيل بن عمرو والمشركون: لا نعرف الرحمن، اكتب باسمك اللهم[١]، وكذلك كانوا يكتبون، فقال ﷺ: «اكتبْ»، ثم قال: «اكتبْ: هذا ما صالح عليه محمد رسول الله» قالوا: لئن كنت رسول الله وأنكرناك لقد ظلمناك، اكتب ما صالح عليه محمد، عن ابن جريج[٢].

۞ المعنى

«كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ» أي: هكذا أرسلناك يا محمد، وقيل: كما أرسلنا في الأمم أرسلناك «فِي أُمَّةٍ» في جماعة «قَدْ خَلَتْ» مضت «مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ» قرون وجماعات «لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ» أي: لتقرأ عليهم القرآن الذي أوحينا إليك «وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ» قيل: يجحدون الوحدانية، وقيل: باسم الرحمن، والوجه الأول، كأنه قيل: يكفرون بالله وأنه الواحد؛ لأن الكفر بالاسم لا يكون كفرًا، والكفر بمحمد لا يكون كفرًا باسمه «قُلْ» يا محمد «هُوَ» الرحمن الذي أنكرتموه «رَبِّي» خالقي ومدبري «لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ» فوضت أمري إليه «وَإِلَيْهِ مَتَابِ» مرجعي.

---

(١) اللهم: ـ ، ش.

(٢) جريج: جرير، د.

الأحكام

تدل الآية على أنه تعالى بعث إلى الأمم، كما بعث إلى هذه الأمة.

وتدل على أن لله تعالى أساميَ كثيرةً، منها: الرحمن، والرب، والله، وغير ذلك.

وتدل على أن الاسم غير المسمى لأنه تعالى واحد وكثرت أسماؤه.

وتدل على وجوب التوكل عليه، والانقطاع إليه.

وتدل على أن الكفر فعلهم حادث من جهتهم لذلك ذمهم، فيبطل قول المجبرة في المخلوق، ومن وجه آخر أنه بين أنه بعث الرسل لتتلو[1] عليهم الآيات ليؤمنوا ولو كان الإيمان والكفر خلقًا له تعالى لما كان للبعثة وتلاوة الآيات فائدة.

قوله تعالى:

﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾﴾

القراءة

قراءة العامة: «**أفلم ييأس**»، وعن علي وابن عباس أنهما قرآ: «**أفلم يَبَّيْنْ**»، ذكره شيخنا أبو القاسم، وابن جرير. قال الأصم: زعم بعضهم أنه رآها في الإمام، وقوله باطل؛ لأن الإمام كتب بالإجماع، وفيه قراءة الجماعة، قلت: ويحمل أنهما قرآ ذلك بالتليين[2].

---

(١) لتتلو: للتلوا، د.

(٢) قرآ ذلك بالتليين: فسرا ذلك بالتبيين، د.

۞ اللغة

التسيير: تفعيل[1] من السير، وهو يصير الشيء بحيث يسير[2]، سار[3] يسير سيرًا[4]، أو سيَّره تسييرًا، وسايره مسايرة.

والتقطيع: تفعيل من القطع، وهو التكثير منه، قطعه تقطيعًا، والقطع: فصل المتصل.

واليأس: انقطاع الطمع، يئس ييأس يأسًا، واستيأس طلب اليأس فوجده.

والحلول: حصول الشيء[5] في الشيء كحلول العرض[6] في الجوهر[7]، وحصول الجوهر في الوعاء، والأصل الأول، والثاني مشبه به.

والقرب خلاف البعد، قرب قربًا ومقاربة، وتقارب تقاربًا، وقرَّبه تقريبًا.

والقارعة: الشديدة من شدائد الدهر، ومنه سميت القيامة قارعة، وأصله القرع، وهو الضرب، قرعت الشيء: ضربته، أقرعه مقارعة الأبطال: قرع بعضهم بعضًا، وقوراع القرآن الآيات التي من قرأها أمِنَ مِنَ الشيطان، كأنه يضرب الشيطان إذا قرئت.

۞ الإعراب

(لو) شرط، واختلفوا في جوابه، فقيل: محذوف دل عليه الكلام تقديره: ولو أن قرآنًا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى لكان هذا القرآن لكونه في أعلى طبقات البلاغة، قال امرؤ القيس:

فَلَوْ أَنَّهَا نَفْسٌ تَمُوتُ سَوِيَّةً   وَلَكِنَّهَا نَفْسٌ تَقَطَّعُ أَنْفُسَا

(١) تفعيل: تفعل، ض.
(٢) يسير: يصير، ش، ص.
(٣) سار: ـ، د.
(٤) سيرا: +، د.
(٥) الشيء: +، د.
(٦) العرض: الجوهر، د.
(٧) الجوهر: العرض، د.

يعني لهان عليّ وهي آخر القصيدة.

وقال الآخر:

فَأُقْسِمُ لَوْ شَيْءٌ أَتانَا رَسُولُهُ ... سِوَاكَ وَلَكِنْ لَمْ نَجِدْ لَكَ مدْفَعًا

أراد: لرددناه[1] فحذف الجواب، وهذا معنى قول قتادة وجماعة من النحويين.

وقيل: جوابه في قوله: «**أَفَلَمْ يَيْأَس**» كأنه قيل: لو كان كذا لما آمنوا، كقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ [الأنعام: ١١١]، قال: ﴿مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُوٓاْ﴾ [الأنعام:١١١]، عن الزجاج.

وقيل: جواب (لو) مقدم قوله: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ تقديره: ولو أن قرآنًا سيرت به الجبال لكفروا بالرحمن ولما آمنوا به، عن الفراء.

۞ النزول

قيل: نزل في جماعة من كفار قريش منهم أبو جهل، وعبد الله بن أمية المخزومي قالوا: يا محمد إن كان هذا القرآن حقًا فسير لنا جبال مكة حتى نتفسح، فإنها أرض ضيقة، فاجعل لنا فيها عيونًا وأنهارًا حتى نغرس ونزرع، أو أحيي لنا بعض إخواننا نسأله أحقًّا ما تقول أم لا؟ فنزلت الآية، عن ابن عباس، والحسن، وقتادة.

۞ النظم

قيل: تتصل الآية بقوله: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾، عن الأصم، وأبي علي، تقديره: أنزل عليهم مثل هذا القرآن، وهم يكفرون به يطلبون آيات أخر.

وقيل: تتصل بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ﴾ الآية، فالمفهوم أنه قرأ عليهم القرآن؛ لأنه قال: ﴿لِّتَتْلُوَاْ عَلَيْهِمُ﴾ وأنهم كفروا به وقالوا تكذيبًا وعنادًا: إن كان حقًا فسير لنا جبال مكة، فلما قالوا ذلك قال تعالى: «**وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ**»، عن القاضي.

---

(١) لرددناه: رددناه، د.

۞ المعنى

«**وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ**» فأذهبت عن وجه الأرض «**أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ**» أي: شقت فجعلت أنهارًا وعيونًا "**أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى**» أو أحيي به الموتى وكلموا[١] لكان هذا القرآن؛ أي: لو جعل ذلك لقرآن قبل هذا لفعل لقرآنكم[٢]، عن قتادة. «**بَلْ لِلَّهِ الأَمْرُ جَمِيعًا**» أي: الأمر في جميع الآيات إلى الله فهو قادر على ما يشاء[٣]، إن شاء فعل، وإن لم يشأ لم يفعل، عن الأصم، وأبي مسلم. وقيل: الأمر إليه وإلى الذي يختاره، لكن يختار بحسب المصلحة، وقيل: يكفرون بالله وهو مالك أمورهم، عن أبي علي. «**أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا**» قيل: أفلم يعلموا وييأسوا، عن ابن عباس، والحسن، وقتادة، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وابن زيد، والمؤرج، وأبي مسلم. وقيل: أفلم ييأسوا من إيمان هؤلاء علما بصحته، عن الفراء، والأصم. وهو صلة قوله: «**وهم يكفرون**»، عن الأصم. واختلف من قال: إن اليأس بمعنى العلم، فقيل: إنها لغة جُرْهُم، عن المؤرج، وقيل: لغة هوازن، وقيل: لغة نجد[٤]، عن ابن عباس، وذكر ابن جرير عن بعض البصرية أن معنى ييأس: يتعلم ويتبين، وأنشد:

أَلَـمْ يَـأْسَ لِـلأَقْـوَامِ[٥] أَنِّـي أَنَـا ابْـنُـهُ   وَإِنْ كُنْتُ عَنْ أَرْضِ الْعَشِيرَةِ نَائِيَا[٦]

أي: ألم يعلم، وعن بعض الكوفيين إنكار ذلك.

وذكر في (ضياء القلوب) قال الكسائي: يئست بمعنى علمت لم يسمع[٧]، وكذلك قاله الفراء، وإن كان الكلام يتوجه عليه فالمراد أن عند العلم يحصل اليأس، قال أبو علي: إنه لما كان آيسًا مع العلم أراد بالإياس العلم، فعلى هذا فيه قولان:

---

(١) وكلموا: وكلم، د؛ أو كلموا، ض.

(٢) لقرآنكم: بقرآنكم، د.

(٣) ما يشاء: ما سألوا.، د، ش.

(٤) نجد: نجع؛ د، ش، ض.

(٥) للأقوام: الأقوام؛ د، ش.

(٦) نائيا: نائبًا؛ د.

(٧) لم يسمع: +، د.

أحدهما: أفلم يعلموا، الثاني: أفلم[1] يَيْأسوا من إيمانهم لعلمهم أنهم لا يؤمنون، عن الفراء، والأصم.

«**أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا**» قيل: إلى الإيمان على وجه الإلجاء، عن الحسن، وأبي مسلم، كقوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًاۚ﴾ [يونس:٩٩] ولكن يخليهم لينالوا الثواب بطاعتهم، وقيل: إلى جنته بقدرته عليه، عن أبي علي، وأبي مسلم. «**وَلا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا**» قيل: أراد جميع الكفار، وقيل: أراد بعضهم، عن أبي مسلم، فهو عموم أريد به الخصوص «**تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا**» من كفرهم وتكذيبهم «**قَارِعَةٌ**» أي: مهلكة وعقوبة من قتل أو أسر «**أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ**» وقيل: أراد بالقارعة سرايا رسول الله ﷺ، أو تحل أنت يا محمد بنفسك قريبًا من دارهم، عن ابن عباس، وسعيد بن جبير، وقتادة، ومجاهد، وعكرمة[2]. فالتاء للخطاب، وقيل: التاء للتأنيث؛ أي: يصيبهم عذاب وهي القارعة «**أَوْ تَحُلُّ**» تلك القارعة «**قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ**» فتجاورهم حتى يحصل لهم المخافة من ذلك، عن الحسن، وقتادة، والأصم، وأبي علي، وأبي مسلم، والقاضي؛ لأن قوله: «**تحل**» يرجع إلى أقرب المذكور إليه وهي القارعة تكون أولى من رده[3] إلى ما لم يجر[4] له ذكر في الآية «**حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ**» قيل: فتح مكة، عن ابن عباس، وقتادة، ومجاهد. وقيل: الظفر بهم وظهور دينه، عن الأصم. وقيل: القيامة، عن الحسن. وقيل: الموت أو العقاب، عن القاضي. وقيل: حلول الرسول بساحتهم «**إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ**» أي: لا يخلف ما وعد وأوعد.

۞ الأحكام

في الآية تعظيم أمر القرآن، فتدل على أنه كلامه تعالى.

---

(١) أفلم: لم، ض.

(٢) وعكرمة: ـ ، د.

(٣) رده: ورده.، د.

(٤) لم يجر: لم يجز، د.

وتدل على أنه قادر على إنزال ما اقترحوه[1] وإن لم يفعل للمصلحة.

وتدل على أنه لا يخلف الوعد والوعيد، فيبطل قول المرجئة لأن الآية مطلقة، فوروده عقيب الخبر عن الكفار لا يمنع من حمله على إطلاقه.

قوله تعالى:

﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَـٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾﴾

القراءة

قرأ عاصم وحمزة والكسائي ويعقوب: «وصُدوا» بضم الصاد، وفي (حم المؤمن) ﴿وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [غافر: ٣٧] على ما لم يسم فاعله، يعني أن الكفار صدهم غيرهم، وقرأ أهل الحجاز: أبو جعفر ونافع وابن كثير، وأهل الشام: ابن[2] عامر، وأهل البصرة: أبو عمرو وأبو حاتم: (صَدوا) بفتح الصاد في السورتين، يعني الكفار صدوا عن سبيل الله.

قال بعض أهل الجبر: الأول قراءة أهل السنة وهو[3] فيه إثبات القدر، كأنه يحمله على أنه تعالى صدهم عن السبيل، وهذا فاسد من القول من وجوه:

منها: أن ظاهر الآية لا يقتضي ذلك، ويحتمل أن رؤساءهم وكبراءهم صدوهم، ويحتمل أن الشيطان صدهم[4] فلم يحملوا[5] على أن الله تعالى صدهم.

(١) اقترحوه: اقترحوا، د.

(٢) ابن: وابن، د.

(٣) هو: ـ ، د.

(٤) الشيطان صدهم: الشياطين صدوهم، د.

(٥) فلم يحملوا: حملوا، د، ش.

ومنها: أن قائل هذا رغب عن قراءة أكثر القراء وقراءة أهل الحرمين والشام والبصرة، وهذا لا يجوز.

ومنها: أنه تعالى لا يجوز أن يصد عن السبيل، كيف، وقد أمر به، وحث عليه، ووعد

بالثواب، ونهى عن تركه، وأوعد؟، فقد فعل غاية ما يجب أن يفعل، فكيف يقال: إنه صد

عنه.

ومنها: أنه تعالى قال في موضع آخر: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ﴾ [النحل: ٨٨] وقال: ﴿وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [الفتح: ٢٥] فهذا يدل على أن الكفار صدوا، ويؤيد القراءة بالنصب.

ومنها: أنه يحتمل أن أنفسهم صدوهم، كما يقال: فلان معجب، وإن لم يكن ثم غيره.

❁ اللغة

الاستهزاء: طلب الهزؤ، والهزؤ[1]: إظهار خلاف الإضمار للاستصغار، وأصل الاستفعال: طلب الفعل.

والإملاء: التأخير، وأصله طول المدة، وقيل: هو من الملاوة، وقيل: الليل والنهار ملوان، وربما كسر أوله، وربما فتح، وربما ضم، عن أبي القاسم وغيره. وسميا بذلك لطولهما، وقيل: اشتقاقه من الملوة وهي المدة، ومنه: ﴿نُمْلِي لَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٧٨] أي: نطيل المدة، ومنه في التهنئة: الْبَسْ جديدًا وتمل حبيبًا أي: لتطل أيامك معه.

وأصل القيام: الانتصاب الذي هو خلاف القعود، يقال: قام فهو قائم، ثم يستعمل في القيام بالأمر، يقال: قام بالأمر[2] كذا، وقم بهذا الأمر.

---

(١) الهزؤ: الهزأ، د.

(٢) بالأمر: بأمره، د.

والصدود[١] : الإعراض، صد يَصُدُّ: أعرض، وصدوته: عدلته، فهو لازم[٢] ومتعد[٣]، يَصُد يَصِدُّ؛ بضم الصاد في المستقبل: أعرض، وبكسر الصاد: ضج، والصدد: القرب، يقال: صده صدا[٤]، وأصده إصدادًا، كل ذلك يحكى عن العرب ذكره في العرنين[٥].

والشِّق بكسر الشين: المشقة، ونصف الشيء، ومنه: الشقيق، ومنه يقال للناحية من الجبل: شق، وبالفتح مصدر شققت الشيء شقًا، والشقة: الناحية، وجمعها: شُقُق بضم[٦] الشين والقاف، عن الفراء. وقيل: شِقَق بكسر الشين وفتح القاف، وأريد أن أشق عليك أي: أحملك على[٧] ما يشتد عليك.

الوقاية: الحاجز الذي يدفع به[٨] المكروه، والواقي فاعل الوقاية، وقاه يقيه وقاية، فهو واقٍ، ووقَّاه توقيةً.

۞ الإعراب

«أفمن» استفهام والمراد الإنكار، وجوابه محذوف، تقديره: أفمن هو قائم على كل نفس كمن ليس بهذه الصفة، نحو قوله: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ﴾ [الزمر: ٩].

۞ النظم

قيل: تتصل الآيات بما تقدم من طلبهم للآيات[٩]، فَبَيَّنَ تعالى أن من تقدم من الرسل سألهم قومهم العذاب هزؤا[١٠]، وأنت سئلت الآيات هزؤا[١١]، عن الأصم.

---

(١) والصدود: والصد، د.
(٢) لازم: ملازم، د.
(٣) ومتعد: ومتعدي؛ د، ش، ض.
(٤) صدًا: يصده ش، ض.
(٥) العرنين: القريبين، د.
(٦) بضم: ـ ، ش.
(٧) على: +، د، ش.
(٨) به: عنه، د، ش.
(٩) للآيات: الآيات، د.
(١٠) هزؤا: هزءًا، د.
(١١) هزؤا: هزأ، د.

وقيل: لما تقدم كفرهم به عقبه بالرسل تسلية له لما استهزؤوا[1] به فقد استهزئ برسل من قبله، عن أبي علي. فكأنه يتصل بقوله: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ﴾.

وقيل: يتصل بما قبله من قوله: ﴿تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ﴾ فأتبعه بأن المصلحة تكون مرة في التعجيل، ومرة في التأخير والتمهيل، ولا بد في العاقبة من حلول العقاب بهم، كما حل بمن كان قبلهم، عن القاضي.

۞ المعنى

«وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ» أي: كما يستهزئ هؤلاء بك في طلب الآيات فقد فعلت الأمم الغابرة ذلك برسلهم «فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا» أي: أمهلتهم ليتوبوا ويتدبروا ولتتم عليهم الحجة «ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ» أي: لما أصروا[2] أخذتهم بالعقاب والهلاك، ونجينا الرسل ومن تبعهم وأهلكنا الكفار «فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ» أي: كيف رأيتم عذابي لأولئك كذلك لهؤلاء، وفيه تسلية للنبي ﷺ.

ثم عاد[3] في الحجاج مع الكفار، فقال سبحانه: «أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ» أي قائم عليه بالتدبير والحفظ والرزق والعلم به، وقيل: قائم على كل نفس حتى يجازيها، عن الحسن. وقيل: هو قائم على كل نفس في رزقهم وحفظهم، ثم جعلوا معه آلهة، عن الضحاك. وقد بينا أن جوابه محذوف أي: كمن ليس[4] هو[5] كذلك، وهي الأوثان.

ومتى قيل: كيف يجوز عليه تعالى أن يوصف بأنه قائم؟

فجوابنا: ليس من القيام الذي توصف به الأجسام، وإنما معناه القائم بالتدبير، ومعناه المقوم للتدبير، ولا يجوز قائم على الإطلاق؛ لأن معناه المنتصب، وهو من صفات الأجسام.

---

(١) استهزؤوا: استهزئوا، ش، ض.

(٢) أصروا: صبروا، د.

(٣) عاد: أعاد، ض.

(٤) كمن ليس: ليس كمن، ش.

(٥) هو: ـ، د.

واختلفوا في معنى الآية على قولين:

أولهما: قالوا: من يعني به الله سبحانه، ثم اختلفوا فقيل: الرب الذي هو دائم[١] لا يبيد، قائم بحفظ الخلق وتدبيرهم كمن هو هالك بائد، لا يسمع ولا يبصر، ولا ينفع ولا يضر، وقيل: معناه الله تعالى بهذه الصفة أم شركاؤهم؟، وقيل: هو يتصل بقوله: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ﴾ تقديره: أبالله[٢] الذي هذه صفته يكفرون[٣] أم ينبئونه[٤] بما لا يعلم؟!، عن أبي مسلم. وقيل: أفمن كان بهذه الصفة أولى أن يتخذ معبودًا أمن ليس بهذه الصفة؟!.

الثاني: أن (من) كناية عن الملائكة الذين وكلوا ببني آدم لحفظ أعمالهم.

«**وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ**» من خلقه يعبدونها، وفي الكلام وعيد لهم.

ثم زاد في الحجاج فقال سبحانه: «**قُلْ**» يا محمد: «**سَمُّوهُمْ**» قيل: سموهم[٥] بما يستحقون من الأسماء التي هي صفات، ثم انظروا هل تدل صفاتهم على جواز عبادتهم واتخاذهم آلهة، وقيل: سموهم فإن سموهم آلهة كذبوا على أنفسهم، وقيل: سموهم أي: ليس لهم اسم له مدخل في باب الإلهية، وذلك استحقار لهم؛ لأن الإلهية تستحق بصفات هي أعلى من صفاتهم، وقيل: سموهم باسم يصح بالحجة «**أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي الأَرْضِ**» أي[٦]: تخبرونه بما لم[٧] يعلم، يعني إلا أن يصفوها بما لا يصح أن يعلم لأنه[٨] تعالى[٩] لا يعلم لنفسه شريكًا، فهو نفي الوجود، لا نفي العلم «**أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ**» أي: أو يقول قولاً لا حقيقة له، وقيل: بباطل من القول،

---

(١) دائم: قائم، د.
(٢) أبالله: أنا الله، د.
(٣) يكفرون: ـ ، د.
(٤) ينبئونه: يثبتونه، د.
(٥) قيل سموهم: ـ ، د.
(٦) أي: أم، د.
(٧) بما لم: بما لا، د.
(٨) لأنه: لأن، ش.
(٩) تعالى: الله تعالى، ش.

عن مجاهد، وقتادة، والضحاك، وأبي القاسم. وقيل: إلا أن يقتصروا على القول من غير رجوع إلى حقيقة وحجة، عن قتادة، ومجاهد. وقيل: بظاهر من القول أي الذي أنزله على أنبيائه، عن أبي علي. يعني ليس ذلك في شيء مما أنزل عليهم.

ثم بيَّنَ تعالى بطلان قولهم وأنهم لا يقولون بحجة، فقال سبحانه: «**بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ**» قيل: إنما زين لهم ذلك شياطين الإنس والجن ولذلك ذمهم عليه[1]، عن أبي علي. ولو كان هو الفاعل لما ذمهم، وقيل: زينت أنفسهم لهم وبعضهم لبعض، عن أبي مسلم. «**وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ**» أي: أعرضوا، وقيل: صرفوا غيرهم، وبضم الصاد صرفوا، يعني شياطين الإنس والجن، وقيل: صدوا أعرضوا فلم يؤمنوا ومنعوا غيرهم، فيحمل على الوجهين «**وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ**» قيل: يحكم بضلاله فلا تنفعه هداية غيره، عن الأصم. وقيل: من أضله[2] عن طريق الجنة لا يهديه إليه أحد، عن أبي علي، والقاضي. وقيل: من يجده ضالاً عن الإيمان.

ثم بيّن ما لهم جزاء على كفرهم، فقال سبحانه: «**لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَقُّ**» أي: أشد على النفس وأعظم لدوامه وكثرته وخلوصه «**وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ**» من[3] دافع يدفع العذاب عنهم ويقيهم ذلك، وقيل: عذاب الدنيا القتل والأسر واللعن، عن الأصم، والقاضي. وقيل: الإذلال واللعن، عن أبي علي. وقيل: المصائب والأمراض، عن ابن عباس. وقد اختلف فيه، فقيل: إنه إذا نزل بِالْـمُصِرّ[4] يكون عقابًا وبالمؤمن امتحانًا، وقيل: إنه امتحان في الجميع، قال القاضي: وهو الأصح لما يجب عليه من الصبر والرضا، ولنزوله بمن ليس من أهل العقوبة على الحد الذي ينزل بغيره.

---

(١) عليه: على ذلك، د.
(٢) أضله: ضله، د.
(٣) من: أي، ش.
(٤) بالمصر: بالكافر، د.

الأحكام

تدل الآية على أنه تعالى يمهل الكافر إذا علم أنه يؤمن، ويعاقب إذا علم أنه لا يؤمن، وأنه يعجل العذاب ويؤخر بحسب المصلحة.

وتدل على صحة الحجاج في الدين لذلك حاجهم.

وتدل على أنه يجمع عليهم بين عذاب الدارين، وأن عذاب الدنيا لا يدفع عذاب الآخرة.

وتدل على أن الكفر والصد فعلهم، فيبطل قول المجبرة في المخلوق.

وتدل على أن العذاب جزاء على الأعمال، فيبطل قولهم في ذلك أيضًا.

قوله تعالى:

﴿مَثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾﴾

القراءة

قراءة العامة: «مثل الجنة»، وعن أبي علي وأبي عبد الرحمن السلمي: **(أمثال الجنة)** على الجمع، ذكره شيخنا أبو القاسم وهشام.

اللغة

الأكل: ما يؤكل من الثمار وغيره، والأكل: يثقل، ويخفف.

والجري: مصدر جرى يجري جريًا، وأجراه إجراءً، وجاراه مجاراة.

والعقبى: العاقبة.

الإعراب

«**مثل**[1]» قيل: رفع بالابتداء وخبره «**تجري من تحتها**» كقولهم: حلية فلان كيت وكيت، وقيل: «**مثل**» صفة أي: صفة الجنة وفيه محذوف تقديره: مثل الجنة التي هي

---

(١) مثل: ـ، د.

كذا أو التي وعدتم مثل كذا، وذكر الزجاج عن سيبويه أن تقديره: مثل الجنة فيما نقص عليكم، فرفعه على الابتداء، وقيل: خبره محذوف تقديره: أنها تجري، وقيل: الخبر في قوله: «**أكلها دائم**».

المعنى

لما تقدم ما أعد للكفار بَيَّنَ تعالى ما أعد للمؤمنين، فقال سبحانه: «**مَثَلُ الْجَنَّةِ**» قيل: شبه الجنة، عن مقاتل. وقيل: صفة الجنة ونعيمها، عن الحسن، وأبي علي، وأبي مسلم، وأبي عبيدة. قال القاضي: وهو أقرب. وقيل: ذكر قوله: «**مثل**» تفخيمًا، والمعنى: الجنة التي وعد المتقون، وقد يراد المثل في كلام العرب كقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]. «**الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ**» يعني وعد دخولها «**تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ**» أي: من تحت أشجارها وأبنيتها[١] ومساكنها «**أُكُلُهَا دَائِمٌ**» قيل: ثمارها و[٢]مأكولاتها دائم لا ينقطع كما تنقطع ثمار الدنيا، عن الحسن، وأبي علي، وأبي مسلم. وقيل: نعيمها لا ينقطع بموت ولا بغيره من الآفات، عن ابن عباس. يعني حالها خلاف حال جنات الدنيا في الدوام «**وَظِلُّهَا**» يعني يدوم ظلها فلا يكون فيها شمس ولا حر ولا برد، ويجعل الله[٣] تعالى ضوءها دائمًا على وجه ملتذ «**تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا**» يعني هذه الجنة عاقبة أمر المتقين الجنة وعاقبة أمر الكافرين النار، وعن ابن مسعود: الجنة سجسج لا حر فيها ولا برد.

النزول

قيل: المراد بالمتقين[٤]: أصحاب محمد صلى الله عليه، وفيهم نزل، وبـ«**الكافرين**» مشركي قريش، عن ابن عباس.

وقيل: هو عام، وهو الصحيح.

---

(١) وأبنيتها: وأنبتها، د.

(٢) و: ـ، د.

(٣) الله: +، د.

(٤) بالمتقين: بالمؤمنين؛ د، ش، ض.

۞ الأحكام

تدل الآية على أن الجنة دائمة لا تفنى، خلاف ما يقوله جهم، وحكي ابن ماجه عن خارجة قال: كفرت الجهمية بقولها: الجنة تفنى، والله يقول: «**أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا**».

وتدل على أن الجنة تنال بالتقوى، فيبطل قول المجبرة والمرجئة.

وتدل على أن الثواب والعقاب جزاء على الأعمال.

وتدل على أن الجنة لم تخلق بعد؛ إذ لو كانت مخلوقة، وثبت بالدليل فناء الأجسام كلها لكان أكلها لا يدوم، ولا يمتنع أن تكون في السماء جنات يدخلها الملائكة والأنبياء، وكلامنا في جنة الخلد.

قوله تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ إِلَيْهِ أَدْعُواْ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾﴾

۞ اللغة

الإيتاء والإعطاء من النظائر، وهو إيصال الشيء إلى الآخر، أتاه يؤتيه إيتاءً بالمد: أعطاه، وأتاه مقصورًا يأتيه إتيانًا: جاءه.

والأحزاب: الجماعات التي تقوم بالنائبة، واحدها: حزب، تحزب القوم تحزبًا.

والمآب: المرجع، آب يؤوب أوبًا إذا رجع.

والوقاية: التي تمنع[1] الأذى، قال شيخنا أبو القاسم: ولئن اتبعت ولو اتبعت بمعنى.

---

(١) تمنع: تدفع، د.

۞ الإعراب

«الذين» محله رفع بالابتداء وخبره «يفرحون».

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ﴾ الكاف كاف التشبيه، وقيل في التشبيه أنه شبه إنزاله بإنزاله[(١)] حكمًا عربيًا[(٢)] بإنزاله الكتب على من تقدم من الأنبياء، وقيل: كما أنزلنا الكتب على الرسل بلغاتهم كذلك أنزلنا القرآن عربيًا بلغتك.

۞ النزول

قيل: لما أسلم عبد الله بن سلام وأصحابه قالوا للرسول صلى الله عليه: ذكر الرحمن في القرآن قليل وفي التوراة كثير، فنزل[(٣)]: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ [الإسراء: ١١٠] وعنده قال مشركو مكة: إن محمدًا يدعو إلى إلهين، فنزل: ﴿أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠] وقالوا[(٤)]: ما نعرف الرحمن إلا مسيلمة، فنزل: «وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ. . .» الآية، عن ابن عباس.

وقيل: كان المشركون يكذبون أهل الكتاب في أمر الرسل، فلما بعث النبي ﷺ[(٥)] وهو رجل من العرب ونزل القرآن بلغتهم فرحوا به[(٦)] معاداة للمشركين، عن الأصم.

وقيل: نزلت في صرف القبلة إلى الكعبة، وفيه نزل: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم﴾ [البقرة: ١٢٠].

وقيل: في تبليغ الرسالة.

---

(١) بإنزاله: ـ، د.
(٢) حكمًا عربيًا: ـ، ض.
(٣) فنزل: نزل، د، ش، ض.
(٤) وقالوا: فقالوا، د.
(٥) صلى الله عليه وسلم: صلى الله عليه وآله، د.
(٦) فرحوا به: في جوابه، د.

❁ المعنى

لما تقدم الوعد والوعيد عقبه أنه بما[1] أنزل إليه وبَيَّنَ صفة المتقين[2] والكافرين، فقال سبحانه: «**وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ**» أعطيناهم القرآن «**يَفْرَحُونَ**» به، قيل: هم أصحاب النبي ﷺ[3] والمؤمنون أعطوا القرآن وآمنوا به وفرحوا به «**وَمِنَ الأَحْزَابِ**» الجماعات من اليهود والنصارى أعطوا الإنجيل «**يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ**» في القرآن أي: وسائر الكفار، عن الحسن، وقتادة، ومجاهد، والأصم، وأبي علي. وقيل: هم الذين آمنوا من أهل الكتاب فرحوا بالقرآن، لأنهم آمنوا به وصدقوه، والأحزاب: بقية أهل الكتاب وسائر المشركين لم يؤمنوا به، عن ابن عباس، وأبي مسلم، والقاضي. «**وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ**» اليهود أعطوا التوراة والنصارى أعطوا الإنجيل «**يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ**» في القرآن لأنه مصدق لما معهم «**وَمِنَ الأَحْزَابِ**» من سائر الكفار «**مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ**» عن مجاهد، ويحكى عن أبي علي، قال القاضي: وهذا لا يصح لقوله: «**يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ**» فعم جميع ما أنزل إليه، ومعلوم أنهم لا يفرحون بذلك، «**وَمِنَ الأَحْزَابِ**» من جماعات الكفار «**مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ**» أي: يكذب ببعض القرآن.

ومتى قيل: أليس ينكرون الكل؟

فجوابنا: كان فيهم من يعترف بصحة بعضه من أقاصيص الأنبياء لموافقة كتابهم.

ومتى قيل: فالمشركون ينكرون الكل.

فجوابنا أنه لم يجعل الإنكار صفة للكل، بل قال: «**ومن الأحزاب**» مَنْ هَذَا وَصْفُهُ، فإذا وجدت منهم فرقة هذا وصفها صح الكلام.

ثم خص المشركين بالخطاب فقال سبحانه: «**قُلْ**» يا محمد «**إِنَّمَا أُمِرْتُ**» أي: أمرني الله سبحانه «**أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ**» وحده «**وَلا أُشْرِكَ بِهِ**[4]» أي: لا أجعل له[5] شريكًا

---

(١) بما: إنما، د.

(٢) المتقين: المؤمنين، د.

(٣) صلى الله عليه وآله: +، د.

(٤) ولا أشرك به: لا شريك له، ش.

(٥) له: معه، د.

في العبادةً، أو لا أصفه بالشرك[1] «إِلَيْهِ أَدْعُو» إلى توحيده وعبادته «وَإِلَيْهِ مَآبِ» مصيري ومرجعي عند البعث.

ثم ذكر تعالى صفة القرآن المنزل فقال سبحانه: «وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ» يعني أنزلنا القرآن «عَرَبِيًّا» قيل[2] : دينًا عربيًا لأنه نزل بلسانهم، وقيل: لأنه نزل على رسول عربي، وسمي حكمًا لكونه محكومًا بما فيه، وقيل: لأنه حكمه، وقيل: لما فيه من الأحكام وبيان الحلال والحرام «وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ» يعني أهواء المشركين، قيل: في الملة وعبادة غير الله، عن الأصم. وقيل: في ترك الإبلاغ، وقيل: في الصلاة إلى بيت المقدس «بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ» قيل: النبوة، عن الحسن. وقيل: القرآن والشرائع، عن أبي مسلم. وقيل: بعد العلم بالصلاة إلى الكعبة «مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ» يدفع عنك ما تستحقه «وَلَا وَاقٍ» يقيك العذاب، قال القاضي: ولا وجه لحمله[3] على القبلة بل يدخل فيها ذلك وغيره، والغرض بعثه على الإبلاغ والتحذير من خلافه.

۞ الأحكام

تدل الآية على أنه ﷺ دعا إلى التوحيد كما دعا إلى الشرائع.

وتدل على حدث القرآن لوصفه بالإنزال.

وتدل على النهي عن اتباع أهل البدع والضلال، لأن المراد به سائر المكلفين.

وتدل على أن الفرح والإنكار والعبادة فعلهم، فيبطل قول المجبرة في المخلوق.

قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾﴾

---

(١) بالشرك: بالشريك، د.
(٢) قيل: وقيل، د.
(٣) لحمله: يحمله، د.

۞ القراءة

قرأ أبو جعفر ونافع وابن عامر وحمزة والكسائي: «ويثَبِّت» بفتح الثاء وتشديد الباء من: ثَبَّتَ يثبت تثبيتًا، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم ويعقوب: «ويثْبت» ساكنة الثاء، خفيفة الباء من «أَثْبَتَ يُثْبِتُ»، والمعنى واحد.

۞ اللغة

الزوج: القرين من الذكر والأنثى، والرجل زوج المرأة، والمرأة زوج الرجل، والجمع: أزواج[1] وزوجات.

والذرية: الأولاد، قيل: أخذ من الذر، وقيل: من ذرأ الله الخلق: إذا أظهرهم.

والمحو: إذهاب أثر الكتابة، محاه يمحوه محوًا.

والإثبات ضد النفي ويستعملان على وجهين لإثبات، ونفي على الحقيقة، وفي الخبر عن الإثبات والنفي وهو الخبر عن وجوده وعدمه.

۞ النزول

قيل: إن اليهود عيروا رسول الله ﷺ بكثرة النكاح، وقالوا: لو كان نبيًا لشغلته النبوة عن النساء، فنزلت الآية بأنا أرسلنا رسلاً لهم أزواج أكثر من أزواجك، كان لسليمان ثلاثمائة امرأة مهيرة[2] وسبعمائة سرية، ولداود مائة امرأة، عن ابن عباس.

وقيل: استعظموا كون الرسول من البشر، فنزلت الآية مبينة أن الرسل كانوا من البشر.

قيل: جواب لعبد الله بن أمية المخزومي حين سأله الآيات على ما تقدم.

۞ النظم

يقال: كيف اتصال الآية بما قبلها؟

قلنا: فيه وجوه:

---

(١) أزواج: زوج، ش.

(٢) مهيرة: مهرية، د، ش.

لما تقدم إرساله بين أنه أرسل بشرًا كما أرسله من البشر، فحاله كحالهم، عن القاضي.

وقيل: يتصل بما قبله من سؤالهم للآيات، فبين أنه بشر كما أن من كان قبله من الرسل كانوا بشرًا فلا يقدرون على الآيات، وإنما يأتي به إذا أذن الله تعالى فيه، عن أبي مسلم.

وقيل: هو جواب قولهم: ﴿لَّوْ مَا[1] تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ [الحجر: ٧] و﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ [الأنعام: ٨]، عن الأصم.

ويقال: كيف يتصل قوله: «**يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ**» بما قبله؟

قلنا: لما تقدم قوله: «**لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ**» اقتضى ذلك الإيهام أن كل مكتوب مثبت لا يجوز محوه، فأتبعه بأنه، وإن كان مكتوبًا، فإنه يمحو ما يشاء، ويثبت ما يشاء، كما يمحو الذنب بالتوبة إزالة لهذا الإيهام.

۞ المعنى

«**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ**» يا محمد من البشر «**وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا**» نكحوهن «**وَذُرِّيَّةً**» أولادًا ونسلاً، ولم يجعل الرسل ملائكة لا يأكلون ولا يتناسلون حتى نرسل إلى قومك ملكًا[2] «**وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ**» بمعجزة يقترحونها «**إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ**» بأمر الله وإطلاقه «**لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ**» أي: لكل وقت قدّره الله تعالى كتاب أثبت فيه، وهو اللوح المحفوظ على ما يوجبه تدبير العباد، واختلفوا فقيل: لكل شيء وقت مقدر، فالآيات التي سألوها لها وقت قد قضاه وكتبه على حسب المصلحة، لا على حسب شهواتهم، ولو أوتوا ما التمسوا لكان فيه أعظم الفساد، عن أبي القاسم. وقيل: لكل أمر قضاه الله كتاب ينزل من السماء أجل ينزل فيه، عن ابن عباس، والضحاك. أي: لكل كتاب وقت يعمل به[3]، فللتوراة وقت، وللإنجيل وقت، وكذلك الزبور

---

(١) لوما: لولا، د، ش.
(٢) ملكًا: ـ ، د.
(٣) به: +، د، ش.

والفرقان، وقيل: لكل أجل مؤجل كتاب عند الملائكة الحفظة الذين تعبدهم بحفظ العباد، فللإنسان آجال: أوله نطفة، ثم علقة، ثم مضغة، ثم بشر، ثم شاب، ثم شيخ، وتختلف[1] أحواله، فمطيع، وعاصي، عن الأصم. وقيل: «**لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ**» أي: كتب[2] أجل فلان كذا وأجل فلان كذا، عن الحسن. وقيل: لكل وقت حكم من الله وهو ما عليه مصلحة العباد فهو كائن في وقته الذي أوجبه فيه لا يجوز تغيره عن حاله، عن أبي مسلم، واختاره القاضي. «**يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ**» قيل: المحو والإثبات هو في الأحكام من الناسخ والمنسوخ، عن ابن عباس، وقتادة، وابن زيد، وابن جريج. وقيل: يمحو من كتاب الحفظة المباحات وما لا جزاء فيه، ويثبت ما فيه الجزاء كالطاعات والمعاصي، عن ابن عباس، والضحاك، وأبي صالح، وأبي علي. قال الأصم: وهذا لا يصح لقوله تعالى: ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾ [الكهف: ٤٩]، قلنا: المباحات خارجة من الوجهين، وقيل: هو في الآجال يمحو الله ما يشاء وهو من جاءأجله، ويدع من لم يجِ أجله ويثبته، عن الحسن، والزجاج. وقيل: هو الآجال[3] والأرزاق، أثبت الأجل والرزق للإنسان فإذا مات محي، عن محمد بن كعب. وقيل: يمحو ما يشاء من القرون بالهلاك، ويثبت ما يشاء بالإمهال، عن علي(كرّم الله وجهه). وقيل: يمحو ما يشاء من الكتب التي ينزل سنة فسنة، يثبت في الأول السنة، فإذا مضت محيت، وأُثْبِتَ كتابٌ آخرُ للمستقبل، فيثبت قبل كونه، ويمحو بعد كونه، وقيل: يمحو الطاعة بالمعصية، والمعصية بالطاعة، عن ابن عباس، وأبي علي. وقيل: يزيد في الأجل ما يشاء وينقص ما يشاء، عن الضحاك. وقيل: يمحو الذنوب بالتوبة، ويثبت بدلها الحسنات، عن عكرمة. وقيل: يمحو ما يشاء القمر، ويثبت ما يشاء الشمس، عن السدي. وقيل: يمحو الدنيا، ويثبت الآخرة، وقيل: هو في المحن والأرزاق[4] والمصائب أثبت في الكتاب، ثم أزيل بالدعاء والصدقة وفيه حث على

(١) وتختلف: ومختلف، د.
(٢) كتب: كتبت، د.
(٣) يمحو الله ما... هو الآجال: ـ ، د.
(٤) المحن والأرزاق: الأرزاق والمحن، د.

الانقطاع إليه، وقيل: يغير أحوال العبد فما مضى منها يمحى، وما هو في الحال يثبت، عن الأصم. وقيل: يمحو ما يشاء، ويثبت ما يشاء من حكمه، لا يُطْلِعُ على غيبه أحدًا، وقوله: «وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ» أي: أصل العلم فيما أوجب، والمراد بالمحو التغيير، وإذا غير شيئًا فقد محاه، عن أبي مسلم.

قوله: «وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ» قيل: أصل الكتاب وهو اللوح المحفوظ، عن ابن عباس، لأن الكتب المنزلة انتسخت منه، والمعنى أن المحو والإثبات وقع في الكتب المنتسخة، لا في أصل الكتاب، وقيل: هما كتابان، أحدهما يمحو منه ما يشاء، ويثبت ما يشاء، وثانيهما لا يجوز أن يمحو الله، ويثبت فيه، عن ابن عباس، وعكرمة. وقيل: جملة الكتاب، وهو علم الله تعالى، عن قتادة، والضحاك.

۞ الأحكام

تدل الآية على أن الرسل كلهم من البشر، وأن لهم أزواجًا وذرية.

وتدل على أن كل أمر مقدر ومكتوب، فيدخل فيه الأجل[1] والرزق، وغير ذلك.

وتدل على أنه يمحو ويثبت ما يشاء، وقد بَيَّنَّا ما قيل فيه.

ومتى قيل: أليست الرافضة تستدل بالآية على جواز البداء على الله؟

فجوابنا: إن ظاهر الآية لا يدل على ذلك، ولا يدل أيضًا أن المحو والإثبات وقع في شيء واحد فيكون فيه شبهة، وقد دل العقل على أن البداء على الله لا يجوز لأنه عالم لذاته بكل معلوم فكيف يظهر له[2] ما لم يكن ظاهرًا.

ومتى قيل: أليس بعض أصحاب الحديث يحملونه على الشقاوة والسعادة، ورووا في ذلك حديث عمر: «اللهم إن كنت كتبت شقاوة فامحها واجعلها سعادة». وعن ابن مسعود جواز محو الشقاوة والسعادة، وعن ابن عباس ومجاهد خلافه[3]،

---

(١) فيدخل فيه الأجل: قبل خلقه للأجل، د.

(٢) يظهر له: يبطن، د.

(٣) أي: أنه لايمحو الشقاوة والسعادة. انظر: تفسير التبيان ٦/ ٢٦٣.

وهذا كله تخليط من القوم، وقلة معرفة بمعاني الأخبار، وبالفرق بين البداء والنسخ، وقد بَيَّنَّا جواز النسخ وامتناع البداء؛ لأن البداء يرجع إلى حال العالم[١]، والنسخ يرجع إلى حال[٢] المعلوم، فأما الشقاوة والسعادة فلا يصح على مذهب الجبر، وإنما يصح على مذهبنا أن السعيد من سعد بعمله، فإذا آمن وعمل صالحًا كتب[٣] في السعداء، وإذا كفر كتب في الأشقياء، فإذا تاب محي ذلك وكتب من السعداء، فهذه الأخبار تدل على صحة ما نذهب إليه، وبطلان ما يذهب إليه القوم، وبطلان قول[٤] أصحاب الموافاة.

قوله تعالى:

﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَـٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾ وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّـٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَـٰبِ ﴿٤٣﴾﴾

القراءة

قرأ أبو جعفر ونافع وابن كثير وأبو عمرو: **«وسيعلم الكافر»** بالألف[٥] قبل الفاء على واحد، وقرأ الباقون: **«الكفار»** على الجمع، وفي قراءة ابن مسعود: **«وسيعلم الكافرون»**، وفي قراءة أبي: **«وسيعلم[٦] الذين كفروا»**، وقد ذكر شيخنا أبو القاسم عن

---

(١) حال العالم: خلل العلم، د.
(٢) حال: خلل، د.
(٣) كتب: كان؛ ش.
(٤) قول: +، ش.
(٥) بالألف: ـ ، ش.
(٦) وسيعلم: سيعلم، ش.

ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير والحسن «ومِن» بكسر الميم «عنده علم» اختلفوا، منهم من قرأ بكسر العين وسكون اللام، ومنهم من قرأ بضم العين وكسر اللام، وذكر ابن جرير ذلك عن الحسن، وفي (ضياء القلوب) روي ذلك مرفوعًا، قال القاضي: ولا يجوز إثبات القراءة بأخبار الآحاد، فالقراءة العامة: «مَن» بفتح الميم «عِلْم» بكسر العين وسكون اللام.

اللغة

التوفي: قبض الروح بالموت، توفاه الله يتوفاه توفيًا.

والنقص[1]: أخذ الشيء من الجملة، نقصه ينقصه نقصًا ونقصانًا، ثم يستعمل في نقصان المنزلة.

والتعقيب: أن يعمل عملاً ثم يعود فيه، والمعقب من كل شيء ما خلف يعقب ما قبله، والمعقب الذي يكر على الشيء، ومنه: عقب العقاب على صيده أراد[2] الكرور عليه.

والمكر: هو الضرر ينزل بصاحبه من غير أن يشعر به، وأصله الحيلة الخفية[3].

الإعراب

يقال: لم جاز «كفى بالله» في موضع «كفى الله»؟

قلنا: لتحقيق الإضافة من وجهين: جهة الفاعل وجهة حرف الإضافة، وذلك أن الفعل لما[4] جاز أن يضاف إلى غير فاعله يعني: أنه أمر به أن يزيل هذا الاحتمال بهذا التأكيد، ونظيره في تأكيد الإضافة قوله تعالى: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥].

وقال الزجاج: «أو نتوفينك» عطف على قوله: «إمَّا نرينك»، وجوابه: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾، وتقديره: إما أريناك الموعود، أو توفيناك قبل، فليس عليك إلا البلاغ.

---

(١) والنقص: القبض، ض.
(٢) أراد: إذا رد، د.
(٣) الخفية: خفية، د.
(٤) لما: لم، د، ش، ض.

«مرسلاً» نصب لأنه خبر (ليس).

۞ النظم

يقال: كيف يتصل قوله: «**وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ**» بما قبله؟

قلنا: لما توعد الكفار بالعقاب بيّن لرسوله أنه يفعل ذلك لا محالة، إما في حياته، أو بعد وفاته بشارة له.

وقيل: لما تقدم أن كل شيء يفعله لوقت بَيَّنَ أن عذابهم سيفعله في وقته، إما في حياته أو بعد وفاته، وفي الكلام حذف، تقديره: إما نرينك ما نعدهم أو نتوفينك قبل أن نرينك[١] ذلك فإنا منتقمون منهم بإيصال ذلك إليهم.

ويقال: كيف يتصل قوله: «**يَعْلَمُ**[٢] **مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ**» من مكر[٣] وغيره، والثاني: مجازي[٤] على المكر، وهو عالم به.

۞ النزول

قيل: نزل قوله: «**وسيعلم الكافر**» في كعب بن الأشرف وأصحابه، عن ابن عباس.

وقيل: هم أهل مكة، عن الأصم، والحسن.

وقيل: «**من عنده علم الكتاب**»، قيل: هم علماء أهل الكتاب، وقيل: عبد الله بن سلام وأمثاله وأصحابه.

قال سعيد بن جبير: السورة مكية، فلا يجوز أن يراد بها ابن سلام وغيره من أهل الكتاب.

وقيل: إنها مدنية، فيجوز أن تحمل على ذلك.

---

(١) نرينك: نريك، د.
(٢) يعلم: الله يعلم، د، ش، ض).
(٣) مكر: مكره، ض.
(٤) مجازي: يجازي، د.

وقيل: «من عنده علم الكتاب»: علي بن أبي طالب، عن أبي جعفر محمد بن علي، ومحمد بن الحنفية عليهم السلام[1].

۞ المعنى

«**وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ**» يا محمد «**بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ**» وأنت حي، قيل: أراد بعض الموعود، عن الحسن، وأبي علي، وأبي مسلم. وقيل: أراد الكل والبعض قد يكون بمعنى الكل، عن أبي القاسم. «**الَّذِي نَعِدُهُمْ**» قيل: من العذاب، عن ابن عباس، والحسن. وقيل: الظفر بهم وإبطال دينهم وإظهار دين الإسلام، قال القاضي: وهو الصحيح لأنه حصل[2] بعضه في أيامه والأكثر بعد وفاته، «**أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ**» فيتم الموعود لأمتك، عن الأصم وجماعة. «**فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ**» أي: ليس عليك إلا إبلاغ الرسالة[3] «**وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ**» أي: علينا الجزاء والحساب.

ثم ذكر تعالى ما يكون كالدلالة على حصول هذا الموعود وإن تأخر، فقال سبحانه: «**أَوَلَمْ يَرَوْا**» يعني الكفار، وقيل: أهل[4] مكة «**أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ**» نقصدها «**نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا**» قيل: بالفتوح على المسلمين من أرض المشركين، عن ابن عباس بخلاف، والحسن، والضحاك، ومقاتل. والأصح أن يفتح أرضًا بعد أرض فيبطل فيها أحكام الشرك ويظهر أحكام الإسلام، أفلا يخافون أن يفتح أرضهم كما فتح غيرها؟، وهلا اعتبروا؟، قال القاضي: وهذا الوجه[5] هو الأولى لأنه يتصل[6] بما وعده من النصرة وظهور دينه، وقيل: نأتي الأرض ننقصها من أطرافها بموت أهلها وتخريب أرضهم[7] أفلا يخافون أن نفعل بهم مثل ذلك، عن ابن عباس، وقتادة، ومجاهد، وعكرمة، والشعبي، قال الشعبي: لو كانت الأرض تنقص لضاق عليك،

---

(١) عليهم السلام: +، ش.
(٢) حصل: جعل، د.
(٣) إلا إبلاغ الرسالة: إلا البلاغ للرسالة، ض.
(٤) أهل: +، ش.
(٥) وهذا الوجه: +، د.
(٦) يتصل: ينقل، د.
(٧) أرضهم: أرضها، د.

وقيل: ننقصها بذهاب علمائها وفقهائها وعبادها وخيار أهلها، عن عطاء، ومجاهد، وأبي مسلم[١]، وروي نحوه عن ابن عباس، وقيل لسعيد بن جبير: ما علامة هلاك الناس؟ قال: هلاك علمائهم، وعن ابن مسعود: موت العالم ثلمة في الإسلام لا يسدها شيء ما اختلف الليل والنهار[٢]. وقيل: معناه أولم يروا[٣] ما يحدث في الدنيا من العبر، خراب بعد[٤] عمارة، وموت بعد حياة؛ لأن نقصان الأرض بنقصان أهلها وعمارتها فكما تنقص الأرض كذلك[٥] يفعل الناس ما وعدوا من الموت، عن أبي علي. وقيل: هو إخبار عن قدرة الله تعالى وإبطال أمر آلهتهم؛ أي: لو كانوا آلهة لمنعوا من الخراب، عن أبي مسلم. وقيل: ننقص من بركاتها وثمارها وزروعها «**وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ**» ولا راد لقضائه، والمعقب الذي يكر على الشيء ويتبعه؛ أي: لا يتبع حكمه أحد لينقضه، وقيل: لا يحكم بعد حكمه حاكم، وتدخل فيه جميع أحكامه من العقوبات وغيره فلذلك عقبه بقوله: «**وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ**» أي: الجزاء على ما يعمله العبد من الخير أو[٦] الشر.

ثم بيّن أن مكرهم يضمحل عند نزول العقاب بهم، فقال سبحانه: «**وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ**» يعني من قبل مشركي مكة نحو عاد وثمود ونمرود[٧] وغيرهم، دبروا في أمر الرسل وتكذيبهم وهلاكهم واحتالوا بما في وسعهم، فأبطل الله مكرهم، كذلك يبطل مكر هؤلاء إن الأمر لله جميعًا «**فَلِلَّهِ**[٨] **الْمَكْرُ**» أي: التدابير فهو القادر على جميعه، وقيل: مكروا لإبطال دينهم فلم يصلوا إليه كذلك هؤلاء، وقيل: إنه جزاء المكر، عن أبي مسلم. وقيل: ما يفعله الله تعالى بهم من المكر[٩] أقوى

(١) وأبي مسلم: وابن السلم، ض.
(٢) تفسير البغوي ١/٣٢٦، شعب الإيمان ٢/٢٦٨ برقم (١٧١٩)، السلسلة الضعيفة ١٠/١٧٠ برقم (٤٦٦٨).
(٣) أولم يروا: ـ، د.
(٤) بعد: بعدها، د.
(٥) كذلك: كذا، د.
(٦) أو: و، د.
(٧) ونمرود: نمروذ، ض.
(٨) فلله: فله، ض.
(٩) المكر: المكروه، د.

وأثبت، عن أبي علي. ﴿يَعۡلَمُ مَا تَكۡسِبُ كُلُّ نَفۡسٖۗ﴾ أي: ما: يفعله من المكر[1] والخير والشر فيجازيه به، وقيل: يعلم ما يمكرون به في أمر الرسول فيبطل أمرهم[2] ويظهر دينه وأمره «وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ» أي: لمن عاقبة الخير حين يدخل المؤمنون الجنة والكفار النار، وقيل: سيعلمون أن العاقبة لكم أم لهم[3] عند ظهور دينه «وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً» أنت يا محمد، فحاكمهم إلى الله و«قُلْ» لهم «كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ[4]» أي: حسبي الله شاهدًا بيني وبينكم، وشهادة الله بإظهار معجزاته عليه، وقيل: شهادته[5] له يوم القيامة أنه[6] رسوله وأنهم كفرة فجرة «وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ» قيل: هو الله تعالى، عن الحسن، وسعيد بن جبير، والزجاج. وقيل: أهل الكتاب الذين آمنوا من اليهود والنصارى منهم ابن سلام وسلمان وتميم الداري، عن ابن عباس، وقتادة، ومجاهد، وأبي علي. وقيل: أراد أن الكتاب الذي جئتكم[7] به وهو القرآن يقضي بيني وبينكم، عن الأصم، وقال: لا يجوز أن يحاكم خلقه إلى عباده. وقيل: هم علماء أهل الكتاب لما عرفوا المعجزات وما ذكر في أخباره من التوراة والإنجيل، عن ابن عباس، وأبي القاسم، وأبي مسلم وجماعة. وقيل: هو علي بن أبي طالب، عن محمد بن علي. فأما القراءة بكسر ميم (من) فلا شبهة أنه الله تعالى لأن الأشياء تعلم من عنده.

۞ الأحكام

تدل الآية على ظهور الإسلام، وبطلان الشرك وسائر الأديان في أيامه، وبعد وفاته، وقد وجد ذلك، فيدل على معجزاته صلى الله عليه وآله[8].

(١) أقوى وأثبت... من المكر: +، د.
(٢) أمرهم: أمره، د.
(٣) أم لهم: +، د.
(٤) بيني وبينكم: ـ، د.
(٥) شهادته: فشهادته، د؛ شهادة الله، ش.
(٦) أنه: +، د.
(٧) جئتكم: ختم، د.
(٨) وآله: ـ ش.

وتدل على وعيد عظيم للكفار بقوله: «**وَسَيَعْلَمُ الكَافِرُ**».

وتدل على جواز الحجاج في الدين.

وتدل على جواز المحاكمة إلى الحكماء، فيبطل قول الخوارج في نفي التحكيم.

وتدل على أن مكرهم حادث من جهتهم، فيبطل قول المجبرة.



سورة إبراهيم عليه السلام[1] قيل: إنها[2] مكية، عن ابن عباس، وعكرمة، والحسن، وقتادة، وسعيد بن جبير. وذكر الأصم أنها مكية إلا ما قاله بعضهم أن قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ الآيتان فإنهما مدنيتان. وذكر هشام عن قتادة إلا قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ الآية.

قال القاضي: ونزول السورة بمكة والمدينة لا يختلف إذا لم يتعلق به حكم، فإن كان فيه ناسخ ومنسوخ ففيه فائدة عظيمة وطريقة للأخبار[3].

وعن أبي عن النبي صلى الله عليه: «من قرأ سورة إبراهيم أعطي من الأجر عشر حسنات بعدد من عبد الأصنام، وبعدد من لم يعبدها»[4].

قيل: ختم السورة [السابقة] بإثبات رسالته وإنزال الكتاب عليه، وافتتح هذه السورة ببيان الغرض في الرسالة والكتاب.

وهي اثنتان وخمسون آية[5].

---

(١) وهي اثنتان وخمسون: +، د.
(٢) إنها: +، د.
(٣) للأخبار: الأخبار؛ د، ش.
(٤) تفسير البيضاوي ١/ ٣٥٨، تفسير ابن أبي السعود ٥/ ٦٢، الكشاف ١/ ٦٣٦، مجمع البيان ١٣/ ١٩٣.
(٥) وهي اثنتان وخمسون آية: ـ، د.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى:

﴿الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ۝١ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٖ شَدِيدٍ ۝٢﴾

القراءة

قرأ أبو جعفر، ونافع، وابن عامر: «**الله الذي**» برفع اسم الله على الاستئناف، وخبره فيما بعده، وقرأ الباقون: بالكسر عطفًا على قوله: «**العزيز الحميد**»، قال أبو عمرو: والخفض على التقديم والتأخير تقديره: صراط الله العزيز الحميد، وقال الكسائي: من خفض جعله كلامًا وجزاء وأتبع الخفض الخفض، وقرأ يعقوب بالكسر إذا وصل على النعت وبالرفع إذا وقف على «**الحميد**» على الاستئناف.

اللغة

العزيز: الممتنع باقتداره على الأمور، عَزَّ يعز عِزًّا وعِزّة فهو عزيز.

والحميد: فعيل من حمد يحمد حمدًا فهو حميد؛ أي: محمود على كل حال، ويقال: حمدت الشيء: رضيته، وأحمدته: وجدته[1] محمودًا.

والصراط: المنهاج البين، وهو ههنا دين الإسلام.

والشدة: مصدر شدّه يشد شدًّا وشدة[2]، وهو جمع يصعب معه التفكيك.

الإعراب

﴿الٓر﴾ محله رفع بالابتداء، وخبره «**كتاب**»، وقيل: تقديره: هذا كتاب أنزلناه، فـ(كتاب) رفع بالابتداء وخبره في «**أنزلناه**»، عن الزجاج.

---

(١) وجدته: وحمدته؛ ش، ض.

(٢) شدّة: مشدة، د.

و«**الحميد**» خفض نعتًا للعزيز، ويجوز في العربية رفعه على أنه ابتداء وخبره: «**الله**» أي: الحميد هو الله.

(**ويل**)[1] رفع على الابتداء، وخبره فيما بعده.

۞ المعنى

﴿الٓر﴾ بينا فيما تقدم ما قيل في الحروف في أوائل السور، وبَيَّنَّا أن الاختيار وقع منها على ثلاثة معان:

أحدها: أنه اسم للسورة، عن الحسن، والأصم، وأبي علي، قال الحسن: كان أصحاب النبي ﷺ يقولون في ﴿الٓر﴾ ونحوه: هو اسم للسورة ومفاتيح لها.

وثانيها: أنه إشارة إلى أن هذه السورة مؤلفة من هذه الحروف، وبها تتكلمون، وعجزتم عن إتيان مثله، فدل[2] على كونه معجزًا، عن أبي مسلم.

وثالثها: أنها مأخوذة من أسمائه وصفاته تعالى.

﴿الٓر﴾ أنا الله أرى، عن ابن عباس «**كِتَابٌ**» يعني القرآن «**أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ**» نزل به جبريل من الله تعالى إلى رسوله «**لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ**» قيل: جميع الخلق، وقيل: أهل مكة، عن ابن عباس. والأول الوجه؛ لأنه مبعوث إلى الكافة، ونسب الإخراج إليه وإن كانوا خرجوا لأنهم خرجوا عند دعائه فجاز إضافته إليه مجازًا وتوسعًا «**مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ**» قيل: من الضلالة إلى الهدى، عن قتادة. وقيل: من الكفر إلى الإيمان، وإنما شبه الكفر بالظلمة لأنها غاية ما يتحير به المرء، والإيمان بالنور لأنه غاية ما تتجلى به طرق الهداية، عن أبي علي. «**بِإِذْنِ رَبِّهِمْ**» قيل: بأمره، عن أبي علي. وقيل: بعلمه، عن الأصم. يعني أنزل الكتاب بعلمه لا يقدر عليه غيره، وقيل: بلطفه[3] وتسهيله «**إِلَى صِرَاطِ**[4]» أي: طريق الله وهو الإسلام

(١) ويل: وويل، ش.
(٢) فدل: فيدل، د، ش.
(٣) بلطفه: لطفه، ش، ض.
(٤) إلى صراط: إلى صراط الله، ش، ض.

«**الْعَزِيزِ**» القادر على ما يشاء «**الْحَمِيدِ**» المحمود على كل حال، وقيل: المستحمد إلى خلقه بنعمه، وقيل: المحمود على جميع ما يفعله، وذكر الحميد تنبيهًا أنه تعالى وإن كان عزيزًا قادرًا على ما يشاء فلا يفعل إلا الحسن الحميد الذي يحمد عليه «**اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ**» خلقًا وملكًا يعني: أن الرسول يدعوكم إلى الله الذي له ملك[1] السموات والأرض «**وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ**» قيل: هو اسم للعذاب[2] الشديد، عن ابن عباس، وأبي علي، وأبي مسلم. وقيل: هو نداء مكروب من شدة العذاب، عن الأصم. وقيل: هو واد في جهنم، عن الكلبي. «**مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ**» وهو عذاب النار.

۞ الأحكام

تدل الآية على بطلان مذهب الجبر من وجوه:

أحدها: أن الكفر[3] لو كان خلقًا لله تعالى لم يصح إخراجهم من ذلك بالكتاب.

وثانيها: أنه أضاف الإخراج إلى الرسول، فلو كان هو خالق الكفر والإيمان لما صح إضافته إليه.

وثالثها: أن الإخراج بالكتاب إنما يصح بأن يتدبر ويستدل ويؤمن، وذلك لا يصح إلا بعد أن يكون الفعل لهم ويكونوا مختارين.

وتدل على أنه أراد إخراج الجميع من الظلمات إلى النور.

وتدل على حدث القرآن من حيث وصف بالإنزال وأنه كتاب.

ويدل قوله: «**الحميد**» أنه لا يفعل القبيح؛ لأن ذلك مبالغة في استحقاق الحمد، فلا[4] يصح ذلك على مذهب المجبرة.

---

(١) ملك: مالك، د.
(٢) للعذاب: العذاب، د.
(٣) أن الكفر: +، د، ش.
(٤) فلا: ولا، د.

قوله تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ ۝٣ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٤﴾

اللغة

الاستحباب: طلب محبة الشيء بالتعرض له[1]، والمحبة تستعمل بمعنى الإرادة، وبمعنى الشهوة.

والصد: المنع والإعراض لازم ومُتعدٍّ[2].

والبغية: الطلب، بغاه يبغيه بغية، وابتغى ابتغاء.

والعوج: الميل عن الاستقامة، يقال: في الدين عِوج بالكسر، وفي العود عَوج بالفتح.

الإعراب

اللام في قوله: «ليبين لهم» لام كي، وأصله الإرادة يعني الإرسال وقع للبيان لا للإضلال، ثم ابتدأ بقوله: ﴿فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ﴾ فهو رفع على الاستئناف، ويجوز النصب على أن البيان سبب الإضلال[3] كقوله: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّٗا وَحَزَنًاۗ﴾ [القصص: ٨]، عن الزجاج، واختار الوجه الأول، وهو القراءة.

النزول

قيل: كان المشركون يتعجبون من بشر يدعي أنه رسول وهو يتكلم بلسانهم، فنزلت الآية، مبينًا أن عادة الله كذلك.

---

(١) له: لها، د.

(٢) متعدٍّ: متعدي؛ د، ش، ض.

(٣) الإضلال: للإضلال، ض.

۞ المعنى

ثم وصف الكفار، فقال سبحانه: «الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ» قيل: يختارون، وقيل: يحبون «الْحَيَاةَ الدُّنْيَا» ويؤثرونها على الآخرة، عن الأصم. ملاذها ونعيمها «عَلَى الآخِرَةِ» أي: على ثواب الآخرة جهلاً منهم لموقع[١] الثواب «وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ» قيل: يمنعون الناس عن دين الله، وقيل: يعرضون عن دين الله وهو الإسلام «وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا» أي: يبغون لها عوجًا، قيل: يطلبون لها العوج وذلك يوصلهم إلى تحريف الدين وتغييره ليوهموا أنه غير حق، وقيل: أراد طعنهم في الدين، وقيل: وصفهم له بأنه غير مستقيم، وقيل: يبغونها أي على الآخرة خلافًا وتمردًا، عن الأصم. وقيل: يبغون السبيل والسبيل يؤنث، عن أبي علي. «أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ» عن الحق وهو الكفر، وقيل: يبعد ردهم عن الضلال، وقيل: في هلاك يطول عليهم فلا ينقطع، وأراد بالبعد امتداده، وقيل: بعيد عن النجاة «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ» أي: بلغة قومه، فيه قولان:

الأول: أرسلنا كل رسول إلى قومه بلغتهم غيرك، فإنك مبعوث إلى الأحمر والأسود، عن مجاهد.

الثاني: كما أرسلناك إلى العرب بلغتهم كذلك أرسلنا[٢] كل رسول بلغة قومه[٣].

«لِيُبَيِّنَ لَهُمْ» أي: ليظهر لهم الدين «فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ[٤]» قيل: يعاقب ويهلك من لا يقبل، لما ذكر الامتحان بالبعثة عقبه بذكر الثواب والعقاب ترغيبًا وترهيبًا، وقيل: يحكم بضلال من ضل وبهداية من اهتدى، وقيل: يلطف لمن يشاء ممن له لطف ويضل عن ذلك من لا لطف له «وَهُوَ الْعَزِيزُ» القادر على جميع

---

(١) لموقع: بموقع، د.
(٢) أرسلنا: ـ ، د.
(٣) كما أرسلناك. . . رسول بلغة قومه: كما أرسلنا كل رسول بلغة قومه كذلك أرسلناك بلغة قومك، ش.
(٤) ويهدي من يشاء: +، د.

ذلك من ثواب وعقاب «الْحَكِيمُ» لا يفعل إلا ما توجبه الحكمة، وقيل: العزيز الممتنع لاقتداره[1]، الحكيم في قضائه، عن ابن عباس.

الأحكام

تدل الآية على أن إيثار الدنيا على الآخرة مذموم، والمراد شدة حرصهم عليها واقتصارهم على ذلك[2] ولم يرد ما لا بد من طلبه من مصالحه ومصالح عياله وما فيه عمارة طريق الآخرة.

وتدل على أن كل رسول بعث إلى قومه بلغتهم، فأما نبينا صلى الله عليه وآله[3] فمبعوث إلى الكل فيحتمل وجهين:

أحدهما: أنه مستثنى.

والثاني: أنه يبين لقومه، ثم يبين للناس.

وتدل على قولنا في اللطف؛ لأن كون الرسول منهم متكلمًا بلسانهم أقرب إلى القبول.

وتدل على أنه أراد من الجميع اتباع الدين، فيبطل مذهب المجبرة في الإرادة والمخلوق.

قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾﴾

---

(١) الحكيم لا يفعل إلا... لاقتداره: ـ، د.

(٢) عليها واقتصارهم على ذلك: ـ، د.

(٣) صلى الله عليه وآله: +، د.

اللغة

التذكير: التعريض للذكر، ذكره تذكيرًا، وذاكره مذاكرة، والذكر يكون بالقول ويكون في القلب، وهو حصول المعنى للنفس وهو يرجع إلى معنى العلم، واختلفوا، فقيل: السهو معنى يضاد الذكر الذي هو العلم، وقيل: هو ذهاب العلوم الضرورية لما جرت العادة بالعلم به.

والبلاء: النعمة، والبلاء: الشدة، وهو من الأضداد، إلا أنه يقال في الإحسان: ابتليته، وفي غيره: بلوته.

وصَبَّار «فَعَّال» من الصبر، والصبر: حبس النفس[1] عما تنازع إليه، فالصبار: كثير الصبر، والشكور: كثير الشكر؛ لأن بناء «فعَّال» و«فعول» للمبالغة، والشكر: إظهار النعمة والاعتراف بالنعمة.

الإعراب

يقال: ما معنى (أن) في قوله: «**أن أخرج**"؟

قلنا: يجوز فيه وجهان:

أحدهما: بمعنى (التي) للتفسير، ويصلح (أن)[2] التي توصل بالأفعال إلا أنها وصلت هاهنا بالأمر كما توصل (الذي) بضمير المخاطب في قوله: أنت الذي قمت.

و«**يذبحون**» إذا دخلت الواو فالمراد به[3] العطف لأنهم كانوا يذبحون ويعذبون أنواعًا غير الذبح فجاز العطف، وإذا حذفت الواو فالمراد به تفسير العذاب، عن الفراء.

المعنى

لما تقدم إرسال الرسل فسرها ببيان ذكر موسى وغيره، فقال سبحانه: «**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا**» قيل: بالمعجزات والدلالات، وقيل: الآيات التسع، عن

---

(١) النفس: النفع، ض، ش.
(٢) أن: إذا، ض.
(٣) به: +، د.

مجاهد. وقيل: بديننا، حكاه الأصم وزيفه لأنه خلاف الظاهر «**أَنْ**[١] **أَخْرِجْ**» أي: وقلنا له أخرج «**قَوْمَكَ**» يعني بني إسرائيل ومن بعث إليهم، وأضاف الإخراج إليه لأنهم بسببه ودعائه خرجوا «**مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ**» من الكفر إلى الإيمان «**وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ**» قيل: بنعمه في الأيام دينًا ودنيا، وقيل: بأيام[٢] بنعمه عليكم، عن ابن عباس، وأبيّ بن كعب، والحسن، ومجاهد، وقتادة، وسعيد بن جبير، وعمرو بن ميمون، وأبي علي. وقيل: بوقائع الله وعذابه في الأمم السالفة ونعمه فيهم كعاد وثمود وغيرهم، عن ابن زيد، والأصم، وأبي القاسم، قال أبو القاسم: معناه خوفهم بما نزل من قبل بالمكذبين من العقاب، وقيل: بأيام الله عنها لأنها طرق[٣] لها[٤] جامعة لكل ذلك، عن أبي مسلم. «**إِنَّ فِي ذَلِكَ**» فيما فعل بهم «**لَآيَاتٍ**» حجج وعلامات «**لِكُلِّ صَبَّارٍ**» كثير الصبر «**شَكُورٍ**» كثير الشكر، وإنما جمع بينهما لأن حال المؤمن لا يخلو من نعمة يجب شكرها أو محنة يجب الصبر عليها، والصبر والشكر[٥] خصال المؤمنين، وقيل: لأن أيام موسى كانت[٦] أيام محنة ونعمة، فجمع الله تعالى بين الشكر والصبر، وقيل: لأن التكليف لا يخلو من شكر وصبر، وعن سعيد بن جبير أن ناسًا يحسبون الشكر أن يقول: الحمد لله، وليس كذلك، إنما الشكر أن يعرف حقه فيما أنعم الله عليه فيطيعه فيما أمره، ويجتنب عما نهاه شكرًا لما أنعم الله عليه، فذلك الشكر الذي ينجيه الله به من النار ويثيب عليه الجنة «**وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ**» خلصكم «**مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ**» أي: قومه وأتباعه ومن كان على دينه «**يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ**» قيل: يذيقونكم، عن الحسن. وقيل: يقتصرون[٧] بكم على ذلكم ويجعلون حظكم ذلك، عن أبي مسلم، من السوم

---

(١) أن: أي، د.

(٢) بأيّام: بآياته، د.

(٣) طرق: طرف، د، ض.

(٤) لها: +، د، ش.

(٥) والصبر والشكر: والشكر والصبر، د، ش.

(٦) كانت: كان، د.

(٧) يقتصرون: يقصرون، د.

أن تقتصر الماشية على[1] الرعي «وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ» أي: يستبقون النساء أحياء.

ومتى قيل: فلم جمع بينهما في النعمة، وإنما النعمة في أحدهما وهو النجاة من الذبح؟

فجوابنا: لأنهم استبقوا النساء للخدمة، ففي الخلاص منها نعمة. وقيل: كان في بقائهن منفردات عن الرجال مضرة عظيمة.

«وَفِي ذَلِكُمْ» أي: ما تقدم ذكره «بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ[2]» قيل: نعمة عظيمة مَنَّ الله بها عليكم، عن الحسن، والأصم، وأبي مسلم. وقيل: بلاء وشدة ومحنة تنزل بكم منهم، عن أبي علي. وقيل: بلاء امتحان بالتخلية وترك منعهم قهرًا، عن أبي القاسم. والأول أقرب أن المراد به النعمة لأنه يوافق صدر الآية في قوله: «اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ»، وقيل: تقدم ذكر النعمة وذكر البلية من فرعون فكلا الوجهين محتمل[3] إلا أن الأول أقرب.

۞ الأحكام

تدل الآية على أنه تعالى بعث موسى، والغرض إخراج الناس من الكفر إلى الإيمان خلاف ما تقوله المجبرة.

وتدل على وجوب الصبر والشكر، والصبر على وجهين: على الطاعة، وعن المعصية، وإنما خص الشاكر بالآيات وإن كانت آية لغيره لأنه ينتفع بها؛ لأن غيره[4] إذا لم يشكر فكأنه[5] لم[6] يعتد به.

---

(١) على: عن، د.
(٢) بلاء من ربكم عظيم: بلاء عظيم من ربكم، ش، ض.
(٣) محتمل: يحتمل، د.
(٤) لأن غيره: دون غيره، ش.
(٥) يشكر فكأنه: يشكر كأنه، د.
(٦) لم: لا، ش.

قوله تعالى:

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾﴾

القراءة

قراءة العامة: «وإذ تأذن»، وروي عن ابن عباس: (وإذ قال لكم[1] ربكم)، ويحمل على أنه فسر الآية لا أنه قراءة[2].

اللغة

التأذن: الإعلام، والعرب تستعمل «تَفَعَّل» بمعنى «أَفْعَلَ»، كقولهم: أوعد وتوعد، وأحدث وتحدث، قال الحارث[3] بن حلزة[4]:

آذَنَتْنَا بِبَيْنِهَا[5] أَسْمَاءُ   إلا أن التشديد أبلغ وآكد

المعنى

لما تقدم ذكر نعمة الله عليهم أتبعه بذكر ما يلزم عليها من الشكر المستزيد للنعم، والكفر الموجب للهلاك، فقال سبحانه: «وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ» أي: أعلمكم، عن الحسن، وأبي القاسم، وأبي مسلم. وقيل: قال ربكم في القرآن، عن ابن عباس، وابن زيد. وقيل: أخبر، عن أبي علي. وقيل: ناداكم ربكم فاسمعوا «لَئِنْ شَكَرْتُمْ» نعمتي «لأَزِيدَنَّكُمْ» من النعم، وقيل: لئن شكرتم بالطاعة لأزيدنكم من الألطاف، قال قتادة:

---

(١) لكم: زيادة من مجمع البيان ٤/ج١٣/ ٢٠٠.

(٢) ويحمل على... قراءة: +، د، ش.

انظر: مجمع البيان المجلد الرابع ج١٣/ ٢٠٠، هو تفسير لابن عباس، وليس قراءة، وفي تفسير أبي السعود ٥/ ٣٤. قال ما لفظه: وفي قراءة ابن مسعود رضي الله عنه: وإذ قال ربكم.

(٣) الحارث: الحرث، ش، ض.

(٤) حلزة: حايره، د.

(٥) ببينها: ببينهما، ض؛ تنبيها، د.

حق على[1] الله أن يعطي من سأله ويزيد من شكره، فأما من قال: لئن شكرتم بطاعتي لأزيدنكم في الطاعة فغير صحيح؛ لأن الطاعة فعل العبد، وظاهر قوله: «**لأزيدنكم**» يرجع إلى فعل الله تعالى «**وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ**» قيل: كفرتم نعمتي لأنه مقابل بالشكر، وقيل: كفرتم بالله فيدخل فيه كفران النعمة وسائر أنواع الكفر «**إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ**» أي: على ذلك «**وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الأَرْضِ جَمِيعًا**» لما دعا إلى الشكر بيّن أنه ينفعهم، والكفر يضرهم، فأما الله فلا يجوز عليه النفع والضر، فقال سبحانه «**فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ**» أي: غني عمن لم يطعه، حميد في أفعاله، مستحق للحمد، عن أبي علي. وقيل: محمود فيما صنع إن كفرتم، عن أبي القاسم.

۞ الأحكام

تدل الآية على أن كل من شكر الله تعالى فالله يزيده لا محالة لأنه كالضمان منه، ولا يجوز عليه الخلف إلا أنه يجوز أن يزيده في الدنيا ويجوز أن يزيده في الآخرة، والشكر الاعتراف بنعمه والتزام طاعته وترك مخالفته.

وتدل على أن النفع والضر بالطاعة والمعصية تعود إلى العبد، فيدل على أن الشكر والكفر فعل العبد وليس بخلق الله تعالى، فيبطل قول المجبرة في المخلوق.

قوله تعالى:

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ۝٩﴾

۞ اللغة

النبأ: الخبر عما يعظم شأنه، يقال: لهذا الأمر نبأ، وأنبأ ينبئ إنباءً، وتنبأ مسيلمة ادعى النبوة وليس كذلك، والنبيء بالهمز أخذ من ذلك، فأما بغير الهمز

---

(١) على: +، د، ش.

وعليه أكثر المفسرين فهو من الرفعة، ونبأ الله محمدًا صلى الله عليه وعلى آله[١] بعثه نبيًا.

والشك: التوقف[٢] بين النقيضين من غير قطع على أحدهما أو[٣] ظن لذلك، والشك ليس من جنس الاعتقاد؛ لأن الشاك خال من الاعتقاد.

والمريب: المتهم، ولذلك يقال في الشاك مريب، أراب يريب إرابة إذا أتى بما يوجب الريبة.

والدعاء: طلب أمر من المدعُوّ[٤]، دعاه فهو داع.

۞ الإعراب

«قوم نوح» كسر على تقدير: نبأ[٥] نوح، وكذلك (عاد وثمود) إلا أن ثمود لا ينصرف.

وقوله: «**في أفواههم**» قيل: (في) بمعنى[٦] الباء، وقيل: بمعنى الباء بلغة طي، عن أبي القاسم. وقيل: هو للظرف.

۞ النظم

قيل: تم قصة موسى ﷺ عند قوله: «**الحميد**» ثم ابتدأ الخطاب لأمة محمد صلى الله عليه وعلى آله[٧] عائدًا على[٨] ما تقدم مذكرًا لهم حال الأمم، عن ابن عباس، والأصم، وأبي علي، والأكثر.

---

(١) صلى الله عليه وعلى آله: +، د.
(٢) التوقف: الوقف، ض.
(٣) او: لو، ض.
(٤) المدعو: المدعى، ش، ض.
(٥) نبأ: أيا، د.
(٦) بمعنى: معنى، د.
(٧) صلى الله عليه وعلى آله: +، د.
(٨) على: إلى، د.

وقيل: إنه من قول موسى لقومه يهديهم بما[(١)] ينزل[(٢)] بالأمم، ويتصل بما قبله، عن أبي مسلم.

۞ المعنى

«أَلَمْ يَأْتِكُمْ» خطاب للكفار «نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ» أي خبر من كان قبلكم من الأمم، ثم فسر ذلك فقال سبحانه: «قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ» هم قوم هود «وَثَمُودَ» هم قوم صالح «وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ» من الأمم «لاَ يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ[(٣)] اللَّهُ» قيل: رجع ذلك إلى الجميع أي: لا يعلم كنه مقاديرهم إلا[(٤)] الله، لأن المذكور في الكتاب جملة لا يفصل للعدد فيه[(٥)]، عن أبي علي. وقيل: من بعدهم لا يعلمهم إلا الله ومن أخبرهم الله، عن أبي علي. وزيفه القاضي لأنه خلاف الظاهر، وقيل: أراد هلاك[(٦)] قوم لم تبلغنا أخبارهم أصلاً كذبوا رسلاً لم نعرفهم، عن ابن عباس، والحسن، والأصم. «جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ» قيل: بالأدلة والحجج والأحكام، وقيل: بالأمر والنهي، عن ابن عباس. وقيل: بالحلال والحرام[(٧)]، عن الأصم. «فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ» اختلفوا في معناه على قولين:

أولهما: أن المراد باليد والفم الجارحتان.

والثاني: أن المراد به[(٨)] غير الجارحة، وإنما ذكرها مجازًا وتوسعًا، وإذا أمكن حمل الكلام على حقيقته وهي[(٩)] الجارحة[(١٠)] كان أولى من حمله على المجاز.

---

(١) بما: ـ، ش.
(٢) ينزل: نزل، د.
(٣) إلاّ: إلى، د.
(٤) مقاديرهم إلا: معاداتهم إلى، د.
(٥) يفصل للعدد فيه: تفصيل فيه للعدد، د.
(٦) هلاك: ـ، د.
(٧) بالحلال والحرام: بالحرام والحلال، د.
(٨) به: ـ، د.
(٩) وهي: هو، ش.
(١٠) وإنما ذكرها مجازا. . . وهي الجارحة: +، د، ش.

فأما من قال بالأول اختلفوا في الهاء في قوله: ﴿أَيْدِيَهُمْ فِيٓ[1] أَفْوَٰهِهِمْ﴾ على ثلاثة أقوال:

أولها: أن الهاء في الحرفين كناية عن الكفار، والمعنى: عضوا على أيديهم غيظًا وحنقًا على الأنبياء عليهم السلام، عن ابن عباس، وابن مسعود، وابن زيد، وأبي علي، وقرأ ابن مسعود: ﴿عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِۚ﴾ [آل عمران: ١١٩]، وهو اختيار القاضي، قال الشاعر:

قَد أفنى أَنامِلَهُ أَزمُهُ[2] فَأَمسى يَعَضُّ عَلَيَّ الوَظيفا[3]

وقيل: لما سمعوا كتاب الله عجبوا ورجعوا بأيديهم إلى أفواههم تعجبًا، عن ابن عباس.

وقيل: وضعوا أيديهم في أفواههم مشيرين بذلك إلى الأنبياء أن كفوا عن الكلام كأنهم أشاروا إلى الرسل أن اسكتوا، عن الكلبي.

وثانيها: أن تكون الهاءان راجعتين إلى الرسل، والمعنى: قيل: أخذوا أيدي الرسل فوضعوها على أفواههم ليسكتوهم، و[4]يقطعوا كلامهم. وقيل: الرسل سكتوا عنهم لما يئسوا منهم.

وثالثها: أن تكون الهاء في (أيديهم) ترجع إلى الكفار، وفي الأفواه إلى الرسل، فكأنهم لما سمعوا وعظهم وكلامهم أشاروا بأيديهم إلى أفواه الرسل تكذيبًا لهم وردًا عليهم وتسكيتًا[5] لهم، عن الحسن. وقيل: يسكتونهم بذلك، عن مقاتل. قال القاضي: وهو الأولى؛ لأن المكذب لغيره والراد لكلامه يدفع يده إلى ناحية فمه.

---

(١) أيديهم في: +، د.

(٢) أفنى أنامله أزمه: حتى أنامله أرضه، ض.

(٣) اللآلي في شرح أمالي القالي للبكري ص٨٤٥، وفي مجمع البيان م٤/ج١٣/٢٠٢ إلا أن في مجمع البيان بدلاً من (فأمسى): فأضحى.

(٤) و: ـ، د.

(٥) وتسكيتًا: وتسكينا، ض.

فأما على القول الثاني أنه ذكر اليد والفم توسعًا ومجازًا[1]، اختلفوا في معناه، فقيل: المراد باليد ما نطق به الرسل من الحجج، والهاءان يرجعان إلى الرسل، ومعناه[2]: ردوا حجتهم من حيث جاءت؛ لأن الحجج تخرج من الأفواه، فإذا ردوها قيل ردوا أيديهم في أفواههم، عن أبي مسلم.

وقيل: معناه: ردوا القول بأيدي أنفسهم إلى أفواه الرسل أي[3]: أنهم كذبوهم، ولم يصغوا إليها، فالهاء الأولى للقوم، والثانية للرسل، واليد صلة وتأكيد كقولهم: فلان أوقع نفسه في الهلكة بيده.

وقيل: كذبوا الرسل وردوا ما جاؤوا به، عن مجاهد، وقتادة، وابن أبي نجيح.

وقيل: تركوا ما أمروا به وكفروا عن قبول الحق، عن أبي عبيدة، والأخفش.

قال القتيبي: ولم يسمع أحد أن العرب تقول للذي[4] رد يده في فيه: كلمت فلانًا إذا ترك ما أمر به[5]، وحكى ابن جرير عن العرب تقول للذي يمسك عن الجواب: رد يده في فيه، تقول: حكمت فلانًا في حاجة فرد يده في فيه إذا سكت عنه، وهذا تعسف لا يحمل الكلام عليه ولأنهم أجابوا بالتكذيب.

وقيل: المراد بالأيدي النعم، و(في) تحمل على (الباء)، والهاء الأولى للقوم والثانية للرسل أي: ردوا بأفواههم نعم الرسل أي: بيانهم ووعظهم، عن مجاهد. وحروف الصفات تتبادل، قال الشاعر:

وأرغب فيهم عن لقيط ورهطه ولكنني عن سنبس[6] لست أرغب[7]

أراد أرغب بهم، فحمل على الباء.

---

(١) توسعًا ومجازًا: توسع ومجاز، ش، ض.

(٢) ومعناه: والمعنى، د.

(٣) أي: +، ش.

(٤) للذي: ـ ، د، ش.

(٥) ما أمر به: ما أمرته، ض.

(٦) سنبس: سنتي، د، ش، ض.

(٧) أرغب: أراغب، د. والبيت ورد في لسان العرب (ذرأ).

قال أبو علي: وفي قوله: ﴿فَرَدُّوٓاْ[1] أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ أنهم فعلوا ذلك مرة بعد أخرى.

«**وَقَالُوا**» يعني: الأمم «**إِنَّا كَفَرْنَا**» جحدنا «**بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ**» أي: برسالتكم «**وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ**» من الدين أهو حق[2] أم باطل «**مُرِيبٍ**» متهم لكم فيما ادعيتم من الرسالة، قال القاضي: وليس معناه الشك.

۞ الأحكام

تدل الآية على أنه لا يمكن القطع على مقدار السنين من لدن آدم إلى يومنا هذا، ولهذا قال ابن مسعود: كذب النسابون، الله أصدق حيث قال: ﴿عَضُّواْ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَنَامِلَ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۚ﴾ وروي ذلك مرفوعًا، «وكان صلى الله عليه لا يجاوز في انتسابه معد بن عدنان»، حكاه الأصم.

وتدل على أن كل واحد من الرسل جاء بالبينات، خلاف ما تقوله الحشوية أن بعضهم لم تكن معه معجزة ولا شريعة.

وتدل على أن الشك في الدين مذموم، وقد يكون كفرًا.

ومتى قيل: هل يحسن الشك قط؟

قلنا: في ابتداء النظر يحسن، ولهذا قلنا: إنه ليس من جنس الاعتقاد، ولأن[3] الاعتقاد ما بعد[4] لا نعلمه قبيح.

وتدل على أن الرد والتكذيب فعل العبد؛ لذلك ذمهم عليه، فيبطل قول المجبرة في المخلوق.

(١) فردُّوا: ردُّوا، د، ش، ض.

(٢) أهو حق: أحق هو؛ د، ش.

(٣) ولأن: لأن، د.

(٤) ما بعد: ما تعد، ش.

قوله تعالى:

﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (١٠) قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١١) وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (١٢)﴾

اللغة

المن: أصله القطع، ومنه: ﴿أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [فصلت: ٨] أي: غير مقطوع، ومنه: المنية لأنها قاطعة عن أمور الدنيا، ومنّ عليه أنعم عليه؛ لأنه نفعه بما قطعه عن البؤس. والسلطان: الحجة التي تتسلط على إبطال قول المخالف. والأذى: ضرر يجده صاحبه في حاله، آذاه يؤذيه أذى، وتأذّى(١) به تأذيًا.

الإعراب

«أفي الله» استفهام والمراد الإنكار أي: لا شك فيه. و«فاطر» خفض؛ لأنه نعت لله، تقديره: أفي الله فاطر السموات شك.

و(من) في قوله: «من ذنوبكم» قيل: للتبعيض، فذكر ذلك ليدل على الرغبة في غفران بعض الذنوب، فكيف غفران الجميع، وقيل: ذكر البعض وأراد الجميع توسعًا، وقيل: (من) زائدة، عن أبي عبيدة. وأنكر سيبويه زيادتها في الواجب الثاني لتكون المغفرة بدلاً من الذنوب، قال أبو القاسم: وقد تزيد العرب (من) كقوله(٢) ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٧].

وقوله: «لنصبرن» اللام للقسم تقديره: والله لنصبرن.

---

(١) وتأذّى: ويأذى؛ د.

(٢) كقوله: +، د.

۞ المعنى

لما تقدم دعاء الرسل إلى التوحيد ابتداء كما جرت عادة الرسل[1] به، بيّن تعالى جواب الكفار وما دار بينه وبينهم، فقال سبحانه: «قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ» قيل: في عبادته، عن ابن عباس. وقيل: في توحيده وصفاته، واختلفوا، فقيل: هم مشركوا العرب كانوا يقرون بالله ويعبدون الأصنام فأزال الشك بقوله: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، عن الحسن. وقيل: ما كانوا يقرون به، والمراد بقوله: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ أي: لا ينبغي أن يشك فيه مع ظهور الدلالات، عن أبي علي.

ثم بيّن تعالى دلائل التوحيد فقال سبحانه: «فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ» أي: خالقهما دون غيره فوجب أن يعبد وحده، ثم أضاف[2] إليه ما يتعلق بالعدل فقال[3]: «يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ» أي: يدعوكم إلى الإيمان به وإلى طاعته واجتناب المعاصي التي هي سبب الغفران «مِنْ ذُنُوبِكُمْ» قيل: أراد جميع ذنوبكم، ولا شبهة أن جميع ذلك يغفر بالتوبة، وقيل: يغفر بعض ذنوبهم بالتوبة والإيمان، وإنما يغفر صغائر المؤمنين من حيث يزيد ثوابهم على عقاب ذنوبهم[4]، وقيل: يغفر من ذنوبه ما يتذكر ويتوب عنه دون ما نسي؛ لأنه قد ينسى بعض ذنوبه فلا يتوب عنه، فهذا ليس بالوجه لأنه يجب أن يتوب على الجملة من جميع الذنوب، ولأنه لا بد أن يخطر الله تعالى ذلك[5] بباله فإن لم يخطر بباله[6] يكون معذورًا «وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً» قيل: يزيد في أعماركم، وقيل: لا ينقص أعماركم بعذاب الاستئصال ولكن يؤخركم إلى وقت الموت، عن ابن عباس، وأبي علي. «قَالُوا» يعني الكفار للرسل «إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا» في الصورة والهيئة فكيف خصصتم بالنبوة، وهذا كلام الجهال؛ لأن التخصيص

---

(١) الرسل: العرب، د.

(٢) أضاف: أضافوا، د، ش.

(٣) فقال: فقالوا، د.

(٤) ذنوبهم: ذنبهم، ش، ض.

(٥) ذلك: ـ، د.

(٦) فإن لم يخطر بباله: +، د، ش.

بالنبوة لأجل الاستصلاح ويتميز بالمعجزة فلا معنى لاعتبار الصورة «**تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا**» تمنعونا «**عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا**» فسلكوا طريقة التقليد «**فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ**» أي: بحجة بينة، وقيل: طلبوا معجزات سوى ما ظهر عليهم اقتراحًا، وقيل: بل اعتقدوا أن ما جاءت به الرسل ليس بدلالة ولا حجة.

ثم بيّن تعالى جواب الرسل، فقال سبحانه: «**قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ**[1] **إِنْ نَحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ**» في الصورة والهيئة «**وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ**» أي: ينعم عليهم بالنبوة وتمييزهم بالمعجزة، عن ابن عباس، وأبي علي، وأبي القاسم، وأبي مسلم. وقيل: بالعلم والدين، عن الأصم. «**وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ**» بحجة معجزة «**إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ**» قيل: بأمره، عن ابن عباس. وقيل: بعلمه لأنه العالم بوجه المصلحة فيظهر من الآيات ما فيه المصلحة ولا يظهر ما لا مصلحة فيه، وقيل: معناه: ما آتيناكم [إلاّ] بإذنه لأنه لا يقدر عليه غيره «**وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ**» يعني إذا كان التوكل عليه في سائر المصالح دينًا ودنيا كذلك في المعجزات فليس لأحد أن يقترح ذلك «**وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا**» قيل: إلى التوحيد، وقيل: إلى النبوة، وقيل: إلى سائر أمور الدين وهو الوجه، يعني إذا كنا نهتدي فلا ينبغي لنا أن نتوكل إلا عليه «**وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا**» قيل: لأنه تعالى يكفينا ذلك وينصرنا، وقيل: لا يجاوز في مقاتلتكم إلى ما لا يحل، وقيل: لا عذر لنا أن لا نتحمل الأذى بعد أن هدانا الله إلى دينه «**وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ**» أي: الواجب على كل أحد أن يتوكل على الله دون الأصنام التي لا تنفع ولا تضر، والله تعالى قادر على النفع والضر، فالواجب أن نتوكل عليه.

۞ الأحكام

تدل الآية أن الشك في الدين يصح، فيبطل قول أصحاب المعارف.

وتدل على أن الشك يزول بالنظر في الأدلة من خلق السموات والأرض وما فيهما[2]، ويبطل ذلك أيضًا قول أصحاب المعارف والتقليد أيضًا.

---

(١) قالت لهم رسلهم: +، د.

(٢) فيهما: فيها، د، ش.

وتدل على أنه تعالى وصفاته تعرف بأفعاله فلا صِفَة إلا وفعله يدل عليه بنفسه أو بواسطة.

ويدل قوله: ﴿يَدۡعُوكُمۡ لِيَغۡفِرَ لَكُم﴾ على أن المراد بدعوته[١] الخلق أن يغفر لهم خلاف قول المجبرة.

وتدل على أن الإيمان[٢] والكفر فعلهم لذلك[٣] صحت الدعوة فيبطل قولهم في المخلوق.

وتدل على أن الاعتبار في النبوة بالمعجزات والاستصلاح لا بالصورة[٤].

وتدل على وجوب التوكل على الله والانقطاع إليه[٥].

وتدل على أنهم كانوا اقترحوا الآيات كما فعله قوم نبينا صلى الله عليه لأنه لا يجوز ألا يظهر حجة أصلاً لأنهم يكونون معذورين ولكن إذا ظهر معجز فبعد ذلك أن ما يظهر إذا كان لطفًا يجوز ألا يظهر، عن أبي علي. قال أبو القاسم وفي قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾ حجة في الأصلح، والظاهر لا يدل على ما يقوله.

قوله تعالى:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمۡ لَنُخۡرِجَنَّكُم مِّنۡ أَرۡضِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۖ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ رَبُّهُمۡ لَنُهۡلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسۡكِنَنَّكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَٱسۡتَفۡتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسۡقَىٰ مِن مَّآءٖ صَدِيدٖ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأۡتِيهِ ٱلۡمَوۡتُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٖۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٞ ﴿١٧﴾﴾

---

(١) بدعوته: بدعوة، د.
(٢) الإيمان: الآيات، د.
(٣) لذلك: فلذلك، د.
(٤) لا بالصورة: لا بالصور، د.
(٥) إليه: +، د.

اللغة

العود: الرجوع إلى أمر كان فيه، عاد يعود عودة وعودًا، والمعاد: كل أمر يصير إليه، ومنه سمي المعاد، والعوادة من الطعام: ما أكل منه مرة فأعيد أكله، وعواد بمعنى عُدّ، ومنه[1] العادة لأن صاحبها لا يزال معاودًا لها.

والمقام: موضع القيام، وأصله الواو من قولهم: قام يقوم.

والاستفتاح: طلب النصر، وأصله الفتح، والاستفتاح: طلب الفتح.

والخيبة: فوت ما قدر به من المنفعة، ونظيره: الإياس، خاب خيبة، وخيبه تخييبًا، ونقيضه: النجاح وهو إدراك الطلبة[2].

والجبار: الذي لا يرى لأحد عليه حقًا، يقال: جبار بين الجبرية، والجبرية بكسر الجيم وفتحها وسكون الباء.

والعنيد: الذي يخرج من الطريق، وناقة عنود: لا تستقيم في سيرها. والعناد: الامتناع من الحق مع العلم به بغيًا، والمعاند والعنيد والعنود هو المعارض لك بالخلاف، وقيل: العنيد الجائر، وقيل: المجانب للحق، عند عن الحق عنودًا، وعاند عنادًا ومعاندة.

والوراء: خلاف القدام، ونظيره: الخلف، ويستعمل الوراء في[3] خلف وقدام، قال أبو عبيدة: وهو من الأضداد، وقيل: هو ما توارى عنك واستتر وليس من الأضداد، عن الزجاج.

والصديد: قيح يسيل من الجرح، وقيل: هو دم مختلط بمدَّةٍ، وأصله من الصد، كأنه يصد عنه مكرهًا له.

والتجرع: تناول المشروب جرعة جرعة، تجرعه[4] تجرعًا، وجرع يجرع على وزن حمد يحمد.

---

(١) عُدّ ومنه: عدوا منه، د.
(٢) الطلبة: الطلب، د.
(٣) في: عن، د.
(٤) تجرعه: ـ ، د.

والإساغة: إجراء الشراب في الحلق على تقبل[1] النفس، يقال: ساغ الشراب سوغًا، وأسغته، ومنه: سوغت فلانًا ما أصاب.

الإعراب

اللام في قوله: «لتعودن» دخل لجواب[2] النهي، وهو كقوله: والله لأضربنك أو تقر لي، فيكون معنى (أو) [ههنا] معنى(إلا) أو معنى (إلا)[3] أو معنى (حتى)، قال الشاعر:

بَكَى صَاحِبِي لَمَّا رَأَى الدَّرْبِ دُونَهُ ... وَأَيْقَنَ أَنَّا لاَحِقَانِ بِقَيْصَرَا

فَقُلْتُ لَهُ لا تَبْكِ عَيْنُكَ إِنَّمَا ... نُحَاوِلُ مُلْكًا أَوْ نَمُوتَ فَنُعْذَرَا[4]

أي: حتى نموت.

المعنى

ثم بيّن تعالى مقالة الكفار للرسل عند ظهور الحجة فقال سبحانه: «**وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا**» قيل: أرضنا أي بلادنا، أو لتعودن أي ترجعن «**في ملتنا**»[5] قيل: في ديننا، وإنما قال: «**لتعودن**» لأنهم قدروا بالنشوء أنهم كانوا فيها، وقيل: توهموا ذلك من غير حقيقة، وقيل: تعودوا فيه وإن لم تكونوا قط فيه وذلك شائع في اللغة، فعند ذلك أمر الله تعالى رسله وبشرهم بهلاك أعدائهم، فقال سبحانه: «**فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ**» أن بلغوا واصبروا وتوكلوا على الله «**لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ**» يعني هؤلاء الكفار «**وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ**» أي[6] : أرضهم وديارهم من بعد ما أهلكوا، وهذا نهاية الإنعام في مقابلة[7] ما أوردوه حيث قلب الأمر عليهم

---

(١) تقبل: ثقيل، د؛ ثقل، ش.
(٢) لجواب: بجواب، د.
(٣) إلاّ: إلى، د.
(٤) البيت قائله أمرؤ القيس في قصيدة مطلعها: سما لك شوق بعد ما كان أقصر.
(٥) قيل أرضنا أي بلادنا. . . . في ملتنا: ـ ، د.
(٦) أي: يعني، د.
(٧) مقابلة: المقابلة، د.

فأهلك أولئك الكفرة وأسكن المؤمنين أرضهم وديارهم وأورثهم أموالهم، وهكذا[١] جزاء من توكل على ربه واستعان به.

ثم بين العلة فقال: «**ذَٰلِكَ**» أي: ما فعل بهم «**لِمَنْ خَافَ مَقَامِي**» أي: مقامه للحساب، عن الحسن، وأبي علي، وأبي القاسم، وأبي مسلم. وروي ذلك عن ابن عباس، والعرب تفعل مثل ذلك فتضيف الفعل إلى أنفسها[٢] وإلى الموقع فيه كقوله: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ﴾ [الواقعة: ٨٢] أي: رزقي[٣] لكم، وندمت على ضربك أي: ضربي إياك، وسررت برؤيتك أي: برؤيتي إياك، وإنما أضاف المقام إلى نفسه لأنه هو الآمر به ولا حكم لأحد ثم[٤] سواه، وقيل: مقامي أي قيامي عليه وحفظي أعماله، وقيل: مقامي أي عذابي، عن الأخفش. «**وَخَافَ وَعِيدِ**» أي: في القرآن «**وَاسْتَفْتَحُوا**» استنصروا واستيقظوا، قيل: أراد به الأمم قالوا: إن كان هؤلاء الرسل حقًّا فعذبنا، عن ابن عباس، وابن زيد، ومقاتل. وقيل: قالوا: أينا[٥] كان أحب إليك فانصره فَأُجِيبُوا[٦]، وقيل: أراد به الرسل استنصروا الله على الأمم لما أيسوا من إيمانهم دعوا عليهم بالهلاك فأجيب دعاؤهم، عن الحسن، ومجاهد، وقتادة، وأبي علي، قال أبو علي: وإنما دعوا به بإذن الله إياهم في الدعاء، وقيل: المراد به الرسل والأمم تحاكموا إلى الله ودعا الفريقان أن يقضي بينهم، عن الأصم. وقيل: استفتح مشركو قريش ومنهم أبو جهل، وقيل: دعا كل واحد من الفريقين على صاحبه فعند ذلك خاب الكفار، حكاه الأصم. «**وَخَابَ**» في الكلام حذف؛ أي: فَأُجِيبُوا إلى ما طلبوا فخاب، قيل: هلك، عن الحسن. وقيل: لم ينل أمله، عن الأصم، وأبي مسلم. وقيل: خابوا من رحمة الله، عن أبي علي. وقيل: خسر «**كُلُّ جَبَّارٍ**» قيل[٧]: متكبر،

---

(١) وهكذا: هذا، د.
(٢) انفسها: نفسها، د.
(٣) رزقي: رزق، د.
(٤) لأحد ثم: ثم لأحد، د.
(٥) أينا: أيما، د.
(٦) فأجيبوا: فاجتنبوا، د.
(٧) قيل: +، د، ش.

عن الأصم، وأبي القاسم. وأصله أن يطلب علوًا ليس له «عَنِيدٍ» مجانب للحق، عن مجاهد، وإبراهيم، وابن زيد. وقيل: معرض، عن ابن عباس. وقيل: الجبار الذي لا يرى لأحد عليه حقًا، عن الزجاج. وقيل: العنيد من أبى أن يقول: لا إله إلا الله، عن قتادة. «مِنْ وَرَائِهِ[1] جَهَنَّمُ» قيل: أمامه وبين يديه، عن أبي علي، والزجاج وجماعة. وقيل: وراء ما هو فيه؛ أي: سيأتي عليه، كما يقال: هذا الأمر من ورائك أي: سيأتيك، عن أبي القاسم، والأخفش، قال الشاعر:

عَسَى الْهَمُّ الَّذِي أَمْسَيْتُ فِيهِ ... يَكُونُ وَرَاءَهُ فَرَجٌ قَرِيبُ[2]

قيل[3]: من ورائه أي من بعد هذا العذاب في الدنيا عذاب جهنم، عن الحسن، والأصم. وقيل: بعده جهنم، عن مقاتل.

ثم بيّن ما أعد لهم في جهنم، فقال سبحانه: «وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ» قيل: ماء يشبه الصديد في نتنه وكراهته، عن أبي علي[4]، وأبي مسلم، والقاضي. وقد يحذف كاف[5] التشبيه للمبالغة، يقال: فلان أشد، وهذا هو الوجه لأنه لو كان صديدًا لما سماه ماء، وقيل: هو ما يخرج من قيح جلودهم ويسيل، عن ابن عباس، وأبي علي. وقيل: الصديد القيح يختلط بالدم، عن مجاهد، والأصم. وقيل: معناه ما يصد عنه لكراهته، عن أبي مسلم. وقيل: هو ما يخرج من بين جلد الكافر ولحمه، عن قتادة. وقيل: ما يخرج من جوفه مخالط القيح والدم، عن الضحاك. «يَتَجَرَّعُهُ» قيل: يتحساه بالجرع لا بمرة واحدة لكراهته «وَلا يَكَادُ يُسِيغُهُ» قيل: كاد صلة ومعناه لا يسيغه كقوله: ﴿لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾ [النور: ٤٠] فهو يتردد في حلقه حتى يغص به، وقيل: يقرب ألا يسيغه أو يجتهد ولا بد أن يساغ، قيل: لشدة عطشهم يستروحون[6] إلى شربه،

---

(١) ورائه: ورائهم، د.

(٢) البيت ينسب لهدبة بن خشرم؛ انظر شرح الأشموني لألفية ابن مالك.

(٣) قيل: وقيل، د، ش.

(٤) أبي علي: ـ، د.

(٥) يحذف كاف: يحذ وكان، د.

(٦) عطشهم يستروحون: عطشهم يستريحون، د.

وقيل: بل يحملون على شربه، وفي خبر مرفوع أنه صلى الله عليه قال في قوله: «يتجرعه» قال: «يقرب إليه فيكرهه، فإذا أدني منه شوى وجهه ووقعت فروة رأسه، فإذا شربه قطع أمعاه حتى يخرج من دبره لقول[1] الله تعالى: ﴿فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥]، ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِي ٱلْوُجُوهَۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ﴾ [الكهف: ٢٩]»[2]. «وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ» قيل: العذاب؛ لأنه لا موت في الآخرة، عن الأخفش وجماعة، فكأنه عذاب كالموت، وقيل: أسباب الموت كقوله: ﴿إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ﴾ [البقرة: ١٣٣]، «مِنْ كُلِّ مَكَانٍ» قيل: تأتيهم الآلام من كل بعض من أبعاضهم، وقيل: تأتيهم النيران من جوانبهم الأربع، عن ابن عباس، وأبي علي. وقيل: من ظاهره وباطنه، عن الحسن. وقيل: من تحت كل شعرة من كل مكان[3] في جسده، عن إبراهيم. أي: من كل مكان من جسده[4]، وقيل: ليس نوع من أنواع العذاب إلا ويأتيه سوى الموت «وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ» فيستريح «وَمِنْ وَرَائِهِ» قيل: أمامه، وقيل[5]: من بعده «عَذَابٌ غَلِيظٌ» أي: شديد متوقع على الدوام لا ينقطع، فكما أنهم لا يموتون لا ينقطع عنهم العقاب، وقيل: عذاب أوجع وأشد مما تقدم، عن الأصم. وقيل: عذاب زائد، وقيل: هو تجديد الجلود بعد اللّفح[6]، وقيل: هو حبس النفس.

۞ الأحكام

تدل الآية أنه تعالى أهلك الكفار وأسكن المؤمنين ديارهم من حيث كان وصفهم ما ذكر.

---

(١) لقول: يقول، د.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير: ٢/ ٦٩٢، تفسير القرطبي: ٩/ ٢٩٩، ١٠/ ٣٤١، فتح القدير: ١/ ٣٤١، العاقبة في ذكر الموت: ١/ ٣٦٥، مشكاة المصابيح: ٣/ ٢٣٤ برقم (٥٦٨٠)، مسند الشاميين: ٢/ ٦٢ برقم (٩٢٤).

(٣) من كل مكان: ـ، د، ش.

(٤) عن إبراهيم. أي من كل مكان من جسده: +، د، ش.

(٥) وقيل: قيل، ض.

(٦) اللَّفح: النفح، د، ش.

وتدل[1] على أنه تعالى يجازي المرء معجلاً ويلطف له في الدنيا.

وتدل على أنه تعالى لا بد أن يحفظ الرسل حتى يبلغوا لذلك أمنهم عند وعيد الكفار، وذلك لأن في التخلية وقتلهم فوت[2] المصالح.

وتدل على أنهم يكرهون على شرب الصديد زيادة في عذابهم.

وتدل على أن الكفر فعلهم حادث من جهتهم؛ لذلك استحقوا هذه العقوبات، فيصح قولنا[3] في المخلوق.

قوله تعالى:

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوۡمٍ عَاصِفٖۖ لَّا يَقۡدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ۝١٨ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ ۝١٩ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٖ ۝٢٠﴾

۞ القراءة

قرأ حمزة والكسائي: «**ألم تر أن الله خالق السموات**» بالألف واللام على اسم الفاعل على أنه خبر (أن) «**السموات والأرض**» بالخفض على الإضافة، وقرأ الباقون: «**خلق**» على فعل ماض بغير ألف «**السموات والأرض**» بالنصب لأنه مفعول.

۞ اللغة

الشد: العدو، والاشتداد: الإسراع بالحركة على عظم القوة، يقال: اشتد به الوجع؛ لأنه أسرع إليه بقوة وآلمه.

والريح: جسم رقيق من شأنه الهبوب، وهو حركة الهواء.

والعصف: شدة الريح، يوم عاصف شديد الريح، وعصفت الرياح اشتدت.

---

(١) وتدل: فتدل، د.

(٢) فوت: موت، ش.

(٣) قولنا: قوله، ض.

والجديد ضد الخلق، وأصله القطع، يقال: جده يجده جدًا إذا قطعه، ومنه: جداد النخل، ومنه: الجد ضد الهزل لقطع المسافة إلى البغية، والجد: الحظ؛ لأنه كالمقطوع له، وسمي جديدًا كأنه قطع في تلك الحال.

الإعراب

في رفع «مثل» قولان:

أولهما: فيما يتلى عليكم مثل، أو فيما نقص عليكم مثل الذين كفروا، ثم فسر فقال: ﴿أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ﴾ فهو خبر ابتداء محذوف، عن سيبويه والبصرية.

ثانيهما[1]: أن يكون تقديره: مثل أعمال الذين كفروا، والعرب تقدم الأسماء لأنها أعرف ثم تأتي بالخبر[2]، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسۡوَدَّةٌۚ﴾ [الزمر: ٦٠] أي: ترى وجوه الذين كفروا، عن الفراء، وقيل: المثل صلة، وتقديره: الذين كفروا أعمالهم.

ويقال: لم وصف اليوم بالعاصف وهو من صفة الريح؟

قلنا: فيه قولان:

أولهما: أنه من صفة الريح إلا أن اليوم وصف به لأن الريح تقع فيه، كقولهم: ليل نائم ونهار صائم، قال الشاعر:

يَوْمَينِ غَيْمَينِ ويَوماً شَمْسَا

قال الفراء: إن شئت قلت: في يوم ذي عصوف، وإن شئت قلت: في[3] يوم عاصف الريح، فحذف الريح لأنها مذكورة قبل ذلك، وقيل: هو من نعت الريح غير أنها لما جاء بعد اليوم اتبع إعرابه، كقول الشاعر:

وجُحْرُ[4] ضَبٍّ خَرِبٍ[5]

---

(١) ثانيهما: وثانيهما، د.

(٢) بالخبر: الخبر، د، ض.

(٣) في: ـ، د.

(٤) وجُحر: جحر، د.

(٥) وتمام البيت: إن أنا إلا فارة في جحر ضب خرب.

۞ المعنى

لما تقدم ما للأمم الظالمة من العذاب في الدارين عقبه بما ينالهم من الحسرة فيما تكلفوه[1] من الأعمال، فقال سبحانه: «**مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ**» أن «**أَعْمَالُهُمْ**» قيل: تقديره: مثل أعمال الذين كفروا، وقيل: تقديره: مثل الذين كفروا بربهم أن أعمالهم، واختلفوا في أعمالهم، قيل: أعمال القرب لأن تلك[2] صارت محبطة بالكفر، عن الأصم، وأبي علي. وقيل: عبادتهم الأصنام ظنًا بأن ذلك ينفعهم، عن ابن عباس. «**كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ**» حملته الريح عند هبوبها ولا يقدر عليها من أثرٍ وعين كذلك[3] أعمالهم تبطل فلا ينتفع بها، وحسرتهم أنهم أحبطوها بكفرهم، هذا على قول من يقول: إن الأعمال الطاعات[4] والقرب، ومن قال: هو الكفر فوجه الحسرة أنهم أتعبوا أبدانهم لكي تنفعهم فصار وبالاً عليهم، وعوقبوا عليها، وقيل: هو محمول على كل العملين فيندمون لوجهين:

أحدهما: تحملهم المشقة في عبادة غير الله وعاقبته العذاب.

وثانيهما: ما أبطلوا من أعمال القرب وقد تكلفوها.

«**فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ**» قيل: في يوم ذي ريح عاصف، وقيل: لأن الريح معه تقع فيه، وقيل: عاصف الريح، عن أبي القاسم. «**لا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ**» أي: لا يخلصون[5] من جزاء أعمالهم مما كانوا يؤملون به[6] على نفع «**ذَلِكَ**» يعني الذي تمسكوا به من الكفر «**هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ**» قيل: الهلاك، عن أبي مسلم. وقيل: الخطأ البعيد عن الصواب، عن ابن عباس.

ثم بيّن تعالى أنه خلقهم[7] ليعبدوه وليؤمنوا به لا ليكفروا، فقال سبحانه: «**أَلَمْ**

(١) تكلفوه: تكلفوها، د.
(٢) تلك: ذلك، د، ض.
(٣) كذلك: +، د.
(٤) الطاعات: للطاعات، د.
(٥) لا يخلصون: لا تجعلوا، د.
(٦) به: +، د.
(٧) خلقهم: جعلهم، د.

تَرَ» أي: ألم تعلم، قيل: خطاب له والمراد غيره، وقيل: المراد أيها الإنسان **«أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ»** قيل: الحق هو الدين والعبادة، يعني أراد أن يعبدوه، عن ابن عباس، وأبي علي، وأبي مسلم. يعني لم يخلق ذلك عبثًا لكن لغرض صحيح وهو أن يعبدوه فيصلوا[1] إلى منزلة عالية، وقيل: خلقكم لمنافعكم فتركتم عبادته مع وجوبها، وقيل: بالحق أي: يشهدان[2] بالحق الذي يجب له على عباده، عن الأصم. وقيل: خلقهما للجزاء يوم القيامة، حكاه الأصم. **«إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ»** أي: يهلككم يعني الكفار **«وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ»** أي: يخلق خلقًا آخر سواكم أطوع منكم **«وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ»** أي: ممتنع متعذر.

۞ الأحكام

تدل الآية على بطلان قول المجبرة من وجوه:

أحدها: أنه أضاف العمل إليهم، ولو[3] كان خلقًا لما صح إضافته إليهم بل كان مضافًا إليه.

وثانيها: أنه قال: **(خلق بالحق)** ولو كان كما تزعمه المجبرة أنه خلقها لكي يكفروا ويفسدوا لما صح ذلك.

وثالثها: أنه قال: **«بخلق جديد»** أطوع، ولو كان الإيمان والكفر خلقًا لله تعالى لما صح[4] ذلك لأنه يكون موقوفًا على خلقه في الأول والثاني، وما الفائدة في إهلاك الأولين واتخاذ الآخرين.

وتدل على بطلان قولهم في الإرادة لأن عندهم ما كان قد أراد، ولو كان أراد خلقًا من[5] جديد[6] لا بد أن يخلقهم فإن لم يرد لم يصح أن يخلقهم، وأي معنى في قوله: **«إن يشأ»**.

---

(١) فيصلوا: وصلوا، د.
(٢) اي يشهدان: أن يشهد، د.
(٣) ولو: فلو، ش.
(٤) صح: قال، د.
(٥) من: ـ ، د، ش.
(٦) جديد: جديدًا، د، ش.

وتدل على قدرته على خلق من يعلم أنه يؤمن، فيبطل قول من زعم أن كل من علم أنه لو خلق لآمن وجب خلقه من أصحاب الأصلح.

ويدل قوله: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ على جواز الفناء على الأجسام خلاف ما قاله قوم.

قال أبو علي: وتدل على أن فعل العبد يسمى شيئًا لقوله: ﴿لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ﴾.

قوله تعالى:

﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ۚ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ ۖ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم ۖ مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾

القراءة

قرأ حمزة والأعمش: (مصرخيِ) بكسر الياء، وخطأهما أبو القاسم، وذكر الأخفش أنه لحن في كلام العرب لا شك فيه[1]، وذكر علي بن عيسى[2] أنه لا يجوز عند أكثر النحاة، وجوزه الفراء على ضعف وقال: هو من وهم القراء، وأنشد الفراء بيتًا:

قال لها هل لك يا تاقيِّ[3]   قالت له ما أنت بالمرضيّ

قال الزجاج: هذا الشعر لا يعرف قائله ولا يلتفت إليه.

---

(١) لا شك فيه: ـ، ش.

(٢) عيسى: موسى، د.

(٣) باقيِّ: باكي، ض. انظر: روح المعاني: ١٣/ ٢١٠، الكشاف: ١/ ٦٢٨، التحرير والتنوير: ١/ ٢٢٧٦.

وقرأ القراء كلهم بفتح الياء سوى حمزة بكسر[1] الياء، وأصله (مصرخين) ذهبت النون لأجل الإضافة وأدغمت ياء الجماعة في ياء الإضافة، فمن نصب فلأجل التضعيف، ومن كسر فلالتقاء الساكنين فحركت إلى الكسر لأن الياء أخت الكسرة.

۞ اللغة

البروز: خروج الشيء عما كان ملتبسًا به إلى حيث يقع عليه الحس، وأصله الظهور، ومنه: برز للقتال.

والضعف: نقصان القوة، ضعف يضعف ضعفًا، وأضعفه الله إضعافًا.

والاستكبار: طلب الكبر، وهو رفع النفس فوق القدر، ونظيره: التكبر والتجبر.

والتبع: جمع تابع، ويجوز أن يكون مصدرًا سموا به، أي: كنا ذا تبع.

والجزع: نقيض الصبر، قال الشاعر:

فَـإِنْ تَـصْـبِـرَا فَـالـصَّـبْـرُ خَـيْـرُ مَـغَـبَّـةٍ ... وَإِنْ تَـجْـزَعَـا فَـالأَمْـرُ مَـا تَـرَيَـانِ

والمحيص: المحيل والهرب، حاص يحيص حيصًا ومحيصًا، تقول العرب إذا راوغ وهرب: حاص عني، وحاص وأحاص بمعنى، ووقع في «حَيْصَ بَيْصَ» أي في شيء لا يقدر أن يتخلص منه.

والإصراخ: الإعانة بإجابة الصارخ[2]، يقال: استصرخني فلان فأصرخته؛ أي: استعانني فأعنته[3]، والمصرخ المغيث، والصارخ: المستغيث.

۞ الإعراب

قيل في قوله: «إلا أن دعوتكم» اشتثناء منقطع بمعنى لكن، وهو كقولهم: ما مرتبه إلا أنه أحمق، عن أبي القاسم.

---

(١) بكسر: يفتح، ش؛ بفتح، د،ض. والصواب ما أثبتناه من: التبيان في تفسير القرآن، للطوسي: (٦/ ٢٨٥).

(٢) الصارخ: الصراخ، ش.

(٣) استعانني فأعنته: استغاثني وأغثته، د.

۞ النظم

قيل: الآية تتصل بقوله: ﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ عند بروزهم من القبور، عن الأصم، وأبي القاسم.

وقيل: تتصل بقوله: ﴿مِّن[1] وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ﴾ يصيرون إليها عند[2] بروزهم يوم الحشر، عن أبي مسلم.

وقيل: لما تقدم وعيد الكفار بَيَّنَ صفة ذلك وما يجري بين[3] الأتباع والمتبوعين ومحاورتهم[4] عقيب الجمع بكلام الشيطان حثًا على طاعة الله وترك اتباع أهل البدع، وقادة الضلال، ووساوس الشيطان، عن القاضي.

۞ المعنى

«وَبَرَزُوا» أي: ظهروا بخروجهم[5] عن قبورهم «لِلَّهِ» أي: بحكم الله إلى الموضع الذي لا حكم إلا له، واللفظ للماضي، والمراد الاستقبال، قيل: لصحة وقوعه، وقيل: معناه سيبرزون «جَمِيعًا» قيل: القادة والأتباع، عن ابن عباس. وقيل: جميع الخلق، عن الحسن، وأبي علي، وأبي مسلم. «فَقَالَ الضُّعَفَاءُ» قيل: الأتباع، وأراد الضعفاء في الدين وهم المقلدة، وقيل: الضعفاء فيما يتصل بأحوال الدنيا «لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا» أي: تكبروا عن الإيمان فلم يؤمنوا وهم القادة، ويحتمل الوجهين، وهم إما[6] القادة في الدين وهم علماء السوء، والقادة في الدنيا وهم الأكابر والرؤساء «إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا» يعني: في الكفر على وجه التقليد «فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا» قيل: حاملون عنا، عن ابن عباس. وقيل: دافعون، عن الأصم، وأبي علي. «مِنْ عَذَابِ

(١) من: ومن، ش.
(٢) عند: وعند، د.
(٣) بين: من، ش، ض.
(٤) ومحاورتهم: ومجازاتهم، د.
(٥) بخروجهم: لخروجهم، د.
(٦) إما: ـ ، ش.

اللَّهِ» الذي نزل بنا، وقيل: (من) للتبعيض أي بعض ذلك إن لم تقدروا على دفع الكل **«قَالُوا»** يعني القادة للأتباع **«لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ»** فيه أقوال: قيل: لو خلصنا الله[١] من[٢] العذاب وأدخلنا الجنة للثواب وهو الهدى **«لهديناكم»** لخلصناكم أيضًا لكن لا[٣] مطمع فيه لنا ولكم، عن أبي علي، وأبي مسلم، والقاضي قال: وهو الأقرب لأن الذي التمسوه هو الخلاص من العذاب. وقيل: لو اهتدينا فكنا في حكم الله مهتدين لكنتم كذلك، عن أبي القاسم. وقيل: لو كان ما نحن عليه هدى لهديناكم بالمسألة لله تعالى، وقيل: لو هدانا الله إلى الرجعة[٤] إلى الدنيا فنصلح ما أفسدنا لهديناكم كقوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾ [السجدة: ١٣] بالرجعة إلى الدنيا، ذكر هذين الوجهين قاضي القضاة في تفسيره، ولا يجوز حمله على أن[٥] الله[٦] تعالى لو هدانا بخلق الإيمان فينا؛ لأن الإيمان فعل العبد ليس بخلق لله تعالى ولو كان خلقًا له لما صح الأمر والنهي والثواب والعقاب، وأيضًا **«لهديناكم»** لا يصح حمله على الخلق عندنا وعندهم، ولأن الهداية بمعنى خلق الإيمان فيه لا تعرف لغة ولا عرفًا، ولا يجوز حمله على أنه تعالى لو هدانا بالدلالة وبالألطاف[٧] لأن الدلالة واللطف قد فعله الله[٨] تعالى بجميع المكلفين إلا من علم أنه لا لطف له فلا يصح أن يقول: لهديناكم باللطف ولا لطف له[٩].

ثم بينوا أنه لا سبيل إلى الخلاص بوجه، فقال سبحانه: **«سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا»** أي[١٠]: يستوي حالنا في هذين الحالين، وإنما اختصهما[١١] بالذكر لأن

---

(١) الله: ـ، د.
(٢) من: عن، ش.
(٣) لكن لا: لكيلا، د.
(٤) إلى الرجعة: للرجعة، ش.
(٥) أن: أنه، د.
(٦) الله: ـ، د.
(٧) وبالألطاف: أو بألطاف، د؛ بالألطاف، ش.
(٨) الله: +، د.
(٩) له: ـ، ش.
(١٠) أي: أم، د.
(١١) اختصهما: خصهما، ش.

البلاء يدفع بأحد هذين الوجهين[١]، وعن محمد بن كعب: إن أهل النار قال بعضهم لبعض: فلنصبر لعله ينفعنا، فصبروا وطال صبرهم، ثم نادوا «**سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا**» أي: يستوي في حلول العذاب بنا الصبر والجزع، ذكره ابن جرير، وابن زيد، ومقاتل أن أهل النار في النار يقولون: تعالوا نجزع، فيجزعون خمسمائة عام فلا ينفعهم الجزع، فيقولون: تعالوا نصبر، فيصبرون خمسمائة عام، فحينئذ يقولون: سواء علينا أجزعنا أم صبرنا «**مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ**» أي: لا مهرب لنا ولا ملجأ، عن ابن عباس، والأصم، وأبي علي وغيرهم من المفسرين. «**وَقَالَ الشَّيْطَانُ**» قيل: إنه إبليس باتفاق المفسرين، ويحتمل أنه شيطان الإنس عالم السوء، الذي يضل الناس عن الدين «**لَمَّا**[٢] **قُضِيَ الأَمْرُ**» أي: فرغ من الحكم بين الخلائق[٣]، وقيل: إنما يقول[٤] ذلك عند دخول أهل الجنة الجنة وأهل النار النار، عن ابن عباس، والحسن، وأبي علي، واختاره القاضي. وقيل: يقول[٥] في القيامة بعد القضاء والمحاسبة بعد أن يبين[٦] الله[٧] لكل أحد منزلته، عن الأصم. واختلفوا، فقيل: إن إبليس خطبهم بذلك، عن ابن عباس، والحسن، والأصم، قال الحسن: وهو أحقر وأذل من أن يخطب لولا أن أذن الله[٨] فيه توبيخًا لأهل النار.

وذكر ابن جريج عن عامر: خطيبان يقومان يوم القيامة: عيسى ابن مريم[٩] عليه السلام في قوله: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ﴾ [المائدة: ١١٧]، وإبليس في هذا القول. وقيل: إنه توبيخ للكفار يزيد في غمهم، وقيل: إنه لبس ثيابًا[١٠] من النار ويقعد على منبر من نار

(١) الوجهين: ـ، د.
(٢) لما: فلما، د.
(٣) بين الخلائق: ـ، ش.
(٤) يقول: يقولون، ش، ض.
(٥) يقول: يقوله، د؛ يقولون، ض.
(٦) يبين: بين، د، ش.
(٧) الله: ـ، د.
(٨) الله: له، د.
(٩) ابن مريم: +، د.
(١٠) ثيابا: يتابا، ض.

فيخطب، عن الأصم. وقيل: يوضع له كرسي في النار فيخطب، عن مقاتل. وقيل: إنه يقول ذلك توبيخًا، وقيل: بل على سبيل النوح «**إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ**» قيل: وعدكم بالبعث والجزاء والحساب ووعدتكم أن لا بعث ولا حساب ولا جنة ولا نار، عن ابن عباس. وقيل: وعدكم الجنة بالتمسك بدينه ووعدتكم خلافه، عن الحسن. وقيل: وعدكم بالحق فأبيتموه ووعدتكم بالباطل فقبلتموه «**فَأَخْلَفْتُكُمْ**» أي: كذبتكم، وقيل: لم أوف لكم بما وعدتكم «**وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ**» أي: قوة وسبيل، وقيل: حجة وبصيرة «**إِلاَّ أَنْ دَعَوْتُكُمْ**» أي: لكن[1] دعوتكم إلى الكفر بالوسوسة «**فَاسْتَجَبْتُمْ لِي**» أي: أجبتم دعوتي إلى طاعتي وعصيان الله «**فَلا تَلُومُونِي**» على ما فعلتم، وقيل: على ما فعل بكم من العذاب «**وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ**» حيث عدلتم عن أمر الله ودعاء رسله إلى اتباعي[2] من غير دليل وبرهان «**مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ**» قيل: ما أنا بمغيثكم فأخرجكم من النار وما أنتم بمغيثي في نجاتي، عن الحسن، والأصم، وأبي علي، وقتادة، وأبي القاسم، وأبي مسلم. وقيل: ما أنا بناصركم وما أنتم بناصري، عن ابن زيد. وهما متقاربان «**إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ**» قيل: كفرت الآن بما كان من إشراككم إياي فأطعتموني وجعلتموني كأني رب وإله فصيرتموني شريكًا لربكم، عن الحسن، والأصم. وقيل: المراد أن كفري قد تقدم ثم شاركتموني في الكفر، كأنه أخبر أنه كهؤلاء تبعًا لغيره وأنهم كفروا بدعائه على وجه التبع، عن ابن عباس، وقتادة. «**إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**» أي: وجيع، قيل: إنه من تمام قول الشيطان لأهل النار، وقيل: إنه ابتداء حكم من الله ووعيد للظالمين، عن أبي مسلم، والقاضي[3].

❁ الأحكام

تدل أول الآيات أنه تعالى يحشر جميع الخلق.

وتدل على مخاصمة تجري بين القادة والأتباع، وفيه تحذير عن التقليد واتباع

---

(١) لكن: لكي، د.

(٢) اتباعي: تباعي، د.

(٣) والقاضي: قال القاضي، ض؛ ـ ، ش.

البدع، وحث على النظر لأنه به يعرف الحق حتى يتبع والباطل حتى يجتنب، وهذا معنى قول أمير المؤمنين عليه السلام: «الحق لا يعرف بالرجال، أعرف الحق تعرف أهله».

وتدل على وعيد عظيم للمبتدعة وقادة الضلال.

وتدل على دوام عقاب الكفار، فيبطل قول جهم.

ويدل قوله: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ أنه يقول لأتباعه يوم القيامة: إني كذبت فيما قلت لكم، فيكون ذلك زيادة غم وحسرة.

وتدل على لطف للمكلفين[1] وتحذير من المعاصي؛ لأن الإنسان إذا تصور ذلك البلاء وكلام إبليس لأتباعه لا يغتر[2] ولا يلتفت إلى وسوسته.

ويدل قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ﴾ على أمور:

منها: بطلان قولهم أن الشيطان يقدر أن يحبط المؤمن ويزيل عقله ويتصور بالصور.

ومنها: أنه يدعو بالوسوسة فيدل أن الوسوسة كلام به يدعو.

وتدل على أن كل ظالم متوعد، فيبطل قول المرجئة.

ويدل قوله: ﴿فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم﴾ وغيره من الآيات على بطلان الجبر من وجوه:

منها: أنه تعالى بين دينهم واعتقادهم ولم يضف شيئًا إلى نفسه، فلو كان هو الخالق لذلك لكان التأثير الأعظم له.

ومنها: أن الظالم يستحق الذم، فلو كان الظلم من خلقه لما استحق العبد اللائمة، وكان هو المستحق، تعالى عما يقولون علوًا كبيرًا.

(١) للمكلفين: للمكلف، د.

(٢) لا يغتر: لا يتبعه، د.

قوله تعالى:

﴿وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ۖ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَـٰمٌ ﴿٢٣﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾﴾

اللغة

التحية: التلقي بالكرامة في المخاطبة، كقولك: أحياك الله حياة طيبة، وسلام عليكم، وما أشبهه، وقوله: التحيات لله، قال أبو بكر الأنباري: فيه ثلاثة أقوال:

أولها: الملك لله والتحية الملك، يقال: أحياك الله أي ملكك الله[١]، قال الشاعر:

من كل ما نال الفتى قد نلته إلا التحية[٢]

وثانيها: البقاء لله، يقال: حياك الله أي أبقاك الله، وقيل: حياك بمعنى أحياك الله؛ أي: أبقاك الله، فعل كما يقال: وصى وأوصى[٣]، ومهل وأمهل.

وثالثها: السلام على الله، وقال القتيبي: إنما قال التحيات لله على الجمع لأنه كان في الأرض ملوك يحيون بتحيات مختلفة فيقال لبعضهم: أبيت اللعن، ولبعضهم: أسلم وأنعم، ولبعضهم عش ألف سنة[٤]، فقيل لنا: قولوا التحيات لله أي: الألفاظ الدالة على الملك أو يكنى بها عن الملك فهي[٥] لله تعالى.

---

(١) الله: +، د، ش.

(٢) البيت قائله زهير الكلبي وورد برواية أخرى: ولكل ما نال الفتى قد نلته. أنظر شرح كتاب سيبويه، ٣/ ٢٦٦.

(٣) وصى وأوصى: رضي وأرضى، د.

(٤) لبعضهم عش ألف سنة: أبيت اللعن لبعضهم: أسلم وأنعم، ولبعضهم عش ألف سنة، وقيل لبعضهم: أبيت اللعن، ولبعضهم أنعم وأسلم، ولبعضهم عش ألف سنة، ض.

(٥) فهي: هي، د.

والحين: الوقت، وقيل: الحين القطعة من الدهر كالساعة فما فوقها.

والكلمة: الواحدة من الكلام، ويقال[١] للقصيدة: كلمة.

والاجتثاث: اقتلاع الشيء من أصله، اجتثه اجتثاثًا، وجثه جثا، والجثيث من النخيل[٢] الفسيل، والمجثة: الحديدة يقلع بها الجثيث، والجثة: جثة الإنسان، قيل: أخذ من جثه أي اقتلعه[٣]، كأنه اقتلع من أصله، وقيل: أصله من الجُث بضم الجيم، وهو ما ارتفع من الأرض، كالأكمة، عن ابن زيد.

الإعراب

«**الذين آمنوا**» في محل الرفع لأنه اسم ما لم يسم فاعله، وخبره «**جنات**» وتقديره: أدخل المؤمنون الجنة.

و«**كلمة**» نصب على التفسير.

و«**طيبة**» نعت للكلمة، وقيل في «**طيبة**[٤]» أنه نعت لمحذوف أي: طيبة ثمارها.

المعنى

لما تقدم وعيد الكفار عقبه بالوعد للمؤمنين على عادة الله تعالى في ضم الوعد إلى الوعيد، فقال سبحانه: «**وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا**» صدقوا الله ورسوله «**وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**» قيل: ما فرض عليهم، عن الأصم. «**جَنَّاتٍ**» وإنما يكون ذلك في الآخرة «**تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ**» أي: من تحت أشجارها وأبنيتها الماء في الأنهار «**خَالِدِينَ فِيهَا**» دائمين «**بِإِذْنِ رَبِّهِمْ**» وقيل: والمراد بهم[٥] قيل: إيمانهم بإذن[٦] ربهم، عن

---

(١) ويقال: يقال، ش، ض.

(٢) النخيل: النخل، د.

(٣) اقتلعه: أي: اقلعه، د.

(٤) طيبة: كلمة، ش، ض.

(٥) وقيل والمراد بهم: +، د.

(٦) بإذن: بأمر، د.

الأصم. وقيل: دخولهم الجنة «بِإِذْنِ رَبِّهِم»، أي: بأمره، وقيل: المراد بذلك الإباحة، عن أبي علي، وأبي هاشم. وكذلك قوله: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ [الطور: ١٩] ونحو ذلك مما يكون في الجنة حتى لا تقارنها الإرادة، وقيل: المراد به الأمر يدخلون ويخلدون، ويقال: كلوا، وتقرن به الإرادة ليتم الثواب، عن القاضي.

ومتى قيل: لم شرط الإذن في الدخول؟

فجوابنا: لأن أهل النار يدخلون كرهًا فهم يؤمرون ليدخلوها طوعًا إكرامًا لهم وزيادة في محلهم، وقيل: هم يدخلون إلى نعيم دائم فلا بد أن يكون الدخول بإذن.

«تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ» في الجنة سلام، أي: يحيي بعضهم بعضًا بالسلام، والملائكة تحييهم بالسلام، عن ابن عباس، وأبي مسلم. وقيل: الملائكة تحييهم، عن الحسن. وقيل: ما يأتهم[1] من الله وما يلقى بعضهم بعضًا السلام، والسلام: كلمة جامعة لكل خير، عن الأصم. ومعناه: البشارة لهم بدوام السلامة، عن أبي علي.

ثم ضرب مثلاً يقرب من أفهام السامعين ترغيبًا في اتباع الحق وتحذيرًا من الباطل، فقال سبحانه: «أَلَمْ تَرَ» ألم تعلم «كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً» بقرب[2] قيل: شبهًا، عن ابن عباس، كلمة طيبة، وقيل: كلمة التوحيد شهادة أن لا إله إلا الله، عن ابن عباس، والحسن. وقيل: قراءة القرآن، عن الأصم. وقيل: الكلمة الطيبة ما أمر الله به من الكلام الذي به طاعته، عن أبي علي. وقيل: دعوة الإسلام وهو جميع الدين، عن أبي مسلم، والقاضي. وقيل: الإيمان، عن الربيع بن أنس. وقيل: أراد بالكلمة المؤمن نفسه، عن ابن عباس، وعطية العوفي. «كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ» يعني طيبة ثمارها لذيذة، وقيل: هي النخلة، عن ابن عباس، وأبي عثمان النهدي، وأبي العالية، ومجاهد، وقتادة، ومسروق، والضحاك، وابن زيد، وأبي علي. وقيل: شجرة في الجنة، عن ابن عباس. وقيل: أراد شجرة هذه صفتها وإن لم يكن لها وجود في الدنيا لكن الصفة معلومة «أَصْلُهَا ثَابِتٌ» في الأرض «وَفَرْعُهَا» ذاهب «فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أُكُلَهَا»

---

(١) ما يأتيهم: ما يأتهم، ش، ض.

(٢) بقرب: القرب، ض.

أي: تعطي مأكولها وهو[1] ثمرها «**كُلَّ حِينٍ**» قيل: ستة أشهر إلى صرام النخلة، عن ابن عباس، وسعيد بن جبير، والحسن. وقيل: سنة، عن مجاهد، وابن زيد. وقيل: شهران لأن مدة اجتنائها[2] شهران، عن سعيد بن المسيب. وقيل: كل[3] ساعة ليلاً ونهارًا، كذلك المؤمن يطيع الله كل حين، عن الضحاك. وقيل: غدوة وعشية، عن ابن عباس، والربيع بن أنس. كأنه شبهه بشجرة تؤتي ثمرها غدوة وعشية، وقيل: في أوقات النهار، شبه الإيمان في جميع الأحوال بالشجرة المثمرة، وقيل: يؤكل من النخلة الطلع والبسر والرطب والتمر فهو دائم لا ينقطع كذلك أعمال المؤمنين تصعد في كل وقت وحين[4].

ومتى قيل: فنفس الكلمة مشبهة بالشجرة أو من تمسك بها؟

قلنا: ذكر الكلمة وأراد من تمسك بها بمنزلة هذه الشجرة.

ومتى قيل: فما وجه التشبيه؟

فجوابنا: ما ذكره الله[5] تعالى من الوجوه الثلاثة:

أحدها: أصلها[6] ثابت.

والثاني: فرعها في السماء.

والثالث: تؤتي أكلها كل حين.

ولا مزيد على هذا البيان، فشبه كلمة الدين في ثباتها[7] بالأدلة التي لا فساد فيها بقرار الشجرة التي أصلها على نهاية الثبات، وشبه ما يحصل من الرفعة بالدين[8] والظهور بفروعها في السماء، وشبه ما يحصل من الثواب الدائم بثمرة هذه الشجرة كل

---

(١) وهو: وهي، د.
(٢) اجتنائها: إطعامهما، د.
(٣) كل: كل في، د.
(٤) وحين: +، د.
(٥) الله: ـ ، د.
(٦) أصلها: ـ ، د.
(٧) ثباتها: بيانها، ض.
(٨) بالدين: في الدين، د.

حين، والغرض أنه كما يحفظ صاحب هذه الشجرة إياها ويقوم بعمارتها لكي تبقى كذلك ينبغي للمكلف أن يتمسك بالدين ويحفظه وإن لحقته المشقة لما يرجوه من دوام النعيم، وقيل: شبه ثواب الكلمة بثمرة الشجرة، وقيل: شبه نفس المؤمن بهذه الشجرة وهذا خلاف للظاهر، وإذا أمكن حمل الكلام على حقيقته فلا معنى لصرفه إلى المجاز، وقيل: وجه التشبيه أن الشجرة إنما يكون فضلها بثلاثة أشياء: أصل راسخ، وفرع عال، وثمرة طيبة، وكذلك الإيمان لا يكون ولا يقوم إلا بثلاثة أشياء: معرفة بالقلب، وإقرار باللسان، وعمل بالجوارح، ثم ثمرته الثواب الدائم.

«بِإِذْنِ رَبِّهَا» يعني يحصل ثمرها بإذن ربها وخالقها، قيل: بأمره الذي هو فعله، وقيل: بعلمه أنه يخلق الثمار بقدر ما يعلمه من المصالح **«وَيَضْرِبُ[1] اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ»** أي: لكي يتدبروا فيعرفوا الغرض بالمثل **«وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ»** قيل: هو الشرك والكفر، عن أكثر المفسرين ابن عباس وغيره. وقيل: ما اتخذه العباد من الكتب سوى كتب الله تعالى[2]، عن الأصم. وقيل: كل كلام هو معصية لله تعالى، عن أبي علي. وقيل: دعوة الكفر، عن أبي مسلم. وقيل: كلمة لا ينتفع بها دينًا ودنيا **«كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ»** قيل: شجرة الحنظل، عن ابن عباس، وأنس، ومجاهد، وروي مرفوعًا. وقيل: أراد شجرة هذه صفتها وهو أنها لا قرار لها في الأرض، عن الحسن، والأصم. وقيل: شجرة لم تخلق بعد، عن ابن عباس. وقيل: شجرة ليس لها أصل ثابت[3] ولا فرع ولا ثمر، عن أبي القاسم، وأبي مسلم. وقيل في وجه التشبيه[4]: إن الباطل لا ثبات له ولا ينتفع به كما أن هذه الشجرة لا قرار لها متى اجتثت لا ثبات لها ولا منفعة، وقيل: هي[5] شجرة[6] في الماء لا عرق لها[7] في الأرض تميل[8] مع

(١) ويضرب: كذلك يضرب، ض.
(٢) تعالى: +، ش.
(٣) ثابت: ـ ، ش.
(٤) التشبيه: الشبه، ش.
(٥) هي: هو، د، ض.
(٦) شجرة: شجر، د.
(٧) لها: له، د.
(٨) تميل: يميل، د.

الرياح، وقيل: الحنظلة ينتفع بها في الرقي وهو غذاء للظباء، وأجيب بأنه بعد القطع لا ينتفع بها، ولأن ما يتناول على طريق المداوة ليس بمقصود وإنما هو لدفع ضرر فإذًا ليس له أصل ثابت ولا فرع ثابت ولا ثمرة تستلذ «**اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ**» أي: استؤصلت واقتطعت[١]، عن ابن عباس، والأصم، وأبي علي، وأبي القاسم، وأبي مسلم. وقيل: انتزعت، عن السدي. وقيل: أخذت جميع جثتها بكمالها[٢]، عن الزجاج. «**مَا لَهَا**[٣]» لهذه الشجرة «**مِنْ قَرَارٍ**» في الأرض.

۞ الأحكام

تدل الآية على ثبات الإيمان وأنه المنتفع به دون غيره من الأديان ولذلك شبهه بالشجرة الثابتة المثمرة، وسائر الأديان بالشجرة الخبيثة[٤] التي لا ينتفع بها.

وتدل على بطلان الكفر والبدع.

وتدل على أن الجنة تنال بالعمل خلاف ما تقوله المجبرة لذلك قال: ﴿وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾.

وتدل على تأبيد الثواب خلاف قول جهم.

ويدل قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أنه أراد من جميعهم التذكر خلاف قول المجبرة.

ويدل قوله: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ أن الثمرة تخرج بفعل الله لا بالطبع أو تأثير الكواكب، وروى قتادة أن ناسًا من فقراء المؤمنين قالوا: يا رسول الله[٥]، ذهب أهل الدثور بالأجور، يتصدقون ولا نتصدق، وينفقون ولا ننفق، قال: «أرأيتم لو أن لي مال الدنيا وضع بعضه على بعض أكان بالغًا السماء»؟ قالوا: لا يا رسول الله، قال: «أولا أخبركم بشيء أصله في الأرض وفرعه في السماء، تقولوا في دبر كل صلاة: لا

---

(١) واقتطعت: اقتلعت، د؛ وانقطعت، ش.
(٢) جثتها بكمالها: جنيًا لكمالها، د، ض.
(٣) لها: +، د.
(٤) الخبيثة: +، د، ش.
(٥) يا رسول الله: يا رسول الله ينفق، ش.

إله إلا[1] الله، والله أكبر، وسبحان الله، عشر مرات، فإن أصلهن في الأرض وفرعهن في السماء».

قوله تعالى:

﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾

اللغة

يثبت الشيء ثباتًا، ورجل ثبت وثابت، وثبت في الحرب إذا لم يزل، وأثبته السقم إذا لم يكد يفارقه، ويقال: رماه فأثبته؛ أي: حبسه، وقيل: التثبيت التمكين[2].

النزول

قيل: نزلت الآية[3] في عذاب القبر، عن الربيع بن أنس، وقتادة، والزجاج.

المعنى

لما تقدم ذكر الكلمة الطيبة بيّن ما يحصل منها، فقال سبحانه: «**يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا**» قيل: يثبتهم على الدين بألطافه، وقيل: يمكنهم بما وعدهم من التمكن في الأرض، عن أبي مسلم. «**بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ**» قيل: هو الكلمة الطيبة والتوحيد والأخذ بالدين، عن الحسن، وأبي علي، وأبي مسلم. وقيل: هو قول لا إله إلا الله، عن طاووس، والأصم. وقيل: لم يرد نفس القول فقط وإنما أراد أنه يعتقد الدين ويعمل به كما يقال: فلان يقول بقول أبي حنيفة؛ أي: يدين به ويعتقده[4] ويعمل به، وقيل: يثبتهم بالتوحيد وألطافه في الدنيا، وفي القبر عند السؤال إذا أتاه

(١) إله إلا: +، د، ش.

(٢) التمكين: والتمكين، د.

(٣) الآية: ـ، د.

(٤) ويعتقده: ويعتقد به، د.

الملك فيقول: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ فيقول: ربي الله، وديني الإسلام، ونبيي محمد ﷺ، عن ابن مسعود، وابن عباس، والبراء بن عازب، وروي مرفوعًا، وهو قول قتادة، والأصم، وعكرمة، والربيع بن أنس. قال القاضي: ولو كان المراد ذلك لقال يثبت الله الذين آمنوا على القول الثابت ولأن سؤال القبر يكون في الدنيا. قلنا: هذا مروي عن جماعة من الصحابة والتابعين، وروي مرفوعًا، وحروف الصفات تتبادل، والقبر فيه أحكام الآخرة، وقيل: يثبته الله في الكرامة والمدح في الدنيا وفي الثواب في الآخرة لأجل تمسكه بالقول الثابت جزاء عليه، عن أبي علي. وقيل: يثبته بالفتح والنصر في الدنيا، ويثبته في الآخرة بإسكانه الجنة، عن أبي مسلم. قال القاضي[١] : و[٢] قول أبي علي أظهر لأنه يدخل فيه كل مؤمن ومؤمنة في كل زمان. «**وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ**» أي: يضلهم عن هذا التثبيت في الدنيا، وعن الثواب في الآخرة، وقيل: يضل يعاقب «**وَيَفْعَلُ اللَّهُ**[٣] **مَا يَشَاءُ**» يعني أنه قادر على فعل ما يشاء وما تقدم من الوعد والوعيد، وفيه زجر وترغيب.

۞ الأحكام

تدل الآية على أنه تعالى يثبت المؤمنين لإيمانهم ويعاقب الكفار لكفرهم[٤]، فتدل على أن[٥] ذلك جزاء على الأعمال خلاف قول المجبرة.

وتدل الآية إذا ضمت إلى ما روي عن النبي صلى الله عليه أنها في سؤال القبر على عذاب القبر وسؤال منكر ونكير وأن عذاب القبر يختص بمن يستحق العذاب دون المؤمنين، وقد روى البراء بن عازب وابن عباس وجماعة أن رسول الله صلى الله عليه «كان في جنازة فجعل يحدثهم بأن المؤمن إذا دخل قبره أتاه ملكان فقالا له بعد أن أحياه الله تعالى: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ فيقول: ربي الله، وديني

(١) القاضي: ـ ، د.
(٢) و: هو، د.
(٣) الله: +، د.
(٤) لكفرهم: ـ ، د.
(٥) على أن: +، ش.

الإسلام، ونبيي محمد صلى الله عليه وآله[1]، فيقولان[2] له: صدقت، هكذا كنت في الدنيا، فيفتحان[3] له بابًا من النار ويقولان: لو كنت كذبت بها لدخلت هذه النار، ثم يفتح له باب[4] من الجنة ويقولان: إن مصيرك إلى هذه، ثم يفسح له في قبره، فأما الكافر فيدخلان عليه بغلظة ويسألانه فيقول: لا أدري، فيقولان له: لا دريت، ثم يفتح له باب[5] من الجنة ويقولان له: لو صدقت لكان مصيرك إليها، ثم يفتح له باب إلى النار فيرى مقعده منها، ثم يضيق عليه قبره، فكذلك قوله: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾، ومعنى قوله: يفتح له باب إلى الجنة والنار[6]، أنهما يأخذان في وصف الجنة والنار أو يريانه مثالاً للجنة ومثالاً للنار.

قوله تعالى:

﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦ قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾﴾

۞ القراءة

قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب: «**ليضلوا**» بفتح الياء من ضل يضل على أنه لازم، وقرأ الباقون بضم الياء من أضل غيره يضل.

۞ اللغة

التبديل: جعل الشيء مكان غيره، بدل يبدل تبديلاً.

---

(١) صلى الله عليه وآله: +، د.
(٢) فيقولان: فيقولا، ض.
(٣) فيفتحان: ثم يفتحان، د؛ يفتحان، ش.
(٤) باب: بابًا، د.
(٥) باب: بابًا، د.
(٦) والنار: ـ ، د.

والإحلال: وضع الشيء في محل، وهو على وجهين: إحلال مجاورة كمحل[1] جسم[2] في وعاء، وإحلال مداخلة[3] كإحلال العرض في الجوهر.

ومتى قيل: فحلول العرض[4] في الجوهر بالفاعل أو بمعنى[5] وحلول[6] الجوهر مجاورا للجوهر[7] كذلك؟

فجوابنا: أما حلول الجوهر في جهة فإنه صادر عن علة هي كون يفعله الفاعل فوجود ذلك الكون بالفاعل، فأما اختصاص ذلك الكون بتلك الجهة لا يعلل وليس بالفاعل ولا بنفسه.

والبوار: الهلاك، بار يبور بورًا، هلك، قال ابن الرهوي[8] :

يا رسول المليك إن لساني   رايق ما فتقت إذ أنا بُورُ

قال المؤرج: البوار: الهلاك بلغة عُمان.

والند: المثل المنادد[9]، وجمعه[10] : أنداد، وقيل: الند الضد، عن أبي القاسم. وقيل: المثل، عن الزجاج. والصحيح ما بيناه أولاً.

❁ الإعراب

الضمير في قوله: (**أحلوا**[11]) في محل الرفع لأنه فاعل. «**قومهم**» نصب لأنه

---

(١) كمحل: كحل، ض.
(٢) جسم: الجسم، ش.
(٣) وإحلال مداخلة: والإخلال بداخله، د.
(٤) العرض: الغرض، د.
(٥) أو بمعنى: أو لمعنى، ش.
(٦) وحلول: حلول، د.
(٧) مجاورًا للجوهر: مجاور الجوهر، ض؛ مجاور للجوهر، ش.
(٨) الرهوي: الزهري، ش.
(٩) المنادد: النادي، د.
(١٠) من هنا بداية النسخة و.
(١١) أحلوا: حلو، ض.

مفعول «دار»[١] المفعول الثاني. «**جهنم**» نصب بدل من «دار»، واللام في قوله: «**ليضلوا**» لام العاقبة لا لام الإرادة؛ لأن عبادة الأوثان سبب يؤدي إلى الضلال، ويحتمل أن يكون لام كي أي: عبدوا الوثن كي يضلوا غيرهم، فأما القراءة بالنصب فلا يحتمل إلا لام العاقبة لأنهم لم يريدوا ضلال[٢] أنفسهم.

النزول

في سبب نزولها[٣] أقوال:

قيل: إنها[٤] نزلت في كفار أهل مكة[٥]، عن عمر[٦]، وعلي عليه السلام[٧]، وابن عباس، وسعيد بن جبير، ومجاهد، والضحاك.

وقيل: نزلت في القادة من مشركي أهل مكة، أنعم الله عليهم بالنبي فكفروا به ودعوا قومهم إلى الكفر به، عن قتادة، وأبي مسلم.

وقيل: نزلت في بني أمية وبني المغيرة ورؤوس[٨] أهل بدر الذين قادوا أهل بدر، عن ابن عباس، والأصم، وعمرو بن دينار، وجماعة.

وقيل: نزلت في أبي جهل وأصحابه، عن الحسن[٩]. وعن علي عليه السلام[١٠]: هما الأفخران من قريش، أمية ومخزوم، فأما[١١] بنو أمية فمتعوا إلى حين، فأما بنو المغيرة فأخزاهم الله يوم بدر.

---

(١) دار: أراد، ش.
(٢) ضلال: إضلال، د.
(٣) نزولها: النزول، د.
(٤) إنها: إنما، ض.
(٥) مكة: بدر؛ د، ش، ض، و.
(٦) عمر: علي عليه السلام، ض.
(٧) وعلي عليه السلام: عمر، د،ش.
(٨) ورؤوس: رؤوس، د، و؛ ويزول؛ ش.
(٩) الحسن: والحسن، ش.
(١٠) عليه السلام: +، د.
(١١) فأما: وأمّا، د.

وروى ابن جرير عن علي عليه السلام[١] أنهم منافقو قريش.

وقيل: هم جبلة بن الأيهم ومن اتبعه من العرب فلحقوا بالروم، عن ابن عباس.

المعنى

لما تقدم ذكر[٢] مثل الفريقين وما أعد لكل واحد عقبه ما يعجب رسوله والمؤمنين من صنيع الكفار، فقال سبحانه: «**أَلَمْ تَرَ**» ألم تعلم «**إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا**» أي[٣]: غيروا «**نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا**» قيل: جعلوا بدل شكر[٤] نعمه الكفر به، فكأنهم بدلوا، عن أبي علي. وقيل: آتاهم المال ليصرفوه في سبيل الخير فصرفوه في معاصي الله فكأنهم بدلوه، عن أبي القاسم. وقيل: أوتوا ليصرفوه فيما ينفعهم فصرفوه فيما يضرهم فهم غيروا أحواله؛ لأن النعم[٥] تغيرت، وقيل: أنعم عليهم بالرسول والقرآن فاختاروا الكفر على الإيمان، عن أبي مسلم. وقيل: جعلهم أهل حرمه وولاة بيته، وأطعمهم من جوع، وآمنهم من خوف، فكفروا به وعبدوا اللات والعزى، عن الأصم. «**وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ**» معناه دار الهلاك وهو جهنم، وقيل: دعاهم إلى محاربة النبي صلى الله عليه وآله[٦] حتى قتلوا وأهلكوا[٧] ببدر وغيره «**وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا**» قيل: وصفوا الله بأن له أندادًا[٨]، وقيل: اتخذوا غيره إلهًا وسموها معبودًا، و«**أندادًا**» قيل: أمثالاً وشركاء يعبدونهم وهي الأوثان، عن ابن عباس، والحسن، والأصم، وأبي علي. وقيل: أضدادًا، عن أبي القاسم. وقيل: جعلوا الأصنام شركاء لله في النعم الواصلة إليهم، وقيل: جعلوا للأصنام حظًا مما أنعم الله عليهم نحو قولهم: هذا لله وهذا لشركائنا، «**لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ**» أي: كان عاقبهم الضلال عن دين

(١) عليه السلام: +، د.
(٢) ذكر: ـ، د.
(٣) أي: ـ، و.
(٤) شكر: ـ، ش.
(٥) النعم: النعمة، د، ش، و.
(٦) وآله: +، د.
(٧) وأهلكوا: وهلكوا، د.
(٨) أندادا: ند، د، و.

الله لأنهم لم يريدوا أن يضلوا، هذا إذا قرئ بالفتح، وإذا قرئ بالضم فقد بينا أنه يحتمل الوجهين، «قُلْ[(١)]» لهم وعيدًا وتهديدًا «تَمَتَّعُوا» أي: انتفعوا قليلاً بما أنتم فيه «فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ» عن قريب «إِلَى النَّارِ»[(٢)] ومصير أتباعكم إلى النار، وقوله: «تمتعوا» ليس بأمر، ونظيره قوله: ﴿وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ﴾ [الإسراء: ٦٤].

۞ النزول[(٣)]

اختلفوا في هاتين الآيتين:

قيل: نزلتا في أهل بيت[(٤)] بالمدينة على ما روي عن عمر[(٥)] وعلي[(٦)] وجماعة.

وقيل: السورة مكية إلا هاتين الآيتين، ومنهم من قال: السورة كلها مكية على ما حكي[(٧)]عن[(٨)] الأصم، ولا يبعد أن الآية نزلت في أهل بدر بمكة، والمراد بدار البوار: جهنم، وسبب ذلك دعاؤهم إلى الكفر وكفرهم[(٩)]. والله أعلم.

۞ الأحكام[(١٠)]

وتدل على أن ذلك التبديل والإضلال فعل العبد وليس بخلق لله تعالى خلاف ما يقوله أهل الجبر، وكذلك وصفهم الله بالأنداد.

وتدل على ذم الداعي إلى الضلال والكفر، فيدخل فيه كل رئيس وقائد دعا إلى بدعة وضلال.

---

(١) قل: قيل، د.
(٢) إلى النار: ـ، د.
(٣) النزول: الأحكام، د، ش، ض.
(٤) في د كتب فوق لفظة: (بدر) لفظة: بيت.
(٥) عمر: عليه السلام، د، ش.
(٦) وعلي: عمر، د، ش.
(٧) حكي: حكينا، د، و.
(٨) عن: +، د.
(٩) وكفرهم: فكفرهم، ش.
(١٠) الأحكام: +، و.

وتدل على المنع عن صرف نعم الله تعالى ومخالفته وترك شكره.

وتدل على أن المتمتع بالدنيا على وجه يعقب نار[1] الأبد[2] مذموم، وأن القناعة على اليسير إذا كان عاقبة ذلك الجنة محمود، وكل ذلك ترغيب وترهيب.

قوله تعالى:

﴿قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ٣١ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ لِتَجۡرِيَ فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡأَنۡهَٰرَ ٣٢ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ دَآئِبَيۡنِۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ٣٣ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلۡتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ ٣٤﴾

القراءة

قرأ حمزة والكسائي: «لعباديْ» بإسكان الياء، والباقون بفتح الياء لالتقاء الساكنين فحرك إلى النصب.

قراءة العامة: «من كل ما» على الإضافة بغير تنوين على معنى أعطاكم من[3] كل ما سألتم[4]، وقرأ الحسن والضحاك وسلام وزيد عن يعقوب: «من كل» بالتنوين، فأما[5] الحجة[6] فقال الضحاك: أي أعطاكم أشياء ما سألتموها ولا طلبتموها وصدق

---

(١) نار: نارًا، ض، و.
(٢) الأبد: +، د، و.
(٣) من: ـ، و.
(٤) أعطاكم من كل ما سألتم: أعطاك كلما سألتموه، د.
(٥) فأما: ما، و.
(٦) الحجة: الجحد، ش، ض، و.

الله، كم من شيء أعطاناه الله ما سألناه إياه وما خطر لنا على بال، قال أبو القاسم: ويحتمل على هذه القراءة آتاكم مقدار[1] الذي سألتموه، وتقديره[2] : آتاكم من كل شيء القدر الذي سألتم.

وقيل في (آتاكم) على هذه القراءة يحتمل وجهين:

أحدهما: التفصيل تقديره: آتاكم من كل ما تقدم أشياء ما سألتموه، بل ابتدأكم به تفضلاً.

والثاني: من كل النعم ما طلبتم وسألتم، فـ (ما) يكون للإثبات، وتقديره: أن جميع ما سألتم أعطاكم، عن القاضي.

اللغة

الخلال والمخالة: المصادقة، خاللته أي: صادقته، أخاله مخالاً وخلالاً، قال أبو القاسم: الخلال جمع خلّة، يقال: خلة وخلال، نحو: قلّةٍ وقلال، وإن شئت جعلت الخلال مصدرًا من خاللت خلالاً نحو: قاتلت قتالاً، قال امرؤ القيس:

صرفت الهوى عنهن من خشية الردى ولست بمقلي الخلال ولا قالي

والتسخير: التذليل، وهو أن تجعل الشيء مهيأً لما تحتاج إليه من جهته، سخره تسخيرًا.

والدؤوب: مرور الشيء في العمل على عادة جارية فيه، دأب يدأب دأبًا ودؤوبًا فهو دائب، ومنه: الدأب العادة، قال الشاعر:

فهذا دأبه أبدًا ودأبي[3]

والسماء معروف، وكل ما علا فهو سماء، ويقال للرجل: سما على الناس، أي: علا عليهم.

والفلك: السفينة.

---

(١) مقدار: بمقدار، د.

(٢) وتقديره: تقدير، د.

(٣) وصدر البيت: يزيد تفضلا وأزيد شكراً. أنظر المستطرف، ١/ ٤٤.

۞ الإعراب

يقال: ما موضع: ﴿يُقِيمُواْ﴾ من الإعراب؟

قلنا: جزم من ثلاثة أوجه:

أولها: جواب الأمر، وهو قوله: ﴿قُل﴾.

وثانيها: بمحذوف، بتقدير: قل لهم يقيموا.

وثالثها: حذف لام الأمر؛ لأن (قل) دليل عليه، بمعنى ليقيموا، نحو: قل له يضرب[1] زيدًا، عن الزجاج.

وقوله: ﴿دَآئِبَيۡنِ﴾ ولم يقل: دائبتين وإن كانت الشمس مؤنثة لوجهين:

قيل: غلب المذكر على المؤنث.

وقيل: لأن تأنيث الشمس غير حقيقي.

۞ النظم

يقال: كيف يتصل قوله: ﴿قُل لِّعِبَادِيَ﴾ بما قبله؟

قلنا: لما تقدم قوله: ﴿قُلۡ تَمَتَّعُواْ﴾ وعيدًا للكفار أمر المؤمنين بما يوجب النعيم الدائم، عن القاضي.

وقيل: لما تقدم الوعيد عقبه بالوعد على العادة الجارية في القرآن، عن أبي مسلم.

ويقال: كيف يتصل قوله: «الله الذي سخر[2]» بما قبله؟

قلنا: يتصل بقوله: ﴿وَجَعَلُواْ[3] لِلَّهِ أَندَادٗا﴾ فلما ذكر ما عليه من اتخاذ الأنداد بين بعده أن الواجب أن يعبد ويدعى إلهًا هو الذي خلق وسخر.

---

(١) طلبتم وسألتم... قل له يضرب: +، و.

(٢) هكذا في د، ش. والآية هي: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ وَسَخَّرَ﴾

(٣) وجعلوا: وجعل، د.

المعنى

«قُلْ» يا محمد «لِعِبَادِيَ» قيل: أراد به أصحاب النبي صلى الله عليه وآله، عن ابن عباس. وقيل: أراد جميع المؤمنين، عن أبي علي. «الَّذِينَ آمَنُوا» صدقوا الله ورسوله «يُقِيمُوا الصَّلاةَ» أي: يديمونها على الوجه المشروع، وهي الصلوات الخمس، عن الحسن. وقيل: كانت الصلاة مفروضة عليهم بمكة، وفرض عليهم قيام الليل إلا قليلاً قبل الهجرة، فوصاهم بأن يقيموا بذلك، عن الأصم. «وَيُنْفِقُوا» يخرجوا «مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ» أعطيناهم عطاء جاريًا «سِرًّا وَعَلانِيَةً» خفية وجهرة، قيل: المراد به الزكاة، عن الحسن، والأصم، وأبي مسلم. وقيل: أراد الإنفاق في مواساة الفقراء ونصرة الرسول ﷺ، عن أبي علي. وقيل: المراد بالسر التطوع، وبالعلانية الواجب، والأول أولى؛ لأنه عقب ذلك بما يجري مجرى الوعيد من قوله: «مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ» يعني يوم القيامة «لا بَيْعٌ فِيهِ» أي: لا فداء يقبل منه، والمراد بالبيع إعطاء البذل ليتخلص من النار لا أن هناك مبايعة «وَلا خِلالٌ» أي: لا ينفع مخاللة[1] ومصادقة لكافر مع مؤمن كما ينفع في الدنيا، بل يبطل جميع ذلك كقوله: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [الزخرف: ٦٧]، عن ابن عباس، والحسن، والأصم، وجماعة من المفسرين.

ثم بيّن من[2] الذي يجب أن يتخذ إلهًا، فقال سبحانه: ﴿ٱللَّهُ[3]﴾ الذي هذه صفته[4] في إنعامه وقدرته وعظمته.

«الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ» يعني أنشأهما من غير شيء، وبدأ بذكرهما لعظم شأنهما في القدرة والنعمة «وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً» يعني المطر، عن ابن عباس، والحسن، وجماعة المفسرين. قيل: أراد السماء المعروف لقوله: ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ﴾ [الذاريات: ٢٢] أي: سبب رزقكم وهو المطر، وقيل: أنزل من علو، عن الأصم. «فَأَخْرَجَ بِهِ» أي: بالماء «مِنَ الثَّمَرَاتِ» يدخل فيه الأشجار[5] والحبوب والزروع وغير

(١) مخاللة: جازية؛ د، ش، و.
(٢) من: أن، د.
(٣) الله: هو الله، د.
(٤) طلبتم وسألتم فما يكون للإثبات... الذي هذه صفته: +، د.
(٥) الأشجار: الثمار، ش.

ذلك، وإنما قال: «**أخرج به**[١]» لأنه تعالى أجرى العادة بذلك لما فيه من المصلحة[٢] وإلا فإنه[٣] كان يصح أن يخرج جميع ذلك من غير ماء لكن أجرى العادة بذلك لما فيه من المصلحة، ولأن العبد إذا تصور أن هذه المنافع القليلة تحسن مع تحمل المشاق لها فالمنافع الدائمة أولى فيكون لطفًا، ولأنه إذا كان بهذه المنافع يدفع[٤] الضرر عن نفسه[٥] فدفع ضرر العقاب بفعل الطاعات أولى «**رِزْقًا لَكُمْ**» يعني الغرض بذلك أن يعطيكم أرزاقكم فيعلم أن ذلك لم يقع اتفاقًا وأن الغرض الإنعام عليكم لتشكروه، وقيل: رزقكم بها «**وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ**» السفن «**لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ**» وإنما منّ بذلك لما يتكامل به من النعم في نقل الأمتعة من بلد إلى بلد، وأضاف ذلك إلى نفسه لأن ما تتخذ منه السفينة من الخشب والحديد والآلات من خلقه، وكون الماء على صفة تجري فيه السفن من فعله، والرياح التي تجري بها السفن من إنشائه[٦] «**وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ**» قيل: في كل بلدة، عن مجاهد. ليجري[٧] الماء إلى مواضع النبات والشرب «**وَسَخَّرَ لَكُمُ**» أي: لمنافعكم «**الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ**» في سيرهما لأن شيئًا من النعم لا يتم إلا بالضياء والليل «**دَائِبَيْنِ**» أي: دائمين في سيرهما يجريان على وجه به يتم طلب المنافع والسكون، وعدد السنين والحساب، ومواقيت منافع العباد، عن الأصم. وقيل: الدأب إدامة السير، عن أبي مسلم. وقيل: دائمين في طاعة الله أي: يجريان كما يجريهما، وقيل: دائمًا يقبلان عليكم ويتعاقبان عليكم «**وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ**» فيتعاقبان لتتم بهما النعم «**وَآتَاكُمْ**» أي[٨] : أعطاكم «**مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ**» قيل: أعطاكم[٩] من كل شيء سألتموه، فحذف لدلالة الكلام عليه و(من) للتبعيض كقوله:

---

(١) به: ـ ، د.
(٢) لما فيه من المصلحة: ـ ، د.
(٣) فإنه: إنه، د.
(٤) يدفع: لدفع، د.
(٥) في د: النفس. وكتب فوق هذه اللفظة كلمة: نفسه.
(٦) إنشائه: أسبابه، د، ش.
(٧) ليجري: فتجري، د.
(٨) أي: ـ ، د.
(٩) من كل ما سألتموه قيل أعطاكم: ـ ، د.

﴿مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا﴾ [الكهف: ٨٤]، وقيل: مع كل هذه النعم آتاكم من كل ما سألتموه أشياء، عن أبي علي. وقيل: أراد[١] إعطاءكم سؤلكم ومنيتكم، وقيل: أعطاكم ما سألتم وما لم تسألوا، عن ابن عباس، والحسن، والأصم. وقيل: أراد به التكثير، كقولهم: يعلم كل شيء، وأتاه كل الناس، وقوله: ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ[٢] أَبْوَابَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٤٤]. ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ [النمل: ٢٣]، عن الأخفش. وقيل: ليس شيء إلا وقد سأله بعض الناس، فقال تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾، وقيل: أعطاكم ما لم تسألوه، عن الضحاك، وقتادة.

ومتى قيل: قد يسأل من[٣] لا يعطى؟

فجوابنا: لذلك أدخل (من) وهي للتبعيض[٤] فيعطي بحسب المصلحة، ولأن من يسأل[٥] ولا يعرف كيف يسأل لا يعتبر به، إنما المعتبر بسؤال العارف الذي يسأل بشرط المصلحة والله تعالى سيفعل ذلك في وقته.

«**وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا**» أي: لا تقدرون على إحصائها لكثرتها ولأن منها ما هو ظاهر ومنها ما لا يعلم، لأن أنواع النعم في بدنه ورزقه ومنافعه دنيا ثم منافع الدين، ثم دفع البلايا لا يعرف كنهه، فبين أنه المنعم وأنه المستحق للعبادة لكن الإنسان مع هذا ـ ولم يرد عموم الإنسان وإنما أراد الكفار ـ «**لَظَلُومٌ**» قيل: ظلوم لنفسه بما كفر من نعم ربه واستوجب العقاب، وقيل: ظلوم للنعم حيث أضافها إلى غير مبتدئها «**كَفَّارٌ**» مبالغة في الكفر، وقيل: ظلوم في الشدة، كفّار في النعمة.

۞ الأحكام

تدل الآية على وجوب المبادرة إلى الطاعات من إقام الصلاة وإيتاء الزكاة.

---

(١) أراد: ـ، ش.

(٢) عليهم: لهم، ض.

(٣) يسأل من: سأل ما، د، ش.

(٤) للتبعيض: التبعيض، د.

(٥) يسأل: سأل، د.

وتدل على عظيم نعمه بما سخر لنا وما أسدى إلينا[١] من النعم.

وتدل على أنه تعالى خلق جميع ذلك وسخر لمنافع خلقه، لذلك قال: «**لكم**» خلاف ما يقوله قوم أنه يفعل لا لغرض.

وتدل على أن أحدًا لا يقدر على مثل نعمه ليكون الشكر والعبادة له.

وعن طلق بن حبيب قال: إن حق الله أثقل من أن يقوم[٢] به العباد، وإن نعم الله أكثر من أن تحصيها العباد، ولكن أصبحوا توابين[٣] وامسوا توابين[٤].

وتدل على أن إقامة الصلاة والزكاة فعل العبد ليصح الأمر.

وتدل على أن الظلم والكفر فعلهم ليصح الذم والعقاب، فيبطل قول المجبرة في المخلوق.

قوله تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ (٣٥) رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي ۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣٦)﴾

القراءة

قال أبو القاسم: قرأ بعضهم: (أجنبني) بالهمز، وبعضهم بغير همز، قال الزجاج: يقرأ (أجنبني) بالهمز من قولهم: أجنبته كذا، جعلته جانبًا، وكذلك جنبته.

اللغة

الجنب: البعد، وكذلك[٥] الجنابة، ومنه: ﴿وَالْجَارِ الْجُنُبِ﴾ [النساء: ٣٦]،

---

(١) إلينا: لنا، ض.

(٢) يقوم: تقوم، د.

(٣) توابين: تائبين، د.

(٤) توابين: تائبين، د.

(٥) وكذلك: فكذلك، د.

ويقول الرجل: جنبت[1] كذا[2] أي[3] : تباعدت عنه، وسواء قولك: جنبني وأجنبني، قال علي بن عيسى: اجنبني: اصرفني[4] عنه، قال الفراء: أهل الحجاز يقولون: جنبني شره بالتخفيف وبذلك نزل القرآن، وأهل نجد يقولون: جنبني وأجنبني، يقال: جنبته أجنبته جنبًا، وجنبته الشر تجنيبًا، وأجنبته إجنابًا.

والصنم: التمثال[5] المصور، وما ليس بصنم فهو وثن.

۞ الإعراب

العامل في قوله: (إذ) محذوف، تقديره: واذكر إذ قال.

قوله: (بني) فيه ياءان: ياء الأصل وياء الإضافة أدغم[6] أحدهما في الآخر[7] وبُني على الفتح.

۞ النظم[8]

لما تقدم النهي عن عبادة الأصنام والدعاء إلى عبادة الله وحده بيّن ما كان عليه إبراهيم من التشدد في إنكار عبادة الأصنام ودعائه بما دعا، عن القاضي.

وقيل: هو معطوف على ما تقدم من قوله: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ﴾ فبين أن هذا سنة الله في أنبيائه ليبينوا لقومهم كما فعل موسى وكما فعل إبراهيم، وذكر القصة، عن أبي مسلم.

وقيل: لما بين أنه يعطي من كل ما يسأل[9] بيّن ما دعا وسأل إبراهيم عليه السلام[10] وما أجابه به تأكيدًا لذلك.

---

(١) جنبت: اجتنبت؛ د؛ تجنبت، ش.
(٢) كذا: +، د، ش.
(٣) أي: ـ ، د، ش.
(٤) أصرفني: صرفني، د.
(٥) التمثال: المثال، د.
(٦) أدغم: عم، ض؛ أدغمت، ش.
(٧) الآخر: الأخرى، ش.
(٨) النظم: المعنى، د.
(٩) يسأل: سأل، ض.
(١٠) عليه السلام: +، د.

۞ المعنى[1]

«وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ» يعني مكة، وقيل: لما فرغ من بناء الكعبة[2] دعا بهذا الدعاء «آمِنًا» قيل: يجعل مكة آمنًا من الخراب، عن الأصم. وقيل: يجعل أهلها آمنًا كقوله: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢] أي: أهل القرية وهو الوجه، وعليه أكثر المفسرين.

ومتى قيل: كيف يجعله آمنًا؟

فجوابنا: قيل: فيه وجهان:

أحدهما: بما اختص به مكة من أمن أهلها في الجاهلية والإسلام، ومن أمن الوحش والطير بما تتميز به عن سائر البلدان وجميع[3] ذلك بلطفه.

وقيل: آمنًا بالحكم بأن يؤمن أهلها ومن يقصده من الحجاج والعمار.

«وَاجْنُبْنِي» قيل: اصرف ذلك عني، عن الفراء. وقيل: بعدني، عن أبي مسلم. وقيل: ثبتني على اجتناب عبادتها لقوله[4] ﴿وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾ [البقرة: ١٢٨]، عن الزجاج.

ومتى قيل: إذا كان التجنيب فعله فكيف سأل ربه؟

فجوابنا: سأل الألطاف التي عندها يجتنب ويبعد عن عبادتها.

ومتى قيل: إذا علم أنه تعالى يعصمه فما معنى السؤال؟

فجوابنا: الانقطاع إليه، واستمداد المعونة والنظر في المستقبل من عنده.

«وَبَنِيَّ» يعني أولادي.

ومتى قيل: هل أجيب دعاؤه؟

---

(١) المعنى: ـ، د.

(٢) بناء الكعبة: بنائه، د.

(٣) وجميع: وبجميع، ض.

(٤) لقوله: بقوله، د؛ كقوله، ش.

قلنا: نعم، لأنه لا يدعو إلا بعد إذن، وإذا أذن أجيب وإلا كان تنفيرًا عنه.

ومتى قيل: أليس في ذريته مشركون؟

فجوابنا: أن بعضهم أجاب بأن أحدًا من ولده لم يبق على عبادة الأصنام، وإنما كانوا يعبدون الأوثان، عن مجاهد وغيره. وهذا يبعد لأنه ﷺ لا يجوز أن يريد بهذا الدعاء إلى عبادة غير الله والحجر كالصنم في ذلك، وقيل: أراد من أولاده من كان أنبياء ومؤمنين، وقيل: أراد من قوله في حال الدعاء ولذلك[1] جمعهم إلى نفسه، ولا شبهة أن دعوته مجابة فيهم، وقيل: إنه أراد كل أولاده لكن المراد بالمسألة الألطاف[2]، والله تعالى أجابه إلى ذلك لكن منهم من لا لطف له لأمر يرجع إلى اختياره، فإذا عبدوا الأصنام لم تخرج دعوة إبراهيم ﷺ[3] من أن تكون مجابة فيما أراده بالمسألة.

«أَنْ نَعْبُدَ الأَصْنَامَ» أي: عن عبادة الأصنام[4]، قيل: كان قومه عباد أصنام فخاف على ولده «رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ» ونظيره: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٧٥] يعني بأوليائه، وقيل: أضللن، فأضاف الضلال إليهن لأنهن السبب في الضلال كقوله: فتنتني[5] فلانة؛ أي: فتنت[6] وهي السبب، عن الزجاج. واختلفوا في الضلال، قيل: هو الكفر وعبادة الأصنام، وقيل: هو العذاب، عن أبي مسلم. يعني أهلكن كثيرًا من الناس.

ومتى قيل: ما[7] وجه شبههم[8] في عبادة الأصنام؟

قلنا: وجوه:

منها: التقرب إلى الله بعبادة صورة مزينة.

---

(١) ولذلك: فلذلك، د، ش.
(٢) الألطاف: الإطلاق، ض.
(٣) ما بين القوسين زيادة من د.
(٤) أي عن عبادة الأصنام: +، د.
(٥) فتنتني: افتتنتني، د.
(٦) فتنت: افتتنت، د.
(٧) ما: فما، د.
(٨) شبههم: شبهتهم، د، ش.

ومنها: اتخاذ هياكل النجوم[١] ليحظى بتوجه العبادة إليها، وكلها جهل لا خفاء[٢] به؛ لأن العبادة لا يستحقها إلا[٣] المنعم بأصول النعم ولا يقدر على ذلك غيره تعالى.

ثم بيّن حال أمته فقال سبحانه حاكيًا عن إبراهيم عليه السلام[٤] : «**فَمَنْ تَبِعَنِي**» قيل: من ذريتي، عن أبي علي. وقيل: من أمتي، والاتباع في الدين: الإخلاص[٥] «**فَإِنَّهُ مِنِّي**» أي: حاله كحالي، وقيل: على ديني، عن ابن عباس. «**وَمَنْ عَصَانِي**» خالفني في ديني «**فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**» قيل: غفور لمن تاب، رحيم لمن استرحمك وهو الوجه، وقيل: من[٦] عصاني ثم تاب فإنك غفور، عن ابن عباس، والحسن، والسدي، والأصم، وهو الوجه. وقيل: من عصاني فيما دون الشرك، عن مقاتل، وليس بالوجه لأنه جرى ذكر الشرك، ولأن ما دون الشرك لا يقطع أنه يغفر، وقيل: غفور لمن استحق العقاب بالتوبة، عن أبي علي. وقيل: من عصاني فإنك غفور لا تعاجلهم[٧] بالعقاب بل تمهلهم[٨] ليتوبوا، عن القاضي، وهو أوجه الأقوال، وقيل: هذا جهة تفويض الحكمة إليه لإيجاب المغفرة لهم، وقيل: إنه دعا لهم على قضية العقل حتى نهي بالشرع فأمسك.

۞ الأحكام

تدل الآية على الرغبة في الدعاء ومسألة اللطف لتجتنب[٩] المعاصي.

وتدل على أنه يجوز إضافة الضلال إلى السبب الذي يقع عنده وإن لم يكن هو المضل وهو توسع.

---

(١) النجوم: للنجوم، د، ش.
(٢) لا خفاء: لاحقًا، د.
(٣) إلاّ: إلى، د.
(٤) حاكيا عن إبراهيم عليه السلام: ، د.
(٥) الإخلاص: والإخلاص، د، ش، ض، و.
(٦) من: فمن، د.
(٧) لا تعاجلهم: لا يعاجلهم، ش، و.
(٨) تمهلهم: يمهلهم، ش، و.
(٩) لتجتنب: ليجتنب، د.

وتدل على أن الضلال ليس من الله تعالى لذلك أضافه إلى غيره وذم عليه.

قال أبو القاسم: وتدل على جواز الدعاء بما يعلم قطعًا أنه كائن تعبدًا وتذللاً، لأن إبراهيم كان يعلم أنه تعالى[1] يجنبه عبادة الأصنام وأنه لا يكفر.

وتدل على أن العصيان والاتباع فعل العبد.

قوله تعالى:

رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ ﴿٤١﴾

القراءة

قراءة العامة: «**ولوالدي**[2]» يعني: الأب والأم، وعن[3] يحيى بن يعمر قرأ: «**ولوالدتي**[4]» يعني للأم[5]، وقيل: يجوز الأم مؤمنة، عن أبي القاسم. وعن أُبَي: «**ولوالديْ**[6]» بسكون الياء يريد للأب[7] وحده.

وقراءة العامة: «**تهوي**» بكسر الواو، وعن بعضهم بفتح الواو بمعنى تهواهم،

---

(١) تعالى: +، د.

(٢) ولوالدي: والدي، د.

(٣) وعن: عن، د.

(٤) ولوالدتي: والدتي، د؛ ووالدي، ش.

(٥) للأم: الأم، د، ش.

(٦) ولوالدي: ـ ، د.

(٧) للأب: الأب، د.

وحكى الأصم عن بعضهم «ولولدي» بغير ألف يعني: إسماعيل وإسحاق، وقال: لا يحل[1] قراءته لأنه خلاف الشائع المستفيض.

اللغة

الإسكان من السكنى وهو اتخاذ مأوى لصاحبه يسكن إليه متى شاء، أسكنه الدار والبلد إذا جعل ذلك مأوى له.

والذرية: جماعة الولد، أخذ من الذر تشبيهًا بها في الصغر، وقيل: من ذرأ الله الخلق إذا ظهرهم بالإيجاد.

والمحرم: الذي حرم فيه ما أحل[2] [3] في غيره.

والأفئدة: موضع القلب، أحدها[4]: فؤاد، وقيل: هو البطون على ما حكي[5] عن المؤرج.

والهوي: النزول، وتهوي تهبط، عن أبي مسلم. وقيل: تهوي تريد، يقال: فلان يهوي نحوك أي: يريد أن يأتيك، عن أبي القاسم، ومنه: الهوى ـ مقصور ـ المحبة.

والهبة: عطية تمليك من غير معاوضة، وهب فهو واهب.

والتقبل: القبول بإيجاب الجزاء.

الإعراب

يقال: أين مفعول «أسكنت»؟

قلنا: قيل: محذوف تقديره: من ذريتي أناسًا، عن أبي القاسم. وقيل: ولدًا، ويحتمل عن إبراهيم عليه السلام.

---

(١) لا يحل: لا تحل، د.

(٢) ما أحل: ما حل، ض.

(٣) قل له يضرب... ما أحل: ـ، و.

(٤) أحدها: واحدها، و.

(٥) حكي: يحكى، ش، و.

۞ المعنى

«رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي[١]» أي: بعض ولدي، ولا خلاف أنه إسماعيل مع أمه هاجر وهو أكبر ولده، وهو الذي رفع مع إبراهيم قواعد البيت، وذكر الحسن أنه إسماعيل وذريته، قال الأصم: وإنما قال: (من ذريتي) لأن إسحاق كان يومئذ قد ولد، وقال غيره: لم يولد. «بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ» لأنه لم يكن بها يومئذ ماء ولا زرع ولا ضرع «عِندَ بَيْتِكَ» أضافه إليه لأنه تعبد بتعظيمه، عن أبي علي. وقيل: لأنه مالكه[٢] لا يملكه أحد سواه.

ومتى قيل: كيف سماه بيتًا وقد بني من بعد؟

فجوابنا: إذا كان المعلوم كونه وعرف حده جاز أن يقال: بيتك، وقيل: معناه عند بيتك الذي كان قبل رفعه إلى السماء أيام الطوفان، وقيل: عند بيتك الذي مضى في سابق علمك كونه.

«الْمُحَرَّمِ»: قيل: حرم موضع البيت حين خلق السموات والأرض، وحفه بسبعة أملاك، عن ابن عباس[٣]. وقيل: حرم على عباده أن يقربوه الدماء والأقذار وغيرها، ولأنه أمر الصايرين إليه أن يكونوا محرمين لأشياء كانت تحل من قبل، عن أبي علي. وقيل: بما له من الحرمة الخاصة من جهات، عن القاضي. وقيل: حرام امتلاكه، وقيل: حرم على كل جبار أن يقهره «رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ» بيّن أنه أسكنهم[٤] ليقيموا الصلاة، وقيل: ليقيموها نحو الكعبة.

ثم دعا بجامع الدين والدنيا، فقال سبحانه: «فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ» لما كان المكان بالصفة التي وصفها الله تعالى بها فلولا لطفه بإمالة القلوب إليه وإلا لما صح أن يعيش أهلها بها، وإنما يميل الناس إليه إما لدينهم كالحج ونحوه أو

---

(١) ذريتي: ذريتي عليه السلام، د.
(٢) مالكه: مالك، ض.
(٣) قيل حرم موضع... عن ابن عباس: ـ، ش.
(٤) أنه أسكنهم: إنما أسكنها، د.

للتجارة وكلا الوجهين بأمره تعالى ولطفه، و«**أَفْئِدَةً**[1] **مِنَ النَّاسِ**» قيل: بعض الناس، قال سعيد بن جبير: لو قال أفئدة الناس لحجت اليهود والنصارى[2] والمجوس ولكن قال: «**من الناس**» فهم المسلمون. وروي عن مجاهد أن إبراهيم لو قال لازدحمت فارس والروم، وقيل: الأفئدة الجماعات، وقيل: الأفئدة القلوب، أي: حببهم في قلوب الناس «**تَهْوِي إِلَيهم**» قيل: تنزع[3]، يقال: هوى نحوه إذا مال، عن ابن عباس، وقتادة، والزجاج. وقيل: تحن، عن الأصم. وقيل: تنزل وتهبط إليهم لأن مكة في غور، عن أبي مسلم. وقيل: يأتون البيت تهوي إليهم[4] قلوبهم، عن عطاء، وطاووس. وقيل: سأله أن يحبب الحج إلى عباده فأجاب وأوجب الحج، وقيل: تهوي إلى الحج والعمرة، عن[5] الحسن. وقيل: أمل قلوبهم إليه ليأنسوا بها[6] وينقلوا الميرة إليهم، عن أبي علي. «**وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ**» مما يجلب إليهم من الأقطار مما أعطته أهل المياه والريف، وسببه ما تقدم من إرادة الناس للحضور، وقيل: بما ظهر من العمارات ينزله[7] الناس وينقل[8] إليه الثمرات «**لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ**» لكي يشكروا الله ويعبدوه «**رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ**» قيل[9]: من جميع أمورنا، وقيل: ما نخفي من الوجد بإسماعيل، وما نعلن[10] من حذر[11]، عن ابن عباس. وقيل: ما نخفي وما نعلن[12] من التوحيد، عن الأصم. وقيل: ما نخفي من الحزن بمفارقة إسماعيل وما نظهر من قوله: ﴿رَبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ﴾ ، حكاه الأصم.

---

(١) أفئدة: ـ، و.
(٢) اليهود والنصارى: النصارى واليهود، د.
(٣) تنزع: تفرغ، و.
(٤) إليهم: إليه، د، ش.
(٥) عن: إلى، د.
(٦) بها: بهم، د.
(٧) ينزله: تنزله، د.
(٨) وينقل: تنقل، د، و.
(٩) قيل: وقيل، د، و.
(١٠) وما نعلن: وما نخفي، ض، و.
(١١) حذر: جنة، و.
(١٢) وما نعلن: وما نعملها، ض، و.

وقيل: أنت تعلم ما يكون الذرية في المستقبل ولا أعلم أنا، عن أبي مسلم، والقاضي. وقيل: سألتك وأنت أعلم بالمصالح فافعل بهم ما هو أصلح لهم[1] «وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ» قيل: هو كلام إبراهيم، عن ابن عباس، والأصم، وأبي مسلم، والقاضي. وقيل: هو ابتداء كلام من جهة الله تعالى لا عن[2] إبراهيم اعتراضًا، عن أبي علي.

ثم عاد إلى حكاية كلام إبراهيم فقال سبحانه: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ» قال القاضي: ليس في الكلام دلالة على أن هذا القول كان عقيب ما تقدم، بل كان بعد ذلك بزمان؛ لأن ذلك كان في ابتداء[3] مولد إسماعيل وولد إسحاق بعد ذلك بزمان، قال ابن عباس: كان بين الدعاءين كذا وكذا سنة، فأما الأصم فذكر أنهما كانا ولدا في هذا الوقت. «إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ» أي: قابله ومجيبه، عن ابن عباس، كقوله: سمع الله لمن حمده «رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ» معناه: سأله[4] اللطف الذي عنده يقيم الصلاة ويتمسك بالدين «وَمِنْ ذُرِّيَّتِي» قيل: أراد ذريتي كقوله: ﴿أَفِيضُواْ عَلَيْنَا[5] مِنَ ٱلْمَآءِ﴾ [الأعراف: ٥٠] أي: الماء، وقيل: أراد بعضهم، وقيل: أراد محمدًا وأمته، عن الحسن. أي: اجعل في[6] أولادي من تلطف لهم فيقيمون الصلاة، فسأل لهم كما يسأل[7] لنفسه «رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ» أي: أجب، وقيل: تقبل عملي وعبادتي «رَبَّنَا اغْفِرْ لِي» فدعا لنفسه بالمغفرة وإن علم كونه [مغفورًا له]، [و] قيل: انقطاعًا إلى الله، وقيل: أراد زيادة الفضل.

«وَلِوَالِدَيَّ» فيه ثلاثة أقوال:

أولها: أنه أراد أباه وأمه الأدنيين، عند الأكثر، وهو اختيار القاضي، ثم اختلفوا، قيل: كان وعده أن يسلم فلما مات على الكفر تبرأ منه، عن الحسن، والأصم، قال

---

(١) لهم: +، و.
(٢) عن: من، و.
(٣) ابتداء: ـ ، د.
(٤) سأله: مسألة، د، ش، ض، و.
(٥) علينا: +، ش، و.
(٦) في: ـ ، د.
(٧) يسأل: سأل، د، و.

الأصم: ويحتمل[1] أن أمه وعدته أيضًا. وقيل: دعا لأبيه أن يحوله من الكفر إلى الإيمان ثم يغفر له وهو يرجو إسلامه فلما مات على الكفر تبرأ منه، عن الحسن. فكأنه سأله أن يلطف له فيؤمن[2] ويغفر له حينئذ، وقيل[3]: سأل المغفرة بشرط، وقيل: كان يدعو له بالمغفرة على مقتضى[4] العقل، ولما ورد الشرع بخلافه تبرأ منه.

وثانيها: ولوالدي من المسلمين ولم يرد من الكفار من أقرب آبائه؛ إذ[5] لا يجوز الدعاء للكافر[6]، عن أبي علي. وهو خلاف الظاهر.

وثالثها: أراد آدم وحواء، وقد حكاه الأصم وأنكره، وإليه ذهب أبو مسلم.

فأما أمه قيل: يجوز أنها وعدته[7] الإيمان كما وعد الأب، عن الأصم. ويجوز أنها كانت مؤمنة[8]، عن الأصم، وأبي القاسم. قال أبو مسلم: وقال[9] بعضهم: كانت أمه مؤمنة[10] ولذلك خص أباه بالذكر في سائر الآيات[11].

«وَلِلْمُؤْمِنِينَ» أي: اغفر للمؤمنين «يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ» أي: يقوم الناس للحساب، قيل: حساب الخلق وقيامه بالقسط كقولهم: حسابنا، عن الأصم.

۞ القصة

قيل: ولد إسماعيل، ولإبراهيم تسعٌ وتسعون[12] سنة، وولد إسحاق وله مائة واثنتا[13] عشرة سنة، وكان أكبر منه بثلاث عشرة سنة، عن ابن عباس.

---

(١) ويحتمل: ويحمل، د.
(٢) فيؤمن: ليؤمن، ض.
(٣) وقيل: قيل، ض.
(٤) مقتضى: ما يقتضي، د، و.
(٥) إذ: +، ش.
(٦) للكافر: للكافرين، ض.
(٧) وعدته: وعدت، د، و.
(٨) ويجوز أنها كانت مؤمنة: ـ ، ش.
(٩) وقال: قال، د، و.
(١٠) مؤمنة: مسلمة، د.
(١١) الآيات: الأوقات، و.
(١٢) وتسعون: تسعين، ش.
(١٣) واثنتا: واثني، د.

وقيل: بشر بإسحاق بعد تسع عشرة سنة[1] ومائة سنة، عن سعيد بن جبير، قال الأصم: ذكروا أن إسماعيل ولد ولإبراهيم بضع وثمانون[2] سنة، وولد إسحاق وله مائة سنة، وفرض الختان يوم ولد إسحاق، واختتن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق، وكان لسارة يوم ولدت إسحاق ثلاث وتسعون[3] سنة، وحكاه عن بعضهم: ولد إسماعيل وهو شاب وإسحاق وهو كبير وبينهما ثمانون سنة، وأنكر ذلك لقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ﴾، ولما ولدت هاجر إسماعيل[4] وكانت أمة لسارة وهبتها[5] من إبراهيم قالت[6]: باعد دارهما مني، فنقلهما[7] إلى مكة، حكاه الأصم.

فلما أتى بهما إلى مكة ولا زرع ولا ضرع ولا أحد وأراد أن يرجع قالت: إلى من تكلنا؟ قال: إلى الله تعالى، قالت[8]: نعم، حسبي الله، ثم دعا بما حكى الله عنه. وقيل: قالت له: الله أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: فإذًا[9] لا يضيعنا.

قال: فلما عطشت وقل لبنها وعطش الصبي انتهت به إلى موضع زمزم، فضرب بقدمه فصارت[10] عينًا، وقال صلى الله عليه: «رحم الله أم إسماعيل، لولا أنها عجلت لكان زمزم[11] عينًا معينا»، ثم نزل بهما جرهم.

وقد ذكر في هذه القصة أمور منها ما لا يجوز، قال القاضي: وكثير من ذلك يبعد، فمما ينكر ما[12] يروون أنه نقلهما إلى ذلك المكان بأمر امرأته ولا ماء ثم ولا أنيس، فلو كان كذلك لنقلهما إلى بعض أطراف الشام، ولأن عظيم منزلته لا يجوز أن

---

(١) سنة: ـ، د، وهو أصوب.
(٢) ثمانون: ثمانين، ش. وفي هامشها: ثمانون. ظ.
(٣) وتسعون: تسعين، و. وفي هامشها: تسعون. ظ.
(٤) إسماعيل: بإسماعيل، د.
(٥) وهبتها: وهبته، د. وكتب فوقها لفظة: وهبتها. ظ.
(٦) قالت: وقالت، د.
(٧) فنقلها: فنفاهما، ض.
(٨) قالت: قال، و. وفي هامشها: قالت. ظ.
(٩) فإذًا: فإذن، و.
(١٠) فصارت: فغارت، ش، و.
(١١) عينًا وقال صلى الله عليه. لكان زمزم: ـ، د.
(١٢) ينكر ما: ـ، د.

يضيعها[١] بأرض مضيعة[٢] بقول امرأة، وقد روي أنه قال: الله تعالى أمرني بهذا، فإذا نقول[٣] : إنه نقلهما إليها لما علم أنه يحدث هناك من البيت والبلد واجتماع الناس ويكون ذلك كالمعجزة لإبراهيم، ولأنه قال: ﴿لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ دل أنه نقلهما إليها للعبادة وذلك لا يكون إلا بعد الأمر.

۞ الأحكام

تدل الآية على أنه عرفه أنه متعبد بالصلاة[٤] إلى الكعبة لأنه يتعبد ذريته بذلك، لذلك قال: أسكنتهم ليقيموا الصلاة.

وتدل على أن البيت كان محرمًا، وعن النبي ﷺ[٥] : «لن يزالوا بخير ما عظموا هذه الحرمة، فإذا ضيعوها هلكوا».

وروي عن النبي صلى الله عليه[٦] «أنه حرم قبل ذلك».

وعن عمر في خطبة له: إن قومًا من طسم نزلوه[٧] فعصوا[٨] ربهم واستحلوا حرمته فهلكوا، ثم نزله ناس من جرهم فعصوا ربهم واستحلوا حرمته فأهلكهم الله، ثم وليتموه معاشر قريش فلا تعصوا الله ولا تستحلوا حرمته، ولا تستخفوا بحقه، فوالله لصلاة فيه أحب إلى الله[٩] من مائة صلاة في غيره..في كلام طويل، رواه قتادة.

ويدل قوله: ﴿فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةً﴾ على أنه تعالى أجاب دعاءه[١٠]، وظهور[١١] ذلك معجزة له.

---

(١) يضيعها: يضعهما، ض.
(٢) مضيعة: مصعبة، ض.
(٣) نقول: يقول، و.
(٤) بالصلاة: للصلاة، و.
(٥) صلى الله عليه: عليه السلام، د.
(٦) صلى الله عليه: عليه السلام، د.
(٧) نزلوه: تولوه، ش.
(٨) فعصوا: يفضوا، د.
(٩) الله: +، و.
(١٠) دعاءه: دعائهم، د. وكتب فوق هذه الكلمة لفظة: دعاءه.
(١١) وظهور: وظهر، د، و.

وتدل على وجوب الشكر على النعم دينًا ودنيا.

قوله تعالى:

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ (٤٢) مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ (٤٣) وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ (٤٤) وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ (٤٥)﴾

۞ القراءة

قراءة العامة: «يؤخرهم» بالياء، وعن الحسن والسلمي بالنون، فالياء يرجع[1] إلى اسم الله تعالى، والنون نون الإضافة.

وقراءة العامة: «وتبين لكم» أي: ظهر، وعن السلمي بالنون (نبين لكم)[2] أي: نظهر.

۞ اللغة

الغفلة: ذهاب المعنى عن النفس، ونظيره: السهو، ونقيضه: اليقظة، والعالم[3] بالشيء ليس بغافل عنه.

والإهطاع: الإسراع، أهطع يهطع إذا أسرع، وفي (ضياء القلوب): الإهطاع: إدامة النظر، والإهطاع: مد العنق، والهطع: طول العنق، وأصل الباب: الإسراع، أهطع البعير في سيره، واستهطع: أسرع.

(١) يرجع: ترجع، د.
(٢) لكم: +، و.
(٣) والعالم: في العالم، د.

قال أحمد بن يحيى: المهطع الذي ينظر في ذل وخشوع لا يقلع بصره.

والإقناع: رفع[١] الرأس[٢]، وقيل: الإقناع أن ينكس رأسه.

والطرف: مصدر قولك: طرفت[٣] عني فلان، والطرف بالعين[٤] أيضًا.

والهواء: ما بين السماء والأرض، وكل شيء خالٍ[٥] فهو هواء.

۞ الإعراب

«**يوم**» نصب لأنه مفعول، والعامل[٦] فيه: «**أنذرهم**» كأنه قال خوفهم عقاب الله يوم القيامة، ولا يقال إنه نصب على الظرف؛ لأنه لم يؤمر بالإنذار في ذلك اليوم.

وقوله: «**فيقول**» عطف على قوله: «**يأتيهم**» وليس بجواب ولذلك رفع.

﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي[٧]﴾ نصب على الحال.

«**أفئدتهم هواء**[٨]» مبتدأ[٩]﴿هَوَآءٌ﴾ خبره ويمد لأنه أراد الجو[١٠].

۞ المعنى

لما تقدم ذكر يوم الحساب بيّن وصفه وأنه أمهلهم لا عن غفلة لكن للحجة، ولأنهم لا يفوتون[١١]، فقال سبحانه: «**وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ**» أي: [ولا] تظن الله ساهيًا عما يعمل هؤلاء المشركون، بل هو عالم بهم وبما دق

(١) رفع: +، ش.
(٢) الرأس: رأس، د، ض.
(٣) طرفت: صرفت، ض.
(٤) بالعين: العين، و.
(٥) خال: خالي، د، و.
(٦) والعامل: فالعامل، د، و.
(٧) مقنعي: ومقنعي، ش، ض.
(٨) هواء: +، د، و.
(٩) مبتدأ: ـ، د، و.
(١٠) الجو: الحر، د.
(١١) لا يفوتون: لا يقولون، د.

وجل من أفعالهم، وهذا تهديد لهم، وقيل: تقديره: ولا تحسبن الله لا يعاقب الظالمين على أفعالهم ولا ينتصف للمظلوم ولكن أعد لهم العذاب يوم الحشر، عن أبي مسلم. وعن ميمون بن مهران: في الآية وعيد للظالم وتعزية للمظلوم. «**إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ**» يعني يؤخر عقوبتهم إلى يوم هذه صفته وهو يوم القيامة، وقيل: عند إجابة الداعي يوم الحشر من القبور، وقيل: عند الحساب إذا سيق أهل النار إلى النار «**تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ**» يعني يتحيرون، وشخوص البصر عن الشيء دلالة التحير والرعب، وقيل: لا تغمض من هول ما ترى وتطرف، عن الحسن، وأبي علي. وقيل: تشخص أبصارهم إلى إجابة الداعي يدعوهم، عن الحسن. وقيل: يبقوا مبهوتين(١) لا يصرفون أبصارهم يمينًا وشمالاً، عن أبي مسلم. «**مُهْطِعِينَ**» قيل: مسرعين، عن الحسن، وسعيد بن جبير، وقتادة، والأصم، وأبي علي، وأبي القاسم. وقيل: لأنهم مسوقون(٢) معجلون، وقيل: مسرعين إلى الداعي نحو النداء لما يخافون من المكث، وقيل(٣): المهطع الدائم النظر لا يطرف، عن ابن عباس، وأبي الضحى، ومجاهد. وقيل: المطرف لا يرفع رأسه، عن ابن زيد. وقيل: هو شدة النظر عن أن يطرف(٤)، عن الضحاك. «**مُقْنِعِي رُؤُوسِهِمْ**» قيل: رافعي رؤوسهم، عن ابن عباس، ومجاهد، والحسن، والضحاك، وقتادة، وابن زيد، وأبي مسلم، وهو خلاف المعتاد أنهم عند مشاهدة البلاء ينظرون ولا يطرفون، وقيل: ناكسي رؤوسهم، عن المؤرج. «**لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ**» أي: لا يغمضون الجفن، بل يبقون فاتحين له نحو ما عاينوه من هول ذلك اليوم، قال الحسن: وجوه الناس يومئذ إلى السماء لا ينظر أحد إلى أحد، وقيل: الطرف العين، وقيل: أراد فتح العين(٥)، عن أبي مسلم. «**وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاء**» قيل: قلوبهم خالية عن(٦) كل شيء فزعًا وخوفًا، عن ابن عباس، وأبي علي،

(١) مبهوتين: مهويين، ض.
(٢) مسوقون: مستوقون، د.
(٣) وقيل: قيل، ض.
(٤) يطرف: يطرق، د.
(٥) العين: للعين، د.
(٦) عن: من، د، و.

وأبي القاسم. وقيل: فارغة من كل شيء إلا من ذكر إجابة الداعي ومعاينة الأهوال، عن الأصم. وقيل: تمور أفئدتهم في أجوافهم لا مكان لها تستقر فيه، عن سعيد بن جبير. وقيل: بلغت حناجرهم، عن قتادة. وقيل: متخوفة[١] لا تعي[٢] شيء من الخوف، عن الزجاج. فهي كهواء[٣]: الجو «**وَأَنْذِرِ**» خوف يا محمد «**النَّاسَ**» قيل: أهل مكة بالقرآن، عن ابن عباس، والحسن، وأبي علي، ومجاهد وغيرهم. وقيل: هو يوم المعاينة عند الموت، يعرف المؤمن من الكافر فيسأل الرجعة، عن أبي مسلم. وقيل: حين[٤] يرى منزله[٥] من النار، والأول أظهر؛ لأنه وصف اليوم[٦] بأن عذابهم يأتي فيه، عن القاضي. «**فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا**» قيل: الذين أشركوا، عن ابن عباس، والحسن[٧]، والأصم. وقيل: كل من عصى الله وظلم، والأول أظهر في سياقه للكلام «**رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ**» وقت قريب نطلب فيه رضاك ونستدرك ما فات، وقيل: طلبوا الرجعة إلى الدنيا ليتوبوا، عن ابن عباس، والحسن. وقيل: بل إلى حال التكليف لنتلافى[٨] لا إلى الدنيا[٩] ليتوبوا[١٠]، وتقديره: ردنا إلى التكليف واجعل لنا أجلاً قريبًا لنقبل ما دعوتنا إليه[١١]، عن أبي علي، قال القاضي: وهو الأقرب لقوله: «**نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ**»، وقيل: طلبوا تأخير العذاب على وجه الاستغاثة بما يمكن أن يعاقب[١٢] به، ومعناه: لا تعذبنا أجلاً قريبًا لنعبدك ونجيب[١٣] دعوتك، عن

(١) متخوفة: منحرفة، د، و.
(٢) لا تعي: لا يبقى، ش، ض.
(٣) كهواء: كالهواء، ش، ض.
(٤) حين: حتى، و.
(٥) منزله: منزلته، و.
(٦) اليوم: القوم، د، ش، و.
(٧) عن ابن عباس والحسن: عن الحسن وابن عباس، د.
(٨) لنتلافى: ليتلافا، د.
(٩) الدنيا: الذنب، ض.
(١٠) ليتوبوا: +، د، و.
(١١) إليه: إليها، د.
(١٢) يعاقب: يفات، د.
(١٣) ونجيب: ونجب، د، ش، ض.

الأصم. «نُجِبْ دَعْوَتَكَ» أي: دعوة الرسل إيانا إلى الدين «وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ» إلى ما دعونا إليه، فقال تعالى مجيبًا لهم، ويحتمل أن يكون[1] بعض[2] الملائكة أجابهم توبيخًا وتقريعًا: «أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ» حلفتم «مِنْ قَبْلُ» في الدنيا «مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ» أي: لا بعث وإنما هي الحياة الدنيا، عن ابن عباس، والأصم، والقاضي. وهذا نحو قوله: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ [النحل: ٣٨] وأمثال ذلك في إنكار المعاد، قيل: لا زوال من الدنيا إلى العذاب ولا عذاب ولم يرد أن لا يموتوا، عن الحسن، وأبي علي، وأبي القاسم. وقيل: لا انتقال من الدنيا إلى الآخرة، عن مجاهد. وقيل: لا زوال من[3] الدنيا فيحيا من يحيا ويموت من يموت، عن أبي مسلم. وقيل: لا يموتون، عن قتادة، وهذا يبعد لأن أحدًا من العقلاء لا ينكر الموت.

ثم زادهم توبيخًا وتقريعًا، فقال سبحانه: «وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ» قيل: سكنتم[4] ديار من كذب الرسل قبلكم فأهلكهم[5] الله، عن ابن عباس، والحسن، والأصم. قال أبو مسلم: قالوا هذا وقد سكنوا مساكن من كان قبلهم ممن كانوا أعظم شأنًا، وقيل: مساكنهم دروهم، وقيل: قرارهم، عن ابن زيد. وقيل: أراد[6]: رأيتم[7] قبورهم[8] بتكذيب الرسل، قيل: هم عاد وثمود، عن قتادة، وقيل: هم من قتلوا ببدر «وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ» أي: عرفتم ما نزل بهم من البلاء والهلاك والعذاب المعجل بالأخبار، وكانت العرب عارفين بأخبارهم، عن أبي علي. وقيل: بمروركم[9] على منازلهم، عن الأصم. «وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ» أي:

---

(١) يكون: ـ، و.
(٢) بعض: ـ، ش.
(٣) من: عن، د، و.
(٤) سكنتم: +، د، و.
(٥) فأهلكهم: وأهلكهم، د.
(٦) أراد: +، و.
(٧) رأيتم: أرأيتم، ش.
(٨) قبورهم: قبور، ش.
(٩) بمروركم: لمرورهم، و.

الأشباه، عن مجاهد. وقيل: هو ما ذكر في[١] القرآن مما دل على أنه قادر على الإعادة كما قدر على الإنشاء[٢] ابتداء، وقيل: الأمثال المنبهة على طاعته عز وجل الزاجرة عن معاصيه، عن أبي علي.

۞ الأحكام

يدل قوله: ﴿أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ﴾ الآية على أن أهل الآخرة غير مكلفين، خلاف قول المجبرة؛ إذ لو كانوا مكلفين لم يكن السؤال[٣] للرجعة[٤] معنى، بل كانوا يؤمنون، وهذا خلاف الإجماع وخلاف نص القرآن، عن أبي علي، والقاضي.

ويدل[٥] على أنهم كانوا قادرين على الإيمان؛ إذ لو لم يكونوا قادرين على الإيمان لم يكن لسؤال الرجعة معنى.

ويدل على أن الإيمان فعلهم؛ إذ لو كان خلقًا لله تعالى لم يكن لتمني العود معنى.

ويدل قوله: ﴿عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ على ذلك، وقوله: ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ يدل عليه؛ إذ لو كان خلق الكفر فيهم لم يكن للإنذار معنى.

وتدل على أنهم لا يجابون[٦] إلى ما سألوا من الرجعة.

قوله تعالى:

﴿وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾﴾

---

(١) في: ـ، ش.
(٢) الإنشاء: الأشياء، و.
(٣) السؤال: للسؤال، ش.
(٤) السؤال للرجعة: لسؤال الرحمة، د، و.
(٥) ويدل: وتدل، د، و.
(٦) لا يجابون: لا يجابوا، د.

۞ القراءة

قرأ الكسائي وحده: «لَتزولُ» بفتح اللام الأولى وضم[1] الثانية، وقرأ الباقون بكسر الأولى[2] وفتح الثانية.

فأما على قراءة الأكثر فـ(إن) بمعنى (ما) أي: ما كان مكرهم لتزول منه الجبال، يعني أن مكرهم لا يزيل أمر الرسول ودينه، وأن ثبوته كثبوت الجبال، وقد وعد الله تعالى إظهار دينه فلذلك[3] قال عقيبه: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ﴾.

فأما قراءة الكسائي فمعناه: إن مكرهم[4] وإن بلغ في الكيد والعظم إلى إزالة الجبال فإنه لا يضر رسوله ولا[5] المؤمنين فإن الله ينصر دينه.

قال الزجاج: والمعنى صحيح، وإن[6] لم يكن جبل، أي لو أزال مكرهم الجبال لما زال أمر[7] الإسلام.

وقراءة[8] العامة: «**وإن كان**» بالنون، وعن عمر وعلي[9] وابن مسعود «**وإن كاد**» بمعنى قرب، والمعنى مكروا مكرًا كادت الجبال تزول منه.

قراءة العامة: «**مخلف وعده**» بكسر الدال في (**وعده**). «**رسلَه**» بفتح اللام، وتقديره: لا تحسبن الله مخلف رسله وعده، أو مخلف وعد رسله، كقولهم: هذا معطي[10] درهم زيدًا، وقيل: في الآية ضرب من المقلوب، يقال: أخلفت الوعد وأخلفت الرسل، كقوله: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ﴾ [الشعراء: ٧٧] أي: أنا عدو لهم، عن

---

(١) وضم: وضمه، و.
(٢) الأولى: الأول، د، و.
(٣) فلذلك: ولذلك، د، و.
(٤) مكرهم: مكره، ش.
(٥) لا: +، و.
(٦) وإن: ولن، و.
(٧) أمر: ـ، د.
(٨) وقراءة: قراءة، د.
(٩) وعلي: وعلي عليه السلام.
(١٠) معطي: يعطي، د.

أبي القاسم. وذكر ابن جرير والزجاج أن بعضهم قرأ بنصب الوعد وكسر الرسل على تقدير: مخلف رسله وعده.

۞ اللغة

المكر والكيد والحيلة سواء[١]، والإخلاف: نقض الوعد بترك الإنجاز، وذلك مذموم في الوعد بالاتفاق، فأما في الوعيد[٢] فمنهم من قال: يحسن ممن لا يعرف العواقب، ولا يحسن منه تعالى لأنه عالم بكل شيء قبل كونه، وقد جرى في ذلك كلام بين شيخينا[٣] أبي عثمان وأبي عمرو[٤] بن العلاء لما أورد أبو عثمان آي الوعيد، فقال أبو عمرو: العرب تمدح بخلف الوعيد، وأنشد:

وَإِنِّـي وَإِنْ أَوْعَـدْتُـهُ أَوْ وَعَـدْتُـهُ[٥] لَمُخْلِفُ إِيعَادِي وَمُنْجِزُ مَوْعِدِي

قال أبو عثمان: إن الأعرابي[٦] قد يمدح ويذم[٧]، وإن الله تعالى أصدق القائلين قال: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَيَّ﴾ [ق: ٢٩]، وأنشد:

إِنَّ أبا[٨] ثَابِتٍ لَمُجْتَمِعُ الرَّأْيِ شَرِيفُ الآبَاءِ وَالْبَيْتِ

لاَ يُخْلِفُ الْوَعْدَ وَالْوَعِيدَ ولاَ يَبِيتُ مِنْ نَارِهِ[٩] عَلَى فَوْتِ

والوعيد: خبر يتضمن الموعود بالخير.

والانتقام: الجزاء بما كان من المضار، ونقيضه: الإنعام.

---

(١) سواء: +، د، و.
(٢) في الوعيد: بالوعيد، د، ش، و.
(٣) شيخينا: شيخنا، د.
(٤) وأبي عمرو: أبي عمر، ض.
(٥) أو وعدته: ووعدته، د.
(٦) الأعرابي: الأعراب، د.
(٧) يمدح ويذم: تمدح وتذم، د.
(٨) أبا: أبي، د.
(٩) يبيت من ناره: يتيب من رأيه، د؛ يبيت من رأيه، ش.

۞ الإعراب[1]

في[2] (ضياء القلوب): أضاف المخلف إلى الوعيد، فخفضه، ونصب الرسل بانقطاع[3] الفعل الذي يليه، ونصب الباقي[4] كقولك: هو كاسي الثوب عبد الله، قال الفراء: مخلف[5] يتعدى إلى مفعولين، يقال: أخلفت زيدًا وعده، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٥٢]، قال الأخفش: وكان الوجه مخلفًا وعده فحذف التنوين، وأضاف.

۞ النزول

قيل: نزل قوله: ﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ﴾ في قصة نمرود[6] بن كنعان، عن علي عليه السلام[7]، وابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير.

وقيل: نزلت في مشركي العرب الذين أدركوا رسول الله صلى الله عليه ومكروا به على ما قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الأنفال: ٣٠]، عن الحسن، والأصم.

وقيل: في الأمم الذين مكروا بالرسل[8]، عن أبي علي، وأبي مسلم.

۞ المعنى

ثم بَيَّنَ تعالى ما كان من الكفار من المكر، وما دفع الله من الرسل وأهلك أعداءهم تسلية للنبي ﷺ، فقال سبحانه: «**وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ**» قيل: احتالوا ودبروا بجميع ما كان عندهم، واختلفوا، فقيل: هم كفار قريش دبروا في أمر النبي صلى الله

(١) الإعراب: ـ، د.
(٢) في: وفي، د.
(٣) بانقطاع: بإيقاع، د.
(٤) الباقي: الثاني، د.
(٥) مخلف: ومخلف، د، ش.
(٦) نمرود: نمروذ، ض.
(٧) عليه السلام: +، د.
(٨) بالرسل: بالرسول، ش، ض.

عليه[1]، وقيل: الأمم دبروا في أمر رسلهم، وقيل: إن جبارًا أخذ نسورًا ورباها حتى شبت، ثم قعد هو وصاحب له في[2] تابوت عمل[3] له بابان أحدهما من أعلى والآخر من أسفل، وربطت[4] التابوت[5] بأرجل النسور وعلقوا فوق التابوت[6] لحمًا على خشبة وأجاعها أيامًا، فكانت إذا نظرت إلى اللحم صعدت، فيقول لصاحبه: ما ترى، فقال: أرى الجبال مثل الدخان، ثم صور الخشبة واللحم، وانحطت به النسور، ووقعت التابوت في أرض بعيدة، عن ابن عباس، وابن مسعود، وجماعة. وفي خبر ابن عباس: طارت يومين وليلتين فكان في التابوت بابان، يفتح الباب[7] الأعلى فإذا السماء كهيئتها، وفتح الباب الأسفل وقد انقطع بصره من الأرض، وقيل: كان ذلك نمرود، وقيل: قال: أريد أن أطلع إلى إله السماء وأعرف أخبار السماء، قال القاضي: ويبعد أن يفعل مثل ذلك، فإن الخطر فيه عظيم، وليس في القرآن ما يدل عليه، ولا روي عن ابن عباس رواية صحيحة، فأما الصرح المذكور في القرآن كان في[8] زمن موسى، ونمرود كان في أيام إبراهيم، وليس فيه ذكر النسور والتابوت «**وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ**» قيل: معلوم له، وإن كانوا يخفون ذلك، عن الأصم. وقيل: عالم به فيزيل ضرره، عن أبي علي. وقيل: محفوظ حتى يجازيهم، عن أبي القاسم. وقيل: يجازيهم عليه بخذلانهم ونصرة رسله على ما وعد «**وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ**» على قراءة العامة: ما كان ذلك يزيل أمر الرسل، وعلى القراءة الأخرى: ولو بلغ كل مبلغ لا يزيل دين الله على ما بينا، وقيل: كاد مكرهم كقوله: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ﴾ [مريم: ٩٠]، عن الضحاك. وقيل: معناه: لتزول منه الجبال أي: لا تراه لبعد ارتفاعه في السماء على ما ذكرنا في القصة، عن ابن[9] جرير. وهذا مع بعد القصة

---

(١) صلى الله عليه: +، د.
(٢) في: على، د.
(٣) عمل: حمل، د.
(٤) وربطت: وربط، د.
(٥) إلى هنا انتهت نسخة الضوء المرموز لها بالرمز ض.
(٦) التابوت: الباب
(٧) الباب: باب، د، ش، ض، و.
(٨) في: +، د.
(٩) ابن: +، د.

خلاف الظاهر، وقيل: أن التابوت انحطت فسمع حفيفها جبل فظن أنها أمر الله سبحانه[1] فكانت تزول، وهذا أضعف من الأول؛ لأن الجبل ليس بحي إلا أن يكون[2] المراد أهل الجبل فيكون مجازًا على مجاز، فإذا جاز ذلك فلا حاجة لنا إلى إثبات الجبل، فإن المراد استعظام مكرهم، فسواء حمل على النفي والإثبات يصح من غير إثبات جبل زال عن مكانه «**فَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ**» أي: لا تظن[3] أيها السامع أن الله يخلف وعده «**رُسُلَهُ**».

ومتى قيل: فكيف يتصل هذا بما قبله؟

قلنا: قيل: يتصل بقوله: ﴿وَعِندَ ٱللَّهِ مَكۡرُهُمۡ﴾ فيجازيهم وينصر رسله فلا تحسبوا أنه مخلف وعده.

وقيل: يتصل بقوله: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمۡ لِيَوۡمٍ﴾ ، ثم اختلفوا، فقيل: لا تحسبن الله يخلف[4] وعده في العقوبة المعجلة للكفار، إن شاء عجلها وإن شاء أخرها، عن ابن عباس.

وقيل: ما وعد رسله من النصرة في الدنيا والجنة في الآخرة، عن الحسن.

وقيل: أراد به محمدًا صلى الله عليه وعده بأن يظهره على الدين، ويظفره بعدوه، وهو خطاب لمشركي قريش، ويتصل بقوله: ﴿وَقَدۡ مَكَرُواْ مَكۡرَهُمۡ﴾ ، عن الأصم.

وقيل: لا تحسبن الله مخلف وعده في انتصاف المظلوم من الظالم، عن أبي علي، وأبي مسلم.

«**إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ**» أي: قادر لا يصح عليه المنع «**ذُو انْتِقَامٍ**» أي: ذو عقوبة لمن عصاه.

---

(١) سبحانه: +، د.

(٢) يكون: يقول، و.

(٣) لا تظن: لا تظن الله، د، ش، و.

(٤) يخلف: مخلف، د.

۞ الأحكام

تدل الآية على أن كل عمل محفوظ عند الله ليجازي به.

وتدل على أن مكرهم وإن عظم فلن يضر رسله ودينه.

وتدل على أنه لا يخلف وعده ووعيده، فيبطل قول المرجئة.

وتدل على أن المكر فعلهم حادث من جهتهم، فيبطل قول المجبرة في المخلوق.

قوله تعالى:
﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾﴾

۞ القراءة

قرأ ابن عمر[(١)] وأبو هريرة وسعيد بن جبير وقتادة وعكرمة والربيع بن أنس[(٢)] وزيد عن يعقوب: «قِطرٍ آنٍ» على كلمتين بكسر قاف قطر وتنوين الراء وبهمز (أن) وتنوينها، والمراد قد انتهى حره، قال قتادة: وهو الصفر الذائب، وقيل: من نحاس ومنه: ﴿ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ [الكهف: ٩٦]، والقراء كلهم على فتح القاف والراء وكسر الطاء على كلمة واحدة. قال الحسن: هو القطران للإبل؛ لأن النار أسرع إليه، وقرأ عيسى بن عمر بفتح القاف وسكون الطاء، وهي لغة.

۞ اللغة

التبديل: التغيير برفع الشيء إلى بدل، بدله وأبدله بمعنى.

والبروز: ظهور الشيء فيما كان ملتبسًا به، برز بروزًا وهو بارز، وبارز قرنه في الحرب مبارزة.

---

(١) ابن عمر: ابن عباس، د.

(٢) والربيع بن أنس: الربيع وابن أنس، ش.

والجرم: أصله القطع، والإجرام: اقتراف السيئة، فكأنه قطع العمل الذي لا يجوز.

والقرين[١] : جمع الشيء إلى نظيره، ومنه: القرين، والقران: حبل تقرن[٢] به شيئين[٣]، ومنه: القران في الحج والعمرة.

والأصفاد: القيود، واحدها: صفد وصفاد، قال عمرو بن كلثوم:

فَـآبُـوا بِـالـنِّـهَـابِ وَبِـالـسَّـبَـايَـا وَأُبْـنَـا[٤] بِـالْـمُـلُـوكِ مُـصَـفَّـدِيـنَـا

أي: مقيدين، وقيل: الأصفاد: الأغلال، عن الزجاج، وأبي القاسم. يقال: صفدته وأصفدته، والأول أكثر، ويقال: صفدته وأصفدته إذا أعطيته، قال الزجاج: إلا أن الاختيار في العطية بالألف وفي الحديد بلا ألف، وإنما قيل للعطية[٥] صفد؛ لأنها[٦] تقيد المودة وتربطها.

والسرابيل: جمع سربال، وهو القميص، وقال[٧] : كل ما لبس فهو سربال.

والقطران: ماء تَهْتَنِئُ[٨] به الإبل، وفيه ثلاث لغات: فتح القاف وكسر الطاء، وعليه القراء. وفتح القاف وسكون الطاء وهي لغة بني أسد. وكسر القاف وجزم الطاء لغة قيس وبعض تميم.

والبلاغ: الكفاية ﴿إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا﴾ [الأنبياء: ١٠٦] أي: كفاية، والبلاغة[٩] : البيان الكافي، ومنه: ﴿قَوْلًا بَلِيغًا﴾ [النساء: ٦٣] أي كافيًا، وبلغ يبلغ فهو بليغ: إذا كان يبلغ بلسانه كنه ما في ضميره.

---

(١) والقرين: التقرين، د. والتقرين: والقرين، و، ش.
(٢) تقرن: يقرن، د.
(٣) شيئين: الإنسان، د؛ شيئان، ش.
(٤) وأبنا: وأنباء، د.
(٥) للعطية: العطية، د.
(٦) لأنها: أنها لأنها، و.
(٧) وقال: وقيل، د.
(٨) تهتنئ: ما تهيأ، د. وفي تفسير التبيان ٦/ ٣١٠: هو الذي تهنأ به الإبل.
(٩) والبلاغة: البلاغ، د.

۞ الإعراب

العامل في قوله: «يوم» قوله: ﴿فَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخۡلِفَ وَعۡدِهِۦ﴾، يوم تبدل الأرض[1]، أو ذو انتقام يوم، ويحتمل الحذف، وتقديره: اذكر يوم.

«ولتنذروا» قال أبو القاسم: أهل البصرة يكسرون اللامات كلها حتى لام الأمر، وأهل الكوفة يكسرون لام كي، كقوله: «وليتذكروا» ولامات (أن) كقوله: ﴿لِيُطۡفِـُٔواْ﴾ [الصف: ٨] معناه: أن يطفئوا.

۞ النظم

«يوم» قيل: يتصل بقوله: ﴿عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٖ﴾ ﴿يَوۡمَ تُبَدَّلُ﴾، عن الزجاج، والقاضي.

وقيل: يتصل بقوله: ﴿فَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخۡلِفَ وَعۡدِهِۦ رُسُلَهُۥٓۚ﴾ في الدنيا والآخرة ويوم القيامة، عن أبي مسلم.

۞ المعنى

«**يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ**» أي: تغير عما كانت[2] عليه، ثم التغيير على وجهين: يتغير أصلها[3]، وتتغير صفتها[4]، وقيل: تغير صفتها[5] بزيادة ونقصان وتسوية حتى تذهب بآكامها[6] وجبالها حتى[7] تبقى أرضًا بيضاء كالفضة لم يسفك عليها دم ولم يعمل عليها خطيئة، وتبدل السموات فتذهب شمسها وقمرها ونجومها، عن ابن عباس، وكان ينشد:

وَمَا النَّاسُ بِالنَّاسِ الَّذِينَ عَهِدْتُهُمْ ... وَلاَ الدَّارُ بِالدَّارِ التَّي كُنْتُ أَعْرِفُ[8]

(١) الأرض: +، و.
(٢) كانت: كان، د.
(٣) أصلها: أصلهما، د.
(٤) صفتها: صفتهما، د.
(٥) صفتها: صفتهما، د.
(٦) بآكامها: آكامها، ض.
(٧) حتى: و، د.
(٨) أعرف: تعرف، د، و.

وروي نحوه عن ابن مسعود والحسن وأنس وزيد بن ثابت ومجاهد، وهو قول أبي مسلم. وقيل: ينشئ أرضًا وسماء بعد فناء هذه، عن الأصم، وأبي علي، قال: لأنه قال: «غَيْرَ الْأَرْضِ»، فدل أنه غير الأول، وقيل: تبدل الأرض نارًا أي: تصير نارًا، والجنة فوقها، عن ابن مسعود. وروي عن علي عليه السلام قال: الأرض من فضة، والجنة من ذهب. والأقرب فيه أنه تبدل[١] فتصير السماء[٢] الجنان والأرض نارًا، وتقع[٣] المجازاة فيهما لأن النشأة الثانية للجزاء[٤] فينشئ جنة أو نارًا، وقيل: ينشئ[٥] تلك الأرض الساهرة، وكل ما[٦] حكيناه لا يخرج الأرض من أن تكون هي غير هذه الأرض، فحقيقة الغيرية إنما تحصل بما ذكرنا «وَبَرَزُوا» أي: خرجوا من قبورهم إلى ظهر الأرض حيث يظهرون، وقيل: يخرجون من جميع أملاكهم وجنودهم فيبقون منفردين «لِلَّهِ» أي: لحكم الله في يوم لا يملك أحد شيئًا سواه «الْوَاحِدِ» قيل: الذي لا شبه له في صفاته وإلاهيته، وقيل: واحد حي لا يتجزأ ولا يتبعض، وقيل: واحد فيما يستحق به العبادة «الْقَهَّارِ» القادر على المجازاة لا يمكن لأحد الامتناع عنه «وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ» قيل: الكفار، عن ابن عباس، والحسن، وأبي مسلم. لأنه تقدم ذكرهم، وقيل: أراد كل مجرم، وهو اختيار القاضي لعموم اللفظ «يَوْمَئِذٍ» أي: يوم القيامة «مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ» قيل: يقرن كل كافر مع شيطان كان يضله في غل من حديد، عن ابن عباس، والحسن. وقيل: يقرن بعضهم إلى بعض، عن أبي علي. وقيل: مقرونين[٧] أي مشدودين في قرن، وهو الحبل من الأصفاد والقيود، عن أبي مسلم. وقيل: تقرن[٨] أيديهم وأرجلهم إلى أعناقهم بالأصفاد، عن ابن زيد، أي: يشدون في الأغلال «فِي الْأَصْفَادِ» قيل: في وثاق، عن ابن عباس. وقيل: في قيود وأغلال، عن

(١) تبدل: ـ ، د.
(٢) السماء: السماوات، د.
(٣) وتقع: تضع، د.
(٤) للجزاء: الجزاء، ش.
(٥) ينشئ: سمى، د؛ تسمى، و.
(٦) وكل ما: كلما، د.
(٧) مقرونين: مقرنين، و.
(٨) تقرن: يقرن، ش، و.

قتادة، وابن زيد. وقيل: في سلاسل، عن الضحاك. «سَرَابِيلُهُمْ» أي: قمصهم وما يلبسون «مِنْ قَطِرَانٍ» قيل: هو قطران الإبل؛ لأنه أبلغ في اشتعال النار، وأشد في العذاب، عن الأصم، والحسن، وأبي علي، والزجاج. وقيل: كل ما يلبس فهو سربال، وقيل: نحاس[1] وصفر مذاب قد انتهى حره، عن ابن عباس، ومجاهد، وقتادة. وهذا على[2] القراءة الأخرى، وقد جوز أبو علي القراءتين قال: فإنهم يسربلون سربالين: أحدهما: من القطر، والآخر: من النحاس لدلالة صحة القراءتين عليه «وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ» أي: تصل النار إلى وجوههم «لِيَجْزِيَ اللَّهُ» يتصل بقوله: ﴿يَوْمَ[3] تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ﴾ «لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ» أي: ما عملت من خير أو شر «إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ» قيل: يحاسب مع كل أحد[4] في أسرع من طرفة عين، عن الأصم. وقيل: سريع الجزاء، وقد مضى ذكره «هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ[5]» قيل: هذا[6] إشارة إلى القرآن، عن ابن عباس، والحسن، وأبي مسلم، واختاره القاضي، لأنه كاف[7] في جميع ما يحتاج إليه، وقيل: ما أوحى إليهم من الأخبار، عن الأصم وأبي علي، وقيل: ما تقدم ذكره في السورة، وقيل: هذا الوعيد «بَلَاغٌ» أي: كفاية لمن تدبره «لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ» ليخوفوا بما فيه من الوعد والوعيد «وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ» أي: ليدعوهم هذا الإنذار والتخويف إلى العلم الذي هو التوحيد، وقيل: ليعلموا أنه واحد[8] إذا عاقبهم فلا دافع سواه «وَلِيَذَّكَّرَ[9]» أي: ليتدبر[10] وليتعظ «أُولُوا الأَلْبَابِ» أي: ذوو العقول.

---

(١) إلى هنا نهاية النسخة ش.
(٢) وهذا على: وعلى هذا، د.
(٣) يوم: +، د.
(٤) أحد: واحد، د.
(٥) للناس: +، و.
(٦) هذا: هذه، د.
(٧) كاف: كافي، د، و.
(٨) أي ليدعوهم هذا . . . أنه واحد: ـ ، د.
(٩) وليذكر: وليتذكروا، د؛ وليذكروا، و.
(١٠) ليتدبر: وليتدبروا، و.

۞ الأحكام

تدل الآية الأولى على فناء الأرض والسماء حيث قال: ﴿غَيْرَ ٱلْأَرْضِ﴾ وذلك لا يصح إلا بعد إثبات الفناء؛ لأن الفناء ضد الأجسام.

ومتى قيل: إذا ثبت إفناؤه فلم وجب أن يكون هناك ضد؟

قلنا: لأنه إذا ثبت أنه لا بد من إفناء الأجسام بهذه الآية وغيرها من الآيات، وثبت أنه لا يتجدد الوجود على ما يقوله النظام، ولأنه لا يبقى ببقاء على ما يقوله أبو القاسم، وأن الإعدام ليس بمقدور على ما زعمه الخياط، وأن ما يبقى لا[1] ينتفى إلا بضد ينافيه ثبت أن هاهنا ضدًا هو الفناء.

ويدل: ﴿لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ﴾ على أن الثواب والعقاب جزاء على[2] الأعمال، خلاف ما تقوله المجبرة.

وتدل على أنه لا يعاقب أحدًا بغير ذنب، وأنه لا يظلم، خلاف قولهم.

ويدل قوله: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ﴾ أن القرآن كاف[3] في جميع ما يحتاج إليه فيأمر الدين، فوجب أن يكون عبادة المرء[4] تعلم القرآن؛ لأن جميع أمور الدين، إما أن يعلم به بنفسه أو بواسطة.

ويدل قوله: ﴿وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ أنه أراد من الجميع أن يعلموا[5] التوحيد، خلاف ما تقوله المجبرة: أنه أراد من النصارى إثبات التثليث، ومن الزنادقة نفي التوحيد[6].

---

(١) لا: ولا، و.
(٢) على: ـ، و.
(٣) كاف: كافي، د، و.
(٤) عبادة المرء: غناية إلى، ض.
(٥) يعملوا: يعلم، د.
(٦) خلاف ما تقوله المحيرة... نفي التوحيد: ـ، و.

وتدل أن العلم بالثواب والعقاب هو اللطف، إلا أنه لا يتم إلا بعد معرفة الله تعالى بتوحيده وبعدله[1]، على ما يقوله أبو هاشم، دون ما يقوله أبو علي، أن نفس المعرفة لطف.

ويدل قوله: «**وليذكر**[2]» أن المعارف مكتسبة، خلاف ما يقوله أصحاب المعارف.

وتدل على أنه أراد من الجميع التدبر، خلاف ما تقوله المجبرة.

وتدل على أن الخطاب يتوجه إلى العقلاء.

وتدل على أن العقل حجة.

(١) بتوحيده وبعدله: وتوحيده وعدله، د.
(٢) وليذكر: وليتذكر، د.


الفهرس